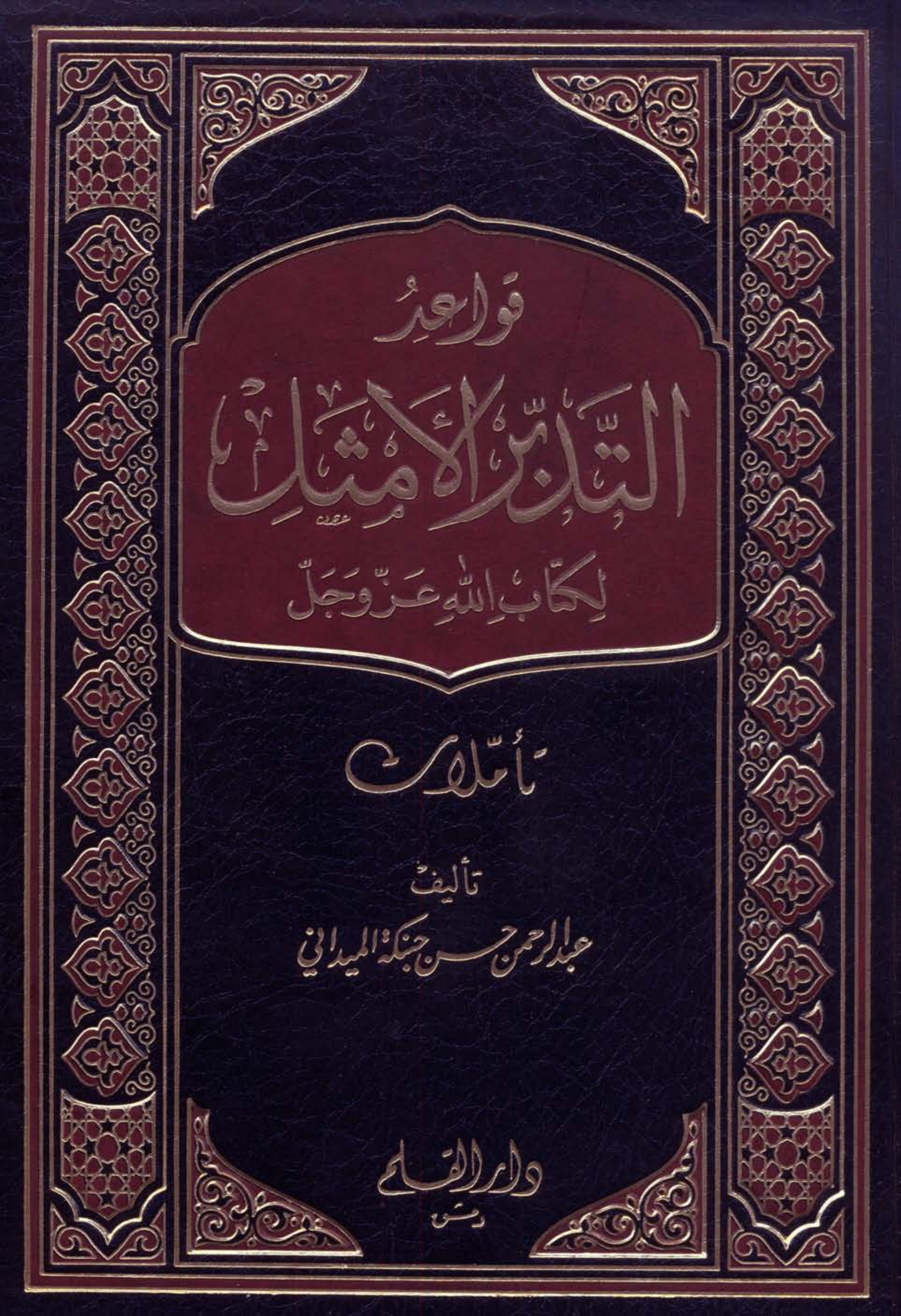

قواعد
التدبر الأمثل
لكتاب الله عز وجل
تأملات
تأليف
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
دار القلم
دمشق

قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل

الطَّبْعَةُ الرَّابِعَةُ
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
الدار الشامية - بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
دار البشير - جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

قواعد

التدبر الأمثل

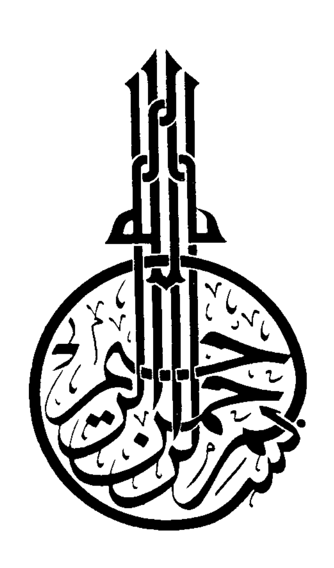
لكتاب الله عز وجل

تأملات

تأليف

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني




بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الثَّانِيَة

الحمد للَّه ربِّ العالمين، الرحمن الرحيم، أحمده بكل محامده، على ما هو له من أسماء وصفات وكمالات لا تتناهى، وعلى تنزُّهه عن كلّ ما لا يليق بربوبيته، وألوهيته، وأزليته، وأبديته، ووحدانيته، وصمدانيته، والحمد له على رحمته التي رحم بها كلّ خلقه، والحمد له بكل محامده على فضله وإكرامه، وجوده وإنعامه وفتحه وإلهامه. ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين.

والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على نبينا محمّد خاتم المرسلين، ورحمة الله للعالمين، وسيّد الأوّلين والآخرين، الذي اصطفاه ربّه فجعله المثل الكامل من خلقه، وبعثه بخاتمة الرسالات، وأنزل عليه القرآن المجيد أعظم الكتب، وأوفاها جميعاً لعناصرِ ومقاصدِ دينه المصطفى للناس أجمعين، وجعله المعجزة الخالدة في مبانيه وفي معانيه، لا تفنىٰ أعاجيبه، ولا يخلَق على كثرة الرّدّ.

وبعد: **فقد نال بفضل الله ومنته هذا الكتاب «قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ» في طبعته الأولى المختصرة الموجزة، استحسان أهل الرأي والفكر، وإعجاب المتخصّصين بالدراسات الشرعية، لا سيما تفسير القرآن الكريم.**

وكان قد رأى بعض أهل العلم أنّ الأمثلة التطبيقيّة من القرآن لقواعده قليلة،

أو تحتاج إلى مزيد، باعتبار أنّها قواعد جديدة الاستخراج، وقد هدت إليها ممارسة تدبّر كتاب الله بعمق وأناة، قرابة ثلث قرن أو أكثر.

كما طلب منّي بعض الفضلاء أن أستخرج قاعدة حول القراءات العشر، فشكرته وسألت الله أن يعينني على استخراجها وإضافتها إلى قواعد هذا الكتاب، وسألت الله أن يجزيه خيراً على نصحه.

وصحّ عندي العزم على متابعة تدوين ما يلهمني الله عزّ وجلّ من ملاحظات، خلال تدبّري لهذا الكتاب العظيم، الذي لا تفنى أعاجيبه، ولا يَخْلَق على كثرة الرّدّ، وتجميع ما أراه منها صالحاً لأن يُضَمّ بعضه إلى بعض ليكون قاعدة، فأضيفها إلى القواعد التي قدّمتها في الطبعة الأولى من هذا الكتاب، وعلى متابعة تجميع الأمثلة التي تؤيّد القاعدة المستخرجة، حتّى تَجَمَّع لديّ هذا الكمّ الذي أقدّمه لطلّاب العلم في هذه الطبعة الثانية، الحاوية على مزيد من القواعد، ووفرة الأمثلة التطبيقيّة لها.

وقد اعتمدت في بعضها على السَّبْر الشامل لآيات القرآن الكريم، إذْ تيسّر لي ذلك بمعونة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لخادم القرآن والسنّة بصدقٍ وإخلاصٍ وصبرٍ، الأستاذ «فؤاد عبد الباقي» رحمه الله رحمة واسعة.

ولو أنه كان قد أكمل هذا العمل الجليل بجمع ما أهمل جمعه من بعض الحروف مثل: «بل» و«ثمّ» و«الفاء» و«لن» و«لم» و«لمّا» و«اللّام» و«الباء» و«إلى» و«من» و«في» ونحوها. وكذلك أسماء الإشارة، وأسماء الموصول، والضمائر، ونحو ذلك من كلمات يُهِمُّ الباحثين سبْرُها، والنظر التأمّليّ العميق في دلالاتها، بغية تحرير معانيها، وتصنيف الأشباه والنظائر في جداول مستقصية لكل ما ورد في القرآن، فذلك أحرىٰ أن يهدي إلى الفهم الصحيح أو الأقرب إلى الصواب إن شاء الله، واعتماد الرأي الأرجح من أقوال علماء العربية والمفسرين، حول الكلمة واستعمالاتها في القرآن المجيد، فقد تبيَّن لي أنّ السَّبْر الشامل يقدّم

رؤىٰ أكثر وضوحاً وبصيرةً للمتدبّر، على أنّه هو المنهج العلميّ الأمثل لمعرفة حقائق الأشياء، التي لا تخضع للقواعد العقلية الكليّة المجرّدة، المتّفق عليها عند أهل العقل والمنطق التجريدي والرياضي.

وعسَىٰ أن يُلْهِمَ الله ذا همّة وصبر، فيُتِمّ للباحثين هذا العمل، ولو بمعجم منفصل، يكون تتمّة لما وضعه الأستاذ «فؤاد عبد الباقي» الذي أكمل بعمله أعمال الذين سبقوه، فينال عند الله أجر خدمته لكتابه، وينال من الباحثين الشكر والتقدير والدعاء بأن يجزيه الله خير الجزاء وأحسنه في الدنيا والآخرة.

وإذْ أقدّم للقرّاء هذه القواعد الموسعة في هذه الطبعة الثانية، فإنّي أسأل الله العليّ القدير أن ينفع بها، ويجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن يكتب لي عنده منزلاً مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقاً.

وأرجو من الشيوخ والأساتذة المتخصّصين والإخوة والأبناء أن يتفضّلوا عليّ بما يجدونه من ملاحظات أو انتقادات. وإنّني ابتداءً أشكرهم على اهتمامهم، وأسأل الله عزّ وجلّ أن يجزيهم أعظم الأجر على نُصحهم لكتاب الله، بما يُهدونني من ملاحظات أو تصويبات أو إضافات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

مكة المكرمة في ١٤٠٨/٤/٢١ هجرية

و١٢/١٢/١٩٨٧ميلادية

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الأولى

الحمد لله ملهم الصواب، والصلاة والسلام على رسوله محمد الذي أنزل عليه الكتاب، وآتاه من لدنه الحكمة وفصل الخطاب، وكلّفه أن يبيّن للناس ما نزّل إليهم.

وبعد: فإنّ تدبّر آيات الله في كتابه أشرف الأعمال العلميّة وأجلّها، وأوضحها سبيلاً لمعرفة أصول دين الله ومراضيه وأدلُّها.

وقد أنزل الله علينا هذا الكتاب لنتدبّر آياته، لا لنهجره، أو نتخذه مجرد ترانيم، أو نتخذ منه تمائم نتعلّقها.

وفي بيان واجب التدبر أنزل الله على رسوله في مكة قوله في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

فهذا الكتاب قد أنزله الله إلى رسوله محمد ﷺ، وهو مبارك لا تنضب فيوض معانيه، ولكنّ هذه المعاني المباركة الثرّة لا يقتبس منها إلاّ الذين يتدبّرون آياته. فالغاية من إنزاله أن يتدبّر الناس آياته، ولكن ليس الغرض من التدبّر مجرّد الترف العلمي، والافتخار بتحصيل المعرفة، والتوصل إلى كشف المعاني للتعالي بمعرفتها واكتشافها، إنّما وراء الفهم غرض التذكّر والعظة، والعمل بموجب العلم. وهذا

التذكّر المقصود لا يحظى به إلاَّ أولو الألباب، وهم أهل العقول الحصيفة، والأذهان النظيفة، والقلوب الشريفة.

والتدبّر عند أهل اللّغة هو التفكر. ولكنّ مادّة الكلمة تدور حول أواخر الأمور وعواقبها وأدبارها فالتدبّر هو النظر في عواقب الأمور وما تؤول إليه، ومن هذا نستطيع أن نفهم أنّ التدبّر هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة.

ثم أنزل الله على رسوله في مكة قوله في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ففي قوله تعالى: ﴿أفلم يدّبّروا القول؟﴾ تأنيب شديد للذين أعرضوا عن القرآن، وهجروه، ولم يعبأوا به ولا بما جاء فيه، فلم يدّبّروا القول الذي أنزله الله ليفهموا دلالاته، حتى يهتدوا بهديها، ويعملوا بما جاء فيها.

ثم أنزل الله على رسوله في المدينة قوله في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

لقد ورد هذا النصّ في معرض الحديث عن المنافقين، وهم الذين كانوا يتظاهرون بالإسلام، ويعلنون الطاعة، ويحضرون مجالس الرسول ﷺ، ولكن قلوبهم غير مؤمنة، وأفكارهم منصرفة معرضة عن كلّ ما يبيّن لهم، ويبيتون مع ذلك المخالفة والمعصية.

هؤلاء قد وضع الله تبارك وتعالى بين أيديهم ما يدلّهم على الحق، ويهديهم سواء السبيل، ويقنعهم، لو أرادوا لأنفسهم النجاة، والسعادة الحقة، وهي السعادة

الأبدية، فقال تعالى: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن﴾ ولم يواجههم بهذا الخطاب إعراضاً عنهم في مقابل إعراضهم عن تدبّر كتابه، وتفهم آياته، وفي الاستفهام الإنكاري هذا تلويم لهم على ترك التدبر، ولكنه تلويم ليس من الدرجة القصوى، فلعلّهم يثوبون إلى رشدهم.

إنَّ هذا التدبّر الذي يقصد منه البحث عن الحقيقة، والمقرون بالإخلاص في الوصول إليها سوف يكشف لذوي الاستعداد منهم أنّ هذا القرآن حقٌّ كلّه، وأنّه منزّل من عند الله عز وجل، ما في ذلك ريب، لأنه لو كان من عند غير الله لاشتمل على اختلاف كثير مع الواقع والحقيقة ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

ثم أنزل الله على رسوله في معرض الحديث عن المنافقين أيضاً قوله في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ (٢٤)﴾.

فارتقى البيان بالمنافقين المعرضين عن تدبّر القرآن من دعوتهم إلى التدبر، مع تلويمهم على تركه بأسلوب الاستفهام الإنكاري، إلى توبيخهم على ترك التدبّر، وتأنيبهم بأنّ قلوبهم مقفلة، فهي لا تسمح بدخول هداية المعرفة إليها.

* * *

إنَّ تدبّر آيات كتاب الله ذات المعاني المباركة التي لا ينضب معينها، يحتاج إلى بصيرة منيرة وفهم ثاقب.

ويغترف من بحر كتاب الله مغترفون كثيرون، وكلّ منهم يغترف على مقدار وعائه، وقد يصيب مصيبون في فهم دلالات القرآن، وقد يخطىء مخطئون، وقد يتجنّى مغرضون.

وكان للمفسرين مناهج في التفسير، وقد توصّل كلّ منهم إلى قواعد وضحت

له في فكره، فكانت هادية له في تفسيره، سواءً أذكر هذه القواعد وأبانها منهجاً له، أو لم يذكرها، لكنّها كانت ماثلة في تصوّره، والباحث يلاحظ ذلك من خلال ما قدّم في تفسيره من فهم في كتاب الله. وتابع كثير منهم بعضهم بعضاً، واعتنى بعضهم بجمع الأقوال والآراء، واعتنى بعضهم بالمتن اللغوي، وبعضهم بالمسائل الفلسفية، وبعضهم بالظواهر الكونية وما في القرآن من إشارات إليها.

وخلال ممارستي الطويلة للتدبّر في القرآن العظيم، ومطالعتي لتفاسير المفسّرين على اختلاف مناهجهم، تكشّفت لي جملة قواعد هادية لمن أراد أن يتدبّر كلام الله بصورة فُضلى، فأنا أكتبها لمن شاء أن ينتفع بها، فقد وجدت بالممارسة أنها ذات نفع عظيم للمتدبر وتصلح منهجاً يحتذيه المتدبّرون للقرآن.

وما أظن أنني استقصيت كلّ القواعد التي يمكن التوصل إليها، إلاّ أن ما توصلت إليه ــ بفضل الله وإلهامه ــ يعتبر مهماً جدّاً، وينبغي للمتدبر ملاحظته.

وفي هذه الرسالة كتبت هذه القواعد، وشرحتها بالأمثلة، وقد أكون في بعضها مسبوقاً إلى كتابته أو الإشارة إليه، وقد يكون بعض المفسّرين قد وضع في تصوّره مراعاة بعضها، إلاّ أنني لم أجد من راعاها كلّها مراعاة تامّة في كلّ ما تدبّر من كلام الله، كما أنّ بعض هذه القواعد لم يحظ بعناية أحد من المفسرين.

وأمام الباحثين المتدبّرين لكتاب الله طريق طويلة، قد لا يصلون إلى غايتها مهما بذلوا من جهد وكدّ، إلاّ أنهم ــ من دون شكّ ــ سيكتشفون بالبحث كنوزاً عظيمةً من كنوز هذا التنزيل الرباني العظيم.

والله أسأل أن ينفع بهذه الرسالة، وأن يجعلها هادية للمتدبرين، إنه سميع مجيب.

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

مكة المكرمة في ٢ رمضان ١٣٩٩هجرية
و ٢٦ تموز ١٩٧٩ ميلادية

القـاعدة الأولى

«حول ارتباط الجملة القرآنية بموضوع السورة وارتباطها الموضوعي بما تفرق في القرآن المجيد»

على متدبّر كتـاب الله أن يبحث عن ارتباط المعنى المستفـاد من جملة قرآنيـة بما تفرق في القرآن من معانٍ تجتمع معه في موضوع واحد، وبمعاني الآية التي هي منها، والسورة التي هي فيها.

كـلّ معنى جزئي مستفـاد من جملة قرآنيـة له ارتبـاط بما تفـرق في القرآن من معانٍ تلتقي معه في مـوضوع واحـد، وله ارتبـاط آخر وثيق بمعـاني الجمل الأخـرى التي اشتملت عليها الآية، كما أنَّ الآية ذات ارتباط وثيق بوحدة موضوع السورة.

١ ــ **فالارتباط الأول** ــ وهو ارتباط معنى الجملة القرآنية بما تفرّق في القرآن من معـانٍ تجتمع معـه في موضـوع واحد ــ يتـطلّب من المتدبّـر للنصّ القـرآني أن يتتبّـع ما في القرآن من نصوص ذات دلالات تشترك ولو بوجه من الوجوه مع المعنى الــذي يبحث عنــه في مــوضــوع واحــد، ليكتشف مــوقــع هــذا المعـنى مـن جملة الموضوع.

فإمَّا أن يكتشف أنّ هذا المعنى الجزئي يمـلأ فراغ حبّـة في عقد المـوضوع، حتى يتكوّن منه ومن سائر المعاني الموزّعة في القرآن حول ذلك الموضوع مـوضوع تامّ كامل العناصر.

وإمَّا أن يكتشف أنّه معنى مكرّر إلاَّ أنّ المناسبة استدعت تكـريره في مـوضوع السورة، لأنه ذو ارتباط بجانب من جوانبه بالمعاني الأخـرى التي دلّت عليها الآيـة،

أو بمعانٍ أخرى جاءت في السورة، أو بوحدة موضوع السورة، مع ملاحظة أنّ الغرض التربوي أو التعليمي اقتضى إيراده في الموضوع الذي تعالجه الآية أو تعالجه السورة.

وعلى المتدبّر أن يبحث ويتأمّل حتى يكتشف المناسبة، أو الغرض التعليمي أو التربوي ضمن المنهج التعليمي القرآني العامّ.

٢ ـ **والارتباط الثاني** ـ وهو ارتباط معنى الجملة القرآنية بمعاني سائر الجمل في الآية وفي السورة ـ يتطلب من المتدبّر أن يبحث عن النسق الذي يكشف عن التلاحم أو التناسب بين معاني جمل الآية القرآنية ووحدة موضوع السورة.

* * *

إنَّ مثل الجُمل القرآنية وما تحمل من معانٍ ودلالات كمثل حبّات نفيسات الجوهر، نظمت في عقد متكامل تمثله السورة القرآنية. أو نُضّدت في قطعة نادرة مصوغة أبدع صياغة، من قطع الحليّ، مع التناسق التامّ والبديع.

ويلاحظ أنّ حبّات العقد أو جواهر قطعة الحليّ ليس من الضروري أن تكون كلّها من صنف واحد كاللّؤلؤ مثلاً، إلاّ أن الناظم أو المنضّد لها قد جعل لها منطلقاً واحداً أو مركزاً ترجع إليه.

والتوزيع في الحبّات أو الجواهر النفيسة توزيع فني بديع. والسلك الناظم لها أو الأرضية الجامعة لها أمرٌ يُدْرَك بالفكر الثاقب، وقد لا يلاحظ في اللفظ ما يدلّ عليه. وذلك كما ندرك التناسق والترابط في الأشكال الهندسية التي تنضّد على وفقها مجموعة من أنفس الحجارة الكريمة في قطعة من الحليّ، نادرة الصياغة، بديعة التنضيد.

ويدلّ على التناسق والترابط والأشكال الهندسية النظام المحكم، والألوان، والطيوف، والشكل الهندسي لكلّ قطعة، والأشعّة الضوئية التي تبثّها الحجارة

الكريمة، والتوزيع المتناسق بشكل عامّ، ولو كان بعض الحجارة مفرداً لم يتكرّر من جنسه حجر آخر، ولو لم يظهر من الأرضية الحاملة لها شيء، حتى ولو كانت موزّعة في فضاء، أو فيما لا لون له. إنّ هذه كلها لتوحي بالترابط التامّ.

وعلى المتدبّر العميق التفكير أن يكتشف ويحلّل ويبرز عناصر الترابط، ويضع أسهم التناسق والترابط بين هذه النفائس الموزّعة أبدع توزيع.

وكما نكتشف أشكالاً هندسية لا تحصى لمقطع من النجوم في رقعة من السماء، كذلك خطوط الترابط التي يستطيع المتدبّر العميق التفكير أن يلاحظها ذهناً بين الجمل القرآنية، داخل كل آية وكلّ سورة من سور القرآن.

وإهمال تدبّر هذا الأمر العظيم، وعدم وضعه موضع العناية التامة والملاحظة المستمرة، يفوّت على المتدبّر لكلام الله خيراً كثيراً، ومعاني جمّة، ويخفي عنه وجوه إعجازٍ جليلة، وقد يجنح به عن فهم المراد من الجملة أو الآية التي يتدبّرها.

وقد يكون للجملة القرآنية التي تحمل معنىً عامّاً أو خاصاً عدد من الارتباطات من عدّة جوانب منها، بعدد من الجمل القرآنية في السورة، وبعدد آخر من الجمل التي تشترك معها في موضوع عام عبر القرآن كلّه.

فمن قواعد التدبّر الأمثل تدبّر هذه الارتباطات المختلفة، سواءٌ أظهر فيها الرابط لفظاً أو لم يظهر.

ويتأكد على المتدبّر أن يكتشف الروابط الفكرية بين الجمل المقترنة ولو كان كلّ منها يتحدّث عن حقيقة من الحقائق منفصلة في الظاهر عن الحقيقة الأخرى التي جاءت مقترنة بها في اللفظ. مثال ذلك قول الله تعالى في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ ﴿٥﴾﴾.

إنَّ الاقتران بين ظاهرة الليل والنهار، وبين تسخير الشمس والقمر، يدلّنا على أنَّ نوعاً من الترابط موجود في الواقع.

والبحث العلمي في الكون قد أثبت الترابط بين الشمس والقمر والأرض والجريان، ومعلوم أنَّ الجريان فيه حركة دوران الشيء حول نفسه، ومسير الشيء في مَسيرٍ. فاللّيل والنهار ظاهرتان لنظام سير الأرض بالنسبة إلى الشمس.

* * *

ولا يخفى ارتباط الجملة أو الجمل القرآنية بسائر عناصر النصّ التي هي جزء منه إلاَّ في نحو «التربية المعترضة» كتربية الله لرسوله بأن لا يعجل بالقرآن. فقد جاءت هذه التربية معترضة في سورة (القيامة) كما يربي المعلم الطالب ضمن درس من العلم فينهاه أو يأمره، حول واجب من واجبات المتعلّم، أو طريقة من طرق التعلّم، ثمّ يستمرّ معه في متابعة درسه الذي يلقيه عليه.

ويحسن هذا الاعتراض حينما يراد تحقيق غرض تربوي به، أو حينما تدعو الحكمة التربويّة أن تكون التربية عند حدوث ما ينافي المطلوب فيها.

والجملة الاعتراضية التربوية الواردة في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول): قد بقيت قرآناً يتلى، لتكون مثالاً للتربية المعترضة ضمن دروس العلم.

ولذلك لا نجد مناسبة فكرية بين قول الله تعالى لرسوله في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾.

وبين ما سبقه من السورة، وما جاء بعده، لكنّنا نجد التناسب والترابط تامَّين بين كل عناصر السورة ومعانيها، باستثناء هذه المعترضة.

وحينما نكتشف الغرض التربوي تتضح لنا روعـة البيان القـرآني، الذي أثبت لنا هذه التـربية، خـلال السورة التي حـدثت فيها حـادثة التعجّـل من الرسـول ﷺ، وتحريك لسانه بالقرآن على سبيل المسابقة للوحي بما أعطاه الله من نور في فؤاده.

وقد امتثل الرسول ﷺ فالتزم بمـا أمره الله بـه، ولكن يبدو أنـه صار إذا نـزلت عليه جملة آيات ذات طول يحاول تلاوتها ليحفظها ويتعجّل بذلك من قبل أن ينتهي الـوحي من تنـزيـل النجم الذي يتنـزّل عليه بـه، فأنـزل الله عليه في سـورة «طـه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول»:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

ولم يأت هذا النصّ معترضاً في سورة (طـه)، بل جاء محكم الارتباط بعناصر السورة، وسورة طـه مكية قد نزلت بعد سورة (القيامة) بثلاث عشرة سورة.

* * *

إنَّ التزام هذه القاعدة من قواعد التدبّر لكتاب الله، يقدّم للمتدبر نفعاً عظيماً، ومفاهيم جليلة.

وفي بحـوث مختلفـة في العقيـدة والأخـلاق والعبـادات وغيـر ذلـك من مـوضوعـات، حاولت مـا تيسّر لي التـزام هذه القـاعدة، فمن أراد أن ينـظر في هذه البحوث ليأخذ منها أمثلة تطبيقية، فسيجد فيها أمثلة كـافية لاكتسـاب القناعـة، حتى يتخذ هذه القاعدة منهجاً له في بحوثه القرآنية.

وبعض هذه المكتوبات التي كتبتها منشور في كتب، والآخر لم ينشر بعد.

ألهمنا الله جميعاً السداد والصواب، وفتـح لنا أبـواب فهم كتابـه المجيد، إنـه سميـع مجيب.

* * *

الأمـــثـــلـــة

المثال الأول:

أمر الله عزّ وجلّ رسوله بما أنـزل عليه في العهـد المكيّ في سورة (الأنعـام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نـزول) بأن يُعْـرِض عن الذين يخـوضـون في آيـات الله بمنكـر من القول أو استهزاء أو انتقـاد أو نحو ذلـك، حتى يخوضـوا في حديث غيـره، ولو كـان غرضه دعوتهم إلى سبيل ربّه، فقال له:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

ولمَّا كان هٰـذَا الْخِطاب مـوجَّهاً للرّسـول ﷺ ولكُلّ الّـذين اتّبعوه، كشـأن كلّ خطابٍ موجَّه للرسول إلَّا ما دَلّ الدليل على أنّه خـاصّ بالـرسول فقط، فـإنّ التَّلْويم والمؤاخذة والمحاسبة تلاحِقُ كـلَّ المسلمين بعد نـزول هذا النصّ، إذا هم خـالفوا مضمونه فلم يُعْـرِضُوا عن الـذين يخوضـون في آيات الله من الكـافرين أو المنـافقين الذين مردوا على النفاق.

ففي العهـد المدني صـار جماعـة من المسلمين في الـظاهـر، المنـافقين في الحقيقة، يُوالُون طائفة من الكافرين، فقد كانت لهم صداقات ومودّات مـع اليهود، وكـانوا يسمعـون منهم الطعن في آيـات الله، وفي رسول الله ﷺ، دون أن ينتصـروا للحقّ، أو يفارقوا مجالس هؤلاء الظالمين الذين يخوضـون في آيات الله، ويـطعنون في رسـول الله ﷺ، فأنـزل اللهعزّ وجـلّ في سورة (النسـاء) المدنيـة، وهي السـورة الثانية والتسعون بحسب ترتيب النُّزُول، مذكّراً لهم بآيـة الأنعام المكيـة، ومؤنّباً لهم على عملهم هـذا، ومبيّناً لهم أنَّ عملهم هـذا يدمغهم بـالنفاق، وأنّهم يكـونـون إذاً مثلهم، وأنّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً، فقال تعالى فيها:

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ

ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

فجاءت الإحالة في هذا النصّ على آية (الأنعام) المكيّة التي سبق ذكرها، لبيان الترابط الفكري بين موضوع النَّصَّيْن، ووجَّهَ هذا النصُّ المؤاخذةَ والتأنيب للمخالفين على مخالفتهم لمضمون النصّ السابق، ومضمونُ النصّ السابق هو ما جاء منصوصاً عليه فيه صراحةً، وما يُفْهم منه من بَاب أولى، وهو اتّخاذ الكافرين أولياء، وزاد هذا النّص الدَّمْغ للمخالفين بالنفاق، وشرَحَ المرادَ من الخوضِ في آيات الله المذكور في آية الأنعام، بقوله في النصّ الذي أنزل في (النساء): ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيات اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزأُ بِهَا﴾. وأضاف أنَّهم إذا قَعَدُوا وهم يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ إذا مثلهم فقال لهم: ﴿فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حديثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُمْ﴾.

وهكذا تشابكت الجمل من النَّصّيْنِ في السورَتَيْن بنسيج متكامل، مع ما لكلِّ نصٍّ منهما من ترابُط بالسورة التي هو منها.

على أنَّ هذا كشْفٌ لبعض الترابط، إذ شبكة الترابط في الآيات القرآنية شيءٌ لا يستطيع البشر استيعابَه.

* * *

المثال الثاني:

من الموضوعات القرآنية موضوع توجيه المؤمنين لقطع علائق قلوبهم ونفوسهم بالاعتزاز بغير الله وما يأمر به الله أو يأذن به، وإعلامهم بأن العزّة (أي: القوة الغالبة) كلّها هي لله وحده، وهذا من فروع الإيمان بالله، ويتضمّن هذا أَنَّ الله هو الذي يُعِزُّ بحكمته من يشاء، ويُذِلُّ بحكمته من يشاء.

ويتَّصل بهذه الحقيقـة أنّ من اعتزّ بـالله، وانتصر لـدينه، والتـزم ما أمـر الله به واجْتَنَبَ مَا نَهَىٰ الله عنه، واتّخذ الأسباب الكونيّة التي أمر الله بها، واتّخذ الأسباب الدينيّة، أعطاه الله العزّة، ويسَّرَ له أسبابَها تفضُّلاً منه على أوليائه في الحياة الدنيا.

ويتّصـل بهذه الحقيقـة أيضـاً أنّ مـا يُصيبُ المؤمنين من مصـائب على أيـدي أعـداء الله هـو من مُجْـرَيَـاتِ سُنَنِ الله في كـونـه، ومن سُنَنِ ابتـلاء الله لعبـاده[1]، فالمؤمنون الذين لم تصل قواهم الماديّة إلى المستوىٰ الذي جعله الله مكافئاً لمقابلـة أعـدائهم الكـافـرين، سيتعـرّضـون لـلاضـطهـاد والتعـذيب على أيـدي أعـدائهم، وسيصـابون بـالهزيمـة والانكسار إذا واجهـوهم في معـارك حـربيّـة، ضمن سنن الله الكـونية، لكنّ الله عـزّ وجلّ في هـذه الحالـة لا يأذن لقـادتهم بـأن يـزجُّـوا بهم في معارك قتالية.

ويتصـل بهذه الحقيقـة أمورٌ أخـرى كثيرة من بحـوث الجهاد ووجـوه النَّصْـر، وسنن الله السببية.

ففي جزئيةٍ من جزئيات هذا الموضوع الكبير الذي يمكن أن تجمع أطرافه في كتاب ضخم، وهي جزئيّة توجيـه المؤمنين لقطع عـلائق قلوبهم ونفوسهم بـالاعتزاز بغير الله، جاءت ستة نصوص قـرآنية، في ستّ سـور، وهي نصوص متـرابطة فيمـا بينها ترابطاً فكريّاً تامّاً، مع ارتباط كلّ نصّ منها بموضوع السورة التي هو فيها.

وفيما يلي بيان هذه النصوص مرتبة بحسب ترتيب نزول سُوَرِها:

أَوَّلاً: في العهد المكي:

النص الأول:

أول مـا نزل من ذلـك في العهد المكي، قـول الله عزّ وجـلّ في سورة (فـاطر ٣٥) وهي السورة الثالثة والأربعون بحسب ترتيب النزول:

---

(١) كـما بيّنه الله عـزّ وجلّ في سـورة (محمد ٤٧) في أواسط العهـد المدني بقـوله: ﴿وَلَـوْ يَشَـاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ . . . (٤)﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

العِزَّةَ: هي القوة الغالبة. فمن كان يريد العزة الحقيقيَّةَ الخالدة فليؤمن بالله وليطلُبْهَا منه، فلِلَّه العزة جميعاً.

يَبُور: أي: يذهب باطلاً في نهاية الأمر فَيُحْبِطُه الله.

فجملة: «من كان يريد العزّة فللَّه العزة جميعاً» مرتبطة بعناصر آيات سورة (فاطر) من وجهين:

● وجهٍ يعالج حالة المشركين الذين يطلُبُون القوة الغالبة عند شركائهم، بعبادتها، وتقريب القرابين لها.

● ووجهٍ يُعَالجُ قلوبَ ونفوسَ المؤمنينَ المضطهدينَ على أيدي عُتَاةِ مشركي مكة، إذ قد تُحَدِّثُ بعضَهُمْ نفوسُهم بأن يَتَقَوَّوْا ببعضِ كُبَراء المشركين، فيُرْضُوهُمْ بالتَّنَازُلِ عن شيءٍ من دينهم.

وقد بادر الله المؤمنين وهُمْ في هٰذا الوضع الذي قد تتعرّض معه نفوس بعض الضعفاء المضَّطهدين لأحاديث وخواطر تتساءل: لماذا لا نَعْتَزُّ لحماية أنفسنا من اضطهاد الجبابرة العتاة من أئمة الشرك والضلال بغير الله ورسوله والمؤمنين، فأنزل الله عزّ وجلّ هذا البيان، وجعله على صيغة مبدأ عامّ من مبادىء فُرُوع الإيمان:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّة جميعاً﴾.

أي: فهو الذي يُمِدُّ بها عبادَه، مُؤْمِنيهم وكافريهم بحسب سنّته الكونية، وبحسب حكمته، وهو الذي يمنحها للمؤمنين به ضِدَّ خصومهم وأعدائهم، إذَا علم أنّهم قد صاروا أهلاً لاحتلال مركز القوة الغالبة التي تقيم شرعَ الله في الأرض، وَتَحْكُمُ بالعدل.

وأَبَانَ الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية أنّ الذين يُدَبِّرُونَ في الخفاء تدبيرات سيِّئاتٍ

لمقاومة الدعوة الرّبانيَّةِ، واضطهاد المؤمنين، لهم عذاب شديدٌ مُعَدٌّ لهم. أي: إذا لم يتوبوا، بدليل نصوص أخرى.

أما مكرهم السيئات: أي: تدابيراتُهم الخفيَّاتُ السّيئَات، فعمل باطل، يحبطه الله عزّ وجلّ، فيجعلُ عاقبةَ أمر أصحابِهِ الخيبةَ والخذلان.

النصّ الثاني:

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في العهد المكي أيضاً في سورة (مريم ١٩) وهي السورة الرابعة والأربعون بحسب ترتيب النزول، قوله بشأن المشركين:

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾.

فجاء هذا النصّ بياناً لحال المشركين الذين يَتّخِذونَ من دون الله آلهة، ليتقَوَّوْا معتزّين بهم في تحقيق مصالحهم الدنيوية، وفي نصرتهم إيّاهم على أعدائهم، وفي شفاعتهم لهم عند الله.

وأبان الله عزّ وجلّ فيه أنّ مَنْ يعبدونَهُمْ من الشركاء من الإنس أو الجنّ أو الملائكة سيكونُون عليهم ضدّاً، ولا يكونون لهم أنصاراً ولا أولياء ولا شفعاء.

وهذا النصّ ظاهر الارتباط بسوابقه من سورة (مريم ١٩).

النصّ الثالث:

ثم أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله في العهد المكيّ أيضاً في سورة (يونس ١٠) وهي السورة الحادية والخمسون بحسب ترتيب النزول، مطمئناً له تُجَاه أقوال الكافرين الإيذائية، والإعلامية المضادّة، والكيديّة، قوله:

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾.

أي: هو السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم، وبما يدبّرون من مكايد، وما يُعِدُّون من قُوىً وخطط لمنع دين الله من الظهور.

وبما أنّ القوّة الغالبة كُلَّها هي لله عزّ وجلّ، فإنّه سبحانه لا يُمكّنُهُمْ أخيراً من الوصول إلى الانتصار على أوليائه، أي: ما استقام أولياؤه على منهاجه، وأخلصوا وصدقوا، وجاهدوا في الله حقّ جهاده، بدليل نصوص أخرى أبانت هذه الشروط.

وقد تضمَّنت هذه الآية تطمين الرسول، وتهدئَةَ قلبه، وتطمين الذين آمنوا معه، وأنَّ النصر سيكون لهم على أهل الكفر.

وتضمّنت أيضاً تلويحاً للكافرين بأن الخيبة والخذلان والهزائم وعقوباتِ اللَّهِ المعجّلةَ والمؤجلةَ أمورٌ ستنزل بهم ما لم يتوبوا إلى الله، ويستغفروه، ويتبعوا رَسُولَهُ، ويعملوا بكتابه.

وهذا النصّ ظاهر الارتباط بسوابقه من سورة (يونس) فقد جاء فيها بيان اتّهام الكافرين للرسول ﷺ بأنّه افترى القرآن، الآية (٣٨).

النصّ الرابع:

ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله في العهد المكّيّ أيضاً في سورة (الصَّافَّات ٣٧) وهي السورة السادسة والخمسون بحسب ترتيب النزول، بياناً اشتمل على تحديد وظيفته في المرحلة التي بلغها عند نزوله، مع أئمة مشركي مكة، بعد أن استنفذ نَحْوَهُمْ كلَّ وسائل الإقناع والمعالجة، لهدايتهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، فقالَ الله تَعالى فيها:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

فَطَمْأَنَ الله في هذا النصّ رسوله، وأبان له بصريح العبارة أنّه منصور لا محالة، فليتَوَلَّ عنهم، وليتوجَّهْ لمعالجة غيرهم، ولْيَكُنْ بَصَرُهُ ملاحظاً كُلَّ

تَحرُّكَاتِهِمْ، ومراقباً كلّ ما يدبّرون ويُخَطِّطُون ويُعِدُّون من قُوىً مكراً وكيداً، بغية قَمْعِ هذا الدين عن الظهور، وإسكات صوتِ الحقّ، وتفريق صفوف المؤمنينَ، وتمزيق جماعتهم.

وأبانَ تعالى أَنَّ إصرار هؤلاء على الكفر، وكيدَهُمْ الدائمَ لدين الله ولرسوله وللمؤمنين، هو بمثابة من يستعجلُ لنفسه عذاب الله، بدليل: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾.

وأكّدَ الله لرسوله أن يَتَوَلّىٰ عن دعوتهم، ومعالجتهم، ومصارعتهم، حتى حين، بعد أَنْ ظَهَرَ منهم هذا العناد الذي لم تُجْدِ معه كُلُّ وسائل العلاج الإِصْلَاحِيَّة.

وألزَمَهُ بِأَنْ يراقبَ كُلَّ تحركاتهم وتحركات غيرهم الظاهرة والخفيّة فقال له: ﴿وأبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ وفي هذا إلماح لمخطَّطِ مرحلةٍ جديدة ستكون فيها مَعَارِكُ مُسَلحة.

وأخيراً أبَانَ الله لرسوله في هذا النصّ تنزُّهَهُ سبحانه عمَّا يصفون، أي: عمَّا يذْكرون من أنّهم سيكونون هم المنتصرين، وأنَّ محمَّداً والذين آمنوا معه سيُقمعون ويُغْلَبُون ويُشَتَّتُون، فهو سبحانه رَبُّ العزَّة (أي: هو المُمِدُّ بها) ولن تقضي حكمتُه بإبقاء القوة الغالبة في أيدي أعدائه ضدّ أوليائه.

وقد عرض الله مقالة انتصارهم في سورة (القمر ٥٤) السورة السابعة والثلاثين بحسب ترتيب نزول الآيات فقال عزّ وجل:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

فردَّ الله عليهم فيها بقوله:

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾.

ثانياً: في العهد المدني:

النصّ الخامس:

لقد توقف البيان الصريح عن معالجة الموضوع بعد النصّ الرابع، حتى جاء العهد المدني، وجاء نصر الله لرسوله وللمؤمنين معه في بدر وغيرها، ونبتت نابتة النفاق في أصدقاء اليهود من أهل يثرب، فأسلموا نفاقاً، وكانت لهم صلاتٌ بأوليائهم من اليهود والمشركين، خوفاً على أنفسهم من احتمالات المستقبل، التي قد تأتي في تصوُّرِهم بالهزائم للمسلمين، فصاروا يوثقون صِلاتهم بالذين كَفَروا، يبتغون عندهم العزّة، ويقول قائلُهُمْ: إنّنا نخشَىٰ الدوائر، فأنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (النساء ٤) وهي السورة الثانية والتسعون بحسب ترتيب النزول:

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾.

النصّ السادس:

حصلت مشاجرة كلامية في غزوة بني المصطلق بين أجير غفاري لعمر بن الخطاب، وحليف جُهَنيّ للأنصار، ثم تضاربا، واستنصر كلٌّ منهما بأوليائه، فبلغت الحادثة رئيس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال:

(أوَقَدْ فعَلُوها؟ قَدْ نَافرونَا[1] وكَاثَرُونا في بلادنَا، واللّهِ مَا أُعدُّنا وَجَلَابِيب قريش إلّا كَما قَالَ الأوَّلُ: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، أَمَا وَاللّهَ لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المدينة لَيُخْرِجنَّ الأعزّ منها الأذلّ).

ثم أقبل عَلى من حَضَرَهُ من قومه الخزرجيِّين فقال لهم:

(هـذا مَا فَعَلْتُم بَأنفسكم، أحلَلْتُموهُمْ بلادَكُم، وقاسمتموهم أموالكم، أَمَا والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحوّلُوا إلى غير داركم).

(١) نافرونا: أي: غلبونا على أرضنا بنفرهم وأعدادهم.

فسمع هذا الكلام «زَيْدُ بنُ أرقم» وهو غلام حدث من قوم ابْنِ سلول، فنقل ما سمع إلى رسول الله ﷺ، فأسرع الرسول في الارتحال، في وقت لم يكن يرتحل فيه، وتصرَّفَ بعقل وحكمة وعفو.

وأنزل الله بمناسبة هذه الحادثة قوله في سورة (المنافقون ٦٣) وهي السورة الرابعة بعد المئة:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

فأبان الله في هذا النصّ أنّ الْعِزَّة الّتي هي لله وحْدَهُ يجعلُ منها في الأرض لرسوله وللمؤمنين، ولكنّ ذلك مقيَّد بالشروط المبيّنة في النصوص الأخرى.

وهكذا ترابطت النصوص في القرآن كلّه حول هذه الجزئيّة ترابطاً تكاملياً، مع ارْتباطِ كلِّ نصّ منها بعناصر السورة التي هو منها، والحمد لله على توفيقه.

• • •

القاعدة الثانية

«حول وحدة موضوع السورة القرآنية»

على متدبّر كتاب الله أن يضع نصب عينيه ضمن أهداف بحثه وتدبّره التوصل إلى اكتشاف الموضوع الذي تدور حوله السورة القرآنية، وهذا يستدعي منه أن يبحث بأناة وتفكير عميق بحثاً كليّاً شاملاً للسورة، ويتتبّع ارتباط آياتها، ومعاني جملها، بهذا الموضوع، أو بما تفرّع عنه من عناصر، وما اتصل به من موضوعات جزئية، وأحكام وشواهد.

فلهذا البحث فوائد جمّة يتوصّل إليها ذوو الأهلية والكفاية لهذا العمل من أهل الاستنباط، وباكتشاف الترابط قد تُصحّح مفاهيم، وترجّح تفسيرات، لأنّ ترابط المعاني يقتضيها أو يرجحها أكثر من غيرها.

* * *

بالتتبّع الطويل اهتديت ـ بتوفيق الله ـ إلى أنّ السورة القرآنية متعانقة الآيات والجمل في الآية حول موضوع كلّي واحد، كما اهتدى آخرون معاصرون إلى هذه الحقيقية بفضل الله إذْ أدمنوا النظر الثاقب في كتاب الله.

واستبان لي أنّ مثل السورة من القرآن كمثل الشجرة من الأشجار البديعة المثمرة المشبعة بالتنسيق الجمالي، وبالعناصر الجمالية المعجبة السارّة الممتعة، أو كمثل كائن حيّ من الكائنات الراقيات، فالشجرة مهما اختلفت صفات أجزائها

مجتمعة على أصل واحد، ومشتقة منه، والكائن الحيّ مهما اختلفت صفات أعضائه مجتمع على أصل واحد ومشتقٌ منه.

ووحدة موضوع النصّ التعليمي التربوي الرفيع لا تعني انحصار الكلام في جزئية فكرية، ومتابعة البحث في هذه الجزئية من كل الجوانب المتعلّقة بها، فهذه ليست من وظائف النصوص الرفيعة، وإنما هي من وظائف فصول العلوم، والبحوث الاختصاصية الدقيقة التي قلّما يرافقها بلاغة عالية، وأدب كلاميّ رفيع، وتوجيه تربوي، وأمر ونهي، وترغيب وترهيب، وموعظة وتذكير.

بل يكفي في وحدة الموضوع للنصّ التعليمي التربوي البليغ أن يهدف إلى كليّة من الكليّات الكبرى الفكرية، وأن تكون فقراته وأفكاره العامّة مرتبطة بهذه الكليّة، مشتقة منها، أو موصولة بها بوجه من الوجوه، والغرض التعليمي أو التربوي أو البياني البليغ هو الذي استدعى إيراد الفكرة ضمن الموضوع الكلّي الذي يدور حوله النصّ.

ولدى البحث الدقيق المتعمّق نلاحظ أنّ السورة القرآنية تشتمل على وحدات معانٍ متماسكة تشبه حلقات مترابطات، مشمولات بحلقة أكبر منها وهي داخلة فيها ومتعلّقة بها، ولا يشترط في كلّ حلقةٍ موجودة على مسير خطّ النصّ أن تكون مرتبطة بالتي قبلها مباشرة، كما نعرف في حلقات السلسلة التي هي كالحبل، بل قد يكون الارتباط مباشرة بالحلقة الكبرى التي هي أساس الموضوع، أو بحلقة دونها قد سبقت، وليست هي الحلقة المباشرة في تسلسل رصف الحلقات.

وخفاء الارتباط إنما يأتي من ملاحظة أن وحدة موضوع السورة يشبه السلاسل المستطيلة كالحبال، إذ يعملُ المتدبّر على انتزاع ارتباط ضعيف قد يكون وهميّاً أحياناً بين كل حلقة والتي سبقتها في الرصف الكلامي؛ مع أن الأمر ليس كذلك، وينبغي له حتى يصل إلى ما ينشد أن يصحّح أصل تصوُّره لحقيقة الترابط، ويستطيع أن يقرّب ذلك إلى ذهنه بأن يرسم دائرة كبرى ثم يربط بها حلقة، ثم ينظر

في الحلقات التالية، هل يربطها بالحلقة الفرع، أو يربطها بالدائرة الكبرى الأصل، ثم يسير هكذا إلى كلّ الحلقات، ويبحث عن ارتباطها بالدائرة الأصل أو بالحلقات الفروع. وبعد البحث العميق والتأمل الدقيق، لا بد أن يكتشف نسيجاً عجيباً بديع الصورة، ويظهر له به رائعة من روائع إعجاز القرآن.

إنّ السورة القرآنية من الناحية البيانية والمعاني والدلالات التي اشتملت عليها، بمثابة حِلْيةٍ أدبية رائعة فذّة، فهي ذات موضوع كلّي واحد، إلّا أن وحدة الموضوع في كلّ سورة قد لا تستبين بالنظرة الجزئية، ولا بالنظرة السطحية التي تمرّ مرّاً سريعاً على آياتها، وقد لا يتنبه لها الكثيرون، تأثّراً بالاتجاه السائد عند المفسّرين القدماء، الذين لم يوجّهوا عناية كبيرة لهذا الأمر، رغم خدماتهم الجليلات التي قدّموها لهذا الكتاب الرباني العظيم. إلا أنه كتاب معجز، لا تفنى أعاجيبه، وسيظلّ فيه دقائق معجزة خفيّة يظهر منها في كلّ حين من الدهر ما لم يكن قد ظهر من قبل، ليظلّ على كرّ الدهور كما أراد الله له معجزة البيان الخالد، والتعليم الحقّ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولو كره المعاندون والجاحدون، والكافرون، ولو كره الحاسدون.

وتظهر وحدة موضوع السورة لكل باحث له بعضُ عِنَايةٍ بتفسير القرآن وتدبُّرِ دلالاته، في قصار السور، وفي المفصّل، وفي بعض الطوال.

ومن الأمثلة الواضحة سورة (ق) وسورة (يوسف) وسورة (الرحمن) وسورة (الواقعة) وغيرها كثير مما تظهر فيه وحدة موضوع السورة بأدنى تدبّر.

وقد نظرت في سورة (الرعد) وكتبت حولها دراسة فكرية وأدبية، وتتبعت مضامينها، فتبيّن لي أنها ذات موضوع واحد، وأنّ آياتها متشابكة متعانقة حول هذا الموضوع، وأن ما اشتملت عليه من معانٍ جزئية هي مشتقة من الموضوع الكلّي للسورة، أو موصولة به بوجه من الوجوه. وظهر لي أن آياتها وما اشتملت عليه من معانٍ كأغصان الشجرة الواحدة وفروعها وما عليها من أوراق وأفنان وأزهار وثمار،

أو كأعضاء الكائن الحيّ السويّ المعتدل. وقد وجّهت العناية فيما كتبت حول هذه السورة لبيان الترابط بين المعاني، ولبيان صلة هذه المعاني بموضوع السورة الرئيسي، وبيان تسلسلها حتى الغاية المرسومة في الأهداف التعليمية والتربوية والتوجيهية التي أُنزلت السورة من أجلها.

ونظرت نظرة عامّة في سورة (البقرة) فوجدتها كذلك إلا أنني حتى الآن لم أكتب حولها دراسة تكشف وحدة موضوعها، وترابط معاني جملها، ضمن حِلْيَةٍ أدبيّة رائعة كبرى.

فعلى متدبّر كلام الله أن يوجّه عنايته ما استطاع، لاكتشاف وحدة موضوع السورة القرآنية، وارتباط المعاني التي اشتملت عليها جملها بهذا الموضوع الكلّي، فعسى أن يلهمه الله الصواب، ويكتشف ما يقدّم به نفعاً للذين يتلون كتاب الله ويتدبّرون آياته. فبعد بحوث كثيرة ومناظرات علمية تنشد الحقّ، قد يتوصل المتدبرون إلى نتائج جليلة في فهم كتاب الله.

* * *

وبعد استحضار هذه الفكرة التي شرحتُها لوحدة موضوع السورة القرآنية فإنّ على متدبّر كلام الله عزّ وجل أن يُلاحظ أن طريقة كلام الرّب الخالق المكلِّف الآمر الناهي، المبيّن الموصي، الناصح بالحق والخير، المحذّر المنذر، المعلّم المربّي، المقدّم للحجج والبراهين الإقناعيّة، الموجّه كلامه للناس جميعاً على اختلافهم، من أئمة الدعاة الْهُدَاة فيهم، إلى أئمة الرفض والعداء والضلال، فما بينهما، تتطلّب تنويعاً ممتزجاً معجزاً من البيان، فيه كلّ ما تستدعيه أحوال المخاطبين، ولا يحسُن فيه التصنيف العلميّ إلى أبواب وفصول ومسائل.

على أنّ المعالجة الشاملة البيانيّة التعليميّة التربويّة التي تراقب أحوال المخاطبين على اختلافهم في الحركة الزمنية التي تختلف معها وقائع التجارب الإنسانية، يتهيأ فيها من استغلال النصّ الواحد، للمطالب البيانية والتعليميّة

والتربويّة وكلّ ما تتطلّبه هداية النّاس ما لا يتهيّأ استغلاله عند عمليّات التصنيف العلمي لمختلف المطالب.

فالدرس الواحد من دروس التنزيل قد يشتمل على تعليم في قضايا الإيمان، وتعليم في قضايا الأخلاق، وتعليم في قضايا العبادة، وتعليم في قضايا السلوك، ومناظرة إقناعية، وتربية للداعي، وترغيب وترهيب، ووعد ووعيد، وتعليلات نفسيّة، وبيان حقائق عن طبائع الناس والأشياء، ووقائع التاريخ الإنساني، وظواهر المجتمع البشري، وسنن الله عزّ وجلّ، في مزيج قد تكون معه الجملة القرآنية الواحدة مستخدمة لتحقيق عدّة مطالب. فيُسْتَغنى بهذا الدرس عن نحو عشرة دروس، أو أكثر، بحسب نوع الدرس، والموقف البشريّ الذي نزل بشأنه في حركيّةِ نجوم التنزيل.

وبذلك يتحقق في الكلام السَّطْحُ والعمق، والمطابقة العجيبة لمقتضيات أحوال المخاطبين المختلفة اختلافاً كثيراً، مع الإيجاز والإعجاز، ولَوْ عُولجتْ هذه المختلفات على طرائق التصنيف العلمي المجزّأ إلى موضوعات، لاقتضى الأمر أن يكون القرآن عشرات المجلدات الضخمة، التي لا يتحمّلها الناس حينئذ.

* * *

الأمـــثـــلـــة

المثال الأول:

سورة (الرعد) ووحدة موضوعها
وتسلسل أفكارها

كما سبق أن ذكرت في شرح القاعدة، ما أشبه السورة القرآنية بشجرة متشابكة ذات فروع وأوراق وثمرات، مليئة بالتنسيق الجمالي المتداخل، الذي يُرَى له جمالٌ رائع من مختلف جهات النظر، ومشبعة بالعناصر الجمالية المعجبة السارّة الممتعة.

وموضوع سورة (الرعد) نجده في الآية الأولى منها:

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

وتتضمَّن هذه الآية الإشعار بالكلام على عناصر ثلاثة، وهي:

١ ــ رسالة الحق.

٢ ــ رسول الصدق.

٣ ــ مرسلٌ إليهم أكثرهم لا يُؤْمنون.

● أمَّا الكلام على الرسالة فيستدعي إقامة الدليل على أسسها، ومن أجل ذلك جاءت مجموعة من الآيات في السورة لإقامة الأدلّة على وجود الله عزّ وجلّ وعظيم صفاته.

● وأمّا الكلام على الرسول والمرسل إليهم فيستدعي بيان حال الصراع الذي تمّ بينه وبينهم، ويتضمنّ ذلك عرض أقوالهم وحججهم في تكذيبهم بالرسول ورسالته، وكيف عالج الرسول ﷺ إصلاحهم ضمن التعليمات والبيانات الربّانية التي أنزلت عليه، كما يتضمن عرض تربية الله لرسوله أمام ما لاقى من المكذبين.

وفيما يلي خلاصة تسلسل عناصر السورة وترابط معانيها:

١ ــ بدأ الكلام بالتنويه بالمكانة العظيمة للسورة الآتية آياتُها، وبالمكانة العظيمة لجميع ما أنزل الله على محمّد ﷺ، توطئة لإعلان أنّه هو الحقّ، وإشعاراً بأنه بسبب كونه حقاً قد اكتسب مرتبة المجد العظيم.

ومن المعلوم أنّ أعظم قضية من قضايا الحقّ التي جاء بها القرآن قضية الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٢ ــ الحقُّ ينبغي أن يؤمن به العقلاء، لأنه قضيّة العقل، ولكنَّ واقع الناس بخلاف ذلك، فأكثر الناس لا يؤمنون. وكونُهم لا يؤمنون به يستدعي إقامة الأدلّة، إلزاماً لهم بالحجَّة حتّى لا يكون لهم عذر، وتوضيحاً للجاهلين طريق الهدى.

٣ ـ عرضت الآيات أدلّة قدرة الله في آفاق السماوات، وأدلّة علمه وحكمته، وأشارت إلى مختلف الآيات المفصّلات في الكون، وذيَّلتْ ذلك ببيان أنَّ الغرض منه وصولُ الناس إلى اليقين بعدل الله، وأنّهم لا بُدَّ ملاقوه في الآخرة لإقامة عدله فيهم، ومنح فضله مستحقّيهم، وذلك لإبراز ركن الإيمان باليوم الآخر، الذي هو محلُّ إنكار مشركي قريش.

٤ ـ ثُمَّ عرضت الآيات دلائل قدرة الله وعلمه وحكمته في مجال الأرض، إلحاحاً على الغرض نفسه الذي سبقت له الأدلّة في آفاق السماوات.

٥ ـ ثمّ عرضت الآيات أقوال منكري ركن الإيمان بالبعث واليوم الآخر، وناقشتها.

فقد تعجَّبوا من البعث، وتحَدَّوْا باستعجال العذاب، وتلمَّظُوا بطلب ما يتشهَّوْن من معجزات.

وأدمجت في ذلك الحكم عليهم بالكفر، وبيان عقابهم في الآخرة، وفتحت لهم الأمل بالمغفرة، وبيَّنَتْ للرسول وظيفته بالنسبة إليهم.

٦ ـ ولَمَّا كانت دلائل قدرة الله كافيةً في بيان قدرته على البعث، وهو ما جاء في الآيات السابقات، فقد جاءت الآيات بعد ذلك تثبت إحاطة علم الله بكل شيء، دفعاً لتوهُّم أن الله تبارك وتعالى لا يطّلع على كلّ جزئيّةٍ من أعمالهم، أو كُلِّ جزئيَّةٍ ممّا يتفتت من أجسامهم بعد موتهم. [حتى آخر الآية ١١ وهو القسم الأول من السورة].

٧ ـ ثمَّ عرضت السورة أدلّة قدرة الله وعلمه وحكمته في العلوّ القريب بين السماء والأرض، وذلك في ظواهر البرق والسحاب والرعد والصواعق، مع التلويح بالوعيد الذي تحمل دلالته هذه الظواهر، لا سيما الصواعق منها.

٨ ـ ثمَّ صوّرت السورة حالة عجز الناس وضعفهم أمام الظواهر الكونيّة

المخيفة، التي لا حيلة لهم معها، إلاّ أَنْ يَلْتَجِئوا بالدعاء إلى قوىً أخرى وراء الظواهر، يعتقدون أنّها تنجدهم.

- أمّا المؤمنون فيلْتَجئون إلى الله القدير فيستجيب لهم.
- وأمّا المشركون فيلتجئون إلى شركائهم الذين لا يستجيبون لهم بشيء.

٩ ـ ثمّ بيَّنَت السورة أنّ كلّ شيء في الكون خاضع لقدرة الله عزّ وجل، نافذة فيه مشيئته، وذلك لحث المشركين على أن يتمّمُوا واقعهم غير الإرادي بسجود إراديّ منهم لله تعالى.

١٠ ـ ثمّ علّم الله نبيّه كيف يعالج المشركين بوسائل الإقناع والمجادلة بالتي هي أحسن مُتَّخِذاً معهم مرحلةً من مراحل الهجوم على باطلهم بالبراهين القاطعة، والحجج الدامغة، بعد أن كان الموقف في أوّل السورة موقف الدفاع، وفي هذه المرحلة الجديدة لون من ألوان الصراع الفكريّ المهذّب بين الحق والباطل، إلاّ أنّ التهذيب من جهة واحدة هي جهة أصحاب الحقّ.

١١ ـ وبعد أن وصل الرسول ﷺ إلى نهاية مرحلة الهجوم الكلامي المهذّب على باطل المشركين، تنتقل السورة فتصوّر مرحلةً عنيفةً من مراحل الصراع بين الحقّ والباطل، بين حقٍّ يغالب بكلّ وسيلة مشروعة ليظهر ويبسط في الأرض عدله ونوره وخيراته، وبين باطل يغالب بكلّ وسيلة غير مشروعة، ومبطلين يصارعون الحقَّ وأهلَه، وتنتهي الصورة بانتصار الحقّ ودعاته على الباطل وجنوده في الأرض.

١٢ ـ ثم ينتقل البيان في السورة إلى إزاحة الستار عن المستقبل البعيد، لمشاهدة عاقبة أهل الحقّ، وعاقبة أهل الباطل في الدّار الآخرة، بارزاً فيها فضل الله وعدله، مع بيان الأسباب الداعية إلى أن يمنح الله فضله للمؤمنين، وأن يوقع عقابه في الكافرين، وقد تضمّن بيان جُمْلةٍ من صفات المؤمنين وصفات الكافرين.

١٣ ـ ثمّ كشفت السورة الحكمة الداعية إلى عدم حرمان الكافرين من أسباب العيش والرفاهية في الحياة الدنيا.

١٤ ـ ثمّ صوّرت السورة حال المشركين الذين لم تؤثر فيهم كلّ تلك البيانات السابقات بإصرارهم على موقفهم الأول، وعودتهم إلى تكرير مقالتهم السابقة: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾.

ثمّ عالجت حالتهم بطريقة جديدة فيها تلويح بحصول العقاب القريب، مع إبقاء باب الأمل والرجاء مفتوحاً أمامهم لِيُنِيبُوا إلى ربّهم بالإيمان والعمل الصالح، وأعطتهم الدواء الديني الشافي لاضطراب القلوب، ألا وهو ذكر الله الداعي إلى التأمُّل في آلائه، والتفكّر في عظيم صفاته، التي منها رحمته وعفوه وغفرانه.

١٥ ـ ثمّ تنتقل السورة إلى مرحلةٍ جديدة، وهي مرحلة تربية اللّهِ لرسوله، وهذه المرحلة موصولة بالمراحل السابقة التي كان فيها صراع مع المشركين. [حتى آخر الآية ٢٩ نهاية القسم الثاني من السورة].

١٦ ـ وتشتمل عناصر تربية الله لرسوله في القسم الباقي من السورة على معالجة ما يدور في نفسه فعلاً، أو ما يمكن أن يدور فيها، بأسلوب ذي وجهين:

الوجه الأول: ينظر إليه الرسول فيشاهد تربيةً له وتعليماً، ووعداً بالنصر والمثوبة الحسنى.

الوجه الثاني: ينظر إليه الكافرون فيرون فيه حُجّةً عليهم وبياناً، أو إنذاراً لهم ووعيداً بالخذلان والعذاب وسوء العقاب.

١٧ ـ ففي معالجة حُزْنِ الرسول لبقاء المشركين على شركهم وكفرهم بعد كلّ الوسائل التي اتخذها لهدايتهم وتربيتهم، جاءت الآية (٣٠) توجّه له التربية ببيان أمرين:

الأوّل: أنّ مهمته التبليغ فقط، وليس التحويل القسريّ من الكفر إلى الإيمان.

الثاني: أن يُصرّ على إقامة الحجّة العقلية التي تثبت بالبرهان أنّ ما يدعوهم إليه هو الحقّ، وأنّ عقيدتهم باطلة، وطريقتهم فاسدة.

١٨ ــ وفي معالجة استشراف نفس الرسول ﷺ إلى تلبية طلب المشركين الآيات التي اقترحوها، جاء صدر الآية (٣١) وآخر الآية (٣٨) يوجّهان للرسول التربية بأربعة أمور:

الأول: بيان أنّ الحكمة من عدم تلبية طلب المشركين فيما اقترحوه من آيات، أنّهم لو رأوها لما آمنوا، فهم مُتَعَنِّتون مكابرون، لا تحتاج عقولهم ولا قلوبهم أدلّة إقناعٍ حتّى يُؤْمِنُوا.

الثاني: الإشارة إلى أنّ المقام الأكمل هو التسليم للَّهِ عزّ وجلّ في جميع الأمور، دون البحث عن الحكمة، وقد جاء هذا ضمناً في ﴿بَلْ للَّهِ الأمر جميعاً﴾.

الثالث: تقنيط الله رسوله بخطاب غير خاصٍّ به، من تحقيق رغبته في الهداية الفعلية للناس جميعاً، وإعلامه بأنّ أمر الهداية منوط بالمكلّفين أنفسهم، منذ قدّر الله ابتلاءهم، ومنحهم لذلك إراداتهم الحرَّة.

الرابع: بيان أنّه ليس من شأن أيّ رسولٍ أن يأتي بآيةٍ إلاَّ بإذن الله.

١٩ ــ وفي معالجة استشراف نفس الرسول ﷺ إلى تعجيل العقاب للذين استعجلوه من المشركين، جاء في آخر الآية (٣١) والآيتين (٤٠) و (٤١) توجيه التربية بأمرين:

الأول: تطييبُ قلب الرسول والمؤمنين بِلَفْتِ أنظارِهم إلى مقدّمات العقاب وإنذاراته، وتطمينُهم بأنّ وعد الله واقع لا محالة.

الثاني: تكرير بيان أنّ مُهِمَّةَ الرسول قاصرة على التبليغ، **وأنّه لا شأن له** بقضيّة حساب الكافرين ولا عقابهم.

٢٠ ــ وفي معالجة حزن الرسول ممّا يلاقيه من المشركين من استهزاءٍ وسخرية، جاءت الآيات من (٣٢) إلى (٣٥) توجّه التربية بأربعة أمور:

الأول: تسلية الرسول ﷺ بأنّه ليس هو وحده الذي أوذي بالاستهزاء.

الثاني: بيان أنّ من سنن الله في أهل الكفر الإمهال أوّلاً، ثمّ العقاب الشديد.

الثالث: توجيه الرسول ﷺ إلى إقامة الحجج العقلية بطريقة فيها هجومٌ على عقائد المشركين الباطلة، وتفنيدٌ لها.

الرابع: تطييب قلب الرسول وقلوب المؤمنين وتطمينُها بما قضى الله من عذاب لهؤلاء المشركين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، إذا أصرُّوا على كفرهم، وبما أعدّ للمتقين من نعيم مُقِيم في الجنة.

٢١ ـ وفي معالجة ما يخالجُ نفسَ الرسول ونفوسَ المؤمنين أمام مُسَاوَمات أهل الكتاب ومداهناتهم، جاءت الآيتان (٣٦) و (٣٧) وصدر الآية (٣٨) توجّه التربية بأربعة أمور:

الأول: أن يعلن لأهل الكتاب أنّه مأمورٌ من عند الله بأن يعبد الله ولا يُشْرِكَ به، وأنَّ ما جاء في القرآن من أحاديث عن الكتب والأديان الرّبّانيّة السابقة إنّما هو بَيَانٌ للواقع والحق، وليسَ مصانعةً ولا مداهنةً لأهل الكتاب.

الثاني: تعليمُه الحجّة لدفع افتراءات أهل الكتاب، إذْ يزعمون أنَّ محمّداً يأخذ ما يتلوه من القرآن عن بعض العلماء بالكتب السابقة.

الثالث: **تحذيره من قبول مساومات أحزاب أهل الكتاب، ومن اتّباع أهوائهم.**

الرابع: **تعليمه الحجّة لردّ ما يلقيه اليهود من شبهة في صدق رسالته إذْ قالوا: (ما نرى لهذا الرجل هِمّةً إلاّ النّساء والنكاح، ولو كان نبيّاً كما زعم لشغله أمر النبوّة عن النساء).**

٢٢ ــ وفي معالجة تخوُّفِ الرسول ﷺ ممّا يُبَيِّتُ الكافرون من مكر، جاءت الآية (٤٢) توجّه التربية بأمرين:

الأوّل: تسليتُه بأنّ الْأُمَم من قبلهم قد مكروا بالرسول وبالرسالات أيضاً.

الثاني: تطمينُه بأنّ مكر الكافرين لا يؤثر على الرسالة، ولا على ظهور الصادقين بحملها في الأرض، فَسَيَرُدُّ اللَّهُ مكرهم عليهم.

ومع هذا التطمين للرسول وللمؤمنين إنذارٌ وتهديدٌ ربّاني للكافرين.

٢٣ ــ وفي معالجة حزن الرسول وتألُّمِهِ مما يبهته به الكافرون إذْ يواجهونه بقولهم له: «لَسْتَ مُرْسَلاً» جاءت الآية الأخيرة من السورة توجّه التربية له بالإعراض عنهم، بعد حسم الأمر بإنهاء فقرات مجادلتهم، بأن يقول لهم:

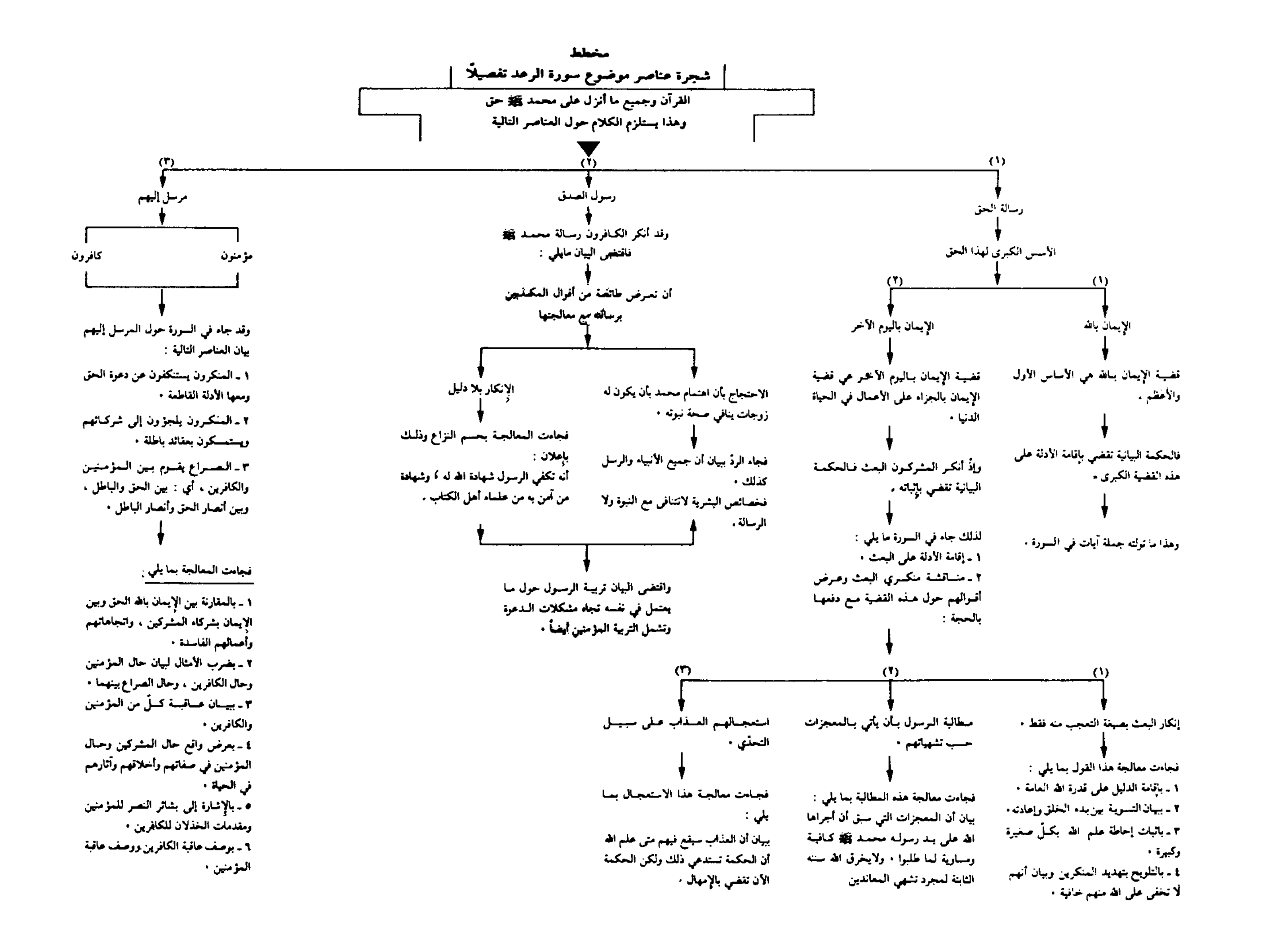
١ ــ كفى باللَّهِ شهيداً بيني وبينكم على صدق رسالتي.

٢ ــ ويشهد لي أيضاً الَّذِين آمنوا بي من الذين عندهم علم الكتاب، والذين سيؤمنون بي منهم، أي: كحبر اليهود وعالمهم عبد الله بن سلام، الذي جاء معترفاً بالحقّ مسلماً فيما بعد.

وأخيراً: يُبَتُّ الأمر، ويَنْقَطِعُ الْجدَال، وتنتهي السورة.

* * *

وإليك مخطط شجرة عناصر موضوع سورة (الرعد) تفصيلاً، ليكون نموذجاً لوضع مخطّطات شجرات موضوعات سور القرآن العظيم، المبيِّنَةِ للوحدة الموضوعيّة لكلّ سورة:



مخطط
شجرة عناصر موضوع سورة الرعد تفصيلاً
القرآن وجميع ما أنزل على محمد ﷺ حق
وهذا يستلزم الكلام حول العناصر التالية
(١)
رسالة الحق
الأسس الكبرى لهذا الحق
(١)
الإيمان بالله
قضية الإيمان بالله هي الأساس الأول والأعظم .
فالحكمة البيانية تقضي بإقامة الأدلة على هذه القضية الكبرى .
وهذا ما تولته جملة آيات في السورة .
(٢)
الإيمان باليوم الآخر
قضية الإيمان باليوم الآخر هي قضية الإيمان بالجزاء على الأعمال في الحياة الدنيا .
وإذ أنكر المشركون البعث فالحكمة البيانية تقضي بإثباته .
لذلك جاء في السورة ما يلي :
١ ـ إقامة الأدلة على البعث .
٢ ـ مناقشة منكري البعث وعرض أقوالهم حول هذه القضية مع دفعها بالحجة :
(١)
إنكار البعث بصيغة التعجب منه فقط .
فجاءت معالجة هذا القول بما يلي :
١ ـ بإقامة الدليل على قدرة الله العامة .
٢ ـ ببيان التسوية بين بدء الخلق وإعادته .
٣ ـ بإثبات إحاطة علم الله بكلّ صغيرة وكبيرة .
٤ ـ بالتلويح بتهديد المنكرين وبيان أنهم لا تخفى على الله منهم خافية .
(٢)
مطالبة الرسول بأن يأتي بالمعجزات حسب تشهياتهم .
فجاءت معالجة هذه المطالبة بما يلي :
بيان أن المعجزات التي سبق أن أجراها الله على يد رسوله محمد ﷺ كافية وساوية لما طلبوا . ولايخرق الله سنته الثابتة لمجرد تشهي المعاندين
(٣)
استعجالهم العذاب على سبيل التحدّي .
فجاءت معالجة هذا الاستعجال بما يلي :
ببيان أن العذاب سيقع فيهم متى علم الله أن الحكمة تستدعي ذلك ولكن الحكمة الآن تقضي بالإمهال .
(٢)
رسول الصدق
وقد أنكر الكافرون رسالة محمد ﷺ فاقتضى البيان مايلي :
أن تعرض طائفة من أقوال المكذبين برسالته مع معالجتها
الاحتجاج بأن اهتمام محمد بأن يكون له زوجات ينافي صحة نبوته .
فجاء الردّ ببيان أن جميع الأنبياء والرسل كذلك .
فخصائص البشرية لاتتنافى مع النبوة ولا الرسالة .
الإنكار بلا دليل
فجاءت المعالجة بحسم النزاع وذلك بإعلان :
أنه تكفي الرسول شهادة الله له ، وشهادة من آمن به من علماء أهل الكتاب .
واقتضى البيان تربية الرسول حول ما يحتمل في نفسه تجاه مشكلات الدعوة وتشمل التربية المؤمنين أيضاً .
(٣)
مرسل إليهم
مؤمنون
كافرون
وقد جاء في السورة حول المرسل إليهم بيان العناصر التالية :
١ ـ المنكرون يستنكفون عن دعوة الحق ومعها الأدلة القاطعة .
٢ ـ المنكرون يلجؤون إلى شركائهم ويستمسكون بعقائد باطلة .
٣ ـ الصراع يقوم بين المؤمنين والكافرين ، أي : بين الحق والباطل ، وبين أنصار الحق وأنصار الباطل .
فجاءت المعالجة بما يلي :
١ ـ بالمقارنة بين الإيمان بالله الحق وبين الإيمان بشركاء المشركين ، واتجاهاتهم وأعمالهم الفاسدة .
٢ ـ بضرب الأمثال لبيان حال المؤمنين وحال الكافرين ، وحال الصراع بينهما .
٣ ـ ببيان عاقبة كلّ من المؤمنين والكافرين .
٤ ـ بعرض واقع حال المشركين وحال المؤمنين في صفاتهم وأخلاقهم وآثارهم في الحياة .
٥ ـ بالإشارة إلى بشائر النصر للمؤمنين ومقدمات الخذلان للكافرين .
٦ ـ بوصف عاقبة الكافرين ووصف عاقبة المؤمنين .

المثال الثاني:

سورة (العلق) أوّل سورة نزلت من القرآن العظيم ووحدة موضوعها وتسلسل أفكارها

● لدى تدبُّر سورة (العلق) نلاحظ أنّ موضوعها: هو إيجازٌ لحاجة الإنسان إلى الدين، وما يجب عليه تجاهه، وعرض إشاري لأقسام الناس نحو الدين.

وجاء عرض المضامين الفكرية بأداء فنّي عجيب، بدأ بالأمر بالقراءة وسيلة التعلم، والمقصود الأوّل منها تعلُّم الدين، لأنّ الإنسان مسؤول في هذه الحياة الدنيا تجاه ربّه، فهو مسؤولٌ عن تعلُّم دينه، وسبب ذلك أنَّه مخلوق في هذه الحياة الدنيا للابتلاء، والابتلاء يستتبع الحساب والجزاء يوم الدين، وهو إذا لم يعلم مسؤوليته ووظيفته شعر بالاستغناء فطغى، ومع إنزال الدين وتبليغه للناس فإنهم ينقسمون إلى الأقسام الرئيسيّة التالية:

(أ) كافر
- ١ ـ ويدعو الناس إلى الكفر.
- ٢ ـ قصر كفره على نفسه.

(ب) مؤمن
- ١ ـ ويدعو الناس إلى الإيمان والإسلام.
- ٢ ـ قصر إيمانه وإسلامه على نفسه.

فهم أقسام أربعة رئيسية.

● ولدى تجزئة السورة إلى وحدات، نلاحظ أنها تنقسم إلى أربعة دروس، وهي كما يلي:

الدرس الأول منها اشتمل على ما يلي:

١ ـ **الأمر بالقراءة** باعتبارها وسيلة كبرى من **وسائل التعلّم، لا سيّما العلم** المنزّل من **عند الله**، والأمر بالقراءة يستلزم عقلاً الأمر بكتابة العلم، وبتعلّم الكتابة، فما لا يتمّ الواجب **إلّا** به فهو واجب. ﴿اقْرأْ﴾.

٢ ــ الأمر بالاستعانة باسم الربّ، أي: باسم الخالق الذي يخلق وفق نظام التربية. ﴿باسم ربّك الذي خلق﴾.

٣ ــ التوجيه للاستدلال على الربّ الخالق الواحد بظاهرة خلق الإنسان من علق. ﴿خلق الإنسان من عَلَق﴾.

٤ ــ الأمر بتكرير القراءة ﴿اقرأ﴾ ففي التكرير فتح أبواب تدبُّر المعاني وفهمها مع الأجر العظيم لتالي القرآن المنزل، يشير إلى هذا ﴿وربُّك الأكرم﴾.

٥ ــ التوجيه لتسجيل المعارف بالقلم، نظراً إلى أنّ الكتابةَ مُقَيِّدةٌ للمعارف، وفي هذا تنبيهٌ على تدوين القرآن، وما يُسْتَنْبَطُ من معاني. دلّ على هذا ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

الدرس الثاني منها اشتمل على ما يلي:

١ ــ الرسالة التي أمر الله بقراءة كتابها وتدوينه، وبكتابة المعارف التي تستنبط منه، هي لتعريف الإنسان واجبَهُ تجاه ربّه، وافتقارَه الدائم إليه، وتعريفه صراطه المستقيم، لأنه متى شعر بالاستغناء عن إمداد الله، وعن التزام صراطه في الحياة، وعَمَّا يَقِيه من العقاب طغى. ﴿إنَّ الإنسانَ ليطغى أن رآه استغنى﴾.

٢ ــ الغاية من خلق الإنسان بصفاته التي هو عليها امتحانه، وبعد امتحانه يأتي حسابه وجزاؤه، والدنيا هي دار الابتلاء، والآخرة هي دار الجزاء، فالرُّجْعَىٰ إلى الله للحساب والجزاء بعد رحلة الامتحان. ﴿إنّ إلى ربّك الرُّجْعَى﴾.

الدرس الثالث منها اشتمل على ما يلي:

الناس في مواجهة الرسالة الربّانية أربعة أقسام:

الأول: كافر في نفسه وداعٍ إلى الكفر، ينهى عباد الله عن الإيمان بالله أو عن عبادته. ﴿أَرَأيتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عبداً إذا صلّى﴾.

وهذا صنف أئمة الضلال.

الثاني: مؤمن في نفسه مَهْدِيّ ﴿أَرَأَيْتَ إنْ كانَ عَلَىٰ الْهُدَى﴾.

الثالث: مؤمن في نفسه مَهْدِيٌّ، ويَأْمُـرُ عباد الله بـالتَّقْوى ﴿أو أَمَـرَ بالتَّقْـوَى﴾ أي: كان على الهدى وأمر بالتقوى.

وهذا **صنف الدعاة إلى الله**.

الـرابـع: كافـر في نفسـه غيـر داعٍ إلى الكفـر، اكتفى بـأن كـذَّب وتـولَّىٰ. ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

أمّا الشَّاكُّ المتـردّد فلم تُشِرْ إليـه السورةُ ضمن الأقسـام، لأن الشَّكَّ إذا وُجِـد كان مرحلةً عابرة، ولا بـدّ أن يستقرَّ صـاحبُه بعـدها على الإيمـان أو الكفر، فيكـون واحداً من أَحَدِ الأصْنَاف الأربعة الَّذِين أشارت إليهم السورة.

الدرس الرابـع منها اشتمل على ما يلي:

١ ــ توجيه الكافر ــ سواءٌ أكان من الدعاة إلى الكفر والناهين عن عبادة الله، أو كـان من المقتصـرين على الكفـر في أنفسهم ــ إلـى أنَّ الله يـراه، ويعلَمُ كُلَّ ما يَكْسِبُ، أي: وهو سيحـاسِبُه على كفـره وعمله، ويجازيـه بحكمته وعـدله. وفي هذا تهديد ضمني ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾.

٢ ــ زجرُ الكافر الداعي إلى الكفر وتَهْدِيـدُهُ ووَعِيدُهُ بعِـذابٍ مُهين ﴿كلاَّ لَئِنْ لَم يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ. نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ. فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ. سَنَدْعُ الزَّبَانِيَة﴾.

٣ ــ زَجْرُ المتّجِهِ للإيمانِ باللَّهِ وطاعَتِهِ، بِعِبادتِهِ والخضوع له، عن أن يُطِيـعَ الكـافـر الـداعي إلى الكفـر الـذي ينهىٰ عبـداً إذا صلّى ﴿كَـلاَّ. لَا تُـطِعْـهُ واسْجُـدْ واقْتَرِبْ﴾.

وهكذا ظَهَرَتْ لَنَا وَحْدَةُ موضوعِ السورة، وظهر لنا ترابُطُ أفكارها، في كُلِّيّاتٍ كبرى هي جذور فلسفـة الدين، واهتـدينا إلى الخيـوط الفكريـة التي تُشِعُّها أضـواء اللوازم العقليـة، ومقتضيـاتُ الأسبـاب والمسبَّبـات، بـالبحث والاستنبـاط والتـأمُّـل العميق. والحمد لله على توفيقه.

* * *

المثال الثالث:

سورة (القيامة) السورة الحادية والثلاثين بحسب ترتيب النزول ووحدة موضوعها وتسلسل أفكارها

● لدى تدبّر سورة (القيامة) نلاحظ أنّها تشتمل على سبعة دروس مترابطة في وحدة موضوع قرآني، باستثناء الدرس الثاني منها، الّذِي جاء درساً اعتراضِيّاً خاصّاً بالرسول محمّد ﷺ، يعلّمه الله فيه أن لا يحرّك بالقرآن لسانه متعجّلاً ليحفظ ما يُنَزَّل عليه، قبل أن يبلّغه الوحي كامل النجم الذي نزل عليه به.

والظاهر أنّ هذا الدرس قد نزل عند تعجُّل الرسول صلوات الله عليه لدى تَلَقِّيه سورة (القيامة) ومنذ الدرس الأول منها، فاقتضت الحكمة وضعه عقب هذا الدرس، وجعله الدرس الثاني منها، لتعليمنا كيف يكون التوجيه التربَويُّ التعليميّ، عقب التّصرُّف المخالف لما ينبغي، أو لما هو الأحسن والأفضل.

● ولدى تجزئة السورة إلى وحدات، نلاحظ أنّها تنقسم إلى سبعة دروس. وهي كما يلي:

الدرس الأوّل منها يشتمل على العناصر التالية:

١ ـ تأكيد قدرة الله على بعث الأحياء بعد إماتتها، ودفع التوهُّمات حولها.

٢ ـ كشف الباعث لإنكار الكافر يوم الدين، وإبعاده عن تصوُّره نهائيّاً، وهو إرادته أن يكون حُرّاً في انبعاثه الفاجر.

٣ ـ لقطات من الوصْف سريعات مختصرات جدّاً لأحداث ستكون للإنسان بعد رحلة الحياة الدنيا، وهي تبدأ منذ لحظة موته، وفيها لقطة من حسابه يوم الدين، وجحوده ما هو مدانٌ به، وإلقائه معاذيره، مع أنه عليم بجرمه. ﴿بَلِ الإنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾.

الدرس الثاني منها:

هو درس اعتراضي خاصّ بالرسول كما سبق بيان ذلك في المقدمة.

الدرس الثالث منها يشتمل على ما يلي :

بيان أنّ الناس يُحبُّونَ العاجلة ويَذَرُونَ الآخرة، مع تصدير هذا البيان بكلمة تفيد الزجر عن هذا الأمر الذي ليس هو في مصلحتهم، ولا لخيرهم، بل يجلب لهم الشقاء الأبدي، فقال تعالى : ﴿كلا﴾.

الدرس الرابع منها يشتمل على ما يلي:

عرض مشهد من مشاهد الناس في موقف الحشر، إذ تبدو في هذا المشهد صورتان لصنفين من الوجوه:

- **وجوه المؤمنين:** فهي وجوه ناضرة، إلى ربّها ناظرة.
- **وجوه الكافرين:** فهي وجوه باسرة، تَخْشَىٰ عقابَ الله وعذابه.

الدرس الخامس منها يشتمل على:

بيان حالة الإنسان الكافر، ساعة موته، وأنّه إذْ يُساقُ إلى قبره فإنّما يُساقُ إلى ربّه، ليحاسبه ويجازيه.

الدرس السادس منها يشتمل على:

مشهد موجز من مشاهد الحساب وفصل القضاء للإنسان الذي دارت حوله معظم آيات السورة، وهو الإنسان الكافر المنكر للبعث والدينونة.

الدرس السابع منها يشتمل:

على دفع توهم الإنسان المنكر للبعث بأن الرّبّ الخالق لا يهتمّ بمحاسبة الناس على أعمالهم، بعرض الحجج العقلية الدافعة لهذا التوهُّم.

فالتسلسل الفكري لعناصر السورة الدائرة حول موضوع واحد، باستثناءالدرس الاعتراضيّ فيها، أمرٌ واضح، يكشفه المتدبر بتأمل يسير.

• • •

القاعدة الثالثة

«حول أوجه النصّ التي يهدف إليها»

من الخير لمتدبّر كلام الله أن يتفكّر فيما يمكن أن يشتمل عليه النصّ القرآني من أوجه، وما يهدف إليه كلّ وجه منها من أغراضٍ بيانية وتربوية وتعليميَّة.

* * *

إنّ من الظواهر في النصوص الأدبية البليغة الرفيعة أن النص قد يكون موجّهاً لعدة أهداف، وهذه الأهداف كلّها مقصودة من النصّ، ويظهر هذا بجلاء حينما يكون المخاطب به جماعة ذات فئات مختلفات، وعناصر متباينات.

فمن أمثلة النصّ ذي الهدف المزدوج أن يوجّه ذو سلطان عامّ تهديده الشديد للذين يخالفون أوامر مبعوثٍ من قبله، للقيام بمهمّة من المهمّات السلطانية. إننا نلاحظ في النصّ التهديدي هدفين معاً:

أحدهما: تهديد الذين يخالفون.

ثانيهما: تقوية نفس المبعوث، وشدّ أزره وشحذ همته للقيام بما بُعث به على أفضل وجه.

وقد يكون النصّ مثلّث الهدف، أو أكثر من ذلك، وكل صاحب علاقة يأخذ من النصّ ما يناسب حاله. ويكثر هذا في النصوص القرآنية، فقد يكون النص تهديداً وتوعداً للكافرين، ووعداً للمؤمنين، وتربية وتأديباً وتسلية للرسول صلوات الله عليه.

وعلى المتدبّر أن يضع في ملاحظته عند بحثه عن أوجه النصّ أنّ القرآن موجّه بصفة عامّة للناس جميعاً على اختلاف أصنافهم وطبقاتهم ومستوياتهم الفكرية، وعلى اختلاف شعوبهم.

فالقرآن فيه تعليم وتوجيه وتربية للجميع، من الرسول أول مبلّغ به، وأول مؤمن به، والمأمور بأن يبلغه للناس، حتى أدنى الإنس والجن، وحتى أعتى كافر به، وأشد معاند لما جاء فيه.

وكلّ فردٍ من الذين أنزل القرآن إليهم من الإنس والجنّ، يجد في بيانات القرآن ما يناسبه ويلائم حالته الفكرية والنفسية والاجتماعية، في نصّ أو في آخر، وبوجه من وجوه النصّ الواحد أو بوجه آخر. والبحث المتعمّق المتأني قد يكشف ذلك.

* * *

الأمثلة

المثال الأول:

في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول) وفي معرض الحديث عن إمام من أئمة الكفر إذ جحد أنّ القرآن كلامُ الله بَعْدَ أَنِ اسْتَيقَنَ في نفسه أنّه ليس من كلام البشر، فأدبر واستكبر، فقال جحوداً وعناداً: إنْ هذا إلّا سحرٌ يؤثر، إنْ هذا إلّا قول البشر، وجاء في أسباب النزول أنّه الوليد بن المغيرة، يقولُ الله عزّ وجل بشأنه:

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً: أي: وما جعلْنَا أصْحابَ النَّار الخـازنين لها الْمُوَكَّلِين بعذاب مُستَحِقّي العذاب فيها إلاَّ من نوع الملائكة.

وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ....: أي: وما قصدنا بـالإْخبار بـأنَّ عددَهُم تسعـةَ عشر مَلكاً إلاّ...

فالخبَرُ واحـد، والخطابُ واحـد، لكنَّهُ مُـوجَّهٌ لعـدَّةِ أهداف، وهـذه الأهدافُ كلُّها مقصودَةٌ من النصّ، ومُوجَّه لأصْناف الناس على اختلافهم فيما بينهم، وردُّ فعل كُلّ صنف منهم يكون بحسب واقـع حاله تُجاهَ مَا يُبلّغُه الرسول عن ربّه.

وقد دلّ التعليل الوارد في النصّ على ذلك:

١ ــ فالغرض من بيان عدد خزنة جهنّم بالنسبة إلى الذين كفروا سواءٌ أكانُـوا من غير أهل الكتاب، أو كانوا من أهل الكتـاب، هو امتحـانهم، وابتلاء أفكـارهم وعقولهم، واستخراج ما في نفوسهم من كُفْرٍ واستهزاء.

● فغير أهل الكتاب يستصغرون هذا العدد ويحتقرونه، سـواءٌ أكانـوا معلنين كفرهم، أو منافقين، وسواءٌ أكان كفْرهم كفر الجاحد أو كفر الشاكّ.

● وأهـل الكتاب يستيقنـون في داخل نفـوسهم من صحـة رسـالـة الـرسـول محمـد ﷺ، إذْ يَجِدون هـذا الخبر مـطابقاً لمـا عندهم من علم حـول خـزنـة جهنّم وعددهم، مـع أن محمّداً لم يطّلـع على كتبهم ولم يقرأ منهـا شيئاً، ولكنْ يصـدُّهم حسدُهم وتعصُّبُهم وعنادهم.

وكلا الفريقين يقولون منكرين ومستهزئين: مَاذا أراد اللَّهُ بهذا مثلاً؟!

دلّ على ذلك قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَاب...﴾.

﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَٱلْكَافِرُونَ: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهٰذا مَثَلاً...﴾.

٢ ــ والغرض من بيان عددهم بالنسبة إلى الذين آمنـوا، وبالنسبـة إلى الّذين أوتوا الكتاب أيضاً ما يلي:

● أن يزداد الذين آمنوا إيماناً، إذْ يجدون هذا الخبر مطابقاً لمـا في كتب أهل الكتاب من أخبارٍ صحيحة لم تُحَرَّف، مـع أنّ الرسول أُمِّيٌّ لَمْ يطّلِـعْ على شيءٍ من كتب أهـل الكتـاب، وهـذه القضيـة من المعـارف التي لا يعلمهـا إلاّ علمــاء أهـل الكتاب المتخصصون.

● وأنْ لا يرتابَ الّذين أوتُوا الكتاب والمؤمنون مستقبـلاً في أيّ خبر يُخْبِـرُ به رسول الله ﷺ.

دلّ على ذلك قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿وَيَزْدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً﴾.

﴿وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾.

ولا بُدَّ أن نلاحظ المحاذيف في النصّ لفهمه.

وهكـذا وجدنـا أنَّ النصّ الواحـد له عـدّة أوجه، وكـلّ وجه منهـا يهـدف إلى غرض، وله عدَّة اتجاهات، وكُلُّ اتجاهٍ منها يتناول صنفاً من الناس المخاطبين.

وهكذا شأن الخطاب من عُلْوٍ إلى أصناف مختلفةٍ من الناس.

وأحيل لتدبُّر باقي النصّ على ما كتبته حوله في القاعدة العاشرة «حول البحث عن المحاذيف للإيجاز».

* * *

المثال الثاني:

● روى البخاري عن جندب بن سفيـان البجليّ قال: اشتكى رسـولُ الله ﷺ فلم يَقُمْ ليلتين أو ثـلاثاً، فجـاءت امـرأةٌ فقـالت: يـا محمّـدُ، إنّي لأرجـو أن يكـون شيطانُكَ قد تركَكَ، لم أره قَرِبَك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عزّ وجلّ عليه:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾

ونظيره عند مسلم وغيره.

● وروى الحاكم من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق، عن زيد بن أرقم، قال: قالتِ امرأةُ أبي لهب، لمّا مكثَ النبيُّ ﷺ أيّاماً لم ينزل عليه الوحي: يا محمد، ما أرى شيطانك إلاّ قد قلاك، فنزلت: ﴿والضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)﴾.

● وروى ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن جُنْدُبْ قال: أبْطَأَ جبريلُ عن النبيّ ﷺ، فقال المشركون: قَدْ وُدِّعَ مُحمّد، فنزلت: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

● وأخرج الطبراني عن جُنْدُب قال: احتبسَ جبريل عن النبيّ ﷺ، فقالت بعض بنات عمّه: ما أرى صاحبَكَ إلاّ قد قَلاك، فنزلت: ﴿والضُّحى (١) واللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)﴾.

قلاك: أي: أبغضك.

نلاحظ في قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾

● أنّهُ مُوَجَّهٌ بصَريحِ الخطاب للرَّسُول ﷺ تسليةً له، وتطميناً، وتكريماً، وَوَعْداً بمستَقْبَلٍ عظيم.

● ومُوجَّهٌ مع الرسول للمؤمنين تثبيتاً وتمكيناً، ومسرّةً لقلوبهم بتكريم الله لقائدهم، ورسول ربّهم الذي آمنوا به واتّبعوه، وشفاءً لصدورهم من الذين أشاعوا أنَّ ربَّ محمّد قد قلاه.

● وموجَّهٌ تعريضاً لِمُشَيِّعِي الشائعةِ المفتراة، ولسائر مؤيديها من الكافرين،

بهدف مكايدتهم وإعلان خيبتهم في إشاعتهمُ الكاذبة، وأنّ مسعاهم الإعلامي قد أحبطه الله.

وهكذا نفهم كيف يكون للنصّ الواحد عدّة وجوه، وكيف يكون مُوجّهاً لعدّة اتجاهات.

* * *

المثال الثالث:

يقول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الرَّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

أَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا: أي: أمهلْتُهم.

ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ: أي: عاقبتُهم وأهلكتهم.

والمعنى: إذا أحزنك أو آلمك يا محمد استهزاء الكافرين بك، فقد جاء من قبلك رسل كثيرون قد استهزأ بهم الكافرون من أقوامهم، فأمهلت هؤلاء الذين كفروا ولم أُعَجّلْ لهم العقاب ــ أي: لأنّ الحكمة تقتضي إمهالهم ــ ثُمّ أخذتهم بالعذاب الشديد الذي قصصت عليك طائفةً من أخباره فيما أنزلت عليك قبل هذه السورة، فكيف رأيت ما كان من عقابي لهم؟. ألم يكن عقاباً شديداً؟.

وفي هذا تلويح للمشركين بالعقاب على ما يفعلونه من استهزاءٍ بالرسول ﷺ، نظراً إلى أنّ سنة اللّه لا تبديل لها ولا تحويل، كما جاء في سورة (فاطر ٣٥) آية (٤٣)، وسورة (الإسراء ١٧) آية (٧٧) وسورة (الأحزاب ٣٣) آية (٦٢).

فهذا النص كسابقه، نلاحظ أنّه موجّه لعدّة اتجاهات، وله عِدَّةُ وُجوه:

- فهو موجّه بصريح الخطاب للرسول ﷺ، تسليةً له وتطميناً.

- وهو مع توجيهه للرسول موجّه للمؤمنين تثبيتاً لهم وتمكيناً وتطميناً بنصر الله وتأييده لرسوله وللمؤمنين معه.

- وهو موجّه تعريضاً للمستهزئين ولكل مؤيديهم من الكافرين، بأنّ الله يُمْلِي لهم ليقطع أعذارهم، فإذا لم يتوبوا نزلت بهم المهلكات، كما نزلت بالمستهزئين بالرسل من الأمم السابقة.

• • •

القـاعدة الرابعة

«حول بيئة نزول النصّ البشرية والزمانية والمكانية والنفسيـة والفكرية الفردية والاجتماعية»

على متـدبـر كتـاب الله أن يضـع في اعتبـاره لـدى تـدبّـر نصّ منه مـلاحظة الأمور التالية:

الأول: تصوّر العصر الإسلامي الأول، وواقع حال الذين كـانت تتنزّل عليهم الآيات القرآنية لتعليمهم وتوجيههم وتربيتهم، ويدخل في هذا تصوّر بيئتهم العامّـة، ومفاهيمهم التي كانت سائدة بينهم بوجه عامّ.

الثاني: تصوّر الحالة النفسية والفكرية والاجتماعية التي كانوا عليها حين نزول الآيات الموضوعة للدراسة، وذلك بشكل خاصّ.

الثالث: تصوّر الظرفين الزماني والمكاني اللّذين أنزلت فيهما الآيات الموضوعة للتدبر والدراسة.

* * *

١ ــ إنّ تصـوّر العصر الإسلامي الأول، وتصوّر واقع حال الذين كانت تتنزّل عليهم الآيـات القـرآنيـة لتعليمهم وتـوجيههم وتـربيتهم، وتصـوّر بيئتهم العـامـة، ومفـاهيمهم التي كانت سـائدة بينهم، من الأمـور التي تقدّم نفعـاً جليـلاً للمتـدبّـر، إذْ هي تبصّره بالمناخ الذي نزل فيه النصّ، وهذا يهديـه إلى مفاهيم هي أقـرب إلى دلالة النصّ من غيرها. فكثيراً مـا يقع البـاحث عن معنى نصٍّ في الخطأ، لأنـه فهم

النّصّ وهو يضع في اعتباره واقع حال المجتمع الذي يعيش فيه، والبيئة المحيطة به، لا واقع حال البيئة والمجتمع الذي نزل النصّ لمعالجته بالتعليم والتوجيه والتربية.

٢ ــ وكذلك تصور الحالة النفسية والفكرية والاجتماعية التي كان عليها الذين تنزّلت عليهم الآيات الموضوعة للدراسة، فهو يقدّم نفعاً جليلاً للمتدبّر.

ويدخل في هذا تصوّر حالات السلم والحرب، والأمن والخوف، وسعة الرزق والجوع، والنصر والهزيمة، والإيمان والكفر والنفاق، والطمع واليأس، والمسرة والحزن، والصفاء والكدر، ونحو ذلك من الأحوال النفسية التي يستدعي كلٌّ منها ما يلائمه من البيان التعليمي والتوجيهي والتربوي.

ويدخل أيضاً تصور حالات الذكاء والغباء، وطمأنينة الفكر واضطرابه، والعلم والجهل، ونحو ذلك من الأحوال الفكرية التي تستدعي كلٌّ منها ما يلائمه من البيان التعليمي والتوجيهي والتربوي.

ويدخل أيضاً تصوّر الحالات الاجتماعية، كالبداوة والتحضُّر، والرفعة والضعة، والقوة والضعف، والقيادة والانقياد، ونحو ذلك من الأحوال الاجتماعية التي يستدعي كلٌّ منها ما يلائمه من البيان.

٣ ــ وكذلك تصوّر الظرفين الزماني والمكاني اللّذين أنزلت فيهما الآيات الموضوعة للتدبّر والدراسة، فهو يقدّم للمتدبّر نفعاً جليلاً، ويهديه إلى مفاهيم أكثر دقة، وأقرب إلى المراد، وذلك لأنّ من الأساليب البيانية ما يلائم ظرفاً من الظروف الزمانية أو المكانية، في حين أنّه قد لا يلائم ظرفاً آخر. إذْ ما يلائم في مواسم الأعياد، قد لا يلائم في أوقات التحريض على الجهاد، وما يلائم في مواطن تأدية النسك قد لا يلائم في أسواق البيع والشراء، وما يحلو في مجامع الأفراح قد يكون قبيحاً في مجامع المآتم، وهكذا.

* * *

وبنظرة عامّةٍ إلى القرآن المجيد نُلاحظُ أن بيئة العهد المكي كانت الآيات تتنزّل فيها على أسلوب المنْتَقيات المحفوظاتِ المتداولاتِ من كلام بلغاء العربِ وفُصحائهم وخطبائهم، والسائر من أمثالهم، إذْ كان يعجبهم منها الجمل القصار المفصَّلة بتوازن، والإيجاز الذي يكشف الذكاءُ دَلَالاتِهِ، والكناياتُ الإشاريّة الدالة على معانٍ غير مدلولٍ عليها ولا مُعبَّرٍ عنها بألْفَاظ صريحة، والاكتفاء من الموضوع بذكر بعض عناصره البارزة، كذكر اسْم القوم، أو اسم طاغيهم، واسم رسولهم، والإشارة إلى مساكنهم، والاكتفاء بأنّهم كذّبوا الرسول الذي دعاهم إلى الإيمان بربهم، وذكر إهلاكهم بنحو الريح، أو الغرق، أو إمطار الحجارة، أو رفع ديارهم وقلبها عليهم، مع توجيه العظة للمخاطبين بما جرى للسابقين.

ونلاحظ في هذا العهد المكيّ أنَّه حين يكون المقصود توجيه الخطاب لأحد طغاة أئمة الشرك الذين وصلوا إلى مستوى المواجهة الصريحة بمعاداة الرسول والقرآن والمسلمين، فإنّ القرآن يؤثر طريقة التعريض، وذكر الصفات، دون التصريح بالاسم.

إذْ يكون القرآن باختياره هذه الطريقة قابلاً لأنْ ينطبق على أشباه هذا الطاغي ونُظَرَائِهِ، في كلّ العصور والأَزْمان اللاحقة، لأنّ النماذج البشرية المتشابهة في قلوبها ونُفُوسها، مَتَشَابِهَةٌ غالباً في أعمالها وأقوالها وسائر تصرّفاتها.

يضاف إلى ذلك أنَّ هذا الأسلوب هو أسلوب الكبار الذين يَسْهُلُ عليهم أن يعاقبوا الطغاة وينتقموا منهم ويُهْلكوهم، ويُنَفِّذوا إنذاراتهم إيَّاهُمْ وَمَا يُوجّهُونَهُ لهم من وعيد.

أمَّا مواجهة أبي لهب وامرأته، بقول الله بشأنهما: ﴿تبَّت يدا أبي لهبٍ وتبَّ...﴾ إلى آخر السورة، فقد كان ذلك من الله عزّ وجلّ دفاعاً عن رسوله، إذ وصل بهما الأمر إلى مواجهة الرسول بالشتيمة والأذى الوقحين، وهما من الأقربين، ولو تُرِكَا لتجرأ غيرهما بأشدّ ممَّا فعلاه، فأنْزَلَ الله بهما قرآناً يُتْلَىٰ أخرس بذلك كلَّ من كانت تحدّثه نَفْسُه بأن يفعل مِثْلَهُما، وكُلَّ من سَتُحَدِّثه نفسه

بمثل ذلك في المستقبل، إذْ كان العربيّ يخشى من كلمة ذَمٍّ سائرة فيه أكثر من خشيته من القتل.

ونلاحظ أنّ أسلوب الآيات القرآنية في بيئة العهد المدني قد اختلف عن أسلوبها في بيئة العهد المكي، فقد صارت البيانات الدينيّة تُجَمَّع في آياتٍ طوال، وسُوَرٍ طوال، وصَار فيها لُجوءٌ إلى التفصيل لِمَا كان في العهد المكيّ مجملاً، وإلى بيان الجزئيَّات التي كان يُطْوَى الكثير منها في أسلوب العهد المكي.

وصار أسلوب العهد المدني يراعي طرائق تفكير البيئة المدنيّة التي فيها ثلاثُ قَبائل من أهل الكتاب اليهود، الذين يعرفون من الكتب السابقة طرائق البيانات التفصيليّة في الجمل والفقرات والآيات الطوال. وتوجّه القرآن بخطابهم منذ بداية العهد المدني في سورة (البقرة ٢) بآيات مُطَوَّلات متتابعات فيها سجلٌّ أحداثهم وما كان منهم مع موسى عليه السلام، وما كان منهم بعد موسى وهارون عليهما السلام، وما كان منهم من معاصٍ للأنبياء الذين تتابعوا عليهم من بني إسرائيل، وقتل فريق منهم، حتى محاولتهم قتل عيسى عليه السلام، وما كان منهم من ترك دين الله واللجوء إلى وسائل السحر والتحريف في الدين، إلى غير ذلك من أحداث جسام كانت منهم. وهذا الأسلوب لم يكن له نظير في بيئة العهد المكي، إذ لم يكن عند قريش مدوّنات قد سُجّل فيها تاريخ تفصيليٌّ لأمّة من الأمم، وإنما كانت لديهم أخبار مجملة متناثرة، محفوظة بالتداول على الألسنة، في جمل قصار.

ونُلاحظ في الآيات التي نزلت بمناسبة الوقائع والغزوات والأحداث الاجتماعية في بيئة العهد المدني، أنّها مع إيجازها البديع قد تناولت بالتفصيل ولو عن طريق الإشارة باختيار كلمة دون مُرَادِفها كُلَّ ما ينبغي بيانه، من حكم وتَوْجيهٍ وتعليمٍ وموعظةٍ وترغيبٍ وترهيبٍ وأمرٍ ونهيٍ.

لقد صار في المؤمنين المسلمين طليعةٌ ممتازة ذات تفوّق علمي، وخبرةٍ في إدراك دلالات النصّ الرفيع، ومهارةٍ في استنباط المعاني من النصوص ذات الأداء

الدقيق، وكان هؤلاء بيئةً متعلّمةً متقدّمةً في المعارف الدينيّة، قد اجتازت في حصيلتها وقُدْرَة إدراكها، المرحلة الابتدائية والثانويّة، وبعضُ هؤلاء قد اجتازوا المرحلة العالية أيضاً، وصاروا مؤهَّلِين لاستخراج دقائق المعاني والأحكام من بواطن النصوص الطويلة، والرَّبطِ بين الآيات المتفرّقات في السور.

حتّى إنَّ أبا بكر رضي الله عنه قد استطاع أن يُدْرِكَ من آيات سورة (النصر) التي هي آخِرُ سُور القرآن نزولاً، أنَّ الله عزّ وجلّ يَنْعَىٰ بها رَسُولَهُ لِنَفْسهِ، فَبَكَىٰ أبو بكر رضي الله عنه لفراقٍ قريبٍ لَمْ يقع بعد.

وهذا ما استقر عليه علم ابن عباس وعلمُ عُمر رضي الله عنهما في فهم السورة، روى البخاري عن ابن عباس قال: كان عمر يُدْخلني مع أشياخ بدر، فكأنّ بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ تُدخل هذا معنا ولنا أبناءٌ مثله؟ فقال عُمر: إنّه مِنْ حيث عَلمتم.

فدعا ذات يوم فأدخله معهم فما رأيت أنّه دعاني يومئذٍ إلاَّ لِيُرِيَهُمْ، قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إذا جاء نصرُ الله والفتح﴾ فقال بعضهم: أُمِرْنا. نَحْمُدُ الله وَنَسْتَغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟. فقلت: لا. قال: فما تقول؟. قلتُ: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح ـ وذلك علامة أجلك ـ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توَّاباً، فقال عمر: ما أعلم منها إلاَّ ما تقول».

وباستطاعة متدبّر كتاب الله تمشّياً مع مراحل التنزيل أن يكتشف من صور التلاؤم بين النصّ القرآني والبيئة التي نزل فيها، البشرية، والزمانيّة، والمكانيّة، والحالاة النفسيّة، والفكريّة، الفرديّة والاجتماعيّة، ما لا يمكن استيفاؤُهُ بنظرات عامّات، وعناصر مُحَدَّدات مفصّلات. إنَّها من الأدب الرفيع الذي يتجدّد عطاؤه كلّما وُجِد أديبٌ ذوَّاقَةٌ مُرْهَفُ الحسِّ واسع التجربةِ الأدبية، واسع الخبرة.

• • •

القاعدة الخامسة

«حول التفسيرات الجزئية والمعنى الكلّي»

مهما أمكن جمع التفسيرات الجزئية في معنى كلّي فهو الأولى بأن يكون منهج المتدبر لكتاب الله.

* * *

إذا ورد في تفسير نصّ ذي معنى كلّي تفسيرات هي من قبيل التطبيقات أو التفسيرات الجزئية التي تندرج جميعها وغيرها تحت المعنى الكلّي الذي يشملها، وهذا المعنى الكلي بدلالته الشاملة صحيح لا ردّ له، تشهد لصحته دلالة نصوص قطعية أخرى؛ فالأولى حمل النصّ على المعنى الكلّي العام، ولا داعي لتخصيصه بواحد من المعاني الجزئية التي جاءت في التفاسير، إلّا أن يكون السياق يقتضي تخصيصه حتماً، ولم يرد النصّ على أنه قاعدة كليّة عامة وما في السياق أحد أفرادها.

فكثيراً ما يأتي في التفاسير تفسير المراد من الكلمة أو الجملة القرآنية بعدّة وجوه، ولدى التمحيص والتحليل والتأمل يظهر أنّ هذه الوجوه هي من قبيل التطبيقات الجزئية أو المعاني الجزئية لدلالة الكلمة أو الجملة القرآنية ذات المعنى الكلّي العامّ الذي يشملها جميعاً، فهي تصلح لأن تدلّ عليها جميعاً دون تخصيص بواحد منها أو أكثر، وما جاء عند المفسرين ــ ولو كان مأثوراً عن الصحابة أو التابعين ــ إنما هو تفسير للنصّ القرآني ببعض ما يدلّ عليه من جزئيات أو أفراد.

والمنهج الأمثل لمتدبر كلام الله هو أن يبقي اللفظة أو الجملة القرآنية على دلالتها الكلّيّة ومعناها الشامل، حتى تدلّ على كلّ الجزئيات والأفراد والصور التي يمكن أن تكون مشمولة بها، ما لم يقم الدليل على التخصيص ببعض هذه الجزئيات أو الأفراد أو الصور دون بعض.

وعلى هذا تجمع أقوال المفسرين مهما اختلفت، وتعتبر مدلولاً عليها بالنصّ في شموله، ويظلّ المعنى الكلّي للنصّ شاملاً كلّ ما يمكن أن ينطبق عليه من جزئيات أو صور أو أفراد، دون تخصيص ببعضها إلّا بدليل مخصّص.

* * *

الأمــثــلــة

فمن أمثلة ذلك ما يلي:

المثال الأول:

جاء في تفسير قول الله تعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا... ﴿٤١﴾﴾

عدّة أقوال عند أهل التفسير:

١ ــ انفروا نشيطين وغير نشيطين.

٢ ــ انفروا في اليسر والعسر.

٣ ــ انفروا أغنياء أقوياء وفقراء ضعفاء.

٤ ــ انفروا مهازيل وسماناً.

٥ ــ انفروا خفافاً من السلاح وثقالاً منه.

٦ ــ انفروا ركباناً ومشاةً.

٧ ــ انفروا خفافاً لقلة عيالكم وثقالاً لكثرتهم.

٨ ــ انفروا شبّاناً وشيوخاً.

٩ ــ انفروا صحاحاً ومراضاً.

ونقـول: ما دام اللفظ يحتمـل كلّ هـذه التفسيرات بـدلالته الكليـة فـلا داعي لتخصيص دلالته بواحد أو عدد منها، والأولى حمله على كلّ مـا ينطبق عليـه معنى الثقـل ومعنى الخفة، من الأمـور التي ينشط معهـا المؤمن للخـروج إلى الجهاد في سبيل الله، والأمور المثبّطة عنه، دون تخصيص ببعض الجـزئيات التي ينـطبق عليها معنى الثقل الكلّي، ومعنى الخفة الكلّي.

* * *

المثال الثاني:

جاء في تفسير قول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا . . . ﴿١٤٢﴾﴾.

عدّة أقوال أيضاً:

١ ــ قال الزجاج: المراد من السفهاء ههنا مشركو العرب.

٢ ــ وقال مجاهد: هم أحبار يهود.

٣ ــ وقال السدّي: هم المنافقون.

قال ابن كثير: والآية عامّة في هؤلاء كلّهم والله أعلم.

أقـول: ومـا قـالـه ابن كثيـر أعـمّ وأشـمـل، إذ لا مـوجب للتخصيص. ومن المعلوم المجـرّب أنّ الكافـرين على اختـلاف أصنـافهم، متى أطلق بعضهم شبهـة على الإسلام رددها سـائرهم، وتنـاقلها بعضهم عن بعض، فيكـونون جميعـاً قائلين لها، ولو لم يكونوا كلّهم مبتكرين لها.

وهذه المقالة الواردة في الآية: ﴿ما ولّاهم عن قبلتهم التي كـانوا عليهـا﴾ قد يكـون اليهود أوّل من أطلق فكـرتهـا، ثـمّ ردّدهـا المنـافقـون نقـلاً عنهم، ثـمّ ردّدهـا المشركون، فالجميـع قائلون لها.

* * *

المثال الثالث:

قول الله عزّ وجل في سورة (الشرح/ ٩٤ مصحف/ ١٢ نزول) لرسوله:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾

روى البخاري عن مجاهد: ﴿فإذا فرغْتَ فانْصَبْ﴾ فانصبْ في حاجتك إلى ربّك.

أقول: ما ذكره مجاهد هو أحد مفردات ما يُطلَبُ أن يَنْصَب فيه، والأولى حمل النصّ بمقتضى العموم الذي دلّ عليه حذف معمول (فانصب) على النّصب في فعل كلّ خير وجّه الله عزّ وجلّ لفعله، من دعوة إلى الله، وجهادٍ في سبيله، ونصح للمسلمين، واشتغال بمصالحهم، وذكر لله وتسبيح ودعاء وغير ذلك.

* * *

المثال الرابع:

جاء في تفسير «هلوع» من قول الله عزّ وجلّ في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾

على ما نقل ابن جرير الطبري كما يلي:

١ ــ عن سعيد بن جبير: شحيحاً جزوعاً.

٢ ــ عن عكرمة: ضجوراً.

٣ ــ عن حصين: حريصاً.

٤ ــ عن ابن زيد وقتادة: جزوعاً.

٥ ــ عن ابن عبّاس: الهلوع: هو الجزوع الحريص.

٦ ــ عن الضَّحَّاك: الهلوع: هو البخيل المنوع للخير، الجزوع إذا نزل به البلاء.

ويلاحظ في هذه التفسيرات أنَّ أكثرها قد تناول بعض معاني كلمة «هلوع» فهي تفسيرات جزئيّة، وبعضها تناول كلّ معاني هلوع.

فإذا تدبَّرْنا التفسير القرآني الذي في الآيتين اللّتين تَلَتَا هذه الآية، وجدنا القرآن يبيّن لَنَا أنّ معنى «هلوع» هو الذي إذا مسَّه الشرّ كان جزوعاً، وإذا مسّه الخير كان منوعاً، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾

فما روى عن سعيد بن جبير، وابن عباس، والضحاك، يوافق المعنى الكلّيّ الذي فصَّله القرآن.

وما روى عن عكرمة، وحصين، وابن زيد، وقتادة، قد تناول بعض معنى كلمة هلوع.

فعلى متدبر كلام الله أن يجمع المعاني الجزئيّة الصحيحة التي تنسجم مع دلالة النصّ بسوابقه ولواحقه، وبدلالة نصوص أخرى موزعة في القرآن، تُتَمِّمُ معنى النصّ الموضوع للتدبر، ويؤلّف منها معنًى كليّاً جامعاً، ويفهم النصّ الذي يتدبّره بمقتضى ذلك.

* * *

المثال الخامس:

بعد آيات الصيام الواردة في سورة (البقرة/٢) والتي فيها:

﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ... ﴿١٨٥﴾ ﴾

أي: من شهد شهر رمضان بظهور هلال أوّل يوم فيه فَلْيَصُمْهُ. جاء قول الله عزّ وجلّ:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴿١٨٩﴾ ﴾

فذكر الحجّ تمهيداً لبيان أحكام تتعلّق بالحجّ وأشهره، ستأتي في السورة.

وجاء في تفسير: ﴿قُلْ: هيَ مَوَاقِيتُ للناس﴾ ما يلي:

١ ـ قال قتادة: هي لصوم المسلمين ولإفطارهم ولمناسكهم وحَجِّهم، ولعدَّةِ نسائهم، ومَحِلّ دَيْنِهِمْ، في أشياء.

٢ ـ وقال ابن جريج: لصومهم وإفطارهم وحجّتهم ومناسكهم. قال: وقال ابن عباس: ووقت حجّهم، وعدَّة نسائهم، وحِلّ دينهم.

٣ ـ وقال السّدّي: فهي مواقيت الطلاق والحيض والحجّ.

٤ ـ وقال الضّحّاك: يعني حِلَّ دَيْنِهِمْ، ووقتَ حجّهم، وعدّة نسائهم.

حكى ابن جرير الطبري هذه الأقوال ثم أدرك أنّ النصّ ينبغي أن يُفْهَم على عمومه، فلا يُقيَّد بما رُوي عن هؤلاء الذين حكى أقوالهم، فقال:

«فقل يَا مُحمّد: ... مواقيتُ لكُمْ ولغيركم من بني آدم في معايشهم، ترقبون بزيادتها ونقصانها ومحاقها واستسرارها وإهلالكم إيّاها، أوقات حِلّ ديونكم، وانقضاء مُدَّةِ إجارة من استأجرتموه، وتصرُّم عدّة نسائكم، ووقت صومكم وإفطاركم، فجعلها مواقيت للناس...».

أي: علامات مبيّنات للمواقيت التي تُحْسَبُ بالأيام وبالأشهر، فالعبارة عامّة في كلّ ما يصلُح توقيته بالأهلة من أمور الدين وأمور الدنيا والمعاملات.

وهذا لا يمنع من التوقيت بحركة الشمس، أو بحركة بعض النجوم وظهورها واختفائها، أو بأدواتٍ يصنعها الناس ليضبطوا بها المواقيت، لأنّ النَّصّ القرآني لم يَقْصُرْ التوقيت بها، وإنما جعلها من العلامات التي يكون بها التوقيت، فقال تعالى: ﴿هي مواقيتُ للناس﴾ بالتنكير الذي لا يُفِيد القصر ولا الحصر، ولم يقُلْ: هي المواقيتُ للناس، لأن هذه الصيغة تدلُّ على الحصر.

ونلاحظ أنّ الشَّمْس فيها مواقيت أيضاً بشروقها وغيابها، وشفقها وما تحدثه عند الفجر، وزوالها عن كبد السماء، وظلّها الذي به تُحَدَّد الساعات والدقائق، ودورة الأرض حولها التي تحدّد بها الفصول الأربعة والسنة الشمسية، وقد اعتمد القرآن سَنَتَها والسنة القمرية في قصة أهل الكهف، إذ قال عزّ وجلّ في سورة (الكهف/١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾

• • •

القاعدة السادسة

«حول تكامل النصوص القرآنية في الموضوعات التي اشتمل عليها القرآن، واستبعاد احتمال التكرير لمجرّد التأكيد ما أمكن»

النصوص القرآنية متكاملة في الموضوعات التي اشتمل عليها القرآن، وليس في أي موضوع قرآني فجوات مهملة، ومن شأن البحث والتدبّر المتعمق أن يملأ كلّ فجوةٍ من صريح نصٍ، أو من فحواه أو إشاراته، أو من محذوف مقدّر توجد دلالة عليه.

فعلى متدبّر كتاب الله أن يتتبع في الموضوع الواحد كلَّ النصوص القرآنية المتعلقة به، ويتدبَّرها معاً ملاحظاً تكامل دلالاتها، ومستبعداً ما أمكن تصورات التكرار، فالأصل التأسيس لا التأكيد.

* * *

قد يسهل على الناظر في كتاب الله دون تدبّر عميق إذا رأى آيات متفرقات تتحدّث حول موضوع واحد، أن يتصور بسذاجة أنها قد جاءت مكرّرة لغرض التأكيد، وأنّه لا توجد فروق بينها تجعلها متكاملة في دلالاتها لا مكرّرة.

وبادي الرأي هذا سطحية لا تليق بمتدبّر حصيف يتدبّر كتاب الله بعمقٍ ورويّةٍ وبحثٍ مستقصٍ لأطراف الموضوع.

كثيرٌ من النصوص كنّا نظنّها مكرّرة، وكنّا نفهم أنّ الغرض من تكريرها التأكيد، وتحقيق أهداف تربوية. لكنّ البحث العميق أثبت أنّها متكاملة مع تحقيق غرض التأكيد والأهداف التربوية.

ومن التتبع لكثير من الموضوعات في استقراءٍ ناقص بالنسبة إليّ، تأكد عندي أنّ النصوص القرآنية متكاملة في الموضوعات التي اشتمل عليها القرآن، وأنّ كلّ نصّ من النصوص الواردة حول موضوع واحد، يشتمل على ما يملأ فراغ حبّة في عقد الموضوع، ويمتاز ببيان فكرة إذا انضّمت مع سائر الأفكار التي أبانتها سائر النصوص، تكاملَ بيانُ الموضوعِ بكل عناصره، ومن كلّ جوانبه.

وتأكد عندي أنه ليس في أيّ موضوع قرآني فجوات مهملة، ولكن قد لا يهتدي المتدبّر إلى ملء الفجوة التي يلاحظها بدلالة نصٍّ من النصوص القرآنية الموزّعة في السور، إمّا لأنه لم يتنبَّهْ إلى النصّ، وإمّا لأنه لم يتنبّه إلى دلالته الظاهرة أو الخفية.

فالعيب من نقص التدبر أو من قصوره، أمّا كتاب الله فلا نقص فيه، ولا تفريط فيه بشيء مما هو مقصود الرسالة الربّانية للناس، كما قال الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ . . . ﴿٣٨﴾ ﴾

إذا حملنا لفظ الكتاب في الآية على القرآن وهو الأظهر. وكما قال الله تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

والمثل في موضوعٍ ما أو جزئية من الجزئيات قد يغني عن ذكر سائر الأشباه والنظائر.

وليس معنى هذا أنّ كلّ التفصيلات الجزئية التي جاءت في البيان النبوي قد جاءت بوجهٍ أو بآخر في القرآن، بل المراد أن أصول المعاني للموضوعات الدينية قد جاءت في القرآن بوجه أو بآخر، فالقرآن فيه استيعابٌ لأفكار كلّ موضوع من الموضوعات التي اهتم ببيانها من الكليّات الدينية، أمّا التكاليف العملية والتطبيقات

فقد أحال القرآن تفصيلاتها على البيان النبوي القولي والعملي. والاستيعاب لأفكار كلّ موضوع من الموضوعات التي استوفت مقصود الرسالة الربّانية للناس قد يكون عن طريق ضرب المثل، وقياس سائر الأشباه والنظائر عليه.

وبناءً على ما سبق فالأصل تكامل النصوص القرآنية الواردة حول موضوع واحد. والتأسيس في كلّ نصٍ منها مقدّم على التأكيد، أي فهم النصّ على أنه يحمل فكرة جديدة أولى من فهمه على أنّه يؤكّد فكرة سابقة، ولا يُصار إلى حمله على أنه من قبيل التأكيد المحض إلاّ عند تعذّر حمله على أنه يشتمل على فكرة جديدة مقبولة لا اعتراض عليها في مفاهيم القرآن، مع ما فيه من تأكيد لأصل الموضوع مقترن بزيادة الفكرة الجديدة.

والذين لا يفهمون مبدأ تكامل النصوص القرآنية، ولا يجعلونه من القواعد الأساسية لما يتدبّرون من كتاب الله، يقعون في عدة أخطاء: منها أنهم لا يتنبهون إلى المعنى المضاف الذي اشتمل عليه النصّ الثاني. ومنها أنهم يفرّقون بين آيات الله في كتابه فيفهمونها أشتاتاً، ولا يتدبّرونها على أساس أنّها وحدة مجتمعة، وأنّ كلًّا منها يملأ فراغاً من الموضوع العام لا يزاحم فيه غيره. ومنها أنهم قد يطبّقون بعضها على بعض فيجعلونها مكرّرات، ويلغون بذلك الدلالات الخاصة التي انفرد بها كلّ نصّ، والذي يوقعهم في هذا الوهم أنّ إضافة الفكرة الجديدة في النصّ الثاني أو الثالث قد استدعت إعادة أصل الموضوع، فهم يغفلون عن الفكرة المضافة فيتصوّرون أنّ النصّ كلّه تكرير لما سبقه لغرض التأكيد، وقد يعلّلون ذلك بأغراض تربوية، على أن التأكيد والأهداف التربوية أمور باقية لا تُلْغَى مع فهم الفكرة المضافة في النصّ الجديد. وهكذا يفعل المعلّم البارع كلما أراد أن يضيف فكرة لدرس سابق.

التوزيع في القصص القرآنية:

ومن ذلك توزيع القصص القرآنية على نجوم التنزيل فمنها الموجز ومنها فوق

ذلك حتى المبسوط المطوّل، وعلى مراحل من البيان التعليمي، والتَّرْبَوِيّ، والتوجيهي، وتجزئتها مفرّقة في سُوَر من القرآن متعددة، وضمن مناسبات، كلُّ مناسبة منها تستدعي التَّنْبيهَ على جانب من القصّة القرآنية، تَتَّصِلُ العظة به، أو بيانٍ دينيٍّ يوجد في هذا الجانب من القصة ما يكشف وحدة أصول الرسالات الربّانية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون، أو يكشف تشابه قلوب الناس ونفوسهم وأنواع سلوكهم، في مقابلة دعوات الحقّ التي تخالف أهواءهم، أو تخالف عاداتهم وتقاليدهم، وأَنَانيّاتهم، وتعصُّبَهُمْ لما كان عليه الآباء والأجداد، ولما كانوا عليه قبل أن تأتيهم هداية المرسلين، من ربّ العالمين.

ومن تدبُّرِ هذا التوزيع للقصص القرآنية على سور ومراحل من التنزيل، تنكشف لنا الأغراض التالية:

الأول: أنّ الإبداع البياني البليغ يكون أكثر ارتقاءً وأعلى كعباً بمثل هذا التوزيع، إذْ يأْتي فيه عرض الفكرة الواحدة بصور بلاغية مختلفة، كلٌّ واحدة منها اشتملت على رائعة أو روائع لا تجتمع كلها فيما لو عرضت القصة مرَّةً واحدة.

الثاني: استغلال المناسبات لإيراد الشاهد التاريخي عند المناسبة الداعية إلى ذكره، مع إبراز ما يتصل بالمناسبة منه، ومطابقة مقتضى الحال في كلّ مرّةٍ منها، وملاءمة مقتضيات المناسبة، لتحقيق أهداف تعليمية، وتربويّة، وتوجيهيّة، مع التصريف والتنويع في الأساليب لتكون العظة أكثر تأديةً لوظيفتها.

الثالث: تحقيق الإعجاز التكاملي في رواية القصة، بصيغ قليلة وكثيرة في مناسبات متعدّدات، وفي سور متباعداتِ أزمانِ التنزيل، دون أن تتعرّض لاختلاف بينها، بل تتكامل تكاملاً عجيباً، يكشفه التدبّر المتأني العميق.

ومثل هذا لا يكون من بشر، فهو كلام الله حقًّا وصدقاً، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

* * *

فالفهم السديد والتدبّر الصحيح للنصوص القرآنية، يوجبان على المتدبّر لكلام الله أن يجمع كلّ النصوص المتعلّقة بموضوع واحد، ويتدبّرها مجتمعة، مالئة أمكنتها من الموضوع، حتى لا يطغى بعضها على بعض، ولا يتجاوز حدود مكانه الخاصّ به فيأخذ مكان غيره.

لنأخذ مثلاً قول الله تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/١١٢ نزول):

﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ (١٠٥)﴾

إنّ هذا النصّ لا بدّ أن يفهم مجتمعاً مع غيره من النصوص الآمرة بالجهاد، والتي تحمّل المؤمنين مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على أيدي الظالمين، ووقاية الأهل من النار، والحكم بما أنزل الله، وإقامة حكم الله في الأرض عند الاستطاعة ولو باستخدام وسائل القوة العسكريّة المسلّحة.

وطريقة تفسير القرآن بالقرآن لا تعني تطبيق الآيات القرآنية الواردة حول موضوع واحد أو متقارب بعضها على بعض، واعتبارها دالّة على معنًى واحد، بل من أهمّ ما تجب ملاحظته لدى تفسيرالقرآن بالقرآن توزيع دلالات الآيات على المعاني التي تملأ فراغات في ساحة الموضوع، أو في خريطة الوضوع، فهذا أولى من تجميعها وتطبيقها جميعاً على فكرة واحدة، بل هو الذي يوجبه التدبّر الصحيح لكتاب الله المجيد.

* * *

الأمـــثـــلـــة

المثال الأول:

في موضوع من موضوعات التقوى لدينا ثلاثة نصوص:

الأول: ما جاء آخر آية المداينة في أواخر سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول):

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ (٢٨٢)

والثاني: قول الله تعالى في سورة (الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (٢٩)

والثالث: قول الله تعالى في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/٩٤ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (٢٨)

هذه النصوص الثلاثة يرى بعض المفسرين أخذاً بطريقة تفسير القرآن بالقرآن تطبيق المراد منها على معنى واحد، وهو أنّ من اتقى الله فتح الله له أبواب المعرفة، ونوّر بصيرته للجولان في آفاق العلم، ويزيد الصوفيون في هذا فيجعلون المراد منها الوصول إلى العلم اللّدنّي الذي لا يأتي عن طريق الاكتساب العلمي وإنما يأتي من طريق الإلهام أو ما يسمّونه بالكشف، وسببه التقوى فقط. ونتساءل هنا: كيف يستطيع أن يتقي الله حق تقاته من لم يسبق له معرفة طريق التقوى، فقد يعصي الله وهو يحسب أنه يتقيه؟!.

إذا تركنا في هذه النصوص الثلاثة طريقة التطبيق، واستهدينا بقاعدة تكامل النصوص، ورجعنا إلى سياق كلّ نصٍّ منها، ظهر لنا ما يلي:

١ ــ ما جاء في آخر آية المداينة التي اشتملت على أحكام رائعة، وإرشادات عظيمة، وتعليم من الله تعالى للذين آمنوا، قد جاء مناسباً تماماً لهذه الأحكام والإرشادات، ومناسباً لهذا التعليم الربّاني المنزّل في الكتاب.

إنّ الأحكام التكليفية يناسبها الأمر بالتقوى، فجاء في آخر الآية: ﴿واتقوا الله﴾.

والأحكام والإرشادات العظيمة تعليم ربّاني منزّل يناسبه الامتنان بالتعليم، فجاءعقب الأمر بالتقوى: ﴿ويعلّمكم الله﴾.

ثم ختم ذلك بتمجيد الله بأنه بكلّ شيء عليم، أي فما يعلّمه عباده هو الحق وهو الخير لهم، فقال تعالى: ﴿والله بكل شيءٍ عليم﴾.

٢ ـ وما جاء في سورة (الأنفال): ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً، ويكفّر عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم﴾؛ قد جاء بياناً لبعض ثواب المتقين في الدّنيا، وهو الفرقان، أي البصيرة التي تجعل المتقي يفرّق بين الحق والباطل، وهذا نوع من التوفيق العلمي الذي يمنح الله فيه المتقين نوراً خاصّاً لبصائرهم وقلوبهم وأذهانهم.

٣ ـ وما جاء في سورة (الحديد): ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ قد دلّ السياق على أنّه ثواب أخروي يكون لهم يوم القيامة.

فالخطاب للّذين آمنوا من أهل الكتاب، فالله يقول لهم: ﴿يؤتكم كفلَين من رحمته﴾ أي يؤتكم نصيبين، على إيمانكم الأوّل ثمّ على إيمانكم بمحمد ﷺ وبالقرآن.

والسورة قد تحدّثت في سوابقها عن النور الذي يكون للمؤمنين يوم القيامة، وأنّ المنافقين والمنافقات محرومون من هذا النور.

فتكاملت المعاني بهذه الطريقة المستهدية بقاعدة تكامل النصوص، أمّا التطبيق على معنى واحد فقد ضيّع هذه الدلالات.

فإذا أضفنا إلى هذه النصوص الثلاثة نصوصاً ثلاثة أخرى جاءت في سورة (الطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول) وهي:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ۝٣﴾

٢ ــ وقول الله عزّ وجلّ فيها:
﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾

٣ ــ وقول الله عزّ وجلّ فيها:
﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾.

وجدنا لدى تدبُّر دلالاتها أَنَّها تُضِيفُ إلى النصوصِ السابقة مَعَانيَ جديدَة، وتُبيِّن أنّ من يتّقي الله عزّ وجلّ يكافئه الله على تقواه بخمس مكافآت:

المكافَأَةُ الأولى: كُلَّما ضاقَ عليه أمرٌ من أمورِ حياته جعل الله له من أمره الذي ضاقَ عليه مَخْرجاً.

المكافَأةُ الثانية: يرْزُقُه الله دواماً من جهاتٍ لم تكن داخلةً في تقديرِهِ وحسابه.

دلّ عليهما النصّ الأول.

المكافأة الثالثة: يجعل الله له من أمره يُسْراً، فلا تتعسَّر عليه أمورُه في حياته، مكافأةً له على تقواه.

دلّ عليها النصّ الثاني.

المكافأة الرابعة: أنْ يكفّر الله عنه سيّئاته.

المكافأة الخامسة: أنْ يُعْظِمَ اللَّهُ أَجْرَهُ يومَ الدين.

دلّ عليهما النصّ الثالث.

* * *

المثال الثاني:

في موضوع النهي عن قتل الأولاد، لدينا نصّان في القرآن المجيد:

النصّ الأول: وهو الأسبق نزولاً، وقد نزل في مكة، هو قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

النصّ الثاني: وقد نزل في المدينة، هو قول الله تعالى في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) والسورة في معظمها مكي لكنَّ هذه الآية منها مدنية:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴿١٥١﴾﴾.

إذا تدبّرنا هذين النصّين وجدناهما متكاملين لا مكرّرين فما جاء في سورة الإسراء أعلن الله عزّ وجلّ فيه تكفّله برزق الأولاد، وعطف عليه تكفّله برزق أوليائهم المنفقين عليهم، وذلك في موضوع محاولة التخلص من الأولاد بقتلهم خشية حدوث الفقر في المستقبل بسبب الإنفاق عليهم، فالله ينهى عن قتلهم في هذه الحالة، ويبيِّن للأولياء أنّ رزقهم قد يكون بسبب الأولاد أو عن طريقهم إذا كبروا، وقد دلّ على هذا تقديم التكفّل برزق الأولاد ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾. ودلّ على أنّ الفقر أمرٌ محذور وقوعه في المستقبل المجهول وليس واقعاً في الحال قوله تعالى في الآية: ﴿خشية إملاق﴾ أي خشية حدوث فقر في المستقبل.

وما جاء في سورة الأنعام قد أعلن الله فيه تكفله برزق الأولياء، وعطف عليه تكفّله برزق أولادهم، على عكس ما جاء في النصّ الأوّل، لأنّ الموضوع هنا هو محاولة التخلّص من الأولاد بقتلهم، تخلّصاً من أزمة الفقر الواقع الجاثم، دلّ على هذا قول الله في الآية: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾ أي من فقر واقع فعلاً، فكان المناسب هنا تقديم التعهّد برزق الأولياء على التعهد برزق أولادهم.

فتكامل النصّان، وتمّ الموضوع من مختلف جوانبه، وحصل مع ذلك تأكيد النهي عن قتل الأولاد الذي هو أساس الموضوع بما جاء في النصّ المتأخّر.

وجاء ترتيب النزول منسجماً مع الترتيب المنطقي، فالنهي الأول تضمن النهي عن قتل الأولاد خشية حدوث الفقر في المستقبل. ولكن بقي بعده سؤال،

وهـو: فما هـو حال من يعـاني من أزمة فقـر واقـع جـاثم، أليس لـه أن يتخلّص من أولاده الذين لا يجد ما ينفقه عليهم؟. فكـان جواب هـذا السؤال الذي قـد يدور في الصدور: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم﴾.

* * *

المثال الثالث:

في موضوع التقليد لما كـان عليه الآبـاء بتعصبٍ أعمى، وذمّ ذلك، والإقنـاع بأنه ليس طريقة أهل الرأي والعقل، جاء نصان في القرآن الكريم:

النصّ الأول: مكيّ، وهو قول الله تعالى في سورة (لقمان/٣١ مصحف/٥٧ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

النصّ الثاني: مدني، وهو قول الله تعالى في سورة (البقـرة/٢ مصحف/٨٧ نزول):

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

ونحن إذا تدبّرنا هذين النّصين أيضاً وجدناهما متكاملين لا مكرَّرَيْن، وبـرهان ذلك:

أنّ مـا جـاء في (لقمـان) وكـان الأسبق نـزولاً، قـد تضمن إقنـاع المقلّدين المتعصبين لآبائهم باحتمـال أن يكون آبـاؤهم قد كـانوا متبعين لخـطوات الشيطان، الذي يدعوهم عن طريق أهوائهم وشهواتهم إلى عذاب السعير.

وإذا كـان أمرهم كـذلك فليس من شـأن ذوي الرأي والعقـل من ذريّـاتهم أن يتبعوهم اتباعاً أعمى، لأنهم سيكونون معهم في عذاب السعير.

وأن ما جاء في سـورة (البقرة) قـد تضمّن إقناع المقلّدين المتعصبين لآبـائهم باحتمال أن يكون آباؤهم قد كانوا لا يعقلون شيئاً من المعرفة، ولا يهتدون إلى سبيل نجاتهم وسعادتهم، ونلاحظ أن في تأخير بيان هذه الفكرة إلى العهد المدني حكمـةً من حكم أساليب الدعوة لما في اتّهام الآباء بأنّهم لا يعقلون شيئاً من إثـارة للغضب المنفّر والمحرّض على القتال.

أمَّا العهد المدني فقد حصلت فيه المواجهة القتالية.

وإذا كان أمر الآباء كذلك فليس من شأن ذوي الـرأي والعقل من ذريّـاتهم أن يتبعوهم اتباعاً أعمى، لأنهم إذا اتبعوهم فقد اتبعوا جاهلين ضالّين.

الأول: كون المتبوع تابعاً لأهوائه وشهواته ومتأثراً بوساوس الشيطان.

الثاني: كون المتبوع جاهلاً لا بصيرة له، ومعانداً لا يتقبل هداية.

ولمّا كان التقليد الأعمى للآباء بدافـع التعصب عرضة لأمرين فاسدين:

لمّا كان التقليد الأعمى للآباء كذلك كان منهجاً باطلاً وعملاً مـذمومـاً لا يليق بأهل الرأي والعقل أن يفعلوه، وبهذا يتمّ الإقناع لمن أراد الحق.

فتكامل النصّان، وتمّ الموضوع من مختلف جوانبه، وحصل مـع ذلـك تأكيـد ذمّ التقليد الأعمى الذي هو أساس الموضوع بما جاء في النص المتأخّر.

* * *

المثال الرابـع:

يصفُ القـرآن رغبة الكـافر في أن يُسمَـحَ لَـهُ باستئنَـاف رحلةِ الابتـلاء، منـذ لحظة موته، ونَزْع الروح من نفسه وجسده، حتى خُلودِه في جهنّم دارِ العذاب.

ولدينا في القـرآن العظيم عشـرة نصوص حـول هذا المـوضوع الجـزئي، من تدبّرها بعُمق وفَهِمَ دَلالاتها في سياقها وسبَاقها وجدها متكاملةً، ولَمْ يجد نصّاً واحداً فِيها مُطَابقاً لِأيّ نصّ آخر.

وفيما يلي بيان ذلك:

١ ــ عند الموت يقول الكافر: ﴿ربِّ ارجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالحاً فيما تَركت﴾ فيُزْجَر، ويُرفَض طلبُه.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/٢٣ مصحف/٧٤ نزول):

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

فَهُوَ يدعو مُستَجْدِياً متذلِّلاً بتعبيرٍ فيه تعظيمٌ للرَّبِّ، إذْ يستعمل صيغةَ «ارْجعون» بعد أن كان في حياته كافراً به، جاحداً له أو لرسوله، مكذّباً بيوم الدين. وهو لا يدعو عند الموت بمثل هذا الدّعاء إلّا لأنّه رأى بعض مشاهد من عالَمِ الآخرة، ورأى نُزُله مِن النار، ورأى بعض ملائكةِ العذاب. وقد جاء في السُّنَّةِ ما يدلّ على أَنَّ الإِنسان يبشّر عند موته بمقعده في دار النعيم، أو في دار العذاب.

فالكافر من أجل ذلك يسأل الرجعة إلى الحياة الدنيا ليعمل صالحاً، ولولا أملٌ لديه باسْتِجَابَةِ طلبه لم يدعُ هذا الدعاء.

٢ ــ وفي موقف الحشر بعد البعث يقولُ الكافرون المجرمون في دعاءٍ جماعي ــ وهم أَذلّاءُ نَاكِسُو رؤوسِهم ــ: ربّنا أَبْصَرْنا وسمعنا ما كُنّا نُكَذّب به يومَ كانَ أمراً غيبيّاً، وخبراً بلّغَهُ رُسُلُكَ، وأَقمتَ به علينا الحجج العقلية في كُتُبك، فارْجِعْنَا لنعمل صالحاً، إنّنا اليوم موقنون بيوم الدّين، بعد أن أدركناهُ إدْراكاً حسّيّاً، وشهدناهُ شُهُوداً بصَرِيّاً وسَمعيًا.

ولكنْ ما فائدةُ اليقين اليوم، بعد أن سقطوا في عقبة الإِيمان بالغيب، إذ الإِيمانُ بالشيء الْمُحَسّ المشهود لا قيمة له في الامتحانِ الفكري.

ولولا أملٌ لديهم ما طلبوا هذا الطلب. وقد دلّ على هذا الموقف من مواقفهم قول الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/٣٢ مصحف/٧٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

٣ ـ وحين يـرَوْنَ العذاب يقـولون في أَنْفُسِهِمْ مُتَسـائلين: هـل إلى مَـرَدٍّ مِن سبيـلٍ لاستئنـاف رحلة الامتحـان، والـظاهـر أنّهم في هـذا المشهـد يتفـاوضـون ويتذاكرون فيمـا بينهم في الـوسيلة التي تُحقّق لهم هـذا الـطلب، فـالأمـلُ مـا زال يُراوِدُهم.

دلَّ على هــذا قـولُ اللّهِ عــزّ وجـلّ في ســورة (الشـورى/٤٢ مصحف/٦٢ نزول):

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾.

٤ ـ ويبحثونَ عن مخرجٍ يُنقِذُهم من وَرْطَتهم الكبرى، فيتساءلون فيما بينهم عن شُفَعاءَ يشفعون لهم بأحد أمرين:

- إمّا بالمغفرة.
- وإمّا بأن يُرَدّوا إلى الحياة الدنيا لاستئناف رحلة الامتحان. فالأمل بتعـديل الوضـع ما زال يُراوِدُهم.

دَلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

أي: هل ينتظر الكافرون بيَـوْمِ الدّينِ إلّا تـأويلَ مَـا جاءَ في القـرآن من أخبار بعثهم وحشـرهم وعذابهم، بتحقُّقِ وُقـوعها، فهـذا هو الـذي يؤُولَ إليه (أي يَصيـرُ إليه) أمْرُها.

يـومئذٍ يقـولونَ قد جاءتْ رسُـل ربّنا بـالحقّ، فهل لنـا من شُفَعَاءَ أيّ شُفَعَـاءَ فَيَشفعوا لنا عند رَبّنا، فيغفِرُ لنا ربُّنَا بشفاعتهم، أو نُرَدُّ إلى الحياة الدنيا فنعمـلَ غير الذي كنَّا نعمل.

٥ ـ لكِنَّهُمْ حينما يُوقَفون على النار، ويرون أنّ مصيرهم حتميٌّ فيها، ويَرْوْن أنَّ مطالبهم عند الموت وفي مواقف الحشر لم يُستَجَبْ لها، وباءت كلّ محـاولاتهم بالخيبة، لا يسألون الله عزّ وجلّ الرّجعة إلى الحياة الدّنيا ليعملوا فيهـا صالحـاً، بل يقولون متمنّين: يا لَيْتَنا نُرَدّ.

دلّ على هذا قولُ اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

٦ ــ ثُمَّ بَعْدَ أَنْ يُكَبُّوا في النار ويُعذّبوا فيها، يتجدَّدُ لديهِمْ أملٌ بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ بَعْدَ أَنْ نَفَّذَ وَعيدَهُ ببعْضِ تَعْذِيبِهِمْ في جَهَنَّم، قَدْ يقبل طلبهم بأن يَرُدَّهم إلى الحياة الدنيا ليستأنِفُوا رحلةَ امتحانهم ويعملوا صالحاً، فَيَدْعُونَ اللَّهَ قائلين: رَبَّنا غَلَبَتْ علينا شِقْوَتُنا وكنَّا قوماً ضالّين. ربَّنا أَخْرِجْنا منها فإنْ عُدْنَا فإنَّا ظالمون.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/٢٣ مصحف/٧٤ نزول):

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

ولعلّ الذي أطمعهم بأن يُكرّروا طلبهم بعد دخول النار وتذوُّقِ بعض عذابها تَلْويمُ اللَّهِ لهم وهم في العذاب. فينتهزون الفرصة لعرض طلبهم من جديد، لكنّ الله عزّ وجل يقول لهم: اخْسَؤُوا فيها ولا تُكَلِّموني.

لأنّهم لو رُدّوا إلى الحياة الدنيا لاستئناف ابتلائهم فإنّهم يُرَدُّون وقد مُسِحَتْ من ذاكرتهم صُوَرُ ما جرى لهم في رحلة ما بعد الموت، فيعودون إلى مثل ما كانُوا عليه، ويُكذِّبونَ بيوم الدين مثلما كانوا يُكذّبونَ به، فلا فائدة من إعَادَةِ امْتِحَانِهم.

٧ ــ ثُمَّ يَخْطُرُ لهم أنّهم إذا اصْطَرخوا وأَضَجُّوا وجَلَّبُوا بِأَصْوَاتِهِمْ في مُظَاهَرَةٍ جماعيّة فقد يستجيبُ اللَّه لطلبهم، فيفْعلُونَ ذلك.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/٣٥ مصحف/٤٣ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا

غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

٨ ــ ويشتدُّ أَلَمُهم وضَجَرُهمْ من استِمْرَار التعذيب دون انقطاع، فيطالِبُونَ بتخفيف يومٍ من العذاب فلا يُستجاب لهم.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/٤٠ مصحف/٦٠ نزول):

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

أي: فادْعوا أنتم، فنحن لا ندعو لكم.

٩ ــ وحِين ييأسون يأساً نهائيّاً من الخروج من جهنّم ومن التخفيف من عذابها، يُنادُونَ مالكاً خازنَ النّارِ الأكبر قائلين: ليَقْضِ علينا رَبُّك، أي: يدعون بالموتِ الأبديّ. فيقول لهم: إنَّكُم ماكثون.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجل في سورة (الزّخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

١٠ ــ وبعد كلِّ ما سبق لا يبقى لهم إلاّ تمنّي أن يكونوا تُراباً كما كانت البهائم تراباً بعد بعثها.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النبأ/٧٨ مصحف/٨٠ نزول):

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾.

ولا مانـع من أن يكون هذا التمنّي مصاحباً لكلّ مواقف الكافر يوم الدين.

وهَكـذا رأينا عشـرة نصوص مـوزعة في القـرآن المجيد حـول موضـوع جُزْئيٍّ واحد، وهي فيما بينها متكاملة غيرُ مكرّرة. إنه لأمر مدهش معجز حقاً.

المثال الخامس:

من الحقـائق الدينيّـة أنّـه لا إكـراه في الـدين، وأنّ الإنسـان حـرٌّ في اعتقـاده وتفكيره وعمله الذي ليس له أضرار متعدّيّة مباشرة أو غيـر مباشرة. ولكنْ عليه بعـد ذلك أن يتحمّل نتائـج تصرفاته ونتائـج رفضه للحقّ، ورفضـه سلوك سبيل الهـداية، العاجلة والآجلة.

لقد آتاه الله في أصل تكوينه حرّيّة الاختيار، بعد أن منحه أدوات الْمَعْرفة، وشاء أن يضعه موضـع الامتحان، ليجازيه على أعماله بالثواب أو بالعقاب.

وقـد جاء بيـان هذه الحقيقـة في القرآن المجيـد، وفق منهـج حركيٍّ تـربويّ تكـامُليٍّ رَائـع، في نصوصٍ متكـاملة في أدائها لـلأهداف التـربويـة، مـع مراحـل التنزيل ومقتضياته وأسبابه:

١ ــ ففي سورة (المزمّل/٧٣ مصحف/٣ نزول): أبان الله عزّ وجـلّ أنّ هذهِ الرّسالة رسالةُ تذكرة، فَمن شاء اتَّخذ إلى ربّه سبيلاً.

أي: فليست رسالة إكراه ولا إلزام، وفيها يقول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾.

تذكرة: أي: تَذْكِيرٌ ومَوْعِظَةٌ بَاقِيةٌ وبيان.

٢ ــ وبعد ذلك اقتضت الحكمـةُ البيانيـة التربـويّة، التَّحـدثَ عَنِ المعرضين عن الاستجـابة لـدعوة القـرآن، والنـافـرين منهـا، بـأسلوب التعجُّب من إعـراضهم ونفورهم، وعَدَم لفت أنظارهم للتفكُّر فيما يُعرض عليهم، كأنّ القرآنَ بنوره الموجّـهِ

لهدايتهم صيَّادٌ يُرِيدُ أن يصيدهم، أو أسدٌ يريد أن يفترسهم، وهم كحُمُرِ الوحشِ النافرة من الصيّادِ أو الأسد، مع أنَّ ما يُعْرَضُ عليهم تَـذْكِرةٌ لا إكـراه فيه ولا قسر، وبَيَانٌ لا جَبْرَ فيه ولا قهر.

فأنزل الله عزّ وجل في سورة (المدثر/٧٤ مصحف/٤ نزول): قوله:

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾.

مستنفِرة: نافرة بذعر.

قَسْوَرَة: أسد. أو رُماةٌ صيادون.

فهي رسالة بيان ابتداءً وتـذكرةً دوامـاً تستتبع المسؤولية، لا رسالة إكراه وإجبار

٣ ــ ثُمَّ اقتضىٰ البيانُ الحديث عن القرآن وأنَّه مُنَزَّلٌ من عند الله، نزل به على محمد أمينُ الوحي جبريلُ عليهما السلام، فاستدعى ذلك وصف القرآن بأنّه ذكر للعالمين، ينتفع منه من شاء أن يستقيم، بإضَافَةِ فكرة مشيئة الاستقامة، بعد مشيئة الذكر التي سبقت في (المدّثر) وفكرةِ عمومِ رسالة القرآن للعالمين.

جاء هذا في سورة (التكوير/٨١ مصحف/٧ نزول) فقال الله عزّ وجلّ فيها في معرضِ الكلام عن القرآن:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

أي: هو بيان وتعليم ابتداءً وذكر دواماً.

٤ ــ ثم في سياق تربية الله لرسوله ﷺ بشأن انشغاله بدعوة بعض كبراء المشركين عن إجابة السائل الأعْمَىٰ، وعبوسِه في وجهه، وتولّيه عنه، أبان الله له أنّ وظيفته وظيفةُ مذكّر، وليستْ وظيفة مُكْرِهٍ وَلا مُغيّر.

فأنزل الله عليه في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) قوله:

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ ﴾.

٥ ــ ثُمَّ عَرَضَ اللَّهُ مثلاً من أمثلة إكراهِ أهل الكفر لأهلِ الإيمان على أن يتركوا دينهم الرّبّاني، ويَعُودوا في مِلّتِهِمُ الأولى، ففِي عَرْضِ قصة شعيب عليه السلام مع قومه، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨ ﴾.

أي: إنَّ قَضايَا العقيدة واعتناق المذاهب الدينية والفكرية لا يُعقَل أن تكون مع الكراهية والإجبار، وإنّما تكونُ بالرَّغبةِ الذاتيّة والاختيار الحرّ.

٦ ــ ولمّا اشتدَّ حِرْصُ الرسول ﷺ على إيمان قومه، حتَّى أهمّه كفرهم، وشقَّ عليه إعراضُهم، وجعلتْ رحمتُه تُقضُّ مضجِعَهُ وتوجعُ قلبه من أجلهم، أنزل الله عزّ وجلّ عليه قوله في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ ﴾.

أي: فلا تحملْ يا محمَّدُ هَمَّ الّذين اختاروا لأنفسهم الكفر بعد تذكرتهم وبيان الحقّ لهم، ولا تُشْقِ نفسكَ من أجْلِهم بالألم عليهم، فما أَنْزَل الله عليك القرآن إلّا تذكرة لمن يخشى.

وفي هذا توجيه مباشر للرسول ﷺ لتأديبه برفق حول مهمته في رسالته، وتوجيه لكلّ داعٍ إلى الله من بعده، وفيه تعريضٌ غير مباشر للكافرين المعرضين.

٧ ـ لكنّ رحمة الرسول ﷺ ورأفته بقومه كانت شديدة، وكان حرصه على إيمانهم بالغاً، وكان توجُّع قلبه من أجلهم عظيماً، فلم يستطع الضغط على عاطفته هذه، فأنزل الله عليه أسلوباً تربويّاً فيه الإقناع المشوبُ بالعتاب، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

أي: ولو شاء ربّك يا محمد إكراه الناس على الإيمان لسلبهم حرّيّاتهم، فجعلهم مجبورين، فَأَكْرَهَهُمْ، فآمن من في الأرض كلُّهم جميعاً، أو لاتّخذ من الوسائل ما يجعلهم مُلْجَئين إلى الإيمان إلجاءً.

لَكِنَّ هذا ينافِي حكمة الابتلاء، وحكمة تركِ الناس لاختيارهم الحرّ.

أفأنتَ يا محمّدُ، ويا أيُّها الداعي إلى الله من بعده، تكْرِهُ الناسَ حتَّى يكونوا مؤمنين، وهو أمرٌ لم يخترْهُ الله لنفسه، مع قُدْرَته التَّامّة عليه.

٨ ـ ثمّ أبان الله لرسوله جانباً من حِوَارِ نوحٍ لقومه حول حرّية الناس في اختيار الإيمان أو الكفر، وأنّ الرسول لا يملك إلزام الناس بالإيمان، بعد أن أعطاهُمُ اللَّهُ حرّيَةَ الاختيار ليبلُوَهُم، وحمَّلهم مسؤولية اختيارهم، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

٩ ـ ثُمَّ علَّمَ اللَّهُ رسولَهُ بعضَ أساليب النّقاش للكافرين في موضوعٍ هو من أَهَمِّ موضوعات الدين، وهو موضوع العبادة، وأبان له في ضمن هذه الأساليبِ أُسْلُوبَ تخييرهم في عبادة ما شاءوا، ولَكِنْ عليهم بعد ذلك أن يتحمَّلوا نتيجة اختيارهم، وهو الخسرانُ المبين، والعذابُ الأليم يوم الدين.

فأنزل الله عزّ وجلّ عليه قوله في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾.

أي: فاعْبُدُوا مَا شئتم من دُونِ الله، وعليكُم أنْ تتحمَّلوا خَسارَتَكُمْ أنفسكم وأهليكم يوم القيامة. ألَا ذلك هو الخسرانُ المبين.

١٠ ـ ثمَّ خاطب اللَّهُ عزّ وجلّ الملحدينَ في آياته خطاباً مباشراً فقال لهم: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ ولَكِنْ حَمَّلَهُمْ مسؤوليَّاتهم تجاه مشيئاتهم المخالفة لما أمرهُمْ به ونهاهم عنه، وأَبان لهم أنّ نتيجة معاصيهم لربّهم وإلحادهم في آياته عذابٌ شديد.

نجدُ هذا في قول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

١١ ـ ثُمَّ حَدَّدَ اللَّهُ لِرَسوله مسؤوليَتَه في الرّسالة بصورةٍ صريحة غير قابلة للتأويل، وأبان له أَنَّه رسولٌ مذكِّرٌ فقط، وأنَّهُ ليس مُكْرِهاً لمن رفضوا الاستِجَابَةَ لدعوته، ولا مسيطراً عليهم، فقال عزّ وجلّ له في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول):

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

والخطابُ للرَّسول ﷺ في هذا ينسحبُ على كُلِّ الدّعاةِ إلى الله، وكُلِّ أمّة الرسول.

١٢ ـ ثُمَّ أنـزل اللّهُ على رسـولـه محمّـد ﷺ قـولَـهُ في سـورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

فَأَمَرَ الله عزّ وجلّ رسولَه في هـذا النصّ بأن يقـول للكافـرين: إنَّ الحق الذي أدعوكُمْ إليه هو من رَبِّكُمْ وليس من عند نفسي، والله هو الذي سيجازيكم على عدم استجابتكم إذا لم تَسْتَجيبوا، فمن شاء منكم فليـؤْمنْ ومن شاء فليكْفر، أمَّا من شـاء الكفر فليتحمَّلْ نتيجة اختياره.

واقْترن هٰذا النصّ بتحذيرٍ شديدٍ من عذاب النار، مع شرح جانب ممَّا في نـار جهنَّم من عذاب الظَّالِمين.

١٣ ـ ثُمَّ أَبَانَ الله عزّ وجلّ أنّ الإكراه كما أنّه ليس وسيلةً صحيحةً ولا مقبولةً للدخول في الدّين، فَهُـوَ لا يُخْرِجُ من الـدين من أعلَنَ بسببه الكفـر، وقلبُه مـطمئنٌّ بالإيمان، فأنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

١٤ ـ وتعرّض القرآن بعد كلّ ما سبقَ لحملةٍ شَعواءَ ضِـدّهُ من كُفَّار قـريش، فوصموه بأنّه قول شاعر، وبأنَّه قولُ كاهن، فأبـان الله أنّه تـنـزيلٌ من ربّ العـالمين،

وأنـه لَتَذْكـرةٌ للمتقين، فَأنـزلَ قَـولَـه عـزَّ وجـلَّ في سـورة (الحـاقَـة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

الوتين: عرقٌ متعلّقٌ بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.

١٥ ـ ثمّ أَبَانَ اللّهُ عزّ وجلّ للنَّاسِ جميعاً أنّ لهم مشيئةً حُـرَّةً يَستطيعـون بها أن يختاروا لأنفسهم مآباً حسناً إلى ربّهم يكونون فيه سُعداء سالمين، وذلك بالإيمان والعمل الصالح، وأن يختاروا لأنفسهم عاقبةً سَيِّئَةً بِكُفْرِهم، فأنزَلَ سبحانَهُ في سياق الحديث عن يوم الدين قوله في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾ ﴾.

فاشتمل هذا النصّ على التصريـح بأنّ باستطاعة الإنسانِ أنْ يختار لنفسه مآبـاً سعيداً عند ربّه في الجنة، أو عاقبة وخيمةً في النار دارِ عذاب الكافرين.

كُلُّ ما سبق من نُصُوص كان في المرحلة المكيّة.

١٦ ـ ثمَّ أَبـانَ الله عزّ وجـلّ في أول سـورة مَـدَنيـة حقيقـةً لا نقض لهـا من حقائق الدين، وهي أنّـه لا إكراهَ في الـدين، فأنـزل قولـه تعالى في سـورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾.

١٧ ــ وأخيراً يُقْفِلُ اللَّهُ عزّ وجلّ عِقْدَ الْمَوْضُوعِ بمثلِ النصِّ الـذي بدأ في سورة (المزَّمل) فأنزل قوله في سورة (الإنسان / ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: فمن شاء اتخذ إلى رضوانِ ربِّهِ وَنعيمه في جنّتهِ سبيلاً.

ويُطْبقُ عزّ وجلّ على هذا القفل قوله بَعْدَهُ مباشرة:

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾ ﴾.

أي: لا يكـونُ لكم مشيئةٌ إلَّا إذا منحكُم الله جهـاز المشيئـة الحـرّة، ومكَّنَكُمْ من اسْتخدامه، لتشاءُوا به طريق نجاتكُم وسعادتكم، أو طريق هَلاككُمْ وشقائِكُمْ.

لكِنَّ اللَّهَ ما وضعكم موضـع الامتحان إلَّا بعـد أن منحكم هذا الجهـاز وسائـر شروط التكليف، فأنتم إذَنْ مسؤولونَ مسؤوليَّةً تـامّةً عن مشيئـاتكُمْ، وعن أعمالكم، لذلك يُدْخِل اللَّهَ مَن يشاءُ في رحمتهِ، وهي جنّته، وأمّا الـظّالمونَ فقـد أعدَّ الله لهم عذاباً أليماً في دار العذاب عنده.

وبـذلكَ تكـامل عِقْـدُ الموضـوع، وأدّت النصوص أدوارهـا التربـويّـة بحسب مراحلها الزمنيّة، وبحسب الحاجة إلى حركيّة الدعوة ومقتضياتها التربويّة.

وهكذا ظهر لنا أنّ سبعة عشر نصّاً موزّعة في سور القرآنِ العـظيم، ومتدرجـة مع مراحل التنزيل ومناسباته ومقتضياته، حول موضوعٍ جزئيٍّ واحدٍ، وهي فيما بينها متكاملة غير مكرّرة. إنّه لأمر مدهش معجز حقاً.

* * *

المثال السادس:

يشترط لنجاح دعوة الداعي، ولإقامته الحجّة على المدعُوّين، تجرُّدُه من المصلحة الشخصيّة لدى من يدعوهم، وتبرُّؤه من نفعٍ يصيبُه من قِبَلِهم، وإخلاصُه دعوتَه ابتغاءَ رضوانِ اللَّهِ عزّ وجلّ، وحرصاً منه على جلب الخير والنفع والهداية لمن يدعوهم.

وذلك لأنّ الناس متَىٰ أَحَسُّوا بأَنَّ من يدعوهم إلى فكرة أو مبدأ أو عمل من الأعمال لَـهُ مصلحة خاصةٌ عندهم غير نفعهم وفائدتهم ومصلحتهم، كانَ ذَلِكَ عقبةً في نفوسهم، تصدّهُمْ عن الاستجابة له، واتّباعه في دعوته، لا سيما إذا كانت دعوته تتطلب منهم تضيحةً بشهواتهم وأهوائهم ومصالحهم وأموالهم ونُفُوسهم.

هذه العقبة النفسيّة قد ذلَّلَتْها الرسالات الرَّبّانية للناس، بتجريد الرسل من المصالح الشخصية التي ترتبط بالذين يدعونهم إلى سبيل ربّهم.

فدعوة الرُّسل دعوةٌ إلى الله لا إلى أنفسهم، وهم لا يسألون الناس أجراً على ما يقومون به من أعمالٍ لخير النّاس، وما يبذلونه من تضحيات لأُمَمِهم والذين يتبعونهم مؤمنين بهم، وما يقدّمونه لهم من هداية ونُصْح وإرْشادٍ وتربية، وحرصٍ على نجاتهم، وغَيْرَةٍ عليهم.

إنَّما الباعثُ لهم ابتغاءُ رضوان الله، وإرادة الخير للناس، بعاطفةِ الرَّحمةِ بهم، والشفقة عليهم.

وحول موضوعِ تَجَرُّدِ رُسُلِ الله جميعاً عن المصلحة الخاصة لدى أُمَمِهِم، أنزل الله عزّ وجلّ اثني عشر نصّاً تكامل فيها عقد الموضوع بكل ما يتطلّبه من أفكارٍ، وحَرَكيَّةٍ إقناعيّةٍ تَرْبَوِيّة.

١ ـ ففي أول الأمر خاطب الله عزّ وجلّ رسوله محمّداً ﷺ بقوله في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول):

﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرًا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٦﴾.

فكـان هـذا أوّل مـا نـزل في هـذا المـوضـوع، وجـاء بـأسلوب التعجُّب من إعـراضهم عن دعوة الـرّسول ﷺ، مـع أنّه لم يَسْـأَلْهم أَجـراً على مـا يُقَـدِّم لهم من نُصْح، فهو غير ذي مصلحة شخصيّة عِنْدَهُمْ.

مع ما في هذا من تعريض للرسـول ﷺ بأن لا يسـألهم أيّ أجر على مـا يبذل من أجل نجاتهم وسعادتهم، وتوجيه لكل الدعاة من بعده أن لا يسألوا الناس أجـوراً على ما يحملون لهم من هداية ونصح وإرشاد ودعوة إلى سبيل ربّهم.

٢ ــ ثُمَّ أمر الله رسوله بأن يصرّح لقومه بأنّه لا يسألهم أيَّ أجـر على ما يقـوم به من أجل هدايتهم حرصاً على نجاتهم وسعادتهم، فأنـزل الله عزّ وجـلّ عليه قـوله في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وَمَا أَنَا مِنَ المتكلّفِينَ: أي: لستُ من الذين يتصنَّعُونَ الأُمور فيما تَعْهَدونَ من شأني، حتَّى أكون عندكم مُتَّهَماً بالتَّقَوُّل على الله، واخْتِـراعِ ما لم يُنَـزِّل الله عليَّ، فَخُلُقِي عندكم معروف، وحالي لديكم غيـر خافٍ، فقـد لبثت فيكم مُدَّةً علمتم بهـا صِدْقي ونزاهتي وأمانتي.

فالقرآن ذِكْرٌ من الله للعالمين، وهو حقٌّ وصدق، ولا يمكن أن يـأتي به بشـر، وسيأتي زمانٌ تَعْلَمُونَ فيه صدق أنبائه، وهذا خطاب مستمّر لكلّ من يأتي من البشـر بعد عصر التنزيل.

٣ ــ وبعد أن صار للرسول ﷺ أتباعٌ من المؤمنين الصادقين، وكانوا شديـدي الحرص على بَذْلِ كلّ ما لديهم لرسول الله تقرُّبـاً بذلـك إلى الله، ولئلاّ يفهمـوا من النّصينِ السّـابقين أنّ اللَّهَ عزّ وجـلّ قد منعـه أن يقبل أيّ شيءٍ ممَّن آمن بـه واتّبعه، أنزل الله على رسوله قوله في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ما أسألُكُمْ على ما أبذُل لَكُمْ لتعليمكُم وهدايتكُم ونُصحكم أيّ أجر. لكن لا تفهموا من ذلك أنَّه يَحْرُم عليكم أن تبذلُوا لي شيئاً تَتَقَرَّبُونَ به إلى الله، أو يحرُم علي أن أقْبَلَ مِنكُمْ شيئاً، فَهَذَا الأمر مختلف، فاللَّه لم يُحَرّم ذلك.

فاستثنى الله عزّ وجلّ من عُمومِ البذل الّذي قد يتوهَّمُهُ المخاطبون من عبارة «ما أسألكم عليه من أجر» عَمَل من شاء أن يتخذ إلى مرضاةِ رَبِّهِ وثوابِه سبيلاً، فَيُقدّم شيئاً إلى رسول الله، طلباً لمرضاة الله، لا أجراً للرسول على ما يبذُلُ لهم، إنْ أَجْرُه إلاّ على الله.

فالرسول لا يطلُبُ الأجرَ، ولا يقبل ما يقدّمونَ له على أنّه أجر. وهكذا ينبغي أن يكون كلُّ الدعاة إلى الله.

٤ ـ ثمّ أنزل الله على رسوله بيان ما قاله كُلٌّ من نوحٍ وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام لأقوامهم، وأنّ كلّ رَسُولٍ منهم قال لقومه:

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

نجد هذا في الآيات؛ «١٠٩ ـ ١٢٧ ـ ١٤٥ ـ ١٦٤ ـ ١٨٠» من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/٤٧ نزول).

٥ ـ ثُمّ أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/٥١ نزول) بيان مقالة قالها نوحٌ عليه السلام لقومه:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: فإن تولَّيْتُمْ ولم تؤمنُوا بي، فلم يكن منّي مطالبة لكم بأجرٍ، حتّى أكون

متَّهماً في نفوسكم بأنّي أدعوكم لمصلحة لي عندكم، فَما أجري إلاّ على الله الّـذي أدعوكم إلى الإيمان به، وإلى عبادته وحده، وأنا مِثْلُكُمْ مأمورٌ بالشيءِ الذي أدعوكم إليه، فقد أمرني ربـي أن أكونَ واحـداً من المسلـمين، المؤمنين بربهم المـطيعين له، المستسلمين لأوامره ونواهيه.

٦ ــ ثمّ أنـزل الله عزّ وجـلّ في سورة (هـود/١١ مصحف/٥٢ نـزول) بيـان مقالة أُخْرَى قالَهَا نوحٌ عليه السلام لقومه:

﴿وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

٧ ــ وأنزل في سورة (هود ١١) أيضاً مقَالةً قالَهَا هودٌ عليه السلام لقومه فقال عزّ وجلّ فيها:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

٨ ــ ثمّ أنزل الله على رسوله ﷺ قولـه في سورة (يـوسف/١٢ مصحف/٥٣ نزول):

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

فألْمَحَ اللَّهُ في هذا النصّ إلى حـرصِ رسولـه على أن يؤمن الناسُ جميعـاً، ولَكِنْ أَيْـأَسَـهُ مِنْ ذلِـك بقـولـه: ﴿ومـا أَكْثَـرَ النَّـاسِ ولَـوْ حَـرَصْتَ بِمُؤْمِنِين﴾ أي: فـلا تَحْمِلْ همَّ هـذِهِ القضية، لأنَّ النـاس مَتْرُوكـون لاختيـاراتهم الحـرّةِ فـلا سبيـل إلى إكراههم.

وشهد الله لرسوله فيه بأنّه لا يَسْأَلُ قومه أجراً على ما يقوم به من أجلهم.

٩ ــ ثمَّ أمر الله رسوله بأن يؤكّد مقالته لقومه بأنّه لا يسألُهم أجراً، مقتدياً بهدى الرُسل من قبله، فأنزل عليه قوله في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول):

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

١٠ ــ ثمّ أرشد اللَّهُ رسولَه ﷺ إلى محاجَّةِ قومه بأنّه ليس صاحب مصلحة شخصيّةٍ عندهم، إذْ يدعُوهم إلى دين الله، فهو لم يطلُبْ منْهُم أيّ أجرٍ على دعوته وتعليمه ونصحه، وذلك في قوله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/٣٤ مصحف/٥٨ نزول):

﴿ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ ﴾.

أي: أنا لم أَسْأَلْكُمْ أَجْراً، وإنْ كنْتُمْ تتوهَّمون أنّي طَالبُ أجر، فهذا الأجر الذي أطلبُهُ هو لكُمْ. إنْ أجري إلاَّ عَلَىٰ اللَّه، وهو العليم بما في نيّتِي، يَشْهَدُ لي بأنّي لم أَطلب أجراً منكم ولا في دخيلة نفسي، إنَّهُ على كُلّ شيءٍ شهيد.

١١ ــ ثم أرشد الله عزّ وجلّ رَسُولَهُ أن يستثني من عموم الأجر خصوص المودّة في الْقُرْبَىٰ، مع أنّ هذه المودّة ليست هي من قبيل الأجر، وإنّما هي من مظاهر صدق الإيمان، وصدق الارتباط بالرسول صلوات الله عليه، وهذا الارتباط يؤكّد ويدعم قضيّة الإسلام والطاعة، ولكن قد يتوهّم بعض الناس أنّ هذه المودّة هي من الأجر الذي يطلبه الرسول، فأنزل الله عليه ــ دفعاً لهذا التوهُّم ــ قوله في سورة (الشورى/٤٢ مصحف/٦٢ نزول): وهي سورة مكيّة إلاّ أنّ هذا النصّ منها نصٌّ نزل في المدينة:

﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ... ﴿٢٣﴾ ﴾.

ووضـع هذا النصّ في سورة مكيّة مُراعاةً لمقتضيات التسلسل الفكري، وأُخِّرَ تَنْزيلُهُ لِلمرحلة المدنية مـراعاةً لمقتضَيَـاتِ حَالِ المخـاطبين المؤمنين، فالمـودّة في الْقُرْبَـىٰ لم تكن ذاتَ مَوْضـوعٍ في المرحلة المكيّـة، ثمّ صارت ذات مـوضوعٍ في المـرحلة المدنيـة، لكِنَّ أصل المـوضوع هـو من موضـوعات قـواعد الـدّعـوة الّتي اقتضت الحكمة استكمال تأسيسها في المـرحلة المكية، فمُـراعاةً لـلاقتضاءيْن نـزل النصّ مدنياً، ووضـع في سورة مكيّة.

١٢ ــ وبعد معالجة هذا الموضوع بالحكمة الرفيعة التي سبق بيانها، وكـان ذَلـك خلال المـرحلة المكيّة التي أوشكت أن تنتهي، ختم الله عـزّ وجلّ المـوضوع بمثل ما بـدأه به في سـورة (القلم) فأنـزل الله عزّ وجـلّ على رسولـه قولـه في سورة (الطور/٥٢ مصحف/٧٦ نزول):

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

فاكتمل بـذلك عقـد الموضـوع من كلّ أطـرافه، وظهـرت حركيّـة التربيّـة في مراحلها الزمنية، خلال المدّة المكيّة من دعوة الرسول ﷺ.

* * *

المثال السابـع:

جـاء في القرآن المجيـد وصف أحكام الله وشـرائعه وأوامـره ونـواهيـه بـأنّهـا حدود الله.

وقد سُمِّيتْ حدوداً لأنّ الحدّ هو الْمَعْلَم الفـاصل بين أمـرين، والفاصـلُ يُميّزُ الشيء عن الشيءِ حتّى لا يختلطا، ولا يتـداخلا في أنفسهمـا أو في تصوُّر النـاظـر إليهما والباحث عنهما.

والحدُّ مـانـع من دخـول أي جـزء من أجــزاء كـلٍّ من المحــدودين بـه في صاحبه، ومانـع من خروج أيّ جزءٍ من أجزاء المحدود به إلى غيره.

والحدّ يقام عند الحِمَى لمنع الذين هم خارج الحمى من الدخول إلى باطن الحمى، أو الذين هم داخل الحمى من الْخُروجِ إلى ظاهره، وقد جاء في الصحيح من أقوال الرسول ﷺ: «وإنّ لكلّ مَلِكٍ حِمَىٰ، ألا وَإنّ حِمَىٰ اللّهِ مَحَارِمُه».

وحدودُ اللّهِ هِيَ أحكام شريعته لعباده ذاتِ المقادير المحدّدة المقدّرة. وقد جاء التعبير عن أحكام الشريعة الرّبّانية بالحدود في القرآن المجيد أربع عشرة مرّة في تسع آيات. وفي بعضها النهي عن اقتراب هذه الحدود، وفي بعضها النهي عن تعدّيها وتجاوزها، وفي بعضها التنبيهُ على وجوب إقامتها، وفي بعضها الثناء على الحافظين لها.

١ ــ ففي الآية الأخيرة من آيات الصيام الواردة في سورة (البقرة ٢) من الآية ١٨٣ إلى الآية ١٨٧ قال الله عزّ وجلّ:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا . . . ﴿١٨٧﴾﴾.

وفي هذه الآيات أحكام تحريم، وأحكام إيجاب، وأحكام إباحة، وأحكام رخصة.

٢ ــ وفي سورة (البقرة ٢) أيضاً جاء بيان أحكامٍ تشريعيّة كثيرة بيّنها اللّهُ للذين آمنوا، فيها محرّمات، وفيها واجبات، وفيها مباحات، وقال الله عزّ وجلّ مشيراً إليها:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾.

٣ ــ وعَقِبَ بَيَانِ أحكامٍ تشريعيّة كثيرة تتعلّق بالحقوق المالية لليتامى، والنساء، وتتعلَّقُ بالمواريث وما فرض الله فيها للورثة، قال الله عزّ وجلّ في سورة (النساء ٤):

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

٤ ـــ وجاء في أوّل سورة (الطلاق ٦٥) قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾.

٥ ـــ وأَثْنَىٰ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ الْمُجاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ الْقَائِمِينَ بِمَا شَرَعَ اللَّهُ لِعِبادِهِ، وأَبَانَ مِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ حَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ، فقال تعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

في هٰذِهِ النُّصُوصِ نُلاحِظُ أنَّ اللَّهَ عزَّ وَجَلَّ قَدْ ذَكَرَ حُدُودَهُ، أي: أحكامَهُ التَّشْرِيعيَّةَ لعباده:

- فَنَهَىٰ عن اقترابِها مَرَّةً، فَقَالَ: «فَلا تَقْرَبُوها».
- ونهىٰ عن تَعَدِّيها مرّةً، فقال: «فَلَا تَعْتَدُوها».

● وتَوَعَّدَ مَنْ يَعْصِيَ اللّهَ ورسُولَهُ ويتعدّىٰ حدوده بالْخُلُودِ في النار وعذابٍ مُهِين، فقال: «ومَنْ يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيها وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ».

● ووصف من يَتَعَدَّى حدودَهُ تَعَدِّياً مُسْرِفاً بِأَنَّهُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ، فقال عزّ وجلّ: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

● ووصف من يتعدّى حدوده بأنّه قَدْ ظَلَمَ نفسه، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

● ووصفَ النُّخبة الممتازة من المؤمنين بأنَّهم حافظون لحدود الله، فقال عزّ وجلّ في شأنهم: ﴿والْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ويَسْتَطِيعُ المتدبّر لهذه النّصوص ملاحظة التكامل فيما بينها، إذْ يَدُلُّ كلُّ نصٍّ منها على حكمٍ لم يدُلَّ عليه النصّ الآخر.

أوّلاً: لقد نهى الله عزّ وجلّ عن اقتراب حدوده بالمعصية أو بالتعديل والتغيير فيها.

والنهيُ عن الاقتراب أبلغ من النهي عن الفعل وعن الدخول في الحدّ، والغرض من هذا النهي تحذير المكلّف حتّى يأخُذَ الْحَيْطَةَ لِنَفْسِهِ، وذلك لأنّ من اقترب من الحدّ أوشك أن يقع فيه، لا سيما إذا كان الاقتراب اقتراباً نحو المحرّمات التي تشتهي الأنفس الوقُوعَ فيها. أو كان الاقتراب دخولاً في المشتبهات، كما قال الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير:

«إنّ الْحَلاَلَ بَيّنٌ، وإنَّ الْحَرَامَ بَيّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مشتبهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَىٰ الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَىٰ حَوْلَ الْحِمَىٰ يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ

حِمَىٰ، أَلَا وَإِنَّ حِمَىٰ اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

فَمن كان من أهل مرتبة الإحسان، أو من أهل مرتبة البرّ، لم يقتربْ من حدودِ الله حَذَراً وتَوَرُّعاً، وإنْ كان باقترابه لا يقع في معصية الله. ولذلك لم يجعلِ الله المقترب من حدوده عاصياً ولا ظالماً لنفسه، فالنهيُ في النصّ نَهْيُ إرشادٍ وتحذير، وليس نَهْيَ تحريم.

ثانياً: ونَهَى الله عزَّ وجلّ عن تعدّي حدوده، مع وصف المتعدِّي بأنّه ظالم لنفسه. وقد جاء في سِيَاق بعض أحكام الطلاق بخطاب النبيّ: ﴿يا أيُّها النبيُّ إذا طلقتم النساءَ فطلقوهُنّ لعدّتهنّ﴾ إشارة إلى أنّ هذه الحدود يخاطب بها أصحاب المراتب الرفيعة في الإيمان.

والمتعدِّي هو المتجاوز لأوّلِ الحدّ، ومن ذلك نعلم أنّ أيّ دخولٍ في الحدّ هو تَعَدٍّ وتَجاوز، سواءٌ أكان التعدِّي خروجاً من الواجب، أو دخولاً في المحرّم.

وإنّما جُعِلَ الحدُّ للوقوف دونه، أو عنده تماماً. والدخولُ في الحدّ نفسه تعدٍّ وتجاوز، إذْ لا يدخلُ في الحد الفاصل إلاّ من تجاوز المحدود في معظم الأحوال.

فالنهيُ في النصّ هُنَا نهي تحريم وإلزام جازم، بدليل وصف المتعدّي بأنّه ظالمٌ لنفسه، والمخالف هنا مسلمٌ عاصٍ إذا كان من أهل الإيمان، والاعترافِ بالذنب، لكنّ معصيته ليست من الكبائر. إذْ جاء وصف هذا المتجاوز بأنّه ظالم لنفسه بالنسبة إلى تعدّي الحدود التي جاءت في سياق النصّ، فهذا التعبير يشعر بأنّ التجاوز هو من حدود المعاصي التي لم تصل إلى المستوى الذي يُوصف أصحابُها «بأَنَّهُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ» على سبيل المبالغة، حتَّى كأنّ أشدَّ الظلم منحصر فيهم، كما جاء في الآية (٢٢٩) من سورة (البقرة ٢):

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ثالثاً: أمّا تَوَعُّدُ من يَتَعَدَّى حُدُودَ اللّه بالخلود في النار، والعذاب المهين، فهو توعُّد للجاحد الكافر بها، العاصي لله ولرسوله، ولذلك جاء البدء ببيان الأحكام الذي رُتِّب على تعدّي حدود الله فيها هذا التوعُّدُ الشديد، خطاباً للناسِ جميعاً، لا للذين آمنوا فقط. فقال الله عزّ وجلّ في بدء بيانها في أوّل سورة (النساء ٤):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ . . . ﴿١﴾﴾.

وتضمنّت هذه الآية دعوةً إلى الإيمان.

وبعد بيان أحكام كثيرة جاءت في إحدى عشرة آية قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

رابعاً: وأمّا وصفُ من يتعدَّى حُدُودَ اللّهِ بأَنَّهُمْ همُ الظالمون، فقد جاء وصفاً للمؤمنين الّذين يسرفون في تعدِّي هذه الحدود من مستوى ارتكاب الكبائر، كشرب الخمر، وتعاطي الميسر، وأكل أموال اليتامى ظُلْماً، ونكاح المشركات، وكتمان المطلقات مَا خلق الله في أرحامهنّ من أزواجهن الذين طلّقوهُنّ.

ولذلك جاء بعدها قوله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾.

خامساً: وأثنىٰ الله عزّ وجلّ على النخبة الممتازة من المؤمنين، وبشَّرَهُمْ بِمُبَشِّرٍ به عظيم، وذكر من صفاتهم: أنهم التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله.

وحُقَّ لهذه النخبة الممتازة هذا الثناء، وهذه البشرى.

وهكذا اكتمل عقد الموضوع من كلّ أطرافه، وجاءت كلّ آية بمثابة حبّة في عقد الموضوع.

* * *

المثال الثامن:

من الموضوعات القرآنيّة التي فصّلها القرآنُ بالتّدرُّج في نجومٍ من التنزيل المدني، مع إلماح خفيف في التنزيل المكي، ما جاء فيه عن الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وهُمُ السابقون الممتازون من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، من أمّة مُحمَّد ﷺ، ومن الأمم السالفة أتباع الأنبياء والرّسل السابقين.

فلْنتتبَّعْ هذا الموضوعَ وفق تَسَلْسُل النُّصوصِ التي نَزَلَتْ بشأنهم بحسب ترتيب النزول.

أوّلاً:

جاءت إشارةٌ خفيفةٌ إليهم في أوائل التنزيل المكّي، في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

فوصف اللَّهُ هٰذِهِ النَّفْسَ التي يستقبلها عند موتها بخطاب التكريم والإيناس بِأنَّها مطمئنَّة. ونفهم باللزوم العقليّ أنّ طمأنينتها إنَّما تكونُ بسبب ثقتها بمكافأة الله لها على ما قدّمت من إيمان صحيح صادقٍ، وعملٍ صالح، يؤهّلها للنجاة وللظفر بالفوز العظيم.

لذلك يقول الله لها: ارجعي إلى ربّك راضيةً عنه فيما يمنحك من ثواب عظيم ومنزلة رفيعة، ومَرْضِيَّةً منه، أي: قد رضي عنك بسبب ما قدَّمت مِمَّا يُرْضيه. وَيَقول لها: ادْخُلِي في عبادي. أي: الذين شرفتهم بأن أضفتُ عُبُودِيَّتَهُمْ لي،

إذ عبدوني حقاً لم يشركوا بعبادتي أحداً. ويقول لها: ادخلي جنّتي. أي: العالية الرفيعة التي شرّفتها بأن أضفتها إليَّ، لارتفاع منزلتها، وعظم شأنها.

* * *

ثانياً:

ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ بشأنهم قوله في سورة (البيّنة/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾.

فأبان هذا النصّ عدّة بياناتٍ عنهم:

البيان الأول: أنّ الوصف العامّ لهؤلاء السابقين الممتازين المتفوّقين هو أنَّهم الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات من مستوىً يصحّ معه أن يقال بشأنهم: قد عملوا كلّ الصالحات المطلوبة منهم إلزاماً وترغيباً بحسب استطاعاتهم.

البيان الثاني: أنّ الوصف الخاص الذي ارتَقَوْا به عالياً إلى مرتَقًى بعيد يصحُّ معه أن يشار إليهم باسم الإشارة «أولئك» الخاصّ بالإشارة إلى البعيد، هو أنهم خَيْرُ الْبَرِيَّة، أي: أفضل الناس، وأكثرهم خيريَّة. وتدلُّنا النصوص القرآنية الّتي نزلت قبل هذا النصّ في تسع وتسعين سورة مكيَّة ومدنية، أنّهم لا يكونون خير البريَّة إلاَّ إذا كانوا قد ارتَقَوْا في الإيمان وفي العمل الصالح أسمَىٰ المراتب، ولم يقتصروا على حدود درجات مرتبة التقوى، فهم على ما يظهر محسنون، ومن أهل مرتبة الإحسان، ورُبَّما انضمّ معهم من فئة الأبرار، الّذين ارتقوا إلى الدرجات العليا من مرتبة البرّ، التي هي مرتبة وسطى ذات درجات متفاوتات بين كمال مرتبة التقوى، وأوّل مرتبة الإحسان، ولكلِّ مرتبة من هذه المراتب الثلاث درجات كثيرات بحسب التفاوت بين الأفراد في الإيمان والعمل الصالح.

البيان الثالث: أنّ جزاءهم يوم الدين جنّاتُ عَدْنٍ خالدين فيها أبداً.

جنات عَدْن: أي: جنات استقرار دائم.

وقد دلّت النصوص القرآنية على أنّ جناتِ عَدْنٍ هي للمحسنين السابقين في الخيرات، وهي التي يظفر بها السابقون، وَيَسْكُنُ في الدرجات العليا منها نبيُّون ومصطفون أخيار وصِدّيقون.

البيان الرابع: أنّهم قد رضي الله عنهم ورضوا عنه، وهذا هو العنوان الذي نُتابعه حولهم.

البيان الخامس: دلّ على الباعث لهم على الارتقاء إلى هذه المرتبة العليّة في الإيمان والعمل الصالح والجزاء الرفيع في جنات عدن، المناسب لمرتبتهم الإيمانيّة والعملية، ألا وهو أنهم يخشوْنَ رَبّهم، فقال عزّ وجلّ: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الارتقاء الرفيع ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ والخشية مزيج من الخوف والرَّجاء والطمع بالثواب والحبّ والإجلال والتعظيم.

* * *

ثالثاً:

ثمّ أنزل الله بشأنهم قوله عزّ وجلّ في سورة (المجادلة/ ٥٨ مصحف/ ١٠٥ نزول):

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

فأبان هذا النصّ عدّة بيانات عنهم:

البيان الأول: أنّهم لا يُوادُّونَ من حادّ الله ورسوله ولو كانُوا من الأقربين. وقد

جاء هذا البيان بصيغة ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَه﴾ للإشعار بأنَّ الإيمان الصحيح الكامل باللّه وباليوم الآخر، من شأنه أن يجعلَ ارتباط القلوب والنفوس باللَّهِ، ثُمَّ عن طريقِ التعلّقِ باللَّهِ وبِحُبِّ العملِ بمراضيه تكون عواطف المودَّة والمصافاة والموالاة، وعَوَاطِفُ الكراهية والبغض والمعاداة.

وهذا وصفُ كامِلِي الإيمان باللّه واليوم الآخر، وهو وصف المحسنين والأبرار والمتقين كمالَ التقوىٰ.

البيان الثاني: أنّهم رفيعو المنزلة، دَلَّ على هذا قولُ الله تعالى في الآية ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مرّتين، مشيراً إلى ارتفاع منزلتهم.

البيان الثالث: أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ كتب في قلوبهم الإيمان. أي: كتب عنده عن كلّ واحدٍ منهم أنّ الإيمان قد كمل ورسَخَ في قلبه بعد امتحانه بوجوه كثيرة. أوجعل في قلبه حلاوة الإيمان الّتي يَسْعَدُ بها، جزاءً معجَّلاً يناله في الدنيا قبل يوم الحساب.

البيان الرابع: أنَّ الله عزّ وجلّ قد قضى لهم بأن يؤيّدهم بروح منه، أي: بقوةٍ خفيةٍ منه، في مسيرة حياتهم ضدّ كلّ عدوّ لهم من خارج أنفسهم، أو من داخل أنفسهم.

البيان الخامس: أنَّ الله سيدخلهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار.

البيان السادس: أنَّ الله عزّ وجلّ قد رضي عنهم وأنهم قد رضوا عنه، فتحقَّقوا بتبادل الرضىٰ بينهم وبين الله تبارك وتعالى، وهذا هو العنوان الذي نتابعه حولهم.

البيان السابع: أنَّهم حزب الله، أي: وأمّا أعداؤهم فهم حزب الشيطان.

البيان الثامن: أَنَّهُمُ المفلحون، أي: الفائزون. وربَّما كَانَ هذا وعداً من الله لهم بأن ينصرهم في الحياة الدنيا، بعد قرار التأييد لهم بروح منه، لأنَّ الفوز في الآخرة قد سبق بيانه، وسيأتي تأكيده أيضاً.

* * *

رابعاً:

ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ بشأن الذين رضي عنهم ورضوا عنه، يوم القيامة، ولو كانُوا من الأمم السابقة، أتباع الرسل السابقين لمحمّد ﷺ. وذلك لبيان أنَّ قضايا الدين الكبرى واحدة في كلّ الرسالات الرّبّانية للناس.

ففي سياق بيان قول الله لعيسى عليه السلام يوم الحساب: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ للناس اتَّخِذُوني وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَبَيَانِ ما يجيب به عيسى عليه السلام، وما يقوله لربّه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾.

فأبان هذا النصّ عدّة بياناتٍ عنهم:

البيان الأول: أنّهم صادقون في إيمانهم وأعمالهم وأقوالهم، أي: مخلصون لله غير منافقين ولا مرائين ويحافظون على قول الصدق.

البيان الثاني: أنَّ لهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً.

البيان الثالث: أنَّ مكافأتهم بهذه الجنات وبرضى الله عنهم، وبإرضائهم حتى يَرْضَوْا هو الفوز العظيم.

* * *

خامساً:

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ بشأن الذينْ رضي عنهم ورضوا عنه من أُمَّةِ محمد ﷺ قوله في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول): وهي من أواخر ما نزل من القرآن، فلم ينزل بعدها من السُّور إلاّ سورة النصر:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

فَأبان هذا النصّ عدّة بيانات عنهم:

البيان الأول: أَنَّهم السابقون الأولون من أتباع محمّد ﷺ، وهم ثُلَّة من المهاجرين وثُلّةٌ من الأنصار، وآخرون مِمّن اقتدى بهم مِمَّن سيأتي بعدهم إلى أن تقوم السّاعة.

البيان الثاني: انّهم من أهل مرتبة الإحسان، أشار إلى هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ: ﴿وَالّذِينَ اتّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: لا يكْفي للارتقاء إلى هذه المرتبة مجرّد الاتباع، فقد يكون اتباعاً من مستوى مرتبة التقوى، والمطلوب أن يكون اتباعاً من مستَوىٰ مرتبة الإحسان، حتّى ينالوا مِيزَاتِ هذا السبق.

البيان الثالث: أنَّهم قد رضي الله عنهم لِمَا قَدَّمُوا مِنْ مَراضيه، ورضوا عنه في مقاديره في الدنيا، وأعطاهم مِمَّا يرضيهم فوق ما يخطر على بالهم، وفوق ما يتكلَّفُونَ طلبه مِمَّا يشتهونَ في الآخرة حَتَّىٰ رَضوا عنه، وهذا هو العنوان الذي نتابعه حولهم.

البيان الرابع: أنَّ الله عزّ وجلّ قد أَعَدَّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار، فأضاف في هذا النص فكرة إعداد هذه الجنَّاتِ، وأَنَّها مُهَيأَةٌ لهم مُنْذُ الآن.

البيان الخامس: أنَّ هـذا الثواب الـرفيـع البعيد جـداً إلى جهة العلوّ، بـدليل استعمال اسم الإشارة «ذلك» وهو المشتمـل على مضمون «رضي الله عنهم ورضـوا عنه» ومضمون «وأعـدّ لهم جَنّـاتٍ تـجـري تحتها الأنهـار خالـدين فيها أبـداً» هذا الثوابُ هو الفوز العظيم.

فاشترك وصف ثواب هؤلاء من أمَّةِ محمّد، ووصف ثوابهم من الأمم السـابقة بأنّه هو الفوز العظيم. وهذا من روائع دقّة البيان في القرآن الذي لا يأتيه الباطـل من بين يديه ولا من خلفه، ولو كان من عند غير الله لوجد البَاحثون المنقِّرُون المتعمّقون فيه اختلافاً كثيراً، لكن أحداً لا يجد بالحقّ شيئاً من ذلك لأنه من عند الله.

أمَّا المطاعنُ فهي من مُبْطلين، أو من قاصرين عن تدبّره، وتفهُّمِ آياته.

وهكذا ظهر لنـا بتوفيق الله التكـامل الـدقيق العجيب في الآيات التي تنـاولت هذا الموضوع بالبيان، دون أن نلحظ فيها تكراراً، فكُلُّ آيةٍ منها هي بمثابةٍ حَبَّـةٍ في عقـد الموضـوع، والأفكـار الجـزئيـة المكرّرة فيهـا مقصـودةٌ لإحكـام التـرابط، مـع إفادة التأكيد.

ويلحقُ بهذا الموضوع تتبـع صفات المحسنين في القرآن وتدبرها، لأنَّهم هم أصحـاب منزلـة من «رضي الله عنهم ورضوا عنـه»، وتتبـع ما يحقّق رضـوان الله من مستوىً إيمانيّ وعمليٍّ باطنيّ وظاهريّ، حَتَّى استحقُّوا أن يكونوا خير البريّة، وتدبّر الآيات الدّالة عليها، وتتبُّـع الآثـار التي تولّـدها خشيـة الله عزّ وجـلّ، وتدبّـر الآيات الدالة عليها. حتَّى يستوفي البحث كُلَّ عناصـره. ولا بدّ أن يكشف المتتبـع ببصيـرة وأناةٍ وإتقان مدهشاتٍ قرآنية عجيبة.

* * *

المثال التاسع:

من الموضوعات القرآنية موضوع تحريف اليهـود كلام الله، وكـلَّ كلام يكـون لهم هوى في تحريفه.

وقد جاء في القرآن المجيد أربعة نصوص من التنزيل المدني، نصٌّ في سورة (البقرة ٢) أول سورة نزلت في المدينة. ونصٌّ في سورة (النساء ٤) سادس سورة نزلت في المدينة. ونصّان في سورة (المائدة ٥) من أواخر ما نزل في العهد المدني، لم ينزل بعدها إلاَّ (التوبة ٩) و (النصر ١١٠).

أولاً:

بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، ودخول أوْسِهَا وَخَزْرَجِهَا في الإسلام، طمع المؤمنون أن يؤمن يَهُودُهَا بقبائلهم الثلاث لدعوتهم.

فأبان الله لهم منذ أوّل سورة مدنية نزلت بعد الهجرة، أنّ طمعهم هذا في غير مطمع، وذكر لهم من خلائق اليهود التي كشفتها التجارب الطويلة، مَا يُفِيدُ أنّ هذه الأمَّةَ أُمَّةٌ ميئوسٌ من إيمانها باستثناء العدد القليل منهم.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً للمؤمنين:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

فدلّ هذا النصّ على جملة من خلائق اليهود المتوارثة في أجيالهم، والتي لا يفارقونها، وتُصرُّ بها خُلوفُهم على ما جناه أسلافهم، وهذه الخلائق الملازمة لهم تجعلُ إيمانهم بدعوة محمّد ﷺ أمراً غير مطموعٍ به، إلَّا قليلاً منهم.

ومن خلال طريقة التنويع في أسلوب عرض أقسامهم وفُرقائهم، نستطيع اكتشاف أنّ هذا البيان القرآني يقسّم اليهود إلى أصناف وفرقاء، ويدلّ على أنّ كلَّ فريق منهم لديه ما يصدُّه عن قبول الحقّ والإيمان بما جاء به محمّد رسول الله ﷺ، باستثناء العدد القليل جدّاً.

الفريق الأول: فريق أحبارهم وعلمائهم وكتَّابِ كتب الدين منهم، وهؤلاء يسمعون كلام الله ويفهمونه ويحفظونه، ثُمَّ يُحَرِفُونه: إمّا في معناه بالتأويلات المضلّة اتباعاً للهوى. وإمَّا في مبناه ومعناه معاً، ويشمل هذا وضعَ نصوص كاملة وجعلها من كلام الله، ودسَّها في كتاب الله.

دلّ على هذا النصّ قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وجاء بيان التحريف في المبنى والمعنى معاً في قوله عزّ وجلّ:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾.

وجاء بيان مثَلٍ من أَمْثِلَةِ التحريف في المعنى بالتأويلات الباطلات، في قوله عزّ وجلّ.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾.

فهـذا الفريق لا مـطمع بـإيمانـه، لأنه ذو عـدوان على كتاب الله، وهـو عـالم بمـا يفعل.

الفـريق الثاني: الـذين أسلمـوا منهم نفـاقـاً، فهم أشـدّ مـكـراً وخبثـاً وعـداءً للإسلام والمسلمين.

دلّ على هذا الفريق من النصّ قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

الفريق الثالث: الْأُمِيُّونَ وهُمْ أتباعُ قادتِهم الدينيين، وهؤلاءِ لا يعلمـون كتاب الله التوراة إِلَّا على وجهيْن:

الوجه الأول: التلاوة اللفظيـة دون أي فهم للمعاني، فهم يسلّمـون لعلمائهم بكلّ ما يبيّنون لهم، واثقين بهم تمام الوثوق، ولا يقبلون أيّ قول يخالف قولهم.

الوجه الثـاني: الأكاذيب التي يفتـريهـا على الله المحـرّفون من اليهـود، وهم أهل الفريق الأوّل.

دلّ على هذا الفريق من النصّ قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾.

إِلَّا أَمَـانِيَّ: جمع «أُمنيَّـة» وهي تأتي بمعنى: التـلاوة. وتأتي بمعنى اختـلاق الكذب، أيِ: فهم لا يعلمون الكتاب إلَّا تلاوة دون فهم، وأكـاذيب مفتراة على الله يظنُّونَها مِن كلام الله تصديقاً لِمَا يَقُول لهم أحبارهم.

وهؤلاء لو آمن أحبارهم لآمنوا، روى البخاري عن أبـي هـريرة عن النبـي ﷺ أنه قال: «لَوْ آمَنَ بِـي عَشَرَةٌ من الْيَهُودِ لآمَنَ بِـي اليهود»[1].

---

(١) البخاري، مناقب الأنصار، رقم الحديث في فتح الباري (٣٩٤١).

الفريق الرابع: معرضون عن الدين، ومديرون ظهورهم إليه، سافكو دماء، آثمون معتدون، يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، بحسب أهوائهم، يشترون الحياة الدنيا بالآخرة، ويكفرون بالأنبياء، ويفعلون الأفاعيل.

وقد دلّ على هذا الفريق آيات في السورة جاءت عقب النصّ السابق، وهي ذوات الأرقام من (٨٢ إلى ١٠٣).

الفريق الخامس: وهم قلة مؤمنة قليلة، أشارت إليهم الآية (٨٢) من السورة.

* * *

ثانياً:

وبعد مُدَّة جرَتْ خلالها دعوةُ قبائل يهود المدينة الثلاث: بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع إلى الإسلام، فلم يستجيبوا، وكانت منهم أحداث تستحقُّ أن ينزل بشأنها قُرْآنٌ يُتْلَىٰ، مِنْها تحريفهم وتبديلهم الكلم عن مواضعه، ودلالاته التي يدلّ عليها في مجرى كلام الناس، بلَيِّ ألسنتهم، فأنزل الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ عدّة قضايا من خلائق اليهود التي ترثُها اكتساباً خُلوفُهم عن أسلافهم:

١ ـ لقد جاءت الإشارة إليهم في هذا النصّ بعبارة: «الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» أي من كتاب الله، وقد أوتوا بالتوراة والزبور نصيباً منه، ولم يؤتَوْهُ كُلَّه. أمَّا الَّذِينَ أُوتُوا الكتاب كُلَّهُ فهم أمَّةُ محمد ﷺ.

٢ ـ وأبان الله من خلائقهم أنَّهُمْ يَشْتَرون الضلالة، أي: هم يبحثون عن الضلالة، ويفتّشون عنها تفتيشاً، ويشترونها بأموالهم، اتباعاً لأهوائهم وشهواتهم، فقال تعالى: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾.

٣ ـ وأبان الله تعالى من خلائقهم أنّهم يريدون أن يَضِلَّ الذين آمنوا سبيل الله ولا يهتدوا إليه، ويُفْهَمُ لزوماً أنَّهم يتّخذون الوسائل لتحقيق مرادهم في إضلال المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُون أن تَضِلُّوا السبيل﴾.

٤ ـ وأبان الله للذين آمنوا بأسلوب غير مباشر أنّ اليهود أعداءٌ لهم، أي: والعدوّ يدبّر المكايد، ويمكرُ أيّما مكر، ليوقع الضرّ والأذىٰ بمن يعاديه، فعليهم إذن أن يحذروهم، فقال تعالى في النصّ ﴿واللَّهُ أَعْلَمُ بأَعْدَائِكُمْ﴾.

٥ ـ وحذّر الله المؤمنين من أن يتخذوا من اليهود أولياء، وذلك بأسلوب غير مباشر، إذْ أبان لَهُمْ أنَّ وِلاية الله لهم تكفيهم، فقال تعالى في النصّ: ﴿وَكَفَىٰ باللَّهِ وَلِيّاً﴾.

٦ ـ وأشار الله عزّ وجلّ من طرفٍ خَفِيٍّ للّذين آمنوا أنّ عداوة اليهود لهم، وما يدبّرونه من مكايد، وما يمكرونه من مكر، ستجرُّ إلى مواجهةٍ حربيّة بينهم وبينهم، فإذا حدَث ذلك، فاللّه ناصرهم عليهم، فقال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً﴾.

٧ ـ وأبان الله عزّ وجلّ أنّ فريقاً من اليهود يُحَرّفونَ الْكَلِمَ عن مواضعه، وهذا في محادثاتهم ومخاطباتهم، وهو شيء غير تحريفهم كتاب الله الذي جاء بيانه في سورة (البقرة) فقال عزّ وجلّ في هذا النصّ من سورة (النساء):

﴿من الذين هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: فيتلاعبون بالألفاظ، فيأتون بألفاظ يقاربُ نُطقُها نُطْقَ ألفاظ أخرى ذات معانٍ فيها سبٌّ، أو طعن،

أو دعـاء بسـوء، أو كفـرٌ، أو رفض للطاعـة، فينـطقـون بهـا نُـطْقَـاً مَلْوِيّـاً عن وجهـه الصحيـح، لإيهام السامع أنّهم يقولون ما يُرضيه، مع أنّهم يقولون ما يُسخـطه، مثل عبارة «السلام عليكم» وعبارة «السَّامُ عليكم» والسَّام الموت، وهذه من عبارات اليهود التي قـالهـا فـريق منهم حين دخلوا على النبـيِّ ﷺ، فـأجـابهم الـرسـول بقـولـه: وعليكم. فقـالـت السيدة عـائشة وقـد سمعَتْهُم وعرفت مـا يـريـدون وهي في داخـل حُجْرَتِها: وعليكم السَّامُ واللَّعنة. فقال لها الـرسول ﷺ: يا عائشة لا تكوني فاحشة، قالت: أوما سمعتَ ما قالوا؟. قال: بلى، وقد أجبتهم: وعليكم.

ومن أمثلة تحـريفهم الكلم عن مـواضعـه التي ذكـرهـا هـذا النصّ من سـورة (النساء) قولهم للرسول ﷺ: «راعنا»

وهـذه كلمة كـان يقولهـا العرب بمعنى: نـاظِرْنـا، ورَاقِبْنا، ولاَحِـظْنَا، وَاعْتَنِ بأمورنا، وأصلها مأخوذٌ من رعَاهُ بمعنى نَظَرَ في أُمُورِهِ نظر عناية، والحفظ والاعتنـاء يُفْهمان لزوماً من مداومة النظر.

فاستغلّ اليهود هذه الكلمة استغلالاً تَحْرِيفيّاً سيِّئاً، فصاروا يقولونهـا للرسول، ويَلْوُون بها ألسنتهم، فينطقونها نُـطْقَاً فيـه نصف إشعارٍ بمـا يقصدون، مـع إمكانهم التهرّب من ذلك بأنّهم يقصدون منها ما يقصد العرب، فيقولون: «رَاعِنـاً» بالتنـوين، اسم فـاعل من الـرُّعونـة، وهي الحماقـة والخفة والـطيش، وهي كـالأرْعَنْ. وَرُبّمـا قالوا: «راعُونا» فَلَوَوْا بهـا ألسنتهم، وهذه الكلمـة بمعنى الأرعن في اللغة الْعِبْـرِيَّة، وكان اليهود يستعملون هذه الكلمة في السّبّ والشتيمة، نقله ابن منظور في اللسـان عن ابن سيده في مادّة «رَعَن».

ولذلك نهى الله المسلمين عن أن يقولوا هذه الكلمة أصلاً، ليقطـع على اليهود استغـلالهم لها، ولمَّـا كان أصـل معنى الكلمة يـدلُّ على النظر والمـراقبـة، ويـأتي الحفظ والعناية لزوماً ذهنيَّاً، أمرهم الله بـأن يقولـوا بدلَهَـا: انْظُرْنـا. ثمَّ تَحْمِلُ هـذه

الكلمة بالاستعمال وباللزوم الذهني معنىٰ الحفظ والعناية، على مبدأ «دع ما يريبك» أو نقول في هذا: دَعْ مَا يستغلُّه العدُوُّ من الألفاظ إلى ما لا يستغلّه.

وتحريف اليهود الْكَلِمَ عن مَوَاضعِهِ لَهُ ظاهرة وغرض:

● أمّا الظاهرة فالَّليّ في ألسنتهم، إيهاماً بأنّه من لهجاتهم في لغتهم، وليس أمراً مراداً للسبّ والطّعن، نظير ما يفعلون بمكتوباتهم، إذ يلوون ألسنتهم بتلاوتها كما يفعلون بتلاوة كتاب الله، وفي هذا قال عزّ وجلّ بشأن فريق منهم في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

● وأمَّا الغرضُ فهو الطَّعْنُ في الدّين، ومن الطّعن في الدين سَبُّ الرَّسُولِ وشتيمته، والاستهزاء به، ومن ذلك قولهم له: راعناً، أو «راعونا» بالعبرية، لأنه مبلِّغ الدين عن ربّه، وهم خاتم رسُل الله للعالمين.

وفي بيان مثالٍ على تحريفهم الكلم، مع ذكر الظاهرة والغرض جاء في النصّ في معرض ذكر ما يقولون للرسول: ﴿وَراعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً في الدين﴾.

٨ ــ وأبان الله عزّ وجلّ أنّهم وقحون مكابرون يعلنون سماعهم لما يقول الرسول وفهمهم لقوله، ويعلنون مع ذلك معصيته وشتيمته، فقال تعالى في النصّ: ﴿وَيَقُولُونَ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا. واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾. أي: سمعنا قَوْلَكَ وعصيناه. واسْمَعْ منَّا قَوْلَنا ظَاهراً حالَة كوْنِكَ غير مُسْمَعٍ لِمَا نَقُول، لأنّكَ رافضٌ ابتداءً مَا سَنَقُولُ لَكَ ويظهر لي أنّهم يريدون أن يُمارِيَهم مراءً ظاهراً، لأَنَّ لهم من ذلك هدَفاً ماكراً، وهُوَ أن يَنْقُلُوا عنه أنّه سَمِعَ أَقوالهم ولَمْ يَرُدَّ عَلَيها، حتَّى يقولوا بين الناس: أعجزناه، مع أنهم قد سبق أن قالوا له: اسمع ظاهراً واعتبر نفسك غَيْرَ مُسْمَعٍ

مِمَّا نقولُ شيئاً. وهذا لون من ألوان الاستدراج الجدلي، وغايته التشهير الإعلامي. وهو أسلوب يجري نظيره في مجالس الناس ومحادثاتهم وجدليّاتهم.

٩ ــ ووعظهم الله في النصّ مع بيان أن استجابتهم مستبعدةٌ غير مرجُوّة فقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهم قالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْومَ﴾ أي: ولو أنهم قالوا: «أَطَعْنَا» بَدَلَ «عَصَيْنَا» وقالُوا: «انْظُرْنا» بَدَلَ «رَاعِناً» مبتعدين عن طريقة تحريف الكلم عن مواضعه لكان خيراً لهم، وأكثر عدلاً، إذ يعاملون الرسول حينئذٍ بما يعاملهم به من منطقيّة وبعد عن كلِّ هزء وسخرية وشتيمة.

١٠ ــ وعلى سبيل الاستدراك أبان الله عزّ وجلّ أنّهم قومٌ ميؤوسٌ من إيمانهم، لأنهم كافرون عن علم كفراً إرادياً واعياً، لا كفر الجاهلين الرافضين بغباء، لذلك لعنهم الله، فأخرجهم من مدَىٰ رحمته، واستثنى الله عزّ وجلّ العدد القليل منهم، فقال تعالى استدراكاً على بيان الموعظة السابقة: ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

١١ ــ وأخيراً دعاهم الله إلى الإيمان بما نزّل على رسوله محمّد مصدّقاً لِمَا معهم، متوعّداً لهم بأن يعاقبهم بطمس وجوههم بضربةٍ عليها تُلْغِي كلّ حواسّها، وتُرجع ما فيها من خَلْقٍ بارزٍ إلى الوراء فتجعلها في أَكْرَهِ منظر. أو بمسخهم قردة وخنازير كما فَعَلَ بأصحاب السبت، فقال الله عزّ وجلّ لهم:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

قال بعض أهل التأويل، وخاف بعض علمائهم من هذا الوعيد فآمن، فرفع الله الوعيد عنهم بإيمان من آمن منهم.

* * *

ثـالثـاً:

ورغم البيانات السابقات التي فضحت اليهود بتحريف الكـلام عن مواضعـه، ظلّ اليهود محرّفين: تحريفَ معنى كلامِ الله، وتحريف مبنى ومعنى معاً، وتحريف كتمانٍ لما في التوراة، وتحريفَ وَضْعِ أحكامٍ في الدين ما أنزل الله بهـا من سلطان.

لذلك أنزل الله عزّ وجلّ بشأنهم أواخر العهد المـدني في سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول) نصَّيْن:

الأول: قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

فـأضـاف هـذا النصّ بيـانَ خيـانـاتهم المتكـرّرة، وأبـرز من نقضهم ميثـاقهم تحـريفَهم الْكَلِمَ عَن مواضعـه، لما لهـذا التحريف من تغييـر للدين وكذب على الله وافتراء في أحكام شريعته.

ومع ذلك أمر الله رسوله أن يَعْفُوَ عن خيانتهم ويصفح، وأبان أنّ هذا من مرتبة الإحسان.

الثاني: قول الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

وقـد نزل هـذا النصّ بمناسبـة مجيء جماعـة من اليهود إلى رسـول الله ﷺ، يسألُونه بِشأْنِ رَجُلٍ مُحْصَنٍ منهم زَنَىٰ بامرأة محصنة يهودية، وبماذا يحكم بأمرهما،

وكانَ أولياؤهما اتفقوا فيما بينهم أن يبعثوا إلى الرسول من يسألُهُ بشأنهما، فإنْ حَكَم عليهما بالجلد والتشهير والتعزيروتلطيخهما بالسُّخَامِ كما ابتدعُوا هم في دينهم قبلوا حكمه، وإنْ حكم بالرجم لم يقبلوه.

فقدم وفدهم إلى رسول الله ﷺ ولم يأت الآخرون الذين هم أولياء الزانيين، فقال لهم الرسول:

«ما تجدون في التوراة في شأن الرجم»

قالوا: نفضحهم ويُجْلَدون.

قال عبد الله بن سلام ــ وقد كان حبراً يهودياً وأسلم صَادِقاً ــ كذبتم إنّ فيها الرجم.

فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يَدَه على آية الرجم، فقرأما قبلها وما بعدها.

فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده، فإذا آيَةُ الرَّجْم. فقالوا: صدَق يا مُحمّد، فيها آية الرجم.

فأمر بهما رسول الله ﷺ فَرُجِمَا.

(رواه البخاري ونظيره عند مسلم)

سمّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يأتوك: أي: سَمَّاعُونَ بغية تلَقِّي أحكام مفتراة على الله لينقلوها لقوم آخرين لم يأتوا معهم لسؤال رسول الله، وهم أولياء الزانيين.

يُحَرِّفُون الْكَلِمَ عن مَوَاضِعه: وحادثة التحريف هنا ابتداعُ حكمٍ غيرِ حكم الرجم المنصوص عليه في التوراة، ويُلْحَقُ بالتحريف المطالبة بالعمل به، مع العلم بأن حكم الله على خلافه.

ويبدو لي أنّهم كانوا يريدون استدراج الرسول ﷺ للحكم فيهم بغير حكم

الرّجم، حتى يكون عمله حجّةً لَهُمْ بعد ذلك، ظَنّاً منهم أنه يحكم فيهم بما تعارفوا عليه من أحكامهم، إِذْ يَعْتَبِرُهُمْ كفاراً فلا يَهْتَم بأن يحكم فيهم بما أَنْزَلَ الله. فخاب ظَنُّهُمْ، وأمر الرسول برجم زانييهم فَرُجِما.

يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه: أي: إن أفتاكم محمد بما تواضعتم عليه فخذوه.

وإنْ لَمْ تُؤْتَوْه فاحْذَرُوا: أي: وإن لم يُفْتِكُم محمد به فاحْذَرُوا أن يفتي بالرجم، فيتولّىٰ رجم الرجل والمرأة، بحكم سلطته الإدارية في المدينة. لكنه أفتى بالرجم ونفَّذَهُ، وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ حَذَرُهُمْ.

ومَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَه فَلَنْ تَمْلِكَ له من اللَّهِ شيئاً: أي: ومن يُرِدِ اللَّهُ امْتِحانه من خلال ما أعطاه من إرادة حرّة، فلن تملك له من اللَّهُ شيئاً تجعله به مجبوراً على الهداية، فهدايتهُ مَنُوطة باختياره الحرّ الذي منحه الله له.

أولَٰئِكَ الّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ: أي: أولئك البعداء عن رحمة الله قومٌ لم يُرِدِ اللَّهُ أن يَنْسُبَ إليهم طهارةَ القلوب، ويحكُم لهم بأنّ قُلوبهم طَاهِرَة، لأنّهم في واقع حالهم ذوو قلوب غير طاهرة، باختيارهم الكفر والفسوق والعصيان، فكيفَ يحكُمُ اللَّهُ لهم بطهارة القلوب، وهو سبحانه حكيم عدل، ولا يحكم إلّا بالحق، ولا يُريد إلّا ما هو الحقّ والعدل؟.

لَهُمْ في الدنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عظيم: أي: لهم عقابان: معجل ومؤجل: فالعقاب المعجّل خِزْيٌ في الدنيا. والعقاب المؤجّل عذاب عظيم في الآخرة.

* * *

وهكذا تكاملت النصوص حول هذا الموضوع تكاملاً محكماً، روعيت فيه الجوانب التربوية والعلاجية على أتقن وجه وأحسنه، مع مراعاة البيانات المراد إبلاغُها، وجعلها قرآناً يُتْلَىٰ، ويكونُ عظة وذكرى دواماً.

* * *

المثال العاشر:

١ ـ قال الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

٢ ـ وقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾.

موضوع هٰذين النصين يتعلّق بإثبات شمول علم الله الدائم الذي لا يَعْزُبُ عنه (أي: لا يَبْعُدُ عنه ولا ينأى عنه) شيءٌ في الوجود، من كلِّ ذَرَّة فما هو أصغر منها تنازلاً إلى أصغر موجود، فهو سبحانه وتعالى شهيدٌ على كلّ شيءٍ دواماً.

وقد جاء الأول منهما بعد بيان أنّ الله شهيد على الناس في كلّ ما يعملون من عمل، فهو به عليم.

وجاء الثاني منهما في سياق شمول علم الله لكل ما يلج وما يخرج من الأرض، وما ينزل وما يعرج في السماء، وشمولِ علمه لما سيكون في المستقبل ممَّا هو غيبٌ لم يأت واقعُه الذي يُشْهد، كالساعة وأحداثها.

والنَّصان متكاملان في فنّيّة الأداء البياني.

● فالأوّل منهما لمَّا جاء بعد بيان أنّ الله شهيد على أعمال الناس، نَاسَبَهُ أن يَنُصَّ على التعميم، بإيراد «مِنْ» الزائدة التي يُؤْتَىٰ بها للتنصيص على العموم بعد النفي، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾.

وناسَبَهُ أيضاً أن يُقدَّم الحديث عن الأرض قبل الحديث عن السماء، لأنَّ

النـاس من سُكّـان الأرض، فقـال تعـالى: ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرضِ ولا في السماء﴾.

● والثـاني منهما لمَّـا جاء في سيـاق شمول علم الله لعـالم الشهـادَةِ ولعـالم الغيب، لا سيمـا مـوضـوع السـاعـة، وهـو من غيب المستقبـل، نـاسبه أن يتـرك التنصيص على العمـوم، وأنْ يُقَدِّمَ الحـديث عن السماء قبـل الحديث عن الأرض، وأن تـأتي السماء مجمـوعة، بصيغـة «السماوات». فـالحـديث عن شمـول علم الله لما في السماوات أولى بالتقديم في هـذا المقام، إذ البيـان يتعلّق بقضيّة كلّيّـةٍ، غيرِ مرتبطة بمناسبةٍ خاصة تتعلّق بالناس.

ولمَّـا كانت المـوجودات التي هي أصغـر من الذَّرَة أبعـد عن تصـوّر النـاس، كانت أحرى بتقديم توجيه النظر نَحْوَها، من الأشياء التي هي أكبر من الـذّرّة. فجاء في النصين تقديم الأصغر من الذرّة على الأكبر منها.

وجـاء الاستثناء في كـلا النصّين، بقول الله عـزّ وجلّ: ﴿إِلَّا فِي كِتَـابٍ مُبِينٍ﴾ على طريقة تأكيد عموم النصّ بما يشبه تخصيصه ببعض أفراده، فالمـدوَّنُ في كِتَابٍ مبينٍ محفوظٌ من الضَّياع والنسيان والابتعاد عن العلم.

وهـو نظيـر ما قـال البلاغيـون بشأنـه، هو من تـأكيد المـدح بما يشبـه الـذّم، ويمثلُون بقول الشاعر:

وَلَا عَـيْبَ فِـيْهِـمْ غَيْـرَ أَنَّ سُيُـوفَهُـمْ ... بِـهِـنَّ فُـلُولٌ مِـنْ قِـراعِ الـكَـتَـائِـبِ

وَلَو عَمَّموا قاعدَتَهم فقالوا: تأكيد الكلام بما يشبه الاستثناء منه لكانَ أولَى.

* * *

المثال الحادي عشر:

«حول القصة القرآنية وذكرها في مواطن بما يشبه التكرار وليس هو منه».

لـدينا عـرض قرآني لقصـة موسى عليـه السـلام في سـورتين همـا: (النمـل) و(القصص) وقد نزلت القصص بعد النمل مباشرةً في العهد المكي.

فلننظر في النَّصَّيْنِ بشيءٍ من المقارنة والتحليل على قَدْرِنا:

النصّ الأوّل منهمـا:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول):

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾.

هذا كلّ ما جاء من قصة موسى في سورة (النمل).

النصّ الثاني منهما:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نـزول) بعد عـرض فقرات مُهِمَّاتٍ من نبأ مُوسَىٰ وفرعون، منـذ كان مـوسىٰ جنيناً في بَـطْنِ أمّه، حتى خروجه من مصْرَ خائفاً يترقب، ووُرُودِهِ ماءَ مَدينَ، وزواجـه من ابنة شيخهـا الرجـل الصالح، وبَذْلِهِ مَهْرَها تأجيرَ نَفْسِهِ له ثمانِيَ حِجَجٍ فَرْضاً وَسَنَتَيْنِ فَوْقَها تبرُّعاً، وعَزْمِهِ على الْعَوْدةِ إلى مصر بأهله:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ

وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

في هٰذيْنِ النَّصَّيْنِ اللذين نزل الثاني منهما عقب نزول الأول منهما نلاحظ الأمور التالية:

الأول: أنَّ الأوّل منهما قد تناول فقرات من بعض فصول قصة موسى عليه السلام، بدءاً من منزل نزله مع أهله عائداً من مدين، قرب طور سيناء، وعرضاً مقتضباً لجحود فرعون وقومه، وإشارةً إلى هلاكهم عقاباً لهم.

الثاني: أنَّ النّصّ الثاني قد تناول فقرات من قصة موسىٰ عليه السلام، بدءاً من كونه جنيناً حتى خروجه من مصر خائفاً يترقب، ثم عودته من مدين بأهله، وتلقّيه رسالة ربّه، ودعوته فرعون وقومه إلى دين الله، واستكبارهم، في لقطات سريعات فيها شيء من التفصيل الذي لم يذكر في النصّ الأول، وجاءت الإشارة

إلى هلاكهم مشابهة فيه للإشارة التي جاءت في النصّ الأول، بتغيير كلمة (المفسدين) بكلمة (الظالمين) للدلالة على أنهم مفسدون، وظالمون.

ومن هٰذين النصين نلاحظ التدرج التكاملي في عرض القصة مع مراحل التنزيل.

الثالث: في المدّة الزمنية الواحدة التي عرض النّصّان فقراتٍ مُهمَّة من أحداثها، تقدّمُ لَنَا المقارنة بينهما الملاحظات التاليات:

أولاً:

● في (النمل) يبدأ النصّ هكذا من منزلٍ في رحلة العودة نزله:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهلِهِ: إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾.

وهذا لَوْنٌ بديعٌ في بدءِ القصّة، من مشهدٍ يقَعُ في أوساطِ أحداث المتحدَّثِ عنه. إنَّها مُفَاجَأةٌ لافتةٌ للانتباه، وقد تستدعي تساؤلاً نفسيّاً عمَّا كان قبلها.

● وفي (القَصَصِ) يبدأ النَّصُّ متسلسلاً مع الأحداث منذ نشأة موسَىٰ حتى بَدْءِ رِحْلةِ العودة من مدين، فجاء فيه:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً. قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُو إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾.

فَأَكْمَلَ هٰذَا النَّصُّ التالي فقراتٍ تفصيليّة لم يذكرها النصّ السابق، فالمنزل الذي جاء مجملاً أوّلاً، جاء تفصيله ثانياً أنَّه قريبٌ من جبل الطور، والنار التي جاء إيناسه لها أولاً مجملاً، جاء بيانه ثانياً أنَّه من جانب الطور.

وطُوِيَ في النَّص الأول قولُه لأهله: امكثُوا، ونُشِرَ في النصّ التالي.

* * *

ثانياً:

- في (النمل) يُتابع البيان فيقول:

﴿سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

- وفي (القصص) يتابع البيان فيقول:

﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

ونلاحظ أنَّ التعبيرين يحكيانِ مقالةً واحدةً قالَها موسى، مع وجود الفرق في التعبير بينهما.

ففي النمل: ﴿سآتيكم﴾ بأسلوب الجزم، لا بأسلوب الترجّي.

وفي القصص: ﴿لَعَلّي آتيكم﴾ بأسلوب التصريح بالترجي.

والعبارتان ترجمة لما قال موسى، ولا بدّ أن تكونا متساويتين في الدلالة، أو أنَّ موسى قال لأهله أوّلاً: ﴿سَآتيكم﴾ ثمَّ استدرك على نفسه فقال: ﴿لَعَلّي آتيكم﴾.

وعلى تقدير التساوي بين الجملتين، فإنَّ موسى قال: ﴿سآتيكم﴾ في اللفظ على سبيل الترجّي، لا على سبيل الجزم في نفسه، فهو في نفسه يترجّى لا يجزم، فالنصّ الأوّل دلّ على عبارته اللفظيّة، والنصّ الثاني دلّ علىٰ أنَّه قال مقالته مترجّياً في نفسه لا جازماً.

ويعلّمنا الله بهذا البيان جواز ترجمة أقوال الناس بمقاصدهم، إذا علمنا مقاصدهم من أقوالهم بدليلٍ مقارنٍ أو منفصل.

وفي (النمل): ﴿مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

وفي (القصص): ﴿مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنْ نَارٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

والفرق بين التعبيرين زيادة ﴿آتيكم﴾ في النمل، وهي من التنويع الجميل في التعبير، مع إرادة البسط والإطناب في الحديث، المناسب للحال. والتعبيرُ:

﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ في النمل، وبـ ﴿جَذْوَةٍ مِنْ نَارٍ﴾ في القصص، فالتعبيران متكافِئانِ في الدّلالة، ورُبَّما كان التالي منهما شارحاً للأوّل، على طريقة التعريف اللفظي، بلفظ مرادف، وهو نوع من أنواع التعريف عند علماء المنطق، مع ما في هذا التنويع من فنيَّةٍ جميلةٍ في الأداء البياني. ويُعَلِّمنا الله بهذا جواز ترجمة الأقوال بما يدلُّ على معانيها.

وتَطَابَقَ النصّان في ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: على احتمال أن يأتي بجذوة من نار، فإذا جاء بها رجَا أن ينتفعوا منها بأن يستدفئوا.

والترديدُ في عبارة: ﴿سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ﴾ قضيةٌ مانعةُ خلُوٍّ لاَ مَانعة جمع، ففي ظنه أنّه قد يأتي بهما معاً.

* * *

ثالثاً:

- ويتابع البيان في (النمل) فيقول: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

- ويتابع البيان في (القصص) فيقول: ﴿فَلَمَّا أَتاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَلَمِينَ﴾.

١ ــ ﴿فَلَّما أتاها﴾ في القصص، يساوي تماماً ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ في النمل، فاختلفا في اللفظ فقط، ودلاً على وجود الترادف في اللّغة، وعلى أن من الجمال في الأدب التنويع في التعبير.

٢ ــ ﴿نُودِيَ﴾ تكرَّرتْ في النّصين.

٣ ــ زاد النصّ في (القصص) بيان أنَّ النداء كان: ﴿مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾.

هذا البيان التفصيلي لم يأت في النصّ السابق الذي نزل في (النمل)

وهو من الترقّي والتَّكامُل في البنـاء التعليمي، مع مـا فيه من جمـالٍ فَنّيّ في عَرْضِ القصص مرَّةً بَعْدَ أخرى، وكَمْ يَجِدُ مشاهدُ تمثيليَّةٍ تُعْجِبُه ارتياحاً وسُـروراً إذا شاهـد أوْ سَمع إضافـات في الأعمال والأقـوال مرّةً بعـد أخرى، إنَّ ذلـك أَدْعَىٰ إلى جَذْبِـهِ لتكرير حضورها ومُشاهدتها، وحفظها بذكر ما حصل فيها من إضافات.

٤ ــ وقد تضمَّن النداء كمـا جاء في (النمـل): ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّـار وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ ربِّ الْعَالَمِين يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وتضمَّنَ النـداء كمـا جـاء في (القصص): ﴿أَنْ يَـا مُـوسَى إِنِّي أَنَـا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

والنَّصَّانِ هُنَا متكاملان يُتَمِّمُ بعضهما بعضاً، فَإِذَا حَذَفْنَا ﴿أَنْ﴾ التفسيريّـة من النصَّيْنِ كـانَ مضمونُ النـداء: «بُورِكَ مَنْ في النَّـارِ وَمَنْ حَوْلَهَـا، وَسُبْحَـانَ اللَّهِ ربِّ الْعَـالَمِين، يَـا مُـوسَىٰ إِنِّي أَنَـا اللَّهُ الْعَـزِيـزُ الْحَكِيمُ، يَـا مُـوسَىٰ إِنِّي أَنَـا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

* * *

رابعاً:

● ويتابـع البيان في (النمل) فيقول: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّب﴾.

● وكذلك في (القصص) بزيادة (أن) التفسيريّةِ مراعاةً للنسق اللفـظي فيها، وللدلالة على أنَّ التعبير ترجمةٌ للكلام الذي خاطب اللَّهُ به موسى عليه السلام.

● وفي (النَّمـل) يقول بعـد ذلك: ﴿يَـا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَـافُ لَـدَيَّ الْمُرْسَلُونَ. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنَاً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

● وفي (القصص) يقـول بعـد ذلـك: ﴿يَـا مُـوسَىٰ أَقْبِـلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّـكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾.

والنّصّان هُنَا مُتَكامِلانِ، وَيُمْكِن إضافة ما جاء في (القصص) عقب ما جاء في النمل، دون حذف شيء.

ولعلّ الاستثناء الذي جاء في (النمل) يشير إلى ما كان من موسَىٰ في مصر قبل رحلة الفرار، بعد قتله المصريّ الذي هو من عدُوّه، انتصاراً للإسرائيلي الذي هو من شيعته، ويبيّن الله له أنّه قد غفر لهُ إذ بدّل حُسْنَاً بَعْدَ سوء.

ونلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ بعد أن بيّن له أنّه لا ينبغي أن يخاف لديه المرسلون، إلاَّ من ظلم فإنّه يخاف من العقاب، لكنّه إذا بدّل حُسْناً بعد سوء وغفر اللَّهُ له فإنّه لا ينبغي له أن يخاف، ولمّا كان هذا الكلامُ غير مطمئن تماماً، قال له بعد ذلك: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمنين﴾.. أي: قد غفرنا لك فكن آمناً.

* * *

خامساً:

● ويتابع البيان في (النمل) فيقول: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ في تِسْعِ آياتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَاً فَاسِقِينَ﴾.

● ويتابع البيان في (القَصَص) فيقول: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ واضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَاً فَاسِقِينَ﴾.

في جيبك: أي: في طَوْقِ قميصك. وطوي في النَّصّين: وأَخْرِجها.

بيضاء من غير سوء: أي: من غير مَرض كالبرص، بل مشعّةً نوراً باهراً مخيفاً من أن يخطف الأبصار. بدليل: ﴿من الرّهب﴾ في (القصص).

جَنَاحَك: أي: يدك، على التشبيه لها بجناح الطائر.

المقارنة بين هٰذين النصين:

١ ــ ﴿اسْلُك﴾ نظير ﴿وأَدْخِلْ﴾ بحذف حرف العطف مع ملاحظته ذهناً، وهو من التنويع البديع في التعبير البياني.

٢ ـ ﴿يَدَكَ في جَيْبِكَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ في كلا النصّين بلفظ واحد.

٣ ـ زاد نصّ (القصص) بيان: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ أي: إذا رأيت أنّ القومَ مسَّهُمُ الرَّهْبُ والخوف من مشهد يَدِكَ الْمُشِعّةِ ضياءً فاضممها إليك، فإنَّها تعودُ إلى وضعها الطبيعي.

وهذا من التكامل بين النصّين.

٤ ـ وزاد نصّ (النمل) بيان: ﴿في تِسْعِ آياتٍ﴾ وعَدَ اللَّهُ مُوسَىٰ أن يُمِدَّهُ بِهَا في دَعْوَتِهِ لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أَجْمَعينَ من أَهْلِ مصر، لذلك جاء بعدها: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾.

٥ ـ وَزَادَ نَصُّ (القصص) بيان: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: برهان العصا التي تنقلب حيَّةً تسعى، وبرهانُ اليد التي تصير مشعَّةً بِضِيَاءٍ يُلْقِي الرُّعْبَ في قلوب فرعون وملَئِهِ. فهٰذان البرهانان معه ابتداءً يستخدمهما في دعوة فرعون وحاشيته من الوزراء والأمراء.

ومن التكامل نفهم أنَّ الآيات التّسع كانت لعموم المصريين خلال السنين التي أقامها موسى وهارون في مصر بعد الرسالة يدعوان إلى دين الله كلَّ المصريّين، إذ قال الله بجانبها ﴿إلى فرعون وقومه﴾.

أمَّا آيتا العصا واليد فقد كانتا أوّل الأمر برهانَيْنِ لإقناع فرعون وحاشيته من الوزراء والأمراء، إذْ قال اللَّهُ بجانبهما ﴿إِلَىٰ فرعون وملئه﴾ فالملأُ هُمْ عِلْيَةُ القوم وكبراؤهم، لأنّهم همُ الذين يَملؤون عيون جماهير الناس.

٦ ـ والتعليل في كلا النصين واحد: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾.

* * *

سادساً:

● وَيُتَابِـع البيان في (النمل) فيقول: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَـاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُـوا: هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمَاً وَعُلُوّاً﴾.

● ويتابـع البيان في (القصص) فيأتي بتفصيلاتٍ أبان الله فيها أنَّ موسَىٰ ذكر تخوُّفَهُ من أن يقتلوه لانّه قتل منهم نفسـاً، وسأل ربّـه أن يجعل أخـاه هارون رسُـولاً معـه، إذْ هُوَ أفصـحُ منه لسـاناً، وأنَّ الله وعـده بإجـابة طلبـه، ووعده بـأن يحفـظهما بسلطانٍ منه، وبأنّ الغلبة تكون لهما ولمن اتَّبعهما.

وأنّ موسى جاءهم بآيات بيّنات، فقالوا: ما هذا إلاَّ سحرٌ مفتـرى، وما سمعنـا بهذا في آبائنا الأوّلين، مع تفصيلات أخرى مما جرى بين موسى وفرعون، وما كـان من فرعون إذ أَمَـرَ وَزِيرَهُ هـامان ببنـاء الصّرح رجاءَ أَن يطَّلع إلى إلَـهِ مُـوسَىٰ، إذْ قد يصل به الارتفاع في الجوّ لبلوغ أسباب السماء، فيتخذها، فيصل إلى السماء فيـرى فيها إلَـه موسى، ثم مـا كان منـه من استكبار هـو وجنوده، وظنّ بـأنهم غير مبعـوثين للحساب والجزاء، ثم بيان موجز جدّاً عن أخذهم ونبذهم وإغراقهم في اليمّ.

وهـذه التفصيـلات لم يـأت شيء منهـا في النصّ من (النمـل) النصّ السـابق في النزول.

ونلاحظ بين النّصّينِ تكامـلاً في البيان، فمـا جاء في (النمـل) حول مقـابلتهم دعوة موسَىٰ وهارون قد جـاء مقتضباً مـوجزاً، بعبـارة: ﴿فَلَمَّا جَـاءَتْهُمْ آيَاتُنَـا مُبْصِرَةً قَـالُوا: هَـذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. ومـا جاء في (القصص) جـاء مُفَصَّلاً شـارحـاً لكثيـر من الجـوانب، مـع تـركـه جـوانب أخـرى قـد جـاء شـرحهـا في نصـوصٍ قُـرْآنيـة أخرى لاحقة.

وَأضاف نصُّ (النمل) بيان انَّهم جَحَدُوا بآيات الله التي آتاها الله موسى، وكان جحـودهم لهـا ظلمـاً وعُلُوّاً في الأرض، مـع أنَّ نفـوسهـم قـد استيقـنتهـا. فتكامل النّصان.

● ونـلاحظ أنَّ نصّ (النمل) يُخْتَمُ بتـوجيه العـظة لكل نـاظر بقـوله تعـالى: ﴿فـانظر كَيْفَ كَـانَ عَـاقِبـةُ المُفْسـدين﴾ وأنَّ نص (القصص) يختم بقـولـه تعـالى: ﴿فَانْظُرْ كَيفَ كَانَ عَاقِبَة الظالمين﴾ فهم مفسدون، وهم ظالمون.

هـذه دراسة تحليليـة مقارنـة مـوجـزة لنصين حـول قصـة واحـدة من القصص القرآنية، قدمتها نموذجاً أوّليّاً لدراسات مقارنة للقصص القرآنية.

● ● ●

القاعدة السابعة

«حول تتبـع التفسير المأثور لمعنى النصّ»

على متدبّر كلام الله أن ينظر في التفسيـر المأثـور لمعنى النصّ القرآني، فهـو حريٌّ أن يكون في كثير من الأحيان فهماً صحيحاً، وإن لم يكن كـاملاً شـاملاً لكـل ما يهدف إليه النصّ القرآني.

ويشمل التفسير المأثور ما فهمه الصحابة والتابعون.

أمّـا البيان النبـويّ لمعنى النص القرآني، فـإذا صحّ فهـو الذي يجب المصيـر إليـه، وقـد يكـون البيـان النبـوي بعض مـا اشتمـل عليـه عمـوم النصّ، أو بعض مـا اشتملت عليه دلالاتـه، فيكـون مـا جـاء في البيـان أحـد المعـاني التي اشتملت عليها دلالاته.

وينبغي النـظر أيضـاً فيمـا ورد من آراء المفسـرين المعتمـدين، وأقـوال أهـل التأويل المعتبـرين ومفاهيمهم، فمن شـأن هذا النـظر أن يبصّر المتـدبر بجـوانب قد تغيب عنه ولا تخطر على باله.

وليس معنى النـظر فيما ورد من آراء المفسـرين وأقوال أهـل التأويـل أن يتأثّـر المتدبّر تأثراً كاملاً، ولكن أن يتأمّل ويحرّر ويميّز المقبول من المردود.

وليس علم التدبّر حشراً لأقوال وآراء أهل التأويل، والإكثار من عـرض ما قـال الناس، فلا يكون المتدبّـر متدبّـراً حقّاً حتى يعـرف ما ينتقي من آراء أهـل التأويـل،

ويعـرف ما يـدع ويعرف مـا هو سـاقط مردود، ومـا هـو محتمـل، ومـا هـو راجـح، ومـا هو حقٌّ لا ردّ لـه، ومـا هو بعض المعنى المـراد، وما لا يمكن أن يكـون مراداً. أي: أن تكون لديه الملكة لذلك، وإن كان عرضة للخطأ في بعض الأحيان.

ويتصوّر بعض الباحثين أنّ كثرة العلم بكثرة جمع أقوال النـاس في المسألـة، وكثرة حفظ هذه الأقوال.

وأرى أنّ وفرة العلم إنما تكون باستجلاء ما هو الحق، أو ما هو أقرب إليـه إنْ لم يتيسّر معرفة الحقّ تماماً.

وأمّـا ما عـدا هذا فمن الخيـر أن لا يشغل مسـاحـةً من الفكـر، ولا من أوراق الكتاب، وأن لا يأخذ قدراً من الجهد، ولا قدراً من الـوقت، إلَّا أن يكون رأيـاً ثابتـاً لمعارض مبطل، فيجب تفنيده وإسقاطه حتى لا يؤثر على عقول المتعلمين.

* * *

الأمـثـلـة

المثال الأول:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

جاء في تأويل: ﴿هَلْ مِنْ مَزيد؟﴾ قولان عند أهل التأويل من السلف:

القول الأول: فعن أنس وعن أبـي هُريرة أنّ جهنَّمُ يُلْقَىٰ المعذَّبُونَ فيها تِباعاً، فلا يَمْلَؤُها شيء وتـطلب المزيـد، حتَّىٰ لَا يبقى من أهل النـار أحدٌ خـارجها، وهي تقول: هل من مزيد؟ طالبةً الزيادة، لأنّ الله قد وعد بـأن يملأهـا مِنَ الجِنَّةِ والنـاس أجمعين. عندئذٍ يضَعُ الجبّارُ قَدَمه عليها، فَيُزْوَىٰ بَعْضُهـا إلى بعضٍ، وتقول: قَط. قط. أي: قد امتلأتُ فلا مكان فيَّ لأحد.

القول الثاني: مرويٌّ عن ابن عبّاس، ومجاهد، في أسانيد ذكرها الطبري، أنّ جهنّم تقول: ﴿هَلْ من مزيد؟﴾ بمعنَىٰ: لم يَبْقَ فيَّ مَكَانٌ لأحد، فهو استفهام معناه النفي، وأنَّ ذلك يَكون بعد أن يضَعَ الجبارُ قَدَمه عليها.

فأيُّ هٰذين القولين أحقُّ بالاعتبار؟.

ننظر فيما صحّ من ذلك مرفوعاً إلى النبيِّ ﷺ فنجد أحاديث صحيحة تجعلنا نعتمد القول الأول جازمين، منها ما يلي:

١ ــ روى البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال:

«يُلْقَىٰ فِي النَّارِ، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطْ. قَطْ».

٢ ــ وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة رفَعَه:

«يُقَالُ لِجَهَنَّمَ: هَلِ امتلأْتِ؟ وتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيد؟ فَيَضَعُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدَمَهُ عَلَيْهَا فَتَقول: قَطْ. قَطْ».

٣ ــ وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة قال: قال النبيُّ ﷺ:

«تَحَاجّتِ الْجَنَّةُ والنَّارُ، فقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بالمتكبِّرِينَ والْمُتَجَبِّرين. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَالِي لَا يَدْخُلُنِي إلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟. قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْجَنَّة: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادي. وقال للنار: إنّما أَنْتِ عَذَابٌ أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُها، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِىءُ حَتَّىٰ يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ. قَطْ. قَطْ. فَهُنَالِكَ تَمْتَلِىءُ، وَيُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْض، وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحداً. وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِىءُ لَهَا خَلْقاً».

يُزْوَىٰ: أي يُضَمّ ويُجْمع.

وأورد الطبريّ في تفسيره أحاديث مشابهة لهذه الأحاديث، وفي الصحاح والسنن روايات تؤكّد ما جاء في هذه الأحاديث، ولا معارض لها في الصحيح، فوجب الجزم بالفهم المؤيَّد بها، دون الفهم الآخر، وعندئذٍ فلا داعي لإيراده، إلَّا لدفعه.

قال الطبري: «وأولىٰ القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ من قال: هو بمعنى الاستزادة، هَلْ مِنْ شيءٍ أزداده؟.

وإنَّما قُلْنَا ذَلِكَ أولى الْقَولين بالصواب، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ».

والحقّ ما ذكره الطبري، وهو مع ذلك الظاهر من دَلالة الآية.

* * *

المثال الثاني:

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله ﷺ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) وهي سورة مكيّة لكنّ الآية التالية منها قد نزلت في المدينة:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾.

وقد ورد عند أهل التأويل في تفسير المراد من السبع المثاني والقرآن العظيم عدّة أقوال:

القول الأول: هي سورة الفاتحة، وقد روي عن جمهور كبير من السلف.

القول الثاني: هي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والسابعة الأنفال والتوبة، لأنهما كسورة واحدة، وقد روي هذا القول عن ابن عبّاس.

القول الثالث: هي القرآن كلُّه، روي عن الضحّاك وطاوس وأبي مالك.

القول الرابع: هي الأحزاب.

وقيل غير ذلك.

لكننا إذا نظرنا فيما ثبت من ذلك عن النبيّ ﷺ لم يكن أَمامنا إلاَّ اعتماد القول الأول، وهو المروي عن جمهور من الصحابة والتابعين، منهم: عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبو هريرة، وأبيّ بن كعب، ومجاهد، وقتادة، والربيع، والكلبي، وأبو العالية.

فقد روى البخاري بسنده عن أبـي سعيد بن المعلّى، قال:

كُنْتُ أُصَلِّي في المسجـد، فـدعـاني رسـول الله ﷺ، فلم أُجِبْـه، فقلتُ: يـا رسـول الله إِنِّي كُنْتُ أُصلّي، فقـال: «ألم يَقُـلِ الله ﴿اسْتَجِيبُـوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَـاكُمْ﴾؟» ثُمَّ قَالَ لي: «لَأُعَلِّمَـنَّكَ سُـورَةً هِيَ أَعْـظَمُ السُّـوَرِ في الْقُـرْآنِ قَبْـلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ» ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجُ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ لأُعَلِّمَنَّـك سُـورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُـورَةٍ في الْقُرْآن؟ قال: «﴿الحمد لله رب العـالمين﴾ هيَ السَّبْـعُ الْمَثَانِي، وهِيَ الْقُرْآن العظيم».

أي: فـاتحة الكتـاب هي السبـع المثاني من سـائر المثـاني في القرآن، وهي القرآن العظيم من سائر القرآن المجيد.

وأبو سعيد بن المعلّى صحابـيٌّ مدني كما ذكر ابن حجر في الفتـح[1].

فأبان الرسول ﷺ أنّ الفاتحة تمتاز بهذين الوصفين.

الأول: كـونهـا السبـع المثــاني، أي: ذات الآيـات السبـع التي تثنىٰ، أي: تُكَرَّرُ قراءتها فتثنى مرّةً بعـد مرّة في كـلّ ركعة من ركعـات الصلاة. وقيـل في تفسير المثاني غير ذلك.

وروى البخاري أيضاً عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْـعُ الْمَثَانِي والْقُرْآنُ الْعَظِيم».

• • •

(١) صفحة ١٥٧ الجزء الثامن.

القاعدة الثامنة

«حول تكافؤ النصوص القرآنية ووجوب الجمع بينها في نسق فكريّ متكامل وعدمِ اللّجوءِ إلى الحكم بالنسخ إلَّا فيما ثبت نسخه بدليل صحيح صريح»

ليس بعض النصوص القرآنية أولى بالاعتبار من بعض، ما لم يثبت قطعاً نسخ السابق منها في النزول باللّاحق.

والأصلُ اعتبار النصّ القرآني محكماً غير منسوخ، ولا يُلْجَأُ إِلَىٰ الحكم بالنسخ إلَّا عند تعذُّر حمله على أنه محكم، أو عند ثبوت النسخ بدليل صحيح صريح غير قابل لحمله على فكرة مقبولة بموجب مفاهيم أحكام الشريعة بوجه عامّ.

فعلى متدبر آيات كتاب الله عزّ وجلّ أن يَجْمَعَ بين مفاهيم نصوصها التي قد يبدو فيها التعارض، كالنصوص المشتملة على عمومات مع نصوص أخرى تُعَارِضُها في عمومها.

ومن الجمع بين النصوص لحلِّ التعارض تخصيصُ العموم تخصيصاً يتّفق مع المفاهيم الإسلامية بوجه عامّ، ولا يُلْغِي بذلك أصل دلالة العموم على الكثرة.

وإذا وَرَدَ نصّان أحَدُهما خاصٌّ والآخر عامٌّ حول موضوع واحد، فإن اتفقا في الحكم فلا إشكال، وإن اختلفا فَالخاصُّ في مورده أقوى دلالة من دلالة العامّ. وعليه فالنصُّ الخاص إذا كان واضح الدلالة محدّد الدائرة التي يتحدّث عنها وتعارض مع دلالة النصّ العامّ، كان النصُّ الْعَامُّ مُخَصَّصاً، وغَيْرَ مُتَنَاوِلٍ للدائرة التي تحدّث عنها النص الخاص.

ثُمَّ يُنْظَرُ بعد ذلك: هل الباقي من العامّ مرادٌ كُلُّه، أوله أيضاً ما يُخَصِّصُهُ، وفي كلّ الأحوال لا بُدَّ أن يبقى من العامّ ما يصحُّ معه إسناد الحكم الذي اشتمل عليه.

وعلى المتدبّر لكلام الله أن يبحث ويتتبّع النصوص، ويستقرئَها على مقدار استطاعته.

ويكثر عند بعض المفسّرين ادّعاء النَّسخ في كثير من الآيات القرآنية دون دليل كافٍ يثبت به النسخ.

والأَصلُ أنّ الآيات القرآنيةَ باقيةُ الدلالات، ومُرادَةُ المعاني التي تحملها، في مَوَارِدِها، ولا يجوز اللُّجُوءُ إلى الحكم بالنّسخ لأدنَى شبهة، أو لدليلٍ ضعيفٍ لا يَقْوَىٰ على رَفْعِ دلالة النصّ الثابتة.

وعلى المتدبّر أن يَبْحَثَ عن موارد معاني الآيات القرآنية، بحثاً عميقاً دقيقاً، حتَّىٰ لا يُلْغِيَ معنىً لآيةٍ هو مرادٌ دواماً كُلَّما جاءَ مورده.

ومهما أمكن الجمع بين النصوص القرآنيَّة، وحمل النصّ المعارض في ظاهره على معنى صحيح سليم منسجم مع السياق، ومع مفاهيم أحكام الشريعة بوجه عامّ، وغير معارض معارضةً كُلّيَّةً لأمْرٍ ثابتٍ في بيان دلالته، فلا يصحُّ فَهْمُه بطريقة تُلْجِئُ إلىٰ اعتباره منسوخاً.

وعلى المتدبّر لكتاب الله أن يكون على بصيرة من الحقيقة التالية: وهي أنَّ التدرُّج في إنزال الأحكام ليس من النسخ، إذ الأمر المسكوت عنه في البيان لا يُعْتَبَرُ بيان حكمه بعد ذلك نسخاً له.

فَمَنْ نَفَّذَ من الخطّة الموضوعة بعض عناصرها التي تسمح به الظُّرُوف، أو تقتضيه الحكمة، فإنّه لا يكون مُبَدِّلاً ولا مُغَيِّراً في أصل الخطّة، وقد تكون الخطَّةُ في أساسها تقضي بأن يجري تنفيذ عناصرها على مراحل.

على أنَّ النسخ مِنْ أساسه ـ كما يذكر علماء أصول الفقه الإسلامي ـ إنَّما هُوَ بيانُ انتهاءِ المدّة المقرّرة للحكم السابق.

ولكنّ هذه المدّة لم تكن مُعْلَنةً عند إنزالِ الحكم السابق، وإنَّما كانَتْ ملاحظةً ضمن الخطّة غير المعلنة.

* * *

الأمثلة

أوّلًا: **أمثلة على قضية تكافُؤ النصوص القرآنية، وضرورة الجمع بينها:**

المثال الأول:

إنَّ عموم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ ﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

لا يصحُّ أَنْ يَطْغَىٰ على عموم قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ . . . ﴿٢٨٦﴾ ﴾.

وعموم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . . . ﴿١٥٢﴾ ﴾.

ونحو هذه النصوص.

إنَّ عموم القسم الثاني من هذه النصوص يُثْبِتُ أنَّ ما يكلّف الله به عباده هو من وسعهم، وإذا كان من وسعهم فإذا فعلوه فهو من كسبهم، فالعموم في القسم الأول ﴿الله خالق كلّ شيء﴾ لا بدّ أن يكون مخصَّصاً فيما لا يعارض كون النفوس المكلّفة من الله ذاتَ وُسْعٍ لعمل واختيار ما كلفها الله إيَّاه.

على أنّنا نقول: إنَّ هذا الوسع والقدرة على الاختيار من خلق الله تعالى.

فما جعله الله منوطاً بكسب المكلَّفين قد خلق فيهم الاستعداد لفعله أو تركه، وأمدَّهم بالطاقة التي يستطيعون بإراداتهم توجيهها دون أن يجبرهم على التوجيه. لكنّهم إذا أرادوا خيراً أو شراً ظلّ إمداده بالطاقة لهم مستمرّاً، لينفّذوا ما أرادوا، مع أنه سبحانه وتعالى لو شاء لأمسك عن إمداده لهم، أو لَقَطَعَ عنهم الإمداد بالطاقة فلم يستطيعوا أن يُنَفِّذُوا ما أرادوا.

وهذا تمكين قَدَرِيٌّ خلقي، وليس إذناً تكليفياً، فالتمكين القدري الخلقي قد يُصَاحِبُهُ نهيٌّ تكليفي، أو أمر تكليفي أو إباحة.

* * *

وعموم صفات الله كذلك، فلا يَصِحُّ من أجل صفةٍ ما إهمال صفة أخرى.

إنَّ الحكمة والعدل لا يُهْمَلان من أجل صفتي الخلق والتقدير، والحكمة لا تهمل من أجل إطلاق صفة المشيئة.

إنَّ صفات الله مجتمعة بتناسق تامّ، فلا ينقضُ بعضُهَا بعضاً، ولا يُعَارِضُ بعضُها بعضاً، فكونُ الله يفعلُ ما يشاء لا يلزم منه أنه يفعل شيئاً على خلاف حكمته

جلّ وعلا، أو على خلاف عدله وفضله، بل هو يشاء دون إجبار ما هو حكيم، ويفعل دون إجبار ما يشاء، وعلى متدبّر كلام الله أن يلاحظ باستمرار هذه القاعدة، ويفهم كتاب الله في ضوء هذه الحقيقة.

* * *

المثال الثاني:

عموم قول الله تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ . . . ﴿١٠٥﴾﴾.

إذا فهم هذا النص على إطلاقه الظاهر ألغى دلالات نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والأمر بوقاية الأهل من النار.

وفهم النصوص بعد اجتماعها كلّها يوضّح أنَّ هذا النصّ له موضع لا يتعدّاه، ضمن الموضوع العامّ الذي تناولته جملة النصوص.

فقول الله تعالى: ﴿عليكم أنفسَكُمْ لا يضرُّكم من ضلّ إذا اهتديتم﴾ يراد منه بيان أن مسؤولية المؤمن لا تتجاوز حدود ما أمره الله به من إيمان وعمل، ويدخل في العمل الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الظالم، والعمل لإقامة شريعة الله، وإقامة حدوده. فمسؤوليته لا تتجاوز هذه الحدود حتى تدخل في حدود أنه مسؤول عن ضلال من ضلّ بعد ذلك، بل ضَلالُ مَنْ ضلَّ بعد ذلك تقع مسؤوليته على نفسه، لا يَضُرُّ بضلاله عند الله أحداً من المؤمنين القائمين بما أمرهم الله به.

ويأتي الغلط في فهم هذا النص من تعميمه، وجعله شاملاً إسقاطَ واجباتِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذِ على يد الظالم، والجهاد في سبيل الله، كما شمل إسقاط مسؤولية التحويل من الضلال إلى الهدى. بينما المراد منه

مُنْحَصِرٌ في أن المؤمنين غَيْرُ مسؤولين عن تحويل الكـافرين الضـالّين إلى الهدايـة، بعـد قيامهم بـواجبات الـدَّعوة والجهـاد وإقامـة الحكم الإسلامي مـا استطاعـوا إلى ذلك سبيلاً.

* * *

ثانياً: أمثلة على ما يُدَّعَىٰ النسخ فيه وهو محكم غير منسوخ:

المثال الأول:

يقول الله عزّ وجلّ في أواخر سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وهي أول سورة نزلت في العهد المدني:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾.

بتدبّرٍ غيـرِ دقيقٍ ولا عميقٍ يرى بعض أهـل التأويـلِ أنَّ قولَ الله عـزّ وجلّ في هذه الآية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّين﴾ منسوخ بآيات القتال، وبـدليل عمـل الرسـول ﷺ وأصحابه، وبدليل نحو قول الرسول ﷺ الصحيـح الـذي رواه البخاري ومسلم عـن أبـي هريرة.

«أُمِرْتُ أَنْ أقاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ وأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَـإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله».

ويرىٰ آخرون من أهل التأويل أنّ هذا القول من القرآن محكم غير منسوخ.

وحين نفهم بعمق معنَى الدين، أنّه يبدأ من الإيمان، والإيمان حقيقة داخليّـة قلبيـة، وشيءٌ يَنْبَـعُ من عُمْق الإنسان، وهـو إرادةُ التصـديق بـأركـان الإيمـان، مـع عاطفة العمل بمقتضى التصديق الإرادي. وهذه أمور لا يُعْقَل فيها ولَا يُتَصَوَّرُ الإكراه بحال من الأحوال، فالدينُ لا إكراه فيه، لأنّ واقـع حال الـدِّينِ كذلـك، لا يُعْقل أن

يكون فيه إكراه، ولا يملك أحدٌ من الناس أن يُكْرِهَ أحداً على أن يُرِيدَ في عُمْقِ قلبه التصديقَ بأركان الإيمان، وأن تكون له عاطفة نحو العمل بمقتضى هذه الأركان. إنَّما الذي يَمْلِكُ ذلك هو الله عزّ وجلّ بالْجَبْرِ بَعْدَ سَلْب الاختيار الذي مَنَحَهُ وَمَنَحَ أداتَه للإنسان.

الدِّين إرادة كسائر الإرادات، وعاطفةٌ كالحب والكراهية وسائر العواطف القلبية والنفسية، لا تكون في ذوي الإرادات الحرّة بالإكراه.

فكيف يَعْرِض النسخ لهذه الحقيقة الّتي لا تَقْبَلُ النسخ ما دام الناس بقضاء الله وَقَدره أحْرَارَ الْإرادات؟!

أمَّا الدينُ بمعنى النُّطْقِ بالشهادتين والعملِ بأركان الإسلام الظّاهرة دون التصديقِ الإراديّ الْقَلْبِيّ، فَالإكراه عليه أمرٌ ممكن، ولكنّ الإكراه حينئذٍ يكونُ إكراهاً على النّفاق، والنفاقُ شرٌّ من الكفر الصريح، ولا يُمْكِنُ أن يكون من أحكام الإسلام إكراهُ النّاس على أن يُنَافِقُوا، مع حكمه على المنافقين بأنَّهم في الدَّرْكِ الأسفل من النّار.

فقول الله عزّ وجلّ: ﴿لَا إكراهَ في الدين﴾ حقيقةٌمحكمةٌ باقية غير قابلةٍ للنَّسْخِ عقلاً.

أمَّا الأمر بقتال الكافرين فلأُمور ليس واحدٌ منها إكراهاً في الدين.

الأمر الأول: مقابَلَةُ العمل بمثله، فمن قاتل المسلمين وأخرجهم من ديارهم وأموالهم، أو هاجمهم، أو تعرّض لحدود سلطانهم، أو حاول إكراه بعضهم على الكفر، أو دبّر لهم مكايد، فقد أذن الله للمسلمين بقتاله، عقاباً، ودرءاً لشرّه وضُرّه.

الأمر الثاني: تأمين حرّيّة نشر الدّين في الناس أجمعين، فَكُلُّ ذي سلطانٍ في الأرض يَمْنَعُ حُرِّيَّةَ الدعوة إلى دين الله الحقّ بالقوة، ويُكْرِهُ قومه على الكفر بالله والإيمان بالطاغوت، واستطاع المسلمون أن يُقَاتِلُوهُ فهم مأمورون بقتاله، ليكون

الناس أحراراً في اختيار الدين والمذهب الذي يريدون، وليكون الدعاة إلى الله آمنين وهم ينشرون دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة.

الأمر الثالث: إزاحةُ الْحُكَّامِ الطُّغَاةِ الظَّلَمَةِ لشعوبهم، بغية إقامة العدل بين الناس، مع تأمين الحرّية الدينيّة، ومنع الفتنة في الدين، هذا إذا استطاع المسلمون ذلك.

الأمر الرابع: إيجاد قاعدة للإسلام في الأرض محميّة، لا يكون فيها إلاَّ دين الإسلام، ولا يحكمها إلاَّ المسلمون، ولا يجتمع فيها دينان، فمن لم يشأ أن يكون مسلماً فليخرج عن هذه القاعدة المحميّة، أو يُقَاتَل، وهذه القاعدة هي جزيرةُ العرب، وهي الّتي لا يجوز أن يجتمع فيها دينان.

أمَّا حديث الرسول ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أقاتل الناس حتَّى يشهدوا أن لا إلَـهَ إلاَّ الله وأنّي رسول الله . . .».

فَلم يَقُلْهُ الرسول ﷺ ليُبَيِّنَ فيه أنَّه مأمورٌ بأن يُكْرِهَ الناسَ عَلَىٰ الدين، ولو كان الأمر كذلك لَمَا قَبِلَ الجزيةَ من أهل الكتاب، ولَمَا قَالَ في المجوسِ: «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الكتاب».

وإنَّما قَالَه لِيُبَيِّنَ فيه وُجُوبَ التَّوَقُّفِ عن مُقَاتَلَةِ من أعلَنَ إسلامه، ولو كان مشكوكاً في أمر إعلانه ذلك، بأنّه قد فعله تقيَّةً وَنفاقاً، وليبيّن فيه أنَّ هذا الإعلان كافٍ في عصمة دمه وماله، مهما كانت جرائمه قبل الإسلام، فالإسلام يَجُبُّ ما قبله.

فكلمة «الناس» في الحديث ليس مراداً منها العموم والاستغراق، وذلك بمقتضىٰ الدلائل الأخرى، وإنما المراد: أُمِرْتُ أن أقاتل الناس الذين شُرِعَتْ لي مقاتَلَتُهُمْ حَتَّىٰ يشهدوا أن لا إلَه إلاَّ الله وأني رسول الله، فإذا قالُوهَا وَجَبَ عَلَيَّ أن أتوقف عن مقاتلتهم، مهما كان لديّ من الدوافع لمتابعة المقاتلة، كالرَّغْبَةِ في الانتقام، أو الشَّكِّ في صِدْقِ مقالتهم، أو غير ذلك.

فالتعجُّلُ وَعَدمُ التَّعَمُّقِ في تدبُّر النصوص هـو الذي يُـوقِع في الأغـاليط، وفي تصدير أَحكامٍ على كتاب الله بغير ما يجب أن يفهم منها.

إنَّ علينا أن نُدركَ أن ادّعاءَ نسخِ آية من القرآن لا يَصِحُّ إلاَّ بَعْدَ تَـأَنٍّ طويـل، وتفكيـر عَميق، وتبـادُلِ الـرأي بين أهـل التـدبُّـر للنصـوص، وأئمـة الاجتهـاد على بصيرة، وحينما لا يمكن الجمع بوجه معقول ومقبول بين النصوص التي يـظهر فيهـا التعارض الدَّاعي لادّعــاء النسخ.

* * *

المثال الثاني:

يقــول الله عــزّ وجــلّ في ســورة (الأنعــام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نــزول) وهي سورة مكية:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في العهد المدني قولَهُ في سورة (النســاء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

فجاءت الإحالة في هذا النصّ من سورة (النساء) المدنية على النصّ الســابق من سورة (الأنعام ٦) المكيَّة.

وجاء شرح الخوض في آيات الله الوارد في (الأنعام ٦) بعبارة: ﴿أَنْ إذا سمعتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأ بها﴾ الواردة في (النساء ٤).

وجاء في النصّ الذي في (النساء) بيان صفات المنافقين، ومنها أنَّهم يتخذون الْكَافِرِينَ وكانُوا أصدقاءهم وحلفاءهم من اليهود، أوليـاء من دون المؤمنين، يبتغونَ عنـدهم العزَّة (أي: القـوّة الْغـالبـة) ويقـولُ قـائلهم نخشىٰ الـدوائـر أن تـدور على المسلمين، عندئذٍ تكونُ لنا يدٌ مع حلفائنا الأولين من اليهـود. ومنها أنّهم يُجَالِسُون هؤلاء الكافِرينَ، ويسمعـون منهم الكفر بـآيات الله والاستهـزاءَ بها، فـلا يُسْكِتُونَهُمْ ولا يُفَارقون مجالسهم، وهذا يُشْعِرُ برضاهم عمَّا يفعل الكافـرون، والرّاضي بـالفعل كالفاعل في الإثم.

فَذَكَّرَهُمُ اللَّهُ بِمَا سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَ بِهَذا الشأْنِ في سـورة (الأنعام) المكيّـة، وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا اسْتَمَـرُّوا على اتّخـاذِهِمُ الكـافـرين أوليساءَ من دون المؤمنين، وعلى مُجَـالَسَتِهِمْ لهم وهم يكفُرونَ بـآيـات الله وَيَسْتَهْـزِئـون بهـا فَـإِنَّهُمْ إذاً مِثْلُهُمْ، لأَنَّهُمْ رَاضُونَ عن أمرهم، موافقون لهم، ولو لم يقولوا مثل قـولهم، لأنَّ الصَّمْتَ مع عـدم الخوف، ومع إمكـان مفارقـة المجلس، مشاركـةٌ خرسـاءُ يفعلها المنـافقون، وليس المسلمـون في العهد المـدني بالضعفـاء، بل لهم القـوة والسلطان، فلا عـذر لأحد منهم بأن يرى الذين يخوضون في آيات الله دون أن يفارق مجلسهم ساخطاً.

بخلاف حال المسلمين في العهـد المكي، فإنّهم كـانُوا مستضعفين، وكـانت القوة العامّـة للمشركين، لـذلك جـاء في نصّ (الأنعام) المكيّ قـول الله عزّ وجـلّ: ﴿وَمَـا عَلَى الَّـذِينَ يَتَّقُـونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ليعـطي بـهـذا النصّ عُـذْراً للمستضعَفِينَ من المؤمنين الَّذين لاَ يستَطِيعُونَ مفارقـة مجالس الـذين يخوضـون في آياتِ الله، أو الإعراضَ عنها، دون أَنْ يتعرَّضوا للاضطهاد أو الأذى من قبـل أوليائهم أو سادتهم أو كبراء قـومهم، أي: إنَّهم إذا كانـوا مُتَّقين لله في قلوبهم، ويتقون شـرّ الكافرين أعداء الله في ظاهرهم إذ كانوا ضعفاء لا يستطيعون الإعـراض عن مجالس

الخائضين في آيات الله، فَإنَّهم لاَ يَتَحَمَّلُونَ شيئاً من الإثم الذي يحمله الخائضون، نظراً إلى أنَّ هؤلاء المؤمنين منكرون في قلوبهم، غير راضين ولا موافقين، ويخشون من مفارقة مجالس الخائضين أنْ يتعرّضوا بها للأذى أو الاضطهاد. وهذا الحكم باقٍ محكم غير منسوخ، وهو خاصٌ بمن تكونُ حالَتُه كذلك.

فغير واردٍ إطلاقاً ما قاله «مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّان» على ما نقل ابن كثير في تفسيره من أنَّ قولَ الله عزّ وجلّ في سورة (النساء): ﴿إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾ ناسخٌ لِقَوْلِ الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام): ﴿وَمَا عَلَىٰ الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون﴾. فَلِكُلٍّ من الحكمين مواضع يُحْكَمُ بِهِ فِيها. إنَّ من تُعْرّضُهُ المفارقة للأذى أو الضُّرّ، وخاف على نفسه، ولم يجد شجاعة أن يفارق المجلس ويعرّض نفسه للأذى أو الضرّ ويَصْبِرَ عليه، فله أن يبقىٰ في المجلس، وينكر في قلبه، ويعرض عما يقولون بأن يصرف سمعه وفكره عمَّا يتحدّثون به بنحو ذكر الله وتدبُّر آياته في دائرة نفسه.

أمَّا من تكون لديه القوة على مفارقة مجلس الخوض في آيات الله، أو المواجهة والتغيير، فهو الأمر المطلوب منه. فإذا لم يفارق ولم يغيّر، وَبَقِيَ مجالِساً، فهو راضٍ مشارك، وهو الذي ينطبق عليه: ﴿إِنَّكُمْ إذاً مِثْلُهم﴾.

• • •

القاعدة التاسعة

«حول تتبع مراحل التنزيل»

على متدبّر كتاب الله أن يجتهد في تتبّع مراحل تنزيل القرآن، ويبني فهمه على أساس تدرّج التشريع، حتى لا يقع في خطأ اعتماد آية سابقة النزول في تدرّج التشريع مع أنه قد نزل بعدها تكميل أو بيانٌ كاشف لأحكام المرحلة اللاحقة، وحتى لا يقع في خطأ تصوّر معارضة الآية السابقة لما نزل بعدها في موضوعها الذي تعالجه من موضوعات التكاليف والأحكام، ووسائل التربية، وطرائق الإصلاح، وأساليب الدعوة، وألوان الجهاد.

أما النصوص الخبرية المبيِّنة للعقائد وأصول الدين الكبرى فيُضَمّ اللاحق منها للسابق، وتُفهم متكاملة الدلالة كأنها أُنزلت في وقت واحد، لأن مضامينها حقائق لا تكاليف ولا مراحل تربوية، ومراحلها مراحل بيان تعليمي، يتضمن فنوناً بلاغية، وأدلّة من أدلة الإعجاز البلاغي والفكري، والعلمي.

* * *

إنَّ النصوص المتأخرة نزولاً في الأحكام والتشريعات هي الأحق بأن تكون عمدة الأحكام والتشريعات النهائية، إن كانت معارضة تماماً لما نزل قبلها، ومكمِّلة ومبيِّنة إذا لم تكن معارضة تماماً لما نزل قبلها.

إنَّ النصوص المتأخرة قد تكون مبيِّنةللمراد، وقد تكون مقيِّدة مطلقاً، أو مخصصة عموماً، أو مثبِتةَ حكمٍ لم تثبته السابقة، أو مبيِّنة انتهاء العمل بحكم

السابقة، أو مكمِّلة لأحكام أو دلالات لم تستوفها السابقة عن قصدٍ، التـزاماً بحكمـة التدرج في التشريـع، وفي التربية، وفي التعليم.

وتتبـع مـراحل النـزول للنصوص التـربـويـة يكشف للبـاحث عن التـدرّج في الخطوات التربوية، والتكرير في استعمـال العلاج التـربوي، بغيـة تأثيـره والحصول على الفائدة منه، كالعلاج الدوائي في مجال الصحة الجسدية.

فالنصوص التربوية ذوات مراحل تدريجيـة توائم الحـالة النفسيـة للفرد الـذي توجه له بها أساليب التربية القرآنية، وتوائم الحالة النفسيـة والاجتماعيـة للمجموعـة من الناس الذين تتوجّه لهم بها أساليب التربية القرآنية.

وكـذلـك النصـوص الحـركيــة في طـرائق الإصــلاح، وأســاليب الــدعـوة، وألوان الجهاد.

بخلاف النصوص الخبرية عن الكون، والنصوص التي تبيّن مسائل العقائد وأصول الدين الكلية العامة، فالمرحليَّة فيها مرحلية بيان تعليمي، وليست مرحليّة تدرج تربوي، تكليفي، حتى يُعتبـر العمل بـاللاحق هـو الأمـر المستقـر، بـل كلُّهـا ذوات دلالات مقصودات على الدوام، والـلاحق منها يُضَمّ إلى السـابق، وتُفهم معاً كـأنّها أنـزلت دفعة واحدة، فهي متكاملة في دلالاتها يكمّل بعضها أيضاً.

* * *

إنَّ مراعاة مراحل التنزيل وأزمانه، وملاحظتها لدى التـدبّر، تحمي من أخـطاءٍ تفسيرية قد يقع بها بعض المفسّرين. فبعضهم قد يأتي بقصص مدنيّة فيضعها شرحاً أو سبباً لنصٍّ مكّي، ويُحمِّلُ بذلك النصّ القـرآني ما لا يحمـل، وقد يقـع من جرّاء ذلك في خطأ فادح.

وقـد يـأتي بحـادثة مكيّة فيجعلهـا سبباً لنـزول نصٍّ مـدنيّ لا عــلاقـة لــه بهذه الحادثة.

وتدبّر القرآن مع مراعاة مراحل التنزيل، وملاحظة ترتيب نزول الآيات، يجلب نفعاً كبيراً للمتدبّر.

فهو يهديه إلى مفاهيم جليلة تتّصل بحكمة التدرُّج، وبمعرفة الغاية من التكرير إذا وُجد في القرآن دون فرق بين النصوص اقتضاه غرض التكامل.

ويعرف ترتيب نزول القرآن بالنظر في ترتيب نزول السور المبيّن عند العلماء بالتنزيل(١).

ويعرف في السورة الواحدة بترتيب الآيات فيها، ما لم يرد نصّ بخلاف ذلك، كأن يثبت تقدّم نزول الآية، أو عدد من الآيات، أو يثبت تأخر نزولها، فعندئذٍ يُتّبع ما ثبت في النصّ المبيّن لتاريخ النزول.

وقد يُعْرَفُ ترتيب النزول بالتبصّر العقلي الهادي إلى قواعد سنّة الله التي جرى وفقها إنزال معظم النصوص القرآنية وأحكام التشريع.

* * *

وقد ذكر الإمام بدر الدين الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن» ترتيب نزول السور في العهد المكي، وفي العهد المدني، وقال بعد ذكر ترتيب ما نزل من سور القرآن في مكة:

«وعليه استقرّت الرواية من الثقات، وهي خمس وثمانون سورة» وذكر أنّهم اختلفوا في آخر ما نزل من السور بمكة:

- فقال ابن عباس: «العنكبوت».
- وقال الضحّاك وعطاء: «المؤمنون».
- وقال مجاهد: «ويل للمطففين».

---

(١) انظر الجدول الملحق بهذه القاعدة.

ثم ذكر نزول السورة في العهد المدني، وقال: ومنهم من يقدّم المائدة على التوبة. وجعل في ترتيبة «النصر» بعد «الحشر» وقبل «النور».

وقد أثبتُّ في ملحق هذه القاعدة جدولاً فيه ترتيب السور بحسب التنزيل، وما في السور المكيّة من آيات مدنيّة، وما في السور المدنية من آيات مكيّة، وما ذكره العلماء حول أوّل ما نزل من القرآن وآخر ما نزل ونحو ذلك، فليرجع إليه.

* * *

والمرحوم الشهيد «سيد قطب» قد وضحت له الرؤية تماماً لطبيعة المنهج الحركي، ومراحله، وخطواته، فأبان ذلك في صدر تفسيره لسورة (التوبة) بعد أن أبان أن هذه السورة من أواخر ما نزل من القرآن، فقال:

(والسورة ــ بهذا الاعتبار ــ ذات أهمية في بيان طبيعة المنهج الحركي للإسلام ومراحله وخطواته، حين تراجع الأحكام النهائية التي تضمنتها مع الأحكام المرحلية التي جاءت في السور قبلها. وهذه المراجعة تكشف عن مدى مرونة ذلك المنهج، وعن مدى حسمه كذلك.

وبدون هذه المراجعة تختلط الصُّوَر والأحكام والقواعد، كما يقع كلّما انتزعت الآيات التي تتضمن أحكاماً مرحلية فجعلت نهائية، ثمَّ أريد للآيات التي تتضمن الأحكام النهائية أن تفسّر وتؤوّل لتطابق تلك الأحكام المرحلية، وبخاصة في موضوع الجهاد الإسلامي، وعلاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى).

وأقول: إنَّ الخطوات المرحلية لا تعني دائماً نسخ المتأخر منها للمتقدّم، بل تفيد أن الإسلام ذو منهج حركي في قيادة الخلق إلى الحقّ، وفي إبلاغهم إلى التحقق بالعبودية الكاملة لله تعالى وحده لا شريك له، وفي إقامة شرائعه وأحكامه النهائية.

والمنهج الحركي لدى التطبيق يراعى فيه تطبيق المرحلة التي تناسب الظرف النفسي والاجتماعي للأمة التي تُدعى إلى تطبيق الإسلام.

وعلى الداعي أو الدعاة أن يستفيدوا في دعوتهم ـ لا سيما في موضوع الجهاد في سبيل الله ـ من الخطوات المرحلية التي سارت على وفقها الدعوة الإسلامية في عصر التنزيل.

* * *

الأمـــثـــلـــة

المثال الأول:

التدرج في تحريم الخمر:

أولاً: في العهد المكي جاء التلويح بأنّ صفات الرسول محمد ﷺ أنه يحلّ لأمته الطيّبات ويحرم عليهم الخبائث، وقد جاء ذلك في أواسط السور التي نزلت في العهد المكي.

ففي سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) نزل قول الله عزّ وجلّ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ... ﴿١٥٧﴾ ﴾.

* * *

ثم نزل بعد ذلك تلويح أقوى في العهد المكي أيضاً، فقال الله تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا... ﴿٦٧﴾ ﴾.

ففي وصف الرزق بأنه حسن، في مقابل السّكَر تلويح ضمني إلى أنّ السّكر ليس رزقاً وليس حسناً، إذ لو كان فيه نفع لكان رزقاً، ولدخل في عموم الرزق، وإذْ تُرك السّكَرُ في الآية من دون وصف، مع وصف الرّزق بأنه حسن، فقد دلّ ذلك

على أن السّكَرَ لا يستحق أن يوصف بأنه حسن، وفي هذا تلويح بأنه على قائمة الخبائث.

ولكن في تحوّل هذه الثمرات إلى مواد مسكرة دليل على إحكام القوانين المنظمة للكون بتدبير الخالق، ومن أجل ذلك ختمت الآية بقول الله تعالى: ﴿إنَّ في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾.

والنصّ كلّه ورد في معرض لفت النظر إلى ظواهر صنعة الخالق في كونه، للاستدلال منها على حكمته وقدرته وعنايته ووجوده المهيمن على كلّ شيء.

* * *

ثانياً: وفي العهد المدني نزل في أوائله التمهيد الصريح للتحريم، ثم نزل بعد ذلك التحريم في أوقات الصلاة، ثم نزل التحريم النهائي في كلّ الأوقات.

ففي سورة (البقرة) ــ أول سورة مدنية ــ نزل قول الله تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . . . ﴿٢١٩﴾ ﴾.

وبقليل من التأمل يتضح لنا أنّ الباحث المتفكّر لا بدّ أن يصل بنفسه إلى تحريم الخمر، متى عرف أنّ إثمه أكبر من نفعه، فما زاد ضرّه على نفعه ابتعد عنه أهل الفكر الثاقب، والرأي الحصيف. لأنهم يعلمون من حساب الربح والخسارة أنهم في العملية خاسرون، فهم لا يمارسون عملاً هم فيه خاسرون. ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾.

* * *

ثمّ نزل بعد ذلك في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ . . . ﴿٤٣﴾ ﴾ .

وكان هذا النص صريحاً في تحريم شرب الخمر في أوقات الصلاة، أو في تحريم الشرب المسكر في هذه الأوقات، مع بقاء التلويح بالابتعاد عنه ابتعاداً كلياً.

ولمَّا كان من شأن النصّ السابق أن يكون داعياً إلى الامتناع عن شرب الخمر ولو لم يكن صريحاً في التحريم، جاء في هذا النص تعريض بالعفو والغفران، كأنّ الذنب قد حصل، وإن لم يكن في مخالفة حكم صريح، فمثل كبار الصحابة كان يكفيهم تقديم الدليل الاستنباطي لهم، حتى يمتنعوا، لا أن يكونوا كآحاد المسلمين في الحاجة إلى النصوص الصريحة الواضحة، ولذلك ختم الله آية النساء بقوله: ﴿إنَّ الله كان عفوّاً غفوراً﴾.

* * *

ثم نزل بعد ذلك النصّ الختامي النهائي المتضمن للتحريم الصريح، وهو قول الله تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَـٰمُ رِجۡسٌ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَـٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَـٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾.

فكان هذا نصَّاً قاطعاً صريحاً في التحريم، وقال عمر: انتهينا يا ربّ انتهينا.

* * *

المثال الثاني:

التدرج في تحريم الربا.

لم ينزل تحريم الربا من أوّل الأمر دفعة واحدة، وإنَّما اتّبع في تحريمه أسلوب التدرج، ومن تتبُّعِ النصوص القرآنية بحسب مراحل التنزيل ظهر لنا ما يلي:

أولاً: في أواخر دور الدعوة المكيّة ألمح الله إلى أن الربا تعامل لا يبارك فيه، ولا يحمد فاعليه، فقال عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

فكان هذا تمهيداً لما جاء بعده من بيان أكثر وضوحاً، وإنذاراً بأنّ الخطّة سائرة إلى إعلان تحريم الربا تحريماً قاطعاً.

ثانياً: وفي أوائل العهد المدني أنزل الله تعالى قوله في سورة (آل عمران/٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

وكان هذا نهياً صريحاً عن التعامل بالرّبا الذي كان معروفاً عند أهل الجاهلية. ولكن لم يكن هذا النص صريحاً في تحريم كل الرّبا وإن قلّ.

ثالثاً: ثم أنزل الله ذمّ اليهود بأكلهم الرّبا وقد نُهوا عنه، وعمّم الربا في هذا الذمّ، وهنا يتردّد الفكر، هل هو كلّ الربا وهو الأرجح، أو ما كان منه أضعافاً مضاعفة؟ فقال الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾.

وكـان هذا النص تمهيـداً مشعراً بتحـريم كل الـرّبا، وإنـذاراً بـأن المخـالفين يصيبهم ما أصاب اليهود من قبل من ألوان عقاب.

رابعاً: ثمّ أنزل الله النصّ الأخير القاطع بتحريم الربا كلّه، قلّ أو كثُر، وكـان هـذا من أواخـر مـا نـزل من القـرآن، فقـال الله تعـالى في أواخـر سـورة (البقـرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾

* * *

المثال الثالث:

التدرّج في أحكام الجهاد في سبيل الله من جهاد الدعوة، إلى جهاد القتال الفاتح:

لخّص الإمام ابن القيّم هذا التدرج في كتابه «زاد المعاد» بقوله:

(أول ما أوحى إليه ربّه تبارك وتعـالى: أن يقرأ بـاسم ربّه الـذي خلق. وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليـغ.

ثم أنزل عليه: ﴿يا أيها المدّثر قم فأنذر﴾.

فنبّأه بقوله: ﴿اقرأ﴾ وأرسله بـ ﴿يا أيها المدّثر﴾.

ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين. ثم أنذر قومه. ثم أنذر من حولهم من العرب. ثم أنذر العرب قاطبة. ثم أنذر العالمين.

فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوّته ينذر بالدعوة بغير قتال، ولا جزية، ويؤمَر بالكف، والصبر، والصفح.

ثم أُذن له في الهجرة، وأُذن له في القتال.

ثمّ أمره أن يقاتل من قاتله، ويكفّ عمّن اعتزله ولم يقاتله.

ثمّ أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كلّه لله...

ثمّ كان الكفّار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام:

(أ) أهل الصلح والهدنة.

(ب) وأهل حرب.

(جـ) وأهل ذمّة.

فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفّي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد. وأمر أن يقاتل من نقض عهده.

ولمّا نزلت سورة (براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره أن يقاتل عدوّه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام. وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم.

فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللّسان.

وأمرَه فيها بالبراءة من عهود الكفّار ونبذ عهودهم إليهم. وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام.

● قسماً أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم.

● وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوا ولم يظاهروا عليه، فأمَرَه أن يتُمّ لهم عهدهم إلى مدّتهم.

● وقسماً لم يكن لهم عهد، ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمره أن يؤجّلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم. . .

فقتل الناقض لعهده، وأجّل من لا عهد له أو له عهد مطلق أربعة أشهر.

وأمره أن يتمّ للموفي بعهده عهده إلى مدّته.

فأسلم هؤلاء كلّهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدّتهم، وضرب على أهل الذمّة الجزية.

فاستقر أمر الكفّار معه بعد نزول (براءة) على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة.

ثمَّ آلت حالة العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه.

فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام:

● مسلم مؤمن به.
● ومسالم له آمن.
● وخائف محارب.

وأمَّا سيرته في المنافقين فإنه أُمِرَ أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجّة. وأُمر أن يُعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونُهيَ أن يُصلّي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأُخبر أنّه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم. .

فهذه سيرته في أعدائه من الكفّار والمنافقين). انتهى كلام ابن القيِّم.

وللباحث أن يستفيد ممَّا كتبتُه حول آيات الجهاد في سبيل الله، وحركيّتها في كتابي «بصائر للمسلم المعاصر» فقد سبرتُها، وتتبَّعْتُ مراحل تنزيلها بتوفيق الله، وشرحتُ أهمّ ما وجّهت له.

* * *

المثال الرابع:

وهو من أمثلة التدرّج في وسائل التربية:

على مثل التدرّج في بيان أحكام التشريع، كان التدرُّج في استخدام أساليب التربية ووسائلها، ومُتَتَبِّع القرآن المجيد يجد أن هذه القاعدة مسايرة تماماً لمراحل التنزيل.

ومن أمثلة التدرُّج في التوجيه التربوي لما ينبغي أن يقوم به الداعي إلى الله في مقابل أذى من يدعوهم ما يلي:

١ ــ أنزل الله عزّ وجلّ في العهد المكي في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ، ثم لكلّ داعٍ من أمّته يدعو إلى سبيل ربّه:

﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ۝٢٠٢ ﴾.

٢ ــ ثمَّ أنزل الله عزّ وجلّ في العهد المكّيّ أيضاً قوله في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٣٣ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ

وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

في هٰذين النَّصَّيْنِ الْمُنَزَّلَيْنِ في المرحلة المكيّة تدرُّج ارتقائيٌّ في الأسلوب التربوي الّذِي يُرَبِّـي فيه اللَّهُ عزّ وجلّ الدُّعَاةَ إِلَىٰ الله، بأسلوب خطاب المفرد:

(أ) ففي النصّ الأول الذي في سورة (الأعراف) يوجّه الله عزّ وجلّ الداعيَ إلى سبيل ربّه لما يلي:

أوّلًا: يقول له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: إِنَّك أيُّها الدَّاعي إِلَىٰ سبيل ربّك سَتُواجِهُ أذىً من الّذينَ تدعُوهُمْ إِلَىٰ دِينِ الله، وأنت أمام مواقف من هذا القبيل: إِمَّا أن تواجه الأذى بمثله، فتقيم بينك وبين الناس الخصومات فالعداوات، وهذه عقبة كؤود تقيمها في طريق دعوتك، فتمنعك من متابعة المسير. وإمّا أن تَعْفُوَ عَمَّنْ يُسِيءُ إِليكَ، وتُبْقِيَ جُسور الصِّلَةِ بينَكَ وَبَيْنَ مَنْ تَسْعَىٰ لهدايتهم قائمةً، وبسبب ذلك تستطيع متابعة مسيرتك في الدعوة إلى سبيل ربّك، لتغنم الثواب عند الله، وعسَىٰ أن تظفر بمن يَسْتَجِيبُ لكَ وَيَهتدي.

خُذِ العفو: أي: خذ حلاوة العفو التي يجدها المؤمن في قلبه، إذا هو عفا عمّن أساء إليه، وخُذْ ثَوابَ العفو عند ربّك، وهو أجر عظيم أعدّه الله للعافين عن الناس ابتغاء مرضاة الله، فالعفو عن السيئات يُعبِّد للداعي السُّبُل الوعرة، التي ينبغي أن يسلكها في دعوته، ابتغاء مرضاة ربّه، وهذا أمر يرضي الله عزّ وجلّ، لأنه أكثر تأثيراً في هداية الناس، بما يملك من قلوبهم ونفوسهم، وعواطفهم، وبما يُمَهّد الطريق إلى استجابتهم.

خُذِ العفوَ لَا تأخُذِ التَّشَفّيَ لنفسِكَ بالانتقام، ومعاقبة المسيء على إساءته، فحلاوةُ العفو ولذّتُه، مع ثواب الله العظيم، خيرٌ لكَ من لذّةِ التَّشَفّي العابرة، التي قد لا تظفر بها، وقد تجلُب لك شرّاً كبيراً، مع ما تقيم من عقبات وَجُذُرٍ في سُبُل دعوتك، ومع ما تدمّر من جسور بينَك وبين من تدعوهم.

وفي التعبير بعبارة: ﴿خُذِ العفو﴾ إشعارٌ بأنّ العفو شيءٌ ثمين، فهو جدير بأن يُؤخَذ وَيُظْفَرَ بِهِ، ويُحْرَصَ عليه[1].

ثانياً: يقول الله له: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: مع الدعوة إلى عناصر القاعدة الإيمانية، لِيَكُنْ هَمُّكَ أن تَأْمُرَ الناس بالعُرْف، والْعُرْفُ في هذه المرحلة المكيّة هو ما يُسمِّيه أهل الجاهلية عُرْفاً، وهو العطاء، ومساعدة ذوي الحاجات من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، والأيتام، والأرامل، والضعفاء، وإطعام الطعام، وصلة الأرحام، ورفع الظلم عن المظلومين، وفعل الخير مع كلّ الناس.

وذلك لأنّ الداعي إذا تَبَنَّىٰ بقوّة قضايا الفقراء والضعفاء والمساكين والمظلومين فدافع عنها، وأمر الناس بأن يساعدوهم، ويعطفوا عليهم، ويعطوهم، ونحو هذه الأمور، وعنوان كلّ ذلك «الأمر بالعرف» استعطف إلى دعوته قلوب ونفوس الكثرة الكاثرة من جماهير الشعب في كلّ عصر وفي كلّ أمّة، وبذلك تتوجّه أفكارهم بقوّة لقاعدة الإيمان الّتي يدعوهم إليها، فيتقبّلونها ويستجيبون لها، فالنسبة العظمىٰ في الشعوب على مختلف العصور هي النسبة المظلومة ولو بوجه من الوجوه، وتشعر بأنّ لها عند القلة حقوقاً ممنوعةً عنهم بسلطان القوّة التي تملكها هذه القلّة.

فتبنّي الداعي إلى الله قضيّةَ الأمر بالْعُرْفِ أَمْرٌ مُهِمٌّ جدّاً لنجاح دعوته، وسيرها في الكثرة الكاثرة من الجماهير.

ولا أرى أنّ المراد من كلمة «العرف» في هذا النصّ، مثل المراد من كلمة «المعروف» الّتي صار لها في الشرع مُسمىً يَعُمُّ كُلَّ فروع الشريعة الّتي أمر الشرع

---

(1) قول بعض أهل التأويل في تفسير قول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: أي: خذ ما عفا من أموال المسلمين، وهو ما فضل وزاد عن حاجاتهم [illegible] قبل نزول فريضة الزكاة. قول لا يستقيم مع باقي عناصر النصّ وسوابقه، ولامع المرحلة الزمنية التي نزل فيها. فالمرحلة مرحلة توجيه للدعوة إلى سبيل الله.

بها، وينبغي للمسلم فِعْلُها، وتقابلها كلمة «المنكر» التي صار لها في الشرع مسمًّىٰ يَعُمُّ كلَّ الأمور التي نهىٰ الشرع عنها، ويحرم على المسلم فعلُها.

ثالثاً: يقول الله له: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: وقابل الذين يجهلون عليك بعد العفو عن إساءاتهم بمجرّد الإعراض.

وليس المراد من الجاهلين غير العالمين، ولكن المراد الذين يتسافهون على الفضلاء، فيخاطبونهم بالسِّبَاب والشتائم وبقبائح الأقوال والأفعال، وهو ما عَناه الشاعر العربي في قوله:

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

والإعراضُ هو منزلة بين الإدبار والمواجهة.

رابعاً: يقول الله له: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

النزغ: الوسوسة والكلام الخفيّ المحرّك للغضب أو فعل الشر أو فعل ما لا يُحمد.

في هذا التوجيه علاج لنفس الداعي إذْ يتعرَّض لِنَزْغٍ شيطاني، يُحَرِّضُهُ على مقابلة جهالة الجاهل السفيه بمثل عمله. فيبيّن الله له أنّ هذا نزغٌ من الشيطان، ويأمرُهُ بأنْ يستعيذ بالله منه، ويشير إليه بأنّه ناصره ومظفره، إنّه سميع لأقوالهما، عليم بأعمالهما، وما في نفوسهما، لا يخفي عليه من ذلك شيء، والله السميع العليم سينصُر أولياءه على أعدائه.

خامساً: يقول الله له: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

فيشير الله للداعي في هذه الآية إِلَىٰ أنّ صرف نزغ الشيطان عن النفس، والاستعاذة بالله منه، وعدم مقابلة جهالة الجاهل بمثل عمله من مقتضيات

التقوى بالنسبة إلى الدُّعاة، فالَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ وَخَافوا أن يقعوا فيما نهى الله عنه، إِذَا مَسَّهُمْ طائف من الشيطان (أي: وسوسة وتسويل) تَذَكَّرُوا، أي: تذكَّروا الله فَاستعاذُوا به، عند ئذٍ يصرف اللَّهُ مَا كان قد غَشَّىٰ على بصائرهم من مثيرات، فإذا هم مبصرون، يتصرّفون بتقوى وعقل وحكمة.

سادساً: وأخيراً يقول الله في النصّ: ﴿وإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾.

أي: وإخوان الشياطين يَمُدُّهُم شيطانهم في الغيّ، فينحدرون في منحدراته، وتجذبهم الهاوية إليها، ثُمَّ هم لا يُقْصِرُونَ عن متابعة الانحدار الهاوي بأنفسهم، ولو لم تَمُدَّهُمْ شياطينهم، لأنّ طبيعة المنحدر إلى الهاوية تجعله فاقد القدرة على الإقصار عن غيّه، والتوقف عن هُوِيّه.

* * *

(ب) وفي النص الثاني الذي في سورة (فصلت) يُوجّه الله عزّ وجلّ الداعي إلى سبيل ربّه لما يلي، مرتقياً معه في الأسلوب التربويّ تكليفاً، وبياناً، وتعليلاً، وتفصيلاً لما ينبغي أن يتحلّىٰ به:

أولاً: بيّن الله في الآية (٣٣) منه: أنّه لَا يُوجَدُ قولٌ هو أحسن من قول من دَعَا إلى الله بشرطين:

الشرط الأول: أن يعمل صالحاً، أي: أن يطبق بعمله، ما يدعو إليه بقوله.

الشرط الثاني: أنْ يُعْلِنَ أنَّه واحِدٌ من المسلمين، فلا يُعْطِيَ لنفسه تميُّزاً ولَا تفوُّقاً، ولا يُخَاطبَ خطاب المستعلي، ولا يُعْفِيَ نفسه من المسؤوليات التي يشترك في تحمُّلِهَا جميعُ المسلمين، فهو غير مستثمر دعوته لمصلحة نفسه، إذْ هو واحد من أتباع الدّين الذي يدعو الناس إليه.

ثانياً: يوجِّهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في الآيتين (٣٤)و(٣٥) الداعيَ إلى الله أنْ يَدْفَعَ السّيئةَ التي يَتَلَقّاهَا مِمَّنْ يدعُوهم، بالخصلة التي هي أحسن، وأبان له أنّ من فوائد

ذلك أن يتحوّلَ العدوُّ الذي يُواجِهُ بالسيئات إلى قريب متودّدِ متحبّب كـأنَّه وليٌّ حميمٌ حقّاً، فيكونُ نصيراً له بعد أن كان مقاوماً له. ومن التي هي أحسن الإكرام والبشاشة والإحسان الماديّ ما وجد الداعي إلىٰ ذلك سبيلاً.

وأعطاه هذا التوجيه الرفيع بعد أن أبان له قاعدةً ثابتة من قواعد التعامل الإنساني، وهي أنّه لاَ تستوي في ضمائر الناس ومداركهم السيّئةُ، بما في السيئات من نسب شدّة وضعف، ولا تستوي في ضمائرهم ومداركهم الحسنة، بما في الحسنات من نسب في درجاتها المرتقيات، كما لا يستوي بداهةً نوع السيئة مع نوع الحسنة، فهي أمور تدركها فطر النفوس البشرية، إذْ هي تميل إلى من يحسن إليها ولو بالعفو عنها إذا هي أساءت إليه، وتنفر ممن يُسِيء إليها، ولو على سبيل العقاب والانتقام، فمن بَدَأَ من الناس بالسيئة، فوجد أنّ من أساء هو إليه قد قابله على إساءته بالإحسان وعفا عنه، مع أنه كان قادراً على مقابلته بالمثل أو بزائد عليه، فإنّه سيشعر في داخل نفسه باحتقار نفسه، ونُزُولِهَا عن المستوى الكريم الذي قابله به غريمه.

ثم بدافع من التعويض عن شعوره بانحطاط مستواه الخلقي يحاول في الغالب ــ باستثناء فئة الجبابرة وفئة اللُّؤَمَاء جدّاً ــ أن يُصْلح ما أفسد بالتودّد والتحبّب والتقرّب والمناصرة، حتى يكون كأنَّهُ وليٌّ حميم.

هـذه فطرة جعلها الله في ضمائر الناس، وهي موصولة بفطرة الإيمان، وفطرة الصدق والأمانة، وفطرة الهداية إلى نَجْدَيِ الخير والشرّ، إنَّها فطرة إدراك عدم استواء السيئة، وعدم استواء الحسنة، وعدم مساواة النوع الأول للنوع الثاني، وفطرةُ الشعور بقبح السيئة، وبحسن الحسنة في عمق ضمائر الناس.

ويُلاحظ في هذا التوجيه أنّه ارتقى بالدَّاعي إلى الله من مستوى توجيهه للإعراض عن الجاهلين، الذي جاء الأمر به في سورة (الأعراف) إلى مستوى دفع

السيئة بالتي هي أحسن، بعد أن مرّ هذا الداعي بمرحلة تدرُّبٍ على الصبر على السيئة، والإعراض عن المسيء.

ثالثاً: يبيّن الله عزّ وجلّ للداعي في الآية (٣٥) أنَّ هذه الفضيلة الخلقية التي بها يقابلُ الداعي إلى الله السيئة بالتي هي أحسن، فضيلة عظيمةٌ رفيعة المقام، مَا يُلَقَّاها بالتوفيق والمعونة الرّبّانية إلَّا الذين صَبَروا، أي: إلَّا الذين دَرَّبُوا أنفسهم في ماضٍ من حياتهم على الصَّبْر. وما يُلَقَّاها إلَّا ذو حظّ عظيم من العقلِ وَسَعَةِ الصَّدْرِ، وحُسْنِ الْخُلُقِ، وذو حظّ عظيم عند الله من عظيم الأجر ورفيع المنزلة.

رابعاً: يقول الله له في الآية (٣٦): ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بَاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

فذكر له في سورة (فصّلت) مثل الذي ذكره له في سورة (الأعراف) إلَّا أنه أضافَ هنا التَّأْكيدَ على أنَّه هو السميع العليم. أي: سيعطيه مزيداً من النصر والمعونة والتأييد، إذا هو استعاذ به ليصرف عنه نزغ الشيطان الذي يحرّضه على أن لَا يقابل السيئة بالحسنة.

إنَّ نزغ الشيطان في مستوى الإعراض عن الجاهلين نزغٌ لمقابلة السيئة بمثلها. فجاء في آخر آية: ﴿وإِمَّا ينزغَنَّكَ﴾ هناك: ﴿فاستَعِذْ باللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عليم﴾.

أمَّا نزغ الشيطان في مستوى الدَّفع بالتي هي أحسن، فهو نزغ للاكتفاء بالإعراض، فجاء في آخر آية: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ...﴾ هنا: ﴿ فاستَعِذْ باللَّهِ إنهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمَ﴾ بالتأكيد بضمير الفصل، وبتعريف السميع العليم، وقد جاء هذا التأكيد مناسباً لزيادة التكليف، وهو مقابلة السيئة بالحسنة، وهكذا أظهر لنا الارتقاء التدريجي التربوي.

* * *

المثال الخامس:

وهو من أمثلة تعليم الله رسولَه والدعاةَ من بعده، كيف يجيب السائلين عن السّاعة وكيف يرد على تشكيكاتهم، وقد تتابع هذا التعليم وفق تتابع أسئلة السائلين، وطرحهم تشكيكاتهم.

وأقْتَصِرُ هنا على النصوص التي قال الله فيها لرسوله حول هذا الموضوع: «قُلْ» أمّا سائر النصوص حول هذا الموضوع فكثيرة تولّى القرآن فيها شرح الأدلّة ومناقشة المنكرين وردّ توهُّماتهم باستقصاء محاصر، فلم يترُكْ لهُمْ ثُغرة من الثغرات إلاّ سدَّها عليهم بالبرهان الدافع، والحجج القاطعة لأعذارهم.

وهي ثمانية نصوص، فيها تسعة أوامر قرآنية للرسول ﷺ ومعه الدعاة المؤمنون، وفيما يلي بيانها، مرتّبةً وفق تتابع نزولها:

أوّلاً ــ في العهد المكي:

١ ــ أنزل الله عزّ وجل في سورة (الأعراف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

أيَّان مُرْسَاهَا: أي: في أيّ وقتٍ يكون رُسُوُّ سفينتها؟.

وهو على تشبيه الحياة الدنيا بسفينة جارية في بحر الزّمن.

إِنَمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي: أي: ما علم ذلك الوقت إلاّ عِنـدَ ربِّي، أي فلا يعلمه نبيٌّ مُرْسَلٌ وَلاَ مَلَكٌ مُقرَّب.

لاَ يُجَلّيهَا لِوَقْتِهَا إلاّ هُوَ: أي: لاَ يُظْهِرُهَا بعدَ حُلُولِ وقتها إلاّ هو سبحانه،

وهـذا يدل على أن الجهـالة بِعِلْمِ وقتهـا ستبقى مستمـرة لـدى كـلّ من خلقـه حتى يظهرها هو سبحانه.

يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَـا: تأتي كلمة (حَفِيّ) فـي اللّغة بمعنى العـالم بالشيء علم استقصاء، فيدخل فـي معنى الحفيّ هنا العلم بوقت الساعـة. وبمعنى المعتني والمهتم بـالأمر، كـالمحتفـي به. وبمعنى السـائل عن الشيء بـإلحاح ومبـالغة حتّى استقصى السؤال عنه. وبمعنى المانع الممسك.

وكلُّ هذه المعاني تصلح لتفسير كلمة (حفيّ) فـي هذه العبارة. فهم يسألـونه عن وقت السـاعة كـأنه عـالم استقصى العلم عن الساعـة حتّى معرفـة قيامهـا، لكنّه يضنُّ بالإخبار عنها، فيمنعه ويمسكه ويحتفظ به لنفسه.

وهم يسألونه كأنه مهتم بإخبارهم عن وقتها، فهو سَيَسْأَلُ رَبّه عنها بإلحاح حتّى يُعْلِمَهُ فيخبرهم. روى الطبري عن قتادة، قال: قالت قريش يا محمد إن بيننا وبينك قرابة، فأسِرّ إلينا متى الساعة؟.

فإذا عرفنا معنى كلمة (حَفِيّ) فإنّه يبقَى علينـا فهم ارتباط هـذه الكلمة بـالجار والمجرور (عنها) وقاعدة التضمين ذات النظائر الكثيـرة فـي القرآن تحـلُّ الإشكال، وهو تضمين الفعل أو ما يقـع موقعه معنى فعل آخر، ثُم تَعَدِّيهِ تَعْدِيَتَهُ، اختصاراً فـي اللفظ، فَيَتَحَصّل لدينا جملة واحدةٌ هي فـي قوة جُملتين، ولدى إبـراز المضمَّنِ هنا الباقية تعديتُه نقول: يسألونك كـأنّك عليم بـالسّاعـة عِلْمَ استقصاء وَتَمْنَعُهُمُ الإخبـار عنها، احتفاظاً به لنفسك.

أو نقول: يسألونك كأنك مهتمٌ بإرضائهم فأنت ستسأل ربك بإلحاح عنها حتى يُعْلِمَكَ فَتُخْبِرَهُمْ.

قُلْ: إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ الله: أي: ما علمها إلاّ عنـد الله. ويظهـر أن هذا التعليم قد تكرّر مـع تغييـر لفظ «عند ربـي» بلفظ «عنـد الله» لأن سؤالهم قد تكـرّر، إذ لمّا قـال لهم في الجواب الأول «عنـد ربـي» طَمِعوا في أن يسـأل ربـه بـإلحـاح لِيُخْبِـرَهُ

فَيُخْبِرَهم مهتماً بإرضائهم محتفياً بهم إذ هم قرابته. فجاء التعليم في الجواب الثاني مشتملاً على عبارة «عند الله» أي: ربّي وربّ كُلِّ شيء والجامع لكل صفات الكمال والمنزّه عن كل صفات النقصان، وبذلك فأنا لا أملك أن أطالبه بأن يخبرني بشيء اسْتَأْثَرَ هو بعلمه.

ولكِنَّ أكثَر النَّاس لا يَعْلَمُوْنَ: أي: ولكنّ أكْثَر النَّاس لا يَعْلَمُونَ ما للّهِ من أمور ليس لأحد من خلقه مهما عَلَتْ مَنزلَتُه عنده أن يتجاوز حدود عبوديته فيها، ولو كان سيد المرسلين، أو سيد الملائكة المقرّبين، فليس له أن يسأل فيها ملحفاً أوغير ملحف، ولمّا كان أكثر الناس لا يعلمون فإنهم لَا يقدُرون اللّهَ حقَّ قَدْرِهِ، فهم يسألون رسولهم أشياء لا يملك من أمرها شيئاً عند الله.

٢ ــ وبعد ذلك أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الجن/ ٧٢مصحف/ ٤٠نزول) خطاباً لرسوله:

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: قل لهم يا محمد: ما أدْرِي أقريبٌ ما تُوعدُوْنَ من أَمْرِ السّاعة، أمْ يَجْعَلُ له ربّي أمداً بعيداً؟ أي: فعلم الساعة عند الله، حتى موضوع القرب والبعد، الذي يمكن أن تقدِّرُوه تقدِيراً تَقْرِيْبِيّاً بما تعدُّونَ من القرون والأحقاب.

٣ ــ ثمّ أنزل الله عزّ وجل في سورة (الواقعة / ٥٦ مصحف / ٤٦ نزول) قوله في سياق وصف حال أهل النار يوم القيامة:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ العظيم: أي يُصِرُّونَ عَلَى الذَّنْبِ الكبير، وهو الكفر والشرك بالله.

ففي معرض الحديث عن وصف حال أهل النار، الّذِين كانوا ينكرون البعث للحساب والجزاء في الحياة الدنيا، أمر الله رسوله أن يقول لمنكريه الذين يدعوهم للإيمان: إنَّ الأوّلين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم، بعد أن يبعثوا جميعاً إلى الحياة الأخرى للحساب والجزاء.

وفي هذا توجيه تربويٌّ لاستغلال أيَّةِ مناسبةٍ، أو فرصة سانحة، لتبليغ حقيقة من حقائق الدين، إذ طريقة المعلّم المربّي تتضمّن تعليماً لها، وتوجيهاً لاستخدامها، حينما يتصدَّى المتعلّم ليكون مُعلّماً مُرَبّياً.

٤ ــ ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قوله:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٥٢﴾.

● المنكرون للبعث للحياة بعد الموت ليس لديهم إلّا أن يكرّروا تساؤلهم الإنكاري القائم على الاستبعاد والاستغراب والتعجُّب، وهذا ما تحدّثت عنهُ الآية (٤٩) من هذا النص.

● فعلَّم الله رسولَهُ أن يقولَ لهم: ﴿كُونوا حِجَارَةً أَوْ حَديداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ في صُدُورِكُمْ﴾ أي: أكثر من أن تكونُوا عِظَاماً ورُفاتاً، كُونوا حجارَةً. كُونُوا حَدِيداً. كونوا شيئاً آخرَ مِمَّا تَرَوْنَهُ كبيراً في صُدُورِكُم، أي: كالألماس والحجارة الكريمة، فالذي فطركم أوّل مرّة ولم تكونوا شيئاً هو الذي يُعيدكم إلى البناء والحياة مرّة ثانية.

ويظهَرُ لي أنّ في قوله تعالى: ﴿قُلْ: كُونُوا حجارةً أو حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يكبُرُ في صُدُورِكُمْ﴾ إشارة إلى تحوُّلاتِ أجساد الأحياء القديمة في باطن الأرض، بعوامل الضغوط والحرارة والأحقاب الزمنية الطويلة، وبطبخاتها الكيميائية والفيزيائية، إلى حجارة أو حديد أو حجارة كريمة مثل الألماس الذي هو من تحوّلات الفحم على ما يذكرون.

ولمّا كانت هذه المعارف مجهولةً لدى أهل التأويل قديماً، ولم يكن لديهم تصوُّرٌ عنها، لم يرد في أذهانهم أنّ القرآن يُعلِّمُ رسوله والمؤمنين أن يقولوا لهم: كونوا ألماساً أيضاً أو أيَّ حجر من الحجارة الكريمة التي تكبُرُ في صدوركم، والله أعلم.

فسيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رؤوسهم: أي: فسيحرّكُونَ رُؤُوسَهُمْ إليك في مواجهة إجابتك هذه تحريكَ المستهزِئِ المنكر.

الإِنْغَاضُ: هو في اللّغة التحريكُ من أسفل إلى أعلى أَوْ من أَعْلى إلى أسفل. وحركة الرأس على طريقة الإنغاض هذه يفعلها عادة المستهزىء الذي لم يعجبه القول، يحركها وهو صامت، وهو في الغالب يبدأ من الأسفل إلى الأعلى، كأنّه يقول: لا.

ويقولونَ: متَىٰ هو: أي: متَىٰ يكونُ هذا البعث؟ والسؤال هنا عن زمن البعث، لا عن زَمَنِ قيام الساعة الّتي يكون بها إنهاء ظروف الحياة الأولى، لكن يلزم عنه ذهناً السؤال عنها.

قل: عَسَىٰ أَنْ يكون قريباً: أي: ربّما كان قريباً، أو أنتظر أن يكون قريباً، أو يترجّح عندي أن يكون قريباً.

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ: أي: يومَ يدعوكم إلى الحياة، فإنّكُمْ تَستجيبون مباشرة لأمره، وتكون هذه الاستجابة العملية له مقترنةً بحمده والثناءِ

عليه، إذْ تعلمون يومئذٍ بالتطبيق العمليّ قدرته التامة على البعث، فتنطلق ألسنتكم بحمده، بيد أنّكُمْ اليوم تشكون في هذه القدرة، وتنكرونها، فإنَّكُم اليوم لا تُثْنُون عليه بِهَا.

وتَظنُّونَ إنْ لبثتم إلاَّ قَلِيلاً: أي: وتَظُنُّونَ عِنْدَ الْبَعْثِ أَنَّكُمْ مَا لَبِثْتُمْ بَيْنَ الموت والبعث إلاّ قَلِيلاً.

وقد جاء تفصيل هذه الفقرة في نصوص متفرقة في القرآن الكريم. مثل: ﴿قالوا: لبثنا يَوْماً أَو بَعْضَ يوم﴾. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾. ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ ساعةً مِنْ نَهارٍ﴾. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾.

٥ ــ وَبعد ذلك أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (يونس/١٠ مصحف/٥١ نزول)، بشأن يوم الدين، مُعَلّماً رسوله ثُمَّ المؤمنين:

﴿ وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤ ﴾.

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ: أَحَقٌّ هو؟: أي: يَطْلُبُونَ منك إنْبَاءَهُمْ، هَلْ ما ذكرته من عذاب يومِ الدِّينِ حقّ سيقع حتماً، أو هو وسيلة كلاميّة تهديديّة لنتّبِعَكَ، ونُؤْمِنَ بِدِينِكَ؟

قُلْ: إيْ وَرَبِّي إنّهُ لَحَقٌ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنْ: والجواب هنا الإخبار بالإيجاب مقرونٌ بِالقِسْمِ وَعِدّةِ مؤكِدَاتِ، مع بيان أنّهم لا يستطيعون يومئذٍ أن يتّخِذوا وسيلةً يخلصون أنفسهم بها من العذاب، فما هم بمعجزين الملائكة المكلفين بتعذيبهم، بل هم العاجزون عن أيّة مقاومة.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ: في هذا بيانٌ لعظم العذاب، الذي يفتديه الشحيح الدنياوي بكل ما في الأرض لو كان له ذلك، وكان يُسْمَحُ لَهُ بأن يفتدي نفسه به.

وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ: وهذا سلوك أهل الكبر، فالمُتَكَبِّر لا يُظهِرُ أنّهُ نادِمٌ على ما فعل، ولو رأى وسائل تعذيبه قد أُحضرت.

وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ: أي: وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالعدل، وَهُم لا يُظْلَمُونَ عِنْدَ تَنْفِيْذِ القَضَاءِ، بل يجري التنفيذ على وفق القضاء تماماً دون أيّ ظُلْم. بخلاف ذوي السلطان في الدنيا، فَإنَّهُمْ إذا عَدَلَ جِهازُ قَضَائِهِمْ رُبّما ظَلَمَ جِهَازُهُم التنفيذي.

٦ ـ ثم أنزل الله عزوجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤مصحف/٥٨نزول) قوله:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾

ففي جواب قول الكافرين: لا تأتينا السّاعة، علّم الله رسوله أن يقول لهم: بَلى وَرَبّيْ لَتَأْتِيَنَّكُمْ، بالقسم مع المؤكّدات الأخرى. مع ذكر صفة شمول العلم الرّبّاني لكل ذَرَّةٍ في الكون وما هو أصغر من الذّرة، لدفع توهُّم أن رُفَاتَ الموتى سيَضِلُّ في الأرض، فكيف يجمعه الله لإعادته إلى الحياة.

ثانياً ـ في العهد المدني:

٧ ـ ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول) قوله:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

ويبدو أنّ السؤال عن وقت الساعة قد تجدّد في المرحلة المدَنية، على ألسنة أخلاط من الناس منهم عربٌ ويهود في العهد المدني إبَّان تـآمُرِ أحـزاب الكفر على الإسلام والمسلمين، فأنـزل الله على رسولـه أن يجيبهم بمثل الجـواب الذي علّمـه إيّاهُ في العهـد المكي، وأنزله عليـه في سورة (الأعـراف ٧) في أوّل تعليم له أنـزله حول هذا السؤال: ﴿قُلْ: إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّه﴾.

وأكّد الإشعار بقربها بالنسبة إلى عُمْرِ هذا النظام القائم، فقال: ﴿وَمَا يُـدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قريباً﴾.

٨ ــ وفي ختام تَنَزُّلِ التَعْلِيمَاتِ الجوابيّة لَرَدّ مَزَاعِمِ منكري البعث أنـزل اللَّهُ على رسوله في سورة (التغابن/٦٤ مصحف/١٠٨ نزول) قوله:

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾﴾.

فـادّعـاءُ النفي لا يُجَـابُ عليـه إلاّ بخبـرِ الإثْبَـاتِ الْمُـؤكَّـدِ بـالمؤكـداتِ التي يقتضيها الحال. وزاد هنـا بيان أنّهم سيُنبَّـؤون بمـا عملوا، وأنّ قضيّة البعث وقضيـة العلم بما عملوا من الأمور اليسيرة على الله.

* * *

وفي غضـون كلِّ هـذه المراحـل التعليمية للرسـول وللمؤمنين وما قبلهـا تولّى القرآن مباشرة بيانات كثيرة حول يوم الـدين، والبعث للحساب والجـزاء، وقدّم على ذلك الحُجَجَ العقلية، ودفـع توهُّمات المنكرين بالبراهين الدامغة، فما على الداعي بعد الشرح القـرآني الذي تـولّاه الله عزّ وجـلّ مباشـرة، إلاَّ بأن يُجيبَ عمّـا يتعلَّقُ به بواحدٍ ممَّا يلي حسب مقتضى حال المخاطبين:

١ ــ إنما عِلْمُها عند ربّـي.

٢ ــ إنّما عِلْمها عند الله.

٣ ـ إنْ أدري أقريب مَا تُوعدون أم يَجْعَلُ لَهُ رَبِّـي أَمَداً.

٤ ـ إنَّ الْأَوّلين والآخرين لَمَجْمُوعونَ إلى ميقات يومٍ معلوم.

٥ ـ كُونوا حجارةً أو حَدِيـداً أَوْ خَلْقاً مِمّـا يكبُر في صـدوركُم... فسيعيدكُمُ الذي فَطَرَكُمْ أَوّل مرَّة.

٦ ـ عَسَىٰ أن يكون هذا اليوم الموعود قريباً.

٧ ـ إي وَرَبِّـي إنَّه لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِين.

٨ ـ إنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّه. «إذا تكرر السؤال عن الساعة بعبارة صريحـة» كما جاء في آية سورة الأحزاب.

٩ ـ بَلَى وَرَبِّـي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ.

وهكـذا سار البيـان الرفيـع مـع مراحـل التنـزيـل على أحكم وجـه، وأتقنـه، وأكمله.

ويستطيـع أن يستكمل الصورة الرائعة من سبر مستوعباً كلَّ النصوص المتعلقة بالبعث ويوم الدين. واستخراجُها وشرحُها يتطلّب سفراً عظيماً.

* * *

جدول المكي والمدني لسور القرآن المجيد

وأثبت في هذا الجدول ما أثبته علماء القراءات في المصاحف المعتمدة من شيخ المقارىء المصرية الشيخ محمد علي خلف الحسيني، معتمداً فيما أثبته على أمَّهات كتب القراءات والتفسير على خلاف يسير في بعض ذلك:

السور المكية وترتيبها بحسب النزول

رقم السورة بحسب النزول	اسم السورة	الآيات المدنية من السورة إن وجدت	ترتيبها في المصحف
١	العلق	مكّية كلها، وهي أوّل ما نزل من القرآن في أقوى الروايات	٩٦
٢	القلم	مكّية إلاّ الآيات من آية (١٧) إلى غاية آية (٣٣) ومن آية (٤٨) إلى غاية آية (٥٠) منها فمدنية	٦٨
٣	المزمل	مكية إلاّ الآيات (١٠) و (١١) و (٢٠) منها فمدنية	٧٣
٤	المدثر	مكية كلها	٧٤
٥	الفاتحة	مكية كلها	١
٦	المسد	مكية كلها	١١١
٧	التكوير	مكية كلها	٨١
٨	الأعلى	مكية كلها	٨٧
٩	الليل	مكية كلّها	٩٢
١٠	الفجر	مكية كلّها	٨٩
١١	الضحى	مكية كلّها	٩٣
١٢	الشرح	مكية كلّها	٩٤
١٣	العصر	مكية كلّها	١٠٣
١٤	العاديات	مكية كلّها	١٠٠
١٥	الكوثر	مكية كلّها	١٠٨
١٦	التكاثر	مكية كلّها	١٠٢
١٧	الماعون	مكية كلّها	١٠٧

السور المكية وترتيبها بحسب النزول

رقم السورة بحسب النزول	اسم السورة	الآيات المدنية من السورة إن وجدت	ترتيبها في المصحف
١٨	الكافرون	مكية كلّها	١٠٩
١٩	الفيل	مكية كلّها	١٠٥
٢٠	الفلق	مكية كلّها	١١٣
٢١	الناس	مكية كلّها	١١٤
٢٢	الإخلاص	مكية كلّها	١١٢
٢٣	النجم	مكية إلّا الآية (٣٢) منها فمدنية	٥٣
٢٤	عبس	كلّها مكية	٨٠
٢٥	القدر	كلّها مكية	٩٧
٢٦	الشمس	كلّها مكية	٩١
٢٧	البروج	كلّها مكية	٨٥
٢٨	التين	كلّها مكية	٩٥
٢٩	قريش	كلّها مكية	١٠٦
٣٠	القارعة	كلّها مكية	١٠١
٣١	القيامة	كلّها مكية	٧٥
٣٢	الهمزة	كلّها مكية	١٠٤
٣٣	المرسلات	مكية إلّا الآية (٤٨) منها فمدنية	٧٧
٣٤	قٓ	مكية إلّا الآية (٣٨) منها فمدنية	٥٠
٣٥	البلد	كلّها مكية	٩٠
٣٦	الطارق	كلّها مكية	٨٦
٣٧	القمر	كلّها مكية	٥٤
٣٨	صٓ	كلّها مكية	٣٨
٤٩	الأعراف	مكية إلّا الآيات من (١٦٣) إلى غاية آية (١٧٠) منها فمدنية	٧
٤٠	الجنّ	كلّها مكية	٧٢

السور المكية وترتيبها بحسب النزول			
رقم السورة بحسب النزول	اسم السورة	الآيات المدنية من السورة إن وجدت	ترتيبها في المصحف
٤١	يٓس	مكية إلّا الآية (٤٥) منها فمدنية	٣٦
٤٢	الفرقان	مكية إلّا الآيات (٦٨) و(٦٩) و(٧٠) فمدنية والآيتان (٤٥) و(٤٦) نزلتا في الطائف في العهد المكي	٢٥
٤٣	فاطر	كلّها مكية	٣٥
٤٤	مريم	مكية إلّا الآيتين (٥٨) و(٧١) فمدنيتان	١٩
٤٥	طٰـه	مكية إلّا الآيتين (١٣٠) و(١٣١) فمدنيتان	٢٠
٤٦	الواقعة	مكية إلّا الآيتين (٨١) و(٨٢) فمدنيتان	٥٦
٤٧	الشعراء	مكية إلّا الآية (١٩٧) ومن الآية (٢٢٤) إلى آخر السورة فمدنية	٢٦
٤٨	النمل	كلّها مكية	٢٧
٤٩	القصص	مكية إلّا الآيات من (٥٢) إلى غاية (٥٥) فمدنية، وإلّا الآية (٨٥) فقد نزلت بالجحفة أثناء الهجرة	٢٨
٥٠	الإسراء	مكية إلّا الآيات (٢٦) و(٣٢) و(٣٣) و(٥٧) ومن الآية (٧٣) إلى غاية الآية (٨٠) فمدنية	١٧
٥١	يونس	مكيّة إلّا الآية (٤٠) والآيات من الآية (٩٤) إلى غاية الآية (٩٦) فمدنية	١٠
٥٢	هود	مكية إلّا الآيات (١٢) و(١٧) و(١١٤) فمدنية	١١
٥٣	يوسف	مكية إلّا الآيات (١) و(٢) و(٣) و(٧) فمدنية	١٢
٥٤	الحجر	مكية إلّا الآية (٨٧) فمدنية	١٥

تابع جدول المكي والمدني لسور القرآن الكريم

السور المكية وترتيبها بحسب النزول			
رقم السورة بحسب النزول	اسم السورة	الآيات المدنية من السورة إن وجدت	ترتيبها في المصحف
٥٥	الأنعام	مكية إلّا الآيات (٢٠) و (٢٣) و (٩١) و (٩٣) و (١١٤) و (١٤١) و (١٥١) و (١٥٢) و (١٥٣) فمدنية	٦
٥٦	الصافّات	كلّها مكية	٣٧
٥٧	لقمان	مكية إلّا الآيات (٢٧) و (٢٨) و (٢٩) فمدنية	٣١
٥٨	سبأ	مكية إلّا الآية (٦) فمدنية	٣٤
٥٩	الزمر	مكية إلّا الآيات (٥٢) و (٥٣) و (٥٤) فمدنية	٣٩
٦٠	غافر	مكية إلّا الآيتين (٥٦) و (٥٧) فمدنية	٤٠
٦١	فُصّلت	كلها مكية	٤١
٦٢	الشورى	مكية إلّا الآيات (٢٣) و (٢٤) و (٢٥) و (٢٧) فمدنية	٤٢
٦٣	الزخرف	مكية إلّا الآية (٥٤) فمدنية والآية (٤٥) منها نزلت في بيت المقدس ليلة أُسري بالرسول ﷺ	٤٣
٦٤	الدخان	كلّها مكية	٤٤
٦٥	الجاثية	مكية إلّا الآية (١٤) فمدنية	٤٥
٦٦	الأحقاف	مكية إلا الآيات (١٠)و (١٥) و (٣٥) فمدنية	٤٦
٦٧	الذاريات	كلّها مكية	٥١
٦٨	الغاشية	كلها مكية	٨٨
٦٩	الكهف	مكية إلّا الآية (٢٨) والآيات من (٨٣) إلى غاية الآية (١٠١) فمدنية	١٨
٧٠	النحل	مكية إلّا الآيات الثلاث الأخيرة منها (١٢٦) و (١٢٧) و (١٢٨) فمدنية	١٦
٧١	نوح	كلّها مكية	٧١

تابع جدول المكي والمدني لسور القرآن الكريم

السور المكية وترتيبها بحسب النزول			
رقم السورة بحسب النزول	اسم السورة	الآيات المدنية من السورة إن وجدت	ترتيبها في المصحف
٧٢	إبراهيم	مكية إلّا الآيتين (٢٨) و (٢٩) فمدنية	١٤
٧٣	الأنبياء	كلّها مكية	٢١
٧٤	المؤمنون	كلّها مكية	٢٣
٧٥	السجدة	مكية إلّا الآيات من (١٦) إلى غاية الآية (٢٠) فمدنية	٣٢
٧٦	الطور	كلّها مكية	٥٢
٧٧	الملك	كلّها مكية	٦٧
٧٨	الحاقّة	كلّها مكية	٦٩
٧٩	المعارج	كلّها مكية	٧٠
٨٠	النبأ	كلّها مكية	٧٨
٨١	النازعات	كلّها مكية	٧٩
٨٢	الانفطار	كلّها مكية	٨٢
٨٣	الانشقاق	كلّها مكية	٨٤
٨٤	الروم	مكية إلّا الآية (١٧) فمدنية	٣٠
٨٥	العنكبوت	مكية إلّا الآيات من (١) إلى غاية الآية (١١) فمدنية	٢٩
٨٦	المطففين	كلّها مكية	٨٣

السور المدنية وترتيبها بحسب النزول				
الترتيب المدني	رقم السورة بحسب النزول	اسم السورة	الآيات المكية من السورة إن وجدت	ترتيبها في المصحف
١	٨٧	البقرة	كلّها مدنية	٢
٢	٨٨	الأنفال	مدنية إلّا الآيات من (٣٠) إلى غاية الآية (٣٦) فمكّية	٨
٣	٨٩	آل عمران	كلّها مدنية	٣
٤	٩٠	الأحزاب	كلّها مدنية	٣٣
٥	٩١	الممتحنة	كلّها مدنية	٦٠
٦	٩٢	النساء	كلّها مدنية	٤
٧	٩٣	الزلزلة	كلّها مدنية	٩٩
٨	٩٤	الحديد	كلّها مدنية	٥٧
٩	٩٥	محمّد	مدنية إلّا الآية (١٣) منها فقد نزلت أثناء الهجرة في الطريق	٤٧
١٠	٩٦	الرعد	كلّها مدنية على الأرجح، والآية (٣٠) منها نزلت بالحديبية حين عقد الصلح المعروف بصلح الحديبية	١٣
١١	٩٧	الرحمن	كلّها مدنية	٥٥
١٢	٩٨	الإنسان	كلّها مدنية	٧٦
١٣	٩٩	الطلاق	كلّها مدنية	٦٥
١٤	١٠٠	البيّنة	كلّها مدنية	٩٨
١٥	١٠١	الحشر	كلّها مدنية	٥٩
١٦	١٠٢	النور	كلّها مدنية	٢٤
١٧	١٠٣	الحج	مدنية إلّا الآيات (٥٢) و (٥٣) و (٥٤) و (٥٥) فقد نزلت بين مكة و المدينـة. والآية (١) منها نزلت ليلاً في غزوة بني المصطلق	٢٢

تابع جدول المكي والمدني لسور القرآن الكريم

السور المدنية وترتيبها بحسب النزول				
الترتيب المدني	رقم السورة بحسب النزول	اسم السورة	الآيات المكية من السورة إن وجدت	ترتيبها في المصحف
١٨	١٠٤	المنافقون	كلّها مدنية	٦٣
١٩	١٠٥	المجادلة	كلّها مدنية	٥٨
٢٠	١٠٦	الحجرات	كلّها مدنية	٤٩
٢١	١٠٧	التحريم	كلّها مدنية	٦٦
٢٢	١٠٨	التغابن	كلّها مدنية	٦٤
٢٣	١٠٩	الصّفّ	كلّها مدنية	٦١
٢٤	١١٠	الجمعة	كلّها مدنية	٦٢
٢٥	١١١	الفتح	كلّها مدنية	٤٨
٢٦	١١٢	المائدة	كلها مدنية والآية (٦٧) منها نزلت ليلاً في بعض غزوات الرسول	٥
٢٧	١١٣	التوبة	مدنية إلاّ الآيتين الأخيرتين منها (١٢٧) و (١٢٨) فمكيّتان	٩
٢٨	١١٤	النصر	كلّها مدنية	١١٠

• • •

القاعدة العاشرة

«حول الحكمة من وضع آيات مدنية التنزيل في سور مكيّة ووضع آيات مكّيّة التنزيل في سور مدنية»

أولاً:

● السور المكيّة الّتي ضُمَّت إليها آيات نزلت في المدينة هي (٣٣) ثلاث وثلاثون سورة.

● والسُّور المدنية التي ضُمَّت إليها آياتٌ نزلت في مكّة هي ثلاث سور فقط.

● وسورة «محمد» مدنية نزلت الآية (١٣) منها أثناء الهجرة في الطريق.

● وسورة «المائدة» من أواخر التنزيل المدني، وقد تأخر نزول الآية (٣) منها إلى حجة الوداع، فقد نزلت هذه الآية بعرفات في حجة الوداع، بعد نزول سورة «التوبة».

* * *

ثانياً:

والتدبير الذي نجم عنه وجودُ آياتٍ مدنية في سُوَرٍ معظم آياتها تنزيل مكي، وكذا وجودُ آياتٍ مكيّةٍ في سُورٍ معظم آياتها تنزيل مدني، يدعو الباحث إلى السَّبْر والتأمل، لاكتشاف الأغراض الحكيمة من هذه الظاهرة.

وقد وفقني الله للنَّظَر التَّأَمُّلِيّ فيها فَبَدَا لي أنّ الحكمة من ذلك مراعاة اقتضاءين:

● **أحدهما**: اقتضاء فكريٌّ موضوعيّ.

● **وثانيهما**: اقتضاء تربويّ.

١ ــ أمّا الاقتضاء الفكريّ عند إكمال الدّين تنزيلاً، فيلائمهُ وضع هذه الآيات بخصوصها ذات التنزيل المدني في مواضعها التي وضعت فيها من السُّور المكيّة (أي: التي معظم آياتها تنزيل مكيّ).

٢ ــ وأمَّا الاقتضاء التربويُّ القائم على سُنَّة التدرُّج، ومراعاة حال المخاطبين الزّمنية في تبليغ أحكام الدين وتعاليمه ومفاهيمه، وتربية جماعة المؤمنين المسلمين الأوّلين، الّذين يمثلون القاعدة الرصينة الراسخة لبناء الأمة الإسلامية العظيم، فيلائمه تأخير تنزيلها إلى الوقت المدنيّ الذي نزلت فيه.

لقد عَلّمنا اللَّهُ بهذا أنّ الحكمة التربوية في التعليم، والتكليف، والممارسة العمليَّة التي تكتسب بها المهارات والعادات، الجسدية، والنفسية، والوجدانية، والفكريّة، تقتضي الالتزام بسنّةِ التدرُّج الارتقائي.

فكان من مقتضيات هذه الحكمة التربوية تأخير تنزيل كثير من فروع الأحكام التكليفية والمفاهيم الدينيّة، والتعاليم والشرائع:

● إلى ما بعد تأسيس القاعدة الإيمانية.

● أو إلى ما بعد تأسيس أصول هذه الفروع من فروع الأحكام، والمفاهيم والشرائع.

● أو إلى وقت حدوث المناسبات الملائمات لتنزيلها.

● أو حتّىٰ تَتَهَيّأ النفوسُ أو الظروف الاجتماعية، لتنزيلها والاستجابة لتطبيقها.

● أو حتّى تستكمل الدولة الإسلامية وسائلها الإدارية، وقدرتها على حماية التطبيق، وردع الخارجين على أحكام الدين.

● أو حتّى يتحقّق في الواقع الحدث الذي يُراد تقديمه شاهداً للاعتبار به.

هذا التدبير الرّبّاني يتضمَّنُ تَعْليماً لَنَا أنّ الاقتضاء الفكـري لا يمنع من تـأخير البيان والتبليـغ، مراعاةً للاقتضاء التربوي، الذي ينبغي أن يقوم على أسلوب التدرُّج الحكيم.

* * *

الأمــثــلــة

المثال الأول:

ســورة (الـقلم/٦٨ مـصحـف/٢ نــزول) فهـي ثــاني ســورة نــزلـت على الرسول ﷺ بمكة.

ويلاحظ في هذه السورة أنَّه قد ضمَّ إليها نصّان مدنيّان:

- الأول منهما بعد الآية (١٦) منها وحتى الآية (٣٣).
- والثاني منهما ما بعد الآية (٤٧) منها وحتّى الآية (٥٥).

وفيما يلي بيان الحكمة التي يمكن استنباطها من هذا التدبير:

أولاً: لقـد اشتمـل القسم الأول منهـا على معـالجـة أئمـة الكفــر المكـذّبين للرسول ﷺ من مشركي مكّة، المتهمين له منذ بدايـة أمره بـالجنون. وختم الله عـزّ وجلّ هذا القسم منها بوعيد خاصّ موجَّهٍ لأحد هؤلاء الطُّغَاة بقوله تَعَالَىٰ فيها:

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦ ﴾.

وانتقلت السورة إبّان تنزيلها في العهد المكيّ إلى تأسيس قضيّة الإيمان بعدل الله، وبمجـازاتـه للنّـاس يـوم الــدين، مـع وعيــد المكـذبين، ومنــاقشتهم حـول الاحتمالات الّتي يمكن أن تكون أسباباً للتكـذيب، وبيــان سقوطهـا على طريقـة الحصار الفكريّ.

ثم بيان حالة نفوسهم الحـاسدة التي تشـعّ منها نفثـات الحسد، إذْ ينـدهشون

عندما يسمعون آيات الذكر الحكيم يتلوها رسول الله ﷺ. وبيان أن القرآن ليس إلاّ ذكراً للعالمين.

هكذا كان هيكل السورة في تنزيلها المكيّ.

ودار الزمن، وانتهى العهد المكي، وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، وأسّس دولة الإسلام، ونصره الله في بدر على أئمة الكفر من مشركي مكّة، وشفى صدره من الّذين كانوا يكذّبونه ويتّهمونه بالجنون وبالسحر، واقتضىٰ البيان القرآنيُّ بعدئذٍ أن يجعل ما انتهىٰ حالهم إليه عبرةً للمعتبرين، فقدّم العبرة بهم، بأسلوب تشبيه حالهم بحال الإخوة الثلاثة أصحاب الجنّة، الّذِينَ أَقْسَمُوا فيما بينهم أن يحرموا المساكين من ثمار جنَّتِهم، وأن يخرجوا إليها مع الصباح الباكر، فيصرموها دون أن يعلم بأمرهم أحد. فأنزل الله بها طائفاً من المهلكات، فقضىٰ عليها وأهلك ثمارها. فانطلقوا من آخر اللّيل متخافتين لئلاّ يعلم بهم أحدٌ من المساكين، فلمّا وصَلُوا إلى جنتهم ورأوها كذلك ندموا، وقالوا: ﴿إنَّا لَضالُّون، بَلْ نَحْنُ محرومون﴾ أي: ليس لنا حظّ، فقال لهم أعدلهم فهماً وطريقة: ﴿ألم أقل لكم: لو لا تُسَبِّحُون. قَالُوا: سُبْحَانَ رَبِّنا إنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ورأوا أنفسهم قد خَسِروا كُلَّ الثّمر، وخَسِرُوا معه الشجر، وضاعت حديقتُهم من أيديهم ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُون﴾ وَرَأَوْا أنَّهم جميعاً كانُوا بتصرُّفهم وحرمانهم حقَّ المساكين طَاغِينَ، فَأَعْلَنُوا اعترافهم لربّهم فَدَعَوْا و﴿قَالُوا: يَا وَيْلَنَا إنَّا كُنَّا طَاغِينَ. عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيراً منها إنَّا إلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾.

وختم الله هذه القصة بقوله:

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وكان قد بدأها بقوله:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾.

هكذا كان حال المكذبين بالرسول من مشركي مكّة.

وقد تلطّف الله عزّ وجلّ بهم هنا إذ شبَّهَهُمْ بأصحاب الجنَّة العصاة، إذْ كان منهم من أسلم وتاب وندم على ما كان منه، وصار من أعلام أصحاب الرسول ﷺ. وقادةِ الدعوة إلى الله، وقادةِ الفتح الإسلامي، ولم يُشَبِّهِهم بعادٍ وثمود وفرعون، لأنّ أولئك قد أهلكوا جميعاً، أمَّا مشركو مكّة فقد أهلك نُفَايَات منهم، ثم توافد منهم إلى الإسلام كثير، وفي عام الفتح دخل عامَّتُهُمْ في الإسلام.

وبعد إنزال هذا البيان بشأن المكذّبين من مشركي مكَّة، اقتضىٰ استكْمَالُ الْمَوْضُوعِ الفكري لسورة القلم ضمَّ هذا البيان إليها، وجعلَهُ عقب بيان حال أولئكَ الأَئمة من المكذّبين الذين نزل بهم عقاب الله فعلاً، وخسروا ما كانوا حريصين عليه. وأمر الوحي بوضع هذا البيان بعد قوله تعالى في السورة:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

ليعتبر به من يعتبر مستقبلاً.

وبذلك استكمل الموضوع الفكريُّ عناصره، وكان تأخير تنزيل هذا البيان أمراً اقتضاه واقع الحال، إذْ لم يكن قد نزل بهؤلاء الأئمة من أئمة الكفر ما أنزل بهم، فلا معنى لتشبيه حالهم يومئذٍ بحال أصحاب الحديقة الذين قرّروا منع المساكين، إذْ كان هؤلاء المشركون هم أصحاب السلطان والقوة في مكة، وهم أهل الأمر والنهي بها.

هذا ما يتعلّق بالنصّ الأول المدني المضاف إلى سورة (القلم).

ثانياً: وقد اشتملت السورة على بيان اتهام بعض الأئمة المشركين للرسول بالجنون، واتّهامهم له بالكذب على ربّه، ومواجهتهم له بالفظاظة والغلظة والخشونة.

فماذا كان من الرسول ﷺ في مقابل ذلك؟

لقد كان منه في الواقع الصبر، والتحمُّل، ومقابلة السيئة بالحسنة، فوصفه اللَّهُ عزّ وجلّ منذ بداية السورة بقوله:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

وأستمرَّ الرسول صلوات الله عليه يتلقَّى كُلَّ مَا يُوجّهُهُ له أَئمَّةُ المكذّبين وجنودُهم من أذى وشتائم واتّهامات بصبر عظيم.

ثمَّ هاجر إلى المدينة بأمر الله بعد صبر عظيم، ولم يكن في الواقع كيونس عليه السلام الذي ترك قومه بغير إذن من الله عزّ وجلّ، فالتقمه الحوت، فنادى ربّه وكان من المسبحين، فنجَّاهُ الله.

إنَّ الرَّسُول محمّداً ﷺ لم يهاجر إلاَّ بأمرٍ من ربّه، لكن اقتضت الحكمة البيانيَّة التربويّة تَوْجيهَ كلّ داعٍ يدعو إلى الله لأن يصبر على ما يناله من أذىً وضُرّ في دعوته إلى سبيل ربّه.

واقتضىٰ الأسلوب التربويّ أن يُوَجّه الأمر بالصبر لرسول الله، أوّل المسلمين، الذي حقّق المطلوب منه فعلاً قبل توجيه الأمر له، ليفهم الدّعاة من بعده أَنّهم هم المقصُودون بالتوجيه، وأنَّ الأمر بالصبر عامٌّ شامل لكلّ داعٍ إلى اللَّهِ، من الرسول أوّل الدُّعاة، إلى كلّ من دونه.

وليفهم المجتهدون المستنبطون للأحكام أنّ الأوامر والنواهي الموجّهة للرسول هي أوامر ونواهٍ موجهة لكلّ تابع له من أمته، ما لم يكن الأمر أو النهي من خصوصيّات الرسول بالنصّ.

فأنزل الله عزّ وجلّ في العهد المدنيّ على رسوله قوله:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾.

وأمر الوحي بوضع هذه الآيات الثلاث بعد الآية (٤٧) من سورة (القلم) وَقَبْلَ آخر آيتين منها.

وجرى نظير هذا التدبير في الآيتين (١٠) و (١١) من سورة (المزّمل/٧٣ مصحف/٣ نزول) فهما آيتان مدنيتان ضُمّتا إِلَىٰ سورة معظم آياتها تنزيل مكّي، وهما قولُ الله عزّ وجلّ فيها موجّهاً لرسوله فكلّ داعٍ إلى الله من بعده:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

ويفيدُ هذا الإجراء أنّ المضمون التوجيهي الذي اشتمل عليه مثل هذا التنزيل المدني، المضموم إلى آيات تتحدّث عن ظروف سبق حدوثُها في العهد المكيّ، مضمونٌ ذو دلالة دائمة، كُلَّما وُجِدَ ظَرْفٌ مماثل لظرف تنزيل الآيات المكيّة، مع ما في هذا الإجراء من معنى قيَاس المكذبين في العهد المدني على الذين كذَّبُوا في العهد المكيّ، وأنّ عاقبتهم مثل عاقبتهم، وقد تحقّق ذلك فيما بعد.

* * *

المثال الثاني:

سورة (المزّمل/٧٣ مصحف/٣ نزول) فهي ثالث سورة نزلت على الرسول ﷺ بمكة.

ويلاحظ في هذه السورة أنّه قد ضمَّ إليها نصّانٌ مَدَنيان:

● الأول منهما الآيتان (١٠) و (١١) منها، وفيهما يقول الله عزَّ وجلَّ لرسوله:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

● والثـاني منهمـا الآيـة (٢٠) وهي الأخيـرة منهـا، وفيهـا يقـول الله عزّ وجلّ لِرَسُوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

أولاً: أمّـا الآيتان (١٠) و (١١) وهمـا النصّ المدني الأول فيهـا، فقد روعي في تنـزيلهما المـدني، ووضعهما في سـورةٍ معظم آيـاتها تنـزيـل مكي الاقتضـاءان اللّذان سبق شرحهما في نظيرهما من سورة (القلم) في المثال الأول.

ثـانياً: وأمّـا الآية (٢٠) وهي النصّ المـدني الثاني من سـورة (المزّمـل) فقـد اشتملت على بيانات تفصيلية كما يلي:

١ ــ بيان واقع حال التزام الـرسول ﷺ بقيـام اللّيل، أدنى من ثلثيـه أحيانـاً، ونصفه أحياناً، وثلثه أحياناً، والتزام طائفة من المؤمنين بمثل ذلك.

وهذه وقائع حدثت بعد تنزيل سورة (المزّمل) في معـظم آياتهـا، فهي السورة الثالثة بحسب ترتيب النزول، بينما حصل الالتزام بقيام اللّيـل خلال سنين قـد تزيـد على عشر.

وهذا من مقتضيات تأخير التنزيل إلى الوقت الذي نزلت فيه.

٢ ــ بيان أحكام تخفيفية تتعلّق بقيام اللّيـل هذا، مـراعاة لأمـور جَدَّ حُـدوثُها في العهد المدني، كالخروج للقتال في سبيل الله.

وهذا من مقتضيات تأخير التنزيل إلى الوقت الذي نزلت فيه.

٣ ـ بيان أحكام تتعلّق بإقامة الصلاة، وإيتاء الزّكاة، وإقراض الله قرضاً حسناً، وهذه أحكام تفصيلية تأخّر إنزالها.

وهذا من مقتضيات تأخير التنزيل إلى الوقت الذي نزلت فيه.

لكنّ الموضوع الفكريّ الّذِي بدأت به السورة يتعلّق بأمر الرسول ﷺ بقيام اللّيل: نصفَه أو أقلّ قليلاً منه أو زائداً عليه، وبترتيلِ القرآن، وبذكر اسم الله، والتَّبَتُّلِ إليه: أي: الانقطاع لعبادته.

وهذا الموضوع يناسبهُ أنْ تُضمَّ إليه هذه الآية.

فنزل الوحيُ بها في العهد المدني، وأبان موضعها في آخر سورة (المزّمّل) المكيَّة.

ونظير هذه الآية قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

فقد نزل بها الوحي في العهد المدني، وأبان أنَّ موضعها في سورة (المرسلات/٧٧ مصحف/٣٣ نزول) المكيّة، قبل آيتَيْنِ من آخرها.

وتمَّ بهذا مراعاة الاقتضاءين: الفكري الموضوعي، والتربوي.

ففريضة الصلاة، والأمر بالركوع فيها، والمحاسبة على مخالفة التكليف فيها لم يكن قد نزل إبّان نزول سورة (المرسلات) لكنّه بعد نزول الأمر بالصلاة، وتفصيل أحكام الصلوات المفروضة، صار عدم الركوع لله في مفهوم الدين من العناصر المقتضية لعذاب الله، والتي تكون أحد مظاهر التكذيب بالرسول وباليوم الآخر.

فالاقتضاء الفكري الموضوعي يتطلّب ضمَّها إلى سورة (المرسلات) التي سبق تنزيلها في العهد المكيّ.

* * *

المثال الثالث:

سورة (النجم/٥٣ مصحف/٢٣ نزول) من أوائل التنزيل المكيّ، وقد اقتضت الحكمة البيانية التربويّة بحسب سنَّةِ التدرّج إبَّان تنزيلها تأسيس قضيّةٍ كبرى من قضايا الإيمان، وهي قضيّة الإيمان بالآخرة، والإيمان بالدينونة، وبأنّ الناس في الحياة الدنيا ممتحنون مبتلَوْن،وبأنَّهُم مجزيُّون يوم الدين على أعمالهم،فالذين أساءوا في الحياة الدّنيا يُجْزَوْن في الآخرة بما عملوا، والذين أحسنوا في الحياة الدنيا يجزون في الآخرة بالحسنى، مع بيان أنّ الكون كلّه للَّهِ، في الآخرة والأولى، وأنّ ما في السماوات وما في الأرض كلّه لله عزّ وجلّ، فهو المُبْتَلِي، وهو المحاسِبُ، وهو المجازي، وهو مدبّر الأمر كلّه على وفق كمال الحكمة.

ولم يكن حال التدرّج في تنزيل الأحكام يتحمّل إبّان تنزيل السورة بيان أوصاف تفصيلية عمليّة للمحسنين الذين يجزون في الآخرة بالحسنى، لأنّ الظرف ظرف تأسيس العقيدة، لا ظرف بيان أحكام الشرائع العمليّة، التي منها وجوب اجتناب كبائر الإثم والفواحش باستثناء اللّمم الذي يغفره الله بفضله لمن كان معظم حاله التقوى.

لكنّ المضمون الفكري بعد نزول الأحكام التكليفيّة التفصيلية يقتضي بياناً ولو إجماليّاً عن المحسنين المذكورين في سورة (النجم) وأن يكون هذا البيان مقارناً في اللفظ، ولو كان متأخّراً في التنزيل، فأنزل الله عزّ وجلّ في المرحلة المدنيّة قوله:

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾.

وأمر الوحي بوضعها في سورة (النجم) التي كانت قد نزلت بمكّة، وبعد قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾.

وبهذا تحقَّقَت الحكمة من الاقتضاءَين:

● الاقتضاء التربوي القائم على سنّة التدرج ومراعاة حال المخاطبين.

● والاقتضاء الفكري الموضوعي الذي يقتضيه حال النصّ، في مرحلة إكمال التشريع.

فأبانت هذه الآية من صفات الذين أحسنوا في هذه الحياة الدنيا ويجازيهم الله بالحسنى يوم الدين أنّهم الذين يجتنبون على الدوام كبائر الإثم، ويجتنبون على الدوام الفواحش، باستثناء اللَّمَم منها، وهي التي يُلمُّ بها المؤمن إلماماً ثم يتوب من قريب، إذ يَقَعُ تحتَ تأثيرٍ قاسرٍ من قواسر الشهوة أو الهوى مع ضعف الإرادة، لكنه لا يصر ولا يعتاد المعاودة إلى ما سقط به من إثم، فهي لا تخرج المؤمن عن كونه من الذين أحسنوا، لأنّ اللّمم من ذوي الإحسان في طاعاتهم يغفره الله، دلّ على ذلك قول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَة﴾.

فبمغفرته الواسعة يغفر المعاصي التي تكون من قبيل اللّمم، ، ولو كانت من الكبائر، إذا كان المؤمن المسلم من المحسنين في عباداته وطاعاته، والتزم في جُلِّ أوقاته باجتناب كبائر الإثم واجتناب الفواحش.

وجاء تعليل ذلك في الآية بقوله تعالى:

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾.

ففي هذا إشارة إلى ضعف الإنسان في أصل تكوينه عن التزام الطاعة في كلّ أحواله، وضبط نفسه على الاستقامة طَوالَ حياته، فقد خلقه الله عزّ وجلّ ضعيفاً تُجاهَ قواسر أهوائه وشهواته، ألم يَعْصِ الإنسان الأوّل من قبل؟

وقابل الله عزّ وجلّ هذا الضعف الفطريّ بواسع مغفرته لمن استغفر وتاب، ولمن اجْتنب كبائر الإثم والفواحش إلاَّ اللَّمم.

وإذا اشتدّ بعض الذين لم يكشف الله أستارهم على بعض الذين افتضحوا بارتكاب الكبائر، فليصغوا إلى قول الله عزّ وجلّ في الآية:

﴿فَلاَ تُزَكّوا أنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقىٰ﴾ أي: فلا تدّعوا أنكم أطهار من الآثام.

* * *

المثال الرابع:

سورة (ق/ ٥٠ مصحف/٣٤ نزول) سورة مكيّة.

ويلاحظ في هذه السورة أنّه قد ضُمَّتْ إِلَيْهَا آيَةٌ تَأَخَّرَ نُزُولُها إلى العهد المدني، وهي قولُ الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾.

من لُغُوب: أي: من تعب.

هذه الآية آيةٌ مدنيَّةُ التنزيل، نزلت ردّاً على مقالة أطلقها اليهود بين المسلمين في العهد المدني، قالوا فيها: خلق الله السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيام، أولها الأحد وآخرها الجمعة، واستراح يوم السبت.

فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِقَوْلِهِ في هٰذِهِ الآية: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوب﴾.

هذه المقولة التي أطلقها يهود المدينة نجدها من تحريفاتهم المدوّنة في أوّل الإصحاح الثاني من سفر التكوين، ففي أوله ما يلي:

«فَأُكْمِلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَكُلُّ جُنْدِهَا، وَفَرَغَ اللَّهُ في الْيَوْمِ السّابِعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. فَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. وَبَارَكَ اللَّهُ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ. لأَنَّهُ فِيه اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللَّهُ خَالِقاً».

ولمَّا كان القرآن مُهَيْمِناً على كُتُب أهل الكتاب، مُصَدِّقاً مَا فِيها من صحيح، ومُكَذِّباً ما دخل فيها من تحريف وتبديل، ومبيناً وجه الحقّ، أنزل الله عزّ وجلّ تَصْدِيقَ أَنَّه خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في ستة أيّام، وتكْذِيبَ أنَّه تعب من خلقهن فاستراح.

فقال في تصديق ما هو حقّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا في سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

وقال في تكْذِيبِ الباطل: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾.

لقد كان تنزيل هذه الآية ينتظر المناسبة الداعية المقْتضِيَةَ لِتَنْزيلها، فلمَّا أطلق اليهود مقالتهم، كان إطلاقهم مناسبة اقتضت إنزال هذه الآية، فأنزلها الله عزّ وجلّ على رسوله في العهد المدني.

لكنّ سورة (ق) التي نزلت في العهد المكيّ، قد اشتملت على آيات وَجَّهَت نَظَرَ الناس إلى إتقان خلق السماء وبنائها المحكم الذي لا شقوق فيه، وإلى خلق الأرض وما مَدَّها الله به من منافع، وما جعل فيها من جبال رواسٍ، وما أَنْبَتَ فيها كُلِّ زوج بهيج، وإلى بديع صُنْعِه عزّ وجلّ فيما يُنَزِّلُ من السماء من ماء مبارك، فيُنْبِتُ بِهِ جنَّاتٍ وحبَّ الحصيد، والنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نضيد، مُتْقَنُ التصفيف والتنسيق.

فكان من المناسب الملائم لموضوع هذه الآيات التي اشتملت على هذه الأفكار، أنْ تُضَمَّ آيَةُ الرَّدِّ على مزاعم اليهود إلى السورَة التي اشتملت عليها، مراعاةً للاقتضاء الفكري الموضوعي، وأُخِّر موضوعها في السورة ليُعلَم أنَّ إنزالها جاء متأخِّراً، ووضعت قبل قول الله فيها لرسوله: ﴿فَاصْبِرْ على ما يَقُولُونَ﴾ ليهون على الرسول ما يقولون بشأنه، فقد اتّهموا الله بالتعب، وهو الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون.

* * *

المثال الخامس:

سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) سورة مكيّة.

ويلاحظ في هذه السورة المكيّة الطويلة الجامعة لآيات عددها (٢٠٦) أنَّهُ قَدْ ضُمَّ إليها نصٌّ مَدَنيّ التنزيل، هو من آية (١٦٣) إلى غاية آية (١٧٠).

وقد وضعت هذه الآيات ضمن السّياق الفكري الملائم لها تماماً، إذا الآيات قبلها وبعدها من سورة الأعراف تتحدّث عن بني إسرائيل وأحداثهم، وهي تتناول قصة حَدَثٍ من هذه الأحداث الدامغة لجمهورهم الأكبر منذ عصورهم الأولى بالفسوق، والعتوّ عمّا نهاهم اللَّهُ عنه، الذي جرَّ لهم عقوبة المسخ على أشكال القردة.

فالاقتضاء الفكري استدعى وضع هذه الآيات في الموضع الذي وضعت فيه من سورة الأعراف.

لكنّ تنزيلها كان يترقَّبُ الحدث الملائم، إذْ هي تبدأ بتكليف الرسول ﷺ أن يسأل اليهود عن القرية التي كانت حاضرة البحر، وكان سُكّانُها الإسرائيليون يَعْدُون في السبت فيصيدون، وقد حرّم الله عليهم العمل يوم السبت، إلى آخر ما جاء في الآيات، ولم تكن في مكة مواجهة مع اليهود، إنّما حصلت هذه المواجهة في المدينة.

فلمَّا وُجدت المناسبة الداعيَة، أنزل الله هذه الآيات ، وأوحىٰ أن توضع في الموضع الذي هي فيه من سورة الأعراف.

فتحقق بذلك الاقتضاءان: الاقتضاء الفكري الموضوعي، واقتضاء حدوث المناسبة.

* * *

المثال السادس:

سورة (يسٓ/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) سورة مكية.

ويلاحظ في هذه السورة المكيّة أنّه قد ضُمَّ إليها آية مدنيَّة التنزيل، هي قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

هذه الآية نزلت بشأن المكذبين بالجزاء الرَّبّاني من مشركي مكّة.

وقد تأخَّر نُزولُها إلىٰ نجوم التنزيل المدني، فما الحكمة من ذلك؟.

● أمَّا السّياق الفكريُّ الموضوعي فيقتضيها، لأنّ السورة يبرُزُ فيها الكلام الطويل حول قانون الجزاء الرّبّاني المعجّل والمؤجّل إلى يوم الدين، وحول تقديم أدلّة لإقناع منكري البعث، بأن إنكارهم لا يستند إلى إيّةِ حُجّةٍ تكفي حتى يكون لهم بها عذر عند الله، ومناقشة مقولات بعضهم في ذلك.

وهذه الآية تتضمّن الإشارة إلى مواقفهم تجاه تحذيرهم من عقاب الله العاجل في الدنيا والآجل يوم الدين.

فهذا المقتضي لوضع هذه الآية في هذه السورة، قد روعي بحكمة تامَّة.

● فما المقتضي لتأخير إنزالها إلى العهد المدني؟

يكشف لنا التأمّل أنّ الآية قد حُذِفَ منها جواب الشرط، وأنّ واقع حال المتحدّث عنهم إبان تنزيل السورة، والذي ظهر فيما بعد خلال تَطوُّر الأحداث، أنّه قد كان منهم من اتقى، ونفعه الإنذار فآمن وأسلم، وكان منهم فريق آخر أصرّ على كفره وتكذيبه، وعدم اكتراثه بالإنذار، الذي دلّ عليه الأمر بأن يتقوا العقاب المعجل والمؤجل، والذي جاء في سُور سابقة لسورة (يسٓ) في التنزيل.

وهـذا الـواقـع لم يـظهـر تمـامـاً إلَّا في العهـد المـدني، بعـد أن آمن وأسلم الكثيرون ممَّن كانوا مكذِّبين في العهد المكيّ.

فمن أجـل أن يُفْهَم أَنَّ جَـوابَ الشـرط المحـذوف في الآيـة، ينبغي تقـديـره مطابقاً لواقع حال المتحدَّث عنهم، بعد الإنذار والإمهال مُدَّةً كافيةً، لتوبة من لديهم استعداد للاتعاظ أو الاقتناع والاستجابة للحق.

وجواب الشرط المطابق هو كما يلي:

وإذا قيل لهم اتّقـوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون: كان منهم من آمن وأطاع، وكان منهم من أصرّ على كفره وعصَىٰ.

ولمَّا كان هذا الواقع لم يُعْرَفْ حتَّىٰ يُلاحظ تقديره إلَّا في العهد المدني، كان مقتضياً لتأخير تنزيل الآية إلى العهد المدني، فجاءت مراعاته بحكمة.

وقـوله تعـالى: ﴿اتَّقُوا مَـا بَيْنَ أيديكم﴾ أي: اتقـوا مـا مضىٰ بين أيـديكم في القرون السالفة. ونتساءل: كيف يكون اتقاء ما مضىٰ؟.

ونجيب بأن الكلام على تقدير محذوف: أي: اتقوا نظير ما جرى من عقوبات ربانيّـة للمكذبين من أهل القرون الماضية.

* * *

المثال السابع:

سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) سورة مكيّة.

ويلاحظُ في هذه السورة المكيّة أنّه قَدْ ضُمَّ إليها نَجْمٌ مدني من ثـلاث آيات، هي قول الله عزّ وجلّ فيها ضمن صفات عباد الرحمن:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ

مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾.

ويُلاحظ في هذه الآيات أنّها تشتمل على بيان صفاتٍ من صفات عباد الرحمن، فموضعها في القرآن يقتضي أن يكون ضمن صفات عباد الرحمن المذكورين في سورة الفرقان.

وقد روعي هذا الاقتضاء، فَوُضِعَتْ في المكان الملائم من هذه السورة وضعاً حكيماً.

لكنّ هذه الآيات تشتمل على أوصاف تفصيليّة لعباد الرحمن، تقتضي الحكمة التربويّة القائمة على سنّة التَّدَرُّج في بناء أحكام التشريع، تأخير تنزيلها إلى العهد المدني، إذْ هي تشتمل على أحكام تتعلّق بتحريم قتل النفس إلّا بالحقّ، واعتباره من كبائر الذنوب، وتحريم الزنا، واعتباره من الكبائر، وأحكام تتعلّق بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، والثواب على ذلك بتبديل السّيئات حسنات، وهذه أحكام اقتضت الحكمة التربويّة والتعليميّة تأخير تنزيلها إلى العهد المدني.

وقد روعي هذا الاقتضاء فأنزلها الله في العهد المدني.

أمّا ما كان مكيّاً من صفات عباد الرحمن فيدور حول مكارم الأخلاق، وفضائل السلوك في الحياة، وحسن العبادة لله عزّ وجلّ، والسجود لجلاله في خضوع عن وعي وبصيرة، والدّعاء لله بأن يجعل لهم أزواجاً وذُرِّيَّةً صالحين قُرَّة أعين، وأن يجعلهم أئمةً للمتقين يُقتَدَى بهم، ويُهْتَدَىٰ بهديِهم.

فتحقّق بذلك مراعاةُ الاقتضاءين: الاقتضاء الفكري الموضوعي. والاقتضاء التربوي القائم على تدرّج تنزيل أحكام التشريع.

* * *

وفي ضوء هذا التدبُّرِ يمكن فَهْمُ سائر النصـوص المدنيـة المضمومـة إلى سور معـظم آياتهـا تنزيـل مكيّ، والنصوصِ المكيّـةِ المضمومـة إلى سور معـظم آيـاتهـا تنزيل مدني.

والمتدبّر المتأمل العميق التأمّل بأناة ورويّة واستعانة بالله عـزّ وجلّ، سيهتـدي إن شـاء الله إلى اكتشـاف الاقتضـاءين، واستنبـاطهمـا، وفهم هـذه النصـوص في ضوئهما. والله المستعان، وهو وليُّ التوفيق.

• • •

القاعدة الحادية عشرة

«حول النظر فيما ورد من أسباب النزول»

على متدبّر كتاب الله وآياته المنزلات أن ينظر فيما ورد من أسباب النزول، فكثيراً ما يلقي سبب النزول الذي صحّ سنده الضوء على المعنى المراد من النصّ القرآني.

ويلزم مع ذلك مراعاة قاعدة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب». والمراد من هذه القاعدة: أنّ العبرة بعموم النصّ بمناسبة حادثة ما، أمّا الحادثة الخاصة التي كانت سبب نزول النصّ فلا يجوز أن تعتبر مخصِّصةً لدلالة النصّ العامة، بل هي ونظائرها داخلة في عموم الحكم الذي جاء في النص إن كان عامّاً دخولاً أوّليّاً.

ويتجاوز بعض الناس الحدّ المراد في تطبيق هذه القاعدة، فيقتطعون من الآية جملة، ويجرِّدونها عن سياقها، ويفهمون منها معنىً عاماً، أو معنىً خارجاً عمّا وردت له في السياق كليّاً؛ مع أنّ الجملة لم تأتِ على أنّها قاعدة كليّة، وما جاء في النصّ بعض تطبيقاتها، أو بعض أفرادها. وبهذا التجاوز يتوهمون أن سياق النص هو خصوص السبب، فيقطعون النصّ عن سياقه ويقولون: العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب، مع أنّ النصّ كلّه وحدة متماسكة، وليس بعضه سبباً لبعض. لذلك فلا يصحّ أن تُجَزَّأ كل فكرة وردت في جملة من الآية، ثم يقال: «العبرة بعموم النصّ لا بخصوص السبب» ما لم يكن إيرادها في الآية بوصفها قاعدة عامّة،

وما جاء في الآية مِمّا استدعاها مندرجٌ في عمومها، كالقواعد والأحكام الكلّيّة التي تأتي في أواخر الآيات، نحو: ﴿واللَّهُ بكل شيءٍ عليم﴾ و﴿وهو على كلّ شيءٍ قدير﴾ و﴿واللَّهُ لا يُحِبُّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُور﴾ و ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيْمَاً﴾ وأمثال هذه الأحكام والقضايا الكليّة.

قال ابن دقيق العيد:

«وَيَنْبَغِي أن يُتَنَبَّه للفرق بين دلالة السياق والقرائن على تخصيص العام، وعلى مراد المتكلم، وبين مجرَّد ورود العامّ على سبب، فإن بَينَ المقَامَيْن فرقاً واضِحَاً، ومن أجراهما مُجرىً واحداً لم يُصِبْ، فَإِنّ مجرّد ورود العامّ على سبب لا يقتضي التخصيص به، كنزول آية السرقة في قصة رداء صفوان.

أمّا السياق والقرائن الدالة على مراد المتكلّم فهي المرشدة إلى بيان المجملات»[1] انتهى.

أقول: وما نبّه عليه العلاّمة «ابن دقيق العيد» جدير جداً بأن يكون محلّ عناية المتدبّر في هذا الموضوع، وأُضيفُ عليه ضرورة جمع النصوص القرآنية من مختلف سور القرآن، المتعلقة بالأفكار والمعاني التي اشتملت عليها الآية الموضوعة للتدبّر، والتأمل فيها مجتمعه متكاملة، لا مجزّأة متناثرة.

فعلى متدبّر كلام الله أن يكون شديد الحذر من اقتطاع النصوص والجمل القرآنية عن سوابقها ولواحقها، حتّى يتأكّد تماماً من أنّ مجموعة الآيات التي اقتطعها، لا تُكَوِّنْ مع غيرها وحدة متماسكة فَيُؤَثِّر الاقتطاع في فهم دلالاتها، وقد يُغَيِّر المعنى المراد الذي يدلّ عليه النّصّ مجتمعاً غير مفرّق.

إذْ كثيراً ما يُلاحَظُ في النصوص القرآنية ارتباطُ مجموعةٍ من الآيات، في

---

(١) نقلاً من كتاب «نيل الأوطار» للشوكاني، الجزء (٤)، صفحة (٣٠٦)، طبعة دار الجيل ١٩٧٣م.

موضوع جزئيّ من السورة، واقتطاع بعضٍ منها وفهمه على أنّه نصٌّ منفصل، قد يجنح بالمتدبّر عن فهم المعنى المراد، والواجب عليه أن ينظر إليها مجتمعة ليفهم دلالات النص وترابُطَ معانيه، وأن لا يقتطع آيةً أو فِقرةً من آية، وَيَفْهَمَهَا فَهْماً منفصلاً، فمن شأن هذا الاقتطاع أن يُوهم غير المراد، أو يوقع في الخطأ، أو يُضعّف من كمال دلالات النصّ، وممَّا يحصُل به إيهامُ معنىً غير مراد لدى اقتطاع النصّ أن يكون النصّ المقتطع يشتمل على تعميم غير مقصود.

وكثير مما يذكره المفسرون على أنّه سبب لنزول آية من الآيات ليس له سند صحيح يثبته، كما أنّه قد يكون غير صالح لإلقاء الضوء على المعنى المراد، بل قد يحوّل فكر المتدبّر لكلام الله عن الفهم الصحيح المتسق مع جملة ما جاء في كتاب الله. وقد يصادف المطالع في كتب التفسير حادثة مكيّة ذكر بعض المفسّرين أنّها سبب لآية مدنية، أو العكس، مع وجود الفارق الزمني الطويل في الصورة الأولى، ومع تأخر حدوث ما ذكر أنّه سبب النزول في الصورة الثانية، وهي الصورة التي ذكر فيها أنّ الحادثة المدنيّة سبب لنزول نصّ مكيّ.

لذلك لا يصح اعتماد جميع ما ذكره المفسّرون على أنّه من أسباب النزول، واعتباره أساساً لتحديد معاني النصوص، إلاَّ أن يثبت بسند صحيح، ولا يتنافى مع تاريخ نزول النصّ أو يكون منسجماً مع دلالات النصّ الواضحة دون أن يكون فيه ما يخدش اعتباره سبباً لنزول النصّ الموضوع للتدبّر.

❁ ❁ ❁



القاعدة الثانية عشرة

«حول لزوم فهم الآية وفق ترتيب نظمها»

ينبغي فهم الآية القرآنيّة وفق ترتيب نظمها، أمّا الفهم الذي يقوم على أساس التغيير في النظم القرآني بالتقديم أو بالتأخير لجملة أو كلمة فقد يَجُرُّ إلى فهم غير صحيح ، أو غير مراد، أو إلى تعطيل دلالة النّصّ، وإلى صرفه عن المعنى المراد الذي لا يُفْهَمُ إلاّ بإبقاء النظم القرآني على حاله.

وقُصُورُ فهم المتدبّر عن إدراك المعنى المراد الذي يَدُلُّ عليه ترتيب النظم، لا يَسْمَحُ له بالتغيير.

وكذلك لا يَسْمَحُ له بتغيير نظم الآية كوْنُ ذهنه قد آنصرف إلى معنىً آخر ينسجم مع التغيير الذي رآه.

إنّ الله تبارك وتعالى حكيم، وهو لا يضع الأشياء إلاّ في مواضعها.

● فعلىٰ متدبّر كلام الله أن يجتهد في فهم النصّ القرآني، حتّى يهتدي إلى المعنى الذي يدُلُّ عليه كلام الله، وفق النظم الذي نزل به.

فإذا عجز فعليه أن يعلّق الفهم، فقد يأتي متدبّرٌ آخر يهديه الله إلى فهم المراد من النصّ.

● وعلى متدبّر كلام الله أن يبحث ويتفكّر ويتأمل طويلاً بصبر وأناة، ليستنبط الحكمة من ترتيب الجمل والأفكار القرآنية، وما تتضمَّنُه من دلالاتٍ ومعانٍ متتابعة.

فمن شأن المتدبّر الحصيف لهذا الأمر أن يكشف عن أغراض بلاغيةٍ أو فنّيةٍ أو فكريةٍ، أو غير ذلك ممّا يكون من مقاصد البيان البليغ الحكيم. وإذا لم ينكشف له شيء فعسىٰ أن يأتي من بعده من يكشف الله له شيئاً، ويلهِمُه أمراً لم يسبق إليه متدبّرٌ قبله.

* * *

الأمـثـلـة

المثال الأول:

قـول الله عزّ وجلّ فـي سورة (الرعد/ ١٣مصحف/ ٩٦ تزول):

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: لا يملك أيُّ رسولٍ من رسل الله أن يأتي قَوْمَه بآيةٍ خارقَةٍ للعادة، وهي ما يُسمّى بالمعجزة، ولو كان مُمَكَّناً من الإتيان بها، كما مكّن الله موسىٰ عليه السّلام من استخدام عصاه، وكما مكّن عيسىٰ عليه السّلام من النفخ فيما يُصوّر من الطّين كهيئة الطير، إلاّ بإذن خاص من الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿لكل أَجَلٍ كتاب﴾.

لفظ «**الأجل**» يأتي لعدّة معانٍ، وهي:

- الوقت المحدد لحصول شيء أو ابتداء زمانه.
- غايةُ الوقت المحدّد للشيء، لحصوله أو لانتهاء وجوده.
- المدّة المضروبة للشيء، المحصورة بين أوّلٍ وآخرٍ.

ولفظ «**الكتاب**» هو في الأصل مصدر كتب يكتُب كتاباً. واسمٌ للصحيفة المكتوبة.

وتُطْلَق الكتابة مجازاً على معانٍ عديدة منها: الإثبات، والتقدير، والإيجاب

والعزم. وذلك لأن الشيء يحـدّد أولاً بالإرادة، وهـذه الإرادة يعبّـر عنها بـالقول، أو بوسيلة أخرى من وسائل التعبيـر، فإذا أريـد تثبيت ذلك المـراد بصورة جـازمة، كُتِب فـي كتاب.

ومن أجل ذلك قد تطلق الكتابة على الإرادة الجازمة بفعل الشيء، أو تقديره، أو القضاء به، أو الحكم بإيجابه وفرضيته.

فمعنى ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾: لكلّ وقْتٍ مُحَـدَّدٍ من أوقات المستقبـل لأي أمرٍ من الأمور قضاه الله وقدره أو أذن بِهِ كِتَابٌ مُسَجَّلٌ فيه ما تم به القضاء والقدر أو الإذن من إيجاد أو إعدام، أو أي شيءٍ، ولكـلّ مدّةٍ حـدّدها الله عـزّ وجلّ لانتهـاء أي شيء أو بدءِ أي شيء، كِتَابٌ مُسَجّلٌ فِيْهِ مُرَادُ الله، أو إذنُه، ولكلّ حَدَثٍ سيحدث فـي وقت ما عَلِمَ الله أنه سيحدث فيه، كتابٌ مُسجّلٌ فيه عِلْمُ الله بِهِ.

ويدخل في هذا التعميم شمولُ إرادة الله الجازمة لكل ما يحدث في كل وقت من أوقات المستقبل، ولكلّ إمهـال قدّر الله بحكمتـه أن يبتليَ بـه عبـاده، وأنّ هـذه الإرادة الجـازمة معلنـة على المأمـورين بتنفيـذهـا من المـلائكـة، ومسجّلةٌ لهم في كتب، فلا مجال لاستعجال أمرٍ قدّر الله تأجيلهُ، وَلاَ لتَأْجيل أَمْرٍ قدَّر اللَّهُ تَنجيزه.

فمعنى: ﴿لِكُـلِ أَجَلٍ كِتَـابٌ﴾ كما سبق بيـانـه منسجم مـع تـرتيب كلمـات الجملة انسجاماً تامّاً.

ونقـل بَعضُ المفسّرين عن «الفَـرّاء» أنّه قـال عن هذه الجملة القـرآنية: فيهـا تقديم وتأخير، وأن الكلام على القلب، وأصلُه: «لكلّ كتاب أجل» وقد قُلب رعـاية للفاصلة.

أقول: وهذا الذي ذكره «الفـرّاء» يُفْسِدُ المعنى المـراد، مـع ما فيـه من ادّعاء القلب فـي النـظم القرآني، دون مقتضٍ لهـذا الادّعاء. وذلـك لأن المعنى عنـدئـذٍ يكـون كمـا يلي: لكـلّ كتـاب كتبـه الله وقت سيـأتي تحقيقُـه فيـه، وهـــذا المعنى مخالف للواقـع، إذ المكتوبات الرّبّانية لا تَقْتَصِـرُ على ما سيحـدث فـي المستقبل،

بل فيها مكتوبات تناولت الحقائق التي لا ترتبط بزمن، كحقائق الربوبية والألوهية، وسائر الأزليات، وفيها مكتوبات تناولت ما مضى وانقضى من الأحداث، فلم تَعُدْ أزمانُها التي حدثت فيها آجالاً، لأن الآجال إنّما هي للأزمان الآتيات.

فالكلام القرآني يجب فهمه على ما هو عليه في صيغته المنزلة، ولا قلب، وفهمه على القلب إفساد له.

* * *

المثال الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩مصحف/ ١١٣نزول):

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

نزلت هذه الآية بشأن فريق من المنافقين، ويُخاطب الله عزّ وجلّ فيها الرّسولَ أوّلًا ثمّ كُلَّ مؤمن من بعْدِه، وخطاب الرسول فيها قد جاء وسيلةً لخطاب كلّ مؤمن على انفراد، إذْ هو أوّلُهُم وقُدْوتهم.

أي: لا تعجبْكَ أيُّها المؤمن بالله أموالُ المنافقين ولا أولادُهم التي يُمدُّهُم الله بها، ضِمن مُدّة امتحانهم في الحياة الدنيا، على وفق سُنَّته التي بَيّنها بقوله في سورة (الإسراء/ ١٧مصحف/ ٥٠نزول):

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾.

إنّما يُريدُ اللَّهُ: أي: إنّما يُريدُ الله إمدادهم بها مدّة امتحانهم في الحياة الدّنيا، لا لتكون سبب سعادتهم فيها وهم مُصِرّون على نفاقهم، بل ليعذّبهم بها في الحياة الدنيا، ولتَزْهقَ أَنْفُسُهم وهم كافرون إذا استمرُّوا على كُفْرهم ونفاقهم.

قال بعض المفسرين، ومنهم الجرجاني، ورُوي عن ابن عبّاس، واختاره قتادةُ وجماعة آخرون أخذاً من الطبري والشوكاني والرازي عند تفسير الآية:

إن قوله تعالى: «في الحياة الدنيا» مؤخر من تقديم، والتقدير: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنّما يريد الله ليعذبهم بها (أي: في الآخرة) وتزهق أنفسهم وهم كافرون.

وقد رفض ابن القيم هذا الرأي في كتابه «إغاثة اللّهفان من مصايد الشيطان[1]» والحق معه. وقال بشأن القائلين به:

«وكأنّهم لمّا أشكل عليهم وجه تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا، وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك فرُّوا إلى التقديم والتأخير».

ثم أبان ابن القيم وجه تعذيبهم بأموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا فقال:

«والصوابُ ــ والله أعلم ــ أن يُقالُ: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طُلّاب الدّنيا ومُحبّيها، ومؤثريها على الآخرة، بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تَجِدُ أتعب ممّن الدنيا أكبر همّه، وهو حريص بجَهدِه على تحصيلها، والعذابُ هنا هو الألمُ والمشقّة والنّصَب».

أقول: إنّ ما قالهُ ابن القيم في هذا هو الجدير بالفهم، وهو من التدبر الأمثل للنصّ.

فالنصّ على نظامه المنزّل، ليس فيه تقديم وتأخير، ويجب أن يُفهم وفق النظم الذي أُنزلَ به.

ومن يسبر أحوال أهل الأموال والأولاد من المتعلّقين بالحياة الدنيا وزينتها، ولا يستعملون ما آتاهم الله من فضله في طاعته عزّ وجلّ، بل يصرفهم ما لديهم من الدنيا عن ذكر الله وحُسن عبادته، أو هم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فإنه سيجدُهُمْ معذّبين بالكدِّ والهمّ والقلَقِ ومتاعب الجمع والمنع، والأنْكادِ الكثيرة

(١) انظر «فصل: في أنّ لذّة النظر إلى وجه الله يوم القيامة تابعة للتلذُّذ بمعرفته ومحبته في الدنيا».

التي تتواتر عليهم، والخوف على أنفسهم وأموالهم، وقد يأتيهم العذاب من قبل أولادهم الذين يقابلونهم بالعداء والطمع أو بالمشكلات التي تجرّ لهم أنواعاً من المتاعب والمشقيات، وصوراً كثيرة من العذاب النفسي والجسدي، لا تأتي من الأعداء البعداء المجاهرين بعدائهم ومكايدهم.

إلى ألوان وصنوفٍ كثيرة من العذاب النفسي، والعذاب الجسدي. وكم من ذي مالٍ وفير تعرّض ماله لتلفٍ أو مصادرة أو سلب أو نهب، فأصابته بسبب ذلك علل وآلام، هي أشدّ وأقسى مما يعانيه الفقراء بسبب فقرهم وحاجاتهم لضرورات الحياة، وكم من ذي أولاد كان يظُنُّ أنّهم سيكونون سبب سعادته، فكانوا سبب شقائِهِ وعذابه في الحياة الدنيا.

* * *

المثال الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران / ٣مصحف/ ٨٩نزول) تعليقاً تربوياً وتوجيهياً على أحداث غزوة أُحُد وما حصل فيها، يخاطب الله به المؤمنين:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

إِذْ تَحُسُّونَهُمْ: أي: إِذْ تقتلونَهُمْ قَتْلاً ذَرِيْعاً.

فَشِلْتُمْ: أي: ضَعُفْتُمْ وَفَزِعْتُمْ وَجَبُنْتُم.

وَتَنَازَعْتُمْ: أيْ: تخالفتم وتخاصمتُمْ.

هذه الآية تبيِّن ما جرى للمسلمين في غزوة أُحُد من نَصْرٍ أوّلاً، ثُمَّ هزيمةٍ بعد ذلك، بسبب معصية أكثر أفراد كتيبة الرماة، وتركهم مواقعهم قبل أن يأذن لهم الرسول ﷺ بذلك.

ويلاحظ في هذه الآية أنّ الله عزّ وجلّ ذكر فيها الفشل، فالتنازع، فالمعصية، على عكس الترتيب في الواقع.

فترتيب الأحداث في الواقع قد جري على الوجه التالي:

أولاً: عصىٰ أمرَ القيادة معظم أفراد كتيبة الرُّماة، فتركوا مواقعهم المحصّنين بها على الرابية، حين أراهم الله ما يُحِبّون من النصر، وما يطعمون به من الظفر بالغنائم من عدُوّهم، وقد رأوا إقبال عامّة المقاتلين من المسلمين يتسارعون لجمع الغنائم.

ولم يكن الرسول ﷺ قد أذن لهم بترك مواقعهم، بل كان قد أوصاهم بأن لا يتركوها، ولو رأوا المسلمين تتخطّفهم الطير، حتّى يأذن لهم.

ثانياً: وقع التنازع بين المسلمين حول متابعة القتال ضمْن أوامر القيادة أو جمع الغنائم، ووقع الجدال بينهم، فتفرقت وحدة الكلمة ووحدة الصف، وجاء تفسير هذا التنازع بقول الله عزّ وجلّ:

﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيْدُ الآخِرَة﴾.

ثالثاً: دبّ الضعف في صفوف المسلمين بسبب التنازع، وتَفَرُّقِ الكلمة، وتَمزُّقِ وَحْدَةِ الصَفّ.

فهجم العدو عليهم من وراء ظهورهم، فاضطربوا، واختلّ نظامهم، وَأَصَابَهُم الفَزَع، وَرَأوا أنّهم محصورون محاطون من أمامهم ومن ورائهم.

ولمّا وقع القتل فيهم جَبُنُوا، وعَدَوْا فارّين هاربين، وكان ذلك هو الفشل الذي حلّ بهم.

هكذا كان ترتيب الأحداث في الواقع، فمن أجل ماذا عكس البيان القرآني هذا الترتيب؟

علينا أن نتفكّر في الأمر بأناة واستبصار، عسىٰ أن نستنبط الحكمة من ذلك، ولا يصح لنا أن نلجأ إلى مجرّد تصوّر أنّ حرف العطف الذي هو «الواو» لمطلق الجمع، وأنّه لا توجد حكمة لعكس ترتيب الأحداث.

وقد أمعنت النظر، فهداني الله عزّ وجلّ إلى أن الغرض منه الدلالة على أنّ ظهور المسلمين على عدوّهم وانتصارهم عليهم قد استمرّ حتّى حلّ بهم الفشل (وهو الضعف والفزع والجبن) ولم تَتَحوَّلْ رياح النصر عنهم إلى عدوهم عند المعصية والتنازع في الأمر، بل أخذ الأمر يتسلسل على مراحل.

ولو انعكس الترتيب في النصّ فجاء كما يلي: حتى إذا عصيتم وتنازعتم وفشلتم، لأوهَمَ أَنّ ظُهُورَ المسلمين على عَدُوّهم قد توقف منذ لحظة معصية الرماة، وهذا خلاف الواقع.

بيد أنّ النصّ يهدف إلى الإعلام بأن توقف النصر وتحوُّلَ رياحه قد حصلا بَعدَ حصول الفَشَل.

فالدّقة في التعبير تقتضي أن يأتي البيان دالاًّ على أن حركة الظهور على العدو توقفت عند حصول الفشل، لا قبله، : أي لا عند المعصية، ولا عند التنازع.

إذن: فقد كان لهذا الانتصار غاية زمنيةٌ توقّف عندها، وهذه الغاية الزمنية مقرونة بحصول الفشل، لذلك جاء التعبير القرآني دالاًّ على هذه الحقيقة، فقال عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونهم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾.

ولكن لا بُدّ أيضاً من بيان التراكمات السّببية التي أدت إلى الفشل، باعتبارها أسباباً متتابعة لحصوله.

فذكر الله عز وجلّ أوّلاً السبب المباشر للفشل، وبعده ذكر السبب الذي كان

قبله فأدّى إليه، ثم ذكر السبب النفسي الإراديّ الداعي، الذي تتوقف عنده سلسلة الأسباب بداهةً.

● أمّا السبب المباشر لحصول الفشل فهو التنازع في الأمر، ولذلك جاء ترتيبه بعد ذكر الفشل مباشرة، فقال عزّ وجلّ: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾.

وكان الله عزّ وجلّ قد أبان في نص سابقٍ في نجوم التنزيل للذين آمنوا أنّ التنازع يُؤدِّي إلى الفشل، إذْ أنزل بمناسبة التعقيب على أحداث غزوة بدر قوله في سورة (الأنفال ٨مصحف/ ٨٨نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

فما جرى للمسلمين في أُحُد كان ظاهرةً من ظواهر سُنن الله التي أبانها الله عزّ وجلّ في كتابه بعد غزوة بدر الكبرى.

● فما سبب التنازع الذي حصل في أُحُد؟

والجواب: هو معصية من عصى منهم أمر الرسول ﷺ، ومخالفتهم لإخوانهم، وتمزيقهم للصف. فجاء قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَراكُمْ مَا تُحِبّون﴾. عقب قوله: ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِيْ الأَمْر﴾ إشارة إلى أنّ العصيان هو سبب التنازع.

● فما هو السبب النفسي الإرادي الداعي الذي تنتهي عنده سلسلة الأسباب والذي أدّى إلى معصية من عصى منهم؟

والجواب: هو إرادة مطامع الدنيا من العصاة، رغم وجود إرادة ثواب الآخرة من المطيعين. فجاء قول الله عزّ وجلّ: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾.

وهكذا جاء الترتيب في البيان القرآني كَامِلَ الدّقّة في الأداء، ومطابقاً لما يراد الدلالة عليه.

يضاف إلى ما سبق أنّ التسلسل المنطقي لبحث أيّة ظاهرة، وكشف الأسباب التي أدت إليها، يقضي بأنْ تُحدد الظاهرة أوّلاً، وبعد ذلك يُنْظَر إلى السبب المباشر الذي أدّى إليها. ثم إلى السبب الذي أدّى إلى السبب المباشر، وهكذا تسلسُلاً مع الأسباب، حتّى ينتهي البحث إلى السبب الأول الذي تنتهي عنده عقلاً سلسلة الأسباب.

والإرادة ودواعيها عند ذوي الإرادات الحرّة تعتبر هي السبب الأول الذي تقف عنده عقلاً سلسلة الأسباب، ولا يُبْحث بعدها عن سبب آخر.

* * *

المثال الرابع:

قد يهدف ترتيب الجمل القرآنية إلى عرض لوحة فنّية من لوحات ما خلق الله في كونه، حتّى كأنّها رسْمٌ قد روعيت فيه كلّ الشروط الفنيَّة التي تُراعى في الرسوم والصور الرفيعة، فكأنّ الصورة مثالٌ مطابقٌ للواقع تماماً.

كنت مرّة جالساً في بادية، وأمامي سهل ممتدّ، وبعده سلسلة جبال متتابعة، فمرّت قافلة جمال، فنظرت إلى القافلة، فتتابعت الصورة في ملاحظتي الحسية على الوجه التالي:

١ ـ صورةُ قافلة الجمال السائرة، وكان هذا أول لافت لنظري، بسبب الحركة، وغرابة المشهد، ورغبةِ النفس بمتابعة مشاهدته قبل أن يغيب عن النظر.

٢ ــ فصورة السماء من جهة الأفق البعيد وراء القافلة.

٣ ــ ثُمَّ تَدَلَّى بصري فظهرت لي صورة الجبال.

٤ ــ ثمَّ رأيتُني أُرْخِي بصري أخيراً إلى جهة الأرض المنبسطة الممتدة أمامي كأنّها السطح.

عندئذٍ علمت الحكمة التي دعت إلى ترتيب الجمل القرآنيـة التاليـة من سورة (الغاشية/٨٨ مصحف/٦٨ نزول):

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وقُلْتُ فِي نفسي: إنَّها بهذا الترتيب تُقَدِّم لوحةً فنيَّةً، تُطَابِقُ ما يَحْدُثِ لِمُشاهِدٍ واقـعٍ في مثل هـذا المشهد الـذي حدث لي، وهـو الْمَشْهَدُ الـذي يلفت حقاً نـظر إنسان جالسٍ في خيمتـه خارج العمـران في أرض من أرض العرب، وأمـامه سهـلٌ ممتد، ومرت قافلة من الإبل بينه وبين الأفق البعيد، وجبالٌ قائمات دون ذلك.

ويستغـلُّ القرآن هـذه اللَّوحَةَ الفنيَّـةَ، لينقـل المشـاهـد إلى إدراك عـظمـة الله في خلقه.

* * *

المثال الخامس:

يَقُصُّ الله عزّ وجلَّ قصَّـةَ امتحان إبـراهيم عليه السـلام بتكليفه أن يـذبـح ابنه إسماعيل الوحيد يومئذٍ، فيقول في سورة (الصَّافات/٣٧ مصحف/٥٦ نزول):

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾

وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾﴾.

فلمّا أَسْلَمَا: أي أسلما أمْرَهُمَا لله واستسلما للطاعة وتنفيذِ أَمْرِ الذَبْحِ.

تلّه: صرعَه وكبَّهُ إلى جبينه.

في هذا النصّ يدلُّ تَرْتِيبُ الجُمَلِ القرآنية ــ ولَوْ كان العطف فيها بحرف (الواو) التي هي لمطلق الجمع كما يقول النحاة ــ على معانٍ مقصودة، يهدفُ إليها البليغ الحكيم في بيانه، وهي هنا مراعاة الترتيب في الأحداث والوقائع.

ففي الجمل: «فلمّا أسْلَمَا» و«تَلَّهُ لِلْجَبِين» ــ أي: وشرع ينفذ أمر الله بذبحه ــ و«ونَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبراهيمُ قد صدّقْتَ الرُّؤيا» ــ أي: وأطعْتَ الله فيما أمرك به.

وجواب «لمَّا» محذوفٌ تقديرهُ: تَمَّ ابْتِلاَؤهما واجتازاه بنجاح عظيم مبين. دلّ عليه قولُ الله في النصّ: ﴿يَا إبراهيمُ قَدْ صدّقت الرُّؤيَا﴾ وقولُه ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ المبين﴾.

ويأتي تتابع الجمل: و«فَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عظيم» و«تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلاَمٌ عَلَى إبراهيم» و«بَشَّرْنَاهُ بإسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ» و«بَارَكْنَا عَلَيْهِ ــ أي: على إسماعيل ــ وعلى إسحاق» و«من ذُرِّيَتِهِمَا مُحْسِنٌ وظالمٌ لِنَفْسِهِ مُبين».

كُلُّ هذه الجمل قد جاء تتابُعها في النّصّ على مقتضى تتابع أحداثها في الواقع، وبحسب أزْمانها تقدُّماً وتأخّراً.

١ ــ فبعد الرؤيا التي فهم منها إبراهيم عليه السلام أنّ الله يأمُرُه بِذَبْح ابْنِهِ إسماعيل، الذي كان وحيده يومئذٍ، عرض الأمر على ولده.

٢ ــ فأطاع إسماعيل عليه السلام، وقال لأبيه: يا أبتِ افعل ما تُؤْمر ستجِدُنِي إن شاء الله من الصابرين.

٣ ــ وعقب ذلك عزما على تنفيذ التكليف وأسلَمَا أَمْرَهُمَا إلى الله، لكنّ إبراهيم كان بحاجة إلى عزْمٍ أشدّ، لأنّه هو الذي سيقوم بفعلِ الذبح، أمَّا إسماعيل فوظيفته الاستسلام السلبيّ للذبح، وهو لا يحتاج أكثر من تعطيل المقاومة.

٤ ــ وبعد ذلك صرع إبراهيم بعزمه النفسيّ عاطفته على ولده الوحيد إسماعيل، وصرع بعزمه الجسدي ابْنَهُ الشابَّ الفارس وكبّه على وجهه حتى أوصل جبينه إلى الأرض ليذبحه، وبيده السكين المرهفة.

٥ ــ وكاد الذبح يتمّ، لولا أن جاء النداء الرّبّاني بالتوقف. إذْ قد تمَّ الامتحانُ المقصود، وحقّق كلٌّ من الذابح والذبيح النجاح في الابتلاء بأعلى درجة، هي درجة الإحسان.

٦ ــ وكان إيقاف التنفيذ جزاءً لهما على إحسانهما في طاعتهما، دلّ على هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّا كذَلِكَ نَجزِي الْمُحْسِنينَ﴾.

٧ ــ واقتضت الحكمة التربويّة التوجيه لشريعة الفداء بما أحلّ الله ذبحه وأكل لحمه من الأنعام، فجاء جبريل عليه السلام، بكبشٍ عظيم من الجبل، يكون فداءً لإسماعيل عليه السلام: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عظيم﴾.

٨ ــ ونزل ساعتئذٍ قرارٌ من الله بمجازاة إبراهيم عليه السلام الذي جاز امتحانه بأرفع درجة من أعلىٰ مرتبة، هي مرتبة الإحسان، وكان هذا الجزاء له بصيغة القرار التالي: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ في الآخرينَ. سَلاَمٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ. إِنَّا كَذَلِكَ

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إنَّه مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِين﴾ أي: فكل مؤمن يسمَعُ باسْمِه يُسَلِّم عليه وصيَّةً من الله.

وامتاز إبراهيم على إسماعيل بهذا الجزاء في هذا النّصّ لأنّ امتحانه كان أشدّ وأقْسَىٰ فَعَمَلُهُ في الذبح إيجابي، وحاجتُهُ إلى العزم الإراديّ من أرفع مستوىً، إنَّ الذينَ يُضَحُّون بأنفسهم ويَبْذُلُونَ حياتهم طاعةً للَّهِ كثيرون، لكنّ الّذي يُمْتَحَنُ بذبح ولده الوحيد، فيطيعُ التكليفَ مستسلماً راضياً، هو رسولٌ من أولي العزم.

٩ ــ وبعد ذلك أكرمه اللَّهَ فبشّرَهُ بِوَلَدٍ آخر يأتيه من امرأته «سارَة» يكون هذا الولد نبيّاً من الصالحين، هو إسحاقُ عليه السلام: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بإِسْحَاقَ نَبِيًّا من الصَّالِحين﴾.

فالذي يحاول من المسلمين التوفيق بين النصوص القرآنية ومقالة اليهود التحريفيّة: أنّ الذبيح هو إسحاق عليه السلام، فإنَّهُ يفسد دلالات نظم القرآن، القائم على كمال الحكمة، والحكمةُ هُنَا ظاهرةٌ في متابعة الترتيب الزمني للأحداث بمنتهى الدّقة.

١٠ ــ وبعد ذلك أبان الله أنه قد بَارَكَ على إسماعيل وإسحاق: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾.

١١ ــ وبعد ذلك جاء الحديث عن ذُرِّيَّة إسماعيل وإسحاق ولدَيْ إبراهيم، فأبان الله أن منهم فريقاً محسناً، وأنّ منهم فريقاً ظالماً لنفسه مبيناً بظلمه لها، لكثرة مفردات ظلمه وعظمها: ﴿وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِين﴾، وَيُفْهَمُ من هذا لزوماً أنّ من ذرّيتهما من هم أيضاً في مراتب ودرجات متفاوتات بينَ مرتبةِ المحسن، وهي المرتبة العليَا، وبين دركة الظالم لنفسه بإسراف.

وهكذا ظهر لنا أنّ الجمل القرآنية في هذا النّصّ قد جاء تتابع ترتيبها على وفق ترتيب ما تضمنَتْهُ من أحداث ووقائع، في حقيقة الأمر.

هـذا هـو الـوضع الـطبيعي الذي يقتضيـه المنطق الفكـري، ويقتضيه عـرض الأحداث.

ولا تكـون مخـالفـة ذلـك إلاَّ بمقتضٍ آخـر، وفي كـلّ الأحـوال يجب فهم النصوص القرآنية وفق ترتيب كلماتها وجملها، ولا يصحّ فيما أرى اللّجوء إلى ادّعـاء أنّ في أيّ نصٍّ تقديماً وتأخيراً ينبغي فهمه بمقتضى ذلك.

* * *

المثال السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧ ﴾.

إنّ اقتراب الوعد الحقّ وهو يوم القيامة للحساب والجزاء يأتي مُـرَتَّباً بعـد فتح يأجوج ومأجوج، إذ الاقتـراب المقصود هنـا هو اقتـرابٌ أخصّ من مطلق الاقتـراب الحاصل منذ بعثة الرسول محمد ﷺ حتى فتح يأجوج ومأجوج.

صحيـحٌ أنّ العـطف بـالـواو لمـطلق الجمـع، لكنّ تـرتيب الجمـل القـرآنيـة والأفكار التي تضمّنتها ترتيب مقصود، والغرض منه هنـا مطابقـة الترتيب في الكـلام للتَّرتيب في الواقع على ما يظهر للمتدبّر المتأنّي الحصيف.

* * *

المثال السابـع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ

زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

ولِتَصْغَىٰ: أي: ولتميل.

● **جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً**: الجعلُ هُنا هو خلق قانون التكوين العام المقترن بحكمة الابتلاء، والذي ينجم عنه بمقتضى حرّية الاختيار الممنوحة للمكلفين الإنس والجن أن يُوجد لكلّ نبيّ عدُوٌّ «أي: أعداء» من شياطين الإنس ومن شياطين الجنّ.

وإذا كان الأنبياء معرّضين بالقانون التكوينيّ العامّ لهذا فالدعاة من المؤمنين أتباع الأنبياء لا بدّ أن يكون لهم أعداء.

إنَّها إحدى ظواهر الاختيار الحرّ والابتلاء للمكلّفين.

وهؤلاء الشياطين من الإنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول من حجج باطلة، مموّهة بما يُزَيّنُها، وآداب مزخرفة مَطْلِيَّة، بما يُحَبّبها للنفوس، ويحسّنُها للأفكار التي ليس لديها مناعة من الإيمان باللّٰه واليوم الآخر.

وهؤلاء الشياطين يكتسبون بطول الممارسة صناعة الغرور والإغواء، فيغترّ بأقوالهم وآدابهم وزخارف حُجَجِهِمْ الْجَهَلَة، والمغفَّلُونَ والذين يُحبُّونَ الحياة الدنيا، ولا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء.

ولمَّا كانت حكمة ابتلاء المكلّفين في الحياة الدنيا تقضي بتمكينِ هؤلاء من السَّعْيِ في الإغواء والتضليل، لتَتَعَادَل الْقُوى الموجبة والقوىٰ السالبة، عِنْد مركز الإرادة الحرَّة المكلّفة المبتلاة، كانوا بحكمة اللّٰهِ مُمُكَّنينَ من إلقاء حبائلهم في الإغواء، واتخاذ وسائلهم في الغرور، ولو شاء الله عزّ وجلّ أن لا يمكّنهم لَمَا مكَّنَهُم من ذلك، لكنّ حكمة الابتلاء لا تتمّ حينئذٍ على الوجه الأمثل.

بمقتضىٰ هذا الشرح نفهم قول الله عزّ وجلّ في النص: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُون﴾.

● وبتهيئة زخرف القول في صناعة الغرور للإغراء والإغواء والتضليل تتمُّ الخطوة الأولى من خطوات الشياطين، وهذه الخطوة قد دلّت عليها الآية الأولى من هذا النصّ.

● أمَّا الخطوة التالية لها، فتكون بمتابعة عرض الأقوال المزخرفة التي أُعدّت بِفَنّيَّةٍ شيطانيّة للإغراء والإغواء، على الذين يمكّنون الشياطين من صَبِّ أقوالهم المسكرة أو المخدّرة في أسماعهم. وقد طويت هذه الخطوة في النصّ، لأن الفكر يمكن أن يكتشفها دون صعوبة، فهي لازم طبيعي، قبل أي تأثُّر بما صنعه الشياطين من زخرف القول.

● ثمّ تأتي مرحلة التأثّر بالغرور المصنوع بمكر الشياطين، وَتَتَنَقَّلُ هذه المرحلة وفق التدرّج التالي:

أولاً: مَيْلُ قلوب الذين لا يُؤمنون بالآخرة، لزخرف القول الذي أعَدَّتْه الصِّناعة الشيطانية، من شياطين الإنس والجنّ، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤمنونَ بالآخرة﴾.

ثانياً: الرضىٰ بمضمون زخرف القول المصنوع، لموافقته للهوى، أو للشهوة، أو لذةٍ من لذاتِ الحياة الدنيا، أو مطمعٍ من مطامعها، أو مطلب من مطالبها. دلّ على هذا قولُ الله عزّ وجلَّ في النصّ: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾.

ثالثاً: توجيهُ الإرَادَة لممارسة اقتراف الموبقات التي أغرىٰ زُخْرُفُ القولِ المصنوعِ بممارستها، وعندئذٍ يتَحَقَّق هذا الاقتراف، دلّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في النصّ: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُون﴾.

وهكذا تبيّن لنا أن نظم النَّصّ قد جاء بحكمة الله مرتَّباً ترتيباً دقيقاً مطابقاً لما يكون عليه الترتيب المتسلسل في الواقع، مع أنّ العطف قد جاء بحرف (الواو) التي هي لمطلق الجمع، والتي يقول علماء النحو بشأنها: لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً.

لكن الله عزّ وجلّ عليهم حكيم، وينبغي أن نفهم آياته على وفق ترتيب جُمَلها وكلماتها، وعلينا أن نستبصر بأناة ورَويَّـــة وطولِ تـأمّل، طمعـاً في أن يَفْتَحَ عَلَيْنَـا، فَيكشفَ لنا حكمته من وضع كلّ كلمة وكلّ جملة في المـوضـع التي هي فيه.

• • •

القاعدة الثالثة عشرة

«حول أنّ القرآن لا اختلاف فيه ولا تناقض، وأنّه لا تناقض بينه وبين الحقائق العلمية الثابتة بالوسائل الإنسانية»

وفيها مقولتان:

المقولة الأولى: القرآن لا اختلاف فيه ولا تناقض.

من الحقائق الثابتة أنّ القرآن المجيد لا اختلاف فيه ولا تناقض، لا بين نصوصه بعضها مع بعض، ولا بين نصوصه والواقع، ومن الواقع الحقائق العلمية.

فعلى المتدبّر لكتاب الله أن يتفكّر ويتأمّل فيما يبدو له من اختلاف أو تناقض في القرآن، بالنظر في سياق النصّ سوابقه ولواحقه، ليفهم كل فكرة ضمن حدودها التي تخرجُها عما قد يبدو لذي النظر السطحي من اختلاف أو تناقض، وتنظمُها في سلك موضوع متكامل.

ومن الحقائق الثابتة أنّ القرآن المجيد متكامل المعاني، يتمّم بعضه بعضاً، ولا ينقض بعضه بعضاً.

ومن الحقائق الثابتة أنّ القرآن المجيد حقّ لا ريب فيه، فلا يمكن أن يختلف مع الواقع في شيء.

كما قال الله تعالى في سورة (النساء/٤ مصحف/٩٢ نزول):

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

أي: لوجدوا فيه اختلافاً عن الحق والواقع، واختلافاً وتناقضاً في دلالات عناصره.

* * *

إنَّ كلّ ما يقال من تخالف أو تناقض أو تضادّ في النصوص القرآنية فهو وهم فاسد، أو ادّعاء كاذب، وأساس الوهم الفاسد فهم خاطىء، وأساس الادّعاء الكاذب مغالطة مقصودة.

ويرجع اختلاف النصوص إلى تكاملها، واحتلالِ كلٍّ منها مساحة من الموضوع العامّ الذي تتحدّث عنه وتعالجه بالبيان.

وباستطاعتنا أن نقول: إنَّ لكلّ موضوع مركّب من جملة أفكار خريطة ذات أبعادٍ وحدود ومقاييس. ولكلّ فكرة من هذه الأفكار رقعة من الخريطة ذات حدود. ويأتي الخطأ من توسيع حدود بعض الأفكار، حتى تأخذ من رقعة غيرها نصيباً ليس لها. وهذا عدوان فكريٌّ على مواطن أفكار أخرى.

وعمل المتدبّر لكلام الله يتم بأن يضع معنى كلّ آية وكلّ جملة في الموضع الملائم له، وعلى مقدار نسبته من ساحة المعاني، فلا يعمّم تعميماً زائداً على المراد، ولا يُخصّص تخصيصاً زائداً على المراد، ولكن يجمع ما اختلف من النصوص حول موضوع واحد، ويؤلّف بينها تأليفاً تامّاً يملأ بها ساحة الموضوع حسب مساحته من خريطته، ويعطي كلّ نصّ منها على مقداره.

* * *

الأمـثـلـة

المثال الأول:

يقول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ

عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾﴾.

ففي هذا النصّ قد يُتوهّم التناقض بين قوله تعالى: ﴿قل: كلٌّ من عند الله﴾ وقوله: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيّئةٍ فمن نفسك﴾.

ولكن المتدبّر الحصيف لكلام الله يلاحظ بالتأمل أن المعنى المراد من النص هو على الوجه التالي:

إنّ ما ينزل بالناس من نعم ومصائب ممّا يحبّون وممّا يكرهون هو من عند الله، وبقضائه وقدره، أمَّا الحسنات منها فمن فضل الله، ومن فيض جوده وعطائه، وأمَّا السيئات منها فبسبب من الإنسان نفسه، إمَّا لأنّ ذنبه هو السبب في استحقاقه العقوبة، وإمَّا لأن تربيته وتأديبه يقتضيان إذاقته بعض ما يكره في حياته من مصائب وآلام، وإمَّا لأنّ امتحانه لا تستكمل صُوره إلاَّ بإصابته ببعض ما يكره. فمصلحة الإنسان نفسه هي التي اقتضت أن يصيبه من الله بعض ما يكره في الحياة.

وأمَّا الجمع بين النصوص الدالة على أنّ من المصائب ما هو للابتلاء، ومنها ما هو للتربية والتأديب، ومنها ما هو للعقاب المعجّل في ظروف هذه الحياة الدنيا، وبين قول الله تعالى في سورة (الشورى/٤٢ مصحف/٦٢ نزول):

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾﴾.

نظراً إلى ما جاء في هذه الآية من تعميم يدل على أن كل المصائب التي أصابت المخاطبين هي بسبب ما كسبت أيديهم.

فهو يتمّ بتخصيص المراد من التعميم الوارد في هذه الآية ضمن أحد وجهين:

الأول: أنَّ هذه الآية تتحدّث عن المصائب العامة التي تشمل أمّة من الأمم أو قوماً من الأقوام، فهذه المصائب التي لها صفة العموم والشمول، إنَّما تكون على

سبيل العقوبة العامّة، بسبب ما كسبت الأمة أو القوم من سيئات ومخالفات، ويعفو الله عن كثير.

الثاني: أن سياق الآية يدلّ على أنّ ما جاء فيها خطاب للمشركين المعاندين، فالمصائب الجماعية التي كانت تنزل بهم قد كانت بسبب عنادهم وكفرهم، ومعصيتهم لله والرسول، ولذلك جاء في الآية التي بعدها قول الله تعالى لهم:

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

* * *

المثال الثاني:

يوجد في النصوص القرآنية ما يدلّ على أنّ الله خالق كلّ شيء، وفيها ما يدلّ على أنّ الله عليم بكل شيء، ما كان وما هو كائن وما سيكون في المستقبل، بما في ذلك أعمال العباد التي يكسبونها باختيارهم الحرّ، وفيها ما يدلّ على أنّ كلّ شيء بقضاء وقدر، وفيها ما يدلّ على أنّ الله لا يكلّف نفساً إلاّ وسعها، وأنّ مسؤولية الإنسان مرتبطة بأعماله الإرادية التي يعملها باختياره الحرّ، وفيها ما يدلّ على أنّ الله حكيم عادل لا يظلم أحداً مثقال ذرّة، وأنّ كلّ نفسٍ رهينة بما كسبت، وأنّه لا تزر وازرة أخرى، وأنّه متى كان العمل صادراً عن غير إرادة الإنسان كان غير مسؤول عنه ولا محاسب عليه، وأنّ أعمال الله وأحكامه منزّهة عن العبث.

ويتصوّر بعض الناس وجود تناقض في بعض هذه النصوص، وهذا التصوّر ناشيء عن كونهم لم يستطيعوا أن يضعوا كلّ نصّ منها ضمن دائرته وحدوده، التي يتوافق فيها وينسجم مع سائر النصوص.

فالنصوص التي تثبت عموم مشيئة الله لا يصح أن نفهمها فهماً يجعلها تطغى على النصوص التي تثبت عموم حكمة الله، وعموم عدل الله وفضله. ومجموع صفات الله عزّ وجلّ تفهم معاً كلاً كاملاً.

والنصوص التي تثبت أنّ الله خالق كلّ شيء لا يصح أن نفهمها فهماً يطغى

على النصوص التي تثبت أن الله لا يكلّف نفساً إلاَّ وسعها، وأنّ المكلّفين لهم مشيئات هم يشاؤونها ويريدونها، ولهم أعمال يعملونها، وأنهم مسؤولون عن مشيئاتهم وعن أعمالهم.

بل على المتدبّر أن يضع خريطة الموضوع الذي عالجته هذه النصوص، ويجمّعها تجميعاً حكيماً منطقيّاً متكاملاً متناسقاً، ويحدّد مفاهيمها تحديداً تبقى معه دلالة كلّ نصٍّ منها دلالة صحيحة.

وهذا ما انتهى إليه أهل السنّة والجماعة في فهمهم السديد، وهو فهم علماء السلف رضوان الله عليهم، على خلاف مذهب المعتزلة الذين سيطرت على أفكارهم نصوص الحكمة والعدل والتكليف فبالغوا قي التطرّف، فعطّلوا مفاهيم النصوص الأخرى، وأوّلُوها على غير وجوهها، وعلى خلاف مذهب الجبريَّة الذين سيطرت على أفكارهم عمومات النصوص التي تثبت أنَّ الله خالق كلّ شيء، وأنَّ الله يفعل ما يشاء ويختار، وتوهمات مفاهيم لنصوص أخرى، فبالغوا في التطرُّف، فعطّلوا مفاهيم نصوص الحكمة والعدل والتكليف، وأوّلوها على غير وجوهها.

* * *

وبناء على هذه القاعدة نقول: لا بدّ أن يتطابق المعنى الصحيح للنصّ الذي تعرّض لبعض الحقائق العلمية مع الحقائق العلمية الثابتة.

وحين لا يلاحظ التطابق فلا بدّ أن يرجع ذلك إمَّا لأنّ ما ادُّعي أنه حقيقة علمية قد كان ادّعاءً غير صريح، وإمَّا لأن ما ادُّعي أنه تفسير قاطع للنصّ قد كان ادّعاءً غير صحيح. وعلى هذا فعلى المخطىء أن يراجع خطأه، ويستأنف بحثه من جديد.

وقد يقضي المنهج السليم بترك الأمر معلّقاً ريثما يتوصل البحث العلمي في الكون إلى الحقيقة النهائية.

* * *

المقولة الثانية: لا تناقض بين القرآن وبين الحقائق العلمية الثابتة بالوسائل الإنسانية.

(أ) مقدمات:

الأولى: القرآن مُنزَّلٌ من عند الله يقيناً، بَلَّغَه أمين الوحي جبريل عليه السلام، لخاتم رسُل الله ﷺ، المؤيّد من الله الذي بيده خرق نواميس الكون وقوانينه الثابتة، بالمعجزات الباهرات والآيات الظاهرات، الدالّات يقيناً على أنّه رسول ربّ العالمين للناس أجمعين. وبلّغَهُ الرسول محمّد للثقات الصادقين الأبرار الأطهار من أصحابه عليهم رضوان الله، وأمر بكتابته حرفاً بحرف وكلمة بكلمة من اختارهم لكتابة وحي الله، وأَمَرَ بتلاوته آناء اللّيل وآناء النهار، ودعا أصحابه وكافة المسلمين إلى حفظه كما يتلوه عليهم، وحفظه كلّه مجموع أصحابه، فلا يَقِلّ الحفّاظ منهم لكل قسمٍ منه عن العدد الذي يبلغ مبلغ التواتر، وعَدَدٌ ليس بقليل منهم حفظ كلٌّ منهم كلَّ القرآن كما أنزل على رسول الله.

وبما أنّ القرآن كلامُ الله الخالق لكلّ شيء، والعليم بكلّ شَيءٍ، فإنّه من المستحيل عقلاً أن يخبرنا الله في كتابه عن بعض ما خَلق أو ما سيخلُق في كونه، بخبر مخالف لواقع ما خلق أو لواقع ما سيخلف، إنّ الله عزّ وجلّ مُنَزَّه عن أن يكذب علينا فيما يخبرنا به، أو يَعِدُنا بأنه سيفعله، إنّه القادر على كلّ شيء، والمبرَّأُ من كلّ نقص، والكذب إنما يصدر عن حاجة أو عجز أو نقص أو عبث والله تعالى منزّه عن كلّ ذلك.

الثانية: منح الله الناسَ أدوات المعرفة ووسائلها، وكلّفهم أن يستخدموها، وجعل ما يتوصل إليه علماؤهم بيقين عن طريق وسائلهم الإنسانيّة، صالحاً للاحتجاج به، والاستناد إليه، والاعتماد عليه.

● فممّا امتنّ الله بِهِ عَلَى النّاسِ بوسائل المعرفة قوله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ تنزيل):

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

أي: خرجتم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم أدوات المعرفة ووسائلها، لتكتسبوا بها علوماً كثيرة، ولتشكروا الله على ما منحكم وفضّلكُمْ بِهِ على سائر من خلق تفضيلاً.

فدلّت هذه الآية على أنّ ما يكتسبه الناس بأسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم (أي: عقولِهم وألبابِهم في عمقِ قلوبهم) هو علْمٌ معترفٌ به إذا استوفىٰ شروطه، وأوصل إلى اليقين الحسّيّ، أو اليقين العقلي.

● وممّا حَمَّل الله به وسائل المعرفة هذه واجبَ اكتساب العلم الذي يُكتسب بها، لأداء وظائف الحياة الدينيّة والدنيويّة، قوله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

ولَا تَقْفُ: أي: ولا تَتَّبِعْ، يقال لغة: قَفَاهُ يَقْفُوه إذا تَبِعه.

فقد دَلَّت هذه الآية على أن أدوات اكتساب العلم وهي: السمع والبصر والفؤاد، كُلَّها مجتمعةً مسؤولةً عن اكتساب العلم اللازم لتأدية وظائف الحياة الدينيّة والدنيوية، ومسؤولة بعد اكتساب العلم عن العمل بمقتضاه، سواءٌ أكان عملاً قلبيّاً كالإيمان، أو عملاً نفسيًّا كالرضى عن الله وترك الحسد، أو عملاً جسديًّا كالصلاة والزكاة والحجّ والصوم والذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك.

● وقد أمر الله بالنظر فيما خلق في السماوات والأرض والأنفس، للتوصّل إلى آيات وجوده وخلقه وآيات وصفاته، وحمّل أدوات اكتساب المعرفة في الناس مسؤوليّة ذلك، واعتبر ما تتوصّل إليه بيقين علماً مقبولاً يُحْتَجُّ به.

فقال عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ... ﴿١٨٥﴾ ﴾.

وهذا النظر المطلوب هو نظر بالحسّ وبالفكر للتوصّل إلى معرفة أيات صفات الله عزّ وجلّ فيما خَلَقَ وَبرَأَ وأَتْقَنَ وَأَبْدَعَ وَأَحْكَمَ.

● واعتبر الله شهادة العلماء على وَحْدانيته وقيامِه بالقسط، وعزّتِهِ الغالبة، وحكمته في الخلق والأمر والحكم والقضاء والتدبير من الحجج المثبتة لهذه الحقائق من حقائق الإيمان، فقال عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

ووصف الله عزّ وجلّ القرآن بأنه حقٌّ لا يأتيه الباطل من بين يديه (أي: مما سبق نزوله) ولا من خلفه (أي: مما يأتي بعد تنزيله) فقال تعالى في سورة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾.

عَزِيزٌ: أي: قَوِيٌّ في الحقّ غالبٌ غير مغلوب.

الثالثة: بناءً على ما سبق فإنّ العلم الحقّ الذي يتوصّل الناس إليه بوسائلهم الإنسانية، لا بُدَّ أن يُطَابِقَ الخبر الصِّدْق الذي جاء به الوحي من عند الله، إذا تواردا على موضوعٍ واحدٍ وفكرةٍ واحدةٍ.

فأدوات اكتساب المعرفة من خلق الله، والكونُ من خلق الله، وآياتُ التكليف بالنظر في الكون لاكتساب العلم من وحي الله، وآيات اعتبار ما تتوصَّلُ إليه وَسائل

المعرفة الإنسانية علماً من وحي الله، والآيات المتضمّنة بيانات عن بعض ما في الكون من وحي الله، وما هو من عند الله أو بأمر الله لا يمكن أن يُناقض بعضه بعضاً، إذا كانت الطرق فيه متواردة على موضوع واحد. أمّا إذا اختلف التوارد على جزئيات متعدّدات، فلا بدّ أن تتكامل المعرفة التي تقدّمها الطُّرُقُ المختلفة. كالشيءِ الواحد يُقَدِّمُ عنه السَّمعُ حقيقة تتّصل بالصوت، ويقدّم عنه البصر حقيقة تتّصِلُ بِمَا يُحِسُّ به البصر، ويُقَدِّمُ عنه اللّمس حقيقة تتّصِلُ بما يُدْرِكُهُ حِسُّ اللّمس، ويقدّم عنه الذوق حقيقة تتصل بالطعوم، ويقَدِّمُ عنه الشَّمّ حقيقة تتّصِلُ بالروائح، وهذه الطُّرُقُ الإدراكيَّةُ متكاملة فيما بينها غير متناقضة.

كذلك شأن خبر الوحي، وشهادةِ أدوات المعرفة الإنسانية إذا كان نقل الأول بطريق يقيني، وإدراكُ أدوات المعرفة بطرق يقينية. فإذا تواردا على جزئية واحدة فلا بدّ أن يتطابقا عند اتّحاد الموضوع من كلّ الجهات، أو يتكاملا إذا اختلف الموضوع ولو من بعض الجهات. والتناقض لا يمكن أن يحدث إلّا ضمن واحد من الاحتمالات التالية:

الاحتمال الأول: أن يكون ما توصلت إليه أدوات المعرفة الإنسانية ووسائلها لم يصل بعد إلى أن يكون حقيقة علميّة، بل ما زال:

- إمَّا ظنًّا راجحاً قابلاً للتعديل والتبديل، أي: «نظرية» بحسب مصطلح علماء البحث الكوني، فلم يقل العلماء فيه الكلمة الأخيرة النهائية.

- وإمَّا ظَنًّا متردّداً بين احتمالين أو احتمالات متكافئة.
- وإمَّا ظنًّا مرجوحاً لم يقترن بعد بأيّ دليل يقوّيه حتى يجعله مساوياً لنقيضه أو راجحاً عليه.

وهذان الأخيران هما ما يطلق عليه اسم «فرضية» في مصطلح علماء البحث الكوني.

وهذا الاحتمال بأقسامه الثلاثة لا يصلح لأن يقف في مواجهة خبر الوحي الذي يُقَدِّم معرفةً يقينيَّةً، حول الموضوع نفسه الذي قدّم عنه هذا الاحتمال فكرته.

الاحتمال الثاني: أن يكون الخبر المنسوب إلى الوحي لم يصل إلى مستوى اليقين العلمي.

مثل خبر الآحاد فما دونه، ممَّا لم تثبت صحته بيقين.

الاحتمال الثالث: أن يكون فهم خبر الوحي فهماً لم يصل إلى مستوى اليقين القطعيّ، بل هو اجتهاد ظنّي.

مثل فهم قول الله عزّ وجلّ عن الأرض: ﴿دَحَاها﴾ و ﴿طَحَاها﴾ بمعنى جعلها مبسوطة، أي: لا كصخرة كبيرة شبه مُدَوّرة، فالبسطُ تفسير ظنّيٌّ اجتهاديٌّ، لا تفسيرٌ يقيني، وهو قابل للتعديل، وبالتعديل يمكن أن يُفهم النّصّ بمقتضى حقيقة علميّة تثبت بيقين، واللفظ القرآنيُّ يُساعد على ذلك بقوّة، كما بيّنتُ ذلك في غير هذا الموضع.

* * *

(ب) ما ينبغي لمتدبّر كلام الله حول ما توصلت إليه البحوث العلمية الإنسانية:

ينبغي لمتدبّر النصّ القرآني بعمق أن ينظر إلى ما توصّلت إليه البحوث العلمية الإنسانية في الموضوع الذي يعالجه النصّ، ليكون على علم بنتائج البحوث الإنسانية، ما كان منها حقّاً مؤكداً، وما كان منها دون ذلك ممّا هو عرضة للخطأ والصواب، ومما هو مرفوض ظاهر الخطأ.

فمن شأن هذا النظر أن يجعل المتدبّر للنصّ أكثر وعياً، وأوسع نظراً، وأجود فهماً، وحسبه أن يستبعد الاحتمالات التي انكشف بطلانها وعدمُ صحتها، وأن يأخذ بالاحتمالات التي غدت يقيناً علميّاً أو قريبة من اليقين العلمي، وأن يرجّح منها ما كان في نظر البحث العلمي راجحاً دون جزم ولا قطع به.

ولمّا كان من المقطوع به أنه لا يمكن أن تتعارض دلالة قرآنية صحيحة مع حقيقة ثابتة، كان من الواجب متى ثبتت حقيقة ما ثبوتاً قطعيّاً فَهْمُ النصِّ القرآنيّ

الذي تحدّث عنها أو أشار إليها بما ينسجم معهـا. وبعد هـذا فمن الخير أن تُشـطب الاحتمـالات المخالفـة التي أوردها المفسّـرون، هذا بشـرط الوصـول إلى الحقيقـة النهائية علميّاً. أمّا ادّعاء الوصول إلى الحقيقة النهائية دون برهان قطعي فإنه لا يلغي الاحتمالات المخالفة، بل يظل الفهم النهائي للنصّ غير مجزوم به.

وما صار من الحقائق العلمية التي لا تقبل النقض مما تناولته النصوص القرآنية بالتصريـح أو بالإشارة، فعلى متـدبّر كـلام اللهأن يكون على علم بـه، حتى لا يؤوّل النص القرآني تأويلاً تثبت الحقيقة العلميـة فَسَادَه، ومخـالفته للواقـع، وهو بصنيعـه هـذا المستنـد إلى جهله بـالحقيقـة يعـرّض القـرآن الكـريم لـطعن أعـداء الإسـلام وخصومه الكثيـرين، وَيَفْتِنُ أبناء المسلمين عن دينهم، إذْ يجعـلُ القرآن في نـظرهم مشتملاً على مفاهيم تثبت الحقائق العلمية خطأها، مع أنّ الخطأ لم يكن من النصّ القـرآني، ولا يُمْكِنُ أن يكون منـه بحال من الأحـوال، وإنمـا كـان من الـذي حَمَله بجهله وعدم اطّلاعه على تأويل خاطىء. مع أنّ القرآن حقٌّ كلّه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكل فهم للقرآن مخالف للواقع هو فهم خـاطىء، لا يحمل القرآن وزره، وإنّما يحمل وزره صاحب الفهم الخاطىء والتأويل الفاسد.

وفي الطرف المقابل نجد الذين ينزلقون مع كلّ نظريّة أو فرضية حديثة يقولهـا علماء البحث الكوني، قبل أن تصبـح هذه النظرية أو الفرضية حقيقة علمية، وبهـذا الانـزلاق يحاولـون تأويـل النصوص القـرآنية تـأويلات تتفق معهـا، ويعتبرون ذلـك هو التأويل الصحيـح، وربّما تكون تأويلاتهم شاذة وبعيـدة جداً، ولا يحتملهـا سموّ الأسلوب القرآني البليـغ.

وبهـذا تكـون النصـوص القـرآنيـة عـرضـة لتجـديـد التـأويـل كلّمـا جـدّ في العلم جديد.

ومن الخير في هذا إبقـاء النصّ على احتمالاتـه التي يصلح لأن يدلّ عليهـا، ويبقى البتّ معلّقاً حتى يقول العلم الإنساني في الموضوع كلمته الأخيرة.

وظاهر أنّ هذا خاصّ في الآيات الكونيّة التي تركها الدين في الأصل للبحث والتتبع الإنساني، وقد أشار إلى بعضها، أو أعطى فيها قواعد عامة.

أمَّا ما هو من خصائص الدين كالعقائد والعبادات والأخلاق، وتفسيرات الظواهر الكونيّة تفسيرات تتصل بالإيمان بالله عزّ وجلّ، وأحكام المعاملات وسائر الشرائع، وكذلك ما لا يستطيع العلم الإنساني أن يتوصل إليه، كحقائق اليوم الآخر، وحقائق بدء الخلق، وأنباء الغيب، ففهم النصوص القرآنية فيها يخضع للأصول التي بينها فقهاء المسلمين وعلماؤهم، ولا يحتاج المتدبّر لكلام الله أن يكون على علم بمذاهب الناس فيها، وإن كان بعض المطّلعين عليها قد يكونون أوسع أفقاً، وأكثر إدراكاً، ما لم يكونوا قد تأثروا فكريّاً أو نفسيّاً بمذاهب الناس فيها. أمّا الذين تأثروا بمذاهب الناس فإثم ما اطّلعوا عليه بالنسبة إليهم أكثر من نفعه، لأنّهم سيلوون أعناق النصوص القرآنية وأقوال الرسول ﷺ بتأويلات لا تحتملها، حتى تتفق مع المذاهب التي تأثّروا بها، ونظير هذا نشاهده عند الذين تأثروا قديماً بالفلسفة اليونانية، وعند الذين تأثروا بالمذاهب الفكريةالحديثة، والنظريات العلمية المعاصرة التي لم تصل إلى مستوى الحقيقة، ونشاهده أيضاً عند المتعصبين لمذاهبهم الفقهية، أو طرائقهم وفرقهم، فمن تأثر بمذهب وتعصب له، زيّنت له نفسه تصيُّدَ أَيَّة فكرة لدعم مذهبه، وقد يجنح فكره عن الفهم الصحيح، لأنه لا يكون في حالة نفسية متجرّدة. مع أنّ الحقّ والبحث عنه يفرض على الإنسان أن يكون متجرّداً عن أي مؤثر يتدخل فيه عامل من عوامل الهوى أو التعصب، لا سيما لدى تدبّر كلام الله عزّ وجلّ، وفهم دين الله وأحكامه وشرائعه لعباده.

* * *

والحقيقة القطعيّة في هذا المجال تتلخّص: بأنه لا يمكن أن يوجد نصّ دينيٌّ قطعيُّ الثبوت قطعيُّ الدلالة يتناقض مع حقيقة علمية مقطوع بها، قد قال العلم الإنسانيُّ فيها كلمته الأخيرة، استناداً إلى أدلّة قطعيّة، أثبتتها أدوات المعرفة الإنسانية، ووسائلها.

وخلاصة المنهج الذي ينبغي اتباعه في هذا المجال يمكن تلخيصه بالعناصر التالية:

١ ــ إذا ثبتت حقيقة علمية بأدواتِ ووسائل البحث العلمي الإنسانيّ ثبوتاً قطعيّاً، وقد تعرّض لَهَا القُرآن ببيان ما، وجب فهم النصّ أو النصوص القرآنية بمقتضاها.

ومن المؤكد أنّ المتدبّر للنصوص القرآنيّة الواردة حول موضوع هذه الحقيقة العلمية في جزئيّتها المقرّرة ــ إذا جمع النصوص القرآنية من مواضعها في القرآن ــ لنْ يجدَ أيّة صعوبة في فهمها بما يتطابق مع هذه الحقيقة العلميّة الّتي ثبتت قطعاً، بل سيجد النصوص دالّة عليها بقوّة، وربّما تكون دلالتها دلالة مباشرة لا تحتاج تأويلات ولا تخريجاتٍ تعسّفِيّة، وإنّما تحتاج بصيرة استنباطية، قائمة على جمع مختلف النصوص، وفهمها مجتمعةً جملةً واحدة.

٢ ــ إذا قدّم علماء البحث العلميّ بأدواتهم ووسائلهم الإنسانية، نظريَّةً من النظريات ذات رُجحانٍ ظَنّي، وذات نفع في مجال التطبيقات العملية، ولم يقل العلماء حولها الكلمة الأخيرة القطعيّة بالأدلّة والبراهين القطعيّة، وقد تعرَّض لها القرآن ببيانٍ ما، فالمنهج كما يلي:

إذا كان النصّ القرآنيّ يحتمل التفسير ضمن ضوابط فهم النصوص العربية، بما يتفق مع هذه النظرية، فلا مانع من جعل تفسيره بما يتّفق معها أحد الاحتمالات التي يمكن أن يُفهم النصّ بمقتضاها، ولكن دون جزم ولا قطع، وتظلُّ الاحتمالات الأخرى التي يحتملها النصّ مفتوحة ومطروحة، حتّىٰ يأتي اليقين العلميّ الذي تقرّره أدوات ووسائل البحث العلمي الإنسانية.

٣ ــ إذا قدّم علماء البحث العلمي أو بعضُهُم فرضيَّةً من الفرضيات (الفرضية: هي الطرح الاحتمالي الذي لم يصل إلى مستوى الترجيح حتى يكون نظرية) حول موضوع من الموضوعات التي تعرّض لها القرآن ببيانٍ ما، فليس على

متدبّر النصّ القرآني أن ينظر إلى هذه الفرضيَّة بأكثر ممَّا ينـظر إلى أيّ احتمالٍ آخـر يمكن أن يُفهم النصّ بمقتضاه.

٤ ــ إذا كـان النصّ القرآني لا يمكن حمله بمقتضى قـواعـد فهم النصـوص العـربية على معنى ينـاسب النظريّـة أو الفرضيّـة، فليس من حق متدبّـر كلام الله أن يُطَوّعه بهواه، ليقبل الدلالة على ذلك، أو يكرهه إكراهاً بتأويلات متعسفة.

٥ ــ لا يجوز بحال من الأحوال جعل النّصوص القرآنية ألعوبة بأيدي ناصري النظريات أو الفرضيات التي يقول بها علماء البحث العلمي الإنساني.

والحدود المسموح بها هي التي جاء بيانها في بنود المنهج السابق.

وعلى متدبّر كلام الله أن يكون شـديد الحـذر من المزالق الخـطرة، الّتي تَجُرُّ إلى فهم كلام الله على غير ما أذن اللَّهُ بِهِ في تَدبُّرِ قرآنه.

• • •

القاعدة الرابعة عشرة

«حول اقتضاءات النّصّ ولوازمه وروابطه الفكرية ومحاذيفه التي حذفت منه للإيجاز والتّضمينات التي يُضَمَّنُها»

من المعـاني ما يـدلُّ عليها النصّ القـرآني دلالة مبـاشرة منصـوصاً عليهـا فـي اللفظ، ومنها معانٍ تُستفاد لزوماً، ويقتضيها النصّ اقتضاءً، دون أن يكون فيـه ألفاظٌ خاصة تدلُّ عليها.

وكثيراً ما يطوي البلغاء فـي كلامهم معاني يريدون الإعلامَ بها، دون أن يكون فـي النّصّ ألفاظٌ صريحةٌ تدلُّ عليها دلالةً واضحة.

* * *

والقـرآن المجيد فيـه إيجاز كثيـر يدركـه أهل التـدبّر العميق، والنـظر الدقيق، والبصيرة النافذة الكاشفة.

على أن القَدْرَ الذي يفهمه منه المتدبّر السطحي كافٍ لهدايته، ولكنه لا يصل إلى ما يحتوي من معانٍ عميقة، ودلالات دقيقـة، وهذه المعـاني والدلالات هي من المعاني الظاهرة لا الباطنة، إلّا أنّ رؤيتها مـن الـظاهـر تحتـاج إلى بصيرة كـاشفة، ومقدارٍ من الفهم واسعٍ، وتأملٍ طويل.

وأُسمِّي هذا العمق القرآني[1].

---

(١) من دقّـة بعض الدلالات القـرآنية عـلى بعض المعاني، يتخـذ أهل الضـلال البـاطنيّـون حيلةً يزعمون فيها أنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، ثم يتـلاعبون بـالباطن عـلى وفق أهوائهم، ومـا يوحي إليهم به شياطينهم.

والعمق القرآني الذي يحوي معانيَ وافرةً جداً يأتي من عدّة أسباب، منها الأسباب التالية:

الأول: المحاذيف التي تحذف للإيجاز، ويقتضيها معنى النصّ، أو يستدعيها التوازن والتناظر والتكامل فيه، أو غير ذلك، ويبقى المعنى بعد ذلك صحيحاً إلّا أنه جزء من المعرفة التي يدلّ عليها السطح والعمق معاً.

الثاني: اللّوازم الفكرية، والكنايات البعيدة ذوات الدلالات البعيدات.

الثالث: عدم الإشارة باللّفظ إلى الترابط المنطقي بين معاني الجمل، أو إلى الترتيب الزماني أو المكاني بين الأحداث، أو غير ذلك من أمور، مع إبقاء كل جملة في محلّها الطبيعي.

ولو أنه جاءت الإشارة الصريحة إلى هذا الترابط، أو هذا الترتيب بلفظ دالّ، لخرج المِعنى من العمق إلى السطح.

ولكن يفقد النصّ بذلك عاملاً من عوامل جدّته في نفس التالي له عند كلّ تدبّر.

الرابع: دلائل المفهوم المخالف لمنطوق النص، والمفهوم الموافق له، وما يشير إليه النصّ من طرف خفيّ.

الخامس: القياس على ما جاء في النص، باعتبار أنّ ما جاء فيه مَثَلٌ يُقاس عليه أشباهه ونظائره، استهداءً بقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر / ٣٩ مصحف / ٥٩ نزول):

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

فعلى متدبّر القرآن أن يضع في ملاحظته دائماً فكرة العمق القرآني، ليزيد أناةً ورويّة لدى تدبّر آياته.

فرؤية النصّ القرآني من متدبّر إلى متدبّر آخر أكثر منه بصيرة، وإدراكاً للجزئيات، وإدراكاً لظلال النصّ، وإدراكاً لما بيّن كلماته وسطوره، وإدراكاً

لمقتضياته ولوازمه، وروابطه الفكرية ذات السلاسل المتعددة، تختلف اختلافاً عظيماً، ينتج عنه اختلاف كبير في مقدار الإدراك للدلالات، ومقدار الفهم للمعاني.

كاختلاف رؤية المدينة من ارتفاع عشرين ألف قدم أو أكثر في الطائرة، ودون ذلك، حتّى ارتفاع أقدام لا تزيد على المئة، مع بُطْءٍ في السرعة يسمَحُ بالتأمّلِ في الجزيئات، والوقوف عندما يريد منها لإمعان التأمّل، وإدامة النظر بغية اكتشاف الدقائق.

* * *

فعلى دارس أيّ نصٍّ بليغ، أنْ يُعْمِلَ ذكاءه، ويُمعن النظر في استنباط المضامين الفكريّة، التي تستفاد من النصّ عن طريق اللزوم الفكري، أو الإشارات الضمنيّة للكلام، بما فيها من تلويح، أو تلميح، أو تعريض، أو كناية، أو غير ذلك.

* * *

وعلى متدبّر النصّ القرآني أن يبحث عن كل محذوف من النصّ للإيجاز، يستدعيه المعنى، أو توازن النصّ وتناظره، أو يوجد في اللّفظ المذكور ما يدلّ عليه، أو يكون من لوازمه، أو سبباً أو شرطاً أو نتيجة له، أو تقتضيه الروابط العقلية، أو نحو ذلك.

ويحسن بالمتدبّر لدى شرحه للنصّ أن يبرز المضامين والمحاذيف، ويدُلّ على المواطن الكلاميّة، واللوازم والروابط الفكريّة، والاقتضاءات العقلية، التي هدته إليها.

* * *

إنّ التدبّر الاستنباطي أمرٌ اختصّ الله بِهِ بعض المتدبّرين من أهل العلم

والتفكير العميق، والتأمل الدقيق، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤مصحف/ ٩٢نزول):

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾.

* * *

وأفصّل هذه القاعدة في ثلاث مقولات:

المقولة الأولى: نظرة عامّة حول المعاني التي تُستفاد من النّصّ لزوماً، ويقتضيها النصّ اقتضاءً، مشروحة بالأمثلة.

المقولة الثانية: حول المحاذيف للإيجاز، من خلال الشواهد القرآنية.

المقولة الثالثة: حول ظاهرة التضمين، من خلال الشواهد القرآنية.

* * *

المقولة الأولى

نظرة عامّة حول المعاني

التي تُستفاد من النصّ لزوماً ويقتضيها النصّ اقتضاءً

مما يقتضيه النصّ سؤالٌ ذكر جوابه دون أن يُذكر، وجواب ذكر سؤاله دون أن يُذكر، واعتراضٌ ردّ النصّ عليه دون أن يُذكر في اللفظ، لكنّه ملاحظٌ ذهناً، وتتمات يستدعيها اللّزوم العقلي وقد سكت النصّ عنها، ومحذوفات دلّ علها التناظر والتوازن والتكامل أو دلّ عليها حرف كالفاء الفصيحة في نحو قوله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ ... ﴿١٦٠﴾ ﴾.

أيّ فضرب موسى بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً.

انبجست: أي انفجرت.

أو دلت عليها تعدية فعلٍ أو شبهه على خلاف التعدية المعروفة في أساليب العرب، مثل قوله تعالى في سورة (الأعراف) أيضاً:

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

أي ما منعك عن السجود وحملك على ألاّ تسجد؟ أو: ما منعك عن السجود حاملاً لك على ألاَ تسجد؟

وجاء استيفاء شرح نظائر هذا النص في المقولة المخصصة لظاهرة التضمين.

ومما يقتضيه النصّ جدليات مطويات جاءت الإشارة الخفيفة إليها، مثل الجدليات التي أشار إليها قول الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣مصحف/ ٩٦نزول):

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

ففي هذه الآية يعلّم الله نبيّه محمداً كيف يجادل المشركين ليردّهم بالبرهان القاطع إلى توحيد الألوهية. ولكنّ النص في الألفاظ المذكورة لم يشتمل إلاّ على المفاتيح الفكرية لهذه المناظرة، وقد طوى فيه أشياء كثيرة تقتضيها المناظرة، وهذه الأشياء يستطيع الرسول ﷺ إدراكها دون أن يصرّح له بها، كما يستطيع ذلك العلماء الذين آتاهم الله القدرة على الاستنباط.

(انظر في شرح هذه الآية ما كتبتُ حول تفسير سورة الرعد)

* * *

إنّ على متدبّر كلام الله عزّ وجلّ أن يكون متأنّياً عميق التأمل، كثير التّفكر، ليكتشف ما يقتضه النصّ باللوازم الذهنيّة.

- فذكر الملزوم دليلٌ على لازمه، مع إرادتهما معاً.
- وذكر اللازم دليل اللازم على الملزوم، مع إرادتهما معاً.
- وذكر المسبَّب دليل على سببه.
- وذكر السّبب دليل على مسبَّبه.
- وذكر النتيجة دليل على المقدّمة أو المقدّمات.
- وذكر المقدّمة أو المقدّمات دليل على النتيجة.
- وذكر العاقبة دليل على مقتضياتها.

إلى غير ذلك من نظائر هذه الأمور.

* * *

الأمثلة

المثال الأول:

لقد سمى الله القرآن ذكراً، اعتباراً بالمطلوب بالنسبة إليه، بعد العلم بما جاء فيه، أي: يُقَدِّمُ لمتلقّيه في أول تلقيه له عِلْماً، ثُمّ عَلىٰ المتلقّي أن يجعلَهُ في ذُكْرِهِ دَوَامَاً، وأن يجدّد تذكره عند كلّ مناسبةٍ تستدعي ذلك، فهو ذكر للعالمين.

فحين يُوصفُ القرآن في آياته بأنّه ذكر للعالمين، فعلينا أن نفهم أنّ الواجب بالنسبة إليه أن نَعْلَمَهُ أوّلاً، ثُمّ نذكُرُ ما فيه دواماً، لأن الله عزّ وجلّ يطالبنا باعتقاد عقائده دواماً، وبالتزام أخلاقه دواماً، وبالعمل بشرائعه دواماً وهذا لا يكون إلا بذكره دواماً عند كل مناسبة تستدعي ذكره.

* * *

المثال الثاني:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧مصحف/ ٣٣نزول):

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١﴾.

أي: وإذا الرسل من الملائكة كُلّفَتْ وَظَائِفَهَا لِتَقُومَ بِهَا يومَ الدين، وَحُدّدَتْ لَهَا أَوقَاتُ أَعْمَالُها. فَتَحْدِيدُ أَوْقَاتِ عمَلُهَا يَسْتَلْزِمُ عقلاً أن تكون قد كلفت قبل ذلك أن تقوم بهذه الأعمال يوم الدّين، فاستغنى النصّ بذكر تأقيت الرُّسل، عن بيان أنّ هذا التأقيت هو بيان وقت عملهم الذي يُكلّفونَ القيام به يوم الدين، وهذه لقطة إيجاز رائعة.

* * *

المثال الثالث:

قال الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الشرح/ ٩٤مصحف/ ١٢نزول):

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾.

أي: فإذا أفرغت من عمل فاعمل في طاعةِ ربّك عملاً آخر حتّى تَصِلَ بِعملِكَ إلى مستوى النّصَبِ، وهو التعب، فاستغنى النص بذكر المسبَّب عن ذكر سببه المطلوب في الأمر التكليفي.

* * *

المثال الرابع:

قول الله عزّ وجلّ لِرَسُوْلِهِ في سورةِ (الأحزاب/ ٣٣مصحف/ ٩٠نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

فذكر الله عزّ وجلّ في هذا النصِّ من صفات النبيّ ﷺ ومُهمات رسالته أنّه شاهد، أي: شاهدٌ على أُمّته يوم القيامة بأنّه قد بلّغ الرسالة، وأدّى الأَمَانة.

لكنّه لا يصح أن يكون شاهداً حتى يكون قد بلّغ الرسالة فعلاً، فمن صفاته ومن مهامّ رسالته، أنّه مبلّغٌ عن الله ما أمره الله بتبليغه للناس.

فيلزم عقلاً من تكليفه أن يكون شاهداً، تكليفُهُ أن يكون مبلّغاً رسالة ربّهِ، ولو لم يكن مبلّغاً لما صحّ أن يكون شاهداً على أمّته، إذْ لا يوجد رسولٌ غيره أيّام رسالته حتى يكون شاهداً على تبليغ ذلك الرسول أمّته ما أمرَ الله بتبليغه.

فاكتفى النصّ بذكر الملزوم ليكون دليلاً على إرادة لازمه العقليّ معه.

وفي ذلك تدريب للمسلمين على استخدام عقولهم في استنباط المعاني من الدلالات العقلية، ولو جاءت في قوالب الألفاظ.

فالرّسول ﷺ بموجب هذا النصّ مُبَلِّغٌ، بدلالة كونه شاهداً.

ونظيره قول الله عزّ وجلّ خطاباً للمؤمنين في سورة (البقرة/ ٢مصحف/ ٨٧نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

أي: لتكونوا مبلّغين ما بَلّغَكُمْ إيّاه الرسُول، حتّى يصحَّ أن تكونوا شهداء على الناس يومَ القِيامَة، بِأنّكم بَلَّغْتُمُوهُمْ رِسالة ربِّهِمْ.

وسيراً مع النصّ في التدبّر نقول:

إنّا أرْسَلْنَاكَ شَاهِداً: أي: مبلّغاً رسالة ربك. وجميعَ ما أُنْزِلَ إليْكَ، لمن تستطيع أن تُبَلِّغَهم من النّاس، لتكون يوم الدّين شاهداً عليهم بأنّك قد بلّغتهم ما حُمِّلْتَ من أمانَةِ التبليغ.

وهذا يُفْهَم لزوماً، لِأنه لا يكون شاهداً عليهم إلاّ بشيء هو من وظيفته، ومن أوّل وظائفه تبليغ رسالاتِ ربِّهِ.

وليست هذه الشهادة في الدنيا، إذن فلا بدّ أن تكون يوم الدّين، لكنَّها لا تكون يوم الدين إلاّ بالاستناد إلى الشهود أي: المشاهدة التامّة في الدنيا.

ومبشراً: أي: بنعيم الجنّة لمن آمن وأطاع؛ وبالدرجات العاليات فيها لمن اتّقى، وبالمراتب الرفيعة لمن كان من الأبرار، وبالفردوس الأعلى لمن كان من المحسنين المقرّبين الأطهار الأخيار.

وَكُلُّ هذا يُفْهم لُزوماً بعد تدبّر ما اشتمل عليه القرآن من وَعْدٍ وبُشْرَيَات.

ونذيراً: أي: بعذاب النار، لمن كفر ولمن عصى، وبالدّركات السّافلات فيها لمن طغى وبغى وتجبّر مع كفره، وبالدَّرْكِ الأسفَلِ منها، لمن كفر باطناً ونافق ظاهراً، ومكر بالإسلام والمسلمين.

وقد سبق في مراحل التنزيل آيات كثيرات فيها وعد وبشائر، وآيات كثيرات فيها وعيد وإنذارات.

وداعياً إلى اللَّهِ بِإِذْنِهِ: أي: داعياً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فهذا هو الذي أذن به في الدعوة إلى سبيله، كَمَا سَبَقَ أن بَيّنَ لَهُ في سُورة (النحل/ ١٦مصحف/ ٧٠نزول) بقوله عزّ وجلّ:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾.

وسِرَاجاً: أي: مُضِيئاً تَهْدِي بِذَاتِك، ولازم هذا التشبيه له بالسّراج يفيد أنّه قُدْوةٌ حسنة للناس، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول) نفسها قبل النصّ الذي نتدبّره:

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾.

منيراً: مؤثراً في غيرك بضيائك، حتى يكون غيرك ذا نورٍ يهدي، كما تؤثر الشمس بضيائها في القمر فيبعثُ نوراً. ونفهم هنا أن لفظ [منيراً] هو من فعل [أنار] المتعدّي، أي: جعل غيره ذا نور، ليكون اللفظ دالاً على معنى جديد، إذ كلمة [سراجاً] تُفيدُ أنه يَبْعَثُ ضَوءاً.

وهذا اللازم الذي يتوصل إليه الإدراك الدقيق العميق، إنّما يُفهم بعد معرفة حقيقة استمداد القمر نوره من الشمس، وفهم وصف الشمس في القرآن بأنّها سراج ذات ضياء، ووصف القمر بأنّه نورٌ، أي: ذو نور.

ونتنقّل مع اللوازم الفكرية فنفهم أنّ من أصحاب رسول الله ﷺ من صار ذا نور مستَمَدٍّ من ضياء رسول الله بصحبته له، فهم أقمار هداية لغيرهم ممن عاصرهم من الصحابة ومن التابعين، وأقْمَارُ هِدايَةٍ لمن درس تاريخ حياتهم.

* * *

المثال الخامس:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣مصحف/ ٩٠نزول) بشأن المنافقين:

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ... (١٩)﴾.

نلاحظ في هذا النصّ أنّه حصل الاكتفاء بذكر مجيء الخوف، ومعلومٌ أنّه لا يجيء الخوفُ إلى النفوس إلاّ إذا جاءت دواعيه ومسبّباته، كمواقف القتال التي يَغْلِبْ على الظّنّ فيها التّعرّضُ للقتل أو القطع أو القرح.

والسبب هنا لازم ذهناً للمسبَّب، إذن فالخوف ملزوم في التّصوّر، ودواعيه لازمه في التصوّر، وإن كان اللازم هنا سبباً والملزومُ مُسبَّباً.

ولدى شرح النص نقول:

فإذا جاءت دواعي الخوف كموقف القتال، أو الدعوة إلى الخروج إلى مواجهة جيش العدو ومُقاتلتِهِ، تَملَّكَهُمُ الخَوْفُ، وهزّ قلوبهم، وأزعَجَ نُفوسَهم، فرأيتَهُمْ يَنْظُرُونَ إليك تدور أعينهم كالذي يُغْشَى عليه من الموت.

* * *

المثال السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥مصحف/ ٤٣نزول):

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ... (١٠)﴾.

أي: من كان يريد العزّة فليؤمن بالله، وليطلُبْها منه، وليسْلُكْ سبيل الوصول إليها عن طريق مرضاته، فلِلَّهِ العزّة جميعاً.

فجواب شرط «مَن كان يريد العزّة» الذي جاء بصيغة: «فللّه العزّةُ جميعاً»

يستلزم عقلاً التوجيه لطلبها عند من يملكها، ولمّا كـانت العزّة كلُّهـا لله تعالى فَعلىٰ من يُريدها أن يطلبها منه عزّ وجلّ، وطلبُها يكون بالإيمان بـه والإسلام لـه، وسلوك السبيل التي ارتضاها لعباده، والعمل بمراضيه، وسؤاله النصر والتأييد، والاستعانة به وذكرِه كثيراً.

* * *

المثال السابـع:

قول الله عزّ وجلّ فـي سورة (البقرة/ ٢مصحف/ ٨٧نزول):

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

إنّ جملة: [فمن تَبعَ هُدَايَ فَلاَ. . .] جُعِلتْ فـي الظاهـر جوابـاً لجملة الشرط الأولى: [فإمّا يـأتِيَنّكُمْ مِنّيْ هُدَى] لكنّها فـي الحقيقـة دَلّت عن طريق اللزوم الـذهني على جملة الجواب المحذوفة، وَلَا يصعُب على أوساط المتدبّرين لكـلام الله فَهْمُها وتقديرُها.

إنّهم يستطيعون بقليل من التأمل الذهنـي أن يُدركوا أنّ المـراد: فإمّـا يأْتِيَنّكُم مِنّي هُـدى فيجب عليكم اتباعـه والتزامـه والعمل بـه، فمن تبـع هُـدايَ فـلا خـوف عليهم، أي: يوم الدين، يوم الحساب والجزاء، ولا هُمْ يحزنـون، أي: على شيء فاتهم فـي الحياة الدنيا.

وكذلك قوله تعالى في هذا النص: ﴿فتلقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّـهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: فأتمهَّنّ وعمل بما جاء في مضمونهنّ فتاب عليه.

* * *

وهكـذا تدلّ المعـاني على لوازمهـا الذهنيـة، وعلى ما يـرتبط بها من أفكـار، فيحصُـل بسبب ذلـك الاستغنـاء ببعضهـا عن بعض، ويـدلّ بعضها على بعض فـي

أساليب الكلام، وَيَسْتَخْرِجُ أهل الاستنباط وَلَمَّاحُو المفاهيم الدقيقة بالذكاء، من لوازم المعاني وروابطها الفكرية ما لايستنبطه الآخرون، وبسبب ذلك يكتفي البلغاء بذكر بعض الألفاظ الدالّة على بعض المعاني، لِتَدُلَّ هذه المعاني بلوازمها وروابطها الفكريّة على معانٍ أخرى مقصودة، دون أن تُقَدَّمَ بصيغةٍ لفظيّةٍ تدلّ عليها دلالة مباشرة.

والقرآن المجيد قمّة كُلِّ كلامٍ بليغ رفيع، وهو معجزة البيان، فعلى المتدبّرين أن يتدبّروه بأناة وتفكير وعناية وإتقان، وأن يُراجِعُوا دواماً ما كانوا قد تدبّروه من قبل، فإنّهم سيجدون دواماً مَهما أضافوا من مفاهيم على من سبقهم، أنّهم مقصّرون عن إدراك كلّ دلالاته، التي يهدي إليها عُمْقُ النصّ الواحد، وتكامل النصوص المتعددة حول موضوع واحد.

* * *

المقولة الثانية

حول المحاذيف للإيجاز

كثيراً ما يُحذف من النصّ ما يقتضيه معنى النصّ، كحذف جواب «لولا» وحذف جواب «لو» وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وحذف الصفة التي يوجد في النصّ ما يقتضيها أو يدُلُّ عليها.

إلى غير ذلك من أمور كثيرة عدّ منها العزّ بن عبد السلام تسعة عشر نوعاً[1].

وقد يُحْذَفُ من الأوائل لدلالة الأواخر، ويُحْذَفُ من الأواخر لدلالة الأوائل، ويُحْذَفُ من الأوائل والأواخر معاً، لأنّ في كلٍّ منهما ما يدلّ على المحذوف من صاحبه.

ومقتضى النصّ واللوازم الفكرية، وطبيعةُ التناظر والتوازن فيه، مع ما يقتضيه التكامل في المعاني، تَهْدِي إلى المحذوفات.

ومتىٰ لم تظهر المناسبة بين الجمل القرآنية فهو من الأدلة على أنّ في النصّ محاذيف مقدّرة، يستدعيها النصّ، ويمكن اكتشافها بعد البحث، من سياق الآيات، أو من الآيات التي تناولت الموضوع نفسه في مختلف السّور القرآنية، أو من أسباب النزول والحوادث التي نزلت الآية بشأنها.

وذكر ابن هشام في كتابه «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» زيادة على ثلاثين نوعاً من أنواع الحذف في اللّسان العربي، واستشهد على كثيرٍ منها بأمثلة قرآنية فمن الأنواع التي ذكرها الأنواع التالية:

النوع الأول: حذف الاسم المضاف. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥):

---

(١) انظر كتابه «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز».

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ... ﴿٣﴾ ﴾.

أي: حُرِّمَ عَلَيْكُمْ أكلُ هذه المذكورات.

النوع الثاني: حذف المضاف إليه. مثل قوله عزّ وجلّ في سورة (الروم / ٣٠):

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾.

أي: لِلَّهِ الأمر من قبلِ الغَلَبِ ومن بَعْدِ الغلب.

النوع الثالث: حذف اسمين مضافين. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠) حكاية لما أجاب به السامريُّ موسى عليه السلام في قصّة صناعة العجل الذهبي:

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ ﴾.

أي: فقبضت قبضة من أثر حافر فرس الرسول، وهو جبريل عليه السلام.

النوع الرابع: حذف الموصول الاسمي. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩):

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

أي: وقولوا: آمنّا بالَّذي أُنْزِلَ إلينا وبالذي أنزل إليكم.

النوع الخامس: حذف الموصوف. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/٣٤):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

أَوِّبـي معه: أي سبّحي معه وَرَجّعي معه تسبيحه.

أن اعمل سابغات: أي: أن اعمل دروعاً سابغاتٍ، فحُذف الموصوف.

النوع السادس: حذف الصّفة. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/١٨): في حكاية بيان الخضر لموسى عليهما السلام أسباب أعماله التي استنكرها منه:

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

أي: يأخذ كُلَّ سفينة غَيْرِ معيبة غصْباً، بدليل قوله: فأردت أن أعيبها.

النوع السابع: حذف المعطوف. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/٥٧):

﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أولئك أعظم درجةً من الذين أنفقوا من بعدُ وَقَاتَلُوا﴾.

النوع الثامن: حذف المعطوف عليه، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/٢):

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً.

النوع التاسع: حذفُ الْمُبْدَل منه. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦):

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

أي: ولا تقولُوا لِمَا تَصِفُهُ أَلْسِنَتُكُمْ الكذبَ. فالضمير المحذوف هو المبدلُ منه، والكذب هو البدل.

النوع العاشر: حذف المبتدأ. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (القارعة/١٠١):

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾.

أي: هي نارٌ حامية.

ونظيره قولُهُ تعالى في سورة (الهمزة/١٠٤):

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ﴾.

أي: هي نار الله الموقدة.

النوع الحادي عشر: حذف الخبر. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرعد/١٣):

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

أي: أكْلُها دائِمٌ وَظِلُّها دائمٌ.

النوع الثاني عشر: حذف الفعل. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/٩):

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

أي: وإن استجَارَكَ أحدٌ من الْمُشركين استجارك فأجره. لأن «إن» الشرطية لا تدخل إلاَّ على فعل، فدخولها على الاسم هو على تقدير فعل محذوف.

النوع الثالث عشر: حذف المفعول. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/٢٣):

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: وَلَوْ شَاءَ بَعْثَ رَسُولٍ برسالة لأنزلَ مَلائكة.

النوع الرابع عشر: حذف الحال. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرعد/١٣):

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: يدخُلونَ عَلَيهم من كلِّ بابٍ قائلين سلامٌ عليكم...

النوع الخامس عشر: حذف التمييز. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدثر/٧٤) بشأن الذي قال عن القرآن: إنْ هذا إلَّا سحرٌ يؤثر، إنْ هذا إلَّا قول البشر:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾.

أي: عليها تسعة عشر مَلَكاً من خزنة جهنّم.

النوع السادس عشر: حذف لا النافية وغيرها. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/١٢):

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ۝٨٥﴾.

أي: تاللَّهِ لَا تَفْتَؤُ تذكرُ يوسف، بمعنى لا تزال تذكره.

حَرَضاً: أي: رجلًا قد أذابه الحزن.

والحَرَضُ: الرجل المريض المضنىٰ سقماً.

النوع السابع عشر: حذف لام التوطئة. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/٥):

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ [illegible]ذَابٌ [illegible]﴾

أي: وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يقولون لَيَمَسَّنَّ...

النوع الثامن عشر: حذف الجار ويطّردُ مع أَنَّ وأَنْ. وأمثلة هذا كثيرة.

النوع التاسع عشر: حذف لام الطلب. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤):

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

أي: لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُنْفِقُوا...

النوع العشرون: حذف حرف النداء. وأمثلتُه كثيرة.

النوع الحادي والعشرون: حذف جملة القسم. مثل قول الله تعالى في سورة (النمل/٢٧) في حكاية قصة سليمان:

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: أقسم باللَّهِ لأُعَذِّبَنَّهُ عذاباً شديداً أو لأَذْبَحَنَّهُ.

النوع الثاني والعشرون: حذف جواب القسم. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩):

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾.

أي: لَتبْعَثُنَّ ولَتُحَاسَبُنَّ.

وأرى، أنّ التقدير نحو: لَنَبْعثنَّهم ولَنُحاسِبَنَّهُمْ، لأن القسم موجّه خطاباً للمؤمنين، لا للكافرين الذين ينكرون البعث وينكرون النازعات والناشطات والسابحات من الملائكة، فلا يؤكّد لهم ما ينكرون بما يُنكِرُون من غيبيات، والغرض من القسم تعظيم شأن الملائكة قابضي أرواح الميّتين، والبيان الإلماحي

للكافرين بأن قبض أرواحهم يكون نزعاً فيه تعذيب، أما قبض أرواح المؤمنين فيكون نشطاً مريحاً.

النوع الثالث والعشرون: حذف جملة جواب الشرط. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦):

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: فإن استطعتَ أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلّماً في السَّماء فافْعَلْ.

النوع الرابع والعشرون: حذف جملة الشرط. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/٢٩):

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: فإنْ لم يَتَأَتَّ لكم إخلاصُ العبادة لي في هذه الأرض فإيّاي فاعبدون في غيرها.

النوع الخامس والعشرون: حذف أكثر من جملة. مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/٢):

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: فقلنا: اضربوا القتيل ببعض البقرة، فضربوهُ ببعضها فصار القتيل حيًّا، فقُلْنَا: كذلك يُحْيِي الله الموتى ويريكم آياته لعلّكُمْ تعقلون.

هذه من أنواع الحذف التي أوردها ابن هشام عليه رحمة الله.

* * *

طائفة موجَّهَة من الأمثلة المختلفة

وفيما يلي أمثلة مختلفة من القرآن أقدمها تدريباً لطلاب البحث المتأني في تدبُّر كلام الله عزّ وجلّ، عَسَىٰ أن تعطيهم مفاتيحَ للتدبّر الأمثل في اكتشاف المحاذيف التي هي من عوامل العمق القرآني.

* * *

الأمثلة

المثال الأول:

في حذف جواب (لولا):

يقول الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/١٠٢ نزول):

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: لعذّبكم ولعاقبكم على ما افتريتم من حديث الإفك.

وقد جاء جواب (لولا) هذه مصرحاً به بعد ثلاث آيات من السورة نفسها، فقال الله تعالى:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

* * *

المثال الثاني:

في حذف جواب (لو):

يقول الله تعالى في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول):

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

أي: أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون لاتبعوهم مع ذلك؟!

وبدهيّ أن اتباع من لا يعقل ولا يهتدي اتباع مرفوض عند الذين يملكون أدنى مستويات التفكير الصحيح.

* * *

المثال الثالث:

في حذف جواب (لو) أيضاً:

يقول الله تعالى في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: أو لو كان الشفعاء لا يملكون شيئاً ولا يعقلون يتخذهم المشركون شفعاء لهم من دون الله؟!

وبدهيّ أنّ هذا العمل يدلّ على فساد الرأي، وخيبة المسعى.

* * *

المثال الرابع:

في حذف جواب (لو) أيضاً:

يقول الله تعالى في سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: لبقيتم تقتدون بآبائكم؟!

وبدهيّ أنّ هذا من فساد الرأي، وضلال العمل.

ولحذف جواب (لو) نظائر أخرى ذوات عدد في القرآن الكريم.

* * *

المثال الخامس:

في حذف جمل كثيرة لدلالة السياق عليها:

يقول الله تعالى في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول): حكاية لما قاله لموسى وهارون:

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) ﴾.

أي: فأتياه فقالا له: إنَّا رسول ربِّ العالمين، واشتمل هذا على دعوتهما إيَّاه إلى الإيمان الحق، وطلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل. فقال فرعون لموسى: ألم نربّك فينا وليداً، إلى آخر ما قال.

* * *

المثال السادس:

في حذف جمل كثيرة أيضاً:

يقول الله تعالى في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/٤٢ نزول):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) ﴾.

أي: فامتثلا، فذهبا إلى القوم المذكورين، فقاما بواجب الرسالة يدعوان إلى الله دهراً، ثمّ خرجا ببني إسرائيل سرّاً، فلحقهما فرعون وجنوده، فأهلك الله الذين كفروا، وكان ذلك من تدميرهم.

إنَّ هذه الفجوة الطويلة بين «اذهبا إلى القوم الذين كذّبوا بآياتنا» وبين «فدمرناهم تدميراً» تملؤها قصة موسى مع فرعون وملئه وقومه التي جاءت مبينة مفصّلة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

* * *

المثال السابع :

في حذف ما يقتضيه التناظر والتوازن والتكامل في النص :

يقول الله تعالى بعد آيات الحث على الإنفاق في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول) :

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ .

ففي هذا النصّ محذوفات يقتضيها التناظر والتوازن والتكامل، تقديرها كما يلي :

الشيطان ينهاكم عن الإنفاق في سبيل الله، إذ يعدكم الفقر على سبيل التخويف منه. ويأمركم بالفحشاء ولو اقتضت منكم إسرافاً في البذل وتبذيراً.

والله ينهاكم عن الفحشاء وعن التبذير، ويأمركم بالبذل في سبيله وفي وجوه الخير. ويعدكم إذا عصيتم واستغفرتم مغفرة منه، وإذا أنفقتم في سبيله أن يعطيكم ويخلف عليكم ويزيدكم فضلاً منه والله واسع عليم.

فالعناصر المتقابلة التي يستدعيها التوازن والتناظر والتكامل في النص نلاحظها في الميزان التالي :

الله «جل جلاله»	الشيطان «لعنه الله»
١ ــ أَمَرَ بالإنفاق في سبيله.	١ ــ نَهَى عن الإنفاق في سبيل الله.
٢ ــ نَهَى عن الفحشاء.	٢ ــ أمر بالفحشاء.
٣ ــ نهى عن الإنفاق والتبذير في وجوه الإثم.	٣ ــ أمر بالإنفاق والتبذير في وجوه الإثم.
٤ ــ وعد بالإخلاف والفضل مقابل الإنفاق في سبيله.	٤ ــ وعد بالفقر وخوف منه في مجال الإنفاق في سبيل الله.
٥ ــ وعد بالمغفرة ولوّح بالجزاء.	٥ ــ شكّك بالجزاء ورغّب في اغتنام العاجلة.

والمذكور أو المشار إليه في النصّ بعض هذه العناصر المتقابلة، أمّا سائرها فقد حذف، لدلالة مقابلها عليها، أو لدلالة النصّ بجملته عليها، بمقتضى التوازن والتناظر والتكامل.

أمّا الأمر بالإنفاق في سبيل الله منها فقد جاء في الآيات السابقة لهذا النصّ.

وبدهيّ أنّ الحكمة توجب اتباع العناصر التي جاءت في هداية الله، أمّا اتّباع العناصر المقابلة لها فهو نقيض الحكمة، وهو من ضلالة الشيطان، ولذلك قال الله تعالى في الآية الثانية من النصّ:

﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يُؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذّكّر إلاّ أولوا الألباب﴾ وهم أصحاب العقول العميقة المتدبّرة الواعية للحقائق.

وإذا كان الحكيم قد أوتي خيراً كثيراً، فَمَن حُرِمَ من الحكمة فقد حُرِمَ من خير كثير.

وإذا كان المتذكر المتعظ بهذا هم أولوا الألباب وحدهم، فمن لا يتذكر ولا يتعظ لا لُبّ له، أي ليس لديه عقل يبحث عن عناصر الحكمة ويمسك بها، ثم يرشد إليها الأجهزة المهيمنة على السلوك في داخل الإنسان.

* * *

المثال الثامن:

في حذف ما يقتضيه التقابل والتناظر واللّزوم:

يقول الله تعالى في سورة (الحديد/٥٧ مصحف/٩٤ نزول):

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فالتقابل والتناظر والتوازن والتكامل في هذا النصّ يدلّ على أنّ في الآية الأولى منه حذفاً دلّ عليه ما جاء في الآية الثانية منه.

فالمصيبة المذكورة في الآية الأولى قد جاء في الآية الثانية ما يناسبها وهو الأسى على ما فات، أي الحزن. ولكنّ الفرح الذي جاء في الآية الثانية لم يأت في الآية الأولى ما يناسبه، فدلّ هذا على أنّ في الآية الأولى محذوفاً، وقد طُوِيَ ذكره في اللفظ، لوجود ما يدلّ عليه، ويشير إليه.

والتقدير: ما أصاب من مصيبة «ولا نزل من نعمة» في الأرض ولا في أنفسكم إلَّا في كتاب من قبل أن نبرأها، إنَّ ذلِكَ على الله يسير.

وفي النصّ محذوف آخر دلّ عليه التعليل في قوله عزّ وجلّ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾. وهذا المحذوف قد أبانته النصوص القرآنية التي دلّت على أن الابتلاء هو الغاية الأولى من المصائب والنعم. وبملاحظة هذا يكون التقدير كما يلي:

ما أصاب من مصيبة «ولا نزل من نعمة» في الأرض ولا في أنفسكم إلَّا في كتاب من قبل أن نبرأها «لنبلوكم» إنَّ ذلك على الله يسير. «وَنُعْلِمُكُمْ بهذه الحقيقة» لكيلا تَأْسَوْا على مَا فَاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم «فأنتم في حياة امتحان بالمصائب والنعم».

ودلّ قول الله عزّ وجلّ في آخر النصّ: ﴿واللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ على محذوف يستدعيه الذهن فهماً من اللوازم والمقتضيات، وهو أنّ النعمة قد تُولّد في النفوس بعد الفرح بها البطر والاختيال والفخر، بسبب غفلتها عن إدراك حكمة الله في إمداده بالنعمة، وهي الابتلاء والاختبار، فيكون تقدير الكلام لِكَيْلَا تَأْسَوْا على ما فاتكم، ولا تفرحُوا بما آتاكم فرحاً يجرّكم إلى البطر والاختيال والفخر، فأنتم في حياة امتحان بالمصائب والنعم، والله لا يحب كل مختال فخور.

* * *

المثال التاسع :

في حذف ما يقتضيه السياق وأدلّة اخرى :

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/١١٢ نزول) :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ ... ﴿٩٤﴾ ﴾ .

أي : بشيءٍ من الصيد وأنتم حرُمٌ، بدليل قول الله تعالى في الآية التالية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ . . . ﴿٩٥﴾ ﴾ .

وقوله تعالى في الآية التي بعدها :

﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ . . . ﴿٩٦﴾ ﴾ .

* * *

المثال العاشر :

في حذف ما يقتضيه بعض النصّ من دلالة :

يقول الله تعالى في سورة (الأعراف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول) :

﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

أي : هي للذين آمنوا ولغيرهم في الحياة الدنيا، بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿خالصةً يوم القيامة﴾ أي : خاصة للذين آمنوا وحدهم يوم القيامة، فدلّ هذا بفحواه على أنّ ما في الدنيا شركة بين المؤمنين وغيرهم .

ويظهر أن غير المؤمنين قد أهمل ذكرهم في اللفظ، لأنهم لا يهتمّون بملاحظة ما سخّر الله لهم في الحياة الدنيا، وإشعاراً بعدم الاكتراث بهم، إذ

أعرضوا عن الإيمان باللّهِ الخالق الرازق، ولم يلتفتوا إلى آيات الله في كونه ومنها عنايته بعباده ونعَمُه الكثيرة عليهم، بل جحدوا وكفروا بالمنعم بها.

جمهور القرّاء قرؤوا «خالصةً» بالنصب على انّها حال.

وقرأ نافع «خالصةٌ» على أنّها خبر مبتدأ محذوف تقديره: وهي خالصةٌ يوم القيامة.

والدلالة فيهما واحدة لا تختلف.

* * *

المثال الحادي عشر:

في حذف ما يقتضيه بعض النّصّ من دلالةٍ أيضاً:

يقول الله تعالى في سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول):

﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

حكاية لما قاله الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام، أي: يأخذ كلّ سفينة غير معيبة غَصْباً، بدليل قوله قبل ذلك في الآية نفسها: ﴿فأردْتُ أن أعيبها﴾.

وأرى هذا التقدير أولى من تقدير «صالحة» إذ في النصّ ما يدلّ عليه، كما أنّ كلمة «صالحة» قد لا تفي بالمراد، لأنّ المعيبة قد تكون صالحة للسير، لكنّها معيبة تشعر بأنّ أصحابها مساكين لا يملكون ما يصلحونها به، بخلاف كلمة «صالحة» فإنّ مقابلها يحسُن أن يقال فيه: فأردت أن أفسدها، لا «فأردت أن أعيبها».

* * *

المثال الثاني عشر:

في حذف ما يقتضيه التقابل والتناظر:

يقول الله تعالى في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾ ﴾.

لقد حُذِفَ في صدر الآية المقابلُ المعروض للمقارنة، للعلم به بمقتضى التقابل والتناظر، والتقدير كما يلي:

أمَّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه، كمن ليس كذلك فهو لا يقنت، ولا يحذر الآخرة، ولا يرجو رحمة ربّه.

والجواب بداهة يتضمن نفي التساوي بينهما.

ولكن ما هو السبب الذي يجعل فريقاً من الناس ينهج نهج القسم الأوّل، وفريقاً آخر ينهج نهج القسم الثاني؟

قد يكون السبب أن الأول يعلم، أي يسعى في اكتساب العلم، وأنّ الثاني لا يعلم، أي لا يسعى في اكتساب العلم بل يعرض عنه.

إذن فليطرح السؤال لانتزاع الاعتراف بنفي التساوي بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

﴿قل: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟﴾

والجواب بداهة: لا يستويان.

حسناً: فلماذا يتعظ فريق فيسعى في اكتساب العلم؟ ولا يتعظ الفريق الآخر، لذلك فهو لا يسعى في اكتساب العلم؟

والجواب لأنّ الفريق الذي يتعظ هو الفريق الذي لديه لبٌّ يتعظ به: ﴿إنَّما يتذكّر أولوا الألباب﴾.

وفي نصوص أخرى جاء الجواب عن سؤال أخير، وهو: أين ذهبت ألباب الذين لا يتعظون؟

وقد أرجعتْ هذه النصوص الأسباب إلى دوافع نفسية أهمها الكبر، والرغبة بالفجور، وحبّ العاجلة. وهذه الدوافع التي استجابوا لها بإراداتهم، قد كان باستطاعتهم بحسب تمكين الله لهم أن لا يستجيبوا لها، ولكنّهم آثروا الحياة الدنيا، واتبعوا وساوس الشيطان، واتبعوا خطواته.

* * *

المثال الثالث عشر:

في حذف ما يقتضيه التقابل والتناظر واللّزوم:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾.

ففي هـذه الآيـة محـذُوفـات دلَّ عليهـا التنـاظـر والتكـامـل، ومـا يـدلُّ عليـه المعنى لزوماً.

فالفئة الأولى وُصفت بأنَّها تقاتل في سبيل الله، وحذف من اللفظ وصفها بأنها مؤمنة. والفئة الأخرى وُصِفت بأنَّها كافِـرَةٌ وحُذِفَ من اللفظ وَصْفُهـا بأنّهـا تُقَاتل في سبيل الطاغوت، ودلّ التقابل بين الفئتين على الوصف المحذوف من كلٍّ منهما.

ودلّ لازم معنى قول الله تعالى: ﴿واللَّهُ يُـؤَيِّد بنصره من يشـاء﴾ على أنّ الله عـزّ وجلّ جعـل الفئة الكـافرة تـرى الفئة المؤمنـة مثلَيْهِم رَأْيَ العين ليؤيد المؤمنين بنصره، أي: يرونهم قرابة ألفين، لأنّ الفئة الكافـرة كانت قـرابة ألف، مـع أنّ الفئة المؤمنة كَانت أقلّ من ثلُثِ عدد الفئة الكافرة، وذلك في موقعة بدر، فالآيـة تتحدَّثُ عنها. وإبرازاً للمحذوفات يكون تقدير الكلام على الوجه التالي:

قد كان لكُمْ آيةٌ في فئتين التقتا «في معركة بدر»:

● فئةٌ «مؤمنةٌ» تُقاتل في سبيل الله.

● وأخرى كافرةٌ «تُقاتل في سبيل الطاغوت» يرونهم مِثْلَيْهم رأيَ الْعَيْنِ «بقضاء الله وقدره ليُؤَيِّدَ الفئـةَ المؤمنةَ بنصـره» واللَّهُ يُؤَيِّد بنصـره مَنْ يشاء «فـاعتبروا» إنَّ في ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأولي الأبصار.

* * *

المثال الرابع عشر:

في حذف ما تقتضيه الروابط العقلية، واللزومات، ودلالات النصوص الأخرى، واقتضاءات النصّ:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢) أوّلِ سُورة من التنزيل المدني:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

في هذه الآية عِدَّة محذوفات لا يستقيم فهم الآية إلَّا باكْتشافها وملاحظتها ذهناً وتقديرها.

ويمكنُ أن نكتشف هذه المحذوفات من تدبُّر الآية، مع الآيات القرآنية الأخرى التي تدور حول موضوعها، ومن إبراز الرّوابط العقلية التي تقتضيها اللُّزومات التي تُفْهم ذهناً لَدَى ملاحظة حكمة الله وسُنَّتِهِ في الشرائع، وَعَدْلِهِ، ومفاهيم أسس الدِّين، والنظرِ في تاريخ الرّسالات الرّبّانية وتَتَابُعِها، فيقول:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ أي: تجمعهم عقيدة رَبّانيَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَتُؤلِّفُ بينهم أحكامٌ تَشْرِيعيَّةٌ واحدةٌ، تَلَقَّوْهَا مِنْ أبيهم آدم عليه السلام، وظلَّ أَمْرُهُمْ كذلك حتَّى اختلفُوا عَقِيدةً وشريعةً بعدّةِ عوامل، نُلاحظ أنّها ترجع إلى الهوى ورغباتِ الفجور والعصيان وإيثار الحياة الدنيا، ونسيان أصول الدين وشرائعه وأحكامه، التي كانوا قد تَلَقَّوْها عن أبيهم آدَم عليه السلام، وتوارثوها بينهم، تَوَارثاً شفهيًّا دون تدوينٍ بالكتب.

وتفرَّقوا بسبب هذا الاختلاف إلى أمم.

دلَّ على وُقـوع هذا الاختـلاف الّذِي ينبغي اعتبـاره مقدّراً في نصّ الآيـة قبل قول الله عزّ وجـلّ فيها ﴿فَبعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّـرِينَ ومُنْذِرِينَ﴾ آيـةٌ سَبَقَ إِنْزالهـا في أواسط المـرحلة المكيَّـة، وهي قـول الله عـزّ وجـلّ في سـورة (يـونس ١٠ السـورة الحادية والخمسين بحسب ترتيب النزول):

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ونصوصٌ أخرىٰ شَرَحْتُهَا في كتاب «الأمّة الرّبّانية الواحدة»[1].

وبعـد حصول هـذا الاختلاف الـذي أدَّىٰ بـالناس إلى أن يتفـرّقُـوا إلى أُمَم، اقتضت حكمة الله عزَّ وَجَلَّ أن يتداركهم ببعث النَّبِيِّينَ مُبَشِّـرِينَ وَمُنْذِرِين، فبعثَ الله مباشرةً دون تراخٍ ولا تأخيـرٍ [بدليل (الفاء) في: ﴿فَبَعَثَ﴾] النبيِّين مبشـرين ومنذرين بحسب حاجة الناس الذين تفرّقُوا إلى أمم.

بناءً علىٰ هذا نستطيـع إبراز المحذوفات المقدّرة ذهناً فنقول:

﴿كَـانَ النَّاسُ أُمَّـةً وَاحِدَاة﴾ على الـدّين الحقّ من الله ثمَّ اخْتَلَفُوا وتَفـرَّقُوا فِي عَقَـائِدِهم وشـرائعهم ﴿فَبعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ رُسُـلاً ﴿مُبَشِّـرِينَ ومُنْـذِرِينَ وَأَنْـزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ عقيدة وشريعةً.

ثُمَّ نـلاحظ في الآية محـذوفاً آخـر، وهو الـذي يرتبطُ بـه قـول الله عـزّ وجـلَّ بعد ذلك:

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾.

أي: وبعد أن بعث اللَّهُ النبيّين، اجتمع من الناس من آمن منهم بالنبيّين على

---

(١) انظر الصفحات من ١٦ إلى ٢١ منه.

كتـاب الله الَّـذِي أنـزلَـهُ عليهم واحـداً في مضمـونـه، وإنْ تَعـدَّدَت لُغَـاتُ النبيِّين، وخاطب كلٌّ منهم قومه بلغتهم ولسانهم، واختلف عنه الّذين كفروا.

ثُمَّ بَعْدَ حينٍ، دَبَّ إلى الَّذِينَ أُوتُـوا الكِتابَ وآمنـوا به الاختـلافُ في الكتاب الرَّبّانيّ نفسه، رغم وفرة البيـانات الَّتِي جـاءتهم، والَّتي مَا كـان يجوز لهم معهـا أن يختلفوا فيه، وكان السبب في وجود هـذا الاختلاف في الكتـاب وجودُ البغي بينهم، إذْ تَـأَثَّرُوا بِحُبِّ العـاجلة وإيثارهـا على الآخـرة، وبـرغبـات الفسق والفجـور واتِّبـاع الهوى، فأخذوا يتلاعبـون بالكتـاب مع بقاءِ ظاهر الانتماء إليـه، وإلى النبـيِّ الّذِي بلّغَهُمْ إيَّاهُ عن اللَّهِ عزّ وجَلَّ، كما أنزلَهُ عليهِ وَحْياً أو تكليماً من وراءِ حجاب.

وكـان من هؤلاءِ المختلِفِينَ فيمـا بينهم طـائفـةٌ هـداهـا الله إلى الحق، بسبب صـدق إيمـانهـا، فبحثت وتـدبَّـرت واستنبـطَتْ، فـاهتـدت إلى الحقّ بـإذن الله ومعونته وتمكينه.

وكان منهم آخرون أهْلُ بَغْيٍ وخروج عن الحقّ.

وبنـاءً على هذا يمكن أن نُـظْهِرَ المحـذوفـات المقـدّرة فنقـول: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّين﴾ رُسُـلاً ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْـذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَـابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّـاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فيـه﴾ عقيدةً وشـريعةً، فـآمَنَ فريقٌ منهم وَكَفَـرَ فريق آخـر، ثُمَّ اختلف الذين آمنوا في الكتاب نفسه ﴿وَمَـا اخْتَلَفَ فِيهِ إلَّا الَّـذِينَ أُوتوهُ مِنْ بَعْـدِمَا جَـاءَتْهُمُ الْبَيِّنَـاتُ بَغْياً بينهم﴾ فَكَـانُوا فـريقين: فريقـاً ضَـلَّ عن صـراط الله المستقيم ببغيـه. وفريقاً صدق في إيمانه وابتغائـه الحق ﴿فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّـذِينَ آمَنُوا لمـا اخْتَلَفُوا فِيـهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ فَاكْتَشَفُوا بتَدَبُّر آياتِ اللَّهِ الْحَقَّ، واهْتَدَوْا إلى الصراط المستقيم ﴿واللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بتوفيقه المقرونِ بعلمه وحكمته ﴿إلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وهكذا استطعنا بتوفيق الله ومعونته أن نهتدي إلى المحذوفات في هذه الآيـة، من خـلال النظر في ضـرورة ربط المعاني بمـا يلائمهـا، والنظر في اللوازم العقليـة

ومقتضيات النصّ، مع دلالات نصوصٍ أخرى، ومع ملاحظته ما نعلم في الأصول الدينيّة والعقلية من كمالِ حكمة الله وسُنَّتِهِ في تصاريف الأمور.

* * *

المثال الخامس عشر:

في حذف ما تقتضيه دلالاتُ مذكوراتٍ في النصّ على محذوفات فيه:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة٢) أوّل سورة نزلت بعد الهجرة إلى المدينة:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾.

نلاحظ في هذا النصّ محذوفات من الأوائل، دلّت عليها تفصيلاتٌ جاءت في الأواخر.

لقد كان من مشركي مكة بالنسبة إلى المسلمين عدوان من ثلاث جهات:

١ ـ فالمشركون يقاتلون المسلمين عدواناً وظُلْماً.

٢ ـ وهُمْ قد أخْرَجوهم من بلدهم ومن ديارهم وأموالهم.

٣ ـ وهم يَفْتِنُون المؤمنين في دينهم، ليردُّوهم بعد إيمانهم كافرين.

وكلُّ واحد من عناصر هذا العدوان المركّب يُعْطي المسلمين مقتَضِياً لقتال المشركين، فجاء في صدر النصّ الأمْرُ بقتالهم.

ولـدى بيـان الأسبـاب اقتصـر النصّ أوَّلاً على ذكـر السبب الأوّل وهـو مقـاتلة المشركين لهم.

ثمَّ لـدى التفصيل جـاء ببيـانـات تتعلّق بـالسببين: الثـاني والثـالث، كـأنّهمـا مَذْكُوران في صدر الآية، وهو إخراج المسلمين من ديارهم وأموالهم، وفتنـة بعضهم في دينهم، ليردّوهم بعد إيمانهم كافرين.

ولدى إبراز هـذين المحذوفين لـلإيجاز، ولـلإشعـار بـأن السبب الأول كـافٍ وحده لمقاتلتهم ولو لم يوجد معه غيره، يمكن أن نقدّرهما في النصّ على الوجه التالي:

﴿وَقَـاتلوا في سبيـل الله الـذين «أخـرجـوكم من بلدكم ومسـاكنكم وأمـوالكم و» يُقَـاتِلُونكم «ويفتنـون المؤمنين منكم في ديـنهـم» وَلاَ تَعْـتَـدُوا إنَّ الله لا يحـبُّ الْمُعْتَـدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم «أي: لأنَّهم يقـاتلونكم، ومـا زالـوا مخـرجين لكُمْ، ويفتنونَ مَنْ يفتنون منكم في الـدين» وأخرجـوهم مِنْ حيثُ أَخْرَجُـوكُم «أي: اعْمَلُوا على استعادة بلدكم ودياركم لكم، ثمّ عاملوهم بالمثل فأخـرجُوهم مِنْ حيثُ أخْرَجُوكم، حتَّىٰ ينتهوا عن القتال، والإخراج، والفتنة في الدين، وإذا سأل سـائل: هل الفتنة في الدين تُبَرِّرُ المقابَلَة بالمقاتلة؟ فالجـواب: نعم» والفتنة أشـدُّ من القتل «فإذا كان القتل يبرّر المقاتلة، فالفتنة في الدين التي هي أشدُّ من القتل تبرّر المقاتلة بنسبـةٍ أكبر» ولاَ تقـاتلوهم عند المسجـد الحرام حتَّى يقـاتلوكم فِيـه «أي: من أجـل المحافظة على قاعدة الأمن في هذا البلد» فإن قَاتَلُوكُمْ «أي: في المسجد الحـرام» فَاقْتُلُوهم «أي: فاجتمعوا على قَتْلِهِمْ قَتْلَ إبادة، دلَّ على هذا قولُهُ تَعالى: فاقتلوهم، ولم يَقُـلْ: فقاتلوهم» كَـذَلِكَ جـزاءُ الْكَافِـرين «أي: مثل هـذا الجـزاء يكـون جـزاء الكـافـرين، أمّـا المؤمنـون فلهم أحكـامٌ خـاصـة» فـإنِ انْتَهَـوْا «أي: عن المقـاتلة، والإخراج، وكفُّوا أيديهم عن ذلك، فدعوهم وتوقفوا عن مقـاتلتهم وإخراجهم» فَـإنَّ اللَّهَ غفورٌ رحيم «أمَّا الفتنة في الدين فاعملوا على إيقافها حمايةً للمؤمنين» وقاتلوهم حتَّى لا تكـونَ فتنـةٌ ويكـون الـدِّينُ لِلَّهِ «أي: أن يكـون أمـر الـدين لله وحـده،

فليس لأحدٍ من الناسِ حقُّ الفتنةِ في الدين ولا الإكراهِ لقبول دينٍ ما أو تركه، فَمَنْ شاء فَليؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فليكْفُرْ» فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إلاَّ على الظَّالِمِينَ، الشَّهْرُ الحَرَامُ «أي: الاعتداء في الشهر الحرام والقتال فيه» بالشَّهْرِ الحرام «أي: يقابل بمثله» و «مثلُ الشهر الحرام» الْحُرُماتُ «كُلُّها فهي» قِصَاص «أي: يقابلُ العدوانُ فيها بمثله» فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمُ «أي: ولو في غير الْحُرْمَةِ الَّتي اعْتَدَوْا فِيها، بدليل استعمالِ كلمة: فاعتدوا، أي: فادفعوا بالعدلِ إنْ أَمْكَنَ أَو اعْتَدُوا بالنظير» واتَّقوا اللَّهَ واعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ مع المتقين﴾.

وهكذا نلاحظ جملة محذوفات في هذا النصّ اقتضتها دلالات مذكورات فيه، وهذا من العمق العجيب في النصّ القرآني.

* * *

المثال السادس عشر:

في محذوفاتٍ يَدُلُّ عليها وَتَقْتَضِيها مَذْكُوراتٌ في النصّ:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف٧) في سياق الحديث عن الكافرين:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

أي: فهل لنا من شُفعاءَ فيشفَعُوا لَنَا عِنْدَ رَبِّنا بأَحدِ أَمْرينِ: أنْ يَغْفِرَ لَنَا أَوْ يَرُدَّنَا إِلَى الحياة الدُّنيا. فَيُغْفَرُ لَنا بِشَفَاعَتِهِمْ أَوْ نُرَدُّ فَنعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ.

دلّ على المحذوفات حَرْفُ العطف «أَوْ» الّذي يدلُّ على أنَّ طَلَبَهُمْ قَدْ تَنَاوَلَ

المذكور وغيره، وبقليلٍ من التأمُّل نَفْهَمُ أن المحذوف هو طلبُ المغفرة. ويؤكِّدُ هذه الدلالة الّتي دلّ عليها حرف العطف «أو» رفْعُ فعلِ «نُرَدُّ».

وهذا من العُمْقِ القرآني.

* * *

المثال السابع عشر:

في حذف ما تقتضيه أيضاً دلالاتُ مَذْكوراتٍ في النصّ على محذوفاتٍ فيه:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) في سياق الحديث عن يوم القيامة، وما يقوله الإنسان الكافر يومئذٍ:

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ (١٢)﴾.

أَيْنَ الْمَفرُّ: أَيْنَ الْفِرَارَ.

أي: يقولُ الإنسانُ الكافر يوم القيامة: أَيْنَ الْمَفَرُّ؟، وَأَيْنَ الْوَزَرُ (أَيْ: الملْجأ).

فيقالُ لهُ: كَلاَّ. لاَ مَفرَّ وَلاَ وَزَر.

فَحُذِفَ مِنْ سُؤَال الإِنْسَان: «وأَيْنَ الْوَزَرُ» وَحُذِفَ من الجواب «لاَ مَفَرَّ» ليدُلَّ المذكورُ من الطرفين على المحذوف من الطرف الآخر.

وهذا من العُمْقِ القرآني.

* * *

المثال الثامن عشر:

في الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: ويقولُ الَّذِينَ آمَنُوا: لَوْلَا نُزِّلَتْ سورةٌ نُؤمَرُ فِيهَا بِالْقِتَالِ أمراً صريحاً مُحْكَماً. فَإذا أُنْزِلَتْ سورةٌ محكمةٌ وَذُكِرَ فيها الإذنُ بالقتال أو الأمْرُ بِهِ رَأَيْتَ الذين في قلوبهم مرضٌ ينظُرُونَ إلَيكَ نَظَرَ المغشيِّ عليه من الموت، فأوْلَىٰ لَهُمْ...

وهذا الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر هو من العمق القرآني العجيب المعجز.

* * *

المثال التاسع عشر:

في الحذف الذي يقتضيه النصّ

ويدلُّ عليه بعض ما جاء فيه.

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ضِمْنَ وُسْعِهِمْ لَا نُكَلِّفُ نَفْسَاً إلَّا وُسعها أولئك أصحابُ الجنة هُمْ فيها خالدون.

* * *

المثال العشرون:

في الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر، والحذف من الأواخر لدلالة الأوائل:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

أي: يَاٰبَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ فيخرجَكُمْ عَنْ صراط الله إلى المعصية فتستحقّون الحرمانَ من دُخول الجنة كما فتن أبويكم فعصَيَا ربّهما بأكل الشجرة فاستحقّا الخروج من الجنة.

* * *

المثال الحادي والعشرون:

في الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة ٥ / مصحف / ١١٢ نزول):

﴿ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ: أي: هل يُطِيعُ ربُّك فيستجيبُ لَكَ دُعاءَكَ إذا دعوته في

أن ينـزل علينـا مـائـدة من السمـاء. وجـاء بصيغـة «يستـطيـع» للدلالــة على معنىٰ المطاوعة بالإجابة للطلب الذي ليس فيه كمال أدب مـع الله.

من الـظاهـر في هـذا النصّ أنّ فيـه حـذْفـاً من الأوائل، أي: من نصّ طلب الحواريين: ﴿هل يستطيـعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدةً مِنَ السماء؟﴾.

فالذي يبدو أَنَّهم طلبُوا مائدةً معجزةً خارقـةً تَنْزِلُ من السمـاء. تكفي لأنْ تعمَّ كُلَّ الذينَ آمنوا بعيسى عليه السلام، حتَّىٰ تكون عيـداً لأوّلهم وآخرهم، فـأوَّلُهُمْ هُمُ الحواريُّون، وآخرهم من دونهم حتى آخر إنسانٍ آمن به ساعتئذٍ.

دلَّنا علىٰ هذا مَا أورده عيسىٰ عليه السلام في دعائه، إذْ قالَ: ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأوّلنا وآخِـرِنَـا﴾.

وأنَّه عليه السلام ذَكَرَ في باقي دُعائه مضمونَ مَا عَلَّلُوا بِهِ طلبهم، فقال:﴿وآيَـةً مِنْكَ وارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِين﴾ فهو اختصارٌ لقولهم في تعليل الطلب ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشاهدين﴾.

فقـوله عليـه السـلام: ﴿وَآيَـةً مِنْـكَ﴾ هـو اختصـارٌ لقـولهم في تعليـل الـطلب ﴿وَتَـطْمَئِنَّ قُلُوبُنَـا وَنَعْلَمَ أَنْ قَـدْ صَـدَقْتَنَـا وَنَكُـونَ عَلَيْهَـا مِنَ الشَّـاهِـديـن﴾ فوظيفة الآيَةِ الرَّبَّانيَّةِ الحسيَّة، طَمْأَنَـةُ القلوب بالمشـاهدة، والانتقـالُ من المشاهـدة إلى العلم بصدق من أجرى الله لـه المعجزة، بمقتضى الـدليل العقليّ، ثم ليكـونُوا شهداء على وقوع هـذه الآية فيشهـدوا بها أمـام من يَدْعُـونَهُمْ إلى الإيمان بِـرسالتـه وإلى اتّباعه.

وأمَّا قولُهُمْ في التعليل: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها﴾ فيـظهَرُ أنّ عيسىٰ عليـه السلام رآه غرضاً لا يستَحقُّ أن تطلبَ من أجلِهِ آيَةٌ خلرقة، لذلك أخَّرَهُ في الدعـاء، وأورده بصيغة عامّة فقال: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِين﴾.

وذكره في الدعاء ولو بصيغة عامة دليلٌ على أن عيسى عليه السلام قد ذكر في

دعائه كلَّ مَا طَلَبُوا، ومن المستبعد جدًّاً أَنْ يَزيدَ من عنده في الدعاء وصف المائدةِ المطلوبةِ، بِأَنْ تكون عيداً لأوَّلهم وآخرهم، فشأنُ الرُّسُل ألاَّ يطلُبُوا الآياتِ الخوارق إلَّا إذا أَذِنَ الله لهم بذلك. أو كان استجابة لطلب أقوامهم وسُمِحَ لهم بإجابتهم إلى طلبهم.

* * *

المثال الثاني والعشرون:

في حذف ما يقتضيه التقابل والتكامل والتناظر بين الأوائل والأواخر وما يفهمه الذهن من الفعل المتعدّي الذي لم يُذْكَرْ معموله:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (محمد/٤٧ مصحف/٩٥ نزول):

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾.

بالتأمُّل نُلاحظ أنّ في هٰذِهِ الآيَة محذوفات دلّ على بعضها مقتضيات التقابل والتناظر والتكامل،ودلّ على بعضها ما تقتضيه تعديةالفعل،وما يفهمه الذهن بداهةً.

١ ـ فما دلّت عليه مقتضيات التقابل والتناظر والتكامل ينكشفُ لنا على الوجه التالي:
الآية تتحدّث عن الكافرين فيقولُ الله بشأنهم:
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كيف كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: عاقِبَةُ الَّذينَ كَفروا مِنْ قَبْلِهِمْ، فحذف من اللفظ فعل «كفروا» مع تقديره ذهناً.

﴿دَمَّرَ اللَّهُ عليهم ولِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي: وللكافرين المعاصرين ومَنْ سَيَأْتِي بَعدهُمْ أَمْثَالُهَا، فحذف من اللفظ ما يدلّ على المعاصرين والذين يأتون من بعدهم، مع تقديره ذهناً.

فعبارة «من قبلهم» في القسم الأول من الآية دلّت على الكافرين المعاصرين ومن سيأتي بعدهم في القسم الثاني من الآية.

وعبارة «وللكافرين» في القسم الثاني من الآية مع واقع حالِ المتحدّث عنهم، دلّت على فعل «كفروا» المحذوف في القسم الأوّل من الآية.

٢ ـ والمحذوف الذي دلّ عليه ذهناً مقتضىٰ تعدية الفعل الذي لم يذكر معموله نَجِدُه في قوله تعالى في الآية «دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِم» أي: دمّر اللَّهُ عليهم مساكِنَهُم وبلادَهُمْ ونحو ذلك.

فمن السهل على الذهن تقديرُ هذا المفعول به، المحذوف للإيجاز من جهة، ولاحترام ذكاء المخاطَب من جهة أخرى.

* * *

المثال الثالث والعشرون:

في المحذوفات التي تدلّ عليها أوائل النّصّ وأواخره، ويدلّ عليها التّقابُلُ والتناظُرُ والتّكامُلُ:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (محمد/٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

في هذا النّصّ عدّة مَحْذُوْفَات يمكن اكتشافها من التقابل والتناظر والتكامل ودلالات أوائل النّصّ وأواخِرِه.

فالآية الأولى منه تنفي على طريقة الاستفهام إمكان التساوي بين فريقين:

الفريق الأول: من كان على بيِّنةٍ من رَبِّهِ واتّبعُوا كتابَ الله وصراطه ورسوله، كما أمرهم الله.

والفريق الثاني: من لم يكُنْ على بينة من ربه وَزُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ واتَّبعُوا أَهواءهم.

واكتفى النصّ بالنسبة إلى الفريق الأول بذكر «أفمن كان عَلَى بَيِّنَةٍ من رَبِّهِ» لأنّ مُقابلاتِ العناصر الأخرى المحذوفة مذكورة في أوصاف الفريق الثاني.

وحُذِفَ من أوصاف الفريق الثاني جملة: «لَم يَكُنْ عَلَى بَيِّنَة مِنْ رَبِهِ» لِأن مُقَابِلَهُ مَذْكُورٌ في صِفة الفريق الأولّ.

فَدَلَّ المذكور في كُلٍّ منهما على المحذوف من صاحبه.

فإذا أظهَرنَا المحذوفات المقدّرة ذِهْناً كان الكلام كما يلي:

أفمن كان على بينةٍ من ربهِ واتبعوا كتاب الله وصراطه ورسوله، كمن لم يكن على بينةٍ من ربه وزُينَ لَهُ سُوْءُ عَمَلِهِ وَاتّبَعُوا أَهواءهُم؟

وجواب هذا السؤال يكون بنفي التساوي بين هٰذين الفريقين بداهة. وهذا الجواب محذوف للعلم به، ولغرض انتزاعه من المخاطبين، فالجواب الموافق للمطلوب أقوى في التأثير من الإخبار به ولو كان بدهيّاً.

وقول الله عزّ وجلّ في الآية الثانية: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيْمَاً فَقَطَّعْ أَمْعَاءَهُمْ﴾ يدلّ علىٰ أنّ في صدر الآية مَحْذُوفاً يُسْأَلُ عنه لبيان نفي مُساواته لِفريقِ مَنْ هوَ خَالِدٌ في النار، وهو مقابله، وأُسلوب السؤال الذي جاء في الآيةِ الأولى يدلّ عليه. وذكر صفات الجنة التي وُعِدَ المتّقون يَدُلُّ على أنّها ثوابُ هذا الفريق كما كان الخلود في النار عقاب الفريق المقابل له.

وبالتأمل نستطيعُ اكتشاف هذا المحذوف المقدّر، فَإذا أَظْهَرْنَاهُ كان الكلامُ كما يلي:

[مَثَلُ الجنّةِ التِي وُعِدَ المتّقُونَ فيها أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرُ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمَه وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذّةٍ للشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفّى وَلَهُمْ فيها مِنْ كُلِّ الثمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبّهِمْ.

«أَفَمَنْ هُوَ خَالِدٌ مُنَعّمٌ فِي هَذِهِ الجنّة» كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيْمَاً فقَطّعْ أَمْعَاءَهُمْ؟].

وجواب هذا السؤال يكـون بنفي التساوي بين هـذين الفريقين بـداهة. وهـذا الجـواب محذوف للعلم بـه، ولغرض انتـزاعـه من المخاطبين، فـالجـواب المـوافق للمطلوب أقوى فـي التأثير من الإخبار بِهِ، ولو كان بَدهياً.

* * *

المثال الرابـع والعشرون:

في الحذف الذي تدلّ عليه طريقة الأداء، أو ما يقتضيه المعنى:

يقول الله عزّ وجلّ فـي أوّل سورة (الشعراء ٢٦/مصحف / ٤٧ نزول) لرسوله:

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾.

بـاخِـع نفسـكَ: أي: قـاتِـلُ نفسـكَ، ومُهْلِكُ لَهَـا مِنْ شِـدَّةِ حِـرصِـكَ على إسلامهم.

١ ــ فـي قـولـه تعـالى: ﴿لَعَـلَّـك بَاخِـعٌ نَفْسَـك ألَّا يَكُـونُـوا مُؤمنينَ﴾ يقتضي المعنى أن يكون فـي الجملة لفظ محذوف قبل: ألّا يكونوا مؤمنين، وأن يكون هذا المحذوف نحو «حَسْرَةً عليهم» فقد جاء مصرّحاً بهذا المعنى في قـول الله عزّ وجـلّ لرسوله في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/٤٣ نزول):

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾.

أيْ لَعَلّكَ مُهْلِكٌ نفسَكَ حَسْرَةً عليهم ألَّا يَكُونُوا مُؤْمنين.

٢ ــ وفي قوله تعالى: ﴿فَظَلّت أَعْنَـاقُهُمْ لَهَا خَـاضِعِيْنْ﴾ يقتضي المعنى مـع طريقةالأداء أن يكون في الجملة حذف تقديره: فظلتْ أعناقهم مُطأطِئة حالَة كَـوْنِهِمْ خاضعين، أي: في داخل نفوسهم.

وهذا فـي رأيي أولى من جعل خاضعين وصفاً للأعناق، على تنزيلهـا منزلـة العقلاء باعتبارها أعناق عقلاء.

فأسلوب الحذف في القرآن كثير جداً، وبه مع الإيجاز قد يُستَفادُ من اللفظ المذكور معنى ومن اللفظ المحذوف معنى آخر، ويكون اللفظ المذكور مع أدائه معناه دليلاً على المحذوف.

٣ ــ وفي قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيْهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُوْنَ﴾.

يقتضي المعنى أن يكون في النّص حذْف، تقديره: فقد كذّبوا بالقرآن ويستهزئون بالآيات التي تُتْلى عليهم منه وبما فيها من إنذارات ووعيد لهم فَسَيَأْتِيْهِمْ أَنْبَاءُ وُقوع ما كذّبوا بِهِ وَكَانُوا به يَسْتَهْزِئون.

ونلاحظ أنه حُذف من الأوائل لدلالة الأواخر عليه وهو «ويستهزئون» دلّ عليه قوله تعالى في الأواخر: «ما كانوا بِهِ يستهزئون». وحُذف من الأواخر وهو «ما كذّبوا بِهِ» لدلالة الأوائل عليه وهو «فَقَدْ كَذّبوا».

* * *

المثال الخامس والعشرون:

في الحذف الذي تدلّ عليه اللوازم الفكرية، ومقتضيات التقابل والتوازن والتناظر والتكامل في النص:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (اللّيل/ ٩٢مصحف/ ٩نزول):

﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ ﴾.

في هذا النصّ محذوفات باستطاعتنا اكتشافها بالتكامل وفيما يلي بيان ذلك.

١ ــ فعل «اتّقى» يستلزم عقلاً مُتَّقىً منه، فما هو هذا؟

٢ ــ قوله تعالى: ﴿وصَدّقَ بالحُسْنَىْ﴾ أي: بالجنة، بدلالة السبر القرآني لكلمة «الحسنى» وبدلالة سياق الآيات الدّالات على فضل الله وعدله بالجزاء بالثواب والعقاب.

فـإذا كانت الحسنى هي «الجنّة» فالمتّقى منه هي «النار» ولا يتّقي النار إلاّ من كـان قد صدّق بها، فيكون قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ بِقُوّةِ قَوْلِنَا:

فأمّا من صدق بالسوأى «أي: آمن بالنـار» فخاف من عـذابها، فـأعطى واتّقى بعطائه عذابها.

ثم إن التقابل والتناظر والتوازن مـع اللوازم الفكرية تقتضي أن يكون قـول الله عزّ وجلّ: ﴿وَصَدَّق بالْحُسْنَى﴾ بقوّة قولنا:

وَصَدّقْ بِالْحُسْنَىْ (أي: آمن بالجنّة) فـطمـع فـي أن يكون من أهلهـا، فَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا، وَاستَحَقّ بسعيه دخولَهَا.

فـالعناصـر المتقابلة التي يستـدعيهـا التـوازن والتنـاظـر والتكـامـل فـي النّص نلاحِظها فـي الميزان التالي:

أولاً ــ المـؤمـن:

١ ــ صدّق بالنار (وهي السوأى).	١ ــ وصدّق بالجنّة (وهي الحسنىٰ).
٢ ــ خاف من النار وعذابها.	٢ ــ طمـع فـي الجنة ونعيمها.
٣ ــ أعطى طاعة لله واتّقى بعطائِهِ النّار.	٣ ــ سعى للجنة سعيها.

فاستحق دخول الجنّة

أمّـا المذكـور أو المشار إليه في النص فبعض هـذه العنـاصـر المتقـابلة، أمـا سائرهـا فقد حـذف لدلالـة مقابلهـا عليها أو لـدلالة النصّ بجملتـه عليها، بمقتضى التقابل والتوازن والتناظر والتكامل، وبمقتضى اللوازم الذهنية.

فجملـة (وصدّق بـالحسنىٰ) تدل على محـذوف مقـابـلٍ لهـا وهـو (وصـدّق بالسوأى) وفعل «أعطىٰ» يستلزم شيئاً يعطيه، وقد دلّت السـورة على أن المعطى هـو من المـال، وفعل «اتقىٰ» يستلزم متّقى منـه، وقد عـرفنـا من مقـابله أنّـه (السـوأىٰ)

أي: النار. وجملتا (أعطى واتّقى) يدلّان على محذوف مقابل لهما هو «طمع في الجنّة وسعىٰ لها سعيها».

ثانياً ـ الكافر:

١ ـ كذّب بالنار.	١ ـ وكذّب بالجنّة.
٢ ـ لم يخف من النار وعذابها.	٢ ـ لم يطمع في الجنّة ونعيمها.
٣ ـ بخل واستغنى.	٣ ـ لم يسع للجنّة سعيها.

فاستحق دخول النّار

وكذلك نقول هنا: إن المذكور أو المشار إليه في النصّ هو بعض هذه العناصر المتقابلة، أمّا سائرها فقد حذف لدلالة مقابلها عليها، أو لدلالة النص بجملته عليها، بمقتضى التقابل والتوازن والتناظر والتكامل، وبمقتضى اللوازم الذهنيّة.

وهذا كما ظهر لنا هو من العُمقِ العجيب في القرآن المجيد.

* * *

المثال السادس والعشرون:

في الحذف الذي تقتضيه اللوازم الذهنية، ومنطقية التوزيع على الأقسام التي تفهم بالسبر، وإعطاء كلّ قسم ما يلائمه:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (المدثر ٧٤):

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

الكلام في هذا النّصّ عن «سَقَر» اسم من أسماء دار العذاب يوم الدين، وقد ذكر الله عزّ وجلّ من وصفها أنّ عليها تسعة عشر من الملائكة الموكلين بتعذيب أصحابها المقضي عليهم بالعذاب فيها.

وآيـة [وَمَا جَعَلْنَـا أَصْحَابَ النّـارِ «أي: خَزَنَتَهـا الموكَّلِينَ بِالتَعْـذِيْب فِيهَـا» إلاّ مَلاَئِكَـةً، وَمَا جَعَلْنَا عِدّتَهُمْ إلاّ فِتْنَةً للذّين كَفَرُوا. . .] إلى آخرها. قد أشكَلَتْ على المفسّرين، فمرّ عليها بعضهم مرّاً سريعاً، ذكـر فيها معـاني الألفاظ، ورآها بعضهم كالرازي من المتشابهات.

والسبب فـي ذلـك أنّهم لم يتعمّقـوا فـي البحث عمّا حُـذِفَ منهـا لـلإيجـاز، فأوقعهم ذلك فـي الارتباك.

لو أننا نظرنا إلى واقـع حال الناس الـذين يسمعون هـذا الخبر الغيبيّ المتعلّق بعدد الملائكـة الموكلين بعـذاب أهل النـار كما جـاء فـي هذا النّصّ، لـوجدنـاهم ينقسمون إلى الأقسام التالية:

القسم الأول: قسم الـذين لم يقبلوا هذا البيـان فلم يصـدّقـوا بـه أصـلاً، وهم فئتان:

١ ــ فئة الكافرين الذين صمَّموا على الكفر وتأصَّلوا فيه سـواءٌ أعلنوا كفـرهم أو أبطنوه.

٢ ــ فئـة مرضى القلوب، وهم الـواقعـون في الـريب والشـكّ سـواءٌ نـافقـوا أو لم ينافقوا، وإنَّما توقَّفـوا أو انضموا إلى قسم الّـذِين كَفَروا، إلاّ أنّهم لم يصمّمـوا على الكفر، ولم يَتَأَصّلُوا فيه.

القسم الثاني: قسم أهل الكتاب الذين يجدون هذا الخبر مطابقـاً لما عنـدهم من عِلْمٍ حَوْلَ خَزَنَة جهنم وعددهم.

القسم الثـالث: قسم المؤمنين بمحمّد ﷺ، وبـرسالتـه، وبكلّ مـا يُبَلّغُـهُ عَنْ رَبّهِ.

ولكـلّ قسم وفئـة من هؤلاء تصـرّف يـوجّهــه لـه مــوقعـه الفكــري والنفسي والاعتقادي الذي هو فيه.

● فقسم الذين لم يقبلوا هذا البيان فلم يصدّقوا به بفئتيهم يسخـرون من هذا العدد، ويحتقـرونه، ولا يرونه مخيفاً، ويعلّقون على الإخبـار به بقولهم : ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً؟! ﴾ أي: ماذا أراد بهذا البيان العددي حالة كونه وصفاً ضئيلاً، وعدداً قليلاً، لملائكة العذاب الذين أعدهم الله خَزَنَةً لِجهنّمَ يشرفون على تعذيب من كفر بدينه، وبرسوله، وباليوم الآخر.

لفظ «المثل» يأتي بمعنى: الوصف ومنه قـوله تعـالى: ﴿مَثَلُ الجنّـةِ التيْ وُعِدَ المُتّقُونَ . . .﴾ أي: وصفها.

وهذا هو ما ظهر فعلاً من تصرفات بعضهم، فقد رُوِيَ عن ابن عبّـاس أنّ أبا جهل لما سمـع بذلك، قال لِقُريش: ثكلتْكُمْ أُمَّهَاتُكم، أَسْمَعُ ابْن أَبِي كَبْشَةَ يُخْبِرُكُمْ أَنّ خَزَنَةَ النّارِ تسعة عشرة، وأنتُم الدَّهْمُ (أي: العدد الكثير) أفيعجِزُ كُلّ عشرة منكم أن يبطشوا برجلٍ من خَزَنَةِ جَهَنّم؟

يقول هذا إستهزاءً بالعدد وإنكاراً لأصل الخبر.

ونلاحظ أنّ الغرض من هذا البيان بـالنسبة إلى هـذا القسم هو امتحان وابتلاء أفكارهم وعقولهم، واستخراج ما فـي نفوسهم من كفر واستهزاء.

ولو أنّهم رجعوا إلى ما تهديهم إليه عقولهم حقاً لأدركوا أنّ الله الذي خلقَ كلّ شيء، هـو القادر على كـل شيء، قادر لـو شاء على أن يخلق مَلَكـاً وَاحِداً عَـظِيمـاً جداً، يكفي لتعذيب أهل السماوات والأرض جميعاً. فالأمر ليس أمر عدد مكلّـفين بالتعذيب، إنما هو بيانٌ لأمرٍ قضت بهِ إرادة الخالق المستندة إلى حكمته وعلمه.

فبيان عدد خزنة جهنّم بالنسبة إلى هـذا القسم بفئتيهم هو لامتحـان عُقُولِهِم، ولاستخراج ما فـي نفوسهـم من كفر واستهـزاء ببيانـات الله، فيقولـوا: مَاذَا أَرَادَ الله بِهَذا مَثَلاً.

ولذلك جـاء فـي النّصّ قول الله عـزّ وجلّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِـدّتَهُم إلاّ فِتنةً للذِيْنَ

كَفَرُوا﴾ أي: امتحاناً لهم واختباراً بوجهٍ من وجوه الامتحان الكثيرة التي يُقَلِّبُهُمْ عَلَيْهَا.

وجاء فيه أيضاً: ﴿وَلِيَقُول الذِيْنَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ والكَافِرُونَ: مَاذَا أَرادَ الله بِهَذَا مَثَلاً؟﴾.

● وقسمُ أهل الكتاب الذين يجدون هذا الخبر مطابقاً لما عندهم من علم حول خزنَة جهنّم وعددهم، مع أنّ محمداً لم يطّلع على كتبهم ولم يقرأ منها شيئاً، ويظهر أنّ هذا الخبر لا يَعْلَمُهُ من أهل الكتاب إلاّ علماؤهم المدقّقون، وليس مما هو متداولٌ على ألسنة عامّتهم. هؤلاء يكتسبون بورود هذا الخبر على لسان محمد ﷺ استِيْقَاناً عِلمِيّاً بأنّ ما يأتي به ـ وَهُوَ أُمِّيٌّ ـ هُو حَقٌّ من عند الله، وهو صادقٌ حتماً في أنّه رسولٌ من عند الله، ينزل عليه الوحي من ربّه.

فالغرض من هذا البيان بالنّسبة إلى هذا القسم: أن يستيقنُوا بأنّ محمداً مبلِّغَهُ عن ربه هو رسول الله حقاً.

ولذلك جاء في النّصّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿لِيَسْتَيْقِنْ الّذِيْنَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ولم تُعْطَفْ هذه الجملة بحرف عطف على جملة ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدّتَهُمْ إلاّ فِتْنَةً لِلّذِيْنَ كَفَرُوا﴾لان أهل الكتاب إذا استيقنوا ولم يؤمِنُوا فهُم يدخلون في عموم الذين كفروا فبينهم وبينهم كمال الاتصال، وهم فريق منهم. والخبر يعطيهم يقيناً بصدق الرسول ﷺ ويكون الامتحان امتحاناً لنفوسهم لا لعقولهم وأفكارهم. إن اليقين العلمي لا يغْنِي الإيمان بالقرآن وبالرسول محمدﷺ، فقد يستيقنون بالحقّويظلُّون جاحدين له مكابرةً وعناداً.

إن الإِيمان سلوكٌ إراديٌّ قلبيٌّ ونفسيٌّ، يظهر بالاعتراف والإقرار والتصديق، أمّا الاستيقان فهو انْكِشَافٌ عِلمِيٌّ غيرُ إرادي، وَكَمْ يَجْحَدُ الحقّ العارفون به، كما قال الله عزّ وجل في سورة (النمل٢٧) بشأن فرعون وقومه:

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

واستيقان أهل الكتاب يكون حجّة كبرىٰ عليهم يوم الدين. وهذا البلاغ الذي يعطي أهل الكتاب استيقاناً بصحة رِسَالَةِ الرسول يدفع عنهم الارتياب والتشكّك فيما يُبلّغه ممّا ليس لديهم في كتبهم حوله علم.

ولذلك جاء في النّصّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿ولاَ يَرْتَابَ الذِيْنَ أُوْتُوا الكِتَابَ والمُؤمِنُونَ﴾.

● وقسمُ المؤمنين يجدون هذا الخبر عن خزنة جهنّم مطابقاً لما في كتب أهل الكتاب من أخبارٍ صحيحة لم تُحرَّفْ فيزدادون إيماناً برسول الله، وبما يُبَلّغُهُمْ عن رَبّه وتندفع عنهم كل واردات الارتياب والتشكّك، فيأخذون كل ما يُبلّغهُم إياهُ رسول الله بالتسليم الكامل، والطمأنينة التّامّة، فقد تَكَامَلَت لديهم براهين صدقه من كل جهة.

ولذلك جاء في النّصّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَزْدَادَ الذِينْ آمنُوا إيمَاناً ولا يرتَابَ الذِيْن أُوتُوا الكِتَابَ والمؤمِنُون﴾.

فالغرض بالنسبة إليهم أن يزدادوا إيماناً، وتندفع عنهم خواطر الشّك والارتياب.

* * *

فمن أجل استيعاب كلّ هذه المواقف والأغراض، جاءت الآية موجزة يُشكل تركيبها على الناظر فيها، ولكن الذي يحلُّ مشكلاتها هو إبراز ما حذف منها للإيجاز.

ولدى إبراز المحذوفات المقدّرة نقول:

١ ــ وما جَعَلْنَا أَصحابَ النَارِ (أي خَزَنَتَهَا) إلاّ ملائِكَةً عِظَاماً.

٢ ــ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ «التي هي تسعة عشر» إلاّ فِتْنَةً عَامّة للذينَ كَفَرُوا، تُمتَحَنُ بها نفوسهم وعقولهم.

٣ ــ ولامتحان نفوس من يستيقن من الذين أُوتوا الكتاب إذ يجدون انطباق ما أخبر به النبيُّ الأميُّ على ما يجدونه في كتبهم من ذلك.

٤ ــ وليزداد الذين آمنوا إيماناً، إذ يجدون انطباق ما أخبر به رسولهم على ما لدى أهل الكتاب من حقٍّ لم يدخله التحريف.

٥ ــ ولكيلا يرتاب مستقبلاً الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون في أيّ بلاغ يُبلّغُهُ الرسولﷺ.

٦ ــ وليُستخرج ما في قلوب الذين في قلوبهم مرضُ الارتياب والشّك، وما في قلوب الكافرين، فَيُفْصِحُوا عنه، فيقولوا: ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟! جاحدين ومستهزئين.

● إذَنْ: فمن الناس بالنسبة إلى هذه المعلومة البيانيّة الدّينيّة عن أمرٍ من أمورِ الغيب ضالّون مُعطِّلونَ لدلائل عقولهم وأفكارهم. ومنهم ضالُّون بجحودهم مع استيقانهم بالحقّ. ومنهم مهتدون.

وعلى مثل تلك الحال التي عليها الناس بأقسامهم يكون حكم الله العليم الحكيم بالعدل، وهو إذ يحكم إنّما يحكُمُ بمشيئته التي لا مُجبر لها، لكنَّ حكمه لا يخالف علمه بعباده ولا يخالف حكمته وعدله، فهو يضلّ من يشاء، أي: يحكم بمشيئته على من ضلَّ بالضلالة. ويهدي من يشاء، أي: يحكم بمشيئته لمن اهتدى بالهداية. هذا ما دل عليه قول الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَنْ يَشَاء وَيَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ﴾.

● ولكن: هل اقتصر جنود الله على هذا العدد من الملائكة الذين هم خزنة جهنّم التسعة عشر؟

الجواب: لا. إن جنود الله كثيرون جداً، ما يحصيهم بعلمه أحدٌ غير الله عزّ وجلّ. دلّ على هذا قول الله تعالى في النصّ:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاّ هُوَ﴾.

● بناء على ما سبق فما البيانات عن سَقَرَ، وعن ملائكة التعذيب فيها إلاّ ذكرى ليتّعظ البشر فيها، فيُؤمِنُوا، ويستقيموا، ويضعوا في ذكراتهم دواماً أنّهم مُحاسبون على أعمالهم التي يعملونها في الحياة الدنيا، ومجزيون عليها يوم الدين.

وليس الأمرُ مجردَ إعلام ببعض ما في الغيب بالنسبة إليهم، لإعطائهم ثروة من المعارف الغيبية، فما في الغيب مما هو مطويٌ عنهم كثيرٌ جداً، ولا يعلمون منه شيئاً، وإنّما يطلعهم الله على شذرات منها تتعلق بتذكيرهم وموعظتهم وإقامة الحجّة عليهم.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿وَمَا هِيَ إلاّ ذِكرىٰ للبشَرِ﴾.

هكذا تكشَّف لنا ما في النص من عُمقٍ عجيب معجز، بسبب المحاذيف التي يمكن استنباطها بدلالات مختلفات.

وتكشَّف لنا ما فيه من استقصاء لأصناف الناس تُجاه رِسالة محمد ﷺ وما فيه من بيان موقف كل صنفٍ منهم، وبيان أنّ الخبر الواحد الذي اشتمل على بيان أن خَزَنَة النار تسعة عشر ملكاً، قد كان متعدّد الأهداف، فله في كل صنف من أصناف الناس هدف.

فالذين كفروا هو امتحان لهم، وأهل الكتاب من هؤلاء يفيدهم يقيناً بصحة رسالة الرسول، ويكون هذا اليقين حُجّة عليهم، والمؤمنون يزدادون إيماناً، والمرتابون الذين في قلوبهم مرض والكافرون ومنهم أهل الكتاب يطلقون عبارات استفهام المنكر المستهزىء.

المثال السابع والعشرون:

في الحذف الذي تقتضيه وتُشير إليه تعبيرات وكلمات موجودة في النّصّ، مع اللوازم الذهنية:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣مصحف/ ٨٩نزول) خطاباً للمؤمنين بشأن حال المنافقين تُجاههم:

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

إنّ قول الله تعالى في هذه الآية للمؤمنين بشأن المنافقين: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ يبين حالة من أحوالهم النفسية تُجاه الأحداث المتضادّة التي تجري للمؤمنين، وهذه الحالة تكون خفيةً عادةً، وقد تظهر منها بعض أمارات دون أن يشعروا بها حتى يُخفُوها.

لكن هذه الحالة النفسية لا تستدعي أن يوجّه المؤمنون للصبر والحذر من كيد المنافقين، إلاّ من خلال لازمها الذهني الذي يدلُّ على أنَّهم أعداء، والعدو لا بدّ أن يكيد، ومن خلال التصريح بعد ذلك بالتوجيه للصبر والحذر الشديد إلى مستوى اتّخاذ الوقاية اللازمة من مكايدهم، مع تقوى الله بوجه عام، ومن خلال البيان الذي جاء فيه أنّهم إذا فعلوا ذلك لم يضرّهم كيدُ المنافقين شيئاً. فالله تعالى سيحميهم منهم بدليل قوله في آخر الآية: ﴿إنّ الله بِمَا يَعْمَلُوْنَ مُحِيط﴾.

وباستطاعتنا تقدير المحذوفات التي دلّ عليها اللزوم الذهني، وتعبيرات وكلمات مذكورة في النصّ، كما يلي:

﴿إن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تسؤهُم وَإنْ تُصِبكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ ويكيدونكم، فاصبروا واتقوا مكايدهم بمختلف الوسائل واتّقوا ربّكُمْ ﴿وإن تَصْبُرُوا﴾ عليهم ﴿وتتقُوا لا يَضُرّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ فالله وَلِيُّكُمْ وهو يؤيدكم ويدفع عنكم ويحيط مكايدهم بما يحبطها ﴿إنّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فَلاَ يَنْفُذُ إليكم شيء من أعمالهم إلا بإذنه.

المثال التاسع والعشرون:

في الحذف الذي يقتضيه معنى النّصّ ولوازم دلالات تعبيرات جاءت فيه:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦مصحف/ ٤١نزول):

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: ألم يتّعظوا بالمكذبين بالرسل السابقين من أهل القرون الأولى، فيعلموا من ذلك أن الجزاء الرّبّاني واقع لا محالة، فمنه ما ينزل بمستحقّي العذاب في الحياة الدنيا، كالذين أُهلكوا من أهل القرون الأولى، ومنه ما يؤخّره الله إلى يوم الدين.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ مسبوق بكلام محذوف مقدّر ذهناً، أي: أيكذبون بالحياة الأخرى وبيوم الدين فيها، لمجرّد أنّ الذين ماتوا من أهل القرون الأولى لا يرجعون إليهم؟

وهل الرجعة إليهم هي الأمر الموعود به؟

إنّهم في الحياة الدنيا، والرجعة إنما تكون إلى الحياة الأخرى، حينما يأتي وقتها، وتأتي شروطها وظروفها.

* * *

المثال الثلاثون:

في الحذف الذي يقتضيه معنى النّصّ:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤مصحف/ ٩٢نزول):

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ

﴿عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الله يَشْهَدُ﴾ جملةٌ إستدراكية لا يُبدأ بها، فلا بُدّ من جملةٍ مُستدركٍ عليها، وهذه الجملة غير مذكورة في السياق، فالمعنى يقتضي تقديرها.

لقد جاء قبل (١٣) آية من هذا النصّ قوله تعالىٰ:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴿١٥٣﴾﴾.

أي: ليشهد هذا الكتاب للرسول محمد ﷺ بأنّه رسول الله حقّاً، فالسائلون هؤلاء من أهل الكتاب لا يشهدون للرّسول محمد بأنّه رسول الله، رغم الأدلة الكافية المثبتة لرسالته، ورغم معرفتهم من صفاته المذكورة في كتبهم أنّه هو الرسول الموعود به حقاً.

فهم لا يشهدون له بالرسالة، لكنّ الله يَشْهَدُ لهُ، وَشَهَادَتُهُ سبحانه وتعالى له قد جاءت بما أنزل إليه من قرآن معجز، لا يمكن أن يأتي بمثله بشر، إذ أنزله سبحانه وتعالىٰ إليه بعلمه، فهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، فالقرآن المجيد يتضمن شهادة من الله لرسوله، بأنّه نبيٌ مرسل.

فالجملة الاستدراكية ﴿لَكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ﴾ جاءت عطفاً على جُملة محذوفة، دلّ عليها سوابقُ للنّصّ، وقد جاء نظيرها قبل عدّة آيات في السورة، وهي قوله تعالىٰ:

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ... ﴿١٦٢﴾﴾.

* * *

المقولة الثالثة

حول مراعاة ظاهرة التضمين

من ظواهر الإيجاز البديع في التعبير القرآني ظاهرة التضمين، وهو أن تُذْكر كلمة ذات معنى، وتُضمَّن مع معناها معنى كلمة أخرى، ثُمَّ يُبْنَىٰ عليها كلامٌ على أساس معنى الكلمة الأخرىٰ التي ضمَّنَها إيَّاها صاحب البيان، كالتعدية بالحروف المناسب لمعنى الكلمة المضمّنة.

وقد حلّ الزمخشريّ في تفسيره «الكشّاف» كثيراً من الإشكالات في تعدية الأفعال وما يعمل عملها على غير طريقتها في الاستعمالات العربية العاديّة، بقاعدة التضمين هذه، لدى تفسير نصوص ظهر له فيها تعدية فعل أو ما يعمل عمله بحرف فعل آخر.

ويقول النحاة: إنَّ التضمين سماعيّ لا يُقاس عليه.

وأقول: التضمين لا يخضع لأصول النحاة التي استخرجوا على أساسها قواعدهم، إذْ هو فنٌّ رفيعٌ من الفنون البيانية، التي لا تخضع لقواعد الاستعمالات العربية الجامدة التقليدية، بل هو لمحٌ ابتكاريّ يُلاحظه البليغ، إذ يرى فِعْلَيْن مُتُقاربَيْن، أو نحوهما، وهو يريد استعمال كلٍّ منهما في كلامه، وهذا يقتضي منه أن يصوغهما في جملتين، ويُعْطِيَ كُلًّا منهما تعديته التي تُلائمه، لكنّه يرى ما هو أبدع من ذلك وأخصر، وأرفع أسلوباً في أداءٍ بَيَانِيٍّ جميل، يُحَرِّك ذهن المخاطب لفهمه، ويُعْجبُ لمَّاحِي الذَّكاء من البلغاء، وهو أن يختار أحد الفعلين بفنيَّة فيذكره بلفظه، ثم يأتي بما يتعدّى إليه الفعل الآخر أو يَعْمَلُ فيه، فيذكُرُهُ، ويحذف معمول الفعل الذي ذكره إذا كان له معمول، سواءٌ أكان مفعولاً به أو غير ذلك، ويستغني بذكر جملة واحدة عن ذكر جملتين.

ولدى تحليل التضمين يظهر لنا أنّه صنف من أصناف الحذف، الذي يُتْرَكُ في اللفظ ما يَدُلُّ عليه.

فالفعل المذكور يَدُلُّ بحسب تعديته العربية على معموله المحذوف، والمعمول المذكور مع قرائن النّصّ يَدُلُّ على عامله المحذوف، ويَنْتُج عن ذلك أداءٌ مُوجَزٌ بليغ، اعتمد على أسلوب بياني ذكيّ.

ولا بُدَّ أن نُدْرك أنّ مثل هذا الإجراء البياني لا يستقيم بين كُلِّ فعلين أو ما يعمل عملهما، حتّى يُطَبَّقَ بغباء، سَوَاءٌ استقام الأداء البياني أو لم يستقم، بل يحتاج من البليغ رؤيةً فنيَّةً بيانيَّة، يصل بها إلَىٰ أنَّه لو استخدم هذا الأسلوب في جملته لأدْرَكَه البلغاءُ والأذكياءُ دون إعناتٍ ذهني، ويُدْرِكُهُ الآخرون بالتدبُّر والتأمُّل.

فمثلاً: أريد أن أقول: جلستُ على فراشي، وأَمَلْتُ جسْميَ إلى مُتَّكَئِي. فأختصر الكلام فأقول: جلست إلى مُتَّكَئِي، ومثل هذا الإيجاز القائم على الحذف والإيصال، أسلوب ينهجه بلغاء العرب، وتقدير الكلام: جلستُ مائلاً إلى متَّكَئي.

ومن نظائر ذلك في الاستعمال القرآني بشأن المنافقين، قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢).

(أ) بشأن منافقي العرب:

﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾.

(ب) وبشأن منافقي اليهود:

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

إنَّ فِعلَ (خلا) يأتي في اللّغة للدّلالة على معنى انفراد الإنسان في خلوة، لا يكون معه فيها أحد، فيقولون: خلا الرجل، وربما قالوا: خلا بنفسه. فإذا أرادوا بيان أنّ الخلوة حصلت مع فريق آخر قالوا: خلا به، أو خلا معه، ولا يُعَدَّىٰ فعلُ (خلا) بحرف (إِلَىٰ) بحسب أصل الاستعمال، فإذا وَرَدَ شيءٌ من ذلك فيحمل على التضمين.

فإذا قيل: خلا إليه، فهو على تضمين فعل (خلا) معنى فعلٍ آخر يَتَعَدَّىٰ بحرف (إِلَىٰ) مناسب لفكرة النصّ.

ففي النصّ الأوّل يمكن تقدير الكلام فيه على الوجه التالي: فإذا خَلَوْا من جماعة المؤمنين ورجعوا إلى شياطينهم قالوا لهم: إنَّا معكم إنَّما نَحْنُ مستهزئون.

وفي النصّ الثاني يمكن تقدير الكلام فيه على الوجه التالي: فإذا خلا بعضهم مُنْضَمّاً إلى بعض، قالوا: أتحدّثونهم...

* * *

الأمــثــلــة

المثال الأول:

قول الله تعالى في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/١١٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

أي تثاقلتم مائلين أو مخلدين إلى الأرض، فتعدّت كلمة تثاقلتم هذه التعدية (إلى الأرض) ملاحظة للمعنى الذي تضمّنته، وهو الميل والإخلاد إلى الأرض.

ولنا أن نقول: إنَّ مثل هذا جارٍ على طريقة الحذف القرآني، وهو كثير ما وُجدت دلالة تدلّ عليه.

فحيث وُجدت تعدية لا تلائم الفعل السابق لها فهي دلالة على محذوف يستدعي هذه التعدية. وهذا المحذوف قد ألقي معناه على النصّ المذكور تضميناً على رأي أصحاب فكرة التضمين، أو يقدّر على أنه محذوف دلّت عليه التعدية.

* * *

المثال الثاني:

يقول الله تعالى في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾.

ظاهر المعنى يقتضي أن يقال: «ما منعك أن تسجد إذْ أمرتك» كما جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾.

وسورة (ص) نزلت قبل (الأعراف) وكلتاهما مكيتان.

ونقول في توجيه قوله تعالى: «ما منعك ألاّ تسجد» إنَّ فعلَ منع تضمّن معنى فعل (حمل) فعدّي تعديته على رأي أصحاب فكرة التضمين، فالمعنى: ما منعك عن السجود حاملاً لك على ألاّ تسجد.

أو نقول: إنَّ الآية فيها محذوفان دلّ عليهما مذكوران، أما المحذوف الأول فهو معمول الفعل المذكور، وأما المحذوف الثاني فهو فعل المعمول المذكور، والتقدير: ما منعك أن تسجد فحملك على ألاّ تسجد. ونظراً إلَى أن آية (ص) قد

جاءت على الأصل دون حذف، كان مبدأ تكامل النصوص يستدعي أن تأتي آية (الأعراف) وفيها ما يدل على المعنى الذي يدلّ عليه: ما حملك على ألّا تسجد؛ لأنّ مقاضاة إبليس تستدعي سؤاله عن أمرين:

الأول: عن المانع له عن طاعة الأمر.

الثاني: عن الدافع له على المعصية.

فسئل عن المانع وعن الدافع، ومن الجواب تبيّن أنّ كِبْرَ إبليس بعنصريته القائمة على وهم فَضْلِ الأصلِ الناري على الأصل الطيني، قد كان هو المانع عن الطاعة، وهو الدافع إلى المعصية، والحامل عليها.

* * *

المثال الثالث:

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله وللمؤمنين من بعده في سورة (المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول):

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ . . . ﴿٤٨﴾﴾.

ففي قول الله تعالى في هذه الآية ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ نلاحظ أنّ فعل «اتَّبَعَ» يمكن لُغَةً تَعْدِيتهُ بحرفي (على) و (في) فنقول: اتَّبَعَهُ عَلَىٰ مَذْهَبِهِ، واتَّبَعَهُ في أَمْره. ولا تَأْتي تَعْدِيَتُهُ بحرف (عن).

فكيف نفهم تعدية هذا الفعل بحرف (عن) في هذه الآية:

﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾

وبقليل من التأمُّل واهتداءً بقاعدة «التضمين» نُلاحِظُ أنّ أصلَ الكلام: وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ في مَنَاهِجِ أحكامهم الباطلة، فتنصرف عمَّا جَاءَكَ من الْحَقّ.

فَحُـذِفَ مِنْ مَعْمولاتِ الفِعْـلِ الأَوَّل «في مناهـج أحكـامهم الباطلة» وحُـذِفَ الفِعْلُ الثاني وهـو «فتنصرف» وأُبْقِيَ معمـوله، وجـرى تَضمينُ الفعـلِ الأولِ معنى الفعل الثاني. وتَقْدِيرُ الكـلام يكون على الـوجه التـالي: ولا تَتَّبِـعْ أَهْوَاءَهُمْ مُنْصَـرِفاً عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ.

* * *

المثال الرابـع:

قـال الله عزَّ وجـلَّ في حكايـة ما جـرى بين موسى وهـارون عليهما السـلام، وهـو يلومُهُ بشـأن عبـادة بني إسـرائيـل العجـل، في سـورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ؟! ۝٩٣﴾.

في هذا النّصّ نلاحظُ صياغةً مُخَالفةً لِمَا يُرِيـدُ مُوسَىٰ أَنْ يَقـولَهُ لأخيـه هارون عليهمـا السلام، إنّـه يُرِيـدُ أَن يَقُولَ لَـه: ما منعـك من أن تتبعني إذْ رأيْتَ القومَ قـد ضَلُّوا بِعِبادَةِ العجل.

ولا يريد أن يقول له: ما منعك من أن لا تَتَّبِعَني، لأنّ واقع حالـه أَنَّه لم يلحق به، مع أنه قد رأى القوم قد ضلُّوا إذْ عَبَدُوا العجْلَ الذَّهبِـيّ.

فهل نفهم النصّ على أنّ حرف (لا) النافية فيه حرف زائـد هكذا؟ إنّ القـرآن المجيد مصونٌ عن الزوائد دون غرض بياني.

إذَنْ: فكيف نفهم النّصّ؟

ننـظر في الآية بـإمعان وتفكُّـرٍ، ونستهدي بقـاعدة التضمين، فينكشف لَنـا أَنَّ مُوسَىٰ عَلَيهِ السلام أراد أن يسأل أخاه عن أمرين:

- عن المانع له من اتّباعه واللّحاق به حين ذهب لميقات ربّه.
- وعن الحامل له على البقاء مع القوم.

والكلام الذي يتضمَّن السؤال عن الأمرين يأتي على الوجه التالي:

ما منعك أن تَتَّبِعني إذا كان في الأمر مانع، وما حَمَلَكَ على أن لا تتَّبعني إذا كان في الأمر مقتضٍ.

ولكن يمكن اختصار هذا الكلام مع أدائه الغرض المطلوب منه، وذلك بتضمين فعل «مَنَعَكَ» معنى فعل «حَمَلَكَ» وذكر الأول وحذف الثاني، وإبقاء معمول المحذوف، ويتمُّ بذلك الدلالة على المعنيَيْن معاً: (المانع والحامل) بطريقة بيانيَّة مُوجَزَةٍ يكتشفها المتدبّرون لكلام الله ببصيرة. وتقدير الكلام يكون كما يلي:

يا هارون ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضلُّوا من اتّباعي أو مَا حَمَلَكَ على أن لا تتَّبعني.

ولا أرى في هذا النصّ أن نقدّر: ما مَنَعَكَ حاملاً لك على أن لا تتبعني. لأنّ هذا يفيد أنّ شيئاً واحداً هو المانع وهو الحامل، مع أن التحليل للمعاني قد كشف لنا أنّ المانع والحامل قد يكونان أمرين منفصلين، قد يجتمعان، وقد يُوجَدُ واحدٌ منهما فقط. والله أعلم.

ألا نرى في هذا الأسلوب إيجازاً بارعاً، وبياناً رَفيعاً؟.

وقول موسى لأخيه: «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي؟» قد جاءت الإشارة إليه فيما نزل في العهد المكيّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) في قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

فقد تَضَمَّنَ خِطَابُ التَّكْلِيفِ بتصريف أمور بني إسرائيل حالَ غيابه ما يلي:

١ ـ «اخْلُفْنِي في قَوْمِي» أي: أنت المسؤول عن إدارة شؤون القوم.

٢ ـ «وأَصْلِحْ» أي: اعمل كلَّ ما فيه إصلاح لهم في أمور دينهم ودنياهم.

٣ ـ «ولا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المُفْسِدِينَ» أي: بل فارقهم، وَيَلْزَمُ من ذلك أنّهم إذا

فسدوا جميعاً، كما حصل لهم بعبادتهم العجل، باستثناء المختارين منهم للميقات، فعليه أن يتَّبِعَهُ إلى ميقات ربّه، لا أن يَبْقَىٰ معهم ساكتاً عن جريمتهم، ولعلّ هذا هو الذي قال له من أجله: أفعصيتَ أمري، لكنَّها مخالفةٌ لِلاَزِم قوله، لا لصريحه. وفيه دلالةٌ على أنّ النهي عن الشيء أمرٌ بضدِّهِ، كما يقول علماء أصول الفقه.

* * *

المثال الخامس:

قال الله عزّ وجلّ حكايةً لبعض ما قال موسى لفرعون في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾.

كلمةُ «حقيق» في هذا النصّ على صيغة (فَعِيل) مِنْ فعل (حَقَّ) إذا ثَبَتَ، وَإِذَا وَجَبَ. فحقيق وصفٌ يأتي بمعنى «ثابت» وبمعنى «واجب».

وفي الآية قراءتان:

● فرواية «نافع»: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لاَ أَقُولَ على اللَّهِ إلَّا الحق﴾ أي: واجبٌ عليَّ هذا، وهذه القراءة ظاهرة الدلالة لا إشكال فيها.

● ورواية باقي القّراء العشر: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لاَ أَقُوْلَ عَلَىٰ اللَّهِ إلاَّ الْحَقّ﴾ وهذه القراءة التي يقرأ بها جمهور القرّاء تُشْكِلُ صياغَتُها على التالي، ويحتاج فهمها إلى تأمُّلٍ وتَدَبُّر.

والإشكال آتٍ من تَعْدِيَة «حقيق» وهو وصف يعمل عمل فعله، بحرف الجرّ (على) مع أنّ فعل (حقّ) لا يتعدى بهذا الجرف، سواءٌ أكان بمعنىٰ «ثَبَتَ» أو بمعنى «وَجَبَ» أَمَّا بمعنَىٰ «ثَبَتَ» فيتعدى بنفسه، وعليه يقول: حقيق أن لا أقول. وأمّا بمعنى «وجب» فيتعدَّى بحرف (على) كما في قراءة نافع.

ونَتَفَكَّرُ في الأمر الذي يُريد أن يُبَيِّنه مُوسى عليه السلام لفرعون، فَيَنْكَشِفُ لنا أَنَّه يُرِيد أَنْ يَقُولَ له ما يلي:

● يَجِبْ عليَّ أَنْ لَا أَقول على الله إلَّا الحقّ، بعد أن أرسلني وأيّدني بآياته.

● فأنا حريصٌ أشدّ الحرص على أن لا أقول على الله إلَّا الحق، مخافة أن يعاقبني ويخذلني.

● فثابتٌ إِذَنْ أَنْ لَا أَقول إلَّا الْحَقّ.

هذه أفكار ثلاث:

١ ــ أمَّا الفكرةُ الأُولى فقد دَلَّت عَلَيْهَا قراءة نافع ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إلَّا الْحَقّ﴾ أي: واجبٌ وفرضٌ عليَّ هذا.

٢ ــ وأمَّا الفكرتان الثانية والثالثة، فقد دلّت عليهما قراءة جمهور القرّاء بأسلوب التضمين ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إلَّا الْحَقّ﴾.

وبيان ذلك فيما يلي:

● إنَّ كلمة «حَقيق» بمعنى ثابت تتعدّى بنفسها دون حرف جرّ، فيقال: حقيقٌ هذا الأمر، أي: ثابت.

● وإنَّ كلمة «حَريص» تَتَعدَّىٰ بحرف الجر (على) فيقال: حريصٌ على هذا الأمر.

فإذا ضُمِّنَتْ كَلِمَةُ «حَقِيق» معنى كلمة «حريص» أمكن تعدية «حقيق» مثل تعدية «حريص» مع بقاء دلالة كلمة «حقيق» كما هي، وإنما حصل هذا للاكتفاء بجملة عن جملتين.

فجاءت عبارة النَّصّ: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إلَّا الْحَقِ﴾.

والتقدير: حقيق «أي: ثابت. أو واجب» أن لا أقول على الله إلَّا الحق، فأنا حريصٌ على أن لا أقول على الله إلَّا الحق.

ومع القراءة الثانية نقول: لأنَّه حقيقٌ عليَّ، أي واجبٌ عليَّ أَنْ لا أقول على الله إلَّا الحق، فمن الثابت أن لا أقول على الله إلَّا الحق، فأنا حريصٌ على أن لا أقول على الله إلَّا الحق.

وهكذا ظهر لنا الإبداع الإيجازي في البيان القرآني. والحمد لله على فَتْحِهِ وتوفيقه.

* * *

المثال السادس:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول):

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

إنَّ فعل ﴿اسْتَحَبَّ﴾ الوارد في هذا النصّ قد أَخَذَ مفعوله وهو ﴿الحياة الدنيا﴾ وهو لا يتعدّى بحرف (على) فما موقع عبارة ﴿على الآخرة﴾ في هذا الكلام؟

لقد وجدنا القرآن في سورة (الأعلى/٨٧ مصحف/٨ نزول):

قد خاطب الناس بقوله:

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾.

وأبانَ في سورة (النازعات/٧٩ مصحف/٨١ نزول) أنّ مَنْ طَغَىٰ وَأَثَرَ الْحَيَاة الدُّنيا فإن الجحيم هي مأواه فقال تعالى فيها:

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾.

وفعل آثر يتعدَّىٰ بِحَرْفِ (على) كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ على أنفسهم﴾.

فدلَّنا هذا على أنّ فعلَ (استحبَّ) الوارد في سورة (النحل ١٦) قد ضُمِّنَ معنى فعل (آثر) فعُدِّيَ تَعْدِيَته، ويكون تقدير الكلام في الآية: «ذَلِكَ بِأَنَّهم استَحَبُّوا مُؤْثرينَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرة».

وقد تكرّر هذا الاستعمال في القرآن في (التوبة ٩) آية (٢٣) و (فصلت ٤١) آية (١٧) و (إبراهيم ١٤) آية (٣) وكلّها جارية على ما سبق بيانه في آية (النحل).

* * *

المثال السابع:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول):

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

إنَّ فعل (يجمع) الوارد في هذه الآية قد أخذ مفعوله، فما موقع (إلى يوم القيامة) في قوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؟

بالتأمل نستطيع أن نكتشف أنّ الكلام على تضمين فعل (يجمع) معنى فعل (يَسُوق) ويكون تقدير الكلام في الآية:

«ليجمعنّكُمْ مَسُوقين إلى يوم القيامة».

وَقد تكرّر هذا الاستعمال في القرآن المجيد في (الجاثية ٤٥) آية (٢٦) بحرف إلى، و (التغابن ٦٤) آية (٩) بحرف اللاَّم و (النساء ٤) آية (٨٧) بحرف إلى، وكلّها جارية على ما سبق بيانه في آية (الأنعام).

• • •

القاعدة الخامسة عشرة

«حـول التكريـر وأغراضه»

على متدبّر كلام الله أن يبحث في كل نصّ يبدو له أنّه من النصوص المكـررة في القرآن ، ليكتشف غرض التكرير إذا كان النص مكرراً حرفياً، وليكتشف فـوارق المعاني إذا كان النص المكرّر مختلفاً ولو بعض الشيء، ولو بكلمة أو حرف في كلمة، فكثير من النصوص التي يُتوهَّم فيها التكرار هي ليست في الحقيقة مكرّرة، ولكنّها متكاملة يؤدي بعضهـا من المعاني المـرادة ما لا يؤديـه البعض الآخر، بـزيادة بعض الأفكـار على أصل الموضوع الذي يراد بيانه، وذلك من جهات مختلفات.

ولاكتشـاف أغـراض التكـريـر الحـرفي لا بـدّ للمتـدبّـر من النـظر في سيـاق الموضوع، فقـد يكون للنصّ الـواحد عـدّة أهداف يمكن أن يـدُلّ عليها، ومـع كلّ سياقٍ يبرز أن المراد التركيز على واحد أو أكثر منها، أو يكون في النص الواحد عدّة أفكـار جزئيـة، ويؤتى به في مـواضع متعـدّدة من القـرآن، للتنـاسب بين المـوضـع وما فيه من أفكار، وبين بعض أفكار النصّ المكرر.

* * *

أوّلاً :

من أغراض التكرير متابعة الواقـع في أحداثه وصياغة النصـوص بطريقـة تدلّ عليه، فهـي فيما بينها متكاملة غير مكرّرة.

فمن النصوص التي تبدو أنها مكرّرة وهي ليست كذلك بل هي متكاملة، جرت فيها متابعة الواقع البشري ما يلي:

يقول الله تعالى في سورة (الصف/٦١ مصحف/١٠٩ نزول): بشأن الكافرين، وهي سورة مدنية:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

لقد نزل هذا النصّ في أواسط المرحلة المدنيّة، ثمّ نزل بعده في أواخرها قول الله تعالى في سورة (التوبة/ ٩مصحف/ ١١٣نزول): بشأن اليهودي والنصارى:

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

هذان النّصّان متشابهان، ولكنهما ليسا بمتماثلين متطابقين تماماً، فما في الصفّ: ﴿يريدون ليطفئوا﴾ وما في التوبة: ﴿يريدون أن يطفئوا﴾. وما في الصف: ﴿والله متمّ نوره﴾ وما في التوبة: ﴿ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره﴾.

ونظراً إلى هذا الاختلاف بين النّصّين ولو كان جزئيّاً، فالأولى البحث عن اختلاف دلالتيهما، ليتكاملا في أداء المعنى الكلّي.

ويبدو لي في دلالة: ﴿يريدون ليطفئوا﴾ أنّهم يريدون مرادات مختلفات يتخذونها وسائل ليطفئوا نور الله بأفواههم، أمّا ﴿يريدون أن يطفئوا﴾ فتدل على أنهم يريدون الإطفاء، ولعلّهم بعد اتخاذ الوسائل المختلفة تَصَوَّرُوا أنّهم قد وصلوا إلى مرحلة الإطفاء، بعد أن كانوا في مرحلة إرادة الوسائل التي توصلهم إلى الإطفاء الذي هو هدفهم الأخير.

والفارق الآخر بين النّصّين، والملاحظ بين: ﴿والله متم نوره﴾ وبين ﴿ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره﴾ يتناسب مع الفارق الأول، وذلك لأن الكافرين ما داموا في مرحلة إرادة الوسائل التي من شأنها أن تصل إلى إطفاء نور الله، فالله متم نوره، والتعبير هنا لا يزيد على إثبات وصف إتمام النور. لكنّهم إذا وصلوا بعد اتخاذ الوسائل إلى مرحلة إرادة إطفاء نور الله. فالمناسب له أن يقال باهتمام: ﴿ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره﴾.

فتكاملت بذلك المعاني الحركيّة الدالّة على الدّعوة، وأعدائها، وأعمالهم ضدّها، وإحباط الله لأعمال الأعداء.

هذا مع تأكيد أن الأساس في هذه الرسالة الرّبّانيّة واحد، دل عليه في كلٍّ من النّصين قول الله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسولَهُ بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون﴾.

* * *

ثانياً:

ومن أغراض التكرير تجزئة الأفكار المراد بيانها حول موضوع واحد، لتتكامل النصوص فيما بينها مؤدّية غرض التأكيد لأصل الفكرة، ومؤدّيَةً جوانب بلاغيّة رفيعة هي من عناصر الإعجاز القرآني. ومن أمثلة ذلك ما يلي:

المثال الأول:

يقول الله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧مصحف/ ٣٩نزول):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (الزمر/ ٣٩مصحف/ ٥٩نزول):

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا... ﴿٦﴾ ﴾

هاتان آيتان مكّيّتان، وقد نزلت آية (الأعراف) أوّلاً، ويُلاحظ أنّ فيها زيادة بيان غاية السكن من خلق الزوجة. أمّا آية (الزمر) ففيها زيادة بيان أنّ النفس الواحدة الأولى، وهي آدم عليه السّلام، قد مرّت عليه مدّة بعد خلقه كان فيها وحيداً، قبل أن يخلق الله منه زوجه، بدليل أنّ العطف فيها قد جاء بحرف (ثم) الذي يدل على التراخي بخلاف آية (الأعراف) فالعطف فيها بحرف (الواو) الدالّ على مطلق الجمع كما يقول النحاة.

* * *

المثال الثاني:

أنزل الله في أوائل العهد المدني قوله في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول):

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

ثم أنزل في أواخر العهد المدني قوله في سورة (المائدة/٥ مصحف/١١٢ نزول):

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ ﴿٨٩﴾﴾.

هاتان آيتان مدنيّتان، أمَّا آية (البقرة) منهما، فقد دلَّت على فكرة كسب القلب، وهو قصد الحالف أن يَحْلُفَ اليمين، لا أن تجري اليمين على لسانه وهو لا يقصد الحلف ولا يريده. وأمَّا آية (المائدة) فقد دلّت على فكرة ربط اليمين ربطاً مجزوماً به ﴿عقَّدْتُمُ الأيمان﴾.

إنَّ فكرة (كَسْبِ القلوب) قد تشمل ما دون الإرادة الجازمة، من الخاطرة والرغبة والهمّ، لكنّ هذه من الأمور التي عفا الله عنها، فاحتاج نصّ (كسب القلوب)

إلى بيان يكشف المراد، فأنزل الله في (المائدة) وهي من أواخر ما نزل من السور ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الإيمان﴾.

فتكامل النصّان على بيان الحكم المراد.

* * *

ثالثاً:

ومن أغراض التكرير حكاية الواقع المكرّر، سواء أكان ذلك فيما حدث في الماضي، أو فيما سيحدث في المستقبل، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

المثال الأول:

أنزل الله في العهد المكي قوله في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

ثم أنزل الله في العهد المكي أيضاً قوله في سورة (الحجر/١٥ مصحف/٥٤ نزول):

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ولدى التأمل يظهر لنا احتمال قوي نرجّحه، وهو أنّ الله تبارك وتعالى قد قال قولين للملائكة في زمنين.

فالمرّة الأولى: حينما كان آدم في مرحلة الطين، والقول هو ما جاء في سورة (ص).

والمرّة الثانية: حينما كان آدم في مرحلة الحمأ المسنون (أي المصوّر) أو في

مرحلة جفاف الطينة التي اسودّت وتغيّرت رائحتها وصُوّرت، فكانت بعد جفافها صلصالاً كالفخّار، والقول هو ما جاء في سورة (الحجر).

* * *

المثال الثاني:

أنزل الله في العهد المكي قوله في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول):

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

ثم أنزل الله في العهد المكي أيضاً قوله في سورة (المؤمنون/٢٣ مصحف/٧٤ نزول):

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

ثم أنزل الله في العهد المكيّ قوله في سورة (السجدة/٣٢ مصحف/٧٥ نزول):

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

هذه نصوص ثلاثة تحكي واقعاً سيتكرّر حصوله في أزمنة ثلاثة:

فالكافر حينما يوقف على النار يوم الدين يتمنّى أن يُردّ إلى الدنيا ليكون من المؤمنين، ولكن لا يستجاب لأمانيه، فقد انتهى دور الامتحان، وجاء دور الجزاء. وهذا الموقف هو ما جاء بيانه في سورة (الأنعام).

والكافر عند الموت يقول: «رب ارجعونِ لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت» فيُرفض طلبه مع زجر، وهذا الموقف هو ما جاء بيانه في سورة (المؤمنون).

والكافر في موقف الحساب يوم القيامة يقول مثل مقالته عند الموت، ولكن لا يلتفت إلى طلبه، لقد سبق أن رفض طلبه هذا.

وهكذا نلاحظ في هذه النصوص الثلاثة أنه لا تكرير فيها، لأن كلّ نصّ منها يتحدّث عن موقف من المواقف. يضاف إلى ذلك قاعدة التكامل في هذه النصوص، ففي كلّ واحد منها دلالات انفرد بها، كما فيها تأكيد أصل فكرة الموضوع.

وقد أوفيت استيعاب نصوص هذا المثال مع شرحها في قاعدة تكامل النصوص القرآنية في الموضوعات التي اشتمل عليها القرآن المجيد، ويجد القارىء هنالك عدة أمثلة أخرى[1].

* * *

رابعاً:

ومن أغراض التكرير قصد هدف من الأهداف التي يرمي إليها النص في كلّ مرّة، لأنّ المناسبة استدعت قصد هذا الهدف.

فمن النصوص البيانية ما له عدّة أهداف، فيؤتى به في سياق ما لهدفٍ منها، وفي سياق آخر لهدف آخر، وفي سياق ثالث لهدف ثالث، وهكذا.

إنَّ السياق مثلاً قد يستدعي الاستشهاد بجانب من جوانب قصة موسى مع قومه، فيؤتى بلمحات منها أساسيات، مع إبراز ما استدعاه السياق، ليكون شاهداً أو عبرة للموضوع الذي جيء بالقصة من أجله.

ثمّ يأتي سياق آخر في سورة أخرى، وفيه ما يستدعي الاستشهاد بجانب آخر من جوانب قصة موسى مع قومه، فيؤتى بلمحات أساسيات منها، مع إبراز ما استدعاه هذا السياق الثاني، ليكون شاهداً أو عبرة للموضوع الذي جيء بالقصة من أجله.

وهكذا. فالقصة الواحدة قد يستشهد بها في عشرات من المناسبات المختلفة، إذْ فيها لكل مناسبة ما يصلح شاهداً أو عظة أو عبرة.

---

(١) انظر الصفحات من (٧٧ ــ ٨٢) من القاعدة السادسة.

فلتطمين قلب الرسول والمؤمنين يؤتى بقصة موسى المنصور على فرعون وجنوده بتأييد الله له ولمن آمن معه.

ولخلع قلوب الجبابرة وجنودهم يؤتى بقصة موسى المنصور على فرعون وجنوده بالغرق.

ولبيان دعوة الجبارين في الأرض إلى دين الله يؤتى بقصة موسى ودعوته لفرعون، وما جرى بينهما من مناظرات.

ولبيان سنةٍ من سنن الله في إمهال الذين كفروا وطغوا في الأرض، مع معالجة تأديبهم بالآيات والعقوبات الجزئية، يؤتى بقصة موسى مع قومه، وكيف تتابعت على قومه الآيات التسع.

وهكذا إلى غير ذلك من أهداف تستدعيها المناسبات، وهي أغراض تربوية، يظهر فيها توجيه الاهتمام في المرحلة التربوية للعناصر الملائمة لها من القصة.

* * *

خامساً:

ومن أغراض التكرير متابعة الجرعات التربوية، كالجرعات الدوائية، ويظهر هذا في نصوص الأمر بالتقوى، وفي نصوص الترغيب والترهيب، وفي النصوص المبينة للأسس الاعتقادية الإيمانية، بغية تثبيتها وتمكينها.

فقد تستدعي الحكمة التربوية مع توجيه تكليف جديد تكرير التذكير بالتقوى، وتكرير الترغيب والترهيب، وتكرير ربط ذلك بما يوجبه الإيمان أو يستدعيه.

* * *

سادساً:

ومن أغراض التكرير تحقيق جوانب بلاغية في النصّ، وهي لا تتحقق إلَّا بالتوزيع، إذْ تُعرض الفكرة الواحدة بِصُوَرٍ بلاغيّة رائعة مختلفة، مع مطابقة مقتضى الحال في كُلّ ٍ مِنها.

وبـذلك يتحقق الإعجـاز التكـامُلِي في القـرآن المجـيد، ومنـه روايـة القصـة الواحدة بعبارات قليلات، وعبارات متوسطات الطول، وعبارات أطول، وفي مناسبـات متعـدّدات، وفي سور متبـاعدة التنـزيل، وفي أزمنـة مختلفة، دون أن تتعـرّض إلى اختـلاف، بل تتكامل فيما بينها تكاملاً عجيباً، ومثل هذا لا يكون من بشر، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

* * *

الخلاصـــة:

هكذا تكشّفت لنا ستـة أغراض من أغـراض التكريـر في القرآن المجيـد، مع تحقيق التأكيد لأصل الموضوع الذي تكرّرت فكرتـه، وقد يكتشف المتـدبّر المتتبـع لآيات القرآن أغراضاً أخرى، كلُّها جـديرة بـالاعتبار، وبـأن تُقْصد في كتـاب عظيم معجز، فيه بيانٌ، وتعليمٌ، وتربيةٌ، وهدايـةٌ، وتكاليف يحسُن فيهـا التدرج، ووعـدٌ، ووعيدٌ، وإنذارٌ، وبشارةٌ، وجمْعٌ مُتَشابك لهداية الناس أجمعين، وتوجيههم للصراط المستقيم، مـع ما فيـه من إقناع وجـدليات، وغيـر ذلك من علوم إنسـانية ونفسيـة، ومعارف عن الكون والوجود، والمبدأ، وواجبات رحلة الحياة، والمصير.

فمهما أمكن استعباد فكرة التكريـر لمجرّد التـأكيد كـان ذلك هـو الذي ينبغي تدبّر القرآن بمقتضاه.

والبحث والتعمُّق في التـأمّل وإمعـانُ التدبّـر، أمـورٌ كفيلة ــ بتـوفيق الله ــ أن تكشف للفكـر روائـع جـديـدة في كتـاب اللّهِ الحكيم، لم يسبق للمتـدبّـرين أن تنبَّهُوا لها.

• • •



القاعدة السادسة عشرة

«حول ضرورة البحث في معاني الكلمات القرآنية بحثاً علميّاً لغويّاً»

١ ــ على متدبّر كتاب الله بتعمُّق أنْ يبحث في معاني الكلمات الواردة فيه بحثاً علميّاً لغويّاً، بالرجوع إلى أُمّهات المعاجم اللُّغَوية، وبالتبصُّر في مختلِف معاني الكلمة واستعمالاتها الحقيقية والمجازية في لغة العرب إبّان نزول القرآن.

إنّ تَحَرِّيَ معنى الكلمة كما هي في كلام العرب، دون إضافة معانٍ أخرى لا تدُلُّ عليها الكلمة في استعمال العرب لها، ما لم تكن الدلالة مستفادة من دالٍّ آخر في النص، من شأنه أن يساعد بتوفيق الله على فهم المعنى المراد من النصّ، وأن يكون تدبُّرُه أقرب إلى الصواب، وأكثر تَذْليلاً لِمُهِمَّة إدراك ما يشتمل عليه النصّ من دلالات.

ويخطىء كثيراً من يتدبَّرُ آياتِ الله دون أن يرجع في كلّ كلمة قرآنية إلَىٰ دلالاتها الأصلية في كلام العرب، مُتَتَبِّعاً في معاجم اللّغة، وفي نصوص من يُسْتَشْهَد بأقوالهم من العرب. وبعد البحث يختار من معاني الكلمة المعنَىٰ الّذي يُلائِم دلالة النصّ القرآني بوجه عامّ.

وحين تدعو الضرورة إلى إخراج الكلمة عن معناها الأصلي إلى معانٍ اسْتُعِيرَت الكلمة للدلالة عليها، فليكُنْ ذَلك ضمن ضوابط الاستعمالات القرآنية، السائرة وفق المناهج العامة لكلام العرب، واستعمالاتهم في الاستعارة والتشبيه والمجاز والتوسُّع في دلالات الألفاظ من الحسِّيَّاتِ إلى المدركات الفكرية

أو الأمور الغيبيَّة، والتوسُّع بالاصطلاح القرآني لمعانٍ دينيّةٍ عُرِفَتْ عن طريقِ النصوص الدّينيّة، كألفاظ الصلاة، والزكاة، والصوم، والحجّ، والإيمان، والإسلام، والنفاق، والربّا، وغير ذلك.

وقد أحسن ابن جرير الطبري في تفسير كلمة «ثَجّاجاً» من سورة (النبأ ٧٨) إذْ عقَّبَ على ما نَقَل عن ابن وهْبٍ من تفسيره «ثجّاجاً» بقوله: «كثيراً». فقال ابن جرير: «ولا يُعْرَف في كلام العرب من صفة الكثرة الثَّجُّ، وإنَّما الثَّجُّ الصَّبُّ المتتابع. ومنه قول النبي ﷺ: «أفضل الحجّ العجُّ والثَّجّ» يعني بالثَّجّ صبَّ دِمَاءِ الهدايا والبُدْن بذبحها. يقال منه: ثَجَجْتُ دمَهُ فَأَنَا أَثُجُّهُ ثَجّاً، وقد ثَجَّ الدَّمُ، فَهُوَ يَثُجُّ ثُجُوجاً» انتهى.

٢ ـ ثُمّ على مُتَدبِّر كتاب الله أن ينظر فيما ورد من تفسير مأثور وأن يتقيّد بجعله معنىً مقصوداً إذا صحّ عن النبيّ ﷺ، من عموم المعنى الذي يدلّ عليه النص، أو تدلُّ عليه الكلمة القرآنية.

٣ ـ وأن ينظر فيما قالَهُ أهل التفسير في معنى الكلمة، وفي تفسير المراد منها، ليكون ذلك هادياً له، ولافتاً نظره إلى معانٍ قد لا تخطر على باله.

٤ ـ وأن يَنْظُر في مختلف المواطن التي استعملت فيها الكلمة في القرآن، فمن شأن هذا النظر أن يكشف للمتدبّر الدلالات الأساسيّة للكلمة في الاستعمال القرآني، هل دلالَتُها تدور حول المعنى اللغوي، أوحول المعنى في الاصطلاح الشرعيّ القرآني، ومع الحقيقة أو مع المجاز، أو متنوعة.

٥ ـ وأن يُلِمَّ بالمفاهيم الإسلامية المتعلّقة بموضوع النصّ، ثمَّ بالمفاهيم الأخرى، مع الاطلاع على مختلف النصوص حول الموضوع.

٦ ـ ثُمّ يأتي بعد ذلك التبصُّر الدقيق بمعنى النصّ القرآني بشكل عامّ، مع ملاحظة سياقه في السورة، وما تجتمع عليه دلالات آياتها ضمن وحدة موضوعها.

٧ ــ وقد يهدي السبر للكلمات القرآنية في مختلف مواطن استعمال الكلمة إلى استخراج دلالات خاصة بالقرآن، من عموم المعنى اللغوي، وتكون هذه الدلالات الخاصة نبراساً للمتدبّر يُضيء له طريق فهم النصّ، مثل كلمات:

«الهدى ــ الضلال ــ الرِّجس ــ التقوى ــ البرّ ــ الإحسان ــ الفقير ــ المسكين ــ الكفر ــ الفسوق ــ العصيان ــ النفاق».

إلى غير ذلك من كلمات.

٨ ــ وبعد كلّ ما سبق يتّجه المتدبر الكفْء لاختيار المعنى المراد من الكلمة بحسب موضعها الملائم لموضوع النصّ.

* * *

إنّ فهم معنى الكلمة القرآنية من أهمّ العناصر الأساسية لتدبر كتاب الله عزّ وجلّ، فمن دون فهم معنى الكلمات القرآنية الواردة في النصّ الذي يراد تدبّره وفهم دلالاته، يتعذّر الوصُول إلى فهمٍ صحيح متعمّقٍ لكامل النصّ.

ويبدو واضحاً أنّ فهم المراد من أيّ نصّ كلامي يتوقف على معرفة دلالات المفردات اللغوية الواردة فيه.

ومن الأمور المهمّة التي على المتدبّر لكتاب الله مراعاتها، اعتماد دلالات الكلمات القرآنية في عصر نزول القرآن، لا وفق ما تطوّرت إليه الكلمة بعد ذلك في العصور الإسلامية، ولا وفق المصطلحات التي تمّت بعد عصر التنزيل، كمصطلحات الفقهاء، وكم يقع بعض المتدبّرين في الخطأ لأنه يغفل عن هذا الأمر الأساسي المهمّ.

ومن الأمور المهمّة أيضاً تَتَبُّع المعاني اللغَوية للكلمة القرآنية أو المادّة اللغَوية لها. إنّ هذا التتبّع يهدي سبيل المتدبر إلى الفهم الصحيح إن شاء الله. فقد تستعمل المادة في نصٍ بمعنى، وتستعمل في نصٍّ آخر بمعنى آخر. مثل: (بَلَى، يَبْلُو، نَبْلُو).

ذكر الإمام الرازي عند قول الله تعالى: ﴿يوم تُبْلَىٰ السرائر﴾[1] ما يلي: (قال أبو مسلم: «بَلَوْتُ» يقع على إظهار الشيء، ويقع على امتحانه، كقوله تعالى: ﴿ونبلوَ أخباركم﴾[2]، وقوله: ﴿ولنبلُونّكم﴾[3]، قال ابن عمر: يبدي الله يوم القيامة كلّ سرٍّ منها، فيكون زَيْناً في الوجوه، وشيناً في الوجوه).

أقول: وعلى هذا فقد يكون أحد المعاني هو الشائع فيسبق إلى الذهن لدى فهم بعض النصوص، وقد يقع المتدبّر بسبب ذلك في الخطأ.

إن كثيراً من المفردات اللغوية في اللّغة العربية يحمل عدّة دلالات حقيقية ومجازية، لذلك كان على المتدبّر لأي نصٍّ قرآني أن يبحث في معاني المفردات الواردة فيه بحثاً علميّاً لغويّاً، ويتحقق ذلك بالرجوع إلى جملة من أمّهات المعاجم اللّغوية، ككتاب «لسان العرب» لابن منظور، وكتاب «القاموس المحيط» مع شروحه، وكتاب «الصحاح» وكتاب «أساس البلاغة» للزمخشري و«المصباح المنير» وغيرها. مع التمرس بتذوّق استعمالات العرب الذين يستشهد بأقوالهم للكلمة في شعرهم ونثرهم، ما تيسّر ذلك للباحث المتدبّر.

ومن المهم النظر في مختلف دلالات الكلمة الحقيقية والمجازية في استعمالات العرب الذين يستشهد بأقوالهم في اللّغة.

وعلى المتدبر أن ينظر في التفسير المأثور عامّة، ويجعل ما صحّ عن النبي ﷺ منه معنىً مراداً مع معانٍ أخرى قد يدلُّ عليها عموم النصّ.

وعلى المتدبّر أن ينظر فيما قاله أهل التفسير في معنى الكلمة، وفي تفسير المراد منها في النصّ.

---

(١) سورة الطارق: آية ٩.

(٢) سورة محمد: آية ٣١.

(٣) سورة محمد: آية ٣١؛ وسورة البقرة: آية ١٥٥.

وقد يقتضي البحث العلمي السديد النظر في مختلف المواطن التي استعملت فيها الكلمة في القرآن، فمن شأن تتبع استعمالات الكلمة في القرآن أن يكشف للمتدبّر الحصيف الدلالات الأساسية للكلمة في الاستعمال القرآني، فقد يتوصّل الباحث إلى أنّ المعنى الاصطلاحي في الشرع هو المعنى الأساسي الذي تدور حوله الاستعمالات القرآنية كلّها أو معظمها، أو يتوصل إلى أنّ المعنى اللغوي هو الأساس، أو أنّ بعض المعاني اللّغوية للكلمة هو الأساس، وكلّ ذلك يقدّم نفعاً للمتدبّر قد يهديه إلى فهم المعنى المراد بتوفيق الله.

ولا يكفي النظر الجزئي لمعنى الكلمة عند تدبّر آية من الآيات، فكم من خطأ في الفهم يقع فيه المتدبّر بسبب النظر الجزئي الموضعي.

إنّ معرفة وجوه دلالات الكلمة في الاستعمال القرآني ذو نفع عظيم للمتدبّر الحصيف.

ثم يأتي بعد ذلك التبصّر الدقيق بمعنى النصّ القرآني الموضوع للبحث بوجه عامّ، ملاحظٍ فيه السياق العامّ للسورة.

بعد كلّ ذلك يستقيم للمتدبّر الكفء أن يقرّر أو يرجّح اختياره للمعنى الحقيقي أو المجازي للكلمة في النصّ الذي يتدبره.

* * *

وتبدو أهميّة الرجوع إلى مختلف دلالات الكلمة في لغة العرب، بحثاً في أمّهات المصادر العربية، واستعمالات بلغاء العرب، حينما نصطدم بحقيقةٍ علميّة تخالف فهماً لنصٍّ قرآني ذهب إليه بعض أهل التفسير، مع أنّ النصّ القرآنيّ يحتمل فهماً آخر لو تحرّينا مختلف دلالات الكلمة في لغة العرب.

ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾.

قال أهل التفسير: دحا الأرض بمعنى بسطها وأوسعها.

وقد بحثتُ في معاني هذه المادّة في لغة العرب، فوجدت أنّ البسط والتوسيع من معاني الدحو، وهو الذي أخذ به أهل التفسير، ويمكن حمله على ما يظهر من الأرض لأعين الرائين من الناس، إلّا أنني وجدت أيضاً من معاني الدحو ما هو أقرب إلى واقع حال الأرض الذي يقرّره علماء الهيئة، وبهذا المعنى تظهر إحدى الروائع القرآنية.

جاء في «لسان العرب» لابن منظور ما يلي:

«قال ابن الأعرابي: يقال: هو يدحو بالحجر بيده أي يرمي به ويدفعه. قال: والداحي الذي يدحو الحجر بيده، وقد دحا به يَدْحُو دَحْواً، ودحَى يدحَى دحْياً، ودحَا المطرُ الحصى عن وجه الأرض دحْواً نزعه، والمطر الداحي يدحي الحصى عن وجه الأرض بنزعه».

وجاء فيه أيضاً: «وفي حديث أبي رافع كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمداحي، وهي أحجارٌ أمثالُ القِرَصة، كانوا يحفرون حفرة ويدحون فيها بتلك الأحجار، فإن وقع الحجر فيها غَلَبَ صاحبها، وإن لم يقع غُلِب، والدحْوُ هو رمْيُ اللاعب بالحجر أو الجوز وغيره».

فالدحو وفق هذا الاستعمال العربي يتضمن دفعاً من الداحي، وحركتين للمدحوّ:

إحداهما: على خطٍّ في مَسَيرٍ ما.

والأخرى: حركة دورانية حول نفسه.

ثمّ إذا نظرنا في واقع حال الأرض فوجدناها كحجر كبير مدحوّ في الفضاء ذي حركتين. :

حركة في مَسِيرٍ دائري حول الشمس.

وحركةٍ حول نفسه.

كان من حقّنا أن نرجّح حمل قول الله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ على هذا المعنى الذي يدلّ على واقع حال الأرض، وأن نعتبر معنى البسط معنىً احتماليّاً مرجوحاً.

ونظير «دَحَا» كلمة «طَحَا» في قول الله عزّ وجل في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول):

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾.

فمن معانيها في اللّغة معنى «الدفع» يقال لغة: القومُ يَطْحَا بعضهم بعضاً أي: يدفع بعضهم بعضاً. ويقال: طَحَا بِهِ قَلْبُهُ وَهَمُّه يَطْحَا طَحْواً إذا ذهب به في مذهب بعيد. ويُقَالَ: طَحَا يَطْحُو طُحُوّاً، إذا بَعُد.

وهذه المعاني اللّغوية مطابقة لما عليه واقع الأرض، فلا يوجد مقتضٍ للأخذ بالمعاني الأخرى التي أخذ بها بعض أهل التأويل السابقين معذورين، إذْ لم تكن حقيقة الأرض معلومةً لديهم، وقد أخذوا بما ظهر لهم منها.

* * *

وأؤكدّ أنه ينبغي الحذر من أن يتأثر المتدبّر لكلام الله بمعنى اصطلاحي متأخر عن عصر التنزيل، اصطلح عليه الفقهاء أو الأصوليون أو غيرهم من العلماء في مختلف العلوم الإسلامية، أو أن يتأثر بمعنى شاع في العرف العام بعد عصر التنزيل، فيفهم معنى الكلمة القرآنية على هذا الأساس.

إنّ من يتأثر بمثل هذا يخرج الكلمة القرآنية عن دلالتها الأصلية، وعن معناها المقصود عند التنزيل.

وينجم عن ذلك الانحراف في الفهم عن المعنى المراد.

وعلى الباحث المتدبر في المعنى المراد من الكلمة في النصّ القرآني، أن يكون ملماً بالمفاهيم الإسلامية المتعلقة بالموضوع الذي يشتمل عليه النصّ، وأن يكون ملمّاً بمفاهيم الشريعة الإسلامية بوجه عام، حتى لا يذهب إلى مفهوم خاطىءٍ وهو يحسب أنه يحسنُ فهماً واستنباطاً، فلربّما التزم دارس النصّ القرآني ومتدبّره مفهوماً خاطئاً أخذه من دلالته الظاهرة، أو من بعض معاني كلماته، ولو أنه رجع إلى مفاهيم الشريعة الإسلامية بوجه عامّ، لتبين له فساد ما ذهب إليه في تفسير المعنى المراد من كلمات النص الذي يتدبره، ولكان له رأي آخر ربما يكون مخالفاً أو مناقضاً لرأيه الأول.

وعلى الباحث أيضاً أن يرجع في موضوع النصّ الذي يدرسه ويتدبّره إلى جميع ما جاء في القرآن حوله من آيات أخرى، وما جاء في أقوال الرسول الثابتة عنه. فمن شأن هذا الرجوع أن يهدي الباحث المتدبّر إلى الفهم الذي هو أدنى إلى الصواب إن شاء الله، وعليه أن يختار بعد ذلك المعنى الملائم من معاني الكلمة القرآنية للنصّ الذي يتدبّره.

* * *

الأمـــثـــلـــة

المثال الأوّل:

حول المواد التالية: [الظنّ ـ حسب يحسب ـ الشّك ـ العلم ـ اليقين]:

الظنّ:

يتسرَّع بعض مفسري الكلمات القرآنيّة فيقول: إنّ الظنّ الوارد في آيات قرآنية كثيرة هو بمعنى اليقين، والسبب في ذلك أنّ ظاهر بعض الآيات القرآنية قد يُفْهم من كلمة الظنّ الواردة فيها معنى اليقين.

ولدى التتبُّع لكلّ الآيات القرآنية التي جاءت فيها كلمة (الظّنّ) ومشتقاتها

تبيَّن لي أنَّ الأصل في الظنّ الوارد في القرآن هو ما دون اليقين تنازلاً حتى درجة الوهم الذي لا يصحّ الاعتماد عليه بحال من الأحوال. مثل:

١ ــ قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس /١٠ مصحف /٥١ نزول):

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ... ﴿٢٤﴾ ﴾.

فهذا الظن هو من قبيل الظنّ الضعيف المستند إلى وهم خاطىء.

٢ ــ وقول الله عزّ وجل في سورة (يوسف /١٢ مصحف /٥٣ نزول):

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

وهذا الظن من يوسف عليه السلام قد صدقه الواقع، فتبين أنه ظنّ صحيح، إلّا أنه لم يكن في نفسه يقيناً، إذْ كان من قبيل تعبيره لحلم رآه أحد رفيقيه في السجن، ومثل هذا لا يفيد يقيناً حتى يتحقّق في الواقع.

٣ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء /٢١ مصحف /٧٣ نزول):

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ... ﴿٨٧﴾ ﴾.

أن لن نَقْدِر عليه: أي: لن نُضيّق عليه.

وقد كان ظنّ يونس هذا خاطئاً، فقد عرّضه للسجن في فم الحوت.

٤ ــ وقول الله عزّ وجل في سورة (صٓ /٣٨ مصحف /٣٨ نزول):

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ... ﴿٢٤﴾ ﴾.

إنّ ما جرى لداود عليه السلام جعله يظنّ ظنّاً راجحاً أنّ الله يمتحنه في الخصمين اللّذين تسوروا عليه المحراب، ولم يبلغ ظنّه مستوى اليقين، لكنّه كان ظنّاً قويّاً صحيحاً مطابقاً للواقع.

٥ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة / ٦٩ مصحف /٧٨):

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾.

في هذا النصّ يمكن بالتأمل أن لا نُخْرِج الظنّ عن أصل معناه وهو ما دون اليقين، وذلك بأن نقول:

إنّ المؤمن قد يقع في احتماله أن يدخله الله الجنّة بغير حساب، ولكن مع ذلك يبقى لديه ظنّ راجح قوي بأنّه سيلاقي حسابه. ونقلُ النصّ إلى مطلق الإيمان باليوم الآخر خروج به عن أصل دلالته، وهذا قد أفضى إلى إخراج الظنّ فيه عن أصل دلالته أيضاً، وجعله من باب اليقين عند من فسّره بمعنى اليقين.

٦ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (فصّلت /٤١ مصحف /٦١ نزول):

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

٧ ـ وقوله عز وجل فيها أيضاً:

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ... ﴿٢٣﴾﴾.

٨ ـ وقول الله عز وجل في سورة (الأنعام /٦ مصحف /٥٥ نزول):

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

٩ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم /٥٣ مصحف /٢٣ نزول):

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

١٠ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجرات /٤٩ مصحف /١٠٦ نزول):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ . . . ﴿١٢﴾ ﴾ .

فالظن المتحدَّث عنه في هذه الآيات من الظنون المردودة التي لا يجوز الاعتماد عليها .

وتكثر النصوص التي فيها الظنّ بمعنى الظنّ الوهمي المرفوض، وفيها ما هو بمعنى الظنّ الراجح المقبول، كما سبق في بعض الأمثلة .

وقد جاء (الظنّ) ومشتقات هذا اللفظ في القرآن (٦٩) مرة، كلّها ما بين الظنّ الوهمي المردود وصعوداً حتى الظنّ القوي الراجح، الذي لم يصل في نفس صاحبه إلى مستوى اليقين، وإن صدّقه الواقع بعد ذلك، وإن طابق الحقّ بالأدلة البرهانية عند غير صاحب الظنّ، باستثناء بعض آيات قد يشكل فيها إبقاء الظنّ على أصل معناه، وقد يحتاج الأمر فيها إلى تدبّر عميق وتحليل دقيق .

وهي بالإضافة إلى الآيات التي سبق توجيهها توجيهاً لا يخرجها عن أصل معنى الظن ما يلي :

١١ ــ قول الجن الذين استمعوا القرآن من الرسول ﷺ وآمنوا به، كما جاء في سورة (الجن / ٧٢ مصحف / ٤٠ نزول) :

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

وأرى أن مقالتهم هذه تعبّر عمّا كانت عليه حالتهم قبل أن يؤمنوا بالرسول وبالقرآن، فهو ظنٌّ على أصل معناه، ولا داعي لجعله بمعنى اليقين .

١٢ ــ في شأن الثلاثة المؤمنين الذين خُلّفوا عن غزوة تبوك يقول الله تعالى في سورة (التوبة /٩ مصحف /١١٣ نزول) :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

وفي هذه الآية لا أجد ما يقتضي حمل الظن فيها على معنى اليقين، وذلك إذا فهمنا أنّ الظنّ فيها مسلّط على ما دعاهم لطلب الملجأ، وهو ظنّهم أنّ الله قد قضى عليهم بالعقاب جزاء تخلّفهم، وإذا قضى عليهم بالعقاب فلا ملجأ من الله إلّا إليه، وهذا يقين إيماني ثابت لديهم.

أي وظنّوا أنّ الله معاقبهم على تخلّفهم، وهذا منهم من قبيل الظنّ فعلاً، لاحتمال أن يتوب الله عليهم، لذلك غدا ماثلاً في تصورهم أنه لا ملجأ من الله إلّا إليه، وهذا من قواعد إيمانهم الراسخة، صار حاضراً في تصوّرهم، إذ استدعاه خوفهم من الله.

١٣ ــ وقول الله عزّ وجل في سورة (الكهف /١٨ مصحف /٦٩ نزول):

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

الظاهر من هذه الآية أن المجرمين يوم القيامة لا ينقطع أملهم برحمة الله، ولو رأوا النار التي هي دار عذابهم فعلاً، لذلك فهم يظنّون أنّهم مواقعوها، مع رجاء ضعيف بأن تشملهم رحمة الله.

١٤ ــ ونظير هذا ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة /٧٥ مصحف / ٣١ نزول):

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

فاقرة: أي كاسرة ظهر.

١٥ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء /١٧ مصحف /٥٠ نزول) حكاية لحوار بين موسى وفرعون:

﴿ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

مثبوراً: أي: مُهْلَكاً، يقال: ثَبَرَهُ اللَّه يَثْبُرُهُ ثُبُـوراً، إذا أهلكه إهـلاكاً لا ينتعشُ منه.

أما ظن فرعون: فهو ظن باطل يكذبه واقـع موسى عليه السلام.

وأما ظن موسى: فالظاهر هنا أنـه لم يكن قد وصـل بعد إلى مستـوى اليقين، فقد بقي لديه رجاء أن يستجيب فرعون لدعوته، وإن غدا هذا الرجـاء ضعيفاً جـدّاً، فالأمارات والدلائل وسوابق الآيات المنزّلات التي شهدهـا فرعـون دون أن تُلَيّن قلبه للإيمان، قد جعلت موسى يظنّ أن فرعون هالك بطغيـانه وكفـره، فقال لـه: «وإني لأظنّك يا فرعون مثبوراً».

١٦ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المطففين /٨٣ مصحف /٨٦ نزول):

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾.

أي فـالأدلة التي تقـدّم لهم ظنّاً قـويّاً كـافية لأن تجعلهم يخـافـون هـذا اليـوم العظيم الذي يحاسبون فيه على كفرهم وسوء أعمالهم.

١٧ ــ وتُشكل آيتان فقط، وهما:

(أ) قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝٤٦﴾.

وبالتأمُّل ينكشف لَنَا أنّه لَا حاجَةَ إلى إخراج الظّنّ عن أصل دلالته اللغوية إلى معنى اليقين، وذلك إذا تدبَّرنا النصّ على الوجه التالي:

يدعو الله عزّ وجل بني إسرائيل إلى الإيمان بمحمّد ﷺ وبما أُنزل عليه، وإلى ترك تعصُّبهم ليهوديتهم، وإلى الاستعانة على هـذا التغيير بـالصبر والصـلاة، ويقول لهم: ﴿وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: هـذه النقلة من اليهوديّـة والأنانيـة إلى الإسلام، ولكنّهـا ليست بكبيرة على الخاشعين، ساكني القلوب، الذين يظنُّون أنّهم ملاقو رَبّهم.

فأبان الله عزّ وجل بهذا: أنَّ الظَّنَّ بملاقاة الله يوم الدين كافٍ لقبول هذا التغيير. أي: فكيف باليقين؟.

(ب) قول الله عزَّ وجل في سورة (البقرة ٢) أيضاً:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾.

وبالتأمُّل ينكشف لَنَا أيضاً أنّه لا حَاجة إلى إخراج الظّنّ عن أصل دلالته اللُّغوية إلى معنى اليقين، وذلك إذا تدبّرنا النصّ على الوجه التالي:

يبدو أنَّ الله عزّ وجلّ يثني على هذا الفريق بأنّهم شجعان، وقد بلغ من شجاعتهم أنّهم إذا لاقَوْا عدُوّهم دفَعُوا بأنفسهم إلى أوائل الصفوف، فكانُوا بذلك عُرضةً للقتل. فشجاعتهم المتفوّقة، التي يدفعهم إليها صدقُ إيمانهم، تجعلهم يظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقو رَبِّهِمْ بِالْمَوْت.

وليس المرادُ مُلاقَاةَ رَبِّهِمْ يومَ الدين، إذ الجميع كانوا مؤمنين بيوم الدين، إلاّ أنّهم جَنُبوا عن مواجهة عدوّهم خوفاً من الموت.

* * *

حَسِبَ يَحْسَبُ:

لم تستعمل هذه المادّة في القرآن إلاّ في الظّنّ الضعيف المرفوض، والتصوّرات الباطلات المخالفات للحقيقة. وقد جاءت هذه المادة (٤٥) مرَّةً كلُّها تدور حول ذلك.

* * *

الشّك:

وجاء لفظ (الشكّ) في القرآن (١٥) مرّة كلُّها بمعنى الظّنّ التوهّمي الضعيف، على خلاف مصطلح علماء أصول الفقه، إذْ جعلوا لفظ «الشّك» اصطلاحاً للدلالة

على تردُّد الفكر بين احتمالين متكافئين قوّة، أو احتمالات متكافئة، ليس لواحد منها رجحان.

وجعلوا في اصطلاحهم «الظنّ» للطرف الراجح في الفكر من الاحتمالين أو الاحتمالات.

وجعلوا في اصطلاحهم «الوهم» للطرف المرجوح في الفكر من الاحتمالين أو الاحتمالات، ومادة «الوهم» لم تستعمل في القرآن.

* * *

العلم:

وجاء العلم في القرآن عنواناً عامّاً لكلّ ما يصح العمل به من المعارف، ولو كانت من قبيل الظنون الراجحة، ومن ذلك قول الله عزّ وجل في سورة (الممتحنة / ٦٠ مصحف / ٩١ نزول):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

ومعلوم أنّ الامتحان لا يكشف يقيناً صدق الإيمان، ولكنْ يُقَدِّمُ علماً صالحاً للعمل بِهِ، وهذا العلم هو من قبيل الظنّ القويّ الراجح.

* * *

اليقين:

وجاء اليقين في القرآن أخصّ من مطلق العلم، فهو أعلى قيمة وأقوى أدلّة من مطلق العلم، فالعلم جنس يشمل اليقين فما دونه من الظنون الراجحة الصالحة للعمل بها، واليقين أدلته تصل به إلى الجزم والقطع، ولا يكتفىٰ فيه بمطلق (الظنّ

الـراجـح). و(حقّ اليقين) فوق مـطلق (اليقين) وأخصّ منـه، و(عين اليقين) فـوق (حق اليقين) وأخصّ منه.

* * *

المثال الثاني:

حول كلمة: «مُرِيب»:

جـاء في القرآن المجيـد استعمال كلمـة «مُرِيب» في سـبعـة مـواضـع، وقـد تنوَّعَتْ أقوال المفسّرين في تفسير كلمة «مُرِيب» في هذه المواضِـع:

- فمن أقوالهم في بعضها: «مُرِيب: أي: موجب للتهمة».
- ومن أقوالهم في بعضها: «مُرِيب: أي: يوجب ما يريب من مكروه».
- ومن أقوالهم في بعضها: «مُرِيب: أي: موهم موقـع في الريبة والقلق».
- ومن أقوالهم في بعضها: «مُرِيب: أي: موقـع في الشكّ والحيرة».
- ومن أقوالهم في بعضها: «مُرِيب: أي: يُرِيبهُم».
- ومن أقوالهم في «مُريب» الواردة في سورة (قٓ ٥٠): «أي: شاك».

وقـد نظرتُ في مـادة هذه الكلمـة في معاجم اللغـة، فرأيت أن فعـل «أَرَابَ» يأتي متعدّياً، ويأتي لازماً. واسم الفاعل من «أراب» هو «مُرِيب».

والرّيبة: تأتي بمعنى الشكّ، وبمعنى الـظِّنَّةِ والتُّهمَـةَ. وقد تَسْتَلْـزمُ التُّهمَـةُ التَّخَوُّفَ مِنْ مكروه.

١ ــ فعلى التعـدية تقـول: أرابني الأمرُ أو الـرجـلُ، إذا أوقعَـكَ في شَـكّ، أو عمـل عملاً جعلك تَتّهِمُـه من أجله بسوء. أو هـو الذي شـكّ فيك، أو اتّهمـك، فجعلَكَ مَحلاّ لريبته، أي: لشَكّهِ أو تُهَمَتِهِ. أو هو الّذي قدّم لك حول أمرٍ من الأمور أدلّةً أو تشكيكات أو أقوالاً واحتمالات جعلَتْك تشُكُّ في هذا الأمر.

٢ ـ وعلى اللّزوم تقول: أَرَابَ فُلَان، فهو مُريب. إذا أتى بريبة، أي: بعمل فيه شكٌّ أو تُهَمَة.

وتقول أيضاً: أَرَابَ الأَمْرُ، إذا كان فيه دلائل شكٍّ أو تُهَمَة. كما تَقول: أَلَامَ فُلان، إذا أتى بما يُلام عليه.

بعد هذا سَبَرْتُ النُّصوص القرآنيَّةَ التي جاءت فيها كلمةُ «مُرِيب» فرأيت أنّها سبعة نصوص.

أمّا ستّةٌ منها فقد جاءت على نَسَقٍ مُتَشابه، وهي التي في السُّوَر التالية:

١ ـ في سورة (هود ١١):

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾.

٢ ـ في سورة (هود ١١):

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾.

٣ ـ في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

٤ ـ في سورة (سبأ ٣٤):

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾.

٥ ـ في سورة (فصّلت ٤١):

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.

٦ ـ في سورة (الشورى ٤٢):

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾.

وبما أنَّها قد جاءت على نسق متشابهٍ أو واحـد، فما ينـطبق على واحدةٍ منهـا ينطبق على سائرها.

فلنتدَبّر أُولَاها، وهي التي في سورة (هود ١١) وهي ما في قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾.

وقد نظرتُ في المعنى الأقرب لكلمة «مُـرِيب» هُنَا بحسب سيـاقها، فـوجدتُ أنّ معنى: «مُوقـع في التُّهْمَة» هو أولى المعاني.

لِأنّ قولهم: «وإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونـا إِلَيْه» قـد قَرَّرُوا فيـه أَنَّهم يشُكُّون في المضمون الفكريّ الذي يدعوهم إليه الرسول صالـح عليه السلام، فلا يَحْسُن بعـد ذلك حمل كلمة «مُريبٍ» بعده على معنىً: موقِـع في الشَّكّ، أو عبارة نحوها. إنّهم بَعْـدَ شَكِّهِمْ في المضمون الفكـري، ينتقلون إلى اتّهام النبـي صـالـح عليه السّـلام بالكذب والافتراء على الله، فالشَّكُّ قد أوقعهم في التُّهْمَة الّتي وجَّهُوهَـا نحو صـالـح الذي كان فيهم قبل رسالته، ودعوته لهم، مرجُوّاً بعيداً عن مواطن التُّهَم.

ونظير هذا النصّ سائر النصوص التي سبق سردُها، لورُودها على نَسَقٍ واحد، أو متشابه.

بقي النصّ الذي في سورة (قٓ ٥٠) والذي يقول الله عزّ وجلّ فيه:

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾.

ففي هذا النّص يظهر بوضوح ترجيح حمل كلمة «مُرِيب» على معنَىٰ مُشَكِّكٍ لِغَيْرِهِ بدين الله، أي: هو داعية ضلال.

وذلك لأنّه كما جاء في النصّ «كَفَّار» وليس مجرَّد كافر. وهو أيضاً «مَنَّاعٌ لِلْخير» أي: هو إمامٌ من أئمة التضليل. وهو أيضاً «مُعْتَدٍ» أي: لَهُ مكانَةٌ وَزعامة تمكّنُهُ من العدوان. وهو أخيراً «مُرِيب» أي: يُضَلّلُ من يستمعون إليه، إذْ يقدِّمُ لَهُمْ من زُخْرُفِ القولِ ما يوقعهم في الشكّ في دعوة الرسول، وفي كتاب الله وآياته.

أمّا ما نجده في كثيرٍ من كُتُب التفسير من تفسير كلمة «مُرِيب» هُنَا في سورة (قٓ ٥٠) بمعنىٰ شَاكّ، فهو تفسير لا يتناسب مع كمال النصّ القرآني وقوّة دلالاته. إنّ الموصوف كَفَّارٌ عَنِيدٌ منّاعٌ للخير، فليس من المناسب بعد وصفه بهذه الصفات أن يوصف بأنَّه شاك، وذلك لأنّ الشَّكّ مرحلة بين الإيمان والكفر، وهذا جَحُودٌ كَفَّار.

فالواجب على المتدبِّرِ لكلام الله أن يبحث في الكلمات القرآنية بحثاً متأنّياً وشاملاً ودقيقاً، وليحذر التسرّع، والاعتماد على مجرّد النقل من كتب التفسير.

* * *

المثال الثالث:

حول كلمتي «قدّم وأخّر»:

- جاء في القرآن استعمال كلمة «قدّم» ومشتقاتها بمعنى تأديةِ عملٍ ما، أو قولٍ ما، فكل ما يكسبه الناس في الحياة الدنيا فهو ممّا قدَّموه لآخرتهم، خيراً كان أو شرّاً، حسناً كان أو سيّئاً.

- وجاء في القرآن استعمال كلمة «أخّر» ومشتقّاتها بجانب العمل بمعنى ترك العمل المطلوب.

ومن ذلك قول الله عزّ وجلّ في سورة (الانفطار /٨٢ مصحف /٨٢ نزول):

﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ ﴾.

أي: ما عملت من عمل فقدمته، وما تركت من عمل فأخَّرْتُهُ، فبقي عدماً مع انصرام زمن الامتحان في الحياة الدنيا.

* * *

المثال الرابع:

حول كلمتي «الفقير والمسكين» استناداً إلى سبر دلالات الاستعمالات القرآنية لهما:

لقد سبرت دلالات الآيات القرآنية التي ورد فيها استعمال كلمات: «الفقراء ــ والمساكين ــ والفقير ــ والمسكين ــ والفقر ــ والمسكنة» فظهر لي أنّ الفرق بين الفقير والمسكين هو كما يلي:

الفقير: هو من كان ذا حاجة حقيقيّةٍ لنفقاته، ونفقات من يعولهم، ولكن قد لا تكون هذه الحاجة ظاهرةً عليه، فيحسبه الجاهل بحاله غنيّاً، من تعفُّفه، أو من نشاطه وجلادته في العمل، فيظنّ أنّه يكسبُ ما يكفيه.

وأصل الافتقار إلى الشيءِ الحاجةُ إليه.

المسكين: هو من كان ظاهره يدلُّ على أنه ذو حاجة، بسبب تعرُّضه لصدقات الناس، بما يبدي من حالٍ تشعر بأنّه فقير محتاج، أو بتصريحه بأنّه ذو حاجة وبسؤاله صدقات الناس وزكوات أموالهم، وربّما يكون في واقع حاله على خلاف ما يظهر بأقواله أو أعماله.

فالمسكنةُ صفةٌ تظهر على الإنسان، تُشْعِرُ بأنه فقير ذو حاجة، سواءٌ أكان صادقاً بمسكنته، أو كاذباً فيها.

الاستدلال من سَبْر الاستعمالات القرآنية

أوّلاً:

استعملت كلمة (الفقراء) في القرآن سبع مرّات، وهي ما في النصوص التالية:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ... ﴿٢٧١﴾﴾.

فاقترن هنا إخفاء الصدقة بإتيان الفقراء، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي عند إخفاء الصدقة التحرّي عن الفقير حقّاً، لا سيما الذي يخفي فقره.

٢ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢) أيضاً:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا... ﴿٢٧٣﴾﴾.

فاقترن ذكر الفقراء في هذا النص بما يَدُلُّ على أنّهم فقراء حقيقة، وقد لا يظهر عليهم الفقر، فيحسبهم الجاهل بأحوال الناس أغنياء مكتفين، غير محتاجين، لأنّهم متعفِّفون لا يسألون الناس إلحافاً، ولكنَّ صاحبَ الفراسة الذي يتتبَّع السِّمات، وهي العلامات والأمارات التي يكتشفها المتوسِّمون، يعرفهم بسيماهم.

٣ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة ٩):

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى

﴿ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

فجاء في هذه الآية ذكر الفقراء والمساكين معاً، وهي من أواخر ما نزل من القرآن، وهي الآية الوحيدة التي اقترنا بها، وقُدِّم فيها الفقراء إشارة إلى أنّه ينبغي البحث عن الفقير المستور الحال، صاحب الحاجة الحقيقيّة، أمّا المسكين فهو كاشفٌ نَفْسَه، متعرّض للعطاء، أو يسأل الصدقة، فَيُعْطَىٰ بحسب حاله الظاهرة، ولو كان في حقيقة أمره على خلاف ذلك.

٤ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النور ٢٤):

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾.

الأيامىٰ: جمع أيِّم، وهو من لا زوج له، ويطلق على الذكر والأنثىٰ.

هذه الآية ترشد إلى إنكاح الأيامَىٰ، وتشير إلى أنه لا يحسُن التوقف عنه بسبب الفقر، وهو فيهم قد لا يكون حالة ظاهرة تجعلهم ضمن المساكين ظاهري الحال، فقال الله تعالى: ﴿إنْ يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾.

٥ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر ٣٥):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

هذه الآية ظاهرة في كشف حقيقة الافتقار إلى الله، مع أنّ كثيراً من الناس لا يؤمن بالله، ويجحد افتقاره إليه، بل قد يشعر بالاستغناء الذي يجرّه إلى الطغيان.

٦ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (محمّد ٤٧):

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ... ﴿٣٨﴾﴾.

وهـذه الآية نـظيـر آيـة فـاطـر، فهي تكشف واقـع حـال النـاس، وإن كـانـوا لا يعترفون بهذا الواقـع، ولا يُظهرونه.

٧ ــ وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الحشر ٥٩):

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

كـان معظم المهـاجرين إلى المـدينة من أصحـاب الرسـول ﷺ فقراء، لأنهم تـركوا في مكـة ديارهم وأمـوالهم، ولكنهم لم يكونـوا مساكين، فلم تكُنْ تـظهـر في سلوكهم المسكنـة والحـاجـة، بـل كـانـوا متعففين، بـاحثين عن الكسب، طـالبين للعمل، لكنهم لا يملكون ما يسدّ حاجاتهم فهم فقراء حقيقة.

* * *

ثانياً:

واستعملت كلمــة (فقيـر) في القـرآن الكـريم خمس مـرّات، وهي مـا في النصوص التالية:

١ ــ قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران ٣):

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾.

يحكي الله عزّ وجلّ في هذه الآية مقـالة كـافرة فـاجرة قـالها يهـود، شتم فيها أخبـاثهم الله سبحانـه وتعالى بـأنه فقيـر، أي ذو حاجـة في بـاطن الأمـر، ومـا كـان باستطاعتهم أنْ يقولوا: مسكين، لأن المسكين من كان ظاهر الحاجة، أو متظاهراً بها.

٢ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحج ٢٢):

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

في هذا النصّ إشارة إلى أنَّ الهدي في الحجّ يحسُن فيه إطعام البائسين الفقراء الذين قد يكونون مستوري الحال، وذلك بالبحث عنهم. أمّا المساكين فهم يطرحون أنفسهم في كلّ موقع، ويأكلون من الذبائح الواجبة وغيرها، بخلاف حال الفقراء البائسين المستورين فقد لا يكونون مع المساكين، وقد لا يتعرضون للصدقات، ولا يدخلون المداخل التي تجرح كراماتهم.

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص ٢٨) في سياق قصة موسىٰ عليه السلام:

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ربِّ إنّي لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ دعاءٌ دعاه موسى عليه السلام، وهو يظهر فيه حاجته وافتقاره لربّه عزّ وجلّ، ولم يكن موسى عليه السلام مظهراً للناس فقره، فلم يكن مسكيناً.

٤ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء ٤):

﴿ وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾.

في هذه الآية بيان أحكام تتعلّق بوليّ مال اليتيم الصغير، ومن هذه الأحكام الإذن له بأن يأخذ أُجْرَتَه على إدارته لأموال اليتيم بما هو معروف إذا كان فقيراً، أي

ذا حاجة حقيقيّة، وإرشاده إلى أن يستعفف إذا كان غنيّاً، والولي الفقير في حقيقة الحال قد لا يكون فقره ظاهراً عليه فليس هو من المساكين.

٥ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء ٤) أيضاً:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾.

﴿إنْ يكن غنيّاً أو فقيراً﴾ أي: إن يكن المشهود عليه أو له غنيّاً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تجوز الشهادة ضدّ الغني إذا كان هو صاحب الحق، ولمصلحة الفقير إذا لم يكن هو صاحب الحقّ، لأنه لا يجوز ترك واجب الحقّ والعدل بدافع العطف على الفقير ذي الحاجة، ضدّ الغني الذي له الحقّ، فالله أولى بهما، وعلى المؤمنين أن يكونوا قوّامين بالقسط شهداء لله، والشهادة التي أمر الله بالتزامها هي الشهادة بالحقّ.

فالفقير هنا هو من كان ذا حاجة حقيقية، سواء أكان ظاهر الحاجة أو غير ظاهرها.

* * *

ثالثاً:

واستعملت كلمة (الفقر) في القرآن الكريم مرّة واحدة، وذلك في قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢):

﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ ﴾.

﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ أي: يخوّفكم من الفقر، وهو الحاجة الحقيقية، فلا معنى هنا لذكر المسكنة التي هي إظهار الحاجة والفقر والتعرّض لسدّها.

* * *

رابعاً:

واستعملت كلمة (المسكنة) في القرآن الكريم مرتين، وهما في شأن اليهود:

فالأولى منهما قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢):

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

والثانية قول الله عزَّ وجل في سورة (آل عمران ٣):

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

«الذلّة» هي الذُّلّ، وهو ضدُّ العزّ، والعزيز هو القويّ الغالب، والذلّة المضروبة على اليهود أينما ثقفوا قد استثنى الله منها حالة يمدّهم فيها بحبل من لدنه، ويكون لهم فيها حبل من الناس يقويهم ويعزّهم، ويجعلهم غالبين، ويكون ذلك لحكمة، كأن يعاقب الله بهم أمّة عصَتْ وخرجت عن منهج الدين الحق، وضلّت سواء السبيل، ثمّ يعيدهم إلى موقعهم الذي هو القاعدة بالنسبة إليهم، إنَّه مَوْقِعُ الذّلّة المضروبة عليهم.

«المسكنة» هي شعورهم النفسيّ بالفقر، وإنْ كانوا موسرين، وتظاهرهم بالفقر والحاجة وإن كانوا على خلاف ذلك. وهذه المسكنة صفة ملازمة لليهود بوجه عامّ، وبلا استثناء، إنّهم باستمرار يتظاهرون بالحاجة وبالفقر ليستدرّوا عطف الناس عليهم.

خامساً:

واستعملت كلمة (المساكين) في القرآن المجيد (١٢) مرّة، وهي ما في النصوص التالية:

١ ـ قول الله عزّ وجل (في سورة البقرة ٢) مبيّناً فيه ما أخذ على بني إسرائيل من ميثاق.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ...﴾.

٢ ـ وقوله فيها أيضاً مبيناً وجوه البر:

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ... ﴿١٧٧﴾﴾.

٣ ـ وقوله فيها أيضاً خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾.

٤ ـ وقول الله تعالى في سورة (النساء ٤) في موضوع قسمة التركة:

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾.

٥ ـ وقوله فيها أيضاً خطاباً للذين آمنوا:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾.

٦ ـ وقول الله عزَّ وجل في سورة (المائدة ٥) بشأن كفّارة اليمين:

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ... ﴿٨٩﴾ ﴾.

عشرة مساكين: أي: عشرة مظهرين لفقرهم أو متظاهرين به.

٧ ـ وقوله تعالى فيها أيضاً بشأن كفارة قتل المحرم للصيد:

﴿ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ... ﴿٩٥﴾ ﴾.

طعام مسكين: أي: إطعام أي متعرّض للصدقة مظهر فقره.

٨ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (الأنفال ٨) بشأن خُمُس الغنائم:

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ... ﴿٤١﴾ ﴾.

٩ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (التوبة ٩) مبيناً الأصناف الثمانية الذي تصرف لهم الزكاة:

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

١٠ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (الكهف ١٨) يحكي بيانات الخضر لموسى عليهما السلام:

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

لِمَسَاكين: لفقراء يظهر من حالهم أنهم لا يكسبون ما يسدّ حاجاتهم.

١١ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (النور ٢٤) بمناسبة حلف أبي بكر رضي الله عنه أن لا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً، بعد الذي كان منه من مشاركة في حادثة الإفك على أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾.

١٢ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (الحشر ٥٩) بشأن الفيء الذي أفاءه الله على رسوله من بني النضير، وبشأن نظائره:

﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)﴾.

* * *

سادساً:

واستعملت كلمة (مسكين) في القرآن المجيد (١١) مرّة، وهي ما في النصوص التالية:

١ ـ قول الله عزّ وجل في سورة (البقرة ٢) بشأن كفارة الفطر في نهار رمضان:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ . . . (١٨٤)﴾.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦)﴾.

٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (الروم ٣٠):

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

٤ ــ وقول الله تعالى في سورة (القلم ٦٨): في سياق قصة أصحاب الجنة الذين أقسموا على قطع ثمارها، ومنع المساكين حقهم:

﴿ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

٥ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة ٦٩) في بيان صفة من أوتي كتابه بشماله فكان من أهل الجحيم:

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أي: لا تحرّكه العاطفة الإنسانية فيحض غيره على إطعام الجائعين ظاهري الفقر.

٦ ــ وقول الله تعالى في سورة (المدثر ٧٤) مبيّناً جواب المجرمين المعذبين في سقر إذْ يُسألون: ما سلككم في سقر؟:

﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ ﴾.

٧ ــ وقول الله تعالى في سورة (الفجر ٨٩):

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾.

٨ ــ وقول الله تعالى في سورة (الماعون ١٠٧):

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾.

٩ ــ وقول الله تعالى في سورة (المجادلة ٥٨) بشأن كفّارة الظهار:

﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا . . . ﴿٤﴾ ﴾ .

١٠ ــ وقول الله تعالى في سورة (الإنسان ٧٦) مبيناً صفات الأبرار:

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ .

١١ ــ وقول الله تعالى في سورة (البلد ٩٠):

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ .

«**أو مسكيناً ذا متربة**» أي: أو مسكيناً ذا فقر حقيقي.

* * *

من هذا السبر لكلمات: (المسكنة، والمساكين، والمسكين) نلاحظ أنّ قرائن السياق تدل على أنّ المراد بالمساكين الفقراء الذين يكشفون بالمسكنة الظاهرة حالة فقرهم، وقد وردت النصوص القرآنية حاثّةً على إطعامهم، وإعطائهم حقهم، والسبب في ذلك فقرهم الحقيقي، أو المظنون استناداً إلى ظاهر حالهم، فمن لم يكن مسكيناً ظاهر الفقر، وكان في حقيقة حاله فقيراً، وأمكن التعرّف عليه من سيماه، كان أولى بالعطاء.

وقد تواردت النصوص وافرة في شأن المساكين لأنّ معظم الفقراء من الناس لا يصبرون على كتم فقرهم مدّة طويلة، والمتصدّقون لا يبحثون عنهم ليكفوهم، ويُبْقوهم مستوري الحال، فيضطرون إلى كشف حالهم، وإظهار فقرهم، وبذلك يكونون من المساكين.

ويشير إلى أنّ المسكين فقير كاشف للناس حالة فقره:

(أ) ما جاء في سورة (القلم): ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ وذلك لأنّ الفقير مستور الحال، لا يُظْهِر فقره، فلا يدخل على الناس يوم حصادهم للزرع طالباً الصدقة.

(ب) وما جاء في سورة (البلد): ﴿أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: ذا فقر حقيقي، فهو مسكين مُظْهِرٌ فقره، وهو في الحقيقة فقير ذو متربة.

(ج) وسائر النصوص كذلك، يكشف دلالاتها من تعمّق في فهمها.

من هذا السبر الذي استعرضته فيما سبق تبيّن لي أنّ الفقير والمسكين يجتمعان في صفة الحاجة إلى مطالب العيش، على اختلاف درجات هذه الحاجة، إلّا أنّ الفقير ينفرد باحتمال أن يكون مستور الحال من تعففه وعدم تعرّضه للصدقات أو للمسألة، أما المسكين فهو من كان ظاهر الحاجة، وقد يكون متظاهراً بها وهو كاذب.

فالفقير أعمّ من جهة، لأنه ذو الحاجة، سواء أكشفها للناس أو سترها.

والمسكين أعمّ من جهة أخرى، لأنه المعلن عن حاجته بما يبدي من ظاهر حاله، سواء أكان صادقاً أو كاذباً.

فالنسبة بين الفقير والمسكين هي العموم والخصوص من وجه، إذ كلٌّ منهما أعمّ من جهة وأخصّ من أخرى.

* * *

المثال الخامس:

حول كلمة «قُتِلَ» الواردة في القرآن دُعاءً وَطَرداً للكافر المعاند المكابر:

استعملت كلمة «قُتِلَ» بمعنى الطرد من رحمة الله أربع مرّاتٍ في القرآن المجيد

وقد جاء عند المفسرين أنّها بمعنى «لُعِنَ» واللَّعْنُ: هو الطردُ والإبعاد والسبّ. وحينَ يكون اللّعْنُ من الله عزّ وجل، فهو الطّرْدُ والإبعاد من مَدَىٰ رحمته.

لكنّي أقول: إنّ الطرد والإبعاد لا يستلزمان جعل الملعون مطروداً مُبْعداً بصورة أبديّة، ومِنْ كلِّ مدىٰ الرحمة، فقد يُطرد المسيءُ طرداً جزئيّاً، ويُبْعَدُ إبعاداً مؤقّتاً لجرم أصابه، وقد يتوب، فيُقَالُ من عثْرته، ويُعادُ إلى حظيرة القرب، ويُدخل دائرة الرَّحْمَة.

أمَّا مَنْ يُقْتَلُ، أو يُطْرَدُ بعبارَةِ «قُتِلَ» فإنّه يُحْكَمُ عليه بالطّرد والإبعاد الأبديَّيْن.

فمن تُوجّه لَهُ عبارةُ القتل في القرآن فقد حُكمَ عليه بأنّه مطرودٌ وَمُبْعَدٌ إبعاداً أبديّاً من مدى رحمة الله عزّ وجلّ التي وسعت كلَّ شيء، وفي هذا دلالةٌ على أنّ جريمته قد بلغت أقصى الجرائم التي لا مطمع بتوبةٍ بعدها، وأنّه قد غدا مستحقاً للخلود الأبديّ في عذاب الله، إذْ غدا مَيْؤوساً من توبته وصلاح حاله.

ولذلك لم تأتِ عبارة «قُتِلَ» في القرآن إلاّ في أربع سور:

١ ــ فجاءت أوّلاً في سورة (المدّثر/٧٤ مصحف/٤ نزول) وذلك بشأن الوليد بن المغيرة، الذي فكّر في القرآن وقدّر، وعلم أنّه كتاب رَبَّانيٌّ لا يقول مثْلَهُ بشر، ورغم ذلك أدبر واستكبر، وزعم أنّه سحر يُؤْثر، وقال: إنْ هذا إلاّ قول البشر، فقال الله عزّ وجل بياناً لذلك:

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

٢ ــ وجاءت ثانياً في سورة (عبس/٨٠ مصحف/٢٤ نزول) وذلك بشأن الكافر المعاند المصرّ على كفره بعد ظهور أدلّة الحقّ له، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾.

فَقَدْ حُكِمَ عَلَىٰ هذا الإنسان الكافر المصرّ على عِناده، بعد أن مـاتَ على كفره، دون أن يتداركَ نفسه بالإيمان والتوبة بالطرد الأبدي.

٣ ـ وجاءت ثالثاً في سورة (البروج /٨٥ مصحف /٢٧ نزول) وذلك بشأن الطغاة البغاة الظلمة، أصحاب الأخدود، الذين بلغ بهم الإجرام الشنيع حدَّ تحريق المؤمنين والمؤمنات، لمجرّد أنَّهُمْ آمَنُوا باللَّهِ العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

٤ ـ وجاءت رابعاً في سورة (الذاريات /٥١ مصحف /٦٧ نزول) بشأن الكَذّابين المكذِّبين بِيَوم الدِّين الذين يبنون كذبهم بيوم الدين على الأوهام والظنون الضعيفة، ويرفضون الأدلة والحجج العقلية القويّة، والأنباء الرّبّانية المؤيّدة بالمعجزات الباهرات. فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

* * *

وبعد التبصر بهؤلاء المذكورين في هذه النصوص الأربعة، نلاحظ أنّ من العدل أن يكون لعنهم لعناً أبديّاً. وبالتأمّل نلاحظ أنّ أدقّ تعبير يدلُّ على هذا اللّعن الأبدي هو التعبير «بالقتل» لأنّ المقتول تُطْرَدُ حياتُهُ كُلُّها من الوجود، فيموت وهُوَ مطرودٌ مُبْعَد، لا أمل له برجعة ولا توبة، ولا رجاء له بأن يعود إلى دائرة الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيّة.

* * *

المثال السادس:

حول كلمات: «الصراط ــ المنهاج ــ السبيل ــ السُّبُل ــ الطريق ــ الطريقة ــ الطرائق):

أوّلاً ــ كلمة «صراط»:

استعملت كلمة «صراط» مُعَرَّفَةً بأداة التعريف (أل) دون وصف ومنكّرة أو معرفة موصوفة (٤٥) مرّة في القرآن الكريم، وهي كلُّها مستعملة في صراط الله، وصراط الحق، وصراط الهدى والعدل، وصراط دين الله، إلّا ثلاث مرّات منها وهي:

١ ــ قول الله عزّ وجلَّ حكاية لمقالة شعيب عليه السلام لقومه:

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) ﴾.

فلفظ «صراط» مستعمل فيها بمعنىٰ الطرق المادّيّة التي يسلكها الناس في الأرض.

٢ ــ وقول الله عزّ وجل بشأن الكافرين في سورة (يس ٣٦):

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) ﴾.

أي: ولو نشاء لمحونا أبصارهم فجعلْنا عيونهم منطمسة لا شقّ فيها، فابتدروا بعد ذلك أن يسلكُوا أيّ طريق يمشون فيه، لكنهم لا يستطيعون.

٣ ــ وقول الله عزّ وجل بشأن الكافرين إذ يحشرون يوم الفصل، ثُمّ يساقون إلى صراط جهنّم، في سورة (الصافّات ٣٧):

﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) ﴾.

أي: إلى الطريق الذي يصل بهم إلى الجحيم، دار العذاب التي يساقون إليها عقاباً لهم على كفرهم وظلمهم في الحياة الدنيا.

ثانياً ــ كلمة «**منهاج**»:

لم تأت هذه الكلمة في القرآن إلّا مرّة واحدة، وهي ما في قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة ٥) خطاباً للرسول محمد ﷺ ولأئمة المسلمين من بعده:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وَمُهَيْمِناً عَلَيْه: جاءَ في تفسير المهيمن أنّه الأمين المؤتمن، والشاهد، والحاكم.

شِرْعَةً: الشِّرعةُ والشريعةُ في كلام العرب هي مشرعة الماء. وهي مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون، ورُبَّما شَرَّعُوها دوابهم حتّىٰ تَشْرَعَها وتشرب منها، والعرب لا تسميّها شِرْعة حتىٰ يكون الماء فيضاً لا انقطاع له، ويكون ظاهراً معيناً لا يحتاج إلى أن يُنْضَح بالدِّلاء[1].

ومنهاجاً: المنهاج والمنهج الطريق الواضح. تقول العرب: أَنْهَجَ الطَّرِيقُ، إذا وضح واستبان، وصار نهجاً واضحاً بيّناً.

فقول الله عزّ وجلّ في هذه الآية ؛ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ فيه بيان أنّ الناس ينتهجون مناهج في حياتهم انطلاقاً من المبادىء والأسس الاعتقادية التي يعتقدونها.

---

(١) انظر لسان العرب.

وهذا هو نظام السلوك الإنساني الذي فطر الله الناس عليه، وجعله سنّةً من سُنن الاجتماع البشري بالجعل القدري.

فالشِّرْعةُ: تُشيرُ إلى المبادىء والأسس الاعتقادية الّتي يشرعها الناس، فيشربون منها ويستقون مفاهيمهم وعقائدهم. وهي ما يُسمَّى في اصطلاح القانونيين بالمبادىء الأساسية، أو الموادّ الدستورية، أو الدستور، أو الأسس التي يعتمد عليها الدستور.

والمنهاج: يشير إلى الأحكام التفصيليّة لأعمال الحياة وأنواع السلوك فيها، وهذه الأحكام تستند إلى المبادىء والأسس الاعتقادية.

والناس على أقسام:

١ ــ فمن يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر، ويحرص على سعادته ونجاته، يَرِدُ شِرْعَةَ الله لعباده، ويصدُر عنها سالكاً منهاج الله لهم، وهو منهاج واحد، كما أنّ الشرعة شِرْعةٌ واحدة.

وانسجاماً مع هذه الفطرة التكوينيّة، اصطفى الله للنّاس في الكتب التي أنزلها على رُسُله شرعةً يشربون منها المبادىء والأسس التي يجب عليهم أن يؤمنوا بها، ليضمنوا لأنفسهم السعادة العاجلة والآجلة. واصطفى لهم منهاجاً بَيّناً واضحاً موصولاً بالشّرعة، وأوصاهم بأن يسلكوه في حياتهم، ليضمنوا لأنفسهم السّعادة، وهذا المنهاج الربّاني الواحد قد دخل فيه بحسب التكامل البشريّ والتطوّر الإنساني تكامل وبعض تعديلات، ليُلائم الطور الذي وصل إليه الناس، حتّىٰ إذا اكتمل التطوّر البشريّ أنزل الله المنهاج المكتمل على خاتم رسله.

٢ ــ والذين يشركون بالله، قد اتّخذوا لأنفسهم شِرْعةً غير شرعةِ الله، ولا بدّ أن يكون لهم منهاج في الحياة منسجم مع شركهم، وهو مخالف لمنهاج الله للناس، ولكلّ نوع شرك منهاج سلوكيٌّ يلائمه وينسجم معه.

٣ ــ والـذين يجحدون الله جحـوداً كلّياً، ولا يؤمنـون بالغيب، ولا بـدينونـة ولا جزاء، قد اتخـذوا لأنفسهم شرعـة غير شـرعة الله لعبـاده، ولا بدّ أن يكـون لهم منهـاج في الحياة منسجم مـع كفـرهم العامّ بـالله واليوم الآخـر، وهو مخـالف حتماً لمنهاج الله للناس. ولكلّ نوع جحود منهاج سلوكيٌّ يلائمه وينسجم معه.

وهكذا يتّضـح معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً ومِنْهَاجاً﴾.

وقد تُشْكِلُ على بعض التّـالِين للآيـة كلمة: [جَعَلْنـا] حينما يَفْهَم هـذا الفهم الذي سبق بيانه.

وإزالةً للإشكال أقول: إنّ كلمة: [جعلنا] هُنَا يصـحُّ أن نفهمها بمعنيين:

الأول: بمعنى الجعل التكويني القدري، وهو يشمل ما فطر الله الناس عليـه، وجعله سُنَّةً من سنن الاجتماع البشري. أي: فمن اختار الأخذ بهذه الشـرعة مثـلاً، فجعلناها عقيدةً له، فلا بُدَّ أن يسلُك منهاجاً جعلناه موصولاً بالشرعـة التي اختارهـا. ومن اختار الأخذ بشرعةٍ أخرى، فجعلناهـا عقيدةً لـه، فلا بُدَّ أن يسلُكَ منهـاجاً آخـر جعلناه موصولاً بالشرعة التي اختارها. وهكذا.

والجعل بهذا المعنى له نظائر كثيرة في القرآن.

الثاني: بمعنى الجعل التكليفي، وهذا خاصٌّ بما أنزل الله للنـاس من شرعـة ومنهاج في كتبه ووحيه لرسله.

والجعل بهذا المعنى له نظائر في القرآن الكريم(١).

ثالثاً ــ كلمة «**سبيل**» معرفة، ومنكرّة، ومجموعة:

كلُّ النصوص القرآنية التي يتضمّن السياق أنّ المراد من السبيل تعاليم الدين،

(١) انظر تتمة هذا البحث في كتاب «الأمة الربّانية الواحدة» للمؤلف، ص ٢٧ ــ ٣٤.

قـد جاء اللفظ فيهـا بالإفـراد، لأنّ سبيل الله واحـدة، أمّا غيـر سبيـل الله فهي سبُـلٌ متعدّدة.

كما قال الله عزّ وجل في سورة (الأنعام /٦ مصحف /٥٥ نزول):

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

فَلَمْ يَـأْت لفظ السبيل في القـرآن مجموعـاً إلّا في سبُل غيـر الله في المبادىء وأنـواع السلوك الإنساني، أو في مـوضوعـات سبُـل الأرض وسُبُـل الـرزق المـاديّـة المختلفة، ونحو ذلك.

وهي تسعة نصوص، ستة منها واضحة الدلالة، وهي:

١ ـ ما في الآية (١٥) من سورة (النحل ١٦).

٢ ـ ما في الآية (٦٩) من سورة (النحل ١٦) أيضاً.

٣ ـ ما في الآية (٥٣) من سورة (طه ٢٠).

٤ ـ ما في الآية (٣١) من سورة (الأنبياء ٢١).

٥ ـ ما في الآية (١٠) من سورة (الزخرف ٤٣).

٦ ـ ما في الآية (٢٠) من سورة (نوح ٧١).

وثلاثة منها إذا تدبّرناها بعمق وجدناها مُنْطَبِقةً على هذه القاعدة القرآنية، وهي:

١ ـ ما في الآية (٦٩) من سورة (العنكبوت ٢٩) في قول الله عزَّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

من الواضـح أنّ الجهاد المراد في هذه الآية هو جهاد المقاومة لضغوط أعـداء الإسـلام والمسلمين من المشركين في مكـة، وجهاد الصبـر، وجهاد اتخـاذ السُّبُـلِ للهجرة والفرار بالدين، بدليل سياق الآية، والمرحلة الزمنية التي نزلت فيها السورة.

وفي هذه الآية إشارة ضمنيَّةٌ للضعفاء الذين فُتنوا في دينهم، أن يتّخِذُوا أيَّ سبيل، ليتخلَّصُوا بالهجرة من ضُغُوط أئمة الشركِ ذوي السلطان والجبروت في مكة. فإذا فعلُوا ذلك بإحسان وتَصَرُّفٍ حكيم، هداهُمُ الله إلى سبُل نجاتهم وسلامتهم، وإنّ اللَّهَ لَمَعَ المحسنين. أمَّا الذين لا يُحسنُونَ التصرّف، فيتحرَّكُونَ لتحقيق غاياتهم تحرُّكاً أهوج طائشاً، ولا يتخذون الشروط السببيَّة الملائمة، فإنّ الله عزّ وجلَّ لم يَعِدْهُمْ بأن يكون معهم.

وغير وارد إطلاقاً تفسير السُّبُل في هذه الآية بالسُّبُل الدينيّة، بل هي سبُلُ سلامتهم ونجاتهم وخلاصهم من أعدائهم في الحياة الدنيا، وسبُلُ هجرةٍ آمِنةٍ، معها تأمين سبُلِ الرزق والمعاش.

فسبيل الله في الدين سبيل واحدة غير متعدّدة، والمتعدّد هي سبُلُ غير الله، فقد نهانا اللَّهُ عن اتِّباع السّبُل، لأنَّها تتفرَّقُ بالناس عن سبيله.

٢ ــ ما في الآية (١٢) من سورة (إبراهيم ١٤) في قول الله عزّ وجلّ حكاية لمقالة الرسل لأقوامهم:

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

هذه الآية تتحدَّث عن أنواع الضغوط الآثمة الظَّالمة، وأنواع الأذى، التي كان يتعرّض لها الرسُل من قبل الكافرين الطغاةِ من أقوامهم، والتي جعلت الرُّسلَ عليهم السلام يعلنون توكُّلَهم على الله، ويُعْلِنُون أَنَّه لَا يوجد أيُّ داعٍ لليأس من النجاة من ظلم الكافرين لهم، وقد هداهم الله سبُلَهم لتحقيق هذه النجاة، فَأَمَامَهُم الخروج من أرض الكفر والظلم، إذْ أذن الله لهم بذلك.

٣ ــ ما في الآية (١٦) من سورة (المائدة ٥) في قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ

مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾.

سُبُلَ السلام: أي: طُرقَ السلامة والنجاة في أمور دنياهم. ولكيلا نفهم أنّها سُبُلٌ في الدين قال الله عزّ وجلّ في آخر الآية: ﴿وَيَهْدِيهِم إلى صِراط مُسْتَقِيم﴾ فَعَطَفَ الهدايةَ إلى صراطٍ مستقيم على سبُلِ السَّلامِ، والإِخْرَاجِ من الظُّلُماتِ إلى النور، والأَصل في العطف أنّه يقتضي المغايرة، مع الأدلة الأخرى التي أبانت أن صراط الله واحد، غير مُتَعَدّد.

رابعاً ــ كلمة «**طَرِيق**»:

استعملت كلمة «طريق» في القرآن الكريم أربع مرات:

١ ــ ما في الآية (٧٧) من سورة (طه ٢٠) في قوله عزّ وجل:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾.

أي: لَا تخافُ دَرَكاً، أي: أن يُدْرِكَكَ والمؤمنين مَعَكَ عَدُوُّك. ولاَ تَخْشَى: أي: ولاَ تَخشَىٰ غَرَقاً أو شيئاً آخر فيه هلاك.

فالطريق هنا هو طريق مادّيّ في البحر، يسير فيه بنو إسرائيل.

٢ ــ ما في الآية (٣٠) من سورة (الأحقاف ٤٦) في قول الله عزّ وجل خطاباً لرسوله محمّد ﷺ بشأن الجنّ الذين صرفهم الله إليه ليستمعوا القرآن:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

فذكر هـذا النفر من الجنّ أَنّ القـرآن يَهْدِي إلى صـراطٍ مستقيم، إذْ فهموا أنّ صراط اللَّهِ واحد.

٣ ــ مـا في الآيتين (١٦٨ و١٦٩) مـن سـورة (النسـاء ٤) في قـول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

أي: لا يغفر الله لهم يوم الدين، ولا يهديهم طريقاً يسلكُونَهُ إلاّ الطريق الذي ينتهي بهم إلى جهنّم دَارِ عذابهم التي يخلُدُون فيها أبداً.

خامساً ــ كلمة «طريقة»:

استعملت كلمة «طريقة» في القرآن الكريم مرّتين:

١ ــ ما في الآية (١٦) من سورة (الجنّ ٧٢) حكاية لما قـاله الجنّ بعـد أن وفدوا إلى رسول الله ﷺ واستمعـوا القرآن بشـأن الكافـرين الجائـرين منهم، وبيانـاً لحكم الله في المسلمين وفي القاسطين (أي: الجائرين):

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

فجاء في هذا النَّصّ لفظ «الطريقة» عنواناً لصراطِ اللَّهِ الديني، واللفظ قد جاء مفرداً، لأنّ صراط الله واحد.

٢ ــ ما في الآية (١٠٤) من سورة (طه ٢٠):

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

أي: إذْ يَقُولُ أشبههم طَرِيقةَ إدْرَاكٍ لِمَا أَحَسُّوا به في مـدَّةِ البرزخ بين المـوت والبعث.

سادساً ــ كَلِمةُ «طَرَائِق» جمـع طَرِيقة:

استعملت كلمة «طرائق» في القرآن الكريم مرّتين:

١ ــ ما في الآية (١١) من سورة (الجنّ ٧٢) حكايـة لمقالـة النفر من الجنّ الذين استمعوا القرآن من الرسول ﷺ، عن أصناف الجنّ:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾.

كُنَّا طَرَائِق: أي: كُنّا أصنافاً على طَرائِقَ مختلفة.

قِدَداً: أي: مقطَّعة غير متّحِدَة، لا تجمعها جامعة، وقِدَداً: جمْـعُ قِدَّة، وهي القطعة من الجلد، ونجد عند صانعي الأمتعة من الجلود شيئاً كثيراً من هذه القِدَد.

فـالتقت البيـانـات القـرآنيـة على أن دين الله المعبّـر عنـه بـأنـه صـراط الله، ومنهـاجه، وطـريقته، وسبيله، هـو واحد، لا تعـدّد فيه، والمتعـدد هي سبُل الأرض والحياة، ومذاهب الناس، وعلى هذا ينبغي أن نفهم النصوص القرآنية.

* * *

المثال السابـع:

حـول كلمات «القضـاء ــ والقـدر ــ والكتـابـة» استنـاداً إلى سَبْـر دلالات الاستعمالات القرآنيّة لها:

لقد سبَرْتُ دلالات الآيات القرآنيّة التي ورد فيها استعمال كلمات «القضـاء ــ والقدر ــ والكتابة» فظهر لي ما خلاصته:

أوّلاً: أمّا «القضاء» فقد تبيّنَ لي أنّ جذر معنى هذه المادّة، يدور حول الانتهاء، والإِنْهَاءِ، والإمضاء.

وهذا المعنى هو المعنى الأساسي الجذري الذي تدور عليه المادّة، في أمّهات المعاجم اللُّغوية.

ثانياً: وأمّا «الْقَدَر» فقد تَبَيَّنَ لي أنّ أصل معنى هذه المادّة ومُشْتقاتها يرجع إلى جذرَيْن أساسيّين:

الأول: يدور حول القدرة التي يستطيع مالكها أو المتصرّف فيها فعلَ الأفعال المختلفة.

الثاني: يدور حول الدلالة على مقدار الشيء، أيّاً كان نوع ذلك المقدار، من أيّ شيءٍ قابلٍ للتجزئة إلى أجزاء يقدَّر بها، ولو في التصوّر الذهني فقط.

ثالثاً: وأمّا «الكتابة» فقد تبيَّنَ لي أنّ أصل الكتابة يدور حول تسجيل المعلومات، أو الأفكار، أو الخواطر، أو الأقوال، أو أيّ معنىً من المعاني، كما هي عند الكاتب، أو الْمُمْلِي للكتابة، أو الآمر بكتابة ما يدُلُّ على المعاني التي يريد تسجيلها.

وكلُّ معلوم قد أحصاه الله كتابة، وقد وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شيءٍ علماً، فكلُّ شيءٍ وَسِعَهُ عِلْمُ اللَّه قد أحصاه سبحانه كتابة فمنه ما قضاه وقدّره، ومنه ما هو أزلي، ومنه ما هو من الكسب الاختياري للمخلوق، ومنه ما هو مستحيل الوجود، فلا تختص الكتابة بالمقدّرات المقضيات، بل تشمل كلّ معلوم.

أمّا السَّبْرُ والشرح التفصيلي ففيما يلي:

(١)
القضاء

لدى سبر النصوص القرآنية لمادّة (قضى) ومشتقاتها في القرآن الكريم، الواردة فيه (٦٣) مرّة، تبيّن لي أن جذر معنى هذه المادّة يدور حول الانتهاء، والإنهاء، والإمضاء.

وهذا المعنى هو المعنى الأساسيّ الجذري الذي تدور عليه المادّة في أمّهات المعاجم اللغوية.

والانتهاء والإنهاء والإمضاء يكون في مجالات مختلفة، وبالسبر للآيات القرآنية تبين لي أنّ القضاء (الدائر حول معنى الانتهاء والإنهاء والإمضاء) قد استعمل في المجالات التالية:

المجال الأول: مجال الإرادة، إذْ تُمضي الإرادة وتبتُّ مراداً ما.

والإرادة ذات وجوه:

(أ) إرادة تكوينية، وهي الإرادة التي تُقَرّر فعل أمر أو تركه، إيجاداً أو إعداماً، مع تحديد وقت الفعل أو الترك، أو من غير تحديد له.

(ب) إرادة بحكم جزائي، وهي الإرادة التي يتم بها إدانة المسؤول عن عمله، بموجب قواعد الإدانة المقرّرة في التكليف، أو التي يقضي بها منطق الحق والعدل، كأحكام الإدانة التي يحكم الله بها يوم الدين.

(ج) إرادة بحكم عدلي بين الخصوم، وهي الإرادة التي يتم بها الفصل بين الخصوم على الحقوق، بموجب مبادىء الحق وأحكام العدل.

(د) إرادة بحكم تكليفي، وهي الإرادة التي يتمّ بها التكليف بفعل أمر أو بتركه. أمّا فعل ذلك الأمر أو تركه فيرتبط باختيار المكلّف المبتلَىٰ، إن شاء أطاع التكليف واستحقَّ الثواب، وإن شاء عصى التكليف واستحقَّ العقاب.

المجال الثاني: مجال الفعل، إذْ يُنْهي الفاعل الْفِعْل وَيُنَجّزُ مفعولاً ما، وقد يكون هذا المفعول كفّاً للقوّة عن عمل شيء تشتهيه النفس.

وأفعال الخالق عزّ وجل خَلْقٌ، لأنه يفعل بقدرته الذاتية، وأفعال المخلوقين أسباب، لأنهم يفعلون بقدرات منحهم الله إيّاها، أو سخرها لهم ومكنهم من استخدامها.

المجال الثالث: مجال القول، إذْ يُنْهَىٰ القول، ويَتمُّ آخر مقولٍ فيه، أو يَنْتَهِي القول. ومنه الوحي، أو يَتِمُّ به إبلاغ مضمونه لمن يُرادُ إعلامه به.

المجال الرابع: مجال تحقيق مطلوب أو رغبة أو وَطَرٍ أو نحو ذلك. وقضاؤه هو الوصول إلى نهاية تحقيقه.

المجال الخامس: مجال تأدية حقّ أو واجب، كعهد، أو وعد، أو نذر، أو تكليف بأمر أو نهي، أو دين، أو نحو ذلك.

فالوفاء بالعهد أو الوعد أو النذر هو قضاؤه، أي: إنهاء المطلوب فيه، وأداء الدين هو إنهاء تعلّق الحقّ بالمدين.

وأداء التكليف كما جاء في الأمر أو النهي هو قضاؤه، أي: إنهاء تأدية المطلوب فيه.

وهكذا.

المجال السادس: مجال إنهاء الأجل، أي: إنهاء التربُّص بحلول الأجل المسمّى.

المجال السابع: مجال إنهاء الوجود كلّه، أو إنهاء استمرار الحياة.

ملاحظة حول تعدية مادّة (قضى)

١ ــ حين لا يحمل القضاء أكثر من معنى الإنهاء والإمضاء لإرادةٍ، أو فعلٍ، أو حاجة، أو أي أمرٍ، فإنّه يُعدَّىٰ للمفعول به دون أداة، مثل قول الله تعالى: ﴿وإذا قضى أمراً فإنّما يقول له: كن فيكون﴾ وقوله تعالى: ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ وقوله تعالى: ﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾.

٢ ــ وحين يُضَمَّن القضاء معنى الغلَبَة والاستعلاء والقهر في بت الإرادة، أو في الحكم، أو في إنجاز الفعل، فإنه يُعدّى بحرف (على) مثل قول الله تعالى: ﴿فلمّا قضينا عليه الموت﴾.

٣ ــ وحين يُضَمَّن القضاء معنى الإيصال إعلاماً، أو تبليغاً، أو وحياً، أو تحقيقاً لمطلوب من نزل به الأمر، أو نحو ذلك، فإنّه يُعدّى بحرف (إلى) مثل قول الله تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ أي: أوصلنا إليهم تبليغاً بأنباء ما سيكون منهم وعليهم، وقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾.

٤ ــ وحين يُضَمَّن القضاءُ معنى الحكم بأمر فإنّه يُعدَّى بحرف (الباء) مثل قول الله تعالى: ﴿فإذا جاء أمر الله قُضي بالحق﴾ وقوله تعالى: ﴿والله يقضي بالحقّ﴾.

وسيأتي في السبر القرآني شرح هذه النصوص.

السبر القرآني مع البيان الشارح

أولاً ــ القضاء في مجال الإرادة:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

لا يُقضَىٰ عليهم فيموتُوا: أي لا تُبرمُ إرادة بموتهم وهم في جهنم يعذّبون، فيموتوا، لأنه قد سبق إبرام الإرادة بخلودهم في العذاب جزاء كفرهم بالله وبرسوله وبكتابه، وهذه هي سنة الله في كلّ كفور.

نوع الإرادة هنا: إرادة تكوينية.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (مريم /١٩ مصحف /٤٤ نزول):

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

وكان أمراً مقضيّاً: أي وكان خلق عيسى بنفخة الرسول وجعله آية للناس ورحمة من الله أمراً قد أبرمت فيه الإرادة الربّانية، فلا رجعة فيه، فهو قرار إراديٌّ ربّاني قد تمّ الانتهاء من بتّه، ولا بدّ من إنهاء فعله في الواقع بأجله المقرّر.

نوع الإرادة هنا: إرادة تكوينية.

٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (مريم /١٩ مصحف /٤٤ نزول):

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (غافر /٤٠ مصحف /٦٠ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (آل عمران /٣ مصحف /٨٩ نزول) في سياق قصّة مريم عليها السلام:

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾.

إذا قضى أمراً فإنّما يقول له: كن فيكون: أي إذا بتّ بإرادته أمراً، وأنهى قرار إيجاد شيءٍ أو إعدامه، فإنما يقول له عند تنفيذ مراده فيه: كن. فهو بأمر التكوين هذا يكون على وفق مراد الله فيه.

نوع الإرادة هنا: إرادة تكوينية.

٤ ــ وقول الله تعالى في سورة (مريم /١٩ مصحف /٤٤ نزول):

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾.

أي: وما أحدٌ منكم إلاّ وارد جهنّم، وذلك حين يمرّ الناس جميعاً على الصراط يوم الدّين، وهذا الورود حتمٌ على الله تنجيزه، إذْ أُبرمتْ به إرادة جازمة، وانتهى الأمر من إقرارها.

نوع الإرادة هنا: إرادة تكوينية.

٥ ــ وقول الله تعالى في سورة (الزخرف /٤٣ مصحف /٦٣ نزول) يحكي نداء المخلّدين في النار بعد عذاب أليم يعذبون فيها:

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

ليقض علينا ربُّك: أي لِيَبُتَّ ربُّك قرارَه الإراديَّ علينا بالموت، وبإنهاء حياتنا، لنخلُص من هذا العذاب الذي نحن فيه. وبتُّ الإرادة بالموت يستتبع تحقيقَ المراد، فتُنْهَى بذلك حياتهم.

نوع الإرادة هنا: إرادة تكوينية.

٦ ــ وقول الله تعالى في سورة (الزمر /٣٩ مصحف /٥٩ نزول):

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي

قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

فيمسك التي قضى عليها الموت: أي فيمسك النفس التي سبق إمضاءُ إرادته بموتها في ذلك الأجل.

والمعنى العام للآية: الله يتوفى الأنفس حين موتها وحين نومها، فيمسك التي سبق إمضاء إرادته بموتها في ذلك الأجل، فتموت، ويرسل التي لم يحن أجل موتها لتعود إلى حياة اليقظة، ويظلّ أمرها كذلك مناماً ويقظة حتى يحين الأجل المسمّى لموتها فيمسكها عنده.

فالتوفي شيء غير الموت، يحدث عند النوم، ويحدث عند الموت، والذي حدث لعيسى عليه السلام شيء غير الموت، وبهذا تنحل إشكالات كثيرة.

نوع الإرادة هنا: إرادة تكوينية.

٧ ـ وقول الله تعالى في سورة (يوسف /١٢ مصحف /٥٣ نزول) حكاية لمقالة يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن تعبيراً لحُلْمَيْهما:

﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾.

أي: أبرمت الإرادة التكوينية الربّانية بأن هٰذين الحدثين سيحصلان في أجليهما المقرّرين.

ومن المؤكد أن يوسف عليه السلام قد استند في كلامه هذا إلى غلبة ظنّ في تعبير حلميهما، إلى مستوى يسمح له بأن يقول لهما: «قضي الأمر» ولم يصل إلى يقين مستندٍ إلى وحي بدليل ما جاء في قول الله عقب ذلك:

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ . . . ﴾.

نوع الإرادة هنا: إرادة تكوينية.

٨ ــ وقول الله تعالى في سورة (مريم / ١٩ مصحف / ٤٤ نزول):

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وأنذرهم يا محمد عذاب الله يوم القيامة، يوم يتحسّرون على ما فاتهم في الحياة الدنيا.

إذْ قُضِي الأمر: أي إذْ بُتّ الحكم الرَّبّاني فيهم، وأُنْهِيَ إعلان إدانتهم ومعاقبتهم.

وهم في غفلة: أي وهم الآن في غفلة عن آيات الله، وعن حكمته، وعن مسؤوليتهم تجاهه، وعن عدله وعقابه.

وهم لا يؤمنون: أي وهم اليوم لا يؤمنون مهما جاءتهم العظات والإنذارات، لأنهم غارقون في غفلتهم عن الحقّ، وعن حكمة الله في خلق الناس، منصرفون إلى شهواتهم وأهوائهم.

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم جزائي.

٩ ــ وقول الله تعالى في سورة (النمل /٢٧ مصحف /٤٨ نزول):

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: إنّ ربّك يُمضي قرارات حكمه الجزائي بين بني إسرائيل، فيحكم على مكذّبيهم وعصاتهم بالإدانة والعقاب، ويحكم لمؤمنيهم ومطيعيهم بالنجاة والثواب والسعادة، وهو العزيز الغالب الذي لا معقب لحكمه، وهو العليم بهم وبما يعملون.

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم جزائي.

١٠ ــ وقول الله تعالى في سورة (يونس /١٠ مصحف /٥١ نزول):

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: وما كان الناس إلّا أمّة واحدة مجتمعة على دين الله منذ عهد آدم، فاختلفوا حين كفر منهم من كفر وأشرك منهم من أشرك، فكان منهم مؤمن وكافر، وتفرّق الذين كفروا إلى طرائق قِدَداً، ولولا كلمة سبقت من ربك، وهي كلمة تأجيل الحساب والجزاء إلى يوم الدين، لقُضِي بينهم في الحياة الدنيا فيما فيه يختلفون، وذلك ببتّ قرارات الحكم على الكافرين بالإدانة والمؤاخذة وبأنهم الضالون، وذلك قد يستتبع تنفيذ العقاب، وببتّ قرارات الحكم للمؤمنين بأنهم المهديّون الناجون، وذلك قد يستتبع منحهم ثواباً معجّلاً على إيمانهم وصالحات أعمالهم.

ونظير هذه الآية: الآية (١١٠) من سورة (هود ١١).

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم جزائي.

١١ ـ وقول الله تعالى في سورة (يونس /١٠ مصحف /٥١ نزول):

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

القضاء في هذه الآيات الثلاث من سورة (يونس) إبرام أحكامٍ جزائية بإرادة الربّ العزيز العليم الحكيم.

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم جزائي.

١٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام /٦ مصحف /٥٥ نزول):

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾.

أي: وقال مشركو قريش: لولا أنزل على محمد ملك يبلغ معه رسالة الله وآياته القرآنية.

فأجابهم الله بقوله: ﴿ولو أنزلنا ملكاً لقُضي الأمرُ * ثمّ لا يُنظرون﴾ أي: لقُضِي أمر إهلاكهم ببتِّ قرار الحكم عليهم بالإهلاك العاجل، إذا أصروا على الكفر بعد إنزال الملك، وهو ما سيفعلونه حتماً، لأنّ كفرهم كُفْرُ تَعَنُّت، لا كفر باحث عن أدلة صدق الرسول في تبليغه عن ربّه.

وإنّما يُقضى أمر إهلاكهم حينئذٍ لأنه إذا أنزل عليهم الملك لم يبق مقتضٍ لإمهالهم وإنظارهم، إذْ يكون إصرارهم على الكفر عناداً واضحاً لا شبهة معه.

ثم لا يُنْظَرون: أي ثم لا يُمهلون بعد بتِّ الإرادة بإهلاكهم، بل يسرع الله عزّ وجل بإهلاكهم.

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم جزائي يتبعه التنفيذ.

١٣ ـ وفي عرض بعض صور أحداث يوم القيامة في سورة (الزمر / ٣٩ مصحف / ٥٩ نزول) قال الله تعالى بشأن غير المتقين:

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

وقال تعالى بشأن المتقين:

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قُضِي بينهم بالحقّ: أي بُتّ وأبرم قرار الجزاء بالثواب أو بالعقاب.

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم جزائي.

١٤ ـ وفي سياق عرض بعض أحداث يوم القيامة في سورة (غافر / ٤٠ مصحف / ٦٠ نزول) قال الله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: والله يَبُتُّ قرارات الجزاء بالثواب وبالعقاب بين الخلائق بالحقّ يوم القيامة.

أمّا الشركاء الذين يدعوهم المشركون من دون الله، فإنهم لا يقضون بشيء لا بحقّ ولا بباطل، لأنهم لا يملكون إمضاء أيّ شيء ولا بتّ أيّ شيء، والله وحده هو السميع لكل ما يمكن أن يُسمع، وهو البصير بكل ما يمكن أن يُرىٰ.

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم جزائي.

١٥ ـ وقول الله تعالى في سورة (غافر / ٤٠ مصحف / ٦٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: فإذا جاء أمر الله بالفصل بين الذين آمنوا والذين كفروا، بُتَّتْ قرارات الفصل بين العباد، فحكم الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالهداية والنجاة والسعادة، وحكم على الذين كفروا بالضلالة والعقاب جزاء كفرهم وسيّئات أعمالهم.

وعندئذٍ يظهر أن المبطلين قد خسروا كلّ شيء.

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم جزائي.

١٦ ـ وقول الله تعالى في سورة (فُصّلت / ٤١ مصحف / ٦١ نزول):

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: ولولا كلمة سبقت من ربّك وهي كلمة تأخير الحكم بالإدانة والجزاء إلى يوم الدين، لبُتَّ الحكم بإدانة المكذبين عاجلاً في الحياة الدنيا، لأنّ فريقاً منهم قد

وصل إلى درجة استحقاق الإدانة وعدم الإمهال، ولكنّ الكلمة التي سبقت من ربّك قرار لا نقض له.

يضاف إلى ذلك أن فريقاً آخر من الذين لم يؤمنوا ما زالوا في شك حقيقي من صدق الرسالة، وهذا الشكّ موقع في الريب، وهو اتهام موسى عليه السلام بعدم الصدق، فيحتاجون بسبب ذلك إلى مدّة إمهال لعلّهم يصلون إلى الطمأنينة بصدق الرسالة، وأن ما جاء فيها هو الحقّ من عند الله، وهؤلاء ينبغي أن يُمهلوا، لعلهم يتخلّصون من شكّهم فيؤمنوا.

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم جزائي.

١٧ ــ وقول الله تعالى في سورة (الشورى /٤٢ مصحف /٦٢ نزول) في سياق الحديث عن أمم الرسل السابقين:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾﴾.

هذه الآية تكشف أنّ تركَ تعجيل القضاء بين الناس في الحياة الدنيا سنّةٌ من سُنَن الله في الأمم السابقة، وليس هذا الأمر من خصائص أمة محمد ﷺ.

فكلمة الله التي سبقت بتأخير الإدانة الكبرى إلى يوم الدين تشمل كلّ الناس، من أولهم إلى آخرهم.

وحال اليهود والنصارى من الشكّ المريب برسالة محمد ﷺ كحال مشركي العرب في زمن نزول سورة الشورىٰ إذْ فيهم من لا يزال الشكّ مسيطراً على فكره ونفسه، فالحكمة تقضي بأنه ينبغي إمهاله، رجاء أن ينجلي عنه الشك ويعرف الحقّ.

لكنّ فريقاً آخر قد عرف الحقّ وعاند، بَيْد أنّ قرار تأجيل الإدانة إلى يوم الفصْل قرار عام، مبيّن في قوله: ﴿بل الساعة موعدهم﴾ وفي نظائرها من الآيات.

وفي الإشارة إلى هذا الفريق قال الله تعالى في سورة (الشورى) بعد الآية السابقة بعدّة آيات:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

وكلمة الفصل هي كلمة تأجيل الفصل بين الخلائق إلى يوم الدين.

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم جزائي.

١٨ ـــ وقول الله تعالى في سورة (الجاثية /٤٥ مصحف /٦٥ نزول):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

لقد آتى الله بني إسرائيل آياتٍ ونصوصاً بيّناتٍ واضحاتٍ من أمر الدين، فيها علم العقائد والأخلاق والعبادات وأحكام الحلال والحرام، فعلموها، ثم اختلفوا فيها بغياً بينهم، واتباعاً للأهواء والشهوات، ورغبة بالتسلّط والعلّو في الأرض.

وبما أنهم ما اختلفو وتجافوا عن أمر الدين إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، فقد استحقوا أن يفصل الله بينهم بحكمه. ولكنّ هذا الفصْل مؤجل بموجب كلمة الله السابقة إلى يوم القيامة، إذَنْ فالله يَبُتُّ ويُمْضي حكمه العادل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم جزائي.

١٩ ـ وقول الله تعالى في سورة (إبراهيم /١٤ مصحف /٧٢ نزول) يصور مشهداً من مشاهد يوم القيامة بعد الفصل بين العباد:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ . . . ﴿٢٢﴾﴾.

لمّا قُضي الأمر: أي لمّا أُنهي الفصل بين العباد بالحكم العادل، فصدرت قرارات الإدانة والعقاب، وقرارات النجاة والثواب.

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم جزائي.

٢٠ ـ وقول الله تعالى في سورة (النساء /٤ مصحف /٩٢ نزول):

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

ممّا قضيت: أي ممّا أمضيت وأنهيت في حكمك الذي تفصل به بين الخصوم بالعدل، كما يُريك الله.

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم عدلي يفصل بين خصمين، وهذا الحكم قد لا يقترن بسلطان تنفيذي قاهر.

٢١ ـ وقول الله تعالى في سورة (الأحزاب /٣٣ مصحف /٩٠ نزول):

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

إذا قضى الله ورسوله أمراً: أي إذا أبرم اللَّهُ أو رسوله أمراً تكليفيّاً مُلزِماً.

إنّه بعد توجيه الأمر التكليفي الملزِم من الله أو رسوله لا يبقى للمؤمن ولا للمؤمنة إباحة اختيار الفعل أو الترك، بل يجب عليهما تكليفاً اختيار تنفيذ الأمر،

كما جاء في نصّ التكليف. أمّا إنْ اختار أحدهما أو كلاهما غير ذلك فقد عصى. وفي أوامر التكليف يمكّن الله عباده من المعصية ويمدّهم بالقوة لتنفيذ ما اختاروه، ليتم ابتلاء إرادتهم على أفضل وجه، وليظهر المطيعون والعصاة وليحاسبوا وليجازوا بحسب أعمالهم.

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم تكليفي.

٢٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (الإسراء /١٧ مصحف /٥٠ نزول):

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ... ﴿٢٣﴾﴾.

أي: أبرم بإرادته حكماً تكليفيّاً دلّ عليه: ﴿ألّا تعبدوا إلّا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ إلى آخر نصّ التكليف.

نوع الإرادة هنا: إرادة بحكم تكليفي.

ثانياً ــ القضاء في مجال الفعل:

١ ــ قول الله عزّ وجلّ في سورة (عبس /٨٠ مصحف /٢٤ نزول):

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾.

لمّا يقْضِ ما أمره: أي لمّا يُنْهِ الإنسان أداء ما أمره به ربُّه طوال مدة ابتلائه في الحياة الدنيا، رغم أنّ حياته التي أحياه الله إيّاها كانت تتسع لإنهاء ما أمره الله به، لكنّه شديد الكفران لنِعَم الله عليه، غير مهتمٍّ بالقيام بواجب شكر النعمة، ولا بحقّ خالقه عليه في الطاعة، فاستحقّ الزّجر بكلمة: «كلّا».

وظاهر أنّ كلّ إنسان يلقى الله وهو محتاج لعفوه وغفرانه ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿كلّا * لمّا يقض ما أمره﴾، فكيف بمن أشرك بالله أو جحد به جحوداً كلّيّاً فكان ممّن لا غفران لذنوبهم، لكنّ النصّ هنا خاصّ بالكافر، بدليل قول الله تعالى في أول النصّ: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (يونس /١٠ مصحف /٥١ نزول):

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾.

أي: يا قوم، إنْ كان كبرُ عليكُم أمْرُ مَقَامِي فيكم رسولاً اصطفاه الله بالوحي، وفضّله، وكلّفه أن يحمل إليكم رسالة من عنده، وكبُر عليكم تذكيري لكم بآيات الله، لترتدعوا عما أنتم فيه من شرك وأعمالٍ سيّئة قبيحة، فأردتم بي مكراً تتخلّصون به منيّ، فعلىٰ الله توكّلتُ، فهو الذي يدفع عنّي مكركم وكيدكم، وهو الذي يحميني منكم، فأجمعوا أمركم على رأي واحدٍ، وخطّةٍ واحدة، ومكيدةٍ توجّهونها جميعاً لي، بغيةَ أن تتخلصوا مِنّي. وادعوا شركاءكم من دون الله، وواجهوني بما في نفوسكم في مكيدة علنيّة، تكشفون فيها عن صدوركم غُمَّة مصانعتي ومجاملتي في إظهار عدم الرغبة فيما تريدون بي من شرٍّ للتخلّص مني، ثم أنهوا إليَّ الكيد الذي أجمعتم أمركم عليه، واقضوه، ولا تُمهلوني.

٣ ــ وقول الله عزّ وجل ضمن عرض قصة إغراق قوم نوح في سورة (هود /١١ مصحف /٥٢ نزول):

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

وقُضِي الأمر: أي أُنْهِيَ أمرُ إهلاك الذين كفروا من قوم نوح بالإغراق.

٤ ــ وقول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ في سورة (الأنعام /٦ مصحف /٥٥ نزول):

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

أي: لو أنني أملك ما تستعجلونه من إنزال العذاب الربّاني عليكم، وتتحدّونني بإنزاله لأنزلته، ولتمّ إنّهاءُ الأمر بيني وبينكم، ولكنّ إنزال العذاب بيد الله وحده، والله أعلم بالظالمين، فحين تقتضي حكمته إنزال العذاب عليكم فهو ينزله ولا يستطيع أحدٌ حينئذٍ دفعه عنكم.

٥ ـ وقول الله عزّ وجل بشأن سليمان عليه السلام في سورة (سبأ /٣٤ مصحف /٥٨ نزول):

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ... ﴿١٤﴾﴾.

أي: فلمّا أنهى الله بسلطانه القاهر إماتة سليمان عليه السلام وفق إرادته السابقة، ما دلّهم على موته إلاّ دابّة الأرض التي أخذت تأكل عصاه التي كان متكئاً عليها، فلمّا ضعُفت عن حمله انكسرت فخرّ على الأرض، فعلموا أنه قد مات، وكانوا يهابون الوصول إليه في مجلسه الخاص دون أمرٍ منه.

٦ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلت /٤١ مصحف /٦١ نزول):

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

فقضاهنّ سبع سماوات: أي فأنهى وأمضى خلقهن سبع سماوات.

٧ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

أي: هل ينتظر الذين كفروا إلاّ أن يأتيهم الله بالمهلكات في ظُلَل (جمع

ظُلَّة) من الغمام، وتأتيهم الملائكة الموكلون بعذابهم مع هذه الظُّلَل، إنّه إذا حصل ذلك فقد قُضِي أمر إهلاكهم، وبلغ إلى نهايته سريعاً.

وإلى الله تُرجَع الأمور كلّها، ومنها أمور إنزال العذاب والإهلاك، ومنها أمور الإمهال.

٨ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال /٨ مصحف /٨٨ نزول):

﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا . . . ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾.

ليقضي الله أمْراً كان مفعولاً: أي لينهي الله فعل أمرٍ كان مقرراً فعله لا محالة في خطة مقاديره عزّ وجلّ.

٩ ــ وقول الله عزّ وجل بعد بيان أحكام صلاة الخوف في سورة (النساء /٤ مصحف /٩٢ نزول):

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ . . . ﴿١٠٣﴾ ﴾.

أي: فإذا أنهيتم صلاة الخوف التي هي لذكر الله فوق العادة، فاذكروا الله وفق العادة قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم، أي: في كلّ أحوالكم.

١٠ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سياق بيان أعمال الحجّ في سورة (الحجّ /٢٢ مصحف /١٠٣ نزول):

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: ثُمّ لِيُنهوا أعمال مناسكهم وما يتبعها من تحلّل بالْحَلْق، ثمّ بإزالة الشعور والأظافر التي كان محرّماً عليهم إزالتها إذْ كانوا مُحْرِمِينَ بالحجّ.

١١ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الجمعة /٦٢ مصحف /١١٠ نزول):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: فإذا أنهيت الصلاة من يوم الجمعة التي سعيتم إليها لذكر الله فوق العادة، فانتشروا في الأرض، وابتغوا من فضل الله أرزاقكم ومصالح دنياكم، واذكروا الله مع ذلك وفق العادة ذكراً كثيراً، لعلكم تفلحون.

١٢ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ ... ﴾.

أي: فإذا أنهيتم مناسككم في الحجّ التي كنتم تؤدّونها لذكر الله فيها فوق العادة، فاذكروا الله بعدها وفق العادة، وعند كلّ مناسبة، كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً.

١٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (القصص /٢٨ مصحف /٤٩ نزول):

﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ ... ﴿١٥﴾ ﴾.

أي: فوكزه موسى بجُمع يَدِهِ فأنهى عليه بسبب هذه الوكزة حياته، فوقع الرجل قتيلاً، ولم يكن موسى عليه السلام يريد قتله.

١٤ ــ وقول الله تعالى في سورة (طه /٢٠ مصحف /٤٥ نزول) حكاية لمقالة سحرة فرعون له بعد إيمانهم بربّ موسى وهارون ووعيد فرعون لهم بتقطيع الأيدي والأرجل وبالصلب:

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) ﴾.

أي: أمْض من تنفيذ حكمك فينا ما أنت ممضيه، فإنك مهما نفّذت فينا من عقوبة، فإنّك لا تستطيع أكثر من أن تنهي حياتنا الدنيا التي نحياها الآن.

ثالثاً ـ القضاء في مجال القول:

١ ـ قول الله تعالى لرسوله في سورة (طه /٢٠ مصحف /٤٥ نزول):

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾.

أي: ولا تعجل يا محمد بمتابعة جبريل في تلقي القرآن عنه، من قَبْل إنهاء المقدار الذي يوحي به إليك حسب تلقينه، وهذا هو أدب تلقّي القرآن وتعلّمه حسب نزوله.

٢ ـ وقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في سورة (الأحقاف /٤٦ مصحف /٦٦ نزول):

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) ﴾.

فلمّا قُضِي ولَّوْا إلى قومهم منذرين: أي فلما أُنهيتْ تلاوة القرآن التي كان الرسول ﷺ يتلوها ساعتئذ، ولَّى هؤلاء النفر من الجنّ عائدين إلى قومهم من الجنّ يحملون إليهم رسالة التبليغ والدعوة إلى الإيمان، وإنذار من كفر.

٣ ـ وقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في سورة (القصص /٢٨ مصحف /٤٩ نزول):

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾.

أي: وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي أو الوادي الغربي في سيناء، تشهد عن قرب أحداث تكليم موسى، وتكليفه أمر الرسالة التي كلفناه القيام بها، وما كنت أيضاً من الشاهدين لذلك عن بعد.

بل تتلقىٰ كل ذلك عن الوحي، فهو بالنسبة إليك من أنباء الغيب التي نوحي بها إليك.

إذ قضينا إلى موسى الأمر: أي إذْ أنهينا تكليمه بالكلام الذي يشتمل على أمر الرسالة وأحكام الدين.

٤ ــ وقول الله تعالى في سورة (الإسراء /١٧ مصحف /٥٠ نزول):

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ . . . ﴿٥﴾﴾.

إلى آخر الوعد المذكور في السورة.

وقضينا إلى بني إسرائيل: أي وأنهينا تبليغ بني إسرائيل في التوراة أحداثاً ستحدث لهم في مستقبل تاريخهم، وبعض هذه الأحداث يصدر عن أعمالهم الاختيارية، وبعضها ينزل فيهم بموجب قرار ربّاني جزائي، سببه أعمال اختيارية يقومون هم بها.

وهذه المعلومات المبيَّنة لهم في التوراة معلومات ثابتة نهائية لا نقض لها، فهي بمثابة الأمور التي مضت وانتهت.

٥ ــ وقول الله تعالى خطاباً للوط عليه السلام، في حكاية قصة إهلاك قومه، في سورة (الحجر /١٥ مصحف /٥٤ نزول):

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

وقضينا إليه ذلك الأمر: أي وأنهينا وحينا إلى لوط بأن قومه هالكون متى دخلوا في صباح تلك الليلة.

رابعاً ـ القضاء في مجال تحقيق مطلوب أو رغبة أو وطر:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (يوسف /١٢ مصحف /٥٣ نزول):

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . . . (٦٨)﴾.

إلّا حاجة في نفس يعقوب قضاها: أي أنهاها وحققها بما وجّه أبناءه له، إذ قال لهم: ﴿يا بنيّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة وما أغني عنكم من الله من شيء﴾.

٢ ـ وقول الله تعالى بشأن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ في سورة (الأحزاب /٣٣ مصحف /٩٠ نزول):

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)﴾.

فلما قضى زيد منها وطراً: أي فلمّا أنهى زيد منها إربه وحاجته، وانتهت رغبته باستمرار عقد النكاح، إذ لم يبق له بها وطر، فطلّقها.

ونظيرها قوله تعالى: ﴿إذا قضوا منهنّ وطراً﴾.

خامساً ــ القضاء في مجال تأدية حقّ أو واجب:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (الأحزاب /٣٣ مصحف /٩٠ نزول):

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

نَحْبَهُ: النَّحْبُ العهد والنذر، ومن عاهد أن يقاتل في سبيل الله حتى يقتل، فقضاء عهده ونذره يكون بأن يموت شهيداً في سبيل الله.

فمنهم من قضى نحبه: أي أنهى عهده الذي عاهد الله عليه، أو نذره الذي نذره، بأن قاتل في سبيل الله حتى قتل، فكان من الشهداء.

سادساً ــ القضاء في مجال إنهاء الأجل:

١ ــ قول الله تعالى في حكاية قصة زواج موسى عليه السلام من ابنة شيخ مدين في سورة (القصص /٢٨ مصحف /٤٩ نزول):

﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أيّما الأجلين قضيت: أي أمضيتُ وأنهيت.

فلمّا قضى موسى الأجل: أي أنهاه وأمضاه.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (يونس /١٠ مصحف /٥١ نزول):

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾.

لقُضي إليهم أجلهم: أي للزم من تعجيل ما استعجلوا به أن تنتهي في الحياة الدنيا مدّة امتحانهم، إذ يستنفدون بهذا التعجيل كلّ مطالبهم، فلا يبقى لاستمرار حياتهم هدف من أهداف الابتلاء، وعندئذٍ يُقضَىٰ إليهم أجلُهُم، أي يُنهىٰ إليهم أجلهم، فتنتهي بذلك حياتهم، ولكن الله عزّ وجل لا يستجيب لهم كلّ مطالبهم، إمهالاً لهم، ورحمة بهم، واستكمالاً لظروف الابتلاء الأمثل.

أما الذين لا يرجون لقاء الله فيذرهم الله في طغيانهم يعمهون منطلقين على غير هدى.

وقد نزلت هذه الآية بعد آية الإسراء التي يقول الله فيها:

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

أي: ويدعو الإنسان لنفسه بالشرّ من جهله وعجلته، ظانّاً أنّه يدعو لنفسه بالخير. فهو في دعائه بالخير حسب تصوّره يدعو على نفسه بالشر في الحقيقة، والسبب في ذلك عجلته وتسرّعه الأرعن، الذي يجعله لا يدرك حقائق الأمور.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام /٦ مصحف /٥٥ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾.

ثم قضى أجلاً وأجل مسمّى عنده: أي ثم أمضى وأنهى أجلاً، وهو الأجل المقرر في خطة الخلق بين بدء الخلق، والموت. وأجلٌ آخر مسمًّى عنده، وهو أجل الساعة والبعث. أو الأجل بين بدء طينة الإنسان وكمال خلقه، وأجل آخر مسمّى عنده هو أجل الموت.

والنصّ ينطبق على أجل كشفناه وأجل آخر حجب الله عنا علمه.

٤ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأنعام /٦ مصحف /٥٥ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم يبعثكم فيه ليقضىٰ أجلٌ مسمّى: أي ليُنْهىٰ أجل عمر كلّ إنسان وفق ما هو مقرر بإرادة الله السابقة.

سابعاً ــ القضاء في مجال إنهاء استمرار الوجود كله أو استمرار الحياة:

١ ــ قول الله تعالى مبيّناً مقالة الكافر الذي يُؤْتَىٰ كتابه يوم القيامة بشماله، في سورة (الحاقة / ٦٩ مصحف /٧٨ نزول):

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾.

يا ليتها كانت القاضية: أي يا ليت الموتة التي مِتُّها كانت الموتة المنهية لوجودي كله. والمنهية لحياتي إنهاءً أبديّاً لا رجعة بعده إلى حياة الجزاء.

مادة (قضى) في معاجم اللغة

(أ) جاء في لسان العرب لابن منظور ما يلي:

- أصل القضاء القطع والفصل. وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه.
- قال الزهري: القضاء في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، وكلّ ما أحكم عملُه أو أُتِمَّ، أو خُتِم، أو أُدّي أداءً، أو أُوجب، أو أُعْلِم، أو أُنْفِذَ، أو أُمْضِي، فقد قُضِي وقد جاءت هذه الوجوه كلّها في ال...
- وقال السيرافي في: ﴿فقضاهن سبع سماوات في يومين﴾ ... عملهنّ.

- وقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾ أي: أنهيناه إليه، وأبلغناه ذلك.
- وضربه فقضى عليه: أي قتله كأنه فرغ منه.
- وقال أبو إسحاق: و (قضى) في اللّغة على ضروب كلها ترجع إلى معنى انقطاع الشيء وتمامه. ومنه قوله تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ أي: أعلمناهم إعلاماً قاطعاً.
- والانقضاء ذهاب الشيء وفناؤه.

(ب) وجاء في القاموس المحيط للفيروزآبادي ما يلي:

- القضاء: الحكم (وسمي الحكم قضاء لإنهاء المحاكمة به).
- والقضاء: الحتم (وهو على أصل معنى البتّ والإنهاء والانتهاء).
- وقضى: مات (أي: انتهى أجل حياته).
- وقضى عليه: قتله (أي أنهى حياته).
- وقضى وطره: أتَمه. بلغه (وهو على أصل معنى الإنهاء والانتهاء).
- وقضى غريمَه دينَه: أدّاه (وهو على أصل معنى الإنهاء والانتهاء).

(ج) وجاء في الصحاح للجوهري ما يلي:

- القضاء: الحكم. وقضى: أي حكم. وقد يكون بمعنى الفراغ، تقول: قضيت حاجتي.
- وضربه فقضى عليه، أي: قتله، كأنه فرغ منه.
- وقد يكون بمعنى الأداء والإنهاء. تقول: قضيتُ دَيْني.
- وقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾ أي: أنهيناه إليه وأبلغناه ذلك.

* * *

(٢)
القــدر

سبر مادّة (قدر) ومشتقاتها في القرآن الكريم أبان لي أنّ معانيها ترجع إلى جذرين:

الأول: يدور حول القُدرة التي يستطيع مالكها أو المتصرّف فيها فعل الأفعال المختلفة.

فبالقدرة التي تكون مثلاً في جسم رافع الأثقال، يستطيع رفع الأثقال التي يرفعها، وحين تزيد مقاومة الأثقال عن استطاعة قدرته يعجز عن رفعها.

وهذا المعنى لا إشكال حوله، فلا حاجة إلى سبر النصوص القرآنية المشتملة على ما يدُلُّ عليه.

ويُعدّى الفعل ومشتقاته على هذا المعنى بحرف (على) فيقال: قَدَر عليه يقدِرُ، وهو قادر عليه، وقدير عليه، ونحو ذلك.

الثاني: يدور حول الدلالة على مقدار الشيء، أيّاً كان نوع ذلك المقدار.

وكلّ شيء يمكن تجزئته إلى أقسام أو وحدات صغرى، أو قابل للقسمة ولو في التصوّر الذهني، فهو ذو مقادير.

فالزمن ذو مقادير، والمكان ذو مقادير، والأعداد ذات مقادير، والحرارة ذات مقادير، وكلُّ جسم أو سطح أو خطّ ذو مقادير، وكلّ كائن ذي أبعاد أو ذي أجزاء فهو ذو مقادير، إلى غير ذلك.

والمقادير تبدأ من أصغر وحدة ممكنة في الوجود، أو في التصوّر، ثمّ هي قابلة للتزايد من غير حصر.

وتقدير الشيء وفق هذا المعنى يدلّ على تحديد مقداره، بالإرادة، أو بالخلق، أو بالحكم، أو بالتصوّر، أو بالفعل والتنفيذ للمراد.

وكثر استعمال: (قدَر يقدِر) الأمرَ أو الشيءَ أو الرزق أو نحو ذلك بمعنى ضيّقه أو قلّله، ويُعدَّى للمفعول به الثاني بحرف (على) لدى ملاحظة معنى الاستعلاء والقهر، ويُعدّى بحرف (اللام) لدى ملاحظة أنّ التضييق أو التقليل لمصلحة من يُضيّق له أو يقلّل له المقدار.

فيقال مثلاً: قدر الله الرزقَ على فلان، أي: ضيّق مقداره عليه، أو قلّله عليه.

ويقال: قدر الله الرزق لفلان، أي ضيّق مقداره له مراعاة لمصلحته، أو قلّله له.

ومن ذلك النصوص القرآنية التالية:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (الأنبياء /٢١ مصحف /٧٣ نزول):

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ . . . ﴿٨٧﴾﴾.

أي: فظنّ أن لن نضيّق عليه التكليف، ولن نؤاخذه بانصرافه عن قومه دُون إذن من ربّه.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (الطلاق /٦٥ مصحف /٩٩ نزول):

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ . . . ﴿٧﴾﴾.

أي: ومن ضُيّق عليه أو قُلِّل عليه رزقه.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (العنكبوت /٢٩ مصحف /٨٥ نزول):

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ . . . ﴿٦٢﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (الإسراء /١٧ مصحف /٥٠ نزول):

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ . . . ﴿٣٠﴾﴾.

أي: يبسط الرزق لمن يشاء، ويقدر الرزق لمن يشاء، ويقدره على من يشاء، ومشيئته تعالى في جميع الأحوال لا تفارق حكمته، وحكمته مقترنة بعلمه المحيط بكلّ شيء.

* * *

السبر القرآني للنصوص التي تدور حول الدلالة على مقدار الشيء مع البيان الشارح

١ ــ قول الله عز وجل في سورة (المرسلات /٧٧ مصحف /٣٣ نزول):

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ (٢٣) ﴾.

إلى قَدَرٍ معلوم: أي إلى مقدار معين معلوم في خِطّة الخلق قبل جعله في قرار مكين.

فَقَدَرْنا فنعم القادرون: أي فأحكمنا تحديد المقادير كلّها، دون زيادة ولا نقص عن مقتضى الإتقان والتسوية المحكمة، فنعم القادرون المحدّدون للمقادير الحكيمة نحن.

وفيها قراءتان وهما بمعنى واحد (فَقَدَرْنا) بالتخفيف، و(فَقَدَّرْنا) بالتشديد، وفي هذه المشدّدة تأكيد معنى دقّة التقدير وإحكامه وضبطه.

٢ ــ وقول الله عزّ وجل في سورة (الأنعام /٦ مصحف /٥٥ نزول):

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) ﴾.

هذه آية مدنية في سورة معظمها مكيّ.

قال اليهود إنكاراً للقرآن الذي أنزل الله على محمد ﷺ: ما أنزل الله على بشر من شيء.

فردّ الله عليهم ردّاً عقليّاً، وعلّم رسوله أن يردّ عليهم ردّاً إلزاميّاً، من معتقدهم.

الرّدّ العقلي: تضمّنه قول الله تعالى: ﴿وما قدروا الله حقّ قدره﴾.

أي: حين قالوا: ﴿ما أنزل الله على بشرٍ من شيء﴾ فقد نقصوا من صفات الله تعالى مقداراً عظيماً جدّاً من حكمته، إذ الحكمة الرّبانية تقتضي أن يكون الإنسان في الحياة الدنيا في دار امتحان، وإلاّ كان خلقه عبثاً، وأن من يُوضَعُ موضع الامتحان لا بدّ من تكليفه، وأنّ المكلّف لا بدّ من تبليغه ما هو مطلوب منه، وأنّ أفضل طريقة لذلك إرسالُ الرُّسُل من البشر، بالوحي إليهم، وتكليفهم أن يبلّغوا الناس مسؤوليتهم في الحياة الدنيا، وما هو مطلوب منهم فيها، وأن يبينوا لهم أنّ وراء هذا الامتحان في هذه الدار حساباً وجزاءً في دار أخرى غير هذه الدار، وفي حياة ثانية بعد هذه الحياة، يُبْعَثُ الناس إليها بعد فناء أجسادهم.

فمن قال: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ فإنّه ما قدر الله حقّ قدره من الصفات الحسنَىٰ، بل نَقَصه من الصفات الواجبة له ما هو له.

الردّ الإلزامي: ما دلّ عليه قول الله تعالى لرسوله: ﴿قل: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس؟﴾.

هذا السؤال الْجَدَليُّ أسلوب لانتزاع اعترافهم بأنّ منزّل التوراة هو الله عزّ وجلّ. فهو ممّا يعتقدون، فإذا أعلنوا اعترافهم بأنّ الله هو الذي أنزله وردَ عليهم سؤال آخر وراءه، وهو: على من أنزل التوراة؟.

فإن أقرّوا بمعتقدهم فقالوا: أنزل على موسى، سقطت دعواهم التي قالوا فيها: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ وكان ذلك إلزاماً لهم بمقولة من ضمن معتقدهم.

وزاد النصّ بيـان ألاعيبهم في التوراة، إذْ يجعلونـه قراطيس متفـرقـة، يُبْـدُون بعضها، ويخفون كثيراً منها بحسب أهوائهم.

ثم أشار النصّ إلى احتمال تهرّبهم من إجابة السؤال، لئلّا يقرّوا على أنفسهم بمقـولـة يلزم منهـا نقض دعـواهم، فـإن تهـرّبـوا من الإجـابـة، وأخـذوا يتحـايلون ويخوضون في أقوال هازلة غير جادّة، يتلاعبون فيها بالألفاظ، فما على الرسـول إلّا أن يجيب بنفسه على السؤال، فيقول لهم: الله هو الذي نـزّل التوراة على مـوسى، ثمّ يتركهم في خوضهم بالباطل يلعبون ويهـزلون، دلّ على هـذا قول الله تعـالى في الآية: ﴿قل: الله. ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾.

٣ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (الحجّ /٢٢ مصحف /١٠٣ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾.

أي: إنّ الذين يشركون بالله فيـدعون من دونـه داؤهم الفكريّ أنّهم مـا قدروا الله حقّ قدره، إذْ لم يُعطوه المقدار العظيم الجليل لصفاتـه التي هي له، بـل نقصوا منها في تصوّراتهم مقادير عظيمة، حتى هان عليهم أن يجعلوا له شركاء، وأن يدعوا هؤلاء الشركاء من دونه، ولم يضعوا في حسابهم عقاب الله، وهو القوي الغالب.

أمّا من يمتلىء فكره وقلبه بتصوّر صفات الله الحسنى الجليلة العظيمة الكاملة المبرّأة من أي نقص فإنّه لا بدّ أن يفرده في الربوبية والمُلْك والألـوهية، ومقتضيـات هذه الأصول الثلاثة.

٤ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (الزمر /٣٩ مصحف /٥٩ نزول):

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

مقاليد: مفاتيح.

بعد بيان أنّ الله عزّ وجل هو خالق كلّ شيء، وأنّه على كلّ شيءٍ وكيل، وأنّ له مقاليدَ السماوات والأرض، عالج هذا النصّ قضيّة عبادةِ غير الله التي يُمارِسُها المشركون ويدعون إليها.

ثم أبان النصّ داء المشركين، وهو أنهم ما قدروا الله حق قدره، أي: ما أعطوه قدره ممّا هو له من صفات عظمى، ولو كان ذلك حاضراً في أفكارهم وقلوبهم ما جعلوا له شركاء.

فالخالق لكلّ شيء، والوكيل على كلّ شيء، ومن له مقاليد السماوات والأرض، لا يمكن أن يكون له شريك، ولا أن يتخذ لنفسه شريكاً.

فالشرك قد دخل على نفوسهم من أنهم ما قدروا الله حقّ قدره من الصفات الجليلة، بل نقصوا منها، فأضافوا ما نقصوه إلى شركائهم، فصحّ في تصوّرهم أن يعبدوا هؤلاء الشركاء.

٥ ــ وقول الله تعالى في سورة (القمر / ٥٤ مصحف / ٣٧ نزول):

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾.

على أَمْرٍ قد قُدِر: أي على أمرٍ قد حُدِّد مقدار كلّ شيء فيه صغيراً كان أو كبيراً، وأهمّ ذلك إغراق كلّ غريق من الذين كفروا بنوح عليه السلام، في الزمن المحدد له، وبالطريقة المحدّدة له في سابق التقدير.

وبذلك فقد قُضي المقدّر، أي: أُمْضي ما سبق تحديد مقاديره بالإرادة الحكيمة.

٦ ــ وقول الله تعالى في سورة (فُصّلت /٤١ مصحف /٦١ نزول):

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.

وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام: أي وجعل فيها مقادير أقوات الأحياء التي ستعيش عليها، في مدّة إعدادٍ تطويري استمرّ أربعة أيّام، يعلم الله مقدار كلّ يوم منها.

سواءً للسائلين: أي مساوياً لحاجة السائلين الباحثين عن أقواتهم في مناكب الأرض.

ائتيا طوعاً أو كرهاً: أي أقْبِلا طوعاً أو كَرْهاً مجبورتين على الإتيان، وهذا يدلّ على سير أجرام السماء وسير الأرض إلى الجهة التي أمرهما الله بالإتيان إليها.

فقضاهنّ سبع سماوات في يومين: فأمضى تكوين السماء التي كانت دخاناً، فجعلها سبع سماوات في يومين، من أيامٍ يعلم الله مقدار كلٍّ منها.

ذلك تقدير العزيز العليم: أي كلّ ما سبق بيانه في النصّ من مخلوقات ذات

مقادير محكمة متقنة دقيقة، هو تقدير العزيز القوي الغالب، العليم بكلّ شيء، فهو يقدّر كلّ شيء بالمقدار المتقن المحكم.

٧ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المدثّر / ٧٤ مصحف / ٤ نزول):

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

قالوا: نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة. وذلك أنه لمّا سمع آيات الله التي تتنزّل من القرآن أدهشته، إلّا أنّه عاندها، فكان جحوده لها جحود عنادٍ دافعه الكبر، فهو ذو مال ممدود، وذو بنين حاضرين عنده قائمين في نصرته، وهم له في قومه قوّة وبأس ومنعة، وله أيضاً في قومه مكانة ورياسة ممهّدة، لا تُنْغِّصُها عقباتٌ ولا وهدات، ونفسه مشرئبّة إلى مطامع وراء ذلك كله، زيادة في المال والقوة والمجد.

وقد أراد الوليد أن يهوّن في نفوس قومه من قيمة الآيات القرآنية التي يتلوها عليهم رسول الله، حتى لا تؤثر عليهم سَطْوَتُها.

ففكّر وقدّر، أي: أخذ يزن الكلام الذي سيقوله في القرآن طعناً وتجريحاً، ويحدّد مقادير ما يرى أن يقوله فيه، حتى يكون لكلامه تأثير في الناس، وأطال التأمّل، ثم ضاقت به نفسه، ثم أدبر كأنه لا يريد مواجهة الحقيقة، واستكبر عن الاعتراف بالحقّ، فقال: إنْ هذا إلّا سحر يؤثر. أي: ما هذا الكلام والتأثير الذي يحدثه في النفوس إلّا من قبيل السحر الذي ينقل من أقوال الأولين.

هذا ما ذكره المفسرون في تفسير كلمة: «يُؤثر» ويخطر لي أنه لا مانع من أن يكون المراد من مقولة: «إن هذا إلّا سحر يؤثر» ما هذا التأثير الذي يحدثه القرآن إلّا

من قبيل تأثير السحر الذي يمكن الإتيان بمثله واتباع طريقته، بدليل قوله عقب ذلك: «إنْ هذا إلاّ قول البشر» والمعنى اللغوي للكلمة قد يساعد على ذلك، فالكلام المنقول المأثور هو المتبع فيه أثر أقوال السابقين.

٨ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأعلى /٨٧ مصحف /٨ نزول):

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾.

والذي قدّر فهدى: أي والذي قدّر مقادير كلّ شيء خلقه، فجعل لكلّ شيء قدراً، في أعداد ذرّاته، ونسب عناصره، وخصائص صفاته، وكلّ ما يخضع للتقدير فيه، والزيادة والنقص، حتى الزمن والحركة والسكنة والحرارة والبرودة والقوة والضعف والنماء والنقص إلى غير ذلك، وهدى كلّ مخلوق من الذرّة حتى أكبر المكوّنات للحركة المطلوبة منه والعمل المهيأ له وأداء وظيفته في الوجود، ويسّره لما خلق له.

٩ ــ وقول الله تعالى حكاية لمقالة الرسل من الملائكة لإبراهيم عليه السلام بشأن امرأة لوط في سورة (الحجر /١٥ مصحف /٥٤ نزول):

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠ ﴾.

إلّا امرأته قدّرنا إنّها لمن الغابرين: أي إلّا امرأته أعددنا خطّة إهلاكها بالمقادير المقررة في أمر الإهلاك الذي بُتّ بالنسبة إلى قوم لوط.

دلّ على أنّ التقدير تقدير إهلاك قولهم: «إنها لمن الغابرين» أي الباقين مع القوم الهالكين، والماضين إلى الهلاك، فهذه الجملة مستأنفة مبتدأة بـ (إنّ) المكسورة الهمزة، وهي تفسّر نوع المقادير التي قدّروها، إنّها تقديرات إبقاء لها ضمن الهالكين من قوم لوط، وجعلها من الماضين مع الهالكين.

١٠ ــ وقول الله تعالى بشأن امرأة لوط أيضاً في سورة (النمل /٢٧ مصحف /٤٨ نزول):

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۝٥٧﴾.

أي: جعلنا مقادير أمرها أنها من الباقين في قومها الهالكين معهم.

١١ ــ وقول الله تعالى في سياق قصة سبأ في سورة (سبأ /٣٤ مصحف /٥٨ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨﴾.

كان بين سبأ في اليمن وبلاد الشام قُرى ظاهرة على طريق المسافرين، وبلاد الشام هي البلاد التي بارك الله فيها، وكان السبئيون يرحلون إلى الشام من أجل التجارة فيبيتون بقرية من هذه القرى الظاهرة، ويقيلون بأخرى حتى يصلوا ذاهبين وآيبين.

وقال تعالى بشأن المسافات بين هذه القرى: ﴿وقدّرنا فيها السير﴾ أي: جعلنا السير فيها مقدّراً بمقادير مناسبة للمسافرين على رواحلهم من الدواب، أو على أقدامهم، وقد كان نعمة أنعم الله بها عليهم، ولكنهم كفروا وقالوا: ﴿ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم﴾ فأهلكهم الله، وجعلهم أحاديث، ومزّقهم كلّ ممزّق.

١٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (الواقعة /٥٦ مصحف /٤٦ نزول):

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾.

أي: نحن حدّدنا مقادير آجالكم في الحياة الدنيا، وحدّدنا أوقات موت كلٍّ منكم. وما أحد يسبق بحوله أو بقوّته قدرتنا ولا مقاديرنا، فلا أحد يستطيع أن يقدّم ما أخّرنا أجله، أو يؤخّر ما قدمناه.

وقد قدّرنا بينكم الموت في آجالٍ متفاوتة، على أن نبدّل أمثالكم، فنجعلهم خلفاً لكم في سلسلة هذه النشأة الأولى ضمن نظام التناسل. وعلى أن ننشئكم مرّةً أخرى للحساب والجزاء في خلق لا تعلمون كيفيته، فالمؤمن منكم بربِّه يؤمن بهذه النشأة الأخرى، ويقيس ما لم يعلم على ما علم ﴿ولقد علمتمُ النشأة الأولى فلولا تذكّرون﴾ فتتعظوا فتؤمنوا فتعملوا بما يهديكم إليه إيمانكم.

١٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (يٓس /٣٦ مصحف /٤١ نزول):

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (يونس /١٠ مصحف /٥١ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الأنعام /٦ مصحف /٥٥ نزول):

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

جاء في هذه النصوص من مادّة (قدر) ما يلي:

- والشمس تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم.
- والقمرَ قدَّرْناه منازل.
- هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل.
- وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم.

وهي جميعاً تدور حول تحديد مقادير الحركة والسرعة، وتحديد الأبعاد، وتحديد أماكن الوصول المتكرّرة أو النهائية، مع كمال الإتقان والدقّة، والربط بين التقدير والغاية منه، كلّ ذلك في نظامٍ محكم لو تعرّض للخَلَل أو النقص أو الزيادة في كلّ ألفِ سنة بمقدار ثانية من الزمان، أو بمقدار خطّ قلم من المكان، لتغيّر نظام المجموعة الشمسية، ونظام اللّيل والنهار تغيّراً كبيراً في ملايين السنين التي تداولت عليها، ولأدركت الشمس القمر فابتلعته، أو لَتَاهَ القمر بعيداً عن الشمس ففسد نظام الحياة في الأرض.

لكن: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار وكلٌّ في فلك يسبحون﴾. إنها كتل مكوّرة تسبح بنظام محكم متقن مقدّر تقديراً بالغ غاية الدقة.

١٤ ــ وقول الله تعالى في سورة (الفرقان /٢٥ مصحف /٤٢ نزول):

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾.

فكل شيء في الوجود سوى الله مخلوق لله، والله إذْ خلقه قدّر كلّ صغير وكبير فيه من العناصر والصفات ووقت الخلق وأجل البقاء، وغير ذلك ممّا يخضع لتحديد مقدارٍ له.

١٥ ــ وقول الله تعالى في سورة (القمر /٥٤ مصحف /٣٧ نزول):

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ ﴾.

أي: خلقناه بمقدار محدّد لكل عنصر فيه، ولكلّ صفة له، فما من شيء صغير أو كبير إلّا خلقه الله بقدر محدّد معلوم.

١٦ ــ وقول الله تعالى في سورة (عبس / ٨٠ مصحف / ٢٤ نزول):

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

خلقه فقدّره: أي جعله عند خلقه له على مقادير محدّدة في كلّ عنصر من عناصره، وكلّ صفة من صفاته.

وفي تحديد مقادير خلق الإنسان، يكتب العلماء الباحثون في خصائص الإنسان وفي تكوين خلقه مجلّدات ضخمة، ويظلّون عاجزين عن الإحصاء والاستقصاء.

١٧ ــ وقول الله تعالى في سورة (الإنسان / ٧٦ مصحف / ٩٨ نزول):

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

هذه الأكواب هي قوارير في صفائها ورؤية ما في داخلها، كأحسن ما تكون القوارير، ولكنها ليست مصنوعة من الزجاج، بل من الفضة الصافية الخالصة.

وهذه الأكواب مقدّرة تقديراً دقيقاً محكماً، في أشكالها، وحجومها، وكلّ صغيرة وكبيرة فيها، وفق كمال الإبداع والإتقان والجمال والغاية المعدّة لها.

والتقدير هنا يشمل التقدير التصنيعي والتقدير الكميّ لأنواع الشراب التي توضع في الأكواب.

والكوب في اللّغة: إناء للشرب لا عروة له، ولا خرطوم له، فهو كأس بلا عروة ولا خرطوم.

١٨ ــ وقول الله تعالى في سورة (المزمل / ٧٣ مصحف / ٣ نزول):

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ . . . ﴿٢٠﴾﴾.

أي: يجعل لكلٍّ منهما مقداراً زمنيّاً في نظام ثابت يدور حسب الفصول

ومواقع الأرض، ويستطيع الحسّاب المهرة أن يحسبوه إلى ملايين السنين، دون أن يخرم في الواقع مقدار لمحٍ بالبصر.

والتقدير هنا يشمل تقدير الحركة ونوعها، والسرعة، والمسافات بين أفراد المجموعة الشمسية، لإحكام تقدير الليل والنهار.

١٩ ــ وقول الله تعالى في سورة (سبأ /٣٤ مصحف /٥٨ نزول):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

أوبّي معه: أي سبّحي معه، ورجّعي معه تسبيحه، وهذا فضل من الله لداود إذ وهبه صوتاً جميلاً ندياً، تردّد الجبال صداه وهو يذكر الله ويسبحه ويتلو آيات الزبور.

وقدِّرْ في السّرد: السرد هو حلق الحديد لصنع الدّروع منها، والتقدير فيها يكون بجعل مقاديرها وفق الغاية التي تُنْسَجُ لها الدروع، فلا يُزاد فيها على المطلوب الحكيم ولا ينقص منه. وهذا النوع من التقدير تقدير تصنيعي.

وفي هذا توجيه ربّاني لداود عليه السلام كي يحكم عمله الصناعي ويتقنه، وهو يدلّنا على أن أسس الحضارات المادّية ذات أصول دينية ربّانية.

٢٠ ــ وقول الله تعالى في سورة (القدر /٩٧ مصحف /٢٥ نزول):

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ ﴾.

ليلة القدر: أي ليلة المقدار العظيم، وهذا من شرفها وعظيم مقدارها عند الله. أو ليلة التقدير، إذْ يقدّر الله فيها مقادير ما يريد خلقه وفق علمه وحكمته.

٢١ ــ وقول الله تعالى في سورة (الطلاق / ٦٥ مصحف / ٩٩ نزول):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾.

أي: قد جعل الله قدراً محدَّداً حكيماً لكلّ ما خلق إذْ أَمَرَهُ أمر تكوين، وقدراً محدّداً حكيماً لكلّ ما أَمَرَ بِهِ أَمْرَ تكليف، ولكل ما أوصَىٰ به ووجَّهَ لَهُ، ولكلّ شيءٍ يَخْضع لأمرِهِ صغيراً كان أو كبيراً. وهذا من كمال الإتقان وتمام الإحكام.

فيشمل التقدير هنا التقديرَ التشريعيّ، لأنه هو الوارد في السياق، كما يشمل غيره، بمقتضى عموم النصّ ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شيْءٍ قدراً﴾.

٢٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأحزاب /٣٣ مصحف /٩٠ نزول):

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

وكان أمر الله قدراً مقدوراً: أي وكان أمر الله محدّد المقدار بإحكام، فهو تقدير مقدّر بإحكام، والتقدير هنا تقدير تشريعي.

٢٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (الرعد /١٣ مصحف /٩٦ نزول):

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا . . . ﴿١٧﴾ ﴾.

وكلّ شيء عنده بمقدار: أي وكلّ شيء تتعلق مشيئة الله به فهو عنده مقدّر بمقدار محدد بعلمه. فهو سبحانه يقدّر ما ينبغي أن تكون عليه نسبة كلّ جزء فيه، سواء أكان ذلك الجزء داخلاً في بناء ذاته، أو في بناء صفاته، أو داخلاً في وقت

وجوده بدءاً واستمراراً وانتهاءً. إلى غير ذلك من أمور يمكن أن تقدّر بمقدار، وتعرض له عوارض الزيادة والنقص، وبما أنّه تعالى حكيم، فكل تقدير له حكيم.

فسالت أودية بقَدَرها: أي فسالت أودية بمقدار سعتها لاستيعاب الماء، كلٌّ بحسبه، فالكبير بمقدار كبره، والصغير بمقدار صغره.

٢٤ ــ وقول الله تعالى في سورة (الحجر /١٥ مصحف /٥٤ نزول):

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وما من شيءٍ من الأشياء ــ ومنها أرزاق الأحياء ــ إلاّ عند الله خزائنه التي لا تنفد، ولكن لا يُنزِّلُ الله منه لعباده إلاّ بمقدار محدّد معلوم، وذلك وفق ما تقتضيه حكمته عزّ وجل.

٢٥ ــ وقول الله تعالى في سورة (الشورى /٤٢ مصحف /٦٢ نزول):

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾.

ولكن ينزّل بقَدَرٍ ما يشاء: أي يُنَزِّل ما يشاء إنزاله من رزقٍ لعباده، بمقدار محدّد معلوم وفق حكمته عزّ وجل.

وقد أبانت هذه الآية جانباً من جوانب حكمته تعالى في عدم بسطه الرزق لعباده، وهو أنه لو بسط لهم الرزق لبغوا في الأرض بغياً عامّاً. إنه سبحانه خبير بعباده بصير بما عليه نفوسهم.

٢٦ ـ وقول الله تعالى في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾.

على الموسع قَدَرُه وعلى المقتر قَدرُه: أي على ذي السعة مقدارٌ يليق بيساره، وعلى ذي الإقتار مقدار يليق بضيق ذات يده.

٢٧ ـ وقول الله تعالى في سورة (طٰه / ٢٠ مصحف / ٤٥ نزول):

﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

أي: ثمّ جئت يا موسى إلى الوادي المقدس عند جبل الطور على مقدار محدّد مكاناً وزماناً وأحوالاً، إلى كلّ ما يخضع للتَّقْدِير من أمور.

٢٨ ـ وقول الله تعالى في سورة (المؤمنون /٢٣ مصحف /٧٤ نزول):

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ . . . ﴿١٨﴾ ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الزخرف /٤٣ مصحف /٦٣ نزول):

﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

ماءً بقَدَر: أي بمقدار محدّد معلوم.

فأنشرنا به بلدة ميتاً: أي فبعثنا وأحيينا به بلدة ميتة لا نبات فيها.

مادة (قدر) في معاجم اللّغة

(أ) جاء في لسان العرب لابن منظور ما يلي:

● القدير والقادر من صفات الله عزّ وجلّ، يكونان من الْقُدرة (أي: القوة) ويكونان من التقدير (أي: من تحديد مقادير الأشياء).

• وقَدْرُ كلّ شيءٍ ومِقْدارُه مقياسه. وقَدَرَ الشيءَ بالشيءِ يَقْدُره قَدْراً، وقَدَّرَهُ قَاسَه. وتقول: قادَرْتُ الرجلَ مُقَادَرَةً إذا قايَسْتَه وفعلْتَ مِثْلَ فِعْلِه.

• قال في التهذيب: والتقدير على وجوه من المعاني: أحدها التفكير في تسوية أمرٍ وتهيئته. والثاني تقديره بعلامات يقطعه عليها. والثالث أن تنوي أمراً بَعَقْدِك. تقول: قَدَّرتُ أمْرَ كذا وكذا، أي: نويته وعقدت عليه. وتقولُ: قَدَرْتُ لأَمْرِ كذا أَقْدِرُ لَهُ وأَقْدُرُ قَدْراً، إذا نظرت فيه ودبّرته وقايسته، ومنه قول عائشة رضي الله عنها: فاقْدُروا قَدْرَ الجارية الحديثة السنّ المستهيئة للنظر، أي: قَدِّروا وقايسوا وانظروه وأفكروا فيه.

• ويقال: قَدَرْتُ عليه الثوب قَدْراً فانْقَدَر، أي: جاء على المقدار.

• وقال أبو عبيدة: أقْدُرْ بذرعِكَ بيننا، أي: أبصر واعرف قَدْرَك.

• قال ابن سيده: القَدْرُ والْقَدَرُ القضاء والحكم. وفي الحديث ذكر ليلة الْقَدْر، وهي الليلة التي تُقَدَّرُ فيها الأرزاق وتقضىٰ.

• وقَدَرَ الله الرزْقَ يقْدُرُه ويَقْدِرُه قسمه (وهو يرجع إلى تحديد المقدار).

• وقَدْرُ كلِّ شيءٍ ومِقْدَارُه مَبْلَغُه.

• والْقَدْرُ والْقُدْرَةُ والمقدارُ القوّةُ. وقَدَرَ عليه يَقْدِرُ ويَقْدُرُ، وقَدِرَ بالكسر قُدْرَةً، وقَدَارَةً، وقُدُرَةً، وقُدُوراً، وَقِدْراناً، وقِداراً. والاسم من كلّ ذلك الْمَقْدَرَة، والمقدُرَةُ، والْمَقْدِرَة. (هذا المعنى يرجع بالتأمل إلى مقدار القوة المكافئة للقيام بالعمل، أو التغلب على القوة المعارضة التي لا تستجيب إلّا بالغلبة).

• وعن اللّحياني: قَدَرَ عليه الشيءَ يَقْدِرُهُ وَيَقْدُرُه قَدْراً وقَدَراً ضيّقه.

(ب) وجاء في القاموس المحيط للفيروزآبادي ما يلي:

- الْقَدَرُ: القضاءُ والحكم ومبلغ الشيء، وجمعه أقدار.
- وقَدَرَ الرزقَ قسمه.
- والتقدير: التفكير في تسوية أمر.
- ﴿وما قَدَروا اللَّهَ حقّ قَدْرِه﴾: ما عظّموه حقّ تعظيمه.

(ج) وجاء في مقاييس اللّغة لابن فارس:

- قَدَرَ: يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، فالقَدْرُ مبلغ كلّ شيء. يُقالُ: قَدْره كذا، أي: مبلغه، وكذلك الْقَدَرُ.
- وقَدَرْت الشيءَ أَقْدِرُهُ وأَقْدُرُهُ: من التقدير، وقَدَّرْته، أُقَدِّره.
- والْقَدَرُ: قضاءُ الله تعالى للأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها.

(د) وجاء في مفردات الراغب الأصفهاني ما يلي:

- القدر والتقدير تبيين كمية الشيء. يقال: قَدَرْته وقَدّرته.
- وقَدَّرَهُ: أعطاه القدرة.
- فتقدير الله الأشياء على وجهين: أحدهما بإعطاءالقدرة. والثاني بأن يجعلها على مقدار مخصوص حسبما اقتضت الحكمة.

* * *

(٣)
الـكـتـابـة

أصل الكتابة تسجيل ما ينطق باللّسان من حروف وكلمات برموز خطّية تدلّ عليها، فمن نظر إليها وعرف الرمز استدعى فِكرُهُ الحروف والكلمات التي تدلّ عليها. فإن كانت هذه الحروف والكلمات رموزاً لمعانٍ وأفكارٍ يعلمها القارىء استدعى ذهنه تلك المعاني والأفكار، وفهم أنها هي المرادة في المكتوب. وتختلف أنواع الكتابة، أمّا نوع كتابة الله فهو العليم بها.

والأصل في الكتابة أن تُسجِّل المعلومات وكلَّ ما يراد تسجيله كما هي عند الكاتب، أو المملي لها، أو الآمر بكتابةِ ما يدُلّ على المعاني التي يريد تسجيلها.

وكلّ شيء معلوم قد أحصاه الله كتابة، دلّ على هذا قول الله عزّ وجل في سورة (النبأ /٧٨ مصحف / ٨٠ نزول):

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾﴾.

أي: وكل شيء كتبناه كتابة إحصاء تامٍّ لكلّ صغير وكبير.

وأبان القرآن أن هذه الكتابة لكلّ شيء موجودة في إمامٍ لكلّ الكتب مبين، وفُسّر هذا الإمام المبين بِأنّه اللّوح المحفوظ، قال الله تعالى في سورة (يٓس /٣٦ مصحف /٤١ نزول):

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

أنواع المعلومات:

وبالتأمل في المعلومات يظهر لنا أنّها على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: معلومات أزلية الوجود فهي واجبة الوجود لذاتها، لا تتعلّق بإيجادها ولا بإعدامها إرادة ولا قُدْرَة، وهي ذات الله وصفاته، وإمكانية تعلّق العلم بها قاصرة على تعلّق إدراكٍ لما هي عليه.

ومعلومـاتٌ ذات حقـائق أزليـة في علم الله، فهي أيضـاً لا تتعلّق بـإيجـادهـا ولا بإعدامها إرادة ولا قدرة، وتعلّق العلم بها قاصر على تعلّق إدراك لما هي عليه.

وكتابة هذا النوع من المعلومات لا تحمل أيّ معنى زائد على تسجيل الـرموز الخطية للكلمات الدالة على هذه المعلومات، مثل كتابة:

﴿الله لا إلّه إلّا هو الحيّ القيّوم لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم﴾.

* * *

النوع الثاني: معلومات مستحيلة الوجود استحالة عقلية أزلية لذاتهـا، وواجبة العدم عقلاً لذاتها.

وهذه المعلومات مثل معلومات النوع الأوّل، لا تتعلّق بإعدامها ولا بـإيجادهـا إرادة ولا قدرة.

أمّا إعدامها فهو من باب تحصيل الحاصل، وهو أمر مستحيل عقلاً.

وأمّا إيجادها فهو غير ممكن عقلاً، لأنها مستحيلة الوجود، فأية قدرة لا يمكن أن توجدها، وتَعَلُّقُ الإرادةِ بإيجادها عبث لا يكون من عليم حكيم.

وإمكـانية تعلّق العلم بهـذا النوع من المعلومـات قاصـرة على تصوّرها وإدراك استحالة وجودها.

وكتابة هذا النوع من المعلومات لا تحمل أيّ معنى زائـد على تسجيل الرموز الخطيّة للكلمات الدالّة على هذه المعلومات، مثل كتابة قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم /١٩ مصحف /٤٤ نزول):

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ... ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾.

* * *

النوع الثالث: معلومات ممكنة الوجود والعدم، وهذه يمكن أن تتعلّق إرادة وقدرة بإيجادها من العدم، ثمّ بإعدامها بعد الإيجاد.

وكلّ ممكن الوجود والعدم عقلاً (أي: ليس واجب الوجود لذاته ولا واجب العدم لذاته) فأصله العدم، وقابلٌ للإيجاد بقدرة مكافئة لإيجاده.

وكلّ الممكنات إنّما توجد بإرادة الله وخلقه وبأمر التكوين الذي يوجهه له سبحانه، بطريقة مباشرة، أو عن طريق الأسباب التي خلقها الله عزّ وجل من قبل، وعلى طريقة الخلق التامّ دفعة واحدة، أو على طريقة الخلق على أطوار متلاحقة، حتى مستوى الكمال المقرّر للمخلوق.

ويمكن أن توجد بعض الممكنات بفعل المخلوق أيضاً، ولكن بإقدار الله وتمكينه وإذنه وتسخيره للأسباب، وحينئذٍ لا يلزم أن يكون عمل المخلوق الناشىء عن إرادته مراداً لله إرادة مباشرة، فقد يعصي المخلوق بفعله أمر الله، ويظلّ إمداد الله له مستمرّاً بالإقدار والتمكين والإذن الْقَدَرِيّ والتسخير، ما لم ينجم عن عمل المخلوق إخلال بنظام الكون المقدَّر أو إخلال بمقادير الله الثابتة المقضية، فإن حصل شيء من ذلك قطع الله عن ذلك المخلوق إمداده بالإقدار أو بالتمكين أو بالتسخير، ومنع حصول نتائج العمل بما يشاء وعلى ما يشاء، وحينئذٍ فالمخلوق المريد يريد، ويحاول تنفيذ مراده، ولكن لا يتحقق له ذلك، إنما يتحقق مراد الله.

وكتابة هذا النوع من المعلومات تتبع واقع هذه المعلومات، وهي على أقسام أربعة:

القسم الأوّل: ممكنات خرجت فعلاً من العدم إلى الوجود، وما زال وجودها مستمرّاً بحسب صورتها الكلّية العامّة، كالأرض والشمس والقمر والمجرّات الموجودة القائمة فعلاً، أو وُجدت في الماضي، ثمّ انعدمت حين جاء أجل عودتها إلى العدم، أو حين انتهى تعلّق الإرادة والقدرة بإيجادها.

وهذه يتعلّق العلم بها تعلّق إدراك لهـا ولصفاتهـا، كما هي عليـه في الواقـع، أو كما كانت عليه في الواقـع.

وكتابة هذا القسم من المعلومات تكـون بتسجيل الـرموز الخـطيّة الـدالّة على الكلمات التي تدلّ عليها كما هي عليه في الواقـع، أو كما كانت عليـه في الواقـع، دون الإشارة إلى شيءٍ زائد على ذلك.

القسم الثـاني: ممكنات مـا زالت في طيّ العدم، ولكن تعلّقت إرادة الخـالق العليم الحكيم بإيجادها وفق مقاديـر معينة في عنـاصرهـا وصفاتهـا، وفي الزمن الذي توجد فيه، والمكان الذي توجد فيه، والأجل الذي يستمـرّ بقاؤهـا إليه، فـاستقرّ في العلم أنها ستوجد وفق ما جزمت به الإرادة، فصارت معلومات عمّا سيكون.

وكتابة هذا القسم من المعلومات تكـون بتسجيل الـرموز الخـطيّة الـدالّة على ما جزمت به إرادة الله، فصار من المعلومات التي ستكون.

فالإعلان عن كتابة هذا القسم من المعلومات يحمل عن طريق اللّزوم العقلي معنى القـرار الإرادي بما سيكـون، وهو مـا يقال فيـه: قدّره الله، ومن هـذا قول الله عزّ وجل في سورة (المجادلة /٥٨ مصحف /١٠٥ نزول):

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ... ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: تعلّقت إرادة الله بأن يغلب هو ورسُله إلى خلقه، القوى الطاغية الكـافرة من خلقه، فصارت هذه المعلومة من المعلومات التي ستحدث في أوقـاتها المقـدَّرة المقرّرة، وهذه المعلومة قد كتبها الله في اللّوح المحفوظ، وفيما شاء أن يكتبها فيه، كصحف الملائكة.

فالكتابة هنا دلّت بدلالة المطابقة على تسجيـل المعلومة هـذه، ودلّت بدلالـة الالتزام على القرار الإرادي، الذي به صارت معلومة من المعلومـات التي ستحدث مستقبلاً.

وحين تحمل الكتابة معنى تسجيل ما فيه خَيْرٌ للعبد سبق به علم ناشىءٌ عن قرار إرادي، فإنّ الكتابة تُعدَّى بحرف (اللام) ومنه قول الله تعالى في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ . . . ﴿١٨٧﴾﴾.

أي: وابتغوا مع المباشرة أن تكون سبباً يقضي الله لكم به النسل الذي قرّر بفضله أن يهبه لكم، وتعلّق به علمه، وكتبه رزقاً لكم.

القسم الثالث: ممكنات ما زالت في طيّ العدم، وقد وعد الله عباده المكلّفين بإيجادها ضمن شروط يُحقّقونها هم في أنفسهم، فإن حققوها حقّق الله لهم وعده، وإن لم يحققوها لم يحقق الله لهم وعده. مثل وعد الله المؤمنين بأن ينصرهم إذا حققوا في أنفسهم شروط النصر، فهذا الوعد المشروط بشرط قد سبقت به إرادة جازمة من اللَّهِ عزّ وجلّ، فكان معلوماً، وقد كُتب هذا المعلوم.

القسم الرابع: ممكنات يمكن أن توجد بفعل المخلوق، إذا أمدَّهُ الله الخالق العليم الحكيم بالإقدار والتمكين والإذن والتسخير.

وقد مكّننا الله بالإقدار والإذن والتسخير من وضع خطط ما سنعمل، ومن تعليق إراداتنا به، فإن كان لله إذن بتحقيق ما أردناه مكّننا من التنفيذ، وعندئذٍ يكونُ باستطاعتنا تنفيذ ما سبقت به إراداتنا وقدَّرْناه ووضعنا خططه.

وعلم الله المحيط الشامل لكل ما كان وما هو كائن وما سيكون، لا يخفى عليه ما سنريده بإراداتنا، وما سنفعله بما يُمدّنا به من حولٍ وقوة.

فما وُجد من هذه الممكنات، فإنّ العلم يتعلّق بها تعلّق إدراك لما هي عليه، وتعلّق كشْفٍ لواقعها كيف كان هذا الواقع، أمّا ما هو قائم منها فالعلم به صُورة

مطابقة للواقـع القائم فعلاً، وأمّا ما مضى منها فالعلم به صُورة مطابقة تماماً لما كان واقعاً.

وما سيحدث من هـذه الممكنات بـإرادة المخلوق فإنّ علم الخـالق به صـورة مطابقة تمـاماً لمـا سيقـع في المستقبل بـإرادة المخلوق، وتمكين الله له من التنفيـذ بالإقدار والإذن والتسخير.

وهذا العلم من خصائص العلم الرّبّاني، ولا يلزم أن يكون المعلوم هنا مـراداً لله إرادة مباشرة، بل إرادة الله فيه تتعلّق بالإقدار والتمكين والإذن والتسخير.

وكتابة هذا القسم من المعلومات لا تحمل أيّ معنى زائد على تسجيل الرموز الخطيّة، للكلمات الدالـة على هذه المعلومـات، فلا يلزم من علم الله بهـا ولو قبـل وجودها تعلّق إرادته سبحانه بوجـودها، إذا كـان فعل المخلوق بهـا ناشئـاً عن إرادته واختياره الحرّ، لأنّ إرادة الله سبحانه قـد تعلّقت بتخيير المخلوق لابتـلائه وامتحـان إرادتـه، فلا تتعلّق في الـوقت نفسه بجبـره وسلب اختياره، لاستحـالة التنـاقض في إرادات الله.

وعليه تُحمل كتابة الكلمة الثالثة الواردة في قول الرسول ﷺ التالي:

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: حدثنـا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق:

«إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَـعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْـلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَـلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيـهِ الرُّوحَ، وَيُـؤْمَـرُ بِأَرْبَـعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ: إِنَّ أَحَـدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَـلِ أَهْلِ الْجَنَّـةِ، حَتَّىٰ مَا يَكُـونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَـا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَـدْخُلُهَا. وَإِنَّ أَحَـدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَـلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَـابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَـلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا».

أمّا كتابة الرزق والأجل فهي كتابة لعلم مسبوق بقرار إرادي ربّاني، إذ هُمَا من الأمور الجبرية، والأسباب الإنسانية تجلب المقدّر بقدر الله.

وأمّا كتابة العمل فهي كتابة لعلمٍ كاشف لما يختار العبد المكلف المختار بإرادته الحرّة التي منحه الله إياها.

وأمّا كتابة الشقاء أو السعادة فهي كتابة لعلم بقضاء جزائي، مرتّب على ما يختار العبد بإرادته الحرّة.

وهذا القسم من الممكنات التي يمكن أن توجد بفعل المخلوق إذا أمدّه الله الخالق العليم الحكيم بالإقدار والتمكين والإذن والتسخير، قابل لأن يخضع لأوامر[1] التكليف الرّبّاني لابتلاء المكلَّف، إذا توافرت في المخلوق أهلية التكليف، وتَنْفِيذُ هذه الأوامرِ يتبع مشيئة المكلف، فإن شاء فَعَلها فاستحقَّ ثواب طاعته، وإن شاء تركها فاستحقَّ عقوبة معصيته.

وحين تتمّ إرادة الله بتكليف عباده المؤهلين للتكليف أن يفعلوا أو يتركوا شيئاً، فإنّ هذه الإرادة تكون معلومة من المعلومات القابلة لأن تسجّل بالكتابة، ثم لا تلزم المسؤولية إلّا بتوجيه كلمة التكليف وتبليغها للمكلفين، فإذا تمَّ ذلك أضيف واقع توجيه التكليف، وواقع التبليغ إلى بحر المعلومات، وكل هذه المعلومات تكتب بالرموز الخطية على ما يعلم الله عزّ وجلّ.

وهذه الفئة من المعلومات التي تشتمل على تكليفٍ بفعل أمرٍ ما، أو ترك أمرٍ ما، للمكلفين الذين منحهم الله حرّية الفعل والترك، على أن يتحملوا مسؤوليّة اختياراتهم، ويتحمّلوا نتائج هذه المسؤولية، تدلّ كتابتها بدلالة المطابقة على تسجيل أمورٍ حصل العلم بها، وتدلُّ أيضاً بدلالة الالتزام على أنّ هذه الأمور

---

(١) الأوامر الربّانية قسمان: أوامر تكوين وهذه نافذة حتماً. وأوامر تكليف، وتنفيذ المأمور به فيها يتبع اختيار المكلف ومشيئته.

المعلومة قد تمّت إرادة الله بِفَرْضِها والإلزام بها، وتحميل المكلّفين مسؤوليتهم كاملة تجاهها، وتمّ أيضاً توجيه بلاغات الأمر بها أو النهي عنها.

وحين تحمل الكتابة هذا المعنى الذي يشتمل على التكليف والتبليغ تُعدّى بحرف (على). ومن ذلك ما جاء في قول الله تعالى في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ... ﴿١٨٣﴾﴾.

أي: تمّت الإرادة بتكليفكم الصيام، وتمّ العلم بذلك، وسُجّل بالكتابة، وإيجازاً في التعبير يقول المفسرون ﴿كُتب عليكم﴾ أي: فُرِضَ عليكم.

* * *

السبر القرآني مع البيان الشارح

أولاً: في الكتابة التي لا تحمل أكثر من الدلالة على تسجيل أمرٍ صار معلوماً. والإعلانُ عن هذه الكتابة قد يلزم منه الإشارة ضمناً إلى الغرض منها، كالإشارة إلى المحاسبة والجزاء لدى بيان كتابة ما يقوله الناس، وما يعملونه، وما يبيّتونه، وما يمكرونه، وما يقدّمونه، وما يكون لهم من آثار أعمال أو أقوال، ونحو ذلك.

وهي في النصوص التالية:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (آل عمران /٣ مصحف /٨٩ نزول):

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حقّ: أي سنسّجله بالكتابة إذا لم يتوبوا،

وفي بيان هذا التسجيل إشارةٌ إلى محاسبتهم ومجازاتهم على ما قالوا وما فعلوا بدقة بالغة الغاية. وفي قوله تعالى: ﴿سنكتب﴾ ما يدلّ على الإمهال في تسجيل السيئات رحمةً بالعباد، لعلهم يتوبون.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (مريم /١٩ مصحف /٤٤ نزول):

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

سنكتُبُ ما يقول: أي سنسجّل بالكتابة قوله إذا لم يَتُبْ، لمحاسبته ومجازاته.

ونرثُه ما يقول: أي نرث ماله وولده. وهذا يدلُّ بلازم معناه على أنّ الله سيهلكُهُ قبل أن ينتفع من ماله وولده، ثم يَجْعَلُ ماله وولده ميراثاً لنصرة الإسلام والمسلمين.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (النساء /٤ مصحف /٩٢ نزول):

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾.

يقول المنافقون سرّاً للرسول ﷺ: طاعة. فإذا برزوا وظهروا للناس لم يُشْعِرُوا أحداً بما قالوه للرسول، لئلا يكون حجّة عليهم أمام الجمهور، وإذَا خَلَوْا بيّت طائفة منهم الخلاف والمعصية وتدبير المكايد.

والله يكتب ما يبيّتون: دون تأخير، لأن ما يبيّتونه كيد للرسول وللإسلام والمسلمين، فهو ليس من المعاصي التي تؤجل كتابتها إمهالاً وترقُّباً لتوبة الْعُصَاة، وإعلانُ هذه الكتابة فيه إشارة ضمنية إلى أن الله سيتولّى إفساد ما يُبَيِّتون، وإحباطَ ما يمكرون، ويحمي رسوله ودينَهُ والمؤمنينَ الصادقين من كيدِ المنافقين.

٤ ــ وقول الله تعالى في سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول):

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

من سنّة الله أن يمسّ جاحدي رسلِهِ وآياته بألوانٍ من الضرّاء، ليوقظ فيهم كوامن فطرتهم، التي تجعلهم يلجؤون إلى الله الواحد الأحد، كي يرفع عنهم ما مسَّهم من الضّراء، فيستجيب الله لهم، ليكون ذلك آية على أنّه هو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وأنه لا إلّه إلاَّ هو، فيفتح لهم أبواب رحمته، فيذوقون حلاوتها، لكنهم متى ذاقوا حلاوة النعمة عادوا إلى جحودهم وكفرهم، وأخذوا يستخدمون ما وهبهم الله من خيرات في المكر بآيات الله، والمكرُ يَكُونُ بتدبير أمور في الخفاء، والمكر ضدّ آيات الله لا يكون إلاّ بمخططات مُضَلِّلَةٍ لمن لديه استعداد للإيمان بها، والاهتداء بهداها.

لذلك فإنّ رسُلَ الله من الملائكة يكتبون حالاً وتباعاً ما يمكر هؤلاء، لإحباط أعمالهم، وردّ مكايدهم عليهم.

٥ ــ وقول الله تعالى في سورة (الزخرف /٤٣ مصحف /٦٣ نزول) خطاباً للذين كفروا:

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

أي: يكتبون ما يُسِرُّون به ومَا يَتَنَاجَوْنَ فيه من مكر بالإسلام والمسلمين، حالاً وتباعاً لإحباط أعمالهم، وردّ مكايدهم عليهم.

٦ ــ وقول الله تعالى في سورة (الزخرف /٤٣) أيضاً:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: أشهدوا خلق الملائكة ورأوا أنهم إناث؟ فإنْ قالوا: نعم، فستكتب شهادتهم هذه، إذا لم يتوبوا ويؤمنوا، وسَيُسْألون عن شهادتهم الكاذبة هذه يوم الحساب والجزاء الأكبر.

٧ ــ وقول الله تعالى في سورة (التوبة /٩ مصحف /١١٣ نزول):

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

نَصَبٌ: تعب. مَخْمَصَة: جوع.

إنّ المؤمنين الذين يخرجون مجاهدين في سبيل الله يُكتب لهم حالاً وتباعاً كلُّ ما يكون منهم، وكلّ ما ينزل بهم مما يؤلمهم، وكلّ ما ينفقون من نفقة، وكل ما يكون منهم ممّا يَغِيظُ الكفَّار، أو يَنَال من عدوهم أي نيل مهما كان صغيراً، حتى الخطوات التي يخطونها فيجتازون بها الطرقات ويقطعون بها الوديان، ليثيبهم الله عليها أجزل الأجر وأحسنه.

ومن هذا نلاحظ أن الحسنات تُكْتَبُ حالاً، أمَّا السيئات فستكتب، وهذا يدلّ على الإمهال رحمةً من الله وفضلاً رجاءَ أن يتوب المسيء ولو كان كافراً، كما سبق في النصوص التي جاء فيها: «سنَكْتُب ــ ستُكْتَب». باستثناء السيئات التي تتضمن مكراً بالإسلام والمسلمين وكيداً لهما، فإنها تكتب حالاً لإحباطها.

٨ ــ وقول الله تعالى في سورة (المجادلة /٥٨ مصحف /١٠٥ نزول):

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ

كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾.

أولئك كتب في قلوبهمُ الإيمانَ: أي أولئك أصحاب المنزلة الرفيعة، المؤمنون بالله واليوم الآخر، الذين لا يُوادّون من حادّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك قوم قد آمنوا إيماناً صادقاً مستوفياً كلّ عناصره، وقد دخل هذا الإيمان في عمق قلوبهم، حتى احْتَلّ أعمق مراكز عواطفهم، بدليل أنّ عواطفهم نحو أقرب الأقربين إليهم لم تؤثر على ما يوجبه عليهم إيمانهم.

وقد علم الله صدق إيمانهم وتغَلْغُلَه في أعماق قلوبهم، فكتب في قلوبهم الإيمان بقضاءٍ منجّز، مستندٍ إلى واقع حالهم، فكانت قلوبهم بمثابة سجلات كُتب عليها إيمانهم كتابة ربّانية ثابتة لا نعلم كيفيتها، وهي تشهد لهم يوم القيامة بصدق إيمانهم، وقدرته على مقاومة أقوى عواطف القرابة.

* * *

ثانياً: في الكتابة التي تحمل بالتَّضمُّن أوْ بدلالة الالتزام معنى أن المكتوب قد سبقت به إرادة تكوينيّة جازمة، فما تدلّ عليه الكتابة أمر واقع لا محالة بقضاء الله وقدره.

١ ــ قول الله تعالى بشأن مقالة المنافقين في الذين قُتِلوا في معركة أحد في سورة (آل عمران /٣ مصحف /٨٩ نزول):

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٞ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٥٤)﴾.

وذلك أنّه لمّا قُتل من قتـل من المسلمين في أحد، أخـذ المنافقـون يطلقـون مقالات النقد والتلويم والتحسُّرِ على من قُتِل، ويطلقون مقالاتٍ جاهليةً يزعمون فيها أنه لو لم يخرج المسلمون، إلى أحد، لما قُتل من قُتِل منهم، ولبقي حيّاً.

فقال الله لرسوله: ﴿قل: لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتل إلى مضـاجعهم﴾ أي: لـو كنتم في بيـوتكم مختبئين من عـدوكم، ولم تخـرجـوا إلى مواجهته في أحد، لبرز الذين كتب عليهم ما سبق في علم الله المستنـد إلى تقديـره وقضائه فيهم من أنهم سيقتلون وسيقعـون صرعى في المضـاجـع نفسها التي كـانت مصـارعهم، لبـرزوا بـأيّ سبب من الأسبـاب، إلى هـذه الأمـاكن التي قتلوا فيهـا، ولقُتِلُوا فيها، ولكانت مضاجعهم وهم قتلى.

فالأمر المعلوم بعلم الله والمقضيُّ بقضائه واقـعٌ لا محالة.

٢ ـ وقـول الله تعالى في سـورة (الحشر /٥٩ مصحف /١٠١ نـزول) بشأن يهود بني النضير:

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾.

أي: ولولا أن قدّر الله أنْ يُعَاقبهم بالجلاء وقضاه عليهم، فكـان علماً مستنـداً إلى مـا قدّره وقضـاه، فكتبـه في اللّوح المحفـوظ، وفيمـا شـاء من كتب، كصُحُف الملائكة الموكلين بأمور الناس، لولا ذلك لكان عِقَابُهُم المعجل أشدّ، فلعذّبهم في الدنيا داخلَ حصونهم التي كانت لهم في المدنية بعذاب من عنده، أو بعذاب ينـزل بهم على أيدي المسلمين، ولهم في الآخرة على كـلّ الأحوال عـذاب النار، جـزاء إصرارهم على الكفر والتكذيب برسول الله ﷺ وبما جاء به من عند ربّه.

٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (المجادلة /٥٨ مصحف /١٠٥ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾.

يحادُّون الله ورسوله: أي يحاربون الله ورسوله.

كتب الله لأغْلِبَنَّ أنا ورسلي: أي كتب الله علمه بأمْرٍ قَدَّرَه هو، ويقضيه تنجيزاً في أوقاته، وهو: ﴿لأغلبنّ أنا ورسلي﴾ وبذلك يكون الذين يُحادّون الله ورسوله في الأذلين.

وقد تحقق ذلك، فكان فرعون في الأذلين، وكان نمروذ خائباً في الأذلين، وكان الجبابرة من قوم هود وصالح وشعيب في الأذلين، وكان جبابرة قوم لوط في الأذلين، وكان الذين حادّوا الله ورسوله محمّداً ﷺ من عرب ويهود في الأذلين المغلوبين.

٤ ــ وقول الله تعالى لرسوله بشأن المنافقين في سورة (التوبة /٩ مصحف /١١٣ نزول):

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾.

قد أخذنا أمرنا من قبلُ: أي قد أخذنا أمرنا بالعقل والاحتياط وعدم التعرّض للقتل، ولم نترك أمرنا للتهور والتورُّط والخروج مع المسلمين لقتال عدوّهم.

قل: لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا: أي، قل: لن يُصيبنا من حسنة أو مصيبة تؤلمنا إلاّ ما قدّره الله لخيرنا ومَصْلَحَتِنا، وسجّله كتابة في اللّوح المحفوظ وفيما شاء من كتب.

وما ظاهره مصيبة مؤلمة قد يكون في حقيقة أمره نعمة وخيراً.

وربَّمـا كـانَ مَكْـرُوهُ النُّفُـوسِ إلَـىٰ مَـحْبُـوبِـهَـا سَبَبـاً مَـا مِثْـلُهُ سَبَـبُ

هـو مولانـا: أي والمولى الحكيم من شأنه أن يختار الخير في كل الأحوال لأوليائه، ولو كان في ظاهره مؤلماً لهم.

* * *

ثالثاً: وقد يدعو الداعي بأن يكتب الله له أمراً، أي: بأن يقدّره له ويقضيه ويسجله كتابة، ليتم على وفق ذلك التنفيذ.

ومن هذا ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (الأعراف /٧ مصحف /٣٩ نزول) حكاية لدعاء موسى عليه السلام ربّه:

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

أي: وقَدِّرْ لنا بقدرك التكويني في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة، وأَمْضِهِ بقضائك، وسجِّله كتابة، ليتم على وفقه التنفيذ.

إنّا هُدْنا إليك: أي: رجعنا إليك تائبين.

فسأكتبها للذين يتقون..: أي: فسأقدّرها وسأقضيها وسأُمْضيها وسأسجّل ذلك بالكتابة لهؤلاء المذكورين.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (آل عمران /٣ مصحف /٨٩ نزول) حكاية لدعاء الحواريين أتباع عيسى عليه السلام:

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: فاكتبنا مع الشاهدين لَكَ بالوحدانِيَّة والشاهدين على الناس بالتبليغ كتابة مستندة إلى علمك بما تقضيه لنا.

٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (المائدة /٥ مصحف /١١٢ نزول) حكاية لمقالة النصارى الذين آمنوا بمحمّد ﷺ:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: فاكتبنا مع الشاهدين على النَّاسِ بالتبليغ من أتباع محمّد ﷺ.

* * *

رابعاً: في الكتابة التي تحمل بالتضمُّنِ أو بدلالة الالتزام معنى أنّ المكتوب قد سبقت به إرادة تكليفيّة، فما تدلُّ عليه الكتابة يشتمل على حكمٍ تكليفي.

والكتابة على هذا المعنى نجدها في النصوص التالية:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى... ﴿١٧٨﴾﴾.

أي: تمت إرادة الله التكليفيّة في حوادث القتل الذي يكون عمداً وعدواناً، بحكم القصاص، إذا لم يعْفُ أحدٌ من أولياء القتيل، وهذه القيود مأخوذة من نصوص أخرى غير هذا النصّ.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول) أيضاً:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.

أي: فُرض عليكم أن توصوا. وقد تمت بهذا الفرض إرادة تكليفية، وأمضي هذا التكليف، وسجّل كتابة.

٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (البقرة /٢) أيضاً:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾.

أي: فرض عليكم الصيام كما فُرض على الذين من قبلكم من أمم، وهذا المفروض حكم تمت به إرادة تكليفية، وأُمْضِي هذا التكليف، وسُجّل كتابة.

٤ ــ وقول الله تعالى في سورة (البقرة /٢) أيضاً:

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦ ﴾.

أي: فرض عليكم القتال، وهذا الحكم قد تمت به إرادة تكليفية، وأمضي، وسُجّل كتابة.

٥ ــ وقول الله تعالى في سورة (البقرة /٢) أيضاً:

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦ ﴾.

إن كُتب عليكم القتال: أي: إنْ تمّت إرادةٌ تكليفية بفرض حكم القتال عليكم، وأُمْضِيَ هذا الحكم، وسُجّل كتابة.

فلمّا كتب عليهم القتال: أي فلمّا تمت الإرادة التكليفية بفرضه، وأمضي هذا الحكم، وسُجّل كتابة، تَوَلَّوْا إلَّا قليلاً منهم.

٦ ــ وقول الله تعالى في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول):

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ... ﴿١٢٧﴾ ﴾.

ما كتب لهن: أي ما فرض لهنّ من ميراث وحقوقٍ أخرى.

٧ ــ وقول الله تعالى في سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول):

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾.

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

ليس خافياً أنّ الكتابة في هذين النصين، إنما هي تسجيل لمعلوم تضمّن حكماً شرعياً جزائيّاً يتعلّقُ بأحكام القتل، وهذا الحكم قد تمّت به إرادة تكليفية، قد أُمْضِيتْ وبُتَّتْ.

٨ ــ وقول الله تعالى في سورة (الحديد / ٥٧ مصحف / ٩٤ نزول):

﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله: أي لم نلزمهم بما ابتدعوا من رهبانية إلّا ليبتغوا بها رضوان الله، وهذا الإلزام قد سُجّل كتابة.

ولكن ما رعوها حقّ رعايتها، والقليل منهم هم الذين حافظوا على مقتضىٰ إيمانهم فآتاهم الله أجرهم، وكثير منهم فاسقون، ترهّبوا ظاهراً، ولم يحافظوا على رهبانيتهم باطناً.

٩ ــ وقول الله تعالى في سورة (النساء /٤ مصحف /٩٢ نزول) بشأن فريق من المنافقين من يهود، رفضوا حكم رسول الله ﷺ، وأرادوا أن يتحاكموا إلى الطاغوت:

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾.

أي: لو أنّا أردنا بشأنهم إرادة تكليفيّة إلزامية وأَمْضيناها وسجّلناها بالكتابة، أن يقتلوا أنفسهم، أو يَخْرُجُوا من ديارهم، كما كلّفنا أجدادهم من قبل، ما فعلُوه إلاّ قليل منهم، لأن نفوسهم فسدت، إذْ تمرّدت على طاعة الله وطاعة رسُله، وابتعدت عن حقيقة الدين لله، وإن تظاهروا بالانتماء إليه.

١٠ ــ وقول الله تعالى في سورة (النساء /٤ مصحف /٩٢ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

كان كثير من أصحاب الرسول ﷺ في مكّة قد رغبوا قبل الهجرة بقتال المشركين، فلم يُؤْذَنْ لهم بذلك. وقيل لهم: كفّوا أيديكم، والزموا من أمر دينكم بأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة.

فلمّا هاجروا إلى المدينة وصار للإسلام دولة، ووصل المسلمون في دار الهجرة إلى مقدار من التمكين في الأرض يَسْمَحُ لهم وفق سنة الله بأن يقاتلوا

أعـداءهم وينتصروا عليهم، فـرض الله عليهـم القتـال، وصـارت إرادة الله التكليفيـة بذلك أمراً مُقرَّراً ومعلوماً ومسجّلاً بالكتابة، وأنزل الله فيه قرآناً.

فلما علموا بأنّ القتال قد فُرِضَ عليهم إذا فريق من الذين كانوا يحرصون على قتال مشركي مكة قبل الهجرة يخشون النـاس كخشية الله أو أشـدّ خشية، ولـم يكتف هذا الفريق بإبقاء هذه الخشية حركة نفسية داخلية، بل قالوا:

﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ؟ * لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

أي: حتى نتمكن أكثر ممّا تمكّنّا، وتزداد قُوَّتُنا أكثر ممّا وصلنا إليه.

لكن حكمة الله المستندة إلى علمـه بهم وبعدُوّهم ليست متهمـة، فقد فـرض الله عليهم القتال في الوقت المناسب تماماً. أمّا الخوفُ من الموت الذي قد يصيب بعض المجاهدين مـع تحقُّقِ النصر، فقد عالجه الله بقوله لرسوله:

﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾.

وعالجه أيضاً بتوجيهات أخرى جاءت بعد هذه الآية.

١١ ــ وقـول الله تعالى خـطاباً لـرسولـه محمـد ﷺ في سـورة (الأنعـام /٦ مصحف /٥٥ نزول):

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

وقوله فيها أيضاً:

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

أمّا الآية (١٢) فقد أبانت رحمةَ الله في إمهال العقاب الأكبر إلى يوم الدين، مع الإشارة الضمنية إلى أنَّ الغاية من ذلك إعطاء الفرصة الكافية الوافية للتوبة والرجعة إلى الله واستدراك ما فات.

﴿كتب على نفسه الرحمة﴾: أي فرض على نفسه باختياره سبحانه وتعالى أن يرحم عباده، وكتب ذلك في اللَّوح المحفوظ، فهو قرار ربّاني يجري تنفيذُه كما فرض الله على نفسه.

ومن مظاهر هذه الرحمة أن لا يُعَجِّل لعباده العقوبة الكبرى ولو استعجلوها، بل يُمْهِلُهُمْ، ليترك لهم فرصة كافية وافية للتَّوْبَة، والرجعة إلى الإيمان والطاعة.

أمّا الحساب والجزاء الأكبر فسيكون يوم القيامة.

فقوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يتضمّن معنى: لَيُمْهِلَنَّكُمْ وَلَيُؤَخِّرَنَّ جَمْعَكُمْ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي لا ريبَ فيه.

وهكذا يظهر المقصود بالرحمة التي كتبها الله على نفسه، فكأنه قال: كتب على نفسه أن يرحمكم فَيُمْهِلَكُمْ لتتوبوا إليه، فهو لا يُعجّل لكم العقوبة الكبرى، بل يؤخر حسابكم وجزاءكم إلى يوم القيامة الذي لا ريب فيه.

﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾: أي: الذين خسروا أنفسهم كلَّها في الحياة الدنيا، فأمست في أيدي الشياطين تتلاعب بها إغواءً وإضلالاً، ولم يبق لهم من أنفسهم بقيّة يتاجرون بها تجارةً رابحة، ويستخدمونها فيما يُحَقِّقُ لهم السعادةَ الأخروية، هؤلاء قد انقطعت بينهم وبين الإيمان كل الأسباب، إذْ خسروا كلَّ رأس مالهم، وهي أنفسهم. فهم إذن لا يؤمنون، مهما دمَغَتْهُم الحجج، وَوُجِّهَتْ لَهُمْ المواعظ والإنذارات، وكلُّ أساليب الترغيب والترهيب.

وأمّا الآية (٥٤) فقد أبانت رحمة الله في قبول توبة الذين لم يؤمنوا، ورفضوا الإيمان رغم تكرار دعوتهم وموعظتهم وإنذارهم، إذا هم تابوا فآمنوا وأصلحوا بعد ذلك ما داموا في ظروف الحياة الدنيا.

﴿إذا جاءك الذين لا يؤمنون بآياتنا فقل﴾ أي: قل لهم مُتَحبّباً لهم، رفيقاً بهم، محيّياً لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ * كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: فرض على نفسه باختياره سبحانه وتعالى أن يرحمكم وأمثالكم، فيفتح لكم أبواب التوبة، فيغفر لكم إذا تبتم وأصلحتم أعمالكم.

وقد سجل الله هذا الذي فرضه على نفسه في اللّوح المحفوظ.

﴿أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة﴾: أي: من عمل سوءاً وهو غارق في ظلمات الجهالة بسبب بُعْدِه عن نور الإيمان وإعراضه عنه.

﴿ثم تاب من بعده وأصلح﴾ أي: تاب من كفره وإعراضه، وأصلح عمله بالاستقامة على منهج الله وطاعة أوامره ونواهيه.

﴿فأنه غفور رحيم﴾: أي: فأن الله عزّ وجل غفور لذنوبه رحيم به.

* * *

خامساً: في الكتابة التي تحمل بالتضمُّن أو بدلالة الالتزام قراراً إراديّاً بأمر تكويني، معلّق على وجود فعل اختياري من العبد المكلف، فإن وجد الفعل من العبد المكلف أنجز الله قراره الإرادي، وإن لم يُوجَد ذلك الفعل لم يوجد الله ما جعله مرتّباً عليه.

والكتابة على هذا نجدها في النصوص التالية:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (الأنبياء /٢١ مصحف /٧٣ نزول):

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

دلّ هذا النصّ على أن ميراث أرض الجنة، قد أمضاه الله بإرادته الحكيمة، لعباده الّذين يعملون الصالحات باختيارهم الحرّ، فمن حقّق منهم في نفسه هذا الشرط أَوْرَثه الله من الجنة ما يشاء بأمره التكويني.

وهذا الأمر الذي أمضاه الله بإرادته قد كتبه الله، وأنزله في كتاب الزبور الذي جاء به داود عليه السلام، وفي كتاب الذكر (وهي التوراة) الذي جاء به موسى عليه السلام.

فهو وعْدٌ حقّ، معلّق على شرط يكون من فعل العباد المكلفين، وسيُنْجَزُ في حينه حتماً، وقد تمّ تسجيله بالكتابة.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (المائدة /٥ مصحف /١١٢ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾.

لقد سبق لموسى عليه السلام أن أنبأ قومه بوعد الله لبني إسرائيل، بأن يجعل فيهم أنبياء متعدّدين، إضافة إلى من سبق منهم حتى عهده. وبأن يجعلهم ملوكاً في الأرض المقدسة ــ وهي أرض الشام ــ على سكان هذه الأرض، بشرط التزام شريعته المنزّلة على أنبيائه ورسله، وهذا شرط ربّاني دائم لكل استخلاف مؤيّد بتأييد من الله. وأَمَرَهُمْ بأن يدخلوا الأرض المقدّسة مجاهدين فاتحين، وأبان لهم أن الله عزّ وجل وَعَدَهُمْ بأن يفتحها لهم ويملكهم إيّاها إذا أطاعوا الأمر وأقاموا الدِّين وجاهدوا في الله حق جهاده، وأبان لهم أن هذا الوعد قد تمّ تسجيله بالكتابة.

فالكتابة هنا إنّما هي تسجيل لمعلومة تضمنت وعداً من الله لهم، بأن تكون هذه الأرض لهم، إذا حَقَّقُوا في أنفسهم شروط هذا الوعد.

وليست هذه الكتابة تسجيلاً لمعلومة تضمّنت قراراً مُبرماً في كلّ الأحوال. وفي كلّ الأزمان.

ولكن بني إسرائيل لم يفعلوا ما أمرهم به موسى عليه السلام يومئذٍ، فلم تكن الأرض المقدسة لهم يومئذٍ.

ثم دخلوها بعد موسى عليه السلام مُقَاتِلين، فحقق الله لهم وعده، فكانت لهم.

ولمّا انحرفوا عن طاعة الله وفسقوا وحرّفوا دين الله سَلَبَهُمُ الله الملك والأرض المقدسة.

فالمنحة المشروطة بشرط واجب الاستمرار تُسْلَبُ متى فُقِدَ ذلك الشرط.

وأؤكد أنّه ينبغي أن نفهم هنا أنّ الكتابة ليست كتابة لمعلومة تضمّنت قراراً إرادياً لا بدّ من وقوعه في كلِّ الأحوال وفي كلّ الأزمان، بل تضمّنت وعداً صادقاً متوقفاً على تحقيق شرط يقدّمه المستفيدون من الوعد، وينتهي أجل هذا الوعد في الأجل المقرّرِ لانتهاء الأمة الموعودة، فلكلّ أمّةٍ أجل في ظروف هذه الحياة الدنيا، ولكل أجل كتاب.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (الحج /٢٢ مصحف /١٠٣ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾.

مَرِيد: عاتٍ مفسدٌ شديد الإقدام على الإغواء والإضلال.

من القوانين القدرية السَّبَبِيَّة التي قَدَّرَها الله وقضاها في كونه، فهي توجد بقضاء الله متَىٰ وجدت أسْبَابُها، أنّ من اتبَّع الشيطان فكان له وَلِيّاً، أضَلَّهُ الشَّيْطَانُ، وقاده إلى الكفر والفسوق والعصيان، وهي السيئات المؤدية إلى عقوبة عذاب السعير.

وهذا القانون القدري السَّبَبِيُّ حقيقة علمية تَمَّ تسجيلها عند الله بالكتابة.

• • •

القاعدة السابعة عشرة
«حول الربط بين الآيات وخواتيمها»

إنّ خواتم الآيات قد تلقي الضوء على المراد مما جاء فيها، وعلى المتدبّر للآية القرآنية أن يبحث عن التناسب والترابط بين مضمون الآية وما جاء في آخرها من قضايا كليّة، إن كان في آخرها شيء من ذلك.

* * *

الأمثلة

المثال الأول:

أنزل الله على رسوله في العهد المكي قوله في سورة (الأعراف /٧ مصحف /٣٩ نزول):

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

ثم أنزل عليه في العهد المكي أيضاً قوله في سورة (فصلت /٤١ مصحف /٦١ نزول):

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

فزاد النصّ الثاني التأكيد بأنّ الله هو وحده السميع العليم الذي يستجيب لمن استعاذ به.

وقد دلّ ختم الآيتين بذكر أنّ الله سميع عليم، وأنّه هو وحده السميع العليم، على أن المراد من الاستعاذة ليس مجرد ذكر الاستعاذة باللّسان، فالاستعاذة باللسان وحده لا تدفع عن الإنسان نزغ الشيطان، وإنّما الذي ينفع هو الاستعاذة اللّسانية المقرونة بصدق الاستعاذة القلبية، وذلك بإحضار معناها في التصوّر، مع اتّجاه الإرادة الجازمة لذلك، واللّسان مساعد لاستجماع هذه الحالة داخل النفس.

وعلى هذا نفهم النصّ على الوجه التالي: فاستعذ بالله بلسانك وبقلبك، فالله هو السميع لما تذكر بلسانك، والعليم بما في قلبك ونفسك وتصوّراتك وإرادتك. أي فهو عندئذٍ يستجيب لك فيصرف عنك وساوس الشيطان ونزغاته.

وقد تنبّه فخر الدين الرازي في تفسيره لهذا فقال: (قوله تعالى: ﴿إنه سميع عليم﴾ يدل على أنّ الاستعاذة باللّسان لا تفيد، إلاّ إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة، فكأنه تعالى قال: اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإنّي سميع، واستحضر معاني الاستعاذة بعقلك وقلبك فإني عليم بما في ضميرك. وفي الحقيقة القول اللّساني بدون المعارف القلبية عديم الفائدة والأثر) انتهى.

* * *

المثال الثاني:

أنزل الله في العهد المكي قوله في سورة (النحل /١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾.

ثم أنزل في العهد المكي أيضاً قوله في سورة (إبراهيم /١٤ مصحف /٧٢ نزول):

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾.

من ختم آية (النحل) بقـول الله تعالى: ﴿إن الله لغفـور رحيم﴾ ومن ختم آية (إبـراهيم) بقولـه تعالى: ﴿إنّ الإنسـان لـظلوم كفّـار﴾. نستـطيـع أن نستبين بعض المعاني التي يترجّـح أن تكون هي المرادة في الآية والله أعلم:

قد يتبادر إلى الذهن من قوله تعالى: ﴿وإن تعـدّوا نعمة الله لا تحصـوها﴾ أنّ المراد مجرّد التعبير عن كثرة نعم الله علينا التي لا نستطيـع إحصاءها وإن أخذنا نعدّ مفـرداتها، لأن كثيـراً جداً منهـا لا نستطيـع مـلاحظتـه ولا معرفتـه حتى نعدّه. ومـع صحة هذا المعنى ومطابقته للواقـع، يمكن لفت النظر إلى معنى آخر يشير إليه ختام الآيتين:

وهو أنّ الإنسان لئن اتّجه على سبيل الندرة ــ كما دلّت كلمة (إنْ) ــ إلى عدّ نعم الله عليه مما يدرك ويلاحظ من نعم الله الكثيرة التي لا يستطيـع إحصاءها، فإنه لا يحاول إحصاءهـا، ولا يفكرّ فيـه، بل تميـل نفسه دائمـاً إلى تجاهـل بعض النعم وإغفالها، ونسبتهـا إلى علمه ومهـارته وأعمـاله، حتى لا يجـد في نفسه حـاجة إلى مقابلة ذلك بالطاعة والشكر.

وبسبب ذلك يقـع في رذيلتين:

الأولى: استخدام النعمة في غير ما أذن الله به، وهذا ظلم منه.

الثانية: جحود النّعم كلّها أو بعضهـا، مـع تفاوت نسب الجحـود بين الناس، من جحود عامّ وظاهر إلى جحود خفي، وهذا منهم كُفران للنعمة.

ويوجد في الناس مؤمنون عصاة يتصفون بمقدار لا يتعارض مـع صحة الإيمان والإسلام من هاتين الرذيلتين، مـع تفاوت بينهم.

ويوجد في الناس كافرون، وهم الأكثرون، وهم ظلومون كفّارون من مستـوى دركات سفلى تتنافى مـع صحة الإيمان والإسلام.

وقد تكون آية (النحل) قد راعت ظلم عصاة المؤمنين وكفرانهم للنعمة، فجاء

في آخرها: ﴿إنّ الله لغفور رحيم﴾ أي لغفور لذنوبهم رحيم بهم، وطُوي فيها وصف ظلمهم وكفرانهم، مع ملاحظة ذلك تقديراً.

أمّا آية (إبراهيم) فقد تحدثت عن ظلم الكافرين وكفرانهم للنعمة، لذلك جاء في آخرها ﴿إن الإنسان لظلومٌ كفّار﴾ أي: إنّ الإنسان الكافر، كثير الظلم والكفران لنعم الله، أخذاً من دلالة صيغتي المبالغة، وأطلق جنس الإنسان باعتبار أن الأكثر منه كذلك.

وإذا كان من صفات الإنسان الظلم والكفران، فمن صفات الله في مقابل ذلك أنّ الله غفور رحيم، فجاء في مقابل صفة الظلم في الإنسان صفة الغفران عند الله إذا استغفر الإنسان، وجاء في مقابل صفة كفر النعمة عند الإنسان، صفة الرحمة عند الله.

فتكامل النصان من جهة، ودلّت خواتيم الآيتين على معانٍ لم نكن نفهمها لولاها.

* * *

المثال الثالث:

أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران /٣ مصحف /٨٩ نزول) بشأن المنافقين قوله:

﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾.

في هذا النص نلاحظ:

١ ـ أنّ الآية (١٢٠) منه قد خُتِمَتْ بقول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ وبقليل من التأمل ندرك أنّ الآية ختمت بهذا الختام لِتَدُلَّ عَلَىٰ أنّ

اللَّهَ عزَّ وجلَّ سيُحبط كيد المنافقين الذي يكيدون كيدهم ضدّ المؤمنين، إذْ من هو محيط بما يعمل أعداء أوليائه وهو قدير على نصرة أوليائه وإحباط مكايد أعدائهم، فإنّه سيفعل ذلك، لا سيّما إذا طَمْأَنَهُمْ بقوله: أنا محيط بما يعمل أعداؤكم ضدّكم.

ومثل هذا في عرف البلاغيين يُعْتَبر من باب الكناية.

٢ ـ وأنّ الآية (١٢١) منه قد خُتمت بقول اللَّهِ عزّ وجلّ ﴿واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وفي اشتمال هذا الختام على وصف الله عزّ وجلّ بأنّه سميع عليم دلالةٌ من قبيل الكناية تشير إلى أن رسول الله ﷺ قد كان يدعو الله عزّ وجلّ بأن ينصر المؤمنين ويثّبتَ أقدامهم حينما غدا يُبَوِّىء المؤمنينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَال، أي: فَاللَّهُ سميعٌ لدعائك، عليم بما تحب، وعليم بأحوال المؤمنين وأحوال عدّوهم، وفيه أيضاً إشارة ضمنيَّةٌ إلى وعدٍ بتحقيق النصر المطلوب.

* * *

المثال الرابع:

ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران /٣ مصحف /٨٩ نزول):

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾.

أي: وما تنفقوا من شيءٍ فإنّ الله يُثِيبُكُمْ عليه ثواباً حسناً، لأَنَّ الله به عليم.

* * *

والأمثلة على هذا كثيرة جداً في القرآن المجيد، وعلى متدبّر كتاب الله عزّ وجلّ أن لا يَغْفُلَ عن مرامي خواتيم الآيات، ممّا يشتمل على قضايا كُلّيّة، فإنّ لها دلالات مرتبطات بما جاء قبلها غاية في الأهميّة، وليستَعِنْ بالله على فهم المراد، ولْيَتَأَنّ ولْيَصْبِر، وسيفتح الله عليه ولو بعد حين.

● ● ●



القاعدة الثامنة عشرة

«حول النظر في الألفاظ المتقاربة المعنى أو المترادفة»

مهما أمكن إبعاد فكرة الترادف عن الكلمات القرآنية فهو الأحق بأن يكون المنهج لدى تدبّر القرآن، والأقرب إلى الفهم الصحيح، ولو كانت الكلمات داخلة في معنىً كلي واحد، إلا أنه معنى عامّ صالح لِنِسَبٍ متفاوتة.

وبإبعاد فكرة الترادف قد يكتشف المتدبّر لكتاب الله المستويات النسبية للموضوع الواحد، والدرجات التي يُقصد الإشارة إليها، وقد يظهر له بعض أغراض تكرير الفكرة في مواضع مختلفة.

فقد يأتي في القرآن اختيار كلمة في موضع، ثم قد يأتي اختيار مرادف لها في موضع آخر، أو اختيار كلمة مقاربة لها في المعنى في موضع آخر.

ولمّا كان القرآن في قمة الإعجاز كان على المتدبّر له أن يتفكّر في سرّ اختيار كلٍّ من الكلمات المترادفة أو المتقاربة، ووضعها في الموضع الذي استعملت فيه دون الأخرى. فمن شأن التفكّر والبحث أن يهدي بعض المتفكّرين الباحثين إلى سر ذلك، ولو بعد حين من الدهر.

* * *

الأمـــثـلـــة

المثال الأول:

حول كلمتي (المشي والسعي):

١ ــ يقول الله تعالى في سورة (الملك /٦٧ مصحف /٧٧ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

٢ ــ ويقول الله تعالى في سورة (الجمعة /٦٢ مصحف /١١٠ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾.

هذان نصّان يلاحظ فيهما أنّ التوجيه لطلب الرزق قد استعملت فيه كلمة (فامشوا). وأنّ التوجيه لحضور صلاة الجمعة بغية مشاركة المسلمين في ذكر الله قد استعملت فيه كلمة (فاسعوا). والسعي من المشي، إلا أنّ فيه معنى الهمّة والنشاط وزيادة الحركة، والغرض من ذلك الحركة النفسية والقلبية.

ولدى التدبّر في سرّ اختيار كلٍّ من هاتين الكلمتين المتقاربتين في مواضعهما ظهر لي أن الله تبارك وتعالى قد أمر بطلب الرزق عن طريق المشي المعتاد، لا عن طريق السعي الذي فيه المشي الحثيث بهمّة بالغة، أي أمر بطلب الرزق مع الإجمال في الطلب، وذلك لأن الرزق مضمون بالمقادير الربّانية من خلال تعاطي الأسباب الكونية، ضمن حدود ما قسم الله لكل إنسان، فعلى الإنسان أن يتخذ الأسباب برفق، ليصل عن طريقها إلى ما قسم الله له من رزق، والمشي برفق سبب يحقّق له المقسوم، والسعي الحثيث لا يزيده على ما قسم الله له شيئاً، إنّما يزيده كداً وانشغالاً عن خيرات أخرى تنفعه في آخرته. أمّا التوجّه لذكر الله وعبادته فقد

أمر الله بطلبه عن طريق السعي، الذي فيه الهمة النفسية والنشاط والرغبة الشديدة التي تعبّر عنها الحركة النشيطة. وذلك لأنّ ثواب الآخرة يتبع مقدار العمل في الدنيا، وليس مضموناً ضماناً منفصلاً عن العمل، ولا مقسوماً قسمة قدريّة لا تزيد ولا تنقص، بل هو ثمرة تابعة بفضل الله لمقدار ما يكسب الإنسان من أعمال صالحات، من أجل ذلك كان المناسب في هذا المقام اختيار كلمة السعي، لأن المشي دون همة نفسية وحرص على الطلب يبطّىء في العمل، فيكون من وراء ذلك حرمان من الثواب على مقدار التقصير.

ومن أجل هذا المعنى التزم القرآن كلمة (السعي) ومشتقاتها في الأعمال ذات الثمرات والنتائج الأخروية خيراً كانت أو شراً. مثل:

١ ــ قول الله عزّ وجل في سورة (الإسراء /١٧ مصحف /٥٠ نزول):

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

٢ ــ وقول الله عزّ وجل في سورة (النجم /٥٣ مصحف /٢٣ نزول):

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

٣ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات /٧٩ مصحف /٨١ نزول):

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾.

٤ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (طه /٢٠ مصحف /٤٥ نزول):

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

٥ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الإنسان /٧٦ مصحف /٩٨ نزول):

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

٦ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (اللّيل /٩٢ مصحف /٩ نزول):

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾.

فظهر لنا من هذا البيان أنّ اختيار كلمة (فامشوا) قد كان للدلالة على معنى مقصود لا تدلّ عليه كلمة (فاسعوا). وأنّ اختيار كلمة (فاسعوا) في الموضع الذي استعملت فيه قد كان للدلالة على معنى مقصود لا تدلّ عليه كلمة (فامشوا).

وبهذا التدبُّر انكشفت لنا فقرة من السلسلة الطويلة المشتملة على عناصر لا تكاد تحصر من إعجاز القرآن.

* * *

المثال الثاني:

حول مراتب التجاوز عن السيئات، والتي تعبّر عنها الكلمات التاليات: (الغفران ـ التكفير ـ العفو ـ رفع الجناح ـ تبديل السيئات بالحسنات):

أمّا (الغفران) فيدلّ على مطلق الستر لذنب المذنب. ويأتي فوقه (التكفير) الذي يدلّ على معنى الستر بالدفن، ويلاحظ أنّ الدفن فيه معنى زيادة إخفاء الأثر. ويأتي فوقه (العفو)، الذي يدلّ على معنى محو الأثر. ويأتي فوقه (رفع الجناح) الذي يدلّ على اعتبار الذنب كأن لم يكن. ويأتي فوقه (تبديل السيئات بالحسنات) وهذا أعلى المراتب التي يتفضّل الله بها على عباده، إذ يبدّل الله لبعض أهل المراتب العالية سيّئاتهم حسنات.

إذن فلا يصح تفسير بعض هذه الألفاظ ببعض دون تجوز، إذْ هي ليست مترادفات، إنما هي مراتب بعضها أعلى من بعض، وبعضها أخصّ من بعض لما فيه من معانٍ زائدة.

* * *

المثال الثالث:

حول مراتب عدم الاستجابة لدعوة الداعي، والتي تعبّر عنها الكلمات التاليات: (اللّيّ ــ الإعراض ــ النأي بالجانب ــ الإدبار ــ التولّي ــ العداء ــ الغيبة والنميمة ــ مواقف الهزء والسخرية والشتائم ــ المكر في الخفاء ــ الكيد ــ المواجهة بالقتال):

١ ــ فاللّيّ حركةٌ تعبّر عن عدم الاستجابة بَعْدَ الوجوم، وهي أخف حركات التعبير عن ذلك.

٢ ــ والإعراض حركةٌ فوق اللّي، وهو إعطاء الجانب، وَعُرْضُ الشيء في اللُّغة جانبه، وعارضا الإنسان صفحتا خدّيه.

وقد جاء استعمال اللّي والإعراض على أنهما نوعان غير متطابقين ولا مترادفين، في قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء /٤ مصحف /٩٢ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾.

فدلّ قول الله عزّ وجلّ في هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾ عَلَىٰ أنّ الإعراض نوع من عدم الاستجابة غير اللّيَ، وبالتحليل اللّغوي، والنظر الفكري يتبيّن لنا أنّه حركة أشدّ من مجرّد اللّي، وفيه من عدم الاستجابة نسبة أكثر.

٣ ــ والنأي بالجانب حركة فوق الإعراض، ففيه من عدم الاستجابة نسبة أكثر من الإعراض، الذي هو أشدّ من اللّي.

فإذا كان الإعراض إعطاءً للجانب، وكان الواجب يستدعي المواجهة وجهاً لوجه، فإنّ النأي بالجانب يكون بالابتعاد عن الداعي ودعوته مع الإعراض.

وقد جاء استعمال الإعراض والنأي بالجانب في نصٍّ واحد إشارةً إلَىٰ اختلاف مفهومَيْهما، بدليل أنه قد جاء فيه عطف النأي بالجانب على الإعراض، والأصل في العطف أنّه يقتضي التغاير، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء /١٧ مصحف /٥٠ نزول):

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة (فصّلت /٤١ مصحف /٦١ نزول):

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

فمع ما في هاتين الآيتين من تكامل إذْ أفادت الأولى أنّه إذا مسّه الشرّ كان يؤوساً، وأفادت الثانية أنّه إذا مسَّهُ الشرّ فذو دُعاءٍ عَرِيض، فقد أفادت الآيتان أنّ النّأي بالجانب أكثَرُ مِنْ مجرّد الإعراض.

٤ ـ والإدبار حركة فوق حركة النأي بالجانب، إذ الحالة النفسيّة معه يُعَبَّرُ عنها بإدارة الظهر للشيء، وإعطائه الدُّبُر، وفي حدود هذا المستوى من رفض الاستجابة لدعوة الداعي، وصف الله عزّ وجلّ الوليد بن المغيرة كما جاء في أسباب النزول، بقوله في سورة (المدثر /٧٤ مصحف /٤ نزول):

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

فلم يكتفِ بالإعراض والنأي بالجانب، بل أَدْبَرَ، أي: أعطى دبُرَهُ وأدار ظهره، وزاد على ذلك أنّه تَمطَّىٰ مُسْتَكْبِراً بقامته.

وذلك تعبير عن المستوى الذي وصل إليه في حالته النفسيّة.

٥ ــ والتولّي حركة زائدة على مجرّد الإدبار، فهو تعبير عن الانصراف عن مجلس الداعي ودعوته بعد إدارة الظهر له.

وقد دلّت النصوص القرآنية والحديثيّة على أنّ التولّي ابتعاد بعد الإدبار بمشي أو سعي، وأنه شيء مخالف لمجرّد الإدبار.

● قال الله عزّ وجلّ بشأن المشركين في سورة (الإسراء /١٧ مصحف /٥٠ نزول):

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

أي: انْصَرَفوا مبتعدين بعد أن أداروا ظهورهم وأعطوا أدبارهم، وإنما فعلوا ذلك نُفْرَةً من ذكر الله وحدَهُ دون شركائهم.

● وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النمل /٢٧ مصحف /٤٨ نزول):

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

● وقال تعالى فيها أيضاً بشأن ما كان من سيدنا موسى عليه السلام حين قال الله له: ألق عصاك، إذ ناداه بجانب الطور:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾.

فدلّت هذه النصوص ونصوص أخرى مماثلة على أنَّ التولّي حركة زائدة على مُجَرّد الإدبار.

وتفسير بعض هذه المستويات ببعض تسامحٌ ونَقْصٌ في التدبر لكلام الله عزّ وجل، ولدلالات الكلمات في أوضاعها اللُّغوية أو الاصطلاحية.

٦ ــ وفوق التولّي يأتي موقف العداء الخفي دون حركات مقاومة، فموقف التجريح بالغيبة، فموقف النميمة، فمواقف الهزء والسخرية والشتائم، فالمكر

بتدبير أنواع من الأذى والضرّ في الخفاء، فالكيد بتدبير أمور قتالية، فالمواجهة بالقتال، وهذه الأمور ظاهرة التخالف والتفاوت في مستوياتها.

فعلى متدبر كلام الله مراعاة الدّقّة التامة في تفسير الكلمات القرآنية.

* * *

المثال الرابع:

حول مادتي: (مسّ ــ أصاب):

نلاحظ في القرآن أنّ مادّة (المسّ) قد اختيرت بقصد في موضع، وأنّ مادّة (الإصابة) قد اختيرت بقصد في موضعٍ آخر.

١ ــ فيقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران /٣ مصحف /٨٩ نزول) بشأن بيان حال المنافقين بالنسبة إلى المؤمنين:

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

في هذا النصّ نرى أنّ الله عزّ وجل قد اختار التعبير بمادة (المسّ) في جانب ما ينزل بالمؤمنين من حسنات، ومادّة (الإصابة) في جانب ما يصيبهم من سيئات.

وبالتأمّل يبدو لنا: أنّ المنافقين يسوؤهم أن تَمَسَّ الحسنةُ المؤمنين ولو مسّاً رفيقاً وبأقل مقدار. وأنّهم يفرحون إذا أصابتهم السيئة ولو إصابة بالغة شديدة. ففي التعبير بالإصابة هنا معنى يزيد على مجرّد المسّ، مع ما في التنويع في التعبير من جمال أدبي.

ويكثر عند الانفراد استعمال مادّة (المسّ) في الخير والشرّ، واستعمال مادّة (الإصابة) في الخير والشرّ أيضاً، وذلك حين لا يوجد داعٍ إلى التفريق، لا من جهة دلالة المعنى، ولا من جهة أدب اللفظ.

على أنّ (المسّ) تبقى له دلالته المختلفة عن (الإصابة).

المثال الخامس :

حول موادّ (التقوى ــ والبرّ ــ والإحسان) :

لدى تدبّـر نصوص القـرآن المجيد نـلاحظ أنّ هذه الكلمـات ومشتقاتهـا تدلّ على مراتب بعضها أعلى من بعض، ولِكُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْهَا دَرَجَات.

ويَنْعَدِمُ إدْراكُ هذه المراتب، حينَ يُفسَّر البرّ بالتقوى، دون بيان المعنى الزائد على مجرّد التقوى، والـذي هو التـوسُّـع في أعمال الخيـر فوق الـواجبات حتى أوّل مرتبة الإحسان، وحين يفسَّرُ الإحسان بالبرّ، أو البرُّ بالإحسان، أو بالتقوى، دون بيان المعنى الزائد في الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنَّك تراه.

ويتسرّع كثير من المفسّرين فيفسِّر البـرَّ بالتقـوى، مـع أنّ البرّ هـو الزيـادة في أفعال الخير ومراضي الله فوق مرتبة التقوى.

إنّ التقـوى تتحقق بما يقي من العـذاب، والـذي يقي من العـذاب هـو فعـل الواجبات وترك المحرّمات، أمّا فِعْلُ ما فوق ذلك فهو من مرتبة البرّ.

ولكنْ لا يتحقّق البـرّ إلاّ بعد التحقق بمـرتبة التقـوى، في نوع العمـل، فأداء الزكاة الـواجبة مثـلاً، هو من أعمـال مرتبـة التقوى، أمَّـا بذل الصّـدقات فـوق ذلك فهو من أعمال مرتبة البرّ.

وحين قدّم أبو بكر رضي الله عنه كلّ ما لديه، وسأله الرسول ﷺ: «ماذا أبقيت لعيالك»؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقد فعـل ما هـو زائد على مـرتبة التقـوى ومرتبة البرّ أيضاً، إذ وصل في عمله هذا إلى مرتبة الإحسان.

ونوافل الصلاة فوق أداء الصلوات المفروضة هي من مرتبة البرّ، وكذلك سائر نوافل الطاعات، وهي تَسُدُّ النقص والثُّغَرات والتقصيـرات التي حصلت في واجبات مرتبة التقوىٰ، إذا كان قد حصل فيها شيءٌ من ذلك، وتكـون سبباً في تكفيـر بعض السيئات من صغائر المعاصي والذنوب.

ولفضل مرتبة البرّ على مرتبة التقوى جاء في القرآن تقديم البرّ على التقوى.

● قال الله عزّ وجلّ في سورة (المجادلة /٥٨ مصحف /١٠٥ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩ ﴾.

التناجي: هو التحادُثُ في السِّرّ.

أي: وتناجَوْا إذَا أردْتم أن تتناجَوْا بفعل الخيرات الزائدة على واجبات مرتبة التقوىٰ، أو بالتزام فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه مما هو من مرتبة التقوى.

● وقال الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة /٥ مصحف /١١٢ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢ ﴾.

أي: وتعاونوا على فعل الخيرات التي هي من مرتبة البرّ، وتعاونوا على القيام بمقتضيات مرتبة التقوى التي تتحقق لكم بفعل الواجبات وترك المحرمات، وتدخل المباحات فيها لأنّها لا تؤثر على مرتبة التقوى، وليست هي من البرّ ولا من الإحسان.

ويخطىء بعض المفسّرين إذ يَرَوْن أنّ البرّ والتقوى مترادفان، فيفسرون هذا بهذا، مع أنّهما مجتمعان في نصٍّ واحد، وهذا ينافي بلاغة القرآن، وسمُوَّ أدائه.

إذْ كُلُّ كلمةٍ في القرآن مختارةٌ اختياراً دقيقاً للدلالة على معنى مقصود بذاته، إنْ لم يكن من أصل الوضع اللُّغَوي واستعمالات العرب، فبالاختيار والاصطلاح القرآني، ويكشف ذلك سَبْرُ دلالات الكلمة في كلّ المواضع التي استعملت فيها في القرآن الكريم.

والأصل دائماً أنّه لا تكرار ولا ترادف، ولا نَلْجَأُ إلى شيء من ذلك إلّا عند العجز عن اكتشاف الفروق، مع عدم الجزم بما نفسّر به الكلمة القرآنية.

وأتابع الاستدلال من القرآن على الفرق بين البرّ والتقوى فأقول:

ولمّا كان إنفاق المؤمن ممّا يُحبُّ عملاً زائداً على مجرد التقوى، إذ تتحقَّقُ التقوى بأن يُنْفِقَ ما يجب عليه إنفاقه دون أن يقصد اختيار ما يُحبُّ فيُقَدِّمَه، قال الله عزّ وجل في سورة (آل عمران /٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

أي: لن تصلوا إلى مرتبة البرّ في باب الإنفاق حتى تنفقوا ممّا تحبون، مع أنهم إذا لم ينفقوا ممّا يُحبُّون وَأَدَّوْا ما فَرض الله عليهم فقد نالوا التقوى.

ولمّا كان لكلّ إنسان في أمواله كرائم أثيرة عنده، أمر الرسول ﷺ جُبَاةَ الزكاة بأن يتجنَّبوا كرائم أموال الناس، إذ الواجب يتحقّق بأخذ غيرها. لكنَّ بَاذِلَ الزكاة إذا أراد أن يَنَالَ البرَّ قدَّم ما يُحِبُّ مِنْ كرائم أمواله، مقتحماً عقبةً من عقباتِ نفسه، ابتغاء مرضاة رَبّه.

وكان بعض المشركين، وهم القرشيُّون، إذا أحرمُوا بحجّ أو عمرة، رأَوْا من البرّ أنْ لا يحول بين رؤوسهم وبين السماء سقف، وكانوا يحرصون على التزام هذه الطاعة الزائدة على الواجب في إحرامهم، تقرُّباً إلى الله بعمل من أعمال البرّ، فإذا أرادوا أن يدخلوا بيتاً لحاجة تَسَوَّرُوا الجدار، وأخذوا حاجتهم من فناء الدار، أو نَقَبُوا سقف البيت، ودخلوا من ظهره، وأبقَوْا ما بين رؤوسهم وبين السماء متّصلاً من غير حجاب.

كانوا يفعلون هذا البرّ في زعمهم، مع أنّهم لم يتحقَّقُوا بَعْدُ بمرتبة التقوى، التي هي شرطٌ أساسيٌّ للبرّ، ومرحلة سابقة له، فمن لم يَتَّقِ الله في عمله بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهىٰ الله عنه، لم يقبل الله منه الأعمال الزائدة على الواجب

من أعمال البرّ، فالمرتبة الدنيا شرط لـلارتقاء إلى المـرتبة العليـا، لا سيما إذا كانت من قاعدة الإيمان.

وبياناً لذلك قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾.

أي: إنّ إتيـان المحرم بـالحـج أو العمرة البيـوت من ظهـورهـا ليس من البـرّ أصلاً، فهي بدعةٌ لَا أساس لها في الدين، وزيادةٌ على الواجب غير مشروعة.

ثُمَّ بيّنَ الله عـزّ وجلّ أنَّ البـرّ المقبول عنـد الله، والذي يكـون بفعل خيـراتٍ وعبادات زائدات على الـواجب هو البـرّ الذي يكـون من المتّقي، فمن كان متحققـاً بمرتبة التقوى في العمل، قُبلَتْ منْهُ زوائد العبادات والطاعات المشروعـة، واعتبرت له في صحيفة أعمال البرّ، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى:

﴿وَلَكِنّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾.

أي: ولكنّ البرّ المقبول عند الله هو برُّ من اتَّقىٰ، أما بِرُّ من لم يتّق عذاب الله بفعل الواجبات وترك المحرّمات فهو ليس من البرّ.

ويفهم بعضهم أنّ البـرّ هو التقـوى أخـذاً من هـذه الآيـة، وهـذا غلط، فـالله لم يقُلْ: ولكنّ البرَّ التقـوى، إنّما قـالَ: ﴿ولكِنّ الْبِرَّ مَنِ اتقى﴾ أي: بـرُّ من اتَّقى، وتـوسُّعُهُ في فعـلِ الخيرات من نـوافل الـطاعات، وتـرك المكروهـات، والفرق بين التعبيـرَيْن جَلِيّ، لِمَنْ خَبَر أسـاليب القـرآن، وتَمَـرَّسَ بتـدبُّـر آيـاتـه، ومـا فيهـا من محـاذيف، فمن الظاهـر أنه لا تَـطَابُقَ بين (مَنِ اتَّقى) وهو إنسـان، وبين البـرّ الـذي

هـو عمل، فـلا بُدَّ من تقـدير محـذوف ليستقيم الكلام، وبحثـاً عن هذا المحـذوف لا نجد أولى من تقدير: كلمة «برّ» فنقول: ولكِنَّ البرَّ برُّ من اتّقى.

ويؤكد الفرق بين الأبرار والمتقين ما جاء في القرآن من بيـان أن ثواب الأبـرار في الجنة أعظم من ثواب المتقين، ومن أراد أن يتحقّق من ذلك فعليه أن يتتبَّـع هذا في كتاب الله، ولينظُرْ في قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمـران /٣ مصحف /٨٩ نزول):

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

أَفـلا تَـدُلُّ هَـٰذِهِ الآيَـةُ عَلَىٰ أَنَّ ثَـوَابَ الأَبْـرَارِ خَيْـرٌ مِنْ ثَـوابِ المتقين الـذين لم يرتَقُوا إلى مَرْتَبَةِ الأَبْرَار.

ولينـظُرْ في تفضيل نعيمِ الأبـرار في الجنة، الـوارد في سورة (الإنسـان /٧٦ مصحف /٩٨ نزول)، وفي سورة (المـطففين /٨٣ مصحف /٨٦ نزول) وهي آخـر ما نزل في العهد المكي، وفيها يصفهم الله بـأنّهم المقرّبـون. ونعيم المقرّبين فـوق نعيم أصحـاب اليمين وهم أهـل مـرتبـة التقـوى، كمـا بيّنَ الله ذلـك في سـورة (الواقعة /٥٦ مصحف /٤٦ نزول):

وقد قابل الله الأبرار بالفجار، للتنـاظر بين مـرتبتيهما، فـالفجَّار هم المنبعثـون في فعـل الشـرور فـوق مستـوىٰ العصـاة الكفـرة العـادّيين. كمـا جـاء في سـورة (الانفطار /٨٢ مصحف /٨٢ نزول):

وكلٌّ من مرتبتي التقوىٰ والبرّ ذات درجات متفاضلات.

أمّا مرتبة الإحسان فهي المرتبة الأعلى، وعرّف الرسول ﷺ الإحسان بأن تعبُد

الله كأنَّكَ تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك، ومرتبة الإحسان ذات درجات متفاضلات أيضاً.

ووصف الله رسله بأنّهم محسنون، أي: جامعون لمرتبة التقوى، ومرتبة البرّ، وترقَّوا إلى مرتبة الإحسان، وهم متفاوتون فيما بينهم فضلاً، وأفضلهم نبّينا محمد ﷺ، وله في الجنة الفردوس الأعلى.

فالتسرّع في فهم النصّ القرآني يوقع في أخطاءٍ فاحشة، وعلى المتدبر لكلام الله عزّ وجلّ أن يكون كثير التأمّل، صاحب أناةٍ، يبحث في كلّ كبيرة وصغيرة، وعليه أن يَسْتَبْعِدَ من تصوّره الترادف والزيادة والتكرار البحت، وعليه أن يُنَقِّب عن المحاذيف التي يستدعيها ترابط الكلام، وتناسُقُ الأفكار فيه.

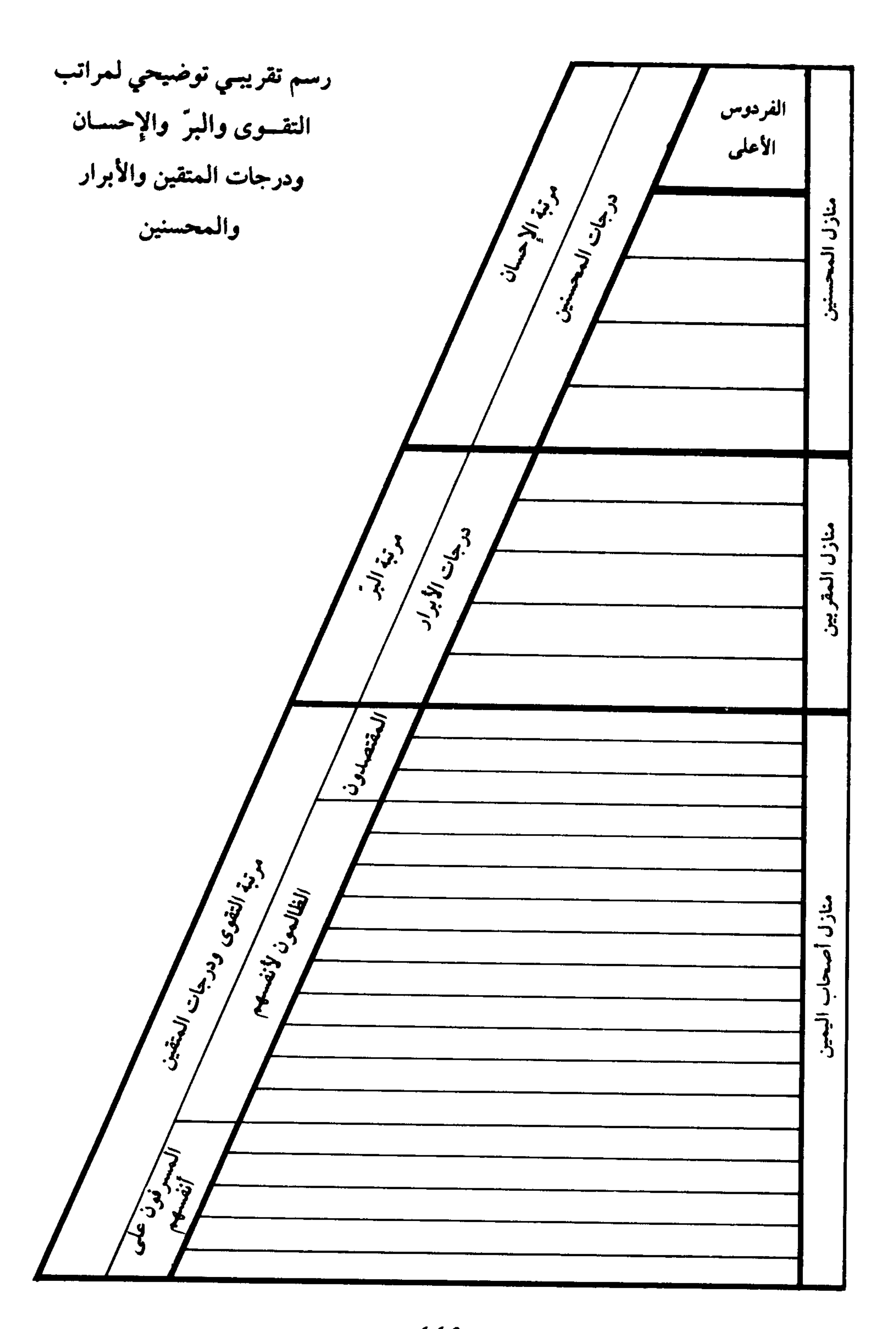
إنّ كلام الله عظيم، وليس مثل كلام الناس، ويخاطب العباد جميعاً من موقع الربوبية، ذاتِ السلطان على كلّ شيءٍ، والملك لكلّ شيء، والقدرة على كلّ شيء.

إنّ كلّ حرف، وكلَّ كلمة، وكلّ فكرةٍ مرادة، في كتاب الله، مختارة بعناية عظيمة، وإتقان بديع، ومن قَصُرَ فَهْمُه عن إدراك دلالات كتاب الله، فلا يجازف بقذف تفسيرات تبادرت إلى ذهنه، وإذا طرحها على سبيل الاحتمال فلا يجزم بها.

إنّ كتاب الله عظيم، وذو دلالات ذواتِ عمق، والتسرُّع في تفسير كلام الله يُوقع في التجنّي على معانيه.

وفيما يلي رسم توضيحيٌّ تقريبي لمراتب التقوى والبرّ والإحسان مع درجاتها.

رسم تقريبي توضيحي لمراتب التقوى والبرّ والإحسان ودرجات المتقين والأبرار والمحسنين



وفي ضوء هذا نستطيع أن نتدبّر نصوصاً قرآنية كثيرة، اشتملت على صفات بعضها يدخل في درجات مرتبة التقوى، وبعضها يدخل في درجات مرتبة البرّ، وبعضها يدخل في درجات مرتبة الإحسان، منها قول الله عز وجلّ في سورة (آل عمران /٣ مصحف /٨٩ نزول):

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

السَّرَّاء: المسرَّة والسَّعَةُ في الرزق، وكلُّ مُسَبِّبات السرور.

الضَّرَّاء: الشِّدّة والضيقُ والنقص في الأموال والأنفس.

وقد دَلّ هذا النصّ على أنَّ القاعدة العامّة لمستحقي الجنة هي قاعدة التقوى، فالجنَّة أعِدّتْ لِلمتّقين، وهذه يستحقُّها مَنْ أطاع الله ورسوله، والطاعة تتحقّق بفعل الواجبات وترك المحرّمات، فقال تعالى في النصّ:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

أي: أطيعوا لِتُرْحَموا، وقد جاء بيان أنّ هذه الرحمة تكون بدخول الجنة في نصوص كثيرة، منها قوله تعالى في سورة (الإنسان /٧٦ مصحف /٩٨ نزول):

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

لكنّ التزام الطاعة في كلّ الأوامر والنواهي عسير على الناس، ولو كانوا من المؤمنين، ففتح الله لهم باب المسارعة إلى الظفر بالمغفرة من ربّهم بالاستغفار والإقلاع عن الذنب، فقال تعالى في النصّ:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾.

وقال فيه أيضاً:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾.

وذكر الله عزّ وجلّ مِنْ صِفَاتِ المتقين أَنَّهُمْ يُنفِقُونَ من أموالهم في حالتي السّرّاء والضّرّاء، أي: فلا تُبطرهم السَّعة فَيَنْسَوْا مَا فرض الله عليهم في أموالهم، ولا تُفْسِدُ نفوسَهم الضرّاء والمصائب في الأموال أو الأنفس، فَيُمْسِكُوا ويشحُّوا ويمنَعُوا مَا فرضَ اللَّهُ عليهم في أموالهم، وهذه الصفة هي مِنْ حُدود مرتبة التقوى، فقال عزّ وجلّ في النصّ:

﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ... ١٣٤﴾.

وبعد ذلك أثنىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ على:

١ ــ الذينَ يَكْظِمُونَ غَيْظَهم.

٢ ــ والذين يَعْفُونَ عَنِ الناس.

وقد دلّت نصوص أخرى على أنّ من حقّ الإنسان أن ينتقم لنفسه بالعدل، فإذا جازى على السّيئة بسيّئة مثلها لم يكن مُخِلًّا بواجبات مرتبة التقوى، فكظْمُ

الغيظِ خُلُقٌ فوق مرتبة التقوى، ومن خلال فهمنا للمراتب ندرك أنّه يرتقي إلى مرتبة البرّ، لذلك استحق الكاظمون للغيظ أن يَرِدَ ذكرهم بأسلوب الثناء عليهم، دلّ على هذا قول الله تعالى في النصّ:

﴿والْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾.

أي: وأَمْدَحُ الكاظمينَ الغيظ الذين صار الكظم من أخلاقهم، ولو كان المراد العطف على صفات المتقين لكان النسق يقتضي أن يقول: والذين يكظمون الغيظ، كما قال تعالى في وصف المتقين:

﴿الذين ينفقون في السرّاء والضَّرّاء﴾.

وقد علمنا من مختلف النصوص أنّ ثواب الأبرار في الجنة فوق ثواب المتقين.

وفوق كظم الغيظ الذي هو سلوك خُلُقيٌّ مصاحبٌ لمَا يَغِيظ من إساءة يأتي العفوُ عن المسيئين من الناس، وهذا العفو الذي يغدو خُلقاً لبعض الأبرار المتقين هو من مرتبة الإحسان، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلَّ في النّصّ:

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

أي: وأمدحُ العافِينَ عن الناس وأمنحهم محبَّةً منيّ، إذ ارْتَقَوْا إلى مَرْتبة المحسنين ﴿واللَّهُ يُحِبُّ المحسنين﴾ وقد علمنا من مختلف النصوص أنّ ثواب المحسنين في الجنة فوق ثواب الأبرار.

بهذا الفهم تظهر لنا روائع النصّ، ودَلاَلاَتُه العميقة، وما كان هذا يتيسَّر لولا الجمع بين النصوص.

* * *

القاعدة التاسعة عشرة

«حول تردّد النص القرآني بين دلالتين أو أكثر»

إذا تردّد النصّ القرآني بين دلالتين أو أكثر، كدلالة أصلية لغوية، ودلالة عربية شائعة في العرف العام، أو دلالة عرفية شائعة في الاستعمالات القرآنية وبيانات الرسول ﷺ، أو دلالة هي من قبيل التوسع في المفهوم، كالانتقال من الحسيّات إلى المعنويات أو المجرّدات، ومن المعاني الحادثة إلى المعاني الأزلية، أو دلالة مجازيّة ممّا استعمله العرب.

فالدلالة التي ينبغي المصير إليها واعتمادها في فهم معنى النصّ، هي التي تطابق الواقع، أو تؤيدها البراهين العقلية، أو التي لا إشكال فيها فلا تحتاج إلى تأويل بخلاف غيرها، أو التي تنسجم مع سوابق النصّ ولواحقه، أو التي تتفق مع المفاهيم القرآنية والأصول الإسلامية الثابتة بيقين.

أمّا إذا تكافأت الدلالات فالدلالة الأصلية اللّغوية هي المرجّحة، وتبقى الدلالات الأخرى احتمالات مرجوحة، حتى يأتي من الأدلة ما يرفع قيمتها إلى التساوي، أو الرجحان، أو الاعتماد بصفة جازمة. وعند الحاجة إلى إخراج اللفظ عن أصل دلالته يُصَار إلى أقرب المعاني اللّصيقة بالمعنى الأصلي، وإذا أمكن أن يكون هذا المعنى ممّا عمّت به الدّلالة حتى غدا حقيقة في العرف فهو الأولى، والأحق بالفهم.

* * *

الأمـــثـــلـــة

المثال الأول: (المكر):

١ ـ في قول الله تعالى في سورة (الأنفال /٨ مصحف /٨٨ نزول):

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (النمل /٢٧ مصحف /٤٨ نزول):

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (الأعراف /٧ مصحف /٣٩ نزول):

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

٤ ـ وقول الله تعالى في سورة (يونس /١٠ مصحف /٥١ نزول):

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

ونحو ذلك.

بحثنا عن المعنى الأصلي اللّغوي للمكر فوجدنا أنه تدبير أمرٍ في خفاءٍ، ومعلوم بداهة أنّ ما يدبّر في الخفاء لا يلزم أن يكون شرّاً، بل قد يكون خيراً.

ثم اكتسب المكر في تصوّرات العامة أو في العرف العام بعد ذلك صورة قبيحة مستهجنة، تخصيصاً منهم للمكر في تدبير ما هو شرّ.

وسيطر هذا المعنى الجديد على أفكار بعض المفسّرين، فوجدوا إشكالاً في نسبة المكر إلى الله، فلجأوا إلى تأويل ذلك بأنه من باب المشاكلة. ولو أنهم أبعدوا عن تصوّرهم هذا المفهوم المستحدث، ورجعوا إلى أصل المعنى اللّغوي، لظهر لهم أنّ (المكر) الذي هو تدبير أمر في خفاء قد يكون مكراً في الخير، وقد يكون مكراً في الشرّ، وجانب الخير منه لا ينافي الكمال بل هو من عناصره، إنّ الحاكم العادل يمكر ومكره لا يكون إلّا في الخير، إنّه يمكر بالمجرمين حتى تقبض عليهم يد العدالة، والمسلم الملتزم بإسلامه يمكر، ومكره يكون في الخير ومرضاة الله تعالى. والله جلّ وعلا يمكر وهو خير الماكرين.

ولذلك ذمّ الله في القرآن المكر السيء، ولم يذمّ مطلق المكر، فقال تعالى في سورة (فاطر /٣٥ مصحف /٤٣ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ . . . ٤٣﴾.

ولمّا كان الأمر كذلك فقد وجب المصير إلى المعنى الأصلي اللغوي حتماً، ولا حاجة بنا إلى إخراج اللفظ عن أصل دلالته اللّغوية، يضاف إلى ذلك أن هذا الإخراج يوقعنا في الإشكال، ويجعلنا في حاجة إلى التأويل، إنّه لغط لا داعي له.

* * *

المثال الثاني: (الكيد):

١ ــ في قول الله تعالى في سورة (الطارق /٦٨ مصحف /٣٦ نزول):

﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (يوسف /١٢ مصحف /٥٣ نزول):

﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ . . . ٧٦﴾.

٣ ـ وقول الله تعالى في سورة (الأعراف /٧ مصحف /٣٩ نزول):

﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾.

٤ ـ وكذلك في سورة (القلم /٦٨ مصحف /٢ نزول) آية (٤٥).

جاء في معنى (الكيد) لغة ما يلي: الكيد: الاحتيال والاجتهاد. الكيد: التدبير بباطل أو حقّ. الكيد: الحرب. وتأتي كاد بمعنى طلب وأراد وغير ذلك من معانٍ. (انظر لسان العرب).

ونستطيع أن نقول: إنّ هذه المعاني تدور حول اتخاذ أعمال وتدبيرات توقع الآخرين بما يكرهون. وبأدنى تأمّل يتضح لنا أنّ اتخاذ مثل هذه الأعمال قد يكون في الخير وقد يكون في الشرّ، وجانب الخير منه لا يكون منافياً للكمال، بل هو من عناصره.

فإذا شاع في تصورات العامة، أو في العرف العامّ، أو كان أحد المعاني اللغوية، تخصيص الكيد في الصورة القبيحة المستهجنة التي لا تليق بكمال صفات الله جلّ وعلا، فلا يصحّ أن يسيطر هذا المعنى على متدبّر ما نسب إلى الله في القرآن من (الكيد)، حتى يلجأ إلى التأويل بالمشاكلة أو غير ذلك، ما دام باستطاعته أن يجد في المعاني اللّغوية الأصول ما لا يتنافى مع كمال صفات الله عز وجل، بل هو ينطبق على ما نعلم بالنصوص القطعية الأخرى وبالبراهين العقلية من صفات الله تعالى.

وبناء على هذا نقول: إنّ الكافرين يكيدون في الشر، لأنهم يعملون بمكايدهم لإدحاض الحق وإقامة الباطل في الأرض، أمّا الله تبارك وتعالى فإنّه يكيد في الخير، لأنّه لا يُصلح عمل المفسدين، بل يردّ كيد الكافرين إلى نحورهم، وينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه، ويؤيد أنصار الحق، ويأبى إلّا أن يُتمّ نوره ولو كره الكافرون والمشركون.

وينتهي بذلك الأمر دون إشكال، ولا تأويل، وتستقيم عمليّة التدبّر لكلام الله.

المثال الثالث:

صيغة (أَفْعَل) التي للتفضيل، الأصلُ عدم إخراجها عن بابها إلّا بدليل مرجّح، وعلى المتدبّر لكلام الله أن يبحث ويدقق في المعاني رجاء أن يصل ـ بتوفيق الله ـ إلى معنى صحيح لا ضرورة معه إلى إخراج الصيغة عن أصل دلالتها، وقد يكون هو المعنى المراد والله أعلم. مثل:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (المائدة / ٥ مصحف /١١٢ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)﴾.

٢ ـ وقول الله تعالى في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)﴾.

فقول الله تعالى: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ لا داعيَ لإخراج أفعل التفضيل فيه وهو «أقرب» عن بابه، وذلك لأننا نستطيع أن نفهم التفضيل بوجه صحيح فنقول:

إن اتخاذ سبيل العدل مع أعداء الإسلام والمسلمين أقرب للتقوى من تركه على تصوّر أنّ ترك العدل مع هؤلاء الأعداء قد يخدم الإسلام والمسلمين أكثر من العدل. وإذْ تردّد الأمر بين احتمالين لكلٍّ منهما وجهة نظر قد يقال فيها: إنّها لا تتنافى مع التقوى، لكنّ الله يبيّن لنا أن العدل ـ رغم كونه مع أعداء الإسلام والمسلمين الذي هم أعداء الله ـ هو أقرب للتحقق بتقوى الله، أو بكمال التقوى في

هذا المجال، لأنّ الله يحبّ ألاّ يظهر من المسلمين إلاّ صفة العدل، إذْ هم يطبّقون في سلوكهم تعاليم الإسلام، ويقدمون بذلك صورة عملية عن دينهم، فهم بهذا التطبيق يبشّرون عمليّاً بدين الله، والتبشير بهذا الدين والدعوة إليه من أوليات مطالب الإسلام من المسلمين، وهو في منهج الدعوة أرجح من التخلّص من الأعداء.

وقول الله تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ لا داعي فيه أيضاً لإخراج «أقرب» وهو أفعل تفضيل عن بابه، وفيما يلي بيان ذلك:

الموضوع يتناول إمتاع المرأة المطلقة قبل الدخول بها، فإن كان الزوج لم يفرض لها مهراً، فقد أمر الله الزوج المطلّق بإمتاعها ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقّاً على المحسنين﴾ وهذا الامتاع هو من قبيل المواساة، لذلك فهو حق على المحسنين، أي فهو إلزام بإحسان.

قال ابن عباس: متعة الطلاق: أعلاه الخادم، ودون ذلك الورِق، ودون ذلك الكسوة[1].

وقال الشافعي: لا يجبر الزوج على قدر معلوم إلاّ على أقلّ ما يقع عليه اسم المتعة[2].

وإن كان الزوج قد فرض لها مهراً معيّناً فقد جعل الله المتعة اللازمة نصف المهر المفروض.

ونقول: إنّ أصل المهر في معناه نحلةٌ ألزم الله بها الزوج، فهو عطية وهبة واجبة، لكنّ الزواج الذي رافقه المهر يفضي إلى انتفاع الزوج بزوجته بما هو غرض النكاح.

فإذا طلق الزوج زوجته قبل أن يدخل بها أي قبل أن ينتفع منها بأي استمتاع، فالأمر متردد بين حقّ الزوج الذي لم ينتفع بشيء فليس عليه أن يدفع

---

(١) و(٢) انظر ابن كثير في تفسيره.

أي شيء، وبين حق الزوجة التي آذاها الطلاق، فمن حقها أن تواسى، فاشتبه الأمر بين حقّين، وقد جاء الحلّ القرآني بالإلزام بالإمتاع، أو بنصف المهر إحساناً. فالعمل بهذا من التقوى، ولكن الأقرب إلى كمال التقوى أن تعفو المطلقة فلا تأخذ شيئاً من المهر المفروض لأنّ الزوج لم يستمتع بها، والأقرب إلى كمال التقوى أن يعفو الزوج فيبذل كامل المهر المفروض ولا يطالب بإعادة نصفه إذا كان قد بذله سابقاً، نظراً إلى أنّ الزوجة قد تعرّضت للأذى بسبب الطلاق الذي مارسه الزوج فصارت تعتبر بين الناس مطلقة، والمهر بالأساس فيه معنى النحلة أكثر مما فيه معنى المعاوضة، لأنّ المنفعة الزوجية متبادلة غالباً.

ويخطر لي في قوله تعالى: ﴿ولا تنسَوا الفضل بينكم﴾ أنّه يتضمّن زيادة حثّ للأزواج على العفو، لأنّ الله قد فضّل الرجال على النساء، كما قال تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

ومن فضّله الله أحرى بأن يكون هو السابق إلى العفو، والنهي عن النسيان هنا أمر بتذكّر هذا الفضل الداعي إلى العفو المطلوب.

والمفسّرون يرون الفضل هنا بمعنى البذل والعطاء العامّ، وأرى المناسبة ترجّح ما خطر لي والله أعلم.

* * *

المثال الرابع:

«الاستهزاء» في قول الله في شأن المنافقين في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾.

فالله تبارك وتعالى قد ذكر في هذا النصّ أنه يستهزىء بالمنافقين عقوبة لهم على استهزائهم بالمؤمنين، وأقرب المعاني إلى المعنى الأصلي للاستهزاء أن نقول: إنّ الله عزّ وجل يعاقبهم بمثل عملهم، فيضعهم في موقف يكونون فيه محل استهزاء المؤمنين بهم، كما كانوا يستهزئون بالمؤمنين.

ولما كان هذا العقاب ـ الذي جعلهم مستهزأً بهم من قبل المؤمنين ـ هو من أفعال الله تعالى صحّ أن يُنْسَب الاستهزاء إليه. كما يقال لمن مكّن غيره من قتل إنسان: إنّه قاتل. ولمن هيّأ الوسائل لإطعام قوم: إنه قد أطعمهم. ولمن حكم على رجل بالسجن: إنه قد سجنه، مع أن الذي باشر أخذه إلى السجن ودسّه فيه هم العسكر وليس الذي حكم عليه بالسجن.

ومثل هذا شائع في عرف الاستعمال شيوعاً عظيماً، حتى لا يبعد أن يقال: إنّ دلالة اللفظ عليه من الحقائق العرفية لا من المجاز.

* * *

المثال الخامس:

التوسع في دلالات الألفاظ ظاهرة مستفيضة في القرآن الكريم، كالانتقال من الحسيّات إلى المعنويات أو المجرّدات، ومن المعاني الحادثة إلى المعاني الأزلية.

● فالباب وجمعه الأبواب: أصله في الحسيّات معروف، وتوسع القرآن في معناه من الحسيّات إلى المعنويات، فمن ذلك قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام /٦ مصحف /٥٥ نزول):

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ . . . ﴿٤٤﴾ ﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر / ٥٤ مصحف / ٣٧ نزول):

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون /٢٣ مصحف / ٧٤ نزول):

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

● والحبل: أصله في الحسيّات معروف، واستعمل للدلالة على القرآن، والأمور المعنوية الواصلة بين جهتين.

● والإيلاج: أصله في الحسيّات إدخال شيء في شيء، واستعمل بتوسع في إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل.

● والإنزال: أصله في الحسيّات إنزال شيء من أعلى إلى أسفل، واستعمل بتوسع في الإنزال المعنوي، ومنه إنزال الحديد، وإنزال الآيات التي منها قلب العصا حية تسعى.

● والختم: أصله في الحسيّات، ومنه ختم الكتاب بالطين لتأمين إيصاله دون فضّ، واستعمل بتوسع في الختم المعنوي، ومنه الختم على القلوب.

● والموت والحياة: في الحسيّات أمران معروفان، واستعملا بتوسع في المعنويات، فاستعمل الموت بمعنى موت القلوب بالكفر، واستعملت الحياة بمعنى حياة القلوب بالإيمان والعمل الصالح.

● كلمة فَوْق: أصلها في الحسيّات علو شيء على شيء، واستعملت في العلو المعنوي، ومنه ﴿جاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا﴾ (سورة آل عمران: آية ٥٥).

● التضرّع: أصله في الحسيّات خفض ولد الدابة رأسه إلى ضرعها ليرضع منه، واستعمل بتوسع للدلالة على معنى التذلل والخضوع.

● الظلمات والنور: في الحسيّات معروفة، واستعملت بتوسع للدلالة على الضلالة والهدى.

● العمى والبصر: في الحسيّات معروفان، واستعملا بتوسع للدلالة على الكفر والإيمان.

● الأكل: هو المضغ بالأسنان والبلْعُ، واستعمل بتوسع للدلالة على أخذ الأموال، وإنكار الحقوق.

● الصراط: الطريق، السبيل: في الحسيّات معروفة، واستعملت بتوسع في المعنويات، حتى كانت في المعنويات هي الأغلب.

● وغير ذلك كثير.

* * *

المثال السادس:

استخدم القرآن ألفاظاً عربية، وجعل لها مصطلحات شرعية، ذات دلالات خاصة تعرف من نصوص الشريعة؛ مثل: الصلاة ـ الزكاة ـ الحج ـ الصوم ـ الجهاد ـ التوبة ـ الإنابة ـ الإخلاص ـ النفاق ـ الوضوء ـ الغسل ـ الجنابة... إلى غير ذلك من ألفاظ كثيرة.

● ● ●

القاعدة العشرون
«حول القَسَم في القرآن»[1]

مقدمة عامة

على متدبر كتاب اللَّهِ عزّ وجلّ أن يبحث فيما جاء فيه من قسم من عدّة وجوه:

الوجه الأول: أن يبحث بأناة وتفكّر وسبر قرآني ليكتَشِفَ المناسبة بين الْمُقْسَمِ بِهِ والْمُقْسَمِ عليه.

فمن شأن التَّدَبُّر المتَّأَنِّي أَنْ يَكْشف للمتدبّر الترابطَ البديع القائم على المناسبة الحكيمة بين المقسَمِ بِهِ والمقْسَمِ عليه، والْمُرَادَ من الْمُقْسَمِ به والْمُقْسَمِ عليه إذا كان أحدهما أو كلاهما محتملاً لعدَّةِ تفسيرات.

الوجه الثاني: أن يبحث بأناةٍ وتفكُّر ليكْتَشف الغرض من القسم.

وأغراض القسم تدور حول ما يلي:

١ ـ تأكيد خَبَرِ القضيَّةِ أو أخبار القضايا التي اشتمل عليها الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ، وهذا الغرض ملاحظ دائماً مع ما يجتمع معه من أغراض أخرى.

---

(١) بحث العلماء السابقون في «أقسام القرآن» وذكر السيوطي في الإتقان أن ابن القيم أفرد هذا النوع بالتصنيف في مجلّد سمّاه «التبيان» لكنني لم أجد فيما اطلعت عليه مما كتبه السابقون هذه النظرة الشاملة التي فتح الله بها عليّ، نتيجة السَّبْر للقَسَم في القرآن، والتأمّل في الأقسام القرآنية بأناةٍ وتعمّق، والحمد لله على ما فتح به عليّ.

٢ ــ الإشعارُ بأنَّ الْمُقْسَمَ بِهِ أمْرٌ عظيم، وذلك عن طريق لازم معنى القَسَم، إذْ لا يُقْسِمُ الحكيم إلاَّ بأمْرٍ عظيم.

٣ ــ التنبيه على ما في الْمُقْسَمِ به من أدلَّةٍ وآيات جليلات، من تفكّر فيها وكانَ مؤهّلاً للاستنباط العلمي تمكّن بتوفيق الله من اكتشافها ولو بعد حين، وكانت هاديةً له عن طريق لوازمها العقلية إلى التّسليمِ بالْمُقْسَمِ عليه، عن طَرِيقِ إثبات عَظَمَةِ الْمقْسِمِ بها، باعتبارها من آثار كمال قدرته وعلمه، وعظيم حكمته.

٤ ــ بيان ارتفاع منزلةِ الْمُقْسَمِ به عنْد الْمُقْسِمِ، إشعاراً لَهُ ولغَيْرِهِ بأنّه حبيبٌ لديه، أو أثير عنده، أو ذو مكانة رفيعة ومنزلة عالية بين خاصّته والمقرّبين إليه، ويظهر هذا الغرضُ في قَسَمِ اللَّهِ عزّ وجلَّ بِرَسُوله.

٥ ــ التحبُّبُ وتطييبُ الخاطر، ويظهر هذا الغرض حين يتعرض المحبوبُ لما يُثيرُه، ويُزْعجُ خاطِرَهُ، فيكونُ من الحكمة تطييبُ خاطِرِهِ بالقسم له على نفي حدوث ما يكرهُ أو إثبات وجود ما يحب، كما نلاحظ ذلك في سورة (الضحىٰ).

الوجه الثالث: أن يبحث في النصّ الذي ورد فيه الْقَسَم، ليكتشِفَ مَنْ هُمُ المقصُودون بالخطاب به، هل هم الكافرون؟ أو المؤمنون؟ أو الناس جميعاً؟ أو فئة خاصّة من الناس؟.

الوجه الرابع: أن ينظرُ في حال المخاطبين الَّتي اقتضت التأكيد لهم بالقسم.

الوجه الخامس: أنْ ينظرُ في الحكمة التي اقتضت في بعض الأقسام أن تأتي مسبوقة بحرف النفي، مثل «لا أقسم».

* * *

الشرح

أوَّلاً:

شرح الوجه الأول: «المناسبة بين الْمُقْسَمِ به والْمُقْسَمِ عليه»:

على متدبّر كتاب اللَّه عزّ وجلّ أن يبحث بأناة وتفكر وسبْرٍ قرآني عند الحاجة إليه ليكتشف المناسبة بين الْمُقْسَمِ به والْمُقْسَمِ عليه.

فمن شأن التدبُّر المتأنّي أن يكشف للمتدبّر الكُفءِ الترابُطَ البديعَ القائم على المناسبة الحكيمة بين الْمُقْسَمِ بِهِ والْمُقْسَمِ عليه. وأن يكتشف المراد من الْمُقْسَمِ بِهِ، إذا كان مُحتَمِلاً من جهة اللَّفْظِ لِعِدَّة تَفْسِيرات، والْمُرَادَ من الْمُقْسَمِ عليه، إذَا كان محتملاً أيضاً من جِهَةِ اللَّفْظ لعدَّةِ تَفْسِيرات.

* * *

الأمــثــلــة

المثال الأول:

في أوَّل قَسَمٍ نَزَل في القرآنِ العظيم بحسب ترتيب النزول، أقسم اللَّهُ عزّ وجلّ بالقلم وبما يَسْطُر الكاتبون، على أنّ القرآن حقٌّ منزّل من عند الله، فما محمَّد بنعمة الله عليه بتنزيل هذا القرآن عليه بمجنون.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (القلم/٦٨ مصحف /٢ نزول):

﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

لدَىٰ التدبُّر والتفكُّر في هذا الْقَسَمِ نلاحظ المناسبة جليَّةً واضحةً بين الْمُقْسَمِ به، وهو: «القلم وكلّ ما يسطُر الكاتبون في الصحف» وبين المقْسَمِ عليه، وهو: «أنّ الرسول محمداً ﷺ ليس بمجنون في ادّعائه أنّ القرآن الذي يُبَلِّغه عن ربّه هو تنزيلٌ من عند الله».

فالقرآن كتاب مسطور في اللّوح المحفوظ، ومطلوبة كتابتُه وتسجيله في صحف وسجلاّتٍ بشريَّةٍ يُحْفَظُ فيها عن التحريف والتغيير، ويكون بين الناس كتاباً

مسطوراً يَتْلُونَ آياته، هُدىً ونوراً مبيناً، يفرق بين الحقّ والباطل، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، صراط الله العزيز الحميد.

فالْقَسَمُ بالقلم وبما يَسْطُرُ السّاطِرُونَ، فيه تَمْجِيدٌ لأداةِ كِتابَةِ رُموز المعارف، وتسجيل العلوم التي يَرِثُها الخلَفُ عن السلف، تَبَعاً لِمَجْدِ العلم الذي فضّل الله به وبوسائل اكتسابه ووسائلِ حفظِه وتسجيلِهِ الإنسانَ على كثيرٍ ممَّن خَلَق تفضيلاً كثيراً، حتى أمر الملائكة بالسجود لآدم، أبي البشر.

ويشتمل الْقَسَمُ بالْقَلَمِ وبما يَسْطُر السّاطِرُونَ على دَلَالةٍ لُزوميّة، ينتقل الفكر إليها عَن طَرِيق اللزوم الذهني، وهذه الدلالة اللزومية تقولُ للمكذّبينَ بأنّ الْقُرْآنَ كلامُ الله:

قارنُوا بين هذا القرآن وبين ما يُحَبِّرُه ويكتُبُه الناس بأقلامهم ويَسْطُرُونه في كُتبِهم وصحفهم من مكتوبات عظيمات نفيسات تَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْسَمَ بها في تقديركم تعظيماً لها، فإنَّكم ستجدون أنّها لن تَرْقَىٰ منفردة ولَا مجتمعة إلى مستوى سورة واحدة من سور هذا القرآن المجيد.

إذن: فهو ليس كلامَ بشر، وليس من عند الرسول محمّد ﷺ، بل هو تنزيل من ربّ العالمين.

إذن: فليس محمد بهذه النعمة العظيمة، نِعْمَةِ القرآنِ الكريم، التي أنزلها الله عليه، واصطفاه الله لحملها للناس، بمجنُون.

كيف يكون مجنوناً ــ كما يزعُمُ المفتونون ــ وهو يبلّغُ عن ربِّه هذا القرآن المجيد؟!.

إذن: فلا يستقيم لكم أيُّها المكذبون ــ على أيّ مقياسٍ عقليّ ــ أن تَتَّهِمُوا رسولكم محمّداً بالجنون، وهو يبلّغ هذا الكتاب العظيم عن ربّه. وقد ظهرت لَمَحَاتُ عَظَمةِ هذا القرآن لكم مُنْذُ السورة الأولى التي أُنْزِلت عليه، وسَتَظْهَرُ لكم بعد هذه الدفقة الأولى من بحره العظيم، أمواجٌ كالجبال، وآفاقٌ بعيدة المدى، وأغوارٌ وأعماق، فوجِّهُوا أفهامكم واعقلوا.

هذه اللوازم تستدعيها سلسلَةُ الأفكار، بإشارات النصّ، وبدليل ما نَزَلَ من القرآن بعد ذلك.

فظهر لنا بهذا الشرح المستند إلى استنباط سلسلة اللوازم الفكرية ما بين الْمُقْسَمِ بِهِ، والْمُقْسَمِ عليه من تناسبٍ وتلاؤمٍ تامَّيْن. ووضحت لنا الحجَّةُ الهاديَةُ إلَىٰ إثبات أنَّ هذا القرآنَ تنزيلٌ من ربّ العالمين، وأنّ مقالةَ المكَذِّبينَ للرسُول محمَّدٍ ﷺ مقالةُ افتراءٍ ظاهر، وشتيمةٍ من شتائم السُّفَهاء، وسبٍّ ساقط، وهي تدلُّ على أنّ قائلها هُو المفتون، الجديرُ بأنْ يُدْمَغَ بالجنون.

* * *

المثال الثاني:

وفي خامس قَسَمٍ نزل في القرآنِ بحسب ترتيب النزول أقْسَمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بالفجر، وبليالٍ عشر، وبالشَّفْعِ والْوَتْرِ، وباللَّيْلِ إِذَا يَسْرِي، عَلَىٰ أَنَّه لَبِالْمِرْصَادِ لكُلِّ الطُّغَاةِ في الأَرْضِ، لتحقيقِ سنّته في العقاب المعجَّلِ في الدنيا، للَّذين يَصِلُون إلى مثل أحوال السابقين الذين نزلَتْ بهم نوازل الإهلاك العامّ، عقاباً مُعَجَّلاً لهم على طغيانهم، كعادٍ، وثمود، وفرعون وقومه.

فقال الله عزّ وجَلَّ في سورة (الفجر / ٨٩ مصحف / ١٠ نزول):

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾.

ذكر أهل التأويل أقوالاً مُتَعَدِّدَةً في تفسير المراد من أفرادِ الْمُقْسَمِ بِهِ في هٰذِهِ السُّورة، وليس في واحد من هذه الأقوال بيان عن الرسول ﷺ.

وظاهرٌ أنّ الله عزّ وجلّ أَتْبَعَ القسمَ بـ ﴿الفجر ـ وليالٍ عشر ـ والشَّفْعِ

والوتر ـ واللَّيل إذا يسر﴾ بتوجيه النَّظر إلى إهلاك عادٍ وثمود وفرعون وجنوده، لأنَّهم طغَوْا في البلاد فأكثروا فيها الفساد.

ثم ذكر سبحانه المُقْسَمَ عليه، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أي: كما فعل بهؤلاءِ الَّذين أهلكهم هو بالمرصاد لأمثالهم، فهذه هي سنّةُ اللَّهِ في الناس.

وقَدْ تتبَّعْتُ في القرآنِ الكريم أزمنة إهلاك اللَّه عزّ وجلّ هؤلاء المهلَكِينَ الّذِين ذكرهم الله في هذه السورة، فرأيتُ أنَّهم قَدْ أُهْلِكُوا في الأوقاتِ الّتي أقْسَمَ الله بها في صدر السورة، فوضحت لي المناسبة جَلِيَّةً بينَ الْمُقْسَمِ به والْمُقْسَمِ عليه. وهي كما يلي:

١ ـ لقد أهلك الله عزّ وجلّ ثموداً قوم صالح عليه السلام بالصيحة مصبحين، أي: عند الفجر، فقال الله عزّ وجلّ بشأن إهلاكهم في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

٢ ـ وسار بنو إسرائيل من مصر بقيادة موسىٰ عليه السلام، في ليالٍ عشر، من أوّل المحرّم، في اتّجاه البحر، إلى صحراء سيناء، فارّين من فرعون وجنوده.

فلمَّا علم بهم فرعون، جنَّدَ جنوده، ولَحِق بهم، حتّى تَرَاءَىٰ الجمعانِ مُشرقين (أي: عند شروق الشمس).

وذُعِرَ بنو إسرائيل من جيش فرعون بعدَدِه وعُدّتِهِ، ورأَوْا أنَّهم محصورون، الْعَدُوُّ وراءهم، والبحرُ أمامهم.

وحطّ الجيش الفرعونيُّ رحاله، استعداداً للهجوم على بني إسرائيل من الغد، إذْ لا مفرّ لهم إلاّ بأن يعبروا البحر ويهلكوا فيه، بحسب تصور فرعون وقادة جيشه اللّجِب، أو الوقوع في الأسر والتعذيب.

وأمر الله عزّ وجلّ موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه، ففعل، فأرسل الله ريحاً باردة شديدة، فشقّت البحر، وفلقته، فكان كُلُّ فرقٍ كالطّودِ العظيم، وجعلته جليداً يابساً في مكان الفرق للعبور، ودخل موسى وهارون عليهما السلام،

ومعهما بنو إسرائيل يعبرون البحر.

وهال فَرعَوْنَ وجنودَه أن يفلتَ الإسرائيليُّونَ من أيديهم، وأَوْهَمُوا أنفسَهم أنّ الحدث قد كان ظاهرة طبيعيَّةً تجمّد بها الماء[1].

فتبعُوهُمْ ليلاً، ودخلوا وراءهم مكابرين من حيث دخلوا، وانتهىٰ خروج أواخر بني إسرائيل قبيل الفجر من ليلة العاشر من شهر محرّم، واستكمل فرعون وجنوده الدخول في مكان الفرق من البحر ملاحقين بني إسرائيل، والبحر ساكن جامد، إذْ أمر الله موسى عليه السلام أن يترُكَ البحر رَهْواً، أي: ساكناً متجمّداً منفرجاً عند مكان العبور إغراءً للعدوّ.

ثمّ أمر الله موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر، فضرب، فذاب الجليد، والتأم الماء، وغرق الجيش الملاحقُ كلُّهُ عند الفجر.

وكانت أحداث هذه اللّيالي العشر، من أوّل المحرّم حتى العاشر منه، التي انتهت بنجاة بني إسرائيل، وإهلاك فرعون وجنوده عند الفجر، أحداثاً عظيمة تستحقُّ أن يُقْسِمَ الله بها، أي: بتقديره، انتصاراً لأوليائه، وخَذْلاً وتعذيباً وإهلاكاً لأعدائه.

وجاء القسم بالزمن إشارة إلى الأحداث التي جرت فيه بقضاء اللّهِ الحكيم.

---

(١) هذا ما وضح لديّ من خلال الأدلة التالية:

١ ــ قال ابن كثير في كتابه «قصص القرآن» ص «٣٠٤» طبعة دار الحديث: «وأمر الله ريح الدبور، فلفحت حال البحر فأذهبته، حتى صار يابساً لا يعلق بسنابك الخيول والدّواب».

٢ ــ والدبور هي الريح التي أهلك الله بها عاداً، فقد روى البخاري عن ابن عباس، أن النّبي ﷺ، قال: «نُصرتُ بالصّبا وأُهلكت عادٌ بالدبور».

٣ ــ وقد وصف الله الريح التي أهلك بها عاداً بقوله في سورة (الحاقة ٦٩): ﴿وأمّا عادٌ فأهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية﴾ (الآية: ٦)، والريح الصرصر: هي الريح الشديدة الباردة.

٤ ــ وجاء في عرض قصة موسى في سورة (الدخان ٤٤) أن الله قال له: ﴿وَاتْرُكِ البحر رَهْواً إنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقون﴾ (الآية: ٢٤)، رهواً: أي: منفرجاً وساكناً، وحين يجمد الماء يصير ساكناً. وما أوحى الله لموسى كما جاء في سورة (طه ٢٠): ﴿أن أَسْرِ بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يَبَساً...﴾ (الآية: ٧٧)، وفي اللغة: اليبس: المكان يكون رطباً ثم ييبس. =

٣ ــ وأهلك الله عزّ وجلّ عاداً قوم هودٍ عليه السلام، إذْ بعث إليهم عند الفجر ريحاً صرصراً عاتية، سخّرها عليهم، واستمرّت سبع ليالٍ وثمانية أيّامٍ حسوماً، أي: متتابعة متوالية حتى تحسم مادّتهم، وتقطع دابرهم.

فهي أيّامٌ ثمانيةٌ هي «شفع» وليالٍ سبع هي «وتر» بدأت مع الفجر من اليوم الأوّل، وانتهت عند الغروب من اليوم الثامن، وبينهما ليالٍ سبع. وهي على ما يبدو ما أشار إليه القرآن في السورة، بقول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿والشّفْعِ والوَترِ﴾.

إذن: فالفجر هو الزمن المختار لإهلاك هؤلاء الأقوام. فأقسم الله عزّ وجل به.

والليالي العشر هي مدّة مسير موسى عليه السلام بقومه حتّىٰ نَجَوْا وعبروا البحر، ومُدَّةُ لحاقِ فرعون وجنوده لهم، حتى هلكوا غرقاً، وأقسم الله عزّ وجلّ بها.

والأيام الشفع الثمانية والليالي الوتر السبع هي المدّة التي أرسل الله عزّ وجلّ فيها الريح الصرصر العاتية على عاد، فقطعت دابرهم، فأقسم الله بها.

والليل إذا يسري، يُشير إلى تبييت الله عزّ وجَلّ من يريدُ إهلاكهم، إذْ يجعل ليل الإهلاك يسري بِهُدُوءٍ، حتّىٰ إذا كان وقت الفجر فوجىء المقرَّرُ إهلاكهم بما به يُهْلَكُون، وقد كانت ليالي هؤلاء الْمُهْلكينَ، الّذِينَ أُهْلِكوا عِنْدَ الْفَجْرِ كذلِكَ، كلُّ ليلةٍ منها قد جاءت تسري بهدوء. فأقسم الله بالليلِ إذا يَسْرِي، الذي يعقبه أحداث الإهلاك عند الفجر، لمافيه من حكمة التقدير بين متباينتين: ليل يسري بهدوء، وأحداث عظمى مدمّرة عند الفجر.

والقسم بهذه الأزمنة كنايةٌ عن القسم بالأحداث الّتي جرَت فيها، والقسمُ بالأحداث هو كناية عن حكمة اللّهِ التي قَضَتْ بها، وقُدْرَتِه التي نفّذتها، وعلمه الذي أحاط بكل شيء.

= ٥ ــ وجاء في سفر الخروج «الإصحاح الرابع عشر»: (٢١) ومدَّ موسى يده على البحر، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كلّ الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء (٢٢) فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم (٢٣) وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم.

وكان القسم بهذه الأوقات توطئة لذكر ما فعل الله بعادٍ وثمود وفرعـون، وكيف صبَّ اللَّهُ عليهم سَوْطَ عذاب.

أمّا الْمُقْسَمُ عليه في السـورة فهو القضيّـة الّتي تضمّنها قـول الله عزّ وجـلّ في السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أي: إنّ الله جلّت قدرته وعظمت حكمته لَبِالْمِرْصَادِ لكُلّ من يفعل مثل فعل هؤلاء الْمُهْلَكِينَ، فمن يقرّر الله إهلاكه ينزل بـه العذاب الْمُهْلِكُ في أيّ وقت من الأوقات التي يعيّنها بحكمته، وغالبـاً ما يـأتي الْمُهْلَكِينَ بياتـاً أو هم قائلون، كما جاء في نصوص قرآنية أخرى.

* * *

المثال الثالث:

وفي سـابـع قَسَمٍ نزل في القـرآن بحسب ترتيب النـزول أَقْسَم الله عـزّ وجـلّ بالعصر، وهو الزمن السيَّالُ من غَيْبِ المستَقْبَل إِلَىٰ غَيْبِ الماضي، ولا نعيش منه إلّا لحظة الحاضر، فمن لم يغنم من لحظة الحاضر لآخرته فهو إنسانٌ خاسر.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (العصر /١٠٣ مصحف /١٣ نزول):

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

إذا تفكّـرنا في الْمُقْسَمِ بِـهِ وَالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ في هـذه السورة وجَـدْنا المنـاسبـة ظاهرة جدّاً.

إنّ رأس مال الإنسان في الحياة الدنيا أمران:

(أ) لحظات عمره.

(ب) وطاقاته فيها.

وهذان الأمران ممتزجان كماءٍ سيّالٍ في خَـزّانِ المستقبل، وهـو محجوبٌ عن علم الإنسـان، إذ دُونَه جـدارُ الغيب، ومحتـوى الخـزّان يجـري من صُنْبـورٍ مفتـوح لا يمكن إقفاله، ولا يمكن الانتفاع به إلّا لحظةً فلحظة، إذْ مـا يصبُّه الصنبـور يبتلعه الماضي، فلا يمكن استرجاعه.

هذا هو الوقت الذي يمرّ به عُمْرُ الإنسان، إنّه العصر الذي هو نهر الزمن السيّال من المستقبل إلى الماضي، والذي لا يستطيع الإنسان أن ينتفع منه إلّا بموجة الحاضر، فإذا انتفع منه لآخرته فهو القدر الذي لا يكون خاسراً له من رأس ماله، إذْ يحوّله من زمن سيّال، فيجعله شيئاً ثابتاً ذا قيمة خالدة، ويمنعه بذلك من أن يبتلعه الماضي إلى العدم.

وإلّا فهو خاسرٌ من رأسماله باستمرار، مدىٰ العصر، ما مرّتْ عليه لحظة من العمر.

فإذا فهمنا العصر في السورة أنّه الزمن، وضحت لنا المناسبة فيها بجلاء بين الْمُقْسَمِ بِهِ والْمُقْسَمِ عَلَيه، وظهر لنا كمال الترابط، على ما سبق بيانه.

* * *

الخلاصة:

فعلى المتدبّر لكتاب الله عزّ وجلّ، أن يتفكّر طويلاً، ويبحث بحثاً عميقاً، في كلّ قسم ورد في القرآن الكريم. رجاء أن يكتشف المناسبة الحكيمة بين الْمُقْسَمِ به والْمُقْسَمِ عليه.

* * *

ثانياً:

شرح الوجه الثاني: «**أغراض القسم في القرآن**»:

بالتأمُّل فيما جاء في القرآن المجيد من قسم ظهرت لي الأغراض التالية:

الغرض الأول: وهو الغرض الأساسي الذي قد يكون هو الغرض الوحيد، وقد يجتمع معه غرض آخر من سائر الأغراض.

وهو تأكيد خبر القضية أو أخبار القضايا التي اشتمل عليها الْمُقْسَمُ عليه. باعتبار أنّ القسم أسلوب بيانيٌّ يُؤْتَىٰ بِهِ لتأكيد الخبر الذي يُخْبِر به صاحبُ البيان، ويريد تأكيده للمخاطب به، بصيغة من صِيَغ التأكيد.

وهذا الغرض معروف لدى البلاغيين وعلماء العربية، فالقسم عندهم يؤتى به لتأكيد الخبر.

ويظهر هذا الغرض منفرداً حينما لَا يُذْكر في البيان الْمُقَسَمُ به، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (التكاثر / ١٠٤ مصحف / ١٥ نزول):

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

الغرض الثاني: الإشعارُ بأَنَّ الْمُقَسَم به أمرٌ عظيم، أو ذو صفات جليلة، أو وظائف مهمة وذات شأن عظيم وذلك عن طريق لازم معنى القسم، إذِ الْقَسَمُ بشيءٍ ما يُشْعِر لزوماً بعظمة هذا الشيء لدىٰ الْمُقْسِم به، أعني حالف القَسَم، أو يشعر بأنه ذو صفات، أو ذو وظائف عظِيمَة الخطر، كبيرة الشأن.

وهذا الْغَرَضُ يجتمع مع غرض التأكيد في مُعْظم الأحوال.

ومن أمثلة ذلك القسم بالملائكة الموكّلين بقبض أرواح الناس نزعاً أو نشطاً، والانصراف بها سبحاً إلى منازل ضيقها أو منازل انطلاقها، وهو الوارد في أوّل سورة (النازعات) فليس الغرض من القسم بها وهي من أمور الغيب تأكيد خبر البعث الذي هو غيب أيضاً للمكذبين به، إذ لا يؤكد أمرٌ غيبيٌ بأمر غيبي، بل يؤكد أمرٌ غيبيٌ بأمر مشهود، وإنما الغرض الإخبار بأنّ هذا الصنف من الملائكة صنف عظيم، وذو وظائف خطيرة، ويظهر أن الخطاب للمؤمنين مباشرة، ولغيرهم تعريضاً، ولذلك جاء بعد ذلك: ﴿يقولون: أئنا لمردودون في الحافرة﴾.

الغرض الثالث: التنبيه على ما في الْمُقْسَمِ به من أدلّة وآياتٍ جليلات، مَنْ تفكّر فيها وكان مؤهَّلًا للبحث والاستنباط العلمي تمكّنَ بتوفيق الله من اكتشافها ولو بعد حين، وكانت هادية له عن طريق لوازمها العقلية إلى التّسليم بالْمُقْسَمِ عليه، عن طريق إثبات عظمةِ الْمُقْسِمِ بها، باعتبارها من آثار كمال قدرته، ومحيط

علمه، وعظيم حكمته، فأخباره التي يُخْبِرُ بها عن قضايا غيبيَّةٍ هو موجدها ومقدّرها حقٌّ وصدق حتماً.

ومن هنا يأتي توكيد الخبر، وهو الْمُقْسَمُ عليه.

مثل معظم الأقسام القرآنية بالظواهر الكونية، التي يظهر فيها أنّ الغرض من الإقسام توجيه نظر المخاطبين إلى آيات ربوبيّة الله في كونه، فوحدانيته، فإلهيّته التي لا شريك له فيها، ثمّ إلى صدق رسوله المؤيّد من قبله بالمعجزة الباهرة، وإلى أنّ القرآن تنزيل من لدنه، وإلى أنّ الدار الآخرة والبعث بعد الموت للحساب والجزاء حقٌّ وصدق، فالمؤمن بالرّبّ الخالق لهذه الظواهر لا يشكُّ في الدينونة والجزاء يوم الدين، ولا يَشُكُّ في أن القرآن كلام ربّ العالمين، بلّغه عن ربّه الرسول الصادق الأمين.

ومن أمثلة هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشمس /٩١ مصحف /٢٦ نزول):

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

فَالْمُقْسَمُ عليه هو نتيجةُ الحسابِ وفَصْلِ الْقَضاءِ بتحديدِ الجزاءِ يَوْمَ الدِّين، وهذا لا يكونُ إلّا بعد البعث للحياة الأخرى.

والْمُقْسَمُ بِهِ ظواهِرُ كونية هي من آثار خلق الله العليم الحكيم القدير، الذي بيده ملكوتُ كلّ شيء.

ومن تفكّر في هذه الظواهر بإمعان وإنصاف، وتنقّل مع سلسلة اللوازم الفكرية، هَدَتْهُ إلىٰ الرّبّ الخالق وجليل صفاته، ومنها حكمته، والحكيم العليم الذي قد خَلَق الناس ذوي إرادات حُرّة، يتمكّنُونَ فِيها من فعل الخير والشرّ، والبرّ

والإحسان، والظُّلْم والعدوان، لا يُمكِنُ عَقْلاً أن يكون قد خلقهم عبثاً، دون أن يكونُوا مُمْتَحَنِين فيما مُكِّنُوا مِنْه، ولا يُمْكنُ أن يتْرُكَهُمْ سُدىً دون أن يُتَابعهم بمحاسبة ومجازاة في يوم قضاه وقدّره لذلك.

الغرض الرابع: بيانُ ارتفاع مَنْزِلَةِ الْمُقْسَمِ به عِنْد الْمُقْسِم، إشعاراً بأنّه حبيب لديه، أو أثير عنده، أو ذو مكانة رفيعة ومنزلةٍ عالية بين خاصّته والمقرّبين إليه.

ويُلْحَقُ بهذا إرادةُ الثناء علىٰ الْمُقْسَمِ بِه بأسلوب الْقَسَمِ به.

ويظهر هذا الغرض في إقسام الله عزّ وجلّ برسوله محمد ﷺ، إذْ خاطبه بقوله: «لَعَمْرُك» أي: وَحَيَاتِكَ.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر ١٥) وهي السورة الرابعة والخمسون بحسب ترتيب النزول، خطاباً لرسوله:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

يَعْمَهُون: أي: يتابعون سعيهم الجائر الخارج عن سواء الصراط في حياتهم على عَمَهٍ، والْعَمَهُ هو انطماسُ البصيرة، الذي ينجم عنه السَّيْرُ بِتَخبُّطٍ على غير هُدَى.

الغرض الخامس: التَّحَبُّبُ وتَطْييبُ الخاطر، ويظهر هذا الغرض حين يتعرَّضُ المحبوبُ لِمَا يُثِيرُهُ، ويُزْعِجُ خاطِرَه، فيكون من الحكمة تَطْيِيبُ خَاطِرِهِ، بالْقَسَمِ له على نفي حدوث ما يكره، أو على إثبات وجود ما يحبّ.

والناس في أساليبهم يستعملون ذلك، ونجد عند الشعراء من أمثلة ذلك الكثير مع من يُحبّون، لردّ ما يُشِيع الأعداء والحسَّادُ والعُذَّال.

ويظهر هذا الغرض في القسم الوارد في سورة (الضحى /٩٣ مصحف /١١ نزول):

قال الله عزّ وجلّ فيها لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾.

قَلَىٰ: أبغض.

فأقْسَمَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ بالضُّحَىٰ وباللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ، وهُمَا الوقْتَانِ اللَّذَانِ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَتَرَقَّبُ فِيهِمَا نُزُولَ الوحي، فاشتكىٰ الرسُول من عارِضَةِ مرض لَيْلَتَيْنِ أو أكثر من ذَلِكَ قليلاً، فتأَخَّرَ عَنْه الوحْيُ، فقال بعضُ أعدائه: إنَّ رَبَّ مُحمّدٍ قد تركَهُ أو أبغضه.

فاقتضت حكمةُ تطييبِ خاطرِ الرسول والتَّحبُّبِ له وتَهْدِئةِ نَفْسِهِ، مع إرادةِ مُكَايدَةِ أصحابِ الإشاعة المفتراة، أَنْ يُقْسِمَ اللَّهُ لَهُ عَلَىٰ نَفْيِ مَا أشاعوه، وأنْ يُضِيفَ إلى ذلك وَعْداً مؤكّداً بالْقَسَم نَفْسِه بِأَنّ الآخرة خيرٌ له من الأُولى، وبأنه سوف يُعْطِيهِ عطاءً عظيماً فوق ما يَتَصَوَّر، فيجد نفسه عَقِبَهُ قد رضي رضىً تامّاً، لا يَجدُ أَمَلاً يطلُبُ له المزيد.

* * *

ثالثاً:

شرح الوجه الثالث: «**التفكّر في المقصودين بإيراد الْقَسَمِ**»:

يلاحظ الناظر الباحث في أمثلة الْقَسَمِ في القرآن الكريم من جهة توجيه الخطاب فيه ما يلي:

الملاحظة الأولى:

حين يكون المُقْسَمُ به من الظواهر الكونية التي هي آثار خلق الله، ومظاهر كمال قدرته، وشمول علمه، وعظيم حكمته، يكون المقصودون الأولون بالخطاب غير المؤمنين، لأنهم هُمُ الذين يحتاجون إلى توجيه أفكارهم لآيات الله في خلقه.

كي تكون دليلاً وباعثاً لهم للإيمان بربوبيّته، فإلَهيّته، فلوازم ذلـك، ومن هذه اللوازم التصديق بالأخبار الغيبية التي يخبرهم بها، كـاليوم الآخـر وما فيـه، ومنها التصـديق بكتابه وبرسوله، وبما يُنبئُهم عنه من صفاته الّتي لا تهديهم إليها الظواهر الكونية.

الملاحظة الثانية:

وحين يكـون الْمُقْسَمُ بِهِ مثـل: «فلا ورَبِّـكَ» أو «فَوَرَبِّـكَ» أو «لَعَمْـرُكَ» يكـونُ المقصودُ الأول بالخطاب الرسول، ثُمَّ المؤمنون من بعده تبعاً له.

وقد يكون فيه تعريضٌ للآخرين.

الملاحظة الثالثة:

وحين يكـون الْمُقْسَمُ بـه مثـل: «ورَبِّ السَّمَـاء والأَرْض» أو «ورَبِّ المشـارق والمغـارب» بذكـر اسم «ربّ» مـع ذكر بعض الـظواهر الكـونية، يكـون المقصودون بـالخطاب المؤمنـون أوّلاً، ومعهم غيرهم تبعـاً، مثل قـول الله عـزّ وجـلّ في سـورة (الذاريات/٥١ مصحف/٦٧ نزول):

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

الملاحظة الرابعة:

وَجاء القسَمُ بعبارَة «فَوَرَبِّكَ» خِطاباً للرسول ﷺ، والمقصودُ إسمـاع الكافـرين بطريقٍ غير مباشر، لا يواجههم فيه بالخطاب لغرض من الأغراض البيانية، منها أنَّهم لَا يؤمنون إيماناً صحيحاً بربّه، حتَّى يُقْسِمَ لهم به.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/١٩ مصحف/٤٤ نزول):

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾.

وجـاء القسمُ بعبارة «فلا وربّك» خطاباً للرسول ﷺ والمقصودُ إسماع

المسلمين بطريق غير مباشر، لغرضٍ من الأغراضِ البيانية، منها التخفيف من وقع مضمون الخطاب الذي يريد إبلاغهم إيّاه.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (النساء /٤ مصحف /٩٢ نزول): خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

مع ما في هذا الخطاب للرسول من تَقْويةٍ لموقِعِهِ القيادي، وتدعيمٍ لسلطتِه في الحكم والقضاء، المستمدَّة من تَوْلِيَةِ اللَّهِ له، ورَبْطِ ذَلِك بالقاعدة الإيمانية مباشرةً.

* * *

رابعاً:

شرح الوجه الرابع: «**النظر في اختلاف الأحوال المقتضية للتأكيد بالقسم أو عدم التأكيد به**»:

تختلف أحوال المخاطبين من جهة إيراد الخبر لهم مؤكّداً بالقسم أو غير مؤكّد به، أو تكون حالهم مقتضية للتأكيد بالقسم من جهة، ومقتضية لعدم إيراد القسم من جهة أخرى في آن واحد.

فأحوال المخاطبين تختلف وفق البيان التالي:

(أ) فقد تقتضي الحال أن يأتي الخبر مقروناً بالْقَسَمِ الصريح الواضح لأحد أمرين:

الأمر الأول: أن يكون من يوجّه له القسم بحالَةٍ تحتاج إلى تأكيد، إذْ هو كما يقول البلاغيّون، منكر للخبر، أو شاكٌّ فيه، أو هو بمنزلة المنكر أو الشّاك، أو حالته

النفسيّة تحتاج إلى عبارة تحبُّب أو تَطْيِيبِ خاطر، أو تسلية، أو تكريم، أو تدليل، أو نحو ذلك.

الأمر الثاني: أن يكون من يُوَجّه له الْقَسَمُ بحاجة فكرية إلى لاَفت نظر إلى مواقع الأدلّة الّتي تهديه بِلَوَازِمِهَا إلى التصديق بالمضمون الخبري لِلْمُقْسَمِ عليه، مع كونه بحالةٍ نفسية تحتاج إلى تأكيد.

ومطابقة الكلام لمقتضى حال هذا الفريق من الناس تظهر في النصوص القرآنية التي اشتملت على القسم بظواهر خلق الله في كونه.

ويلاحظ أنّ الدليل الذي تَشتملُ عليه الظاهرة الكونية له مستويات:

- فمنه ما يمكن اكتشافه بالنظر القريب، ويظهر أن هذا المستوى القريب مقصود لتوجيه أنظار عامّة الناس على اختلاف مستويات مداركهم.

- ومنه ما يمكن اكتشافه بالتأمّل والتفكّر من مستوى المفكرين والمتعلمين من درجة وسطى من الناس. ويظهر أنّ هذا المستوى المتوسط العمق مقصودٌ لتوجيه أنظار متوسّطي المفكرين والمتعلمين فمن فَوْقَهُمْ.

- ومنه ما لا يكتشفه إلاّ الأذكياء وكبار العلماء، وهو مقصودٌ لتوجيه أنظار هذه الفئة المتفوّقة من الناس.

(ب) وقد يكون مضمون الخبر الذي يراد تأكيده بالقسم تقتضي حاله إيراد القسم.

لكنّ حال المقصودين بالخطاب إِبَّانَ التنزيل تقتضي عدم إيراد القسم لهم، إمّا لأنّهم لا يدركون ما في القسم من براهين تهديهم بلوازمها إلى التصديق بالمضمون الخبري. وإمّا لأنّهم مُكَذِّبُونَ بما يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقْسَمَ به، فهم لا يَسْتَفِيدُونَ من الْقَسَمِ تأكيداً، أو لنحو ذلك، ممّا توارد فيه على التأكيد بالقسم اقتضاءان متعارضان، أحدهما يستدعي إيراد القسم، والآخر يستدعي عدم إيراد القسم.

وقد جاء الحلّ القرآني العجيب برعاية الاقتضاءَيْن معاً، الإيجابي والسلبي، وذلك بإيراد القسم مع تصديره بأداة النفي (لا) وهذا من الأساليب القرآنية المبتكرة.

وسيأتي تفصيل ذلك مع شرح الأمثلة في شرح الوجه الخامس التالي:

* * *

خامساً:

شرح الوجه الخامس: **«الحكمة من إيراد القسم المنفيّ في القرآن»**:

اختلفت أقوال المفسّرين في الْقَسَمِ المسبوق بحرف النفي (لا) الوارد في القرآن ثماني مرّات في سبع سُوَر بصيغة (لا أقسم) مسبوقة بحرف عطف، أو غير مسبوقة بحرف عطف.

- فمنهم من قال: «لا» زائدة، والتقدير «أقسم».
- ومنهم من قال: «لا» نافية لكلامٍ مقدّر، وليس النفي مسلطاً على القسم.
- ومنهم من قال غير ذلك.

وقد سبرتُ النصوص الواردة فيها هذه الصيغة فرأيت بفتح من الله أنّها أسلوبٌ بيانيٌّ مبتكَرٌ للدلالة على أنّ الموضوع مع حال المخاطبين يقتضي اقتضاءين متعارضين:

١ ـ أحدهما يستدعي البيانُ فيه القَسَم المؤكّد للخبر الذي هو الْمُقْسَم عليه.

٢ ـ والآخر يستدعي البيانُ فيه عَدم الْقَسَم.

فكان الحلّ المبتكر في أساليب البيان القرآنية اختيار أسلوب ذكر لفظ الْقَسَمِ، وذكر الْمُقْسَمِ به، تنبيهاً عليه، مع سبقه بأداة النفي.

فالوجْهُ الذي اقتضىٰ الْقَسَمَ رُوعي حالُهُ بذكر الْقَسَمِ والْمُقْسَمِ به، تنبيهاً على

ما في الْمُقْسَمِ به من تأكيد أو حجَّةٍ هاديةٍ إلى أن الموضوع الذي يراد تأكيده هو متحقّق الوقوع.

والوجْهُ الذي اقتضىٰ عدم الحاجة إلى القسم رُوعِي حالُهُ بنفي الْقَسَمِ بأداة النفي (لا).

ونلاحظ أنّ بعض الناس حينما يكونون في مواقف من هذا القبيل، يشعرون بشعورين متعارضين، فيعبّرون عنهما معاً بمثل قول قائلهم: من دون يمين. أو لا داعي للقسم. أو لا أريد أن أحلف يميناً على هذا الأمر. أو نحو ذلك من عبارات.

وهو نظير قول مُحبٍّ يجهلُ محبُوبُه حُبَّه له أو يُنكره، ويكون المحبُّ في موقف تلويم أو توبيخ لمحبوبه، فيقول له:

لا أقول لك: إنّي أحبُّك، وإنّي بدافع شدّة حُبّي لك أُأَدِّبُكَ، أنت فعلت كذا أو تركت كذا، وهذا يعرّضك للعقوبة أو للهلاك، أو للمذمّة.

وفيما يلي عرض تحليلي لهذه النصوص مُرَتَّبَةً بحسب ترتيب النزول للسور الواردة فيها:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (التكوير /٨١ مصحف /٧ نزول):

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

● يلاحظ في هذا النصّ أنّ ظاهرة النجوم الْخُنَّسِ الْجَوَارِ الكُنَّسِ مقيّدةً بهٰذينِ الوصفيْنِ، وظاهرة اللَّيْلِ إذا عَسْعَسَ مُقيّداً بهذا الوصف، وظاهرة الصُّبح إذا تَنَفَّسَ مقيّداً بهذا الوصف. هي من الظواهر العظيمة في خلق الله الّتي تستحقُّ أنْ يُقْسَمَ بِها لإتقان خلقها وتدبيرها، على موضوعٍ خَبَرِيّ غيبي، هو أنّ القرآن قد

بلّغه جبريل عليه السلام للرسول محمّد ﷺ، قولاً ملفوظاً، فتلقَّاهُ النبيُّ وبلّغه كما تلقّاه.

● فحقيقة هٰذِه الظواهر الكونية حقيقة تستحِقُّ أن يُقْسَمَ بها، لتأكيد المضمون الخبري، ولتوجيه النظر لبحثها علميّاً رجاء اكتشاف ما فيها من عجائب خلق الله وتدبيره الحكيم، للاستدلال على قدرته وواسع علمه وعظيم حكمته، ثمّ لاعتبار القسم بها مؤكّداً حقاً، يفيد المخاطبين في التسليم بالمضمون الخبري.

إذن: فهذا مقتضٍ للقسم بها.

● لكنّ المقصودين بالخطاب في النص إبَّانَ التنـزيل هم منكرون أنّ القرآن مُنَزَّلٌ من عند الله، ولم يصل علمهم لمعرفة ما في هذه الظواهر من عظمة دالّة على جملة من صفات الربّ الخالق المبدع الحكيم العليم القدير، وليس باستطاعتهم في ذلك العصر اكتشاف ما فيها من آيات ودلائل.

فالْقَسَمُ بها بالنسبة إليهم لا يُضِيف إلى مراكز اقتناعهم تأكيداً جديداً فيه ترجيح.

إذن: فهذا مقتضٍ لعدم الْقَسَم بها، إذ حال المقصودين في الخطاب عند التنزيل لا يستدعيه.

● بيد أنّه قد يأتي باحثون علميون يدرسون هذه الظواهر، ويكتشفون ما فيها من آيات جليلات دالّاتٍ على جملة من صفاتِ الرّبّ الخالق المبدع الحكيم العليم القدير، ويكتشفون أنّها تستحقُّ أن يُقْسِم الله بها باعتبارها مظاهر لقدرته وعلمه وحكمته.

إذن: فهذا مقتضٍ لِلْقَسَمِ بها.

● فاجتمع من مختلف الأحوال المقتضي الإيجابي والمقتضي السلبي، فكان الحلّ البياني البديع الجامع الذي تُراعَىٰ فيه المقتَضِيَاتُ الْمُتَعارِضَات باختيار

ذكر الظَّواهرِ التي يراد الْقَسَمُ بها، وذكر لفظ الْقَسَم، مع نفي القسم بأداة النفي (لا).

وهذا من روائع الأساليب البيانيّة البديعة المبتكرة.

* * *

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة / ٧٥ مصحف / ٣١ نزول):

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾

● يلاحظ في هذا النصّ أن المقصود بالخطاب فيه هو الإنسانُ منكر البعث، الذي يظُنُّ ظنّاً توهميّاً أنّ قدرة الله عزّ وجلّ لا تَصِلُ إلى جمع رفات عظام الإنسان الذي أبلته الأرض، وإعادتها إلى التركيب كما كانت، وإلى الحياة مرّة أخرى، وهو الذي يُراد تأكيد خبر البعث له بالْقَسَم.

● ويلاحظ أيضاً أنّ الحكمة البيانية إبّان إنزال سورة (القيامة) استدعت التنبيه على أمرين عظيمين بينهما ترابط في خطّة الخلق هما:

١ ــ النفس اللّوّامة، الهادية بتلويمها صاحبها حين يفعل الإثم والخطيئة بإرادته إلى ضرورة وجود قانون الجزاء، في خطّة الخالق، لذوي الإرادات الحرّة.

٢ ــ ويوم القيامة لتحقيق بنود قانون الجزاء.

أمّا يوم القيامة فهو يوم عظيم جدّاً، وهو في حقيقة الأمر يستحقُّ أن يُقسم الله به، لأنّه مظهر من مظاهر عظيم قدرته، وكمال عدله، وبالغ حكمته. وفي القسَم به إشعارٌ بأنه أمرٌ عظيم جدّاً، وهذا أمر يُقْصَد في القسم، وهو أحد أغراض القسم.

فهٰذا مقتضٍ للقسم بيوم القيامة.

لكنّه أمرٌ غيبي لا يُدرِك عظمته منكرو البعث، حتى يكون الْقَسَمُ به في نظرهم مؤكّداً لقضية البعث التي هي محلّ إنكارهم.

والْقَسَمُ بيوم القيامة لتأكيد قضية البعث فيه معنى المصادرة على المطلوب، إذْ هو كالاستدلال على المدّعَىٰ بالمدّعى نفسه، ولكن بصيغة أخرى.

فهذا مقتضٍ لعدم القسَمِ بيوم القيامة.

وأمّا النَّفْسُ اللّوّامة في داخل الإنسان فهي من بديع إتقان صنع الله لهذا الإنسان، وإيجادُها فيه هو بمثابة إيجاد دليل على الجزاء والدينونة داخل ذات الإنسان.

وهي باعث فطريٌّ يهدي صاحب البصيرة المنصف إلى قانون الجزاء الرّبّاني، وهو يأخذ بأسباب الفكر إلى الإيمان باليوم الآخر للحساب والجزاء.

فإيجاد النفس اللوّامة داخل الإنسان أمرٌ عجيبٌ يَسْتَحِقُّ أن يُقْسِم اللَّهُ به، لأنّه أمرٌ من الخلق عظيم، ولأنّ في القسَمِ بها توجيه فكر الإنسان لها، لتهديه إلى قانون الجزاء الرّبّاني، على أنّه قد يوجد في الناس من يجد في القسم بها هادياً له إلى الإيمان بالجزاء، فينتفع به.

فهذا مقتضٍ للقسَمِ بالنفس اللّوّامة.

لكِنَّ هذه النفس اللّوّامة فطرة ضامرة هزيلة داخل الإنسان منكر البعث، فباعثها باهت ضئيل الضوء لديه، لا يظهر له أثَرٌ إلّا عند الشدائد والأزمات، أو عند وقوع الإنسان في براثن ظلم الآخرين له، وهو لا يجد للانتقام منهم وسيلة، عندئذٍ يستيقظ إلى ضرورة وجود قانون الجزاء في الوجود لتحقيق العدل، وتصحو فيه نفسه اللّوّامة، فيراجِع سجِلّ جرائمه وظلمه.

وهذه الفطرة فيه هي من فروع الفطرة التي تنزع في الإنسان إلى الإيمان بالرّبّ الخالق، إذْ تكون باهتة ضامرة لدى المنكرين الجاحدين، ثم تصحو ويظهر أثرها عند الشدائد والأزمات.

فالقسم بالنفس اللّوّامة لا يقدّم لهؤلاء المنكرين تأكيداً على أنّ البعث حقّ، وأنّ قدرة الله عليه من المبادىء التي يجب الإيمان بها بداهة.

وهذا مقتضٍ لعدم القسَمِ بالنفس اللّوّامة لمعالجة المقصودين بالخطاب.

فاجتمع من مختلِف الأحوال والاعتبارات المقتضي الإيجابي، والمقتضي السلبي، فكان الحلّ البياني البديع الجامع الذي تُراعَىٰ فيه المقتضِيَاتُ المتعارضات باختيار ذكر القيامة، وذكر النفس اللّوّامة مقترنين، إذِ الثاني منهما يهدي إلى الأوّل منهما، وذكر لفظ القَسَمِ بهما، مع نفي القَسَمِ بأداة النفي (لا).

وهذا من روائع الأساليب البيانية البديعة المبتكرة.

* * *

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البلد / ٩٠ مصحف / ٣٥ نزول):

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾.

بهذا البلد: هو مكة البلَدُ الحرامُ.

حِلٌّ: يأتي لفظُ «حِلّ» في اللُّغة بمعنى «حلال». يقال: هذا حلٌّ لكَ، أي: حلالٌ لك.

ويأتي أيضاً بمعنَىٰ «الْغَرَض» أي: الهدف الذي يُرْمَىٰ إليه. يُقَالُ: اتَّخَذَهُ حِلًّا، أي: اتّخذَهُ غَرَضاً وهدفاً يرمي إليه سهامه.

ويُلاحظ في هذا النصّ ما يلي:

١ ــ أنّ مكة البلد الحرام ذات حرمة عند الله، باعتبارها أوّل بيتٍ وُضع للناس. وذاتُ حرمة في نفوس العرب منذ عهد إسماعيل عليه السلام حتى بعثة الرسول محمد ﷺ.

فهي بهذا الاعتبار تستحِقُّ أن يُقْسِم الله بها، لتأكيد قضيَّةٍ من قضايا تكوين الإنسان، يستطيع المتفكّر أن يدركها بقدرٍ ما من التأمّل، وهي أنّه مخلوقٌ في كبد (أي: في محيط من الكبد، بمكابدة متاعب الحياة ومشقّاتها) فهو في حياته لا بدّ أن يكابد، منذ ميلاده حتّى وفاته، وهذه ظاهرةٌ مشهودة، قلّما يغْفُل عنها إلاّ من كان في ساعته مستمتعاً بلذّةٍ من اللّذّات، أو مشغولَ الفكرِ والنفس بأمل حلوٍ، أو رجاءٍ مفرح، لما يترقَّب بظفره به سعادته، ومن لوازم كونه مخلوقاً في كَبَد مع أنّ الخالق لا يُعجزه أن يخلقه في محيط يتناول فيه مطالبه دون مكابدة، أنه مخلوق ممتحن مبتلى.

فهذا مقتضٍ للقسَمِ بالبلَدِ الحرام.

لكِنَّ المقصودين بتوجيه القَسَمِ قد استباحوا رسول اللَّهِ محمّداً في هذا البلَدِ الحرام الذي يعظّمونه، ويرون حرمة العدوان فيه على أحدٍ من الناس، أو حيوانٍ برّيّ، أو شجرةٍ نابتَةٍ فيه، فجعلوا رَسُولَ اللَّهِ لهم «حِلاًّ» يؤذونه، ويضطهدونه، ويَسُبُّونه، ويكذِّبُونه، وهو الصادق الأمين فيهم، طَوال حياته، ويتهمونه بأنه ساحر، أو شاعر، أو مجنون، ويضطهدون من آمن به ويعذّبونهم إلى حدّ القتل.

حتى أمسَىٰ رسول الله ﷺ فيهم غرضاً يرمون إليه سهامهم، هو ومن آمن به.

فهم بعملهم هذا قد استهانوا بحرمة بلد الله الحرام، إذْ جعلوا رسول ربِّهِمْ فيه حِلاًّ لهم، أي: غَرَضاً يَرْمُونَ سهامهم إليه، ويَرُومُون إصابتَه.

إذن: فقد سقطت حرمة هذا البلد الحرام من قلوبهم، ولم يبق منها لديهم ما يستَحِقُّ أَنْ يُقْسِم اللَّه لهم به من أجله.

فهذا مقتضٍ لصرف النظر عن القسم بهذا البلد الحرام.

٢ ــ في قول الله عزّ وجل: ﴿ووالدٍ وَما وَلَد﴾ أي: وكُلّ والدٍ وكُلّ ما وَلَدَهُ أيُّ والدٍ من أنسال.

فالوالد وما ولد من ظواهر خلق الله العجيبة، التي تستحقُّ أن يُقْسِم الله بها، لِلَفتِ وتوجيهِ أنظارِ المخاطبينَ إلى دليلٍ من أدلّة وجود الله، ووجوب الإيمان به،

ووجوب عبادته وحده لا شريك له، واحترام الأماكن المخصّصة لعبادته، ذات القداسة المتوارثَةِ عن المرسلين بأمر ربِّ العالمين، ووجوب الإيمان بِرُسُلِه، واحترامهم، وتوقيرهم، واتّباعهم، وطاعتهم.

فهذا مقتضٍ لِلْقَسَمِ بوالدٍ وَما ولد.

لكِنَّ المقصودين بهذا الخطاب هم المكذّبون لرسول الله محمّد ﷺ إبّان تنزيل السورة، وهؤلاء لم يَصِلْ علمهم بَعْدُ إلى إدْراك آيات الله العجيبة في سنّة استيلاد الأحياء الجديدة من آبائها وأمّهاتها.

ودراسة هذه الظّاهرة تحتاج باحثين من العلماء المتخصصين في دراسة الأحياء، وكيف تتكوَّن النُّطَفُ في الآباء، والْبُيَيْضَات في الأمهات، وكيف تَنْعَقِدُ الأجنة في الأرحام، وكيف تحصُل الأنسال، إنّها بحوث لا يعلَمُ المخاطبون عنها شيئاً إبّانَ التنزيل، فأذهانُهم يضعُف لديها معنى الْقَسَمِ بها، فلا يزيدهم القسم بها تأكيداً للموضوع الذي يُقْسِم الله لهم بها عليه.

وهم يرونها ظاهرة طبيعيّة عاديّة.

فهذا مقتضٍ لصرف النَّظَر عن الْقَسَمِ بوالدٍ وَما وَلد.

غير أنّه قد يأتي في المستقبل من ينتفعون من القسم بوالدٍ وما وَلد، في توجيه أنظارهم وهِمَّاتِهم في البحث العلمي، لتتبُّعِ هذه الظاهرة من ظواهر سُنَن الله في الخلق، فيبحثون، ويتابعون بحوثهم ودراساتهم، حتّى يكتشفوا ما فيها من عجائب دقيقة مثيرة للدّهشة، بما فيها من متقنات، في عوالم من المصغّرات، ويتوصَّلُوا بذلك إلى ما لا حصر له من الآيات الدالات على الرّبّ القدير العليم الحكيم اللطيف الخبير، فيصَدّقوا بالقرآن وبالرّسول، ويؤمنوا بهذا الدّين المنزّل من ربّ العالمين.

فهذا مقتضٍ للقَسَمِ بوالد وما وَلَد.

ولعلّ أوّل مواليد آدم وحواء كانت في هذا البلد، فجمع الله في القسم بين هذا البلد، ووالد وما ولد.

بعـد ما سبق نـلاحظ أنّه قـد اجتمـع في البلد الحرام، وفي والـدٍ ومَـا ولَـدَ، بالنظر إلى واقـع حالهما، وواقـع حال المقصودين بالخطاب إبَّـان التنزيـل، وواقـع حال من سيأتي في المستقبل ممن يمكن أن يستفيد من القَسَمِ أمران:

١ ــ المقتضي الإيجابـي.

٢ ــ والمقتضي السلبـي.

فكان الحلّ البيانيّ البديـع الجامـع الذي تُراعَىٰ فيه المقتضيات المتعارضات باختيار ذكر «البلد الحرام» وذكـر «والدٍ ومـا وَلَد» وذكـر لفظ «أقسم» مـع نفي القسم بأداة النفي «لا».

وهذا كما ظهر لنا من روائـع الأساليب البيانية البديعة المبتكرة.

مـع ما في قول الله عزّ وجلّ: ﴿لا أقسم بهذا البلد وأنت حلٌّ بهذا البلد﴾ من تأنيب ضمنيّ للمشركين الّذين استحلُّوا رسول ربّهم فيه، فأسقطوا بذلك حرمـة هذا البلد من قلوبهم، فكـأنّـه يقـول لهم: أينَ مَـا تؤمنـون بـه من حـرمـة هـذا البلد، ومـا تزعمـونه من تعـظيم له في قلوبكم، وقـد اتَّخَذْتُمْ رسـول ربّكُمْ حِلاًّ لكم فيـه، وجعلتموه غرضاً تُسَدِّدُونَ إليه سهامَكُم؟! وأيُّ شيءٍ بقي في قلوبكم من حرمة هـذا البلد بعد ذلك.

المناسبة بين المُقْسَمْ بـه والْمُقْسَم عليه:

ويمكن بـالتـأمُّـل والتفكيـر العميق، أن نكتشف المنـاسبـة بين الْمُقَسَمِ بـهِ والْمُقْسَمِ عليه.

إنّ المقصودين بالخطاب إبّان التنزيل هم مشركون ينكرون الدينونة والجـزاء، والغـرض إقناعهم بـالجزاء، وبيـوم الـدين. وهم أهـل البلد الحـرام، ذي الحـرمـة المـوروثة فيهم عن رسول كريم من رسُـلِ اللّهِ يؤمنون بـه ويعـظّمـونـه، هـو أبـوهم إسمـاعيل بن إبـراهيم عليهما السـلام، وقد ورثـوا عنهمـا عبـادة الحـج، وشيئـاً من الصلاة، وبعض الفضائل والمكارم الْخُلُقيَّة والسلوكية، وورثـوا عنهما مـع ذلـك أنّ

الله يجازي عباده بالثواب أو بالعقاب، بحسب أعمالهم، وورثوا عنهما الإيمان بيوم الدين.

فكيف استَبْقَوْا من هذه المواريثِ حُرْمة البلد الحرام، وقدسيته، وعبادة الحجّ، ونحو ذلك، وكيف ظلُّوا محافظين عليها، مع استبعادهم عن معتقداتهم الإيمان بيوم الدين، الذي كان من معتقدات أجدادهم الأولين، وهو من القاعدة الإيمانية التي لا تكون الأعمال الفرعية معتبرة عند الله ما لم تكن صحيحة تامّة، فالعمل بلا إيمان صحيح لا قيمة له عند الله.

ففي القسمِ بالبلد الحرام توجيه لذلك، وتذكير للمخاطبين به، وإعْلَامٌ لَهُمْ بأنّ محمداً لم يأتهم بجديدٍ حول البعث والجزاء ويوم الدين، الذي هو أَهَمُّ عناصر المقسم عليه.

فناسب ذلكَ القسَمُ بالبلد الحرام.

ولمّا كانَ من الْمُقْسَمِ عليه كونُ الإنسان مخلوقاً في كَبَد، ويعرف طريق الخير والشرّ، وله أدوات معرفة وبيان، وكان عليه أن يهتدي عن طريقها، إلى أن خالقه مطّلع عليه، ومحاسب له على أعماله، وسيجازيه. وهُوَ ذُرّيَّةٌ لمن سبقه من والدين ووالدات حتى آدم الإنسان الأول الذي خلقه الله من طين. وهو نوع له أشباهٌ من أنواع كثيرة خلقها الله، خاضعةٍ لنظام التوالد، لا يحصيها إلاّ خالقها، ومن أعطاه الله علمها، وكلُّها متقنة وعجيبة، ولا يمكن إبداعها، وخلقها، والهيمنة على حياتها، وحفظها، إلاّ من خالقٍ له صفات العلم المحيط بكلّ شيء، والقدرة على كلّ ما يشاء، والحكمة البالغة، والقيّوميّةِ على كلِّ ذي وجود، فلا يعْزُب عن علمه شيء، ولا يخرج عن سلطانه كائن، ومن حكمته سبحانه أن لا يكون قد خلق الإنسان عَبَثاً، ومن حكمته أن لا يتركه سُدى دون حساب وجزاء.

لمَّا كان الأمر كذلك، كان داعياً إلى نظرةٍ شاملةٍ بَحّاثَةٍ تنظرُ إلى نِظَام التوالد في خلق الله للأحياء.

فناسب ذلك أن يُقسم الله بكُلِ والدٍ وكلّ مَوْلود.

واختير لفظ «وما وَلَد» بدل لفظ «مولود» مراعاة للنَّسقِ اللفظي والتناظر في فواصل الآيات «بَلَد ــ وَلَد ــ كَبَد ــ أَحَد».

* * *

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة /٥٦ مصحف /٤٦ نزول):

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ ﴾.

يُلاَحَظُ في هذا النَّصّ ما يلي:

١ ــ أنّ مواقع النجوم من الأمور التي لا يعرفُ عظمتَها المقصودون بالخطاب إبَّانَ تنزيل السورة، وهُمْ مُكذِّبون بالرسول، ومكذّبون بالقرآن الكريم أنّه من عند الله.

إذن: فهم لا ينتفعون بالقسم بمواقع النجوم، لتأكيد أنّ القرآن تنزيلٌ من رَبّ العالمين، فَلاَ يُضِيف القَسَم بها إلى مراكز اقتناعهم أيَّ مُرَجِحٍ للتصديق بأنّ القرآن كلام الله.

وهذا يقتضي بالنسبة إليهم عدم القسم بها.

٢ ــ لكنَّ مواقع النجوم أمرٌ عظيم جدّاً، فهي تستحَقُّ أن يُقْسِمَ الله عزّ وجلّ بها، إذْ هي من مظاهر قدرة الله وعلمه، وإتقانه، وحكمته، في كونه.

وسيأتي في المستقبل باحثون علميّون فلكيُّون، ويفيدهُمُ القَسَمُ بها لتأكيد حقائق تتعلّق بالقرآن المجيد. على أنّ القسم بها يوجّه أنظارهم للبحث في عالَم النجوم، والبحث في مواقعها لاكتشاف آيات الله فيها.

فهذا يقتضي القسم بها.

٣ ـ إذا كان المراد من النجوم نجومَ القرآنِ الذي ينزل على دفعات، بحسب المناسبات، ومقتضيات الأحوال التربويّة والتعليميّة، فمواقعها في الكتاب المكنون عند الله أمرٌ عظيم جدّاً، ولكن المخاطبين لا يعلمون ذلك حتى يُقسم الله لهم به. بيد أنّها تستحقُّ لذاتها أن يُقْسِمَ اللَّهُ بِهَا، وَالقسَمُ بها أسلوبٌ فَنِّيٌّ لِلْإِخْبَار بأَنَّها مَوَاقع عظيمَةٌ جدّاً.

ومَوَاقِعُ هذه النجوم بالنسبة إلى جملة القرآن شيءٌ عظيم جدّاً أيضاً، لأنّها بالتكامُلِ الإعجازي المترابط، رغم التنزيل المفرَّق، تَدُلُّ على أنها تنزل مفرَّقةً من كتاب محفوظ مستجمع لكلّ سوره وآياته، قبل تنزيل أيّ نجم من نجومه، لا أنّ النجوم تنزل أوّلاً ثمّ يُنَسَّقُ بينها في كتاب، كما يفعل الكتّابُ والشعراء من الناس.

وتنزيلها عند المناسبات، ومقتضيات الأحوال التربوية والتعليمية، يَدُلُّ على سبق العلم الإلٓهي بكلّ المستقبل الذي يُسْتَقْطَعُ له من الكتاب المكنون ما يلائم الواقعة أو الحدث أو المقتضي الإنساني الذي يحدث، من خلال اختيارات الناس وتصرّفاتهم الإرادية.

وهذا شيءٌ عظيم جدّاً يستحقُّ أن يُقسم الله به لذاته.

فهذا مقتضٍ للقسم بمواقع النجوم.

لكنّ المخاطبين لا يعلمونه حتى يستفيدوا من الْقَسَمِ به التأكيد على أنّ القرآن هو قرآن كريم، في كتاب مكنون لا يمسُّه إلّا المطهّرون.

فهذا مقتضٍ لعدم القسم بمواقع النجوم.

٤ ـ ولا مانع من أن يكون المراد من النجوم نجومَ السماء، ونُجومَ القرآن معاً، على طريقة القرآن في استعمال اللفظ بمعنَيَيْه أو معانيه. فيشمل تحليل النصّ مواقعهما. وفي كليهما مقتضيان:

الداعي للقسم، والداعي لعدم القسم، فكان الحلّ القرآني في بيانه البديع

الجامع المبتكر، الذي تراعى فيه الاقتضاءات المتعارضات، باختيار ذكر «مواقع النجوم» والتنبيه على عظمة هذه المواقع، وذكر لفظ «أقسم» مع نفي القسم بأداة النفي «لا» مع توجيه الأنظار والأفكار إلى أنّه قسم عظيم لو أقسم الله به، يدرك ذلك العلماء.

وبهذا نلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ لم يُقْسِمْ لمن لا ينتفع بهذا القسم، وأقسم لمن ينتفع به، من خلال صيغة واحدة.

المناسبة بين المقسَمِ به والمقسَمِ عليه في النّص:

أمّا المناسبة بين المقسَمِ به والْمُقْسَمِ عليه:

● فهي ظاهرة إذا فهمنا أنّ المراد بالنجوم نجوم التنزيل للقرآن، فالْمُقْسَمُ عليه، هو أنّ القرآن كريم، في كتاب مكنون، لا يمسُّه إلاّ المطهرون.

وهو لدى التحليل يظهر أنّه قسم بدليل عظمة القرآن التي يدركها العلماء، على كرامته عند الله، في كتاب مكنون لا يمسُّه إلاّ المطهرون، أي: هو قسم بأمر يستطاع إدراكه، على أمر غيبيّ يخبر الله به، وكلاهما حول القرآن.

● وهي على المعنى الآخر الذي هو مواقع نجوم السماء، يمكن أن نقول فيها: إنّ المناسبة تظهر في التشبيه بين مواقع نجوم السماء الرفيعة جدّاً، ومواقع سور القرآن، وآياته الهادية والمضيئة والرفيعة جدّاً، فنجوم السماءتتنزّلُ أنوارها هادية إلى الأرض، وآيات القرآن يُنَزِّلُهَا الله عزّ وجلّ قولاً من السماء، يهدي الناس، وهي في أصلها في كتاب كريم عنده مكنون محفوظ، لا يمسُّه إلاَّ المطهّرون، وهم الملائكة الموكلون بأمر اللوح المحفوظ، والله أعلم.

* * *

النصّ الخامس :

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة /٦٩ مصحف /٧٨ نزول) :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

يُلاحَظُ في هَـٰذَا النصّ ما يلي :

١ ـ كلُّ ما يراه النّاس بأبصارهم وكُلُّ مَا لَا يَرَوْنَهُ بأبصارهم أمور من خلق الله عجيبةُ دالّاتُ على الربّ الخالق، وكمال قدرته، وشمول علمه، وعظيم حكمته، فهي أمور تستحقُّ أن يُقْسِمَ اللَّهُ بها، ليُوَجّه أنظار الناس إلى آياته فيها. وقد يوجد من الناس مَنْ ينتفع بالقَسَم بها. على أنّه سيأتي في المستقبل باحثون علميُّون يتتبَّعُون الدراساتَ البصرية، فيرون ممّا يبصرُ الناس وممّا لا يبصرون من مخلوقات الله في كونه آيات جَليلاتٍ دالّات على ربوبيته وسلطانه وعظيم حكمته.

٢ ـ لكِنَّ المقصودين بالخطاب إبّان التنزيل، المنكرين للقرآن ولرسالة الرسول منصرفون عن إدراك عظمة ما يبصرون بسبب الإلف واستمرار المشاهدة، وبسبب إنكارهم الصارف لأذهانهم عن استبصار آيات الربّ الخالق فيها.

أمّا ما لا يبصرونه فهم غير مدركين له أصلاً، وغير معترفين به، أو غير معترفين بعظمته، فهم حِسّيُّون لا عقليُّون، وإذا كان ما يبصرونه لا يوجّه أفكارهم لإدراك عظمته، فكيف بالّذي لا يبصرونه.

فلو أقسم الله لهم بذلك لم ينتفعوا بالقسم، إذْ لا يزيدهم هذا القسم تأكيداً للخبر الذي يُرادُ تأكيده، وهو أنّ القرآن تنزيل من ربّ العالمين، بلّغه للرسول محمّد ﷺ، رسولُ وحي اللّهِ جبريل عليه السلام، قولاً ملفوظاً، وبلّغه الرسول كما تلقّاه من الوحي كلمة بكلمة، وحرفاً بحرف.

فليس القرآن بقول شاعر، ولا بقول كاهن، كما زعموا في اتهاماتهم.

إذن: فواقع هؤلاء المخاطبين يقتضي عدم القسم لهم بما يبصرون وبما لا يبصرون.

وبذلك اجتمع مقتضيان متعارضان، أحدهما سلبيّ، والآخَرُ إيجابي. فكان الحلّ البياني البديع الجامع الذي تُراعىٰ فيه الاقتضاءات المتعارضات، باختيار ذكر لفظ «ما تبصرون وما لا تبصرون» والتنبيه على عظمة آيات الله في ذلك، وذكر لفظ «أقسم» مع نفي القسم بأداة النفي «لا».

فالرّبّ عزّ وجلّ لمْ يقسم لمن لا ينتفع بهذا القسم، وأقسم لمن ينتفع به. وهذا كما سبق من روائع الأساليب البيانية، البديعة، المبتكرة، القرآنية.

المناسبة بين المُقْسَم به والمقسَمِ عليه في النصّ:

الْمُقْسَمُ عليه في هذا النصّ هو قضيّةُ تَلْقِينِ أمين الوحي جبريل عليه السلام، رسولَ الله محمداً ﷺ، هذا القرآن قولاً مَلْفُوظاً، حرفاً فحرفاً، وكلمة فكلمة، وآيةً فآية.

وجبريل عليه السلام مَلَك لا يُبْصِره المقصودون بالخطاب في النصّ، وهم قومٌ حِسّيون لا عقليون، فهو من صنف ما لا يبصرون في الكون.

فناسب أن يكون القسم بكلّ ما يبصرون وكلّ ما لا يبصرون مما في الكون كلّه، وهو من آثار خلق الله وتصريفه وتدبيره، على هذه القضيّة التي هي جزء مما لا يبصرون.

وكما أنّ ما يبصرونه في الكون، وهم جزءُ منه، هو من آثار خَلْقِ وتدبير الرّبّ الخالق العليم الحكيم الذي لا يبصرونه، فالقرآن الذي يتلوه عليهم رسول الله محمد ﷺ، هو تنزيل من عند الله، وتلقينٌ من مَلَكِ الوحي جبريل الذي لا يبصرونه.

فظهر التلاؤم والتناسب بين الْمُقْسَمِ به والْمُقْسَمِ عليه في النص، مع تحقيق

الغرض من القسم، الّذِي روعي فيه أمران متعارضان: أحدهما يقتضي القسم، والآخر يقتضي عدم القسم.

والحمد لله على توفيقه.

* * *

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المعارج / ٧٠ مصحف / ٧٩ نزول):

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١﴾.

يُلاحَظُ في هذا النّص ما يلي:

١ ــ أنّ المقصودين بالخطاب في هذا النصّ هُمُ الكافرون، بدليل قول الله تعالى في سباقه:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾.

مُهْطِعين: مقبلين نحوك بكلّ أبصارهم، مادّين أعناقهم، مصوّبين رؤوسهم، صامِتِين، عَمَلَ المتفحّص الحذِر المتوجّس خيفة.

عِزِين: جماعات متفرّقة. وعِزين: جمعُ مفرده عِزَة، وهم الْعُصْبَة من الناس.

٢ ــ أنّه قد جاء التصريح هنا بلفظ «ربّ» في المقسَمِ به، مع أنّ الغرض لفت النظر وتوجيهه للتفكّر في آيات الرّبّ في المشارق والمغارب، وفي هذا التصريح هنا إشارة إلى أنّ الأقسام القرآنية بظواهر الخلق الرّبّاني في الكون، هي في حقيقتها أقسامٌ بصفات الله وأسمائه الحسنى، باعتبار أنّ هذه الظّواهر هي من آثارها.

٣ ــ وأنّ ظاهرة المشارق والمغارب، الناشئة عن حركة الأرض دوراناً حول نفسها في اتجاه الشمس، إذ تحدث بذلك مشارق ومغارب متتابعة، هي من مظاهر الربوبية، أي: من مظاهر الخلق المتدرّج المتتابع.

لذلك جاء في النصّ لفظ «ربّ» مضافاً إلى المشارق والمغارب، أي: خالق المشارق والمغارب، ومدبّر أمرها وفق نظام التربية.

٤ ــ وأنّ ظاهرة المشارق والمغارب هي من آيات الله العجيبة في كونه، وهي تستحقُّ أن يُقْسِم اللَّهُ بها، على أنّ خالقها ومدبّر أمرها قادرٌ على أن يبيد الكافرين المقصودين بالخطاب، ويخلق خيراً منهم بدلاً عنهم.

يضاف إلى هذا أنّه سيأتي من الناس من يلفت الْقَسَمُ نظرَه العلميَّ الباحث، فيبحث عن سرّ ظاهرة المشارق والمغارب، فيكتشف بديع صنع الله فيها، ويدركُ يومئذٍ قيمة القسم بها.

فهذا مقتضٍ للقسم بالمشارق والمغارب، على موضوع هو من أعمال الخلق والتدبير، مماثل للظاهرات المقْسَم بها.

٥ ــ لكنّ إدراك عظمة هذه الظاهرة غير موجودٍ لدى المقصودين بالخطاب إبَّانَ التنزيل، فهم لا يجدون في القسم لو أقسم الله بها تأكيداً للموضوع الخبري الذي يُراد تأكيده في النصّ.

فهذا مقتضٍ لعدم القسم بها.

وبذلك اجتمع مقتضيان متعارضان: أحدهما سلبي، والآخر إيجابي.

فكان الحلّ البياني البديع الجامع، الذي تراعىٰ فيه الاقتضاءات المتعارضات، باختيار ذكر لفظ «المشارق والمغارب» للتنبيه على آيات الله في تدبيرها، وذكر لفظ «أقسم» مع نفي القسم بأداة النفي «لا».

وهذا كما سبق أن عرفنا في الأمثلة السابقة، من روائع الأساليب البيانية القرآنية البديعة المبتكرة.

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه في النص:

لا يحتاج اكتشاف المناسبة إلى تأمّل عميق، فالْمُقْسَمُ به من ظواهر خلق الله وتدبيره المشهود، والْمُقْسَمُ عليه تهديد بأمر يحتاج إيجاده إلى خلق الله وتدبيره.

* * *

النصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الانشقاق / ٨٤ مصحف / ٨٣ نزول):

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾.

يُلاحظ في هذا النصّ ما يلي:

١ ــ الْمُقْسَمُ به فيه عدد من ظواهر خلق الله وتدبيره في كونه، وهي:

● **الشفق:** وإدراك آيات الله في الشفق يتطلّب دراسات ضوئية متقدّمة، لم تكن معروفة إبّان تنزيل القرآن.

● **الليل:** ومعرفة حدوث ظاهرة اللّيل لم يكن الناس يعلمون منها غير غروب الشمس.

فاللّيل في نظر الناس يومئذٍ لا يُدركُ الناس فيه من الآيات ما يدفعهم لتأكيد خبر «لَتركَبُنَّ طَبقاً عَنْ طبق» بالقسم به.

● **وما وسق:** أي: وما جمع اللّيل وما ضمّ وحوى ولفّ. ولم يكن الناس قد أدركوا ممّا جمع اللّيل في ظلمته ما يدعوهم إلى الانتفاع بالقسم بما جمع، لتأكيد خبر «لتركبُنّ طبقاً عن طبق».

● **والقمر إذا اتّسق:** أي: إذا اكتمل نوره، ولم يكن النّاس إبّان تنزيل القرآن قد عرفوا سبب تناقص القمر واكتماله، واكتشاف بديع آيات الله فيه.

ولمّا كانت هذه الظواهـر من الأمور التي لم يكتشف المخـاطبون إبّـان تنزيـل القرآن بواطن آيات الله فيها، حتى يكون القسم بها ذا تأثير في نفوسهم لتأكيد الخبر بأمر غيبـيّ سيحدث في المستقبل للبشر، وهو ما تضمَّنَهُ قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طبقاً عن طبق﴾.

فهٰذا مقتضٍ لعدم القسم بها.

٢ ــ لكِنَّ هذه الظواهر في حقيقة حـالها تشتمـل على آيات جليـلات تهدي إلى الإيمان بالرّبّ الخالق، وشمول علمه وكمال قدرته، وعظيم حكمته.

فهي بهٰذا الاعتبار تَسْتَحِقُّ أن يُقْسِمَ الله عزّ وجلّ بها، لتأكيد موضوعٍ خبـريّ مستقبِليّ يخبر به عباده.

وسيأتي في المستقبل باحثون علميّـون يكتشفون في هـذه الظواهـر طائفـة من آيات الرّبّ الخالق، الهادية إلى الإيمان به، وبكمال قدرته، وشمول علمه، وعظيم حكمته، وهؤلاء يَحْسُنُ توجيه أنظارهم للبحث فيها.

فهذا مقتضٍ للقسم بها.

وبذلك اجتمعت الاقتضـاءات المتعارضـات السلبية والإيجـابيَّة، فكـان الحلّ البياني البديـع الجامـع الذي تُراعَىٰ فيه الاقتضاءات المتعارضات. باختيار ذكر هذه الظواهر، للتنبيه على آيات الله فيها، وذكر لفظ «أقسم» مـع نفي القسَمِ بـأداة النفي «لا».

وهذا كما سبق بيانه في الأمثلة السـابقة من روائـع الأسـاليب البيانيـة البديعـة القرآنية المبتكرة.

• • •

القاعدة الحادية والعشرون

«حول النظر في ملاءمة الأسلوب البياني للهدف منه»

على متدبّر كلام الله أن يمعن النظر في ملاءمة الأسلوب البياني للهدف منه، فلكل هدف من أهداف الكلام أساليب تلائمه وتناسبه، بينما لا تلائمه أساليب أخرى قد تكون صالحة لتحقيق هدف غيره.

وقد يوحي الأسلوب القرآني لمتدبّره الحصيف بالتصوّرات الصحيحة لكلّ هذه الأمور، فالثوب المفصّل تفصيلاً محكماً يدل على هيكل الجسم المفصّل له، كما أنّ المعرفة السابقة للجسم تلفت النظر إلى إحكام التفصيل وإتقانه.

* * *

إنّ النظر في ملاءمة الأسلوب البياني للهدف منه، يوضح كثيراً من دلالات النصّ، إذ لكلّ هدف من أهداف الكلام أساليب تلائمه وتناسبه، بينما لا تلائمه أساليب أخرى قد تكون صالحة لتحقيق هدف غيره.

إنّ من الأساليب الكلامية ما يصلحُ في مواقف الخطابة المحرّكة للعواطف، ومنها ما يحلو في مواطن الحماسة، ومنها ما ينفع ويؤثر في مجالات الإقناع الهادىء، ومنها ما ينبغي الالتزام به لتحديد موادّ قانونية وبيان أحكام تشريعية، ومنها ما يكون أنفع وأجدى في ميادين الجدل والمناقشة، وبعضها يحسن في المديح، وبعضها يحسن في الهجاء، وبعضها يلائم بثّ الوجد، وبعضها يلائم استجداء

الرِّفد، وهكـذا إلى أهداف كثيـرة يصعُبُ إحصاؤهـا، في حين أن ما يصلـحُ لبعض هذه الأهداف قد لا يصلـحُ لبعضها الآخر.

والبليـغ الأديب الحصيف يُحسُّ بـوجوه التـلاؤم أو عدم التـلاؤم بين أسـاليب الكلام وبين الأهداف منه، فيتحرّى أفضل الأساليب ملاءمة للهدف الذي يقصده من كلامه، ولا غرو أنّ بعض الأساليب الملائمة للهدف أكثر مـلاءمة وأعـظم تأثيـراً من بعض.

ولمّا كان القرآن الذروة القصوى لكلّ كلام بليـغ كان لا بـد أن يكون أسلوبـه البياني ملائماً لما يلي:

(أ) مـلائماً للهـدف العـام من الكـلام، فلكـلّ هـدف من أهـداف الكـلام أسلوب من القول يلائمه.

(ب) ومـلائماً للوضـع العـام للمخاطب، فـالناس أصنـاف بحسب اختـلاف أوضـاعهم، فمن أصنافهم عـامّـة وخـاصـة، وجـاهلون وعلمـاء، وأغبيـاء وأذكيـاء، ودهماء وأمراء، وبُداة جفاة ومتحضّرون، وأهل حلم وعقل، وأهل خفّة وطيش، وصغار لا خبرة عندهم، وكبـار مُضَرَّسُـون محنَّكون، ومنهم العقـلانيون ومنهم العـاطفيّون، ومنهم من يصلـح معـه الترغيب، ومنهم من لا يصلـح مـعـه إلا التـرهيب. ولكـل صنف من أصناف الناس أساليب من القول تلائمه وتكون أكثر تأثيراً فيـه من أساليب أخرى.

(ج) ومـلائماً للحـال الخاصّ للمخـاطب، فنظيـر اختـلاف أصنـاف النـاس اختلاف أحوالهم الفكرية والنفسية والاجتماعية، فما يلائم الإنسان وهو هادىء الفكر قـد لا يلائمـه وهو مشـوش الفكر مضـطربه، ومـا يلائمـه وهو في حـالة الـرضىٰ قـد لا يلائمه وهو في حالة الغضب، وما يلائمه وهو في ضعة وذلّ، قد لا يلائمه وهو في رفعة وعزّ، وما يلائمه وهو في حالة فقر قد لا يلائمه وهـو في حالـة سعة من المـال، وما يصلُـح له من الخطاب وهو وحده، قد لا يصلُـح له وهو بين الناس.

وهكذا إلى سائر اختلاف الأحوال، ولكلّ حالٍ أساليب من القول مناسبة، وبعضها أكثر مناسبة وأعظم تأثيراً من بعض.

ما المراد من الأسلوب البياني؟

إننا قد لا نستطيع حصر الأساليب البيانية وإن حاولنا ذلك، لكننا نستطيع توضيح المراد من الأسلوب البياني بذكر طائفة من الأساليب الكلامية التي إذا كانت ملائمة للهدف العامّ من القول والوضع العامّ للمخاطب والحال الخاصّ له كانت أسلوباً بيانيّاً مرتقياً في معارج البلاغة الرفيعة.

فمن الأساليب الكلامية ما يلي:

(أ) أسلوب العرض المباشر الصريح للفكرة المراد الإعلام بها.

(ب) أسلوب العرض غير المباشر، الذي يُعتمد فيه على مقدار ذكاء المخاطب، ويدخل في أسلوب العرض غير المباشر التعريض، والتلميح، والإشارة الخفية، ولهذا الأسلوب صور كثيرة.

(ج) أسلوب الإطناب وعرض الفكرة مبسطة موضّحة من كلّ جوانبها، ولهذا الأسلوب مراتب وصور كثيرة، وهذا الأسلوب يناسب أصنافاً من الناس، وأهدافاً خاصة من الكلام، وأحوالاً خاصّة للمخاطبين.

(د) أسلوب الإيجاز والاختصار، ولهذا الأسلوب أيضاً مراتب وصور كثيرة. وأسلوب الإيجاز والاختصار يناسب أصنافاً من الناس، كالأذكياء وكالأمراء، وأهدافاً خاصة من الكلام، وأحوالاً خاصّة للمخاطبين.

(هـ) أسلوب الترغيب، وله مراتب وصور كثيرة، وهو في الغالب يلائم معظم النفوس الإنسانية، لما خلق الله فيها من مطامع.

(و) أسلوب الترهيب، وله أيضاً مراتب وصور كثيرة، وهو كأسلوب الترغيب يلائم في الغالب معظم النفوس الإنسانية لما خلق الله فيها من حذر وخوف.

(ز) أسلوب العنف والقسوة، وهو يلائم بعض الناس في بعض الأحوال.

(ح) أسلوب الرقة واللّين، وهو في أكثر الأحوال أسلوب نافع يعطي ثمرات طيبات.

(ط) أسلوب الإثارة للعواطف والانفعالات، وكثيراً ما يكون هذا الأسلوب نافعاً ومجدياً في الحماسة والخطابة، ومواقف التشجيع على الإقدام والبسالة.

(ي) أسلوب الإقناع الفكري الهادىء، وهذا الأسلوب هو الأسلوب النافع في تأسيس العقائد، والمفاهيم الاجتماعية، والأسس الأخلاقية، ومبادىء المعرفة، ومسائل العلوم.

(ك) أسلوب الجدل المنطقي الملتزم بمنهج الحق وآداب المناظرة، وهذا الأسلوب هو الأسلوب الذي يجدي مع بعض المخالفين في الرأي، الذين لهم مهارات جدلية.

وهكذا تختلف أساليب القول، وكل منها يناسب أهدافاً خاصة من الكلام، وأصنافاً خاصة من الناس، وأحوالاً خاصة للمخاطبين، وقد يجتمع عدد من هذه الأساليب في كلام واحد حينما لا تكون متنافية.

فعلى متدبّر كتاب الله أن يضع في حسابه اعتبار موضوع الملاءمة بين الأسلوب الكلامي وبين الهدف العام من القول، والوضع العام للمخاطب به، وحالته الخاصة، ليكون تدبّره أكثر سداداً، وأصحّ فهماً، وأكثر صواباً، وبه يستبين روائع بيانية عظيمة، كثيراً ما تكون خفية عن الباحثين في تدبّر القرآن المجيد.

• • •

القاعدة الثانية والعشرون

«حول البحث عن الوجوه البلاغية والغرض الفكري من الصور البلاغية في القرآن المجيد»

على متدبر كتاب الله أن يبحث عن الوجوه البلاغية التي اشتمل عليها أيّ نصّ من نصوصه، وأن يمعن النظر لاستجلاء الغرض الفكري من الصورة البلاغية التي يكتشفها، فليس المهمّ الإشارة إلى الصورة البلاغية البديعة فقط، بل ينبغي أيضاً استجلاء الغرض الفكري من استخدامها مع غرض الإبداع البلاغي، والإعجاز البياني.

* * *

إن البحث عن الوجوه البلاغية التي اشتمل عليها أيّ نصّ قرآني يُتيح للدارس أوسع مجال تطبيقي للقواعد البلاغية، ويهيىء له فرصة نفيسة لتمكين قواعد علوم المعاني والبيان والبديع في نفسه، حتى تصبح قواعد هذه العلوم وروائع أخرى لم تلاحظها هذه القواعد، بالمران التطبيقي إيجابية مؤثرة، تظهر ثمراتها البديعة فيما يُنتج من أدب نثري أو شعري.

ومن شأن دراسة النصوص البليغة، ذات البيان الرفيع، أن تمنح دارسها ببصر وإمعان ملكة الذوق البياني الرفيع، والإحساس بمواطن الجمال الفني، والقدرة على النقد الصحيح، ثم القدرة على المحاكاة، فالإبداع، وفق الخصائص الإبداعية الفطرية التي لديه.

ولدى بحث أيّ جانب بلاغيّ لا بدّ من استجلاء الغرض الفكري من الصورة البلاغية، فهذا أمر مهمٌّ جدّاً.

* * *

الأمثلة

المثال الأول:

قول الله تعالى في سورة (الرعد /١٣ مصحف /٩٦ نزول):

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا . . . ﴿١٧﴾ ﴾.

إنّ الصورة البلاغية في هذا النصّ هي الإسناد المجازي، إذ أسند السيلان إلى الوادي، مع أن المراد سيلان الماء فيه.

والغرض الفكري من هذا المجاز هو إعطاء السامع صورة تُشْعِر على سبيل التخيُّل بأنّ الوادي فعلاً يسير، وهذه الصورة قد تحدث في وهم الإنسان، أو في تخيّلاته حينما يشاهد فعلاً هدير الماء الكثير المتدفق الذي يملأ الوادي.

* * *

المثال الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدثر /٧٤ مصحف /٤ نزول): في وصف المشركين النافرين من دعوة الرسول ﷺ:

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ ﴾.

قَسْوَرَة: صيغة «فَعْوَلَة» من القَسْرِ وهَوَ القهر والأخذ بإكراه. وهذا اللفظ يطلق لغة على الأسد، لأنه يقسر فريسته، ويطلق على الرُّماة الصيّادين الذين يصيدون الحيوانات البرّيّة بسهامهم، فيقسرونها بوسائلهم، ويُكرهونها حتى يأسروها.

والفكرة التي سيق لها التشبيه في هذا النصّ، هي أنّ دَعْوَة الإسلام، وما جاء في القرآن دعوةُ تَذْكِرَةٍ فكريَّة بحقائق موجودة في فكر الإنسان ووجدانه، ودعوة تعليم لحقائق يُطالَب الإنسان بعد ذلك بأن يتذكرها دواماً، والإنسان بعد أن تُعْرَضَ عليه التذكرة حرٌّ في أن يَسْتجيب لها فيؤمن، أو يرفضها فيكفر، فهي إذَنْ ليست مُطَارَدَة مُكْرِهٍ مُجْبِرٍ قَاسِرٍ، يُلَاحِقُ طَرِيدتَه ليفترسها أو يَصِيدَها، كما يَفْعلُ الأسد، أو كما يفعل الرُّماة الصيَّادون.

إنّ الإنسان ذا الفكر لا يَفِرُّ من عَرْض التَّذْكِرَاتِ الفكريّة عليه، بل يَقْبَلُ عَرْضَها، ومُنَاقَشَتَها، ثمّ هو بعد ذلك إمَّا أن يقبلَهَا وإمَّا أن يَرْفُضَها.

فإذا وجدنا قَوْماً تُعْرَضُ عَلَيْهِمُ التَّذْكِرَةُ الّتي لا إكراه فيها ولا جَبْرَ ولا قَسْر، فَيَسْتَنْفِرونَ منها، أي: يَنْفِرُونَ، كالمذعورين من مُطَارِدٍ يُرِيدُ قَتْلَهُمْ، وَهُمْ لا يستطيعون مواجهته، فأقربُ تشبيهٍ يَنْطَبِقُ على حالِهم بدقَّةٍ بالغة، تشبيهُهُمْ بقطيع من حُمُر الوحش، طَارَدَهَا أَسَدَ، أو جماعةٌ من الرُّمَاةِ الصَّيّادين، فاستنفَرَتْ مَذْعُورة.

إنّه لا داعيَ لِنُفْرَتِهِمْ إلّا إذا كانُوا كالحمير لا يُفَرِّقون بين التذكرة القائمة على الفكر والعلم والمنطق والحجة والبرهان، وبين الافتراس الذي يفعله الأسد، أو الصَّيْد الذي يفعله الصيّادون الرُّمَاة، والذي يشبهه الإكراه والْقَسْرُ الفكريُّ، بقوَّةِ السلاحِ وَالسلطان.

فهذا التشبيه له غرضٌ فكريٌّ يدلُّ عليه، وهو غرض دقيق جدّاً، وليس مجرّد صياغة تشبيهيّة جماليّة فيها معنى التشفيّ من الذين رفَضُوا التذكرة، وأعرضُوا عنها.

* * *

المثال الثالث:

قول الله عزّ وجل في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول) في وصف المنافقين:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ

﴿فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

في هذا النصّ ضرب الله عزّ وجلّ مَثَلَيْن لصنفي المنافقين:

الصنف الأول: هو الصنف الذي مرد على النفاق، فهو كافر ضمناً دون تردد، متظاهر بالإسلام كذباً وزوراً، لذلك جاء في وصف أفراده قول الله عزّ وجلّ:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

لكنّ هذا القِسْمَ لم يصل إلى مرحلة الجزم بهذا الموقف، الذي يُعْلِنُ فيه الإسلامَ ويُبْطِنُ الكفرَ من أول الأمر، بل مرَّ بمرحلةِ رؤية نور الإسلام، والاستضاءَةِ به، ثم آثَرَ اتباع الهوى، فأغْمضَ جَفْنَيْهِ واسْتَحَبَّ الظُّلُمَاتِ على النور، ثُمَّ أَصَمَّ أُذُنَيْهِ عن الاسْتِماع لِمَضْمُونِ دَعوةِ الحقّ، وإنْ مرَّتْ عَلَيْهِمَا كَلِمَاتُها وآياتُها، وأَخْرَسَ لسانَهُ عَنْ أن يَقُولَ في الدَّعْوَةِ إِلَىٰ دِينِ اللَّهِ كلمة واحدةً صادقة.

- فدلَّ على أَنَّهم شَهِدوا نُورَ الإسلام، وضَوءَ الحقّ أوّل الأمر، قول الله في المثل: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَه﴾.

فهم استوقدوا نار الهداية وأضاءت لهم ما حولهم ورأوا أثر هذه الإضاءة.

- ودلَّ على أنّهم أغمضوا أجفانَهُمْ، فذهب الله بنورهم بمقتضى قوانينه السببيّة، قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

- ودلَّ على أَنَّهُمْ أَصَمُّوا آذانَهُمْ عن الإصغاء لدعوة الحق، ولَوْ جَلَسُوا في مجالس الدعاة، وأخرسوا ألسنتهم عن أن يقولوا في الدعوة إلى الله كلمة حقّ واحدة، قول الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾.

وبغية إعطاء صورةٍ كاملةٍ مستجمعةٍ لهذا الصنف قال الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: بعد أن أَغْمَضُوا عُيُونَهُمْ عن هدي الإسلام، وأَصَمُّوا آذَانَهُمْ عن دعوته، وأَخْرَسُوا ألسنتهم عن أن يدعوا إليه بكلمة حقٍّ واحدة، صاروا بالنسبة إلى جانب الهدى والنور على حالةٍ هم فيها: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ.

وبعد أن انحازُوا انحيازاً كُلِّيّاً إلى جانب الظُّلُمَاتِ عن تصميم إراديّ واعٍ، كانوا بمقتضى ذلك لا يرجعون إلى جانب الضَّوْء، ولذلك قال الله عزّ وجلّ بشأنهم: ﴿فهم لاَ يَرْجَعُونَ﴾.

والصنف الثاني من المنافقين: هو الصنف المذبذب بين الإيمان والكفر، وهو إلى الكفر أقرب.

وهذا الصنف لم تنطمس بصيرته انطماساً تامّاً، إذْ لم يُغْمِضْ أجفانه عن النور دواماً بعنادٍ وإصرار، بل هُو يفتح أجفانه أحياناً فَيَرىٰ نور الإسلام، وضياء الحق، ويمشي فيه قليلاً، ثُمَّ يُغْمضُ اتّباعاً للهوى، وإيثاراً للحياة الدنيا، فيقفُ في مواقع الضلالة، ولا يتابع مسيرته على صراط الله المستقيم. ويسمع أحياناً ما في القرآن من إنذارٍ مخيف، ووعيد ترجف منه القلوب، ثُمَّ يُصِمُّ سمعه، فلا يفهم ممّا يُقَال شيئاً.

وقد جاء في المثل الثاني تصوير حالة هذا الصنف من المنافقين تصويراً دقيقاً جدّاً.

● فهم ليسوا في الظُّلُمَاتِ دَواماً، وليسوا في النور دواماً، وليسوا في الصّمم دواماً، وليسوا يسمعون دواماً، لكنّهم متردّدون مذبذبون بين ذلك، وقد دلّ على واقع حالهم هذا قول الله عزّ وجلّ في المثل الثاني:

﴿أو كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ورَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾.

إنَّهُم حين يُغْمضـون أجفانهم يكـونون في الـظُّلُمات، وهم في هـذه الحـالـة يصمّون آذانهم أيضاً، وهذه هي الحالة الغالبة في واقعهم. وحين يفتحون إلى النور عيـونهم يرون النـور، لكنّهم لا يفتحونهـا إلاّ قليلاً، فـرؤيَتُهُمْ لَهَا كَـالْبَرْقِ الخـاطف وعندها يسمعـون آيات الـوعيد، لأنّ انفتـاح أسماعهم يـرافق انفتاح أبصـارهم وهم فيما سوى ذلك يُصِمُّونَ آذانُهْم حتَّىٰ لَا يخافوا فيسلُكُوا صراط الله مجافين أهواءهم، وهم حريصون أشدّ الحرص على شهواتهم واتباعِ أهوائهم.

فصورة حالهم المتذبذبة بين جانب الكفـر وجانب الإيمـان، جانب الـظلمات وجانب النور، مـع ملاحظة أنهم يكونون في معـظم أوقاتهم في الكفـر والظلمـات، تُشْبِهُ صُورَةَ حـال من كان في صَيِّبٍ من السمـاء، أي: في مطر غـزير يَنْـزل بالخيـر والخصب والنمـاء، والذي هـو كتعاليم الـدين التي تتنـزّل من السمـاء بخيـر النـاس وسعادتهم، فيه نور فمن فتـح عينيه نَحْوه رآه، وفيه وعيد وإنذار فمن سمعه وترجّـح عنده الصدق خاف عذاب الله، إذا رأى لمـع الضـوء الذي يـأتي به البـرق مشىٰ في النـور مهديّـاً على الصراط، وإذا انقـطـع ضـوء البـرق عنـه وأظلم الجـوّ تـوقف في مكانه، وبقي حيران لا يدري أين يسير، فإن سار تخبَّطَ على غير هُدى.

لقد أعطاه الله بصراً كان باستطاعته أن يرى النور به دوامـاً لكنّه لم يفعـل مـع أنّ النـور قويٌّ كـاف لهدايـة كلّ طـالب حقٍ وهدى، بـل جعل يغمض عينيـه عنـه، وأعطاه الله سمعاً، كـان باستـطاعته أن يستمـع بـه إلى كلّ بيـانات الهـدى من الله، لكنّه لم يَفْعَلْ، إذْ هو يسمَـعُ بعض الشيء كالإنـذارات المخيفة، ثم يَحْجُب سْمَعَـه ويُصِمُّ أذنيه، كالذين يضعون أصابعهم في آذانهم عند شديدات الـرعود المصحـوبة بالصواعق، حذر الموت من شدّة وقـع الصوت، ومن الصواعق التي تخرّ مرافقة له.

فما داموا يـرون بعض الضوء، كمـا يرى الـذي يكـون في الصيّب نـور البرق الخـاطف، وما دامـوا يسمعون بعض كـلام الله، ثم يصـدّون أسمـاعهم عنـه، كمـا يسمـع الرّعد الذي في الصيّب المصحوب بالرّعد، فإذا اشتدّ عليه جعل أصابعه في

أذنيه حتى لا يسمعه، فإنَّ الله سَيُبْقِي لهم ـ بمقتضى حكمته في إمهال عباده ـ أَسْمَاعَهُمْ وأَبْصَارَهم، مع أنه لو شاء لعاقبهم، فذهب بسمعهم وأبصارهم، فصاروا صُمّاً بُكْماً عُمْياً، كما فعل بأصحاب القسم الأوّل.

أولئك سَدُّوا أسماعهم وأبصارهم كليّاً، فجعلهم الله صُمّاً وعُمْياناً، أمّا هؤلاء، فإنّهم ما زالوا يسمحون لأنفسهم بأن يَرَوْا بعض النور، ويسمعوا بعض الهدى من القول، فلم يجعلهم الله صُمّاً وعُمْياناً، إمهالاً لهم، وقطعاً لأعذارهم، وعسَىٰ أن يتركوا النفاق، ويؤمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، أو يترك بعضهم النفاق ويؤمن صادقاً.

كلُّ هذه المعاني المتشابكة، دلّ عليها المثل الثاني، للقسم الثاني من قِسْمَي المنافقين.

- الصَّيِّب: مثال ما ينزل من السماء على الرسول.

- ظلمات: مثال حال من يُغْمض عينيه عن هدى الله، ونور كتابه.

- رعد: مثال آيات الإنذار والوعيد.

- بَرْق: مثال لَمَحاتٍ منْ نورِ مَا يُنَزِّل الله على رسوله، حين يفتح هؤلاء عيونهم للرؤية.

- يجعلون أصابعهم في آذانهم: مثال من يَصُدُّ سمعه عن آيات الوعيد بعد أن يسمع بداياتها.

- الصواعق: مثال العقوبات التي يتخوف المنافقون الْمُذَبْذَبُونَ أن تنزل بهم.

- والله محيطٌ بالكافرين: أي: ما دامت حالهم كذلك فهم بحكم الكفرة، لأن مدّة إقبالهم على الإيمان لم تصل إلى مستوى إخراجهم من دائرة الكفر.

- كلّما أضاء لهم مشوا فيه: مثال حالهم حينما يفتحون أعينهم على ما جاء به رسول الله.

- وإذا أظلم عليهم قاموا: مثال حالهم حينما يغمضون أعينهم، وهي الحال الغالبة عليهم.

* * *

وهكذا يتبيَّن لَنَا أنّ كلَّ مثل من هذين المثلين قد جيءَ به لتحقيق أغراض فكرية، ودلالات مقصودات، من خلال كلّ كلمة فيهما، ومن خلال كلّ صيغةٍ، مع تداخلٍ وتشابكٍ في الأداء معجز.

وقول الله عزّ وجلّ في بداية النصّ ﴿مثلهم﴾ أي: مثل مجموع المنافقين الذين ينقسمون إلى قسمين على وجهين:

فالقسم الأول: ﴿كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً...﴾.

والقسم الثاني: ﴿كصيّبٍ من السماء فيه ظُلُمات ورَعْدٌ وبرق...﴾ أي: كمن في صيّب...

وحرف العطف (أو) في ﴿أو كصيِّبٍ...﴾ هو للتقسيم، لا للتشكيك، ولا للتنويع في ضرب المثل.

وهذا التقسيم لم يتنبّه له معظم المفسرين، فلم يكتشفوا الغرض البياني من المثلين.

* * *

المثال الرابع:

يقول الله عزّ وجل في سورة (الأعراف /٧ مصحف /٣٩ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ بشأن سؤال قومه له عن الزّمن الذي تحدث فيه السّاعة التي يتم بها إنهاء الحياة الدنيا.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾ .

أيّان: اسم استفهام يُسْأل به عن الزمان المستقبل، وتستعمل عادةً فيما يُراد تعظيم أمره وتضخيم شأنه، أو استغرابه واستبعاده، وفي غير ذلك يستعمل لفظ «متى».

مُرْسَاها: بضمّ الميم مصدر ميمي من «أرْسَىٰ» اللازم بمعنى «رَسَا» تقول: رسَا الشيءُ يَرْسُو رسُوّاً، وأَرْسَىٰ إرْسَاءً إذَا ثبت واستقرّ. ويأتي «أَرْسَىٰ» متعدِّياً، فتقول: أرْسَاهُ إذَا ثَبَّتَه. وشاعَ استعمالُ الرُّسُوّ والإرساءِ في وصول السُّفُنِ إلى الميناء، وإلقاء مراسيها لتثبت وتستقرّ.

وفي استعمال الرّسّو والإرساء للدلالة على وقت انتهاء مسيرة هذه الحياة الدنيا، استعارةٌ قَائمة على تشبيهها بالسفينة، وتشبيه الزمن بالبحر، وتشبيه انتهاء نظام هذه الحياة الدنيا بالرسوّ في مرفأ هذا البحر الزَّمِني.

والغرض الفكريّ من هذه الاستعارة الدلالة على معنىً فلسفي، هو أنّ هذا النظام الكونيّ بتراتيبه وتصاريفه المتتابعة لحظة فلحظة، وبالتغييرات المستمرة التي تجري فيه، يشبه سفينة جارية في البحر، لها في كلّ لحظة موقع وحركة جديدان دائماً، وأنّ هذا التجدّد لا ينتهي إلاّ إذا قامت الساعة، وانتهىٰ بها كلّ هذا النظام، كما تتوقف السفينة في الميناء، وتلقي مراسِيَها، وتثبت وتستقر عنده.

فلم يكن استخدام هذه الاستعارة لمجرّد الإمتاع الفني بصورة بلاغيّة جماليّة، بل اقْتَرن به غرض فكريّ اشتمل على بيانات ذواتِ قيمة، مع الإيجاز الشديد والاقتصاد في العبارة، وهكذا شأن التشبيهات والاستعارات، إذْ تكفي فيها الكلمة الواحدة عن جملٍ كثيرة.

ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ والأرض: استعير في هذه الجملة الثّقل للدلالة على تعذّر وصول المخلوقات في السماوات والأرض من الملائكة والإنس والجنّ إلى العلم بوقت قيام الساعة.

لأنّ الثقيل هو الذي لا يستطيع المخلوق رفعه وحمله.

وهنا تنطلق أذهاننا إلى إدراك الأمور المعنوية الثقيلة، فالمشكلة الاجتماعية المعقّدة ثقيلة لا يستطيع المعالج حلّها، والمعضلة الحسابيّة ثقيلة لا يستطيع الحيسوب حلّها. أمّا ما يستطيعه المخلوق فهو إمّا خفيف بالنسبة إليه، وإمّا مُسَاوٍ لقوّته، وقد يكون الشيء ثقيلاً بالنسبة إلى بعض المخلوقين، وخفيفاً أو مساوياً لقدرات آخرين.

أمّا أن يتعذّر وصول أهل السموات والأرض إلى فعل شيء ما أو إلى علم أمْرٍ ما، فهو دليلٌ على أنّه أثقل من كلّ قدراتهم، إذْ تظلُّ قُدْرَاتُهم بالنسبة إليه طائشة، ويظلُّ هو ثقيلاً فلا تستطيع قدراتهم رفعه. وإذا كان المقصود من رفعه كشفه والعلم به لأنّه في مكانه الذي هو فيه مستور، فإنّ معنى ذلك أنّهم لا يستطيعون الوصول إلى العلم به.

فعبَّرَ بكون العلم بوقت الساعة ثقيلاً على أهل السموات والأرض عن عجزهم عن الوصول إلى العلم به، لأنّ من لوازم الشيء الثقيل أن لا يُستطاع رفعه، حتّىٰ يساوي القوّة الرافعة أو يكون أخفّ منها.

ولمّا كان العلم بوقت الساعة في مكان عميق مخفيّ عن أهل السموات والأرض، فإنّ الغرض من رفعه العلم به، لكنَّهُمْ لا يستطيعون رفعه، فهم لا يستطيعون العلم به. وهذا التعبير من أدقّ التعبيرات وأبرعها، وأجمعها للغرضين الفكري، والجماليّ البلاغيّ الفنيّ.

لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً: أي: إلّا فَجْأَةً دُونَ علْمٌ منكُمْ بوَقْت إتيانها.

يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا: يأتي لفظ «حَفِيّ» في اللّغة بعدّة معانٍ:

- الحفِيُّ بالشيء: المعتني المهتمّ به.
- الحِفيُّ بالشيء: العالم به علم استقصاء.
- الحِفيُّ: الملحفُ في المسألة عن الشيء، الذي يسأل عنه بتكرار.
- الحفَيُّ: المستقصي في السؤال.

وجاء في أقوال المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿كأنّكَ حَفيٌّ عنها﴾ ما يلي:

- كأنّك استحفيت السؤال عنها حتّى علمتها. روي عن مجاهد.
- كأنّك عالم بها. روي عن الضحّاك، وابن زيد.
- كأنّك معنيٌّ ومهتمٌّ بالسؤال عنها.

ويمكن أن نلخص من جملة المعاني اللغوية مع أقوال أهل التفسير، فنقول في تفسيره ما يلي:

يسألُكَ قومُكَ عن الساعة كأنَّك مهتمٌّ بهم راغبٌ في إجابتهم على سؤالهم عن وقت الساعة، وكأنّكَ عالم بوقت الساعة أو مهتم بالعلم به تسأل ربّك عنه.

وهذا من بديع استعمال اللفظ الواحد في المعاني المتعدّدة التي يدلُّ عليها. من باب الإيجاز والاقتصاد في التعبير، مع الدلالة على معانٍ كثيرة.

والله أعلم.

• • •

القاعدة الثالثة والعشرون

«حول الاستغناء في الأداء البياني بتعبيرات مختلفات موزعات على الأشباه والنظائر للدلالة على التكامل البيانيّ فيما بينها وطرد استعمالها في سائرها»

من التكامل البياني البديع في القرآن الكريم أسلوب تخصيص كلٍّ من الأشباه والنظائر في النصّ بتعبيرٍ يفيد معنىً خاصّاً، وهذا التعبير يصلُح اطّرادُه في سائر الأشباه والنظائر، وبتوزيع التعبيرات ذوات الدّلالات المختلفات على الأشباه والنظائر يَحْصُل الاستغناء عن إعادة كلِّ شبيه ونظير عدّة مرّات بعَدَدِ هذه التعبيرات، للإتيان به في كلِّ مرّة مقترناً بواحد منها حتى استغراقها.

ففي هذا الاستغناء إيجاز رائع من جهة، ومسَرَّة لنَبَاهة الأذكياء، وتخلُّصٌ من الركاكة التي يجلُبها التكرير في طريقة التعبير، وتتكامل التعبيرات فيما بينها في أداء المقصود من دلالاتها المختلفات، ويُفْهَمُ ذلك من قرينة جمع الأشباه والنظائر في نصٍّ واحد، وقد يدلّ عليه بدءٌ وختام.

ويلاحظ مع هذا التوزيع التكاملي في العبارات ذوات الدلالات المختلفات براعةُ انتقاءِ التعبير الأكثر ملاءمة للشبيه الذي يُقْرَن به، مع صلاحيّة التعبيرات الأخرى له.

* * *

الأمثلة

المثال الأول:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

ففي هذا النصّ ينهى الله الذين آمَنوا عن سِتِّ قبائح اجتماعيّة، مِنْ شأنِهَا بَذْرُ بُزُورِ الْفُرْقَةِ والْعَداوةِ والبغضاء، لما فيها من إيذاءٍ أو إضرارٍ بالآخرين، وهي قبائح تشتمل على ظلم من الإنسان لأخيه الإنسان، وكُلُّ ظلم بين الناس من شأنه أن يورث العدواة والبغضاء، ويوقع الفرقة بين الجماعة الواحدة.

والقبائح الستّ هي:

١ ــ السخرية.

٢ ــ اللّمز.

٣ ــ التنابز بالألقاب.

٤ ــ اتّهامُ المؤمنين بالظّنون الضعيفة التي لا تقوى على الاتهام.

٥ ــ التجسُّس على المؤمنين.

٦ ــ الغيبةُ للمؤمنين المتقين.

وهذه القبائح أشباه فيما بينها ونظائر، كأنواعٍ من جنس واحد.

ويلاحظ في هذا النصّ أنّ كلَّ نهي فيه قد انفرد بلون تعبيريّ ذي دلالة خاصّة قابلةٍ لأن تكون شاملةً للمنهيَّات الأخرى.

١ ــ في السخرية: ﴿لَا يسخر قومٌ من قوم ولا نساء من نساء﴾.
٢ ــ وفي اللّمز: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أنفسكم﴾.
٣ ــ وفي التنابز: ﴿ولا تنابزوا بالْأَلقاب﴾.
٤ ــ وفي الظنّ المنهيّ عنه: ﴿اجتنبوا﴾.
٥ ــ وفي التجسُّس: ﴿ولَا تجسَّسوا﴾.
٦ ــ وفي الغيبة: ﴿ولا يَغْتَبْ بعضكم بعضاً﴾.

ويلاحظ أنّه يصحُّ في كلٍّ منها استعمال التعبيرات الأخرى، لتؤدّي فيه دلالاتها.

● فيقال مثلاً في السخرية مع ما جاء في النصّ:
(لا تسخروا من أنفسكم ــ ولا تَتَساخروا ــ و ــ اجتنبوا السخرية ــ و ــ لَا تسخروا ــ و ــ لَا يسخر بعضكم من بعض).

● ويقال في اللّمز مع ما جاء في النصّ:
(لا يلمز قومٌ قوماً ولا نساءٌ نساءً ــ و ــ لا تتلامزوا ــ و ــ اجتنبوا اللّمز ــ و ــ لا تَلْمِزوا ــ و ــ لَا يَلمِزْ بعضكم بعضاً).

وهكذا في سائرها، فأغنى أسلوب التعبير الذي جاء في واحدة منها عن إعادته في سائرها، فتكاملت التعبيرات في أداء المقصود من دلالاتها المختلفات.

ومع ذلك فقد اختير لكلّ قبيحة من هذه القبائح الست صيغة التعبير التي تدلّ على أبرز صورة من صورها، وهذا من الدّقة والبراعة والإبداع الفكريّ والفني.

(أ) فالسخرية تغلب فيها المشاركة الجماعيّة، إذ الساخر يضحك بسخريته آخرون فيكونون مشاركين له في عمله، فجاء التعبير فيها بأسلوب: ﴿لَا يَسْخَرْ قومٌ

من قوم، ولا نساءٌ من نساء﴾ وجاء إفراد النساء عن الذكور، لأنّ الغالب أن لا يسخر الرجال من النساء، وأنْ لا يسخر النساء من الرجال، ولـلإشارة ضمناً إلى أنّ المجتمعات الإسلامية هي مجتمعاتٌ غير مختلطة في الغالب من الأحوال، فتقلُّ فيها السخرية بين الصنفين، والخطاب في النصّ ابْتَدأ بِنِدَاء الذين آمنوا.

(ب) واللمز يغلب فيه الطابع الفرديّ الخفيّ الذي يُدْرِكه أهل الفطانة والنباهة، فجاء التعبير فيه بأسلوب: ﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أنْفُسُكُم﴾ وللدلالة على أنّ من لَمَزَ أخاه المؤمن فكأنما لمز نفسه، لأنّ المؤمنين هم بمثابة الجسد الواحد.

وهذا المعنى مع أسلوب هذا التعبير يصلح تعميمه على سائر القبائح السّت.

(ج) والنَّبْزُ باللَّقَبِ، وهو الشتم بالألقاب القبيحة، عمل تغلب فيه المشاركة بين فريقين، فَمَنْ نَبَزَ غَيْرَهُ ردّ عليه المنبوزُ غَالباً بمثل قوله، أو بأقبح منه، انتقاماً لنفسه، فالتّنابز كالتقاتل، من أجل ذلك جاء التعبير فيه بأسلوب: ﴿ولاَ تَنَابَزُوا بالألقاب﴾.

وهذا المعنى مع أسلوب هذا التعبير يَصْلُح تعميمه على سائر القبائح السّتّ.

(د) وأفضل وسيلة لترك الظنّ الذي يأثم به صاحبه هو اجتناب كثير من الظنّ، لأنّ من جرى مع ظنونه أوصلته إلى ما يأثم به حتماً، لما لاتباع الظنّ من مزالق، وتسلُّط على النفوس، فجاء التعبير فيه بأسلوب الأمر بالاجتناب، أي: بالابتعاد عن جانب كثير من الظنّ، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً من الظَّنّ إنَّ بعض الظَّنِّ إثم﴾.

وأسلوب الأمر بالاجتناب يصلُح تعميمه على سائر القبائح السّتّ، ففي الابتعاد عن حدودها سلامةٌ وحفظٌ ووَرَعٌ محمود.

(هـ) والتجسس يغلب فيه العمل الفردي ضدّ فرد أو جماعة، فاختير له صيغة النهي العام عنه، فجاء التعبير فيه بأسلوب: ﴿ولا تَجسَّسوا﴾ وهو أسلوبٌ يصلح تعميمه على سائر القبائح الست.

(و) والغيبة ظاهرة من ظواهر القبائح الاجتماعية التي يؤذي ويضرُّ بها النّاس بعضُهم بعضاً، إذْ فيها مُغْتَابٌ وسامعٌ مشارِكٌ له أو أكثر، فجاء التعبير في النهي عنها بأسلوب ﴿ولا يغتب بعضُكُمْ بعضاً﴾.

ودلالة هذا التعبير يَصْلُح تعميمها على سائر القبائح الستّ.

إنّ المتأمّل الفطن يكشف أنّ جمع هذه التعبيرات ذوات الأداء المختلف في نصّ واحدٍ قَدْ جَمَعَ عِدّةَ رذائلَ اجتماعيةٍ بغيةَ النهي عنها، يُشْعر بأنّ كلَّ تعبير منها صالح لتعميمه على الجميع.

وهذا من روائع الإعجاز البياني فيما يظهر لي. والله أعلم.

* * *

المثال الثاني: «مجلس مناظرة قرآنية»:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل /٢٧ مصحف /٤٨ نزول):

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ

- ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

- أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ

- أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

- أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا

● أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾

● أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ

● أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

● أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ

● أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾

● أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ

● أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ

● قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

اشتمل هذا النصّ على رسم منهجٍ لمناظرةٍ قُرآنية حول موضوع واحد، هو الاستدلال على توحيدِ الإلٰهيّة للّهِ عزَّ وَجلَّ، بالاستناد إلى واحدانيته في رُبوبيّته. فتَوْحِيدُ الربوبية الذي تَدُلُّ عليه الظواهر الكونية، وتجربات دُعاء الاضطرار، يلزم عنه عقلاً توحيد الإلٰهيّة له عزّ وجلّ.

هذه المناظرة تسلسلت في عناصر علّم الله فيها رسوله والمؤمنين كيف يناظرون المشركين في موضوع توحيد الإلٰهيّة.

وهذه المناظرة تبدأ بعبارة:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وسَلاَمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾.

هذه خطبة بَدْءِ المناظَرَة وافتتاحها.

وتبـدأ المناظـرة بطرح سؤال عـامّ حول كـلّ ما يجعله المشـركون شـركـاء للّه عـزّ وجـلّ، لانتـزاع الجـواب من الفـريق المنـاظـر. والسؤال هـو: آللَّهُ خَيْـرٌ أَمْ مَـا يُشْرِكُون؟.

وهـذا السؤال يضـع الفريق المسؤول من المشـركين، والمـدعـوّ إلى تـوحيـد الإلٓهيّة للرّب الخالق أمام موازنة بين الرّبّ الخـالق لكلّ شيء، وبين كُـلِّ مَا يجعله المشركون شركاء للّه عزّ وجل، من ملائكة، أو جنّ، أو بَشَرٍ ولو كانوا أنبياء ورُسلاً، أو شجرٍ أو حجرٍ أو غير ذلك من أسمـاء يسميها النـاس، كالـطبيعة والقـوانين وغير ذلك، وهي كلّها من خلق الله ووضعه وتدبيره.

إنّ أيّ إنسان ذي فكر وعقـل متى نظر في هـذه الموازنـة، وصرف عن نفسـه سوابق الأفكار، والتقاليد الاعتقاديّة، وكان لديه رغبة في الاعتراف بالحقّ، لا بُدَّ أن يقول: اللَّهُ خير. فهو الرّبّ الخالق، وهل يساوي المخلوق الخالق؟ هذا غير معقول إطلاقاً وغير مقبول.

فإذا اعترف المسؤول المشركُ المدعوُّ إلى توحيد الإلٓهيّة بهـذه الحقيقة، فقـد قطـع المناظر شوطاً مُهمّاً في مناظرته، وانتقل به في طريق إقنـاعه إلى مـوقـع أقرب إلى المطلوب.

فإذا كان المدعوُّ من الـذين يَرَوْن تـوحيد الـربوبيّـة للّه عزّ وجـلّ، استطاع من يريد إقناعه أن يُقيم الحجّةَ عليه بسهولة، في موضوع تـوحيد الإلٓهيّـة، إذْ يُبَيِّنُ له أنّ من كـان هو الـرّ بّ الخـالق الأحـد لكـلّ شيء في الـوجـود، فهـو وحـده المستحق للعبادة، ولا أحد من دونه يستحقُّها، ذلك لأنّ عبادة الْعَبْدِ المربوبِ إنّما تكون لربّـه الذي بيده كلّ وجوده وعدمه، حياتِه وموتِهِ، وصحتِـهِ ومرضـهِ، ونفعه وضُـرّه، ودنياه وآخرته.

وإذا كـان ممّن يَشُكُّ في تـوحيد الـربوبيّـة اتّجه من يُـريد إقنـاعه لـلاستـدلال

بظواهر خلق الله في الكون مرحلةً فمرحلةً، وينتقي من الظّواهر ما هو أقرب إلى الوصول إلى إقناعه.

ومن ضمن ذلك لفت نظره إلى تجربة الدعاء المستجاب، وهو دعاء المضطر، الذي يَجْعَلُ الله عزّ وجلّ استجابته برهاناً تجريبيّاً على وجوده، وأنّه سميع بصير عليم خبير يُلَبِّيّ دعاء من دعاه بحكمته، فيثبت له بذلك أنّه هو الرّبّ الذي بيده ملكوت كلّ شيء، وهو الذي يجيب دعاء المضطر إذا دعاه مضطّراً، طالباً بصدقٍ الدليل التجريبي على وجود الرّبّ الواحد الأحد المهيمن على كلّ شيء، من وراء الظواهر المشهودة بالحواسّ، وأنه هو العليم السميع البصير المجيب القريب ممّن يدعوه.

وفي التعليم الوارد في هذه الآيات يُبَيِّن الله عزّ وجلّ لنا كيف نُجْرِي المناظرة الإقناعيّة مع من نريد إقناعه، وذلك بأنْ تكون على طريقة طرح الأسئلة عليه حول أدلّة وحدانية الله في ربوبيته، من خلال توجيه نظره لظواهر الكون، وتجربات دعاء المضطرّ.

وعقب كلّ فقرة من فقرات السؤال عن الظواهر، التي ينبغي أن تنتهي باعتراف الفريق المدعوّ إلى التوحيد، بأنّ الرّب حقاً هو الله عزّ وجلّ، يأتي سؤاله حول لازم توحيد الربوبّية، فيقال له:

إذن: أفيصحّ أن يكون إلّهٌ معبودٌ مع الله عزّ وجلّ، مع أنه هو وحده الرّب الخالق.

هذا ما يدلّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿أإلّهٌ مع الله؟!﴾ على طريقة الاستفهام الإنكاريّ التعجبيّ.

أي: إذا كان الله هو وحده الرّبّ الخالق باعترافك، أفيصحُّ عقلاً أن تعبُد غيره معه أو من دونه؟!.

من أجل ماذا تعبُدُه؟. ألجَلْب نفعٍ لك أو لمن تحب؟ وهذا الأمر هو بيد الله وحده باعترافك. ألِدَفع ضُرٍّ عنك أو لمن تحبّ؟ وهذا الأمر هو بيد الله وحده باعترافك.

فيتمّ بذلك الإقناع، أو الإلزام المسكت والإفحام.

ونلاحظ في هذا النص التعليمي الموضّح لأسلوب من أساليب المناظرة الإقناعية حول توحيد الإلّهيّة للرّب الخالق، بالرجوع إلى انتزاع الاعتراف والتسليم بتوحيد الربوبيّة للّه عزّ وجلّ الّذي يلزم عنه عقلاً أنّه هو وحده المستحقّ للعبادة، فلا إلّه غيره، ما يلي:

أولاً: أنّ الفقرة الأولى من التساؤل عن بعض ظواهر الخلق، قد ختمها الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿بل هم قومٌ يَعْدِلُون﴾ أي: بل هم قومٌ يعدلون عن الهدىٰ والحق إلى سبُل الضلال والباطل.

ثانياً: أنّ الفقرة الثانية من التساؤل عن بعض ظواهر الخلق قَدْ ختمها الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون دلالات هذه الظواهر بما فيها من آيات على وحدانية الرَّبّ الخالق.

ثالثاً: أنّ الفقرة الثالثة من التساؤل المتضمنّة السؤال عمّن يُجيب المضطَّرَّ إذا دَعاهُ ويكشف السوء ويجعلهم خلفاء الأرض، قد ختمها الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قليلاً ما تتعظون، وتنتفعون من آيات الله وأدلة وبراهين وحدانيته، وتواتر نعمه التي تُذَكّركم به.

رابعاً: وأنّ الفقرة الرابعة من التساؤل عن بعض ظواهر خلق الله وتدبيره وتصريفه أمور الكون، قد ختمها الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكون﴾ أي: تَنَزَّهَ وابتعدَ إلى جهة العلوّ الأكمل عمّا يشركون.

خامساً: وأنّ الفقرة الخامسة من التساؤل، وهي المتضمنّة السؤال عن بَدْءِ الخلْقِ وإعادته، وعمّن يرزق من السماء والأرض، قد ختمها الله عزّ وجلّ بقوله:

﴿قُلْ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: هاتوا الدليل المثبت بحق أنّ ما تدّعون أنهم شركاء لله، هُمْ شركاء له في حقيقة الأمر.

وقد ختمت الفقرات بما سبق بيانه مع أنّ الموضوع واحد، هو الاستدلال على توحيد الربوبيّة، ولازمه الذي هو توحيد الإلَهيّةِ من خلال النظر في آيات الله في كونه.

ونلاحظ أنّ ختم كلّ فقرة منها يصلح لأن يكون ختاماً لسائر الفقرات، مع أنّ كلّ فقرة منها قد ختمت بما هو ألصق بها، وأكثر ملاءمةً لها. فاختيار كلِّ ختام ليكون خاتمة الفقرة بعينها فيه مراعاة الأمر المناسب، مع الإشارة بالجمع العام إلى صلاحيّته للتعميم على كلّ الآيات.

فيمكن أن نقول في كلٍّ منها: ﴿بَلْ هُمْ قَومٌ يَعْدِلُونَ ـ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ـ قَليلاً مَا تَذَكَّرُونَ ـ تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ـ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وهذا التوزيع مع تكامل دلالات الفقرات، وصلاحيتها للتعميم على كلّ عناصر النصّ، من روائع الإعجاز البيانيّ في القرآن المجيد.

* * *

المثال الثالث:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي

سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

تسِيمُون: تطلقون أنعامَكُمْ سائمةً تَرْعَىٰ مِنْ شجر الأرض ونباتها.

والنجومُ مسخراتٌ بأمره: جملة مستأنفة، لأنّ من النجوم ما هو غير مسخّر لَنا، فَلَمْ تُعْطَفْ على اللّيل والنهار والشَّمسِ والقمر.

ومَا ذَرأ لَكُمْ في الأَرض: أي: ومَا خلق لكُمْ في الأَرْض، فذرأ بمعنى خلق.

وتَرَىٰ الْفَلْكَ: الْفُلْك السفينة، تذكّر وتؤنّث، وتُطلق على الواحد والاثنين والجمع.

مَواخِرَ فيه: أي: جواريَ فيه، تَشُقُّ الماء، مع صوتٍ تُحْدِثه، والماخر هو الذي يشقُّ الماء إذا سبح، فيعطي عمله صوتاً، وربما كان لصوت منخري السابح أصل في مادّة الكلمة.

رواسيَ: أي: جبالاً راسيات مثبِّتات لِقشَرَةِ الأرض.

أن تميد بكم: أي: أن تتحرّك بكم الأرض من تحتكم وتتزلزل كما يحصل في قشرة الأرض أيّام الزلازل، فالجبال مُثَبِّتاتٌ لها، والمَيْدُ دُوار وغثيان يحصل للسّكران، ولِرَاكب البحر، ومَادَ الشيء يَمِيدُ مَيْداً تحرَّكَ ومال.

نلاحظ في هذا النصّ من القرآن الكريم أنّه يوجّه أنظار الناس إلى نِعَمِ الله على عباده فيما خلق لهم وذرأ في الأرض وفي السماء، وفيما سخّر لهم ممّا خلق، ليتفكَّروا فيها، وليعقلوا ما فيها من آيات، ويعقلوا نفوسهم عن أهوائها، وليذَّكّروا دَوَاماً ما يجب عليهم من الشكر لربّهم على نعمه عليهم، وليشكروه بقلوبهم ونفوسهم وألسنتهم وأعمالهم، فإذا فعلوا ذلك تابعوا مسيرة حياتهم وهم يهتدون على صراط الله العزيز الحميد، حتى نجاتهم وفوزهم بدار النعيم.

وقد جاء هذا النصّ مفصّلاً في خمس مجموعات، كلُّ مجموعة منها ضمّت طائفة من نِعَمِ الله على عباده، ممّا وجّه النصّ أنظار الناس إليها.

- فالمجموعة الأولى ختمها الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.
- والمجموعة الثانية ختمها الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يعقلون﴾.
- والمجموعة الثالثة ختمها الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.
- والمجموعة الرابعة ختمها الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾.
- والمجموعة الخامسة ختمها الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿لعلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

من هذه الخواتيم نلاحظ ما يلي:

١ ــ أنّ أهل التفكُّر، وأَهْلَ التَّذكُّر، قد يكتفون إذا تفكّروا وإذا تذكّروا بآية من ظواهر النّعم، ثُمَّ لَا يتابعون البحث عن سائر الآيات التي فيها، أمّا الّذينَ يَعْقِلُونَ فإنّهم لا يَكْتَفُونَ بالتوصُّل إلى آيَةٍ فقط، بل يُتَابِعُون البحث، أو تكون عندهم قدراتٌ من النظرات الشمولية. فيكتشفون آيات من آيات الله فيها، وكلَّما اكتشفوا آية عقلوها ودوّنُوها، وانتقَلُوا بحثاً عن غيرها. لذلك جاءت الآية مفردة بجانب قوم يتفكرون، وبجانب قومٍ يذّكّرُون، وجاءت مجموعة بجانب قومٍ يعقلون، فقال تعالى: ﴿إنّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٢ ــ أنّ كلّ واحد من هذه الخواتيم يَصْلُحُ لأن تُخْتَمَ به كُلُّ مجموعة من هذه المجموعات الخمس، مع أنّ كُلَّ مجموعة منها قد ختمت بما هو أنسب لها، إمّا من جهة المضمون، وهي المجموعات الثلاث الأول، أو من جهة الترتيب

الملائم للتسلسل المنطقي الملاحظ في المجموعتين الأخيرتين، وذلك لأنّ الشكر إذا حصل تحققت به الهداية.

إنّ المجموعة الأولى اشتملت على توجيه الأنظار لظاهرة المطر، وما فيه من شراب للناس، وإنبات للشجر والزرع وما يتحصّل من ذلك من ثمرات، وإدراكُ آية الله في هذه النّعم في متناول كلّ من يتفكر من الناس، فلا يَحْتاج فيها إلاّ إلى بعض التفكر، فناسبَها الختام الذي اختير لها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أمّا المجموعة الثانية فقد اشتملت على توجيه الأنظار لظاهرات نعم الله في الليل والنهار والشمس والقمر، وظاهرة النجوم المسخّرةِ بأمر الله، وإدراكُ الدقائق في هذه الظاهرات لا يكفي لها التفكر العادي، بل لا بدّ لها من تتبّع بعقل، أي: بفهم عميق، ورَبْطٍ وتدوينٍ للنتائج أولاً بأوّل، مع متابعة سلسلة المستَنْبَطَات، فناسبها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. وبعض ما فيها من آيات قد اكتشفه في هذا العصر علماء البحث العلميّ في الكون.

وأمّا المجموعة الثالثة فقد جاءت بصيغة لفظٍ من ألفاظِ العموم في قول الله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ وهذه أمور يَنْتَفِعُ منها الناس في كلّ ساعات حياتهم، وكلُّ إنسان يُدْرِكُ حاجَتُه لها، ويُمارسُ الاستمتاع بما فيها من نعم، فلا يحتاج نقلها إلى ساحة التصوُّر الإيماني إلاّ إلىٰ تَذَكُّر، فناسبها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

على أنّ كُلَّ ختامٍ من هذه الخواتيم يصلح لكلّ مجموعة من هذه المجموعات، وتَصْلحُ جميعها في خاتمة كلّ المجموعات لو جمعت معاً.

ولكن حصل هذا التوزيع للدلالة على مضمون فكريّ يفيدُه التلاؤم، مع تحقيق الجمال الفنيّ في الأداء. وبما أنّ مضامين المجموعات أشباه ونظائر فقد حصل الاستغناء بذكر كُلِّ ختام من هذه الخواتيم الخمس عقب المجموعة التي تلائمه، وهو استغناء عن تكراره في سائرها، مراعاةً للجمال البياني، وتخلّصاً من

الـركاكـة، وإمتاعـاً لنباهـة الأذكياء، وتحقيقـاً لأغراض فكـرية يُفِيْـدُهَا التـلاؤم عنـد التوزيـع.

وحصل بذلك التوزيـعُ التكـامليُّ في العبارات ذوات الـدلالات المختلفات، المشيرُ إلى صلاحية كلّ الخواتيم في كلّ المجموعات، وأغنت قرينة الجمـع العامّ في النصّ عن التكرير، الذي تقترن به الركاكة في التعبير، وعن ذكر الخواتيم جملة واحـدة في آخر كـلّ المجموعـات، المفوِّتِ لأغـراض بيانيـة، والبعيدِ عن الجمـال الفنيّ في الأداء.

والحمد لله على توفيقه وفَتْحِهِ.

• • •

القاعدة الرابعة والعشرون

«حول التنويـع في أساليب الأداء البياني»

على متدبّر كـلام الله عزّ وجـلّ أَنْ يضـع في ملاحـظته دائمـاً، لدى تـدبُّر أيّ نصّ قرآني، أنَّ القرآن المجيد عجيب التنويـع في أساليب الأداء البياني، حتّى في عرض الأقسام التي تـدخل في مَقْسِمٍ واحـد، أو تدخـل تحت عنوانٍ واحـد، إيثاراً للجمـال الفنيّ بالتنويـعِ المجدِّدِ لِتَنْبِيـهِ الفكر، والمحـرّك للذهن في مختلفـاتٍ من الأساليب، وَقَدْ يَقْتَرِنُ بإيثار هذا الجمال الفنيّ غرض بيانيٌّ آخر، كـاختيار الأسلوب الأكثر ملاءمـةً للقِسْمِ الذي جـرى التنويـع في الأسلـوب عنـد ذكـره، أو الأسلوب الأكثر مضامين فكريّةً يُراد الدلالة عليها مـع ذكره، أو الأكثر بـلاغة وإيجـازاً بالنسبـة إلى مضامينه الفكرية التي يُراد بيانُها. إلى غير ذلك من أغراض.

والغفلةُ عن مـلاحظة هـذا التنويـع في أسـاليب الأداء البياني يجعـل المتدبّـر لكـلام الله عزّ وجـلّ لا يُدْرِكُ التـرابط الفكريّ في مـوضوع النصّ، فيفهمُـه وحداتٍ مجزّآتٍ غيرَ مترابطات، وتَنِدُّ عنه بسبب ذلك روائـع مفاهيم، وقد يقـع في أغاليط، إذْ يُحَاوِلُ أن ينتزِعَ ارتباطاً من قريب أو بعيد لأدنى مناسبة أو شبهة مناسبة، أو يخترع من عنده أموراً لا أصل لها، ولا دليل عليها.

* * *

الأمــثــلــة

المثال الأول:

عرض القرآن المجيد ما كان في غزوة الأحزاب من المنافقين وضعفاء الإيمان الذين في قلوبهم مرض، من أقوالٍ وأعمالٍ، هي مظاهر لما في قلوبهم.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب /٣٣ مصحف /٩٠ نزول):

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

● هذا قِسْمٌ ممّا كانَ منهم، جاء بأسلوب: ﴿وَإِذْ يقول﴾ بـإِذْ الظرفيـة، أي: واذكر إذْ، وبالفعـل المضارع الـذي يـدُلُّ على أنّ المقـالـة دارت على الألسنـة حتّى شاعت، فقالَها المنافقـون، وقالَهـا تأثُّـراً بهم الذين في قلوبهم مـرض دون النفاق، وهو مرض ضعف الإيمان.

● أمّا القسم الثاني ممّا كان منهم فقد جاء أسلوب عرضه كما يلي:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ . . . ﴿١٣﴾﴾.

فجاء بأسلوب: ﴿وَإِذْ قَال﴾ بإِذْ الظرفية، أي: واذكُـرْ إذْ، وبالفعـل الماضي، الذي يدلُّ على أنّ هـذه المقالـة قد قيلت من طـائفة منهم، ثم لم تتكـرّر، ولـم تَدُرْ على الألسنة.

● وأمّا القسم الثالث ممّا كان منهم فقد جاء أسلوب عرضه كما يلي:

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

فجاء بأسلوب ﴿وَيَسْتَـأْذِنُ فريق منهم﴾ بصيغـة الفعل المضـارع للدلالة على تكـرار الاستئذان من أفـراد هذا الفـريق، أو على الإلحاح بـه، ولم يأت على النسَقِ

السابق من استعمال كلمة ﴿إِذْ﴾ قبله، لأنّ حالتهم هذه كانت مستمرّة لا تستدعي التذكير بزمن حدوثها.

واعتنىٰ القرآن المجيد بتربية هذا الفريق المستأذن، وبيان حالته النَّفْسيّة، وإقناعه، لتصحيح العناصر المختلَّةِ لديه من عناصر القاعدة الإيمانية.

● وأمّا القسم الرابع ممّا كان منهم وهو التعويق والتثبيطُ عن الخروج مع الرسول ﷺ لمواجهة عدُوّه، فقد جاء أسلوب عرضه كما يلي:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

فاختلف الأسلوب هُنَا اختلافاً كلّياً، إذْ نلاحظ أنّ التعويق قد عرضه الله عزّ وجلّ وصفاً ثابتاً لفريق من المنافقين، لا أنّه مجرّد عرض طارىء استدعته حالة مزعجة، وهو الأمر الذي كان في غزوة الأحزاب، فحصَلَ فَهْمُ قِسْمِ التعويقِ والتثبيط من ذكر المعوّقين.

وقبل ذكر المعوّقين بيّن الله عزّ وجلّ تَحقُّقَ علمه بهم، ليشير هذا البيان من طرفٍ خفيٍّ إشارةَ تَهْدِيدٍ لهم، بأنّهم مكشوفون معلومون لله، وبأنّ عقاب الله يترصّدُهم.

فمع التنويع في الأسلوب لإكساب التعبير جمالاً فنّياً، وإبداعاً مُعْجِباً، اختير لعرض كلّ قسم الأسلوبُ الأكثر ملاءمةً له، والأكثر مضامين فكريّة يراد الدلالة عليها مع ذكره، كإضافة أنّ المعوّقين معلومون لله عزّ وجلّ، وأنّ تعويقَهُمْ لإخوانهم صفة ثابتة من صفاتهم، وملازمة لهم في كلّ الأحوال، فهم معوّقون دائماً، وقائلون في كل المعارك لإخوانهم: هَلُمَّ إلينا، لا تخرجوا مع محمّد إلى قتال.

* * *

المثال الثاني:

سورة (الماعون /١٠٧ مصحف /١٧ نزول) سورة مكية جاء فيها بيانٌ لبعض صفات المكذبين بالدّين، أي: بالجزاء الذي يجريه الله في الآخرة، بعد البعث ليوم الدّين، والصفات التي ذكرت فيها للمكذّب بالدين هي:

١ ــ أنّه يدعُّ اليتيم، أي: يدفَعُه بعنف وقسوة، بسبب أنّ الرّحمةَ قد نُزِعَتْ من قلبه، وهو لا يؤمن بيوم الدين، حتى يطمع بثواب الله، أو يخاف من عقابه.

٢ ــ ولا يحضّ على طعام المسكين، أي: فكيف يبذل من طعامه أو ماله.

٣ ــ ولا يهتَمُّ بأن يصلّي لربِّه، ولو آمن بوجوده، بل يظلُّ سَاهياً، لأنَّه مكذّب بيوم الدين، فإذا صلّىٰ أو عمل عملاً من أعمال العبادة أو الخير، فإنّه يرائي الناس بذلك، ولا يعمل لله عزّ وجلّ، وغرضه ممّا يُرائي به جلب مغنم، أو دفع مغرم، على أنّ ما يرائي به لا يكلّفه في الغالب مالاً.

٤ ــ وهو شحيحُ كزُّ النفس، يمنع أيّة معونة، حتى الأمتعة التي تسمى «الماعون» عند العرب، والتي يتساهل البخلاء بإعارتها، يَمْنَعُهَا إذا لم يكن له في إعارتها منفعة دنيوية.

هذه الصفات الأربع جاءت في سورة (الماعون) على قصرها بأسلوبين من الأساليب البيانية.

● فالصفتان الأوليان جاءتا بأسلوب:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾.

بلفت النظر إلى رؤية صفاته المنكرة على طريقة الاستفهام الاستهجاني مع ما يتضمنه من إقناع بأنّ الإيمان بيوم الدين يُصْلِح في الأفراد صفاتهم وأخلاقَهم الاجتماعية، ويجعلهم رحماء يفعلون الخيرات، ويحضّون على فعلها.

• والباقي من صفاتهم، جاء بأسلوب التهديد والوعيد:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

فحصل بهذا الأسلوب التنويع الجمالي الفني، مع التهديد والوعيد بالويل، وهو العذاب الشديد، ووادٍ في جهنّم فيه عذاب أليم.

* * *

المثال الثالث:

ويجد المتدبّر لسورة (ق / ٥٠ مصحف / ٣٤ نزول) تنويعاً عجيباً رائعاً، في عرض الأدلة، لدفع شبهات منكري البعث.

• ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾.

• ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ... ﴿٦﴾﴾.

• ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ... ﴿١٥﴾﴾.

• ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ... ﴿١٦﴾﴾.

أنواع من الأساليب البيانية، مع أنَّها تَرُدُّ شبهات المنكرين لقضيّة البعث للحساب والجزاء، إنّ الموضوع فيها موضوع واحد، لو عالجناه بأساليبنا الإنسانية، لقال أحسن أديب فينا وأبرع كاتب مقالاً ذكر فيه أنّ شبهات المنكرين ترجع إلى عدّة توهُّمات:

فالأول: جوابه كذا. **والثاني**: جوابه كذا. **والثالث**: جوابه كذا. **والرابع**: جوابه كذا.

أما أن يطوي ذكر الشبهات والتوهمات، ويأتي بالردود الإقناعية ضمن أساليب متنوعة، فهذا ممّا يندّ عن الخواطر مهما كانت لمّاحة صيادة فنون أدبيّة.

• • •



القاعدة الخامسة والعشرون

«حول البحث عن أغراض الاختلاف في التعبير في مختلف النصوص»

على متدبّر كتاب الله أن يتأمل بحثاً عن أغراض الاختلاف في التعبير، الذي اشتملت عليه النصوص القرآنية التي تعالج موضوعات متماثلة أو متشابهة أو متقاربة. فعسى أن يهتدي إلى دلالات مقصودة زائدة على مجرّد التنويع في أسلوب التعبير.

* * *

من الملاحظ في القرآن المجيد وجود التنويع في أسلوب التعبير، وقد لا يكون ذلك لمجرّد التنويع في البيان، بل قد يشتمل على أغراض أخرى مقصودة في الدلالة، لذلك كان على المتدبّر لكلام الله أن يبحث عن هذه الأغراض ما وجد إلى ذلك سبيلاً، لا سيّما في النصوص التي تعالج موضوعات متماثلة أو متشابهة أو متقاربة.

فكثيراً ما يهدي التأمّل المتعمّق الدقيق لاستبانة دلالات مرادة مختلفة تدل عليها التعبيرات المختلفة، وقد يتحصل من ذلك لطائف معانٍ أشارت إليها الفروق الواردة في أساليب التعبير.

* * *

الأمـــثـــلـــة

المثال الأول:

يقول الله تعالى في سورة (النساء /٤ مصحف /٩٢ نزول):

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ... ﴿٩٥﴾﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (فاطر /٣٥ مصحف /٤٣ نزول):

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾.

وكذلك في سورة (غافر /٤٠ مصحف /٦٠ نزول) آية (٥٨).

ويقول الله تعالى في سورة (المائدة /٥ مصحف /١١٢ نزول):

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴿١٠٠﴾﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (الحشر /٥٩ مصحف /١٠١ نزول):

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

فهذه مجموعة من النصوص تتحدث عن نفي التساوي بين متقابلين، ويلاحظ فيها أنه لم يأت فيها تكرير حرف النفي (لا) أو (ما) في جانب الطرف المقابل.

بخلاف قول الله تعالى في سورة (فاطر /٣٥ مصحف /٤٣ نزول):

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

وقول الله تعالى في سورة (فُصّلت /٤١ مصحف /٦١ نزول):

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿٣٤﴾﴾.

والتأمل يهـدي إلى أنّ ما ذكـرت فيه كلمـة (لا) في الطرف المقـابل، يحمـلُ دلالة عدم التساوي النسبـي بين أفراد كلٍّ من المتقابلين، إضافة إلى عـدم التساوي العام بين المتقابلين.

فالظلمات متفاوتة غير متسـاوية، والنـور متفاوت غيـر متساوٍ، إضـافة إلى نفي التساوي بين الظلمات بوجه عام والنور بوجه عام.

وكذلك الظلّ وما فيه من برودة هو متفاوت بين أفـراده، والحَرور متفـاوت بين أفراده، فحرور من الدرجة الدنيا، وحرور من الدرجـات العليا، مـع عـدم التساوي بين الظلّ والحرور بوجه عام.

وكذلك الأحياء والأموات. فالأحياء غير متساوين، إذْ فيهم الصالـح والفاسد، والمؤمن والكافر، والمسلم والمجـرم، والأموات غيـر متساوين، إذْ فيهم المنعّم في البـرزخ وفيهم المعذب، على حسب أعمـالهم في الدنيـا، وفيهم السعيد والشقي. هذا مـع عدم التساوي العامّ بين صنف الأحياء وصنف الأموات.

وكذلك الحسنة والسيئة، فـأفراد جنس الحسنـة متفاوتـة، وأفراد جنس السيئـة متفاوتة، ولا تساوي بداهة بين الحسنة والسيئة بوجه عام.

أمّا النصوص التي لم يأت فيها هذا التكرير لحرف النفي فلم تقصد فيها هـذه الـدلالة، إنمـا قصد فيهـا مجرّد نفي التسـاوي بين المتقـابلين، وإن كـان الـطرفـان المتقابلان فيها أو في بعضها من الأمـور النسبية أيضـاً، لكن لم يقصد فيهـا الدلالـة على النسب المتفاوتة في كلّ طرف.

* * *

المثال الثاني:

يقول الله تعالى في سورة (النحل /١٦ مصحف /٧٠ نزول):

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾.

في هذه الآية لم يأت عطف النجوم على الليل والنهـار والشمس والقمر، بـل جاء فيها الكلام على النجوم مستأنفاً ببيان حكم تسخيرها بأمر الله.

ويتضح لنا بالتأمل أنّ الليل والنهار والشمس والقمر قد سخّرها الله لنا نحن سكان الأرض، فقال تعالى في شأنها: ﴿وسخّر لكم﴾.

أمّا النجوم فهي مسخّرات في الكون العظيم، والكثير منها ليس مسخّراً لنا، فهي إذن مسخّرات بأمر الله، وقد طُوي ذِكْر من هي مسخّرة له، أو ما هي مسخّرة له.

* * *

المثال الثالث:

يقول الله تعالى في سورة (التوبة /٩ مصحف /١١٣ نزول):

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا . . . ﴿٥١﴾ ﴾.

ويقول الله تعالى في سورة (الحشر /٥٩ مصحف /١٠١ نزول):

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا . . . ﴿٣﴾ ﴾.

يلاحظ في هاتين الآيتين أنّ فعل (كتب) عُدّي في الأولى باللام: ﴿كتب الله لنا﴾ وعُدّي في الثانية بعلى: ﴿كتب الله عليهم﴾ مع أنّ المكتوب في كلٍّ منهما من نوع المصائب الدنيوية.

وحين نبحث عن سرّ هذا الاختلاف يتضح لنا أنّ التعدية باللام قد جاءت في جانب المصيبة التي تنزل بالمؤمنين، وهي بالنسبة إليهم نعمةٌ من الله وليست بنقمة، لأنها مكفّرة، ورافعة للدرجات، لذلك قال الله لرسوله: ﴿قل: لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا﴾.

بخلاف التعدية بعلى فقد جاءت في جانب المصيبة التي نزلت بأهل الكفر: ﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذّبهم في الدنيا﴾ أي: فهي عقوبة نازلة عليهم.

* * *

المثال الرابـع :

يقول الله تعالى في سورة (الأنعام /٦ مصحف / ٥٥ نزول) :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

ففي جانب إخراج الحيّ من الميت استُعمل فعل (يُخرج) الدالّ على التجدّد كما يقول البلاغيون، وفي جانب إخراج الميت من الحيّ استعمل اسم الفاعل (مُخرج) وهو وصف له معنى الثبات، وليس فيه معنى التجدّد.

ويخطر لي أنّ هذا التنويع في التعبير قد يتضمن الإشارة إلى أن إخراج الحي من الميّت يأتي متدرجاً في أطوار، أمّا إخراج الميت من الحيّ فيأتي مرة واحدة، دون أن يمر في أطوار، فالحيّ يموت حين يلفظ النفس الأخير.

* * *

المثال الخامس :

١ ــ يقول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء /٤ مصحف /٩٢ نزول) ينادي الذين آمَنُوا نِداء تكليف :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾ .

٢ ــ ثُمَّ نَاداهُمْ بِقَوْلِهِ عزّ وجلّ في سورة (المائدة /٥ مصحف /١١٢ نزول) :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ .

بالقِسط: بالعدل. **ولا يَجْرِمنّكم**: أي: ولا يحملنكم حملاً فيه معنى ارتكاب جرم. **شنَآن**: بُغض متحرّك ثائر.

هاتان آيتان موضوعهما تكليف الذين آمنوا أن يكونوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ وبالعدل، في ولايتهم وحكمهم إذا تَوَلَّوا وِلَايةً أو قضاءً على مجتمع ما، وأَنْ يكونُوا شُهَداء لِلَّهِ وبالعدل، إذا دعاهم داعي الحق إلى أن يقدِّموا شهادةً ما.

ونلاحظ في هاتين الآيتين اختلافاً مقصوداً في التعبير له هدفان:

● التكامل في أداء المعاني المرادة، مع التجزئة المتدرجة في تبليغ مفاهيم الدين.

● المحافظة على مستوى الأداء البياني الرفيع، مع تحقيق عنصر من عناصر إعجاز القرآن، وهو أنّ القرآن رغم تنزُّلِ آياتٍ منه مفرقةً في موضوع واحد، وفي أزمان متباعدة، هو متكامل لا يَجد الناس فيه أيّ اختلاف، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

ومن تدبُّر التغييرات في التعبير، الواردة في هاتين الآيتين، يتبيّن لنا ما يلي:

أوّلاً:

● في آية (النساء) جاء: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلَّه﴾.

● وفي آية (المائدة) جاء: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاء بالْقِسْطِ﴾.

فهل الغرض مجرّد التنويع في الأداء البياني الرفيع؟

إنّه غرض يُقْصَدُ لدى البلغاء حقّاً، لكنّه هنا ليس لمجرّد التنويع فقط، إنّما اقترن به قصدٌ آخر يتّصِل بالمعنى، وهو أن الله عزّ وجلّ يأمرُ الذين آمنوا بأوامر أربعة:

الأمر الأول: أن يكونوا قوّامِين للَّهِ إذَا مكّنَ لهم من ولاية، أو قضاء، لا لأنفسهم وأهوائهم، سواءٌ أكان ذلك لأفرادهم أو جماعتهم.

الأمر الثاني: أن يكونوا قوّامِين بالْقِسْطِ، فلا يَجُوروا في قِوامتهم، ولو مع قومٍ تغلي قلوبهم بُغْضاً لهم، ولو مع قوم هم أعداء لهم في الدين.

الأمر الثالث: أن يكونوا شُهَدَاءَ لِلَّهِ إذا دعاهم الأمر إلى أن يُقَدِّمُوا شهادةً ما.

الأمر الرابع: أن يَكُونُوا شُهَدَاء بالْقِسط، فلا يُقدِّموا شهادات كاذبات جائرات، يُهضَمُ بها حقُّ ذي حقّ.

فدلّ التكليف الأول الذي في سورة (النساء) على وجوب القوامة بالقسط والشهادة لله.

ودلّ التكليف الثاني الذي في سورة (المائدة) على وجوب القوامة لله والشهادة بالقسط.

والنصّان جميعاً قد دَلَّا على الأوامر الأربعة، بطريقة رائعة بارعة، اعتمدت على التقديم والتأخير بين كلمتين في صيغة التكليف، هما: «القسط ـ لله». على أنّ كون القوامة لله، تستلزم عقلاً وفي مفاهيم الدين التي سبق بيانها في النصوص أن تكون بالقسط، وأنّ الشهادة لله تستلزم كذلك أن تكون بالقسط، لأنّ الله يأمر بالعدل، فمنذ التكليف الأول قد يُفهم المطلوب لُزُوماً من قبل بعض أهل التدبّر.

ثانياً:

● آية (النساء) دلّت على وجوب القوامة بالقسط والشهادة لله، ولو كان ذلك على خلاف الهوى وما يحبُّ المؤمنُ ذو الولاية أو الشهادة لنفسه، أو لوالدَيْهِ، أو الأقربين، ولو كان من يُرِيدُ الانحياز لجانبه فقيراً، ومن يُرِيدُ الجور عليه غنيّاً تَتَحَّملُ حالته المالية الجور عليه.

فقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ * إنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾. أي: فلا تتبعوا الهوى تاركين أن تعدلوا، أو مجانبين العدل.

● وآية (المائدة) نهت الذين آمنوا عن أن يَحْمِلَهُمْ مَا يَغْلِي في قلوبِهِمْ من بُغْضٍ لقومٍ ما على ارتكاب جَرِيمةِ تَرْكِ واجب العدل لصالحهم إذا كان الحقّ بجانبهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآن قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾.

حتّى الأَعْدَاء المخالفون في الدّين الّذين تَرَوْن في نظركم أنّ من التقوى إضعافَ قواهم بالجور عليهم في الحكم والقضاء، فَأَنْتُم أيها المؤمنون مأمورون أن تكونوا قوّامين عليهم لله وبالعدل، وشهداء عليهم لله وبالعدل، فالعدل معهم هو أقرب للتقوى، أي: لأنّ تطبيق مبدأ العدل يعطي صورة عن كمال الإسلام، وضمانه لحقوق الناس، وانضباط المسلمين بأوامر الله، فلا يضيع عندهم حقّ عَدْوٍّ ولا صَدِيق، فقال تعالى فيها: ﴿اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ﴾ أي: مهما تصوَّرتم أنّ في إضعاف أعداء دينكم بعدم العدل قدراً كبيراً من عناصر التقوى.

ثالثاً:

● في آية (النساء) حذَّرَ اللَّهُ الّذين آمَنُوا من تركِ واجب القوامة بالقسط والشهادة للّه عزّ وجلّ، سواء أكان هذا الترك:

١ ــ بمستوى اللّي، دل عليه قوله: ﴿وَإِنْ تَلْوُوا﴾ وهو مأخوذ من: «لوى رأسه» وهو أقل حركة تُعَبِّر عن عدم الرغبة في مواجهة التكليف.

٢ ــ أو بمستوى الإعراض، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أو تعرضوا﴾ وهو مأخوذ من إعطاء عارضة الوجه، بَدَلَ المواجهة، وهي حركة أكثر من حركة اللّي، وتُعَبِّر عن ترك العمل بالتكليف، معصيَةً واتباعاً للهوى.

ولم يأت هنا التعبير بالتَّولّي والإدبار لأنّ المؤمن لا يكون منه تولٍّ ولا إدبار عن أحكام الله، إنما يكون هٰذان من كافرٍ أو مرتَدِّ أو مسرف جداً في المعاصي والآثام، ومقترب من حدود فَقْدِ الإيمان.

وجاء التحذير من اللّي أو الإعراض بتهديد ضمنيّ لَمْ يُذْكَرْ نَوْعُهُ، وإنَّما جاء من خلال ذكر أنّ الله به خبير، فقال عز وجل: ﴿وإن تَلْوُوا أو تُعْرِضوا فَإنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾.

• وفي آية (المائدة) بيّن الله عزّ وجلّ أنّ مخالفة هذا التكليف تنافي مقتضيات التقوى، والتقوى إنما تكون فيما رتّب الله عليه عقاباً يُتّقى، أي: فهو تكليفٌ يُعاقب الله على مخالفته، فقال عزّ وجلّ فيها: ﴿واتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون﴾.

فتشابك النّصان في أداء المعاني المرادة بطريقة بديعة رائعة عجيبة، وتكامَلا، ومما جاء فيهما التَّغْيِيرُ في التعبير بالتقديم والتأخير، للدّلالة على مَعَانٍ لو جاءت في نصٍّ واحد لنقص هذا النصّ عن مستواه البياني، ولمّا تحصّلت الأغراض التي سبق بيانها.

فعلى المتدبر أن يكون شديد الملاحظة والمتابعة، لتدبّر التعبيرات المختلفات في النصوص، لا سيّما النصوص التي تتناول قضيّة واحدة من قضايا الدين، أو القضايا الأخرى، المبيّنة للظّاهرات الكونية، أو الحقائق العلميّة، أو الوقائع التاريخية، أو غير ذلك.

* * *

المثال السادس:

جاء في تعدية مادّة: «آمن ـ يؤمن ـ مؤمن...» استعمالان في القرآن المجيد.

الأول: التعدية بحرف الجر (الباء) مثل: آمن به، يؤمن به، مؤمنٌ به، وهكذا...

الثاني: التعدية بحرف الجرّ (اللام) مثل: آمن له، لن نُؤمن لك، أنُؤمنُ لك، آمنتم له، ونحوها...

ولدى تحليل الفروق بين هـٰذين الاستعمالين تبيّن لي عدّة أمور:

الأمر الأول: أنّ الإيمان حينما يكون مسلّطاً على الفكرة التي هي موضوع الإيمان، أو الشيء الذي هو موضوع الإيمان، أو ما يطلب اعتقاده والتصديق به، فإنّ التعدية تكونُ بحرف الباء، وهو الاستعمال الغالب في القرآن، فمن ذلك ما يلي:

١ ــ قول الله عزّ وجل في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾.

٢ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف /٧ مصحف /٣٩ نزول):

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

الأمر الثاني: أنّ الإيمان حينما يكون مُسَلَّطاً على محذوف، وهـذا المحذوف هو المطلوب اعتقاده والتصديق به، فالملاحظ أنّ التعدية تكون بحرف اللام.

ولدى تدبر النصوص التي جاءت التعدية فيها بحرف اللام ظهر لي أن اللّام ليست لتعدية مادّة «آمن» ومشتقّاتها لما دخلت عليه اللام، وقد سبرتها فوجدتها في خمسة عشر موضعاً من القرآن الكريم.

أمّا معظمها فقد جرت على طريقة تضمين فعل آخر غير مادة «آمن» أو مشتقاتها، والمضمَّن هو فعل «انقاد» أو «أسلم» منها النصوص التالية:

١ ــ قول الله عزّ وجلّ في سورة (طٰه ٢٠) حكاية لما قاله فرعون للسحرة بعد أن أعلنوا إيمانهم بربّ هارون وموسى:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ . . . ﴿٧١﴾﴾.

أي: آمنتم بما دعاكم للإيمان به موسىٰ منقادين له أو مُسْلِمينَ لـه قبل أن آذن لكُمْ؟!!.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت ٢٩) في سياق عرض جانبٍ من قصّة إبراهيم عليه السلام:

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: فآمن لوط بإبراهيم وبما جاء به منقاداً أو مُسْلِماً له ومُتَّبِعاً.

والنصوص الباقية التي جاء فيها نظير ذلك هي:

(آية ٧٣ من سورة آل عمران ٣) و(آية ٢١ من سورة الدخان ٤٤) و(آية ٥٥ من سورة البقرة ٢) و(آية ١٨٣ من سورة آل عمران ٣) و(آية ٩٠ من سورة الإسراء ١٧) و(آية ٤٧ من سورة المؤمنون ٢٣) و(آية ١١١ من سورة الشعراء ٢٦) و(آية ١٣٤ من سورة الأعراف ٧) و(آية ٧٥ من سورة البقرة ٢) و(آية ١٣٢ من سورة الأعراف ٧).

الأمر الثالث: وجاءت التعدية في ثلاثة نصوص بحرف اللاّم ظاهراً، دون أن تكون لتعدية مادة: «آمن» ودون أنْ يكون المعنى على تضمين معنى فعل آخر، مثل: «انقاد» أو «أسلم» بل لتعليل حدوث الإيمان أو عدم حدوثه، والنصوص الثلاثة هي:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء ١٧) حكاية لمطالب مشركي قريش التعنتيّة التي وجّهوها للرسول ﷺ:

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا

كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

أمَّا: ﴿لَنْ نُـؤْمِنَ لـك﴾ فعلَىٰ التضمين أي: لَنْ نُـؤْمن بـك منقـادين لـك. وليس هذا محِلّ الشاهد.

وأمّا: ﴿وَلَنْ نَـؤْمِنَ لِـرُقِيِّـك﴾ فهـو على معنى: ولن نُـؤْمِنَ لأَجْـلِ رُقِيِّـك، لو ارْتَقَيْتَ.

٢ ــ وقول الله عزّ وجل في سورة (التوبة ٩) بشأن المنافقين:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

طائفة من المنافقين قالوا عن الرسول ﷺ: هو أُذُن. أي: يقبل كلَّ ما يقال لـه دون تفكير.

فعلّم الله رسوله الـرَّدّ عليهم بقولـه: ﴿قل: هُـوَ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ، يُـؤْمِنُ بـالله، ويُـؤْمِنُ لِلْمُـؤْمنينَ﴾.

أي: هو يؤمن بالأنباء الصادقة التي يأتيه بها المؤمنـون، لأجل أنَّهم مؤمنـون عدول لا يكذبون فيما يُخْبرون به، إذْ يردعهم إيمانهم وخوفهم من الله عن الكذب، فليسوا كالمنافقين الكذّابين.

٣ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة ٩) بشأن المنافقين أيضاً:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا

ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) ﴾.

أي: لَا تعتذروا فلن ينفعكم اعتذارُكُمْ. لَنْ نُؤْمِنَ بِصِدْقكم في اعتذاركم لأجل أقوالكم الكاذِبَة، فقد نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ أَنَّكُمْ كَاذِبونَ، وأَنَّكُمْ تَخَلَّفْتُمْ عن غزوة تبوك بغير عذر، والدافع لكم على تخلُّفكُمْ نفاقُكُمْ وعدم صدق إسلامكم.

* * *

المثال السابع:

فعل «أَمَرَ يَأْمُرُ» يتعدّى بحرف «الباء» فتقول مثلاً: أمرتُ ابني بتقوى الله، وقد جاءت نصوص قرآنية كثيرة على مقتضىٰ هذه القاعدة العربيّة، فمن ذلك:

- ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ١٥٧/الأعراف/٧.
- ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ١٠٤ و ١١٤ / آل عمران /٣.
- ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾ ١٣٢/ طه /٢٠.

ويحذف حرف الجرّ قبل «أنْ» المصدريّة بقياس مطّرد، وقد جاءت نصوص قرآنيّة كثيرة على مقتضىٰ هذه القاعدة العربية، فمن ذلك:

- ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ ١٤/ الأنعام /٦.

  أي: بأن أكون أوّل من أسلم.

- ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ﴾ ٣٦ / الرعد /١٣.

  أي: بأن أعبدُ الله.

- ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ٦٦/ غافر /٤٠.

  أي: بأن أُسْلم لربّ العالمين.

ولكنْ جَاء في بعض النصوص القرآنية ما ظاهره تعدية هذا الفعل باللّام، وبالتَّدَبُّر ينكشف لنا أنّ هذه اللّام هي لام التعليل للمأمور به المحذوف.

١ ـ يقول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة /٩ مصحف /١١٣ نزول) بشأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

أي: وما أُمِرُوا بأيّ أمرٍ في دينهم الحقِّ إلّا ليعبُدوا فيما أُمِرُوا بِهِ إلَهاً واحداً لا إلَهَ إلّا هو، فالشرك الذي يمارسُونَهُ هو من تحريفاتهم في دين ربهم سبحانه وتعالى عمّا يُشْرِكون.

وقد حذف المعمول ليعمَّ كلَّ الأوامر التكليفيّة التي أُمِرُوا بها.

٢ ـ ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (البينة /٩٨ مصحف /١٠٠ نزول):

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾.

أي: وَمَا أُمِرُوا بكُلِّ أوامر التكليف التي أنْزلت إليهم وَبلَّغها رُسُلُهم إلّا لأجل أن يَعبُدوا الله مخلصين له الدين حنفاء، فلا يشركوا بعبادته شيئاً.

٣ ـ ويقول الله عزّ وجل في سورة (الشورى /٤٢ مصحف /٦٣ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾.

فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ: المشار إليه ما جاء قبل ذلك في السورة:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ . . . ﴿١٣﴾ ﴾.

وفي هذا دليل قويٌّ جدّاً لقاعدة: «شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا نسخٌ له».

وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ يمكن أن يُفْهَم كما يلي: وَأُمِرْتُ بمَأْمُوراتٍ تتعلَّقُ بالحكم لِأَعْدِلَ بينكُمْ. والمعنيُّون بالخطاب هم أهل الكتاب.

٤ ـ ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمَر / ٣٩ مصحف / ٥٩ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

أي: وأُمِرْتُ بالْبَدْءِ بِنَفْسِي في تَطْبِيقَاتِ الشرائع الإسلامية، لِأَجْلِ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المسلمين. فالمأمور به محذوف دلَّ عليه ما تضمّنه التعليل الذي جاء بعد جملة «وأُمِرْتُ».

٥ ـ ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأَنْعَام /٦ مصحف /٥٥ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ ثمّ لكل مؤمن مسلم:

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

أي: وأُمِرْنا بالتكاليف والشرائع الدينيّة المختلفة، ما يتعلّق منها بالعبادات المحضة وغيرها، لأجْلِ أنْ نُسْلِمَ طائعين مختارين لأحكام رَبِّ العالمين.

وبذلك تتحقّق العبودية الكاملة لله مـع الإخلاص له عزّ وجلّ.

وهكذا ظهر لنا من تدبّـر جملة النصوص أنّ فعـل «أَمَرَ يـأْمُر» لم يتعـدّ بحرف «اللاّم» فمعمول الفعل محذوف دلّ عليـه سوابق النصّ أو لـواحقه، وأنّ «الـلام» قد جيء بها لبيان أنّ المأمور به قد أمر الله به للحكمة التي جاء بيانها فيمـا دخلت عليه لام التعليل، والله أعلم.

• • •

القاعدة السادسة والعشرون

«حول ضرورة ملاحظة قواعد اللّغة العربية ومفاهيم الصِّيغ الصرفية، ولزوم البحث عن سرّ مخالفة الإعراب لمقتضىٰ الظاهر»

على دارس أي نصّ قرآني أن يكون على علم كافٍ بقواعد اللغة العربية نحوها وصرفها، لأنّ فهم معاني النصوص لا يتمّ على وجه صحيح دون العلم الكافي بهذه القواعد:

أولاً:

بين معنى النص وقواعد اللّغة العربية نحوها وصرفها ارتباط يمثّل ركناً أساسيّاً من بناء الكلام العربي، فالجملة العربية بناء كلاميّ يعتمد على أركان:

الركن الأول: مادّة الكلمة وما تدلّ عليه من معنى، بحسب الاستعمال العربي لها، ومرجع هذا معاجم اللّغة، واستعمالات العرب في نثرهم وشعرهم.

الركن الثاني: صيغة الكلمة وما تدلّ عليه الصيغة من دلالات خاصة زائدة على المعنى العامّ الذي تدلّ عليه مادّة الكلمة، والدلالات الخاصة التي تدل عليها صيغ الكلام العربي قد استفيدت من الاستعمال العربي الغالب، الذي دلّ عليه الإحصاء، والمرجع لمعرفة دلالات الصيغ علم الصرف وبعض قواعد علم النحو.

فعلى دارس أي نص عربي بليغ لا سيما كتاب الله عز وجل أن يكون خبيراً بدلالات الصيغ المختلفة لمادّة الكلمة العربية، لأن الفهم الصحيح للنصّ مرتبط بمعرفة ذلك.

١ ـ فصيغة (عالِم) مثلاً من مادّة الكلمة العربية (علم) غير صيغة (عليم) وغير صيغة (علّام) وإنّ اتّحدت كلّها في أنها وصف يثبت أن الموصوف بها ذو علم، فصيغة (عليم) تدلّ على الاتّصاف بالعلم الكثير، وكذلك صيغة (علّام).

٢ ـ وصيغة (قاتَل) مثلاً من مادّة كلمة (القتل) غير صيغة (قتل) فصيغة (قاتَل) تدلّ على المشاركة للعدوّ في فعل التقاتل، أو تدلّ على شدّة البأس من طرف واحد، وهو الأمر الذي يستدعيه التقاتل في العادة بخلاف صيغة (قتَل) فإنّها لا تدلّ على معنى المشاركة في هذا الفعل.

إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة.

الركن الثالث: تركيب الكلام العربي القائم على التقديم والتأخير، ففضلاً عن أنّ قواعد الكلام العربي تقضي بوجوب مراعاة شروط التقديم والتأخير بين بعض عناصر الجملة العربية، كوجوب تقديم الفعل على الفاعل، فإنّ كثيراً من دلالات الجملة العربية تستفاد من تقديم بعض عناصرها أو تأخيره.

فمن أمثلة ذلك تقديم المعمول على عامله، إذا كان جائزاً في الاستعمال العربي، فإنه يفيد التخصيص أو الحصر أو الإشعار بالاهتمام، أو غير ذلك ممّا يدلّ عليه التقديم.

فعلى دارس أي نص عربي بليغ لا سيما كتاب الله أن يكون خبيراً بالدلالات التي يدلّ عليها التقديم أو التأخير بين عناصر الجملة العربية، حتى يحسن فهم النصّ وتدبّر مستواه البياني.

الركن الرابع: الإعراب القائم على تغيير الحركات أو ما ينوب منابها في أواخر الكلمة العربية، وهذا ـ كما هو معروف ـ عرضة للتغيّر وفق موقع الكلمة في دلالة الجملة العربية.

فإذا كان موقع الكلمة مثلاً يقضي بأن من دلت عليه هو فاعل الفعل،

واستوفت الشروط اللازمة للفاعل، وجب أن تكون مرفوعة الحرف الأخير منها. وإذا كان موقعها يقضي بأن من دلّت عليه قد وقع عليه فعل الفاعل، واستوفت الشروط اللازمة للمفعول به وجب أن تكون منصوبة الحرف الأخير. وهكذا إلى سائر الاحتمالات التي يمكن أن تتعرض لها الكلمات العربية، فإذا جاءت الكلمة في النصّ مرفوعة دلّت على معنى مخالف للمعنى الذي تدلّ عليه فيما لو جاءت منصوبة أو مخفوضة، وهكذا إلى سائر الوجوه المختلفة.

وبدهيّ أن تختلف دلالات الجملة العربية باختلاف إعراب الكلمات فيها.

والمرجع لمعرفة قواعد إعراب الكلمة العربية إنما هو علم النحو.

فعلى دارس أي نص عربي أن يكون خبيراً عالماً بقواعد علم النحو، لأنّ فهم النصّ بشكل صحيح كامل مرتبط ارتباطاً كلياً بمعرفة موضع كلّ كلمة في الجملة العربية، ومعرفة إعرابها، وهذا لا يتيّسر إلاّ لمن عنده زادٌ طيّب من هذا العلم، وإلاّ وقع في أخطاءٍ فكريّة فاحشة، وهو يشرح معنى النصّ.

* * *

ثانياً:

قد يأتي في النصّ القرآني ما يخالف إعرابه مقتضى الظاهر، ويقع النحاة حوله في إشكال توجيهه العربي، ومقتضىٰ الحكمة الرّبّانيّة العامة يدعونا للتأمل في الحكمة الخاصة التي اقتضت مخالفة الإعراب في النصّ لمقتضى الظّاهر.

ومهما تيسّر لنا البحث للتوصُّل إلى حكمةٍ تتّصل بغرض من أغراض الدلالة في تأدية معنى من المعاني كان ذلك هو المرجّح، ولا ينبغي قصر الأمر على مجرّد توجيه لفظيّ تسمح به قواعد اللغة العربية.

ومن أمثلة ذلك قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

ولكنّ البرّ مَنْ آمن...: أي: ولكنّ البرّ، وهو التوسع في أعمال الخير فوق مرتبة التقوىٰ هُو برُّ مَنْ تحقَّقَ بمرتبة التقوى أوّلاً، بأن يكون قد آمَنَ باللَّهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتاب والنبيّينَ وأدّىٰ مَا فرض اللَّهُ عليه في مالِه من نفقاتٍ واجباتٍ فآتىٰ المالَ على حبّه ذوي القربَىٰ واليتامي والمساكينَ وابْنَ السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقامَ الصلاةَ وآتَىٰ الزكاة، والْمُوفُونَ بعهدهم إذا عاهدوا.

وكلُّ هذه الصفات تَقَعُ في مرتبة التقوى.

وبعد ذلكَ جاءَ عَطْفُ: ﴿والصّابرينَ في البأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحينَ البأسِ﴾ بالنصب، مع أنّ الذي جاء قبل ذلِكَ مرفوعات.

وأحسنُ ما قال النحاةُ والمفسرون في تخريج نصب ﴿والصابرين﴾ أنه منصوبٌ على المدح، بإضمار فعلٍ تقديره: وأمدح الصابرين. وهو في المعنىٰ معطوف على (مَنْ آمن) أي: ولكنّ البرَّ المؤمنون، والمؤتون المال، والموفون بعهدهم والصابرون، على تقدير ولكنّ البرّ برُّ المؤمنين، فَحُذِفَ المضافُ وأقيم المضاف إليه مقامه، فأَخَذَ حركةَ الرفع بدله.

وقد تأمّلتُ في هذه الآية فوجدتها تبحث في بيان بعض صفات الأبرار، والأعمال التي تدخل في مرتبة البر، وهي مرتبة أعلى من مرتبة التقوى ـ كما بينته في غير هذا الموضع ـ لكنّ شرط مرتبة البرّ التحقُّق أوّلاً بمرتبة التقوى، لأنّ المرتبة الأدنى شرط للارتقاء إلى المرتبة الأعلى.

ونظرت في الأعمال الإسلامية المذكورة في هذه الآية فوجدت أن بعضها

يدخل في مرتبة التقوى باعتبارها شرطاً للارتقاء إلى مرتبة البرّ، ووجدت أنّ بعضها يدخل في مرتبة البرّ الزائد على مرتبة التقوى. ويظهر لنا بوضوح أنّ الصَّبْر في البأساء والضّرّاء وحين البأْس أمْرٌ غير مفروضٍ على المؤمن فرض إلزام يعاقب على تركه فهو من مرتبة البرّ حتماً.

فاقتضى التفريق بين الأعمال التي هي من مرتبة التقوى والعمل الذي هو من مرتبة البرّ نصبَ «الصابرين» على تقدير فعل أمدح، أي: وأمدح الصابرين الذين ارتقوا بصبرهم إلى مرتبة البرّ، ودخلوا في درجات سلّمها، ومثل هذا المدح يستلزم الوعد بزيادة الأجر ممّا يخصّ الأبرار.

أي: فهؤلاء هم الذين يَحِقُّ لهم أن يبحثوا عن الفضائل الزائدة على التي يرتقي المتسابقون فيها في درجات سُلَّم مرتبة التقوى، صاعدين إلى مرتبة البرّ.

وقد جاء هذا في سياق اعتراض السفهاء من اليهود على تحوّل القبلة، زاعمين أنّ البرّ أن يبقى المسلمون على القبلة التي كانوا عليها أوّل الأمر، ولا يتحوّلوا إلى الكعبة، فأبان الله أنّه لا يدخل أصلاً في مَفْهُومِ البرّ التوجُّهُ إلى أيّةِ جهةٍ من المشرق أو من المغرب، فالتوجُّهُ شَكْلٌ مَضْمُونُهُ طاعةُ الموجِّه، فإذا وجَّهَ للمشرق فهو الأمر المطلوب، وإذا وجّه للمغرب فهو الأمر المطلوب، وإذ وجَّهَ للكعبةَ كانت الكعبةُ هي الجهة التي ينبغي التوجُّهُ لها في الصلاة.

ثم إنّ الباحث عن مرتبة البرّ مكلَّفٌ أوّلاً أنْ يَتَحقّق بمقتضيات مرتبة التقوىٰ، التي لا يدخل الداخل في درجاتها إلاّ باستيفائه شروط الإيمان الصحيح، ثم بالتحقُّق بالواجبات الاجتماعية، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد. أمّا الباحث عن البرّ وهو لم يدخل بعد في مرتبة التقوى، فهو كالذي يجادل في لون ستائر القصر، وهو في العراء، لم يَبْنِ لنفسه خيمة، ولا عريشاً، ولا بيتاً من طين قد رفعه بيديه.

• • •



القاعدة السابعة والعشرون

«حول رعاية فواصل الآيات اهتماماً بالنسق اللفظي»

التالي لكتاب الله عزّ وجلَّ بقدْرٍ ما من الملاحظة المتأنيّة يكتشف اهتمام القرآن الكريم بنظام فواصل الآيات، ونسقها اللّفظي، ولو كان ما بعد الفاصلة مرتبطاً بما قبلها ارتباطاً فكريّاً شديداً، مثل الفصل بين العامل والمعمول، والعَمَلِ والغايةِ منه، والموصوفِ والصفة، وأحياناً قد يَفْسُد المعنى بالقطع والوقوف عند الفاصلة دون متابعة قراءة الآية التي بعدها.

ففي بعض الأمثلة من ذلك نلاحظ أنّ رعاية المعنى قد كانت تقتضي وصل الجملة، أو بعض الكلمات من أوّل الآية اللاّحقة، بآخر الآية السابقة، لكِنَّ رِعَايَةَ النَّسَق اللَّفْظِي ونظام توازن الآيات، قد اقتضىٰ إِنْهاءَ الآية عند الفاصلة المناسبة، ممّا يَدُلُّ على أَنّ الجمال في الكلام أمرٌ مقصود، فَفَنِيَّةُ الأداء ولو من جهة اللّفظ فقط أمرْ يَسُرُّ الذّوق العربيّ المرهف لدى تفصيل الآيات، وتمييزها بفواصل داخل السورة القرآنية، فهو أَدعى إلى جذب انتباهه، ولفت نظره إلى المضمون الفكري.

من أجل ذلك جاء ترجيح فَصْل الآية أحياناً عند الفاصل الملائم لذوق البليغ العربي، ولو لم يكتمل معنى الجملة الْقُرْآنِيّة. وجاء أيضاً ترجيح عدم فصل الآية، ولو اكتمل معنى الجملة القرآنية، لأنّ تأثير الأداء اللفظيّ على السمع يقتضي عدم الفصل.

ويظهر هذا بوضوح في السّورِ المكيّة، إذْ روعي فيها الذوق العربيّ

الجاهلي، الذي كان يومئذٍ تأسِرُه الجملُ المتفاصلة بموازين نثريّة، ذات إيقاعٍ خاصٍّ يُحبُّه الذوق العربيّ فيما يقولُ أو يَسْمَعُ من نثر، ؛ وهو المنهج الوسط بين الكلام المرسل والكلام الذي يتحكّم به الوزن المحدَّد والقافية المعيّنة، والفواصل القصيرة.

فلمّا تطوّر الذوق العربي بالتدريب على الآيات الطويلة شيئاً فشيئاً، واعتاد تلاوة القرآن، ظهرت الآيات المتوسطة الطول في سورة (الأعراف) ثم في سورة (فاطر) ثم في سورة (النمل) و (القصص) و (الإسراء) إلى غيرها من السور المكيّة.

ثُمّ ظهرت الآيات الطوال في السّور المدنية، منذ بدء أوّل سورة مدنية، هي سورة (البقرة) مع ما في السور المدنية من آيات متوسطات الطول، وآيات قصيرات.

وقد ذكر السيوطي في الاتقان هذه الظاهرة في القرآن، في «النوع التاسع والخمسين» في فواصل الآي، ولخّص ما ذكره ابن الصائغ الحنفي، في مؤلف له حولها، وما ذكره ابن أبي الأصبغ حولها، فيحسن الرجوع إليه للتوسع.

فعلى متدبّر كتاب الله أنْ لَا يتأثّر بالفاصلة، فيقطع المعنى مع أنّه مرتبط بالآية التي وراءها، وهذا هو المقصود من القاعدة.

ومن مظاهر رعاية الفاصلة تأخير ما حقُّه التقديم مكانةً، أو ترتيباً طبيعيّاً أو عقليّاً.

* * *

الأمـــثـــلـــة

المثال الأول:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الماعون /١٠٧ مصحف /١٧ نزول):

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾

وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

فقول اللّهِ عزّ وجلّ في هذه السورة: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ مرتبطٌ بِمَا بَعْدَهُ ارْتباطاً أساسيّاً، إذ الوقوف عند كلمة «المصلّين» دون ملاحظة ما بعده يُفْسِد المعنى، نظراً إلى أنّ ما بعده وصف تقييدي، فالويل ليس لعموم المصلين، ولكِنْ للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراءُون في صلاتهم، ويمنعون الماعون، وهم من صنف المشركين.

لكِنَّ رعاية النَّسَق اللّفظيّ الجميل في الأداء البياني قد اقتضت رسْم هذه الفاصلة، فتمّ ذلك، مع توجيه تالي القرآن أنْ يَسْتَمِرَّ في تِلاَوَتِهِ، ولو وقف عند الفاصلة، حتَّىٰ يَتِمَّ لَهُ المعنى كاملاً، وَلاَ يقطَعَ تلاوتَهُ قبل ذلك، وإنْ كان يجوز له أن يقف عند الفواصل وقفة مُرَتِّلٍ متابع، لا وقفة خِتَام.

* * *

المثال الثاني:

ويَقول اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (المدَّثر / ٧٤ مصحف / ٤ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾.

فقول الله عزّ وجلّ في هذا النصّ: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُون﴾ موصول بما بعده، وهو ﴿عَنِ الْمجْرِمين﴾ اتِّصال العامِلِ بمَعْمُوله.

لكِنَّ رعاية النسَقِ اللفظيّ الجميل، الذي يقتضيه جمال الترتيل، قد اقتضت رَسْم هذه الفاصلة، فتمّ ذلك، مع التوجيه العامّ لتالي القرآن بأنْ يستمرّ في تلاوته، حتَّىٰ يتمّ لَهُ المعنى، ولو وقف عند الفاصلة وقفة مرتّل متابع.

* * *

المثال الثالث:

ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (الْقَمَر / ٥٤ مصحف /٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾.

إنّ قَوْلَ الله عزّ وجلّ في هٰذا النصّ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: انصرف عن هؤلاء الذين مرَدُوا على الكُفْر وصَارُوا مَيْؤوساً منهم إذْ لَمْ تُغْنِهِمُ النُّذُر. هو مرتبطٌ بقولِهِ عزَّ وَجَلَّ ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُر﴾ من جهة المعنى.

ثم بدأ كلامٌ جديد، يُبَيِّنُ الله فيه مَشْهداً من مشاهد يوم القيامة، يصوّر الله فيه بعض أحداث خروجهم من الأجداث خُشَّعاً أبصارهم، وكأنّهم عند خروجهم جرادٌ مُنْتَشِر.

ففي هذا النص نلاحظ أيضاً أنّ رعاية النسق اللفظي الجميل، الذي يستدعيه جمال الترتيل، قد اقتضت رسم الفاصلة عند قول اللّهِ تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُر﴾ وعدم رَسْم فاصلة عند قوله تعالى: ﴿فتوَلَّ عنهم﴾ مَعَ أنّ الذي بعدها كلامٌ جديدٌ غَيْرُ مُرتبطٍ بجملة: فتوَلَّ عنهم.

ويقالُ هنا أيضاً ما قلناه في المثالين السابقين.

* * *

المثال الرابع:

ويقولُ الله عزّ وجلّ في سورة (صٓ /٣٨ مصحف /٣٨ نزول) في حكاية قصة امتناع إبليس عن السجود لآدم:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ

ﭐلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

١ ـ فقول الله عزّ وجلّ في هذا النّصّ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ مرتبط بقوله قَبْلَهُ: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ارتباط المعمول بعامله.

٢ ـ وقول الله عزّ وجل فيه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ منهم أَجْمَعِينَ﴾ هو خبرٌ لقوله تَعَالَىٰ: ﴿فَالْحَقُّ﴾ في الآية السابقة له، وجملةُ: ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ جملة معترضة، أي: وأنا لَا أقولُ إلَّا الحق، واستفيد الحصر من تقديم المفعول به على الفعل.

فالآية (٨٠) ختمت فاصلتها بكلمة ﴿المنظرين﴾ مع أن الآية التي بعدها هي جارٌ ومجرور متعلّقٌ بالمنظرين.

والآية (٨٤) ختمت فاصلتها بالجملة الاعتراضيّة ﴿والْحَقَّ أقول﴾ مع أنّ الآية التي بعدها هي خبر لكلمة: ﴿فالحقُّ﴾ منها.

وقد جاء ذلك رعايةً لنظام توازن الآيات، وجمال الأداء اللفظي، وتعليماً لنا أن نعتني بتحسين كلامنا، وإعطائه الصّيغ الجمالية حين ندعو إلى الله، ليكون ذلك أكثر تأثيراً في الناس، نظراً إلى أنهم مفطورون على حبّ الجمال.

على أنّ في الوقوف القليل في الترتيل عند كلمة «أقول» إيحاءً خاصاً يهزُّ السامع لتدبر خبر المبتدأ: ﴿فالحق﴾ وهو من قول الله هنا، وهو لا يقول إلّا الحقّ.

* * *

المثال الخامس:

ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء /٢٦ مصحف /٤٧ نزول):

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

فقول الله عزّ وجلّ في هذا النّصّ: ﴿أيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدون﴾ الذي ختمت به الآية (٩٢) مرتبطٌ ارتباطاً ظاهراً بقوله من الآية التي بعدها ﴿مِنْ دُون الله﴾ والارتباط بينهما شديد، هو من قبيل ارتباط المعمول الذي هو قيد لعامله.

لكن رعايةَ النسقِ اللفظي، وتوازنِ الآيات، رَجّحَتْ رسم فاصلة الآية عند كلمة «تعبدون» وعدم رسم فاصلة عقب «من دون الله».

* * *

المثال السادس:

ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافَّاتِ /٣٧ مصحف /٥٦ نزول):

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

إنّ رسْمَ الفاصلة في الآية (٢٢) من هذا النصّ عِنْد كلمة «يَعْبدُون» شبيه بما رأيناه في النصّ السابق من سورة (الشعراء).

* * *

المثال السابع:

ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر / ٤٠ مصحف / ٦٠ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

نلاحظ في هذا النصّ ما يلي:

١ ـ جملة ﴿يُسْحَبُون﴾ التي رُسمت الفاصلة عندها مرتبطة بصدر الآية التي بعدها: ﴿في الحميم﴾ والارتباط بينهما ظاهر.

٢ ـ وجملة ﴿تُشْرِكون﴾ التي رُسمت الفاصلة عندها مرتبطة بصَدْر الآية التي بعدها: ﴿من دون الله﴾ والارتباط بينهما ظاهر أيضاً.

فهل غير رعاية النسق اللفظيّ الجميل من داعٍ دعىٰ لهذا الفصل؟.

* * *

المثال الثامن:

ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون /٢٣ مصحف /٧٤ نزول):

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾.

فقد رُسِمَتِ الفاصلة في هذا النصّ عِنْدَ ﴿ارْجِعُون﴾ مع ارتباط ما بعده في صدر الآية التالية به ارتباط التعليل بالمعلول.

* * *

المثال التاسع:

ويقول الله عزّ وجل في سورة (المعارج / ٧٠ مصحف / ٧٩ نزول):

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١)﴾.

فقد رُسمت الفاصلة في هذا النص عند ﴿لَقَادِرُون﴾ مع ارتباط ما بَعْدَهُ بِهِ ارْتباط المعمول بعامله.

* * *

المثال العاشر:

ويقول الله عزّ وجل في سورة (آل عمران /٣ مصحف /٨٩ نزول) وهي من التنزيل المدني:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾.

فقد جاء في هذا النصّ رسم الفاصلة عند كلمة ﴿والإنجيل﴾ مع ارتباط صدر الآية التالية ﴿مِنْ قَبْلُ هُدَىً للناس﴾ به ارتباط المعمول بعامله.

والسبب في كلّ الأمثلة هو ما سبق شرحه من مراعاة النسق اللفظي. واللَّهُ أعلم.

* * *

المثال الحادي عشر:

حول تأخير ما حقُّه التقديم، رعاية لفواصل الآيات، ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه ٢٠) حكاية لما قاله سحرة فرعون بعد أن رأوْا آية موسى تلقف أدوات سحرهم، وبعد بيان اعترافهم عمليّاً بمعجزته إذْ خرُّوا سُجّداً للَّهِ رَبّ العالمين، دهشةً بما رأوا وإذعاناً للَّه:

﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾.

في هذه الآية نلاحظ تأخير موسى في اللفظ عن هارون عليهما السلام، رعاية لفواصل الآيات السابقة لها، إذْ جاء فيها الكلمات المنتهية بحرف الألف: (سُوَى ــ ضُحَىٰ ــ أتى ــ افترى ــ النجوىٰ ــ الْمُثْلَىٰ ــ اسْتَعْلَىٰ ــ أَلْقَىٰ ــ تَسْعَىٰ ــ مُوسَىٰ ــ الْأَعْلَىٰ ــ أتى) ثم جاءت الآية المنتهية: ﴿بِرَبِّ هَارُونَ ومُوسَىٰ﴾.

ولمّا جاء في القرآن عرض القصة نَفْسِها بآيات تنتهي بحرف النون في سورة (الشعراء ٢٦) التي نزلت بعد (طه ٢٠) بسورة، جاء تأخير اسم هارون عن اسم موسى، وجُعل اسم هارون المنتهي بحرف النون فاصلة الآية، فقال عزّ وجل فيها:

﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ويلاحظ أن آيات سورة الشعراء البـالغة (٢٢٧) آيـة تنتهي بحرف النـون، إلّا (٢٩) آيـة منها فهي تنتهي بحـرف الميم لتقـارب مخـرج الميم من مخـرج النـون، وتقارب نغمة الصوت عند النطق بهما، وإلّا (٤) آيات منها فهي تنتهي بحـرف اللام من كلمة: (إسرائيل) واللّام تقارب في المخرج والصوت النون والميم.

• • •



القاعدة الثامنة والعشرون

«حول استعمال الكلام في أكثر من معنى معاً»

رأىٰ طائفة من الفقهاء والأصوليين أنّ الكلام الذي يمكن أن يدُلّ على معنيين فأكثر معاً في وقت واحد، مع عدم التضادّ بينها، ولا دليل يدُلُّ على صَرْف الكلام عن أحدها ويُبَيّن أنّه غير مراد. فإنّ المعاني تكون مرادةً معاً، ويحمل الكلام عليها معاً، ولو كان بعضها حقيقة، وبعضها مجازاً.

وممّن قال بأنّ اللّفظ يُسْتعمل في معنييه فأكثر معاً الإمامُ الشافعيّ ونصّ عليه في الأمّ، والإمام مالك بن أنس، والقاضي أبو بكر الباقلّاني، والإمام الغزالي من الشافعيّة، والقاضي عبد الجبار من المعتزلة، وهي مسألة معروفة في كتب أصول الفقه.

أقول: وهو من الفنون البلاغيّة العالية القائمة على الإيجاز، والتي فيها عطاءٌ فكريٌّ ثرّ، وإمتاعٌ للأذكياء، وفيه استغناء عن ذكر اللفظ مراداً به بعض ما له من معانٍ بقرينة، ثم ذكرُهُ مراداً به بعضٌ آخر بقرينة أُخرىٰ. فذِكْرُهُ مرّةً واحدةً مراداً بها جملة المعاني التي يدلُّ عليها أوسع لدلالته، وأعمُّ لفائدته، وأثرىٰ لمعانيه، وهذه هي طبيعة النّصوص الرفيعة، الّتي تشتمل على دلالاتٍ كلّيّةٍ دستوريّة، كنصوص القرآن المجيد، وكثيرٍ من أقوال الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم.

وباب الكناية عند علماء البلاغة هو من هذا القبيل، إذْ قد يُرادُ باللفظ الواحد

المشتمل على الكنايـة المعنى الذي دلّ عليـه اللفظ بحقيقته، والمعنى الآخـر الذي يستفاد منه عن طريق الكناية واللوازم الذهنية.

فـإذا قال المـادح لجواد عـربـيّ مضياف: إنّ جلود الخـراف الحديثـة السّلْـخ وافرة على باب قصره دواماً، فقد أراد مدحه بأنّه مضياف، عن طريق الكنايـة، وأراد مـع ذلك المعنى الأصليّ الذي دلّ عليه اللفظ حقيقة.

وكان رجلٌ ذو يَديْن طويلتين حقيقة في مجلسٍ من عِلْيَةِ قومه، فجاء إلى هذا المجلس طالب معروف ذو حاجة فأدرك ذو اليَدَيْن الطويلتين صِدْقَ طلبـه، فمدَّ يَـدَهُ إلى جيبه، وأخرج صُرَّةً فيها دنانير، وناولها الرجل.

فقال له كبير القوم في المجلس: إنَّ يَدكَ لَطُولَىٰ تُنِيلُ نوالَها القريبَ والبعيدَ.

فضحك الجلساء، إذْ أدركوا أنّه قد قصد يَدَهُ الجسديَّةَ والمعنويـة، وقصد أنـه طويلُها في القياس المادّيّ، وطويلُها في الجود، وأنَّهُ يُنيلُ بها نـوالاً مادّيّـاً ومعنويّـاً، القريبَ منه مجلساً والقريبَ نَسَباً، والبعيدَ منه مجلساً والبعيدَ نَسَباً، وأنّـه قد أراد أن يَدُلَّ بكلِّ كلمة قالَها دلالَةً مزدَوِجةً على مَعْنَيَيْهَا معاً.

ويريد أحدنا أن يصف إنساناً بوصْفٍ، فيجد أنّ اسمه أو كنيته أو لقبه المشتهر به يتضمّن هذا الـوصف الذي يـريد أن يصفـه به، فينـاديه بـه، أو يختار ذكـره لدى الحديث عنه، دون سائر الأعلام التي تدلُّ عليـه، ويريد بذلك المعنيَيْنِ معـاً، وهذا ممّا يستعمله الناس بكثرة، ويحصل به بينهم التفاهم، ولا يجـدون ما يمنـع منـه في العقـل ولا في اللّغة، بـل يجدون أنّهم يـدلُّـون عن طـريقـه ببـراعـة وإيجـاز، على ما أرادوا من معانٍ مـع استرضاء نباهة النبهاء، وتحريك مشاعر إعجابهم.

وهل اللّغات والتَّعبيراتُ الكلاميّة إلاّ رموز اصطلاحيّة يستعملهـا الناس، فـإذا وجدناهم قد استعملوها في كلامهم للدلالة على ما يقصدون من معانٍ، وحصل فيما بينهم التفاهم بها، كانت من عناصر لغاتهم لا محـالة، ولا داعي لإدخـال الرأي في

الأمور الخاضعة لما يصطلح عليه الناس، مع أنه ليس في مثل هذا استحالة عقلية، ولا تضادّ في الدلالات، بل هو فنٌّ من فنون الأداء البيانيّ.

وذكر بعض الشعراء الشاميّين مدينة حماة من مُدن الشام فقال فيها:

حماةُ حَمَاهَا اللَّهُ من كُلِّ ظالمٍ وَفِيهَا عَلَىٰ الْعَاصِي تَدُورُ الدَّوَائر

فقصد بكلٍّ من لفظتي «العاصي» و «الدّوائر» معنيين معاً.

فالعاصي: اسم علم على النهر الذي يمرّ بهذه المدينة، وهو أيضاً اسم فاعل من «عصَىٰ يعصي» فهو يطلق على من يخالف أمرَ أو نهيَ من تجب طاعته، أوْ تحسُنُ طاعته.

والدّوائر: هي النواعير التي تدور على نهر العاصي فترفع المياه منه إلى السواقي في الأعالي، لتجري إلى المساكن في المرتفعات. وهي أيضاً نوائب الدهر وأحداثه التي قد تنزل بالعصاة فتهلكُهُم أو تعذّبُهُم.

وقد نال هذا البيت من الشعر إعجاب الأدباء، واستحسانهم لطريقته الأدبيّة، التي استخدم الشاعر فيها الكلام بمعنييه معاً.

وكلُّ أدباء العربيّة ومفكريها يستحسنون مثل هذا الأسلوب، ولا يَجدون ما يَصْرِفُ عن استخدامه من مانع عقْلِيّ أو مانعٍ لغويّ. كما أنَّهم لا يجدونه نابياً عن الذوق البياني، بل يجدون فيه فنّاً رفيعاً من فنون البيان.

وهذا ما دَعا الإِمَامَ مالكاً إمامَ دارِ الهجرة بذوقه العربيّ الأصيل إلى القول بجواز استعمال الكلام الواحد في أكثر من مَعْنىً، إذا كان يُسَاعد على ذلك الوضعُ اللّغوي للفظه أو تساعد عليه الصيغةُ التركيبّية للكلام، حقيقةً أو مجازاً.

وهو ما دعا الإمام الشافعيّ وهو الفقيه اللُّغويّ الأديب الشاعر، الّذي أخذ عنه الأصمعيُّ شعر الهذليين، إلى القول بجواز استعمال الكلام الواحد في أكثر من معنَىٰ كذلك، بشرط عدم التضادّ بين المعاني بداهة. وإلى القول بوجوب حمل

النصوص الشرعية على هذه المعاني المتعدّدة، ما لم يكن في القرائن ما يدلّ على أنّ المراد هو بعضها فقط، أو تدلّ الدلائل الأخرى على التخصيص.

ولدى تدبّري لكثيرٍ من سور القرآن المجيد رأيت أنّ الكلمات أو الجمل القرآنية، قد تكون ذواتِ أكثر من معنى، ورأيت أنّ بعض هذه النصوص صالحةٌ لأنْ تدلَّ عَلىٰ أكثر من معنى، وأنّه لا داعيَ لصرف النصّ عن أحدها وقصره على واحدٍ منها دون غيره، لما في ذلك من تَحَكُّمٍ يَأْبَاه العقل، وتأباه اللّغة، وتأباه الأساليب البيانيّة الرّفيعة.

فانتهيت إلى أنّ من الأمثل والأفضل في تدبّر كلام الله عزّ وجلّ حَمْلَ النصّ على كلّ المعاني التي يؤيّدها الواقع أو العقل، تَمشيّاً مع عطاء القرآن الثّرِ، الذي لا تنضب معانيه، ولا تفنى عجائبه.

وانتهيت إلى أنّ هذا من عناصر الإيجاز القرآني، ومن دلائل الإعجاز البلاغيّ فيه، لا سيما إذا كان الموضوع من الفكريّات العامّة، الّتي لا تتضمّن أحكاماً شرعيّة محدَّدة بحدود لا مرونة فيها، دخولاً إلى المحدود أو خروجاً منه إلى غيره.

وقد جعل السيوطي في «الإتقان» استعمال الكلام في أكثر من معنى معاً، من «النوع التاسع والثلاثين» في معرفة الوجوه والنظائر، قال: وقد صنف فيه قديماً مقاتل بن سليمان، ومن المتأخرين ابن الجوزي، وابن الدامغاني، وابن عبد الصمد المصري، وابن فارس وآخرون.

وأبَّان أنّ الوجوه: اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدّة معانٍ[1]. قال: وقد أفردت في هذا الفنّ كتاباً سميته: «معترك الأقران في مشترك القرآن».

وقال: وذكر مقاتل في صدر كتابه حديثاً مرفوعاً: «لا يكون الرجل فقيهاً كلّ الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة». قال: قلت: هذا أخرجه ابن سعد وغيره عن

---

(١) عرف السيوطي المراد من قوله «الوجوه» الوارد في عنوان «النوع التاسع والثلاثين» في معرفة الوجوه والنظائر، بقوله: فالوجوه اللفظ المشترك يستعمل في عدّة معانٍ.

أبي الدرداء موقوفاً، ولفظه: «لا يفقه الرجل كلّ الفقه...» وقد فسّره بعضهم بأنّ المراد أن يرى اللفظ الواحد يحتمل معاني متعدّدة، فيَحْمِله عليها، إذا كانت غير متضادّة، ولا يقتصر به على معنى واحد.

* * *

الأمثلة

المثال الأول:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (البروج / ٨٥ مصحف / ٢٧ نزول):

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ**﴾ أي: وما نَقَمَ أصحاب الأخدود من الذين آمَنُوا بالله العزيز الحميد إلاّ إيمانهم.

فما معنى «نقموا»؟.

جاء في اللّغة أنّ فعل «نقم» يأتي بمعنى: عابَ، وبمعنى: كَرِهَ أَشَدَّ الكراهِيَة. وبمعنى: عاقب.

فهل نختار أحد هذه المعاني فقط وهو العقاب، أو نحمل اللفظ على كلّ المعاني التي يدلّ عليها؟.

أرى أن حمل اللفظ هنا على كلّ المعاني التي يصلحُ للدلالة عليها أولى، فأصحابُ الأخدود عابوا على الذين آمنوا بالله العزيز الحميد إيمانهم، ثم عظم أمْرُهم في نفوسهم، لأنّهم خالفوا إرادة ملكهم الجبار المتألّه عليهم فكرهوهم أشدَّ الكراهية، ثم انْتَقَمُوا منهم بالتحريق في الأخاديد.

فكان من إيجاز القرآن البديع الدلالة على كُلّ هذه المعاني باختيار كلمة «نَقَمُوا».

وجـاء في هذا النصّ أيضـاً من أسمـاء الله الحسنى اسم «الحميـد» وهـو اسم يدلُّ على معنيين، والأولى حمله عليهما معاً.

● **فالأول**: بمعنى المحمود الذي له كـلّ صفات الحمـد، فهو فعيـل بمعنى مفعول.

● **والثاني**: بمعنى الحامد الذي يحمد عباده على ما يكون منهم ممّا يستحق الحمد، فهو فعيل بمعنى فاعل، ومن حمده ثناؤه على رسوله محمّد ﷺ بقـوله لـه: ﴿وإنّكَ لعلَىٰ خلق عظيم﴾ وثناؤه على غيره من الرسل وأتباعهم.

* * *

المثال الثاني:

ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة / ٧٥ مصحف / ٣١ نزول):

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

دلّ هـذا النصّ على أنّ الإنسان الكـافر يحـاول يـوم القيـامـة أن يـدافـع عن نفسه، طمعاً في أن يُنجي نفسه من عذاب الله، أو يخفّف عن نفسه شيئاً منـه، مـع أنّه شديدُ المعرفة الشهوديّة لجرائمه، ولكفره بربّه وبما أمره من إيمان به في الدنيا.

وقد جاء التعبير عن دفاعه عن نفسه بـأنّه يُلقي معـاذيره، فقـال تعالى: ﴿بَـلِ الإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَه﴾.

فما المرادُ من إلقائه معاذيرهُ؟

جاء في اللغة ما يلي:

معـاذير: جمـعُ مَعْـذِرَة، وَمَعْـذُرة، وهي الحجّـة التي يقـدّمُهـا ويجـادل بهـا المعتذر، لتبرئة نفسه من الذنب، قالوا: والمعاذير يشوبُها الكذب.

ومعاذير: جمـعُ مِعْذَار، وهو السِّتْر بلغة اليمن.

فهل نحمل اللفظ على المعنى الأول ونهمل الثاني تحكُّماً، أو نحملُه على المعنى الثاني ونهمل المعنى الأوّل تحكُّماً؟.

والّذي أراه أن نقول في تفسير المراد والله أعلم ـ: بل الإنسان على نفسه بصيرةٌ، ولو ألقىٰ حججه الكاذبة، وأقواله التي يحاول بها ستر جرائمه، كما يُلْقِي من يحاول إخفاء عُيُوبه في حُجُراته ستورَه.

وفي اختيار كلمة «المعاذير» هنا مع اختيار كلمة «أَلْقَىٰ» براعة بيانية دقيقة.

* * *

المثال الثالث:

ويقول الله عزّ وجل في سورة (الملك /٦٧ مصحف /٧٧ نزول):

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾.

بحثت في كلمتَي: «خاسىء» و«حسير» من هذا النّص، فوجدت ما يلي:

١ ـ خَاسِىء: يأتي في اللّغة بمعنَيَيْن:

● **المعنى الأول**: «متحيّر» وهذا المعنى يَصْلُح لكلّ باحث، ولو لم يكن من أهل الإنكار للرّبّ الخالق، فالمتفكرّ في خلق السموات وإن كان مؤمناً منصفاً، سيرجع بعد تكرير النظّر متحيّراً من عظمة خلق الله لها.

● **المعنى الثاني**: «مطرودٌ ذليل» إذْ يقال في اللّغة: كلبٌ خاسىء، أي: مطرودٌ ذليل. وهذا المعنى يناسب الجاحد الكافر، الباحث عمّا يتخذه مستنداً لجحوده.

٢ ـ حَسِير: يأتي في اللّغة بمعنَيَيْن أيضاً:

● **المعنى الأول**: «كالٌّ منقطع» وهذا المعنى يصلُح لكل باحث، ولو لم يكن من أهل الإنكار للرّبّ الخالق، لأنّ المتفكر في السماوات السبع لا بدّ

أن يرجع كالاً منقطعاً، مهما كان عنده من الوسائل، وأنَّى له أن يحيط بأبعادها السحيقة الّتي تمتد إلى ملايير السنين الضوئية.

● **المعنى الثاني**: «خائب المسعى، متلهّف على ما فاته ممّا كان يرجوه» وهذا المعنى يناسب الجاحد الكافر الباحث عمّا يتخذه مستنداً لإنكار وجود الرّبّ الخالق عزّ وجل.

وبعد النظر اللغوي في لفظتي: «خاسىء» و «حسير» واستبانة أنّ كلّا منهما له معنيان، يزاوج كلٌّ منهما أَحَدَ معنيي اللفظ الآخر، ويتلاءم معه، وبعد النظر إلى واقع حال الناس نلاحظ أنّ فريقاً منهم ينطبقُ عليه متزاوجان من معنييهما، وأن فريقاً آخر منهم ينطبق عليه المتزاوجان الآخران. يتضح لنا بجلاء أنّ اختيار هاتين اللّفظتين في هذا النصّ بالذّات، قد كان مقصوداً للدّلالة على معنيين:

● **أحدهما**: يلائم فريقاً من الناس.

● **والآخر**: يلائم الفريق الآخر منهم.

وهذا من روائع البيان القرآني العجيب الثرّ المعجز، مع الإيجاز البديع.

ونفهم النصّ إذن على الوجه التالي: فارجع البصر أيّها النّاظر أيّاً كنت، في خلق السماوات السبع الطباق، فهل ترى في خلق الرحمن بعد البحث والتفكر من خَلَلٍ واضطراب وشقوق وتصدّعات وثغرات.

إنّك إمّا أن ترجع حيران كالاًّ منقطعاً، وإما ترجع ذليلاً خائب المسعى، وأمرُك يكونُ بِحَسبِ حالك إنْصَافاً أو جحوداً.

* * *

المثال الرابع:

ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان /٢٥ مصحف /٤٢ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

فعل «مَرَجَ»: يأتي في اللُّغة بمعنيين:

- **المعنى الأول**: مزج وخلط.
- **المعنى الثاني**: أرسل.

وقد نَبَّهتْ هذه الآية على علامة من علامات الخلق والتدبير الحكيم في الماء، فقد تحدّثت عن الماء العذب الحلو، والماء الملح الأجاج.

وذكرت أنّ هٰذين الماءَيْن بحران عظيمان خلقَهُما الله عزّ وجلّ لمنافع الحياة والناس.

وكلٌّ من هٰذين البحرين ينبغي لتحقيق المنفعة منه أمران:

الأول: أن يظلّ على نسبته المزيجيّة التي جعله الله عليها.

الثاني: أن يَظَلّ مرسلاً، له قابليّة السيولة والاندفاع والسَّريان في الأرض، ليؤدّي وظائفه للحياة والأحياء.

- فالماء الحلو فيه عناصر مختلطة ممتزجة، قد مزجها الله بمقتضىٰ حكمته، ضمن نسب من العناصر ملائمة لحاجات الحياة والأحياء، وقد أرسله الله في الأرض، فاندفع يؤدّي وظائفه على أحسن وجهٍ وأتقنه.
- والماء المِلْحُ له نسبة مزيجيّة مضافة مخلوطة فيه، وقد أرسله الله في البحار، فاندفع يؤدّي وظائفه على أحسن وجْهٍ وأتقنه.

بعد هٰذا البيان المقتبس من النصّ ومن الواقع نلاحظ أنّ البيان القرآني استخدم كلمة «مرج» للدلالة على معنيين:

الأول: معنى خلط العناصر، حتى تكوّنت ماءً حُلْواً، أو ماءً ملحاً أُجَاجاً.

الثاني: معنى إرسال الماء في الأرض، بوصفيه العذب الفرات، والملح الأجاج، وهذا ظاهر بما في الماء من سيولة قابلة للتدافع المتلاحق، كأنّ مُرْسلاً أرسله ليؤدّي وظائفه التي أُرسِلَ من أجلها.

أمامنا هـٰذان المعنيان، فماذا نختار في التدبّر؟.

- أنقتصر على معنى المزج؟ أو على معنى الإرسال؟.

- أو نحمـل اللفظ على معنييه معـاً، والواقـع يؤيّـد ذلك، والفكـر لا يمنـع منه، واللّغةُ تساعد على ذلك في استعمالات كبار الأدباء والبلغاء؟.

الأخير هو الأجدر بالتدبُّر الأمثل، والله أعلم.

* * *

المثال الخامس:

ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف /٧ مصحف /٣٩ نزول) بشأن إهلاك قوم لوط عليه السلام، ونجاته ونجاة أهله باستثناء امرأته فإنها كانت من المهلكين مع قومها:

﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

كلمة «الغابر»: تأتي في اللّغَةِ بمعنيين:

- **المعنى الأول**: الماكث الذي لا يتحوّل.
- **المعنى الثاني**: الذاهب الماضي.

وفي هذا النصّ نقول: إنّ الكلمة صالحة لأن تُستعمل في معنييها اللغويَّيْنِ معاً، دون تضادّ، بل في حمله على المعنيين معاً تكامل في الأداء البياني.

وذلك لأنّ امرأة لوط مكثت في أرض قومها مع قومها، فلم تَسِرْ مع زوجها لوط عليه السلام وأهله، إذا أصرّت على كفرها، والانتصار لفسق قومها وفجورهم، فنزل بها العذاب، فكانت من الهالكين الذاهبين الماضين مع الزمن الماضي، من الحياة كلّها إلى الفناء، بينما بقي الناجون حتّىٰ جاءت آجالهم تباعاً.

فحمل اللفظ هنا على معنييه معاً هو الأولى، إثراءً لدلالة النصّ، ولا تعارض بين المعنيين، بل يكمّل كلٌّ منهما دلالة الآخر، والواقع يؤيّد ذلك.

* * *

المثال السادس:

ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (التكوير /٨١ مصحف /٧ نزول):

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾.

كلمة «عَسْعَسَ» تأتي في اللّغة بمعنيين:

- **المعنى الأول:** أقْبَلَ ظَلاَمُهُ، ويكون هذا أوّل اللّيل.
- **المعنى الثاني:** أدْبَرَ ظَلاَمُهُ، ويكون هذا آخر اللّيل.

والنّصُّ يُوجّه بالقسم إلى آية من آيات الله في اللّيل، وهذه الآية عند أوّل اللّيل في إقباله، وعند آخره مع انصرافه ذات صفة متماثلةٍ، واختيار كلمة «عسعس» الدالة على المعنيين يشعر بأنّ النصّ يلفت النظر إلى إقبال اللّيل وإدباره معاً، لا إلى واحد منهما فقط، فحمل اللفظ عليهما هو الأحق بالتدبّر، ففي كلّ منهما آية من آيات الله عزّ وجل وهما آيتان مترابطتان في الدّلالة على نظام واحد في حركة الأرض حول نفسها تجاه الشمس، والتَّنْبيهُ عليهما معاً يُرشِدُ ضمناً أهل البحث العلمي إلى دراسة هذه الظاهرة لمعرفة سببها المنبّه على دليل الإتقان في الكون، الهادي إلى الإيمان بالربّ الخالق الحكيم العليم القدير.

* * *

المثال السابع:

ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم /١٩ مصحف /٤٤ نزول) في حكاية مقالة بني إسرائيل لمريم البتول عليها السلام حين جاءت بولدها عيسى عليه السلام تحمله بعد ولادتها له:

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًۭٔا فَرِيًّۭا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍۢ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّۭا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّۭا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّۭا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّۭا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًۭا شَقِيًّۭا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّۭا ﴿٣٣﴾ ﴾.

لَقَدْ جِئتِ شيئاً فرِيّاً: أي: لقد جئتِ شيئاً عجيباً غير متوقَّعٍ الحدوث.

وهذه العبارة تصلُح لمعنيَيْن:

الأول: استغراب الحدث بذاته، مع ملاحظة براءتها وعدم اتّهامها بالبغاء، وهذا من قبل الذين لم يظنّوا بها إثماً، فقالوا لها: لقد جئت شيئاً عجيباً من أحداث الدهر.

الثاني: التعجب من أمرها كيف تقع في الإثم، وترتكب الفاحشة، وهذا من قبل الّذين وجّهوا لها الاتّهام بارتكاب الفاحشة، بألسنتهم ومعاريض أقوالهم، أو في نفوسهم، فقالوا لها: لقد جئت شيئاً عجيباً، وأمراً مستنكراً غريباً، وذلك لأمرين:

الأول: أنّ مثل هذا العمل لا يُعرف في سلوك القانتين والقانتات، المنقطعين للتبتُّل والعبادة في بيت المقدس مثلك، حتَّىٰ صار يشار إليك بالبنان بأنّك في قنوتك أختُ هارون المتعبّد القانت المنقطع للعبادة، الرجل التقي الورع الصالح.

الثاني: أنّ مثل هذا العمل لا يُعرَف في امرأة أبواها عفيفان شريفان، فما كان أبوكِ أمرأ سَوْءٍ. وما كانت أمُّكِ بغيّاً، أي: فأنت من أسرة فاضلة.

ويظهر أن القوم كانوا في شأنها فريقين: فريقاً يبرّئها ويتعجّب من الظاهرة بذاتها، وفريقاً يتّهمها ويتعجّب من إثمها. فاستخدم اللفظ بمعنيين.

* * *

المثال الثامن:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم /٥٣ مصحف /٢٣ نزول) خطاباً للمشركين:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

وأنتم سَامِدُون: نظرتُ في كُتُبِ اللُّغَة فوجدت أنّ كلمة: «سَامِدُون» تأتي دالّة على عدّة معانٍ، وهي:

١ ــ لاهون لاعبون.	**فسامد:** لاهٍ لاعب، في اللّغة
٢ ــ ساهون غافلون.	**فسامد:** ساهٍ غافل، في اللّغة
٣ ــ مشغولون بالغناء.	**فسامد:** مشغول بالغناء، في اللغة
٤ ــ متكبّرون بَطِرُون أَشِرون.	**فسامد:** متكبر بطر أشر، في اللّغة
٥ ــ قَائِمُونَ جامدون لَا تتأثّرون.	**فسامد:** قائم جامد لا يتأثر، في اللّغة
٦ ــ أغبياء.	**فسامد:** غبيّ، في اللّغة
٧ ــ متحيرون.	**فسامد:** متحيّر، في اللّغة

وإذا نظرنا إلى واقع حال المخاطبين من أهل الكفر والشرك، وجدنا فيهم كلّ هؤلاء الأصناف، فمنهم من يصرفه عن الاستماع لكتاب الله وتفهُّم دلالاته أنّه لاهٍ لاعب، ومنهم من يصرفُه أنّه ساهٍ غافل، ومنهم من هو مشغول بالغناء، ومنهم من يصرفه كبره وبَطَرُهُ وأشَرُه، ومنهم من هو قائم جامد لا يتأثّر بهداية القرآن ولا بترغيباته وترهيباته، ومنهم غبيّ، ومنهم متحيّر.

وليس بعضُ هذه المعاني أولى بالاعتبار من البعض الآخر، ما دام المخاطبون يوجد فيهم أصناف، وكلّ صنف منهم ينطبق عليه معنىً منها لذلك كان علينا فيما ترجّح بالدليل من جواز استعمال اللفظ الواحد في معنييه فأكثر، أن نفهم أن كلمة «سامدون» في هذا النصّ القرآني، تدلُّ علىٰ كلّ المعاني الآنفة الذكر، والله أعلم.

القاعدة التاسعة والعشرون

«حول التعليل بأن المصدرية وما بعدها في الآيات القرآنية وفي لزوم تقدير المحذوفات قبلها»

جاء في القرآن المجيد التعليل بأن المصدرية وما بعدها لأمور، منها الأمور التالية:

- منهيٌّ عنه.
- مأمور به.
- عمل من الأعمال.
- أمرٌ يخشى وقوعه.
- ظاهرة من ظواهر خلق الله.
- إخبار بحدث مضى.
- أمر من تصرّفات الناس قائم.

ولا بدّ أن نلاحظ أنّ التعليل بعد النهي أو النفي أو الأمر قد يكون تعليلاً للفعل، وقد يكون تعليلاً للترك، وذلك لأنّ النهي أو النفي أو الأمر كلٌّ منها يتضمّن وجهين:

١ ـ وجه الترك.

٢ ـ ووجه الفعل.

وكلٌّ من هٰذين الوجهين يصلُح ما ينجم عنه من خير أو شرّ، وحُسْنٍ أَوْ قُبْحٍ للتّعليل.

فيقال: لا تفعل كذا، لأنّ فعله ضارٌّ أو قبيح أو هو شر، أو لأنّ ترك فعله نافع أو حَسَنٌ أو خير.

ويقال: لم أفعل كذا، لأنّ فعله ضارٌّ أو قبيح أو هو شر، أو لأنّ ترك فعله نافع أو حَسَنٌ أو هو خير.

ويقال: اِفْعَلْ كذا، لأنّ فِعْلَهُ نافع أو حسن أو هو خير، أو لأنّ ترك فعله ضارّ أو قبيح أو هو شرّ.

بعد هذا أقول: قد يأتي التعليل في النصوص القرآنية غير مبيّنٍ فيه وجه التعليل، هل هو للفعل؟. أو هو للترك؟.

وعندئذٍ لا بدَّ من النظر في المعنى الذي اشتمل عليه التعليل، ولا بدّ من البحث عن الملاءمة بين التعليل والمعلّل بعلّته.

ويكون في النصّ غير المبيّن فيه وجْهُ التعليل محذوفٌ إيجازاً على طريقة القرآن في الإيجاز بالحذف، فلا بدّ من تقدير هذا المحذوف بما يلائم التعليل المقصود.

- فإن كان التعليل تعليلاً للتّرك قُدِّرَ في الكلام ما يُلائمه.
- وإنْ كان التعليل تعليلاً للفعل قُدِّر في الكلام ما يُلائمه.

وفي كلّ الأحوال والأمثلة التي لا تكون من قبيل النهي والنفي والأمر، وكان في النص محذوف أو محاذيف، إذْ ظاهر التعليل لا يلائم المعلّل به، لا بدّ من البحث بتأمُّلٍ وأناةٍ عن الكلام المحذوف المقدَّرِ معناه ذهناً، للوصول إلى الملائم تماماً، ولَوْ تجاوزنا الشكليّات الصناعيّة التي يذكرها النحاة في المقدّرات ذهناً من المحذوفات، فالمعاني القرآنية المقصودة، والتي تدلّ عليها القرائن، واللوازم الذهنية، والضرورات العقليّة أهمُّ لدى تدبّر القرآن من الشكليّات الصناعية التي يلتزم بها النحاة والمعربون.

* * *

الأمـــثـلـــة

المثال الأول:

في التعليل بأنْ المصدرية وما بعدها لمنهيٍّ عنه:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾.

في هذا النصّ نهيٌ عن جعل الله عزّ وجل (أي: عن جعل أسمائه وصفاته) عُرْضَةً لِلْأَيمَانِ بحاجَةٍ أو بغير حاجة.

وجاء تعليل هذا النهي بقوله تعالى: ﴿أَنْ تَبَرُّوا وتَتَّقُوا وتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاس﴾.

فكيف نربط هذا النهي بهذا التعليل؟ لا بدّ أن يكون قبل (أن) محذوف مقدّر، حتى نفهم التعليل بإبرازه.

وظاهر أنّ التعليل هنا ببيان ثمرة ترك ما نهى الله عنه.

ومن الملاحظ في سلوك الناس ما يلي:

١ ـ يحلف الحالف منهم الأيمان على ما سيفعل، فإذا حلف على شيءٍ سيفعله، كان عليه أن يَبَرَّ بيمنه، ولا يحنث فيها، احتراماً وتوقيراً وتعظيماً لاسم الله الذي وثّق به ما عزم على فعله، أو وعد به، أو عاهد عليه.

وحين يجعل الحالف اسم الله عرضةً لأيمانه في كلّ كبيرة وصغيرة، فإنّه يعرّض نفسه لأيمان يصعب عليه الوفاء بها، أو لا يريد الوفاء بها ابتداءً. فهو يُضْطر بسبب ذلك أو تدعوه الحاجة أن لا يَبَرَّ بيمينه. فلا يكون بذلك ممَّن يَبَرُّ.

وعندئذٍ يلجأ إلى التكفير عنها بموجب أحكام كفَّارة اليمين.

٢ ـ ويحلف الحالف منهم لتوثيق أمْرٍ يُخْبر به أنّه قد حصل أَوْ أنّه لم يحصل. والذي يجعل الله عُرْضه لأيمانه يعرّض نفسه لتوثيق أخبارٍ كاذبة يخبر بها بما يحلف من هذه الأيمان التي جرت بها عادة لسانه. وبذلك يعرّض نفسه لمعصية الله وعقوبته، ولمنافاة مقتضيات التقوى.

فلا يكون بذلك ممّن اتَّقى في هذا الأمر.

٣ ـ ويحلف الحالف منهم الأيمان بغية الإصلاح بين الناس، إذْ يثق الخصومُ بيمينه، فتتقارب بسبب ذلك وجهات أنظارهم، ويقبلون وساطته، والحلول التي يعرضها عليهم.

لكِنَّ الذي يجعل اسم الله عرضة لأيمانه لا يكون لأيمانه احترام في نفوس الناس، إذْ يَرَوْنَه حلَّافَ أيمانٍ لكلّ كبيرة وصغيرة، فلا يكترثون بأيمانه، فلا يساعده الحلف باسم الله على الإصلاح بين الخصوم.

فلا يكون بذلك من المصلحين بين الناس.

وقد أبانت الآية بإيجاز بديع هذه الوجوه الثلاثة التي يحلف الناس أيمانهم من أجلها.

ثم لا بدّ أن نفهم أنّ النهيَ عن جعل الله عرضة للأيمان يتضمّن التوجيه للاقتصاد الشديد في الأيمان، وجعلها بقدر الضرورة أو الحاجة الماسَّة، وعند الجزم بتحقيق الغاية منها.

بعد هذا نستطيع أن نلاحظ أنّ التعليل بقوله تعالى:

﴿أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ الناس﴾.

يتطلَّب تقدير محذوف ملائم، وهذا المحذوف الملائم يمكن تقديره كما يلي:

- رغبة أن تبرُّوا وتَتَّقوا وتُصْلِحُوا بين الناس.

● رجاءَ أن تَبَرُّوا وتتَّقوا وتُصْلِحُوا بين الناس.

● لأن تبرُّوا وتَتَّقوا وتُصْلِحوا بين الناس. وتحمل اللام في هذا التقدير على معنى الرجاء والتوقُّع، لا على معنى التعليل المجزوم به.

● طَلَبَ أن تبروا وتتقوا وتُصلحوا بين الناس.

أو نحو ذلك.

* * *

المثال الثاني:

في التعليل بأنْ المصدرية وما بعدها للمأمور به:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجرات /٤٩ مصحف /١٠٦ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾.

في هذه الآية يأمر الله عزّ وجلّ الذين آمنوا بالتبيُّن إنْ جاءهم فاسقٌ بنبأٍ ما، وبالتثبّتِ من صحة الخبر الذي يخبر به، ويفهم من هذا أمران:

الأول: عدم إهمال خبر الفاسق وطرحِه كليّاً، لاحتمال صدقه، وهو أمارة داعية ومنبِّهة، فعلى المؤمنين أن يبحثوا ويتبيّنوا ويتثّبتوا، ولا يقولوا: خبر فاسق نُهمِلُه ونطرحه، ولا يكونُ داعينا إلى شيء.

الثاني: عدم الاعتماد عليه، والثقة به، فقد يكون خبر الفاسق يتضمن اتّهام قومٍ بأنهم يُدَبّرون مكيدةً لكم، فتُصِيبُونهم بعقوبة مبنّية على غير علم بأنهم فعلوا حقاً هذه المكيدة، ثم تكتشفون بعد ذلك أنّهم بريئون ممّا نُسِب إليهم، فتُصْبِحُونَ بَعْدَ لَيْلِ الجهالة وانكشاف الحقيقة بِصُبْحِ المعرفة نادمين.

وجاء في الآية تعليل الأمر بالتبيُّن بصيغة: ﴿أَنْ تُصيبُوا قَوْماً بِجَهَالـةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِين﴾ فكيف نَرْبط هذا الأمر بهذا التعليل؟.

لا بدّ أن يكون قبل (أن) محذوف مقدّر، حتّى نفهم التعليل بإبرازه.

وظاهرٌ أنّ التعليل هنا ببيان عاقبة ترك المأمور به في النصّ، فمن ترك التبيُّن ربَّما وقع في الندامة بسبب أنّه أصاب قوماً برآء بعقوبة على ما لم يفعلوا.

والمحذوف الملائم قبل هذا التعليل يمكن تقديره بما يلي:

- خشية «أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين».
- حَذَر «أن تصيبوا...».
- تفادِيَ «أن تُصيبوا...».

أو نحو ذلك.

وقد جاء في الآية الخطاب لجماعة المؤمنين، وأنّ خبر الفاسق قد تناولَ قوماً فهل هذا الحكم خاص بهذه الصورة، فلا تدخل الصور الفردية، والنساء؟.

الجواب: لقد علّمنا القرآن أنّه يأتي بصورة لها أشباه ونظائر لنقيس هذه الأشباه والنظائر عليها ونعطيها مثل حكمها، وأبان لنا أنه قد ضرب للناس في هذا القرآن من كلّ مثل، ، أي: لنقيس عليه أشباهه ونظائره.

* * *

المثال الثالث:

في التعليل بأن المصدرية وما بعدها لعمل من الأعمال:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر / ٣٩ مصحف / ٥٩ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾.

لقد جاء في هذا النصّ وصفُ أولي الألباب بأنّهم اجتَنَبُوا الطاغوت، وجاء تعليلُ اجْتنابهم بعبارة: «أَنْ يَعْبُدُوها».

ولَا بدَّ أن يكون قبل (أن) محذوف مقدّر، حتَّى نفهم التعليل بإبرازه، والتقدير الملائم هو كما يلي:

- خشية أن يعبدوها. أي: خشية الانزلاق إلى عبادتها بالاقتراب منها.
- حَذر أن يَعبدُوها: أي: حذر الانزلاق إلى عبادتها بالاقتراب منها.

أو نحو ذلك: مثل: كراهية ـ أو بغض ـ أو مقت.

والمعنى: اجْتَنبُوا كلَّ الطواغيتِ وكلَّ الأشياءِ الَّتي تُطْغي اجتناباً كُلّياً، خشيةً أن تُؤثّر على نفوسهم وأهوائهم وشهواتهم فتستدرجهم إلى التعلُّق بها تعلُّقاً تامّاً، وطاعَتِها طاعةً كاملةً، وتبعدهم عن الله، وتجعلهم بعد حين عابدين لها من دون الله، كما يحصل لكثيرين.

واستبعد اعتبار «أن يعبدوها» في محلّ نصب على أنها بدل اشتمال من «الطاغوت»، فلو كان هذا هو المراد لقال الله تعالى: (والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت)، ولكن تسقط بذلك المعاني التي دلّ عليها النصّ القرآني، والّتي اكتَشَفْنَاها على أساس أنّ عبارة «أن يعبدوها» لتعليل الاجتناب.

ونظير ما جاء في هذا النصّ قول الله عز وجل في سورة (الأعراف /٧ مصحف /٣٩ نزول) في بيان وسوسة الشيطان لآدم وزوجه وهما في الجنة:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: إلاّ مَنْعَ أن تكونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالِدِين، أي: بسبب ما في هذه الشجرة من عناصر تسبّب الخلود، أو تسبّب الارتقاء بالقوة إلى مستوى الملائكة.

فدسّ في أفكارهما جرثومة الإشراك السببّي، لإقناعهما بأن الأسباب تفعل بذواتها دون خلقٍ من الله عزّ وجلّ، فدلّاهما بغرور إلى الخطيئة.

* * *

المثال الرابع :

في التعليل بأن المصدرية وما بعدها لأمر يُخْشَىٰ وقوعه :

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء /٢٦ مصحف /٤٧ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾.

باخِعٌ نَفْسَك: أي: مُهْلِكٌ نفسَكَ وقاتلٌ لَهَا. بسبب عدم إيمان قومِكَ. فكيف نربط بين «لعلَّك باخِعٌ نَفْسك» وبين «أَنْ لَا يَكُونُوا مؤمنين»؟.

أرى أن التقدير للمحذوف بينهما على الوجه التالي: حسرةً عليهم بأن لا يكونوا مؤمنين. أي بسبب عدم إيمانهم وعدم استجابتهم لدعوتك إيَّاهم للإيمان. ولا أرى تقدير خلاف هذا، فالمعنى المراد على هذا ــ والله أعلم ــ بدلالة كلّ القرائن، وطبيعة حال الرسول ﷺ، ودلالة النصوص الأخرى حول هذا الموضوع، ومنها قول الله عزَّ وجل في سورة (فاطر /٣٥ مصحف /٤٣ نزول).

﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾.

* * *

المثال الخامس :

في التعليل بأنْ المصدرية وما بعدها لظاهرة من ظواهر خلق الله :

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر /٣٥ مصحف /٤٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ۝٤١﴾.

المعنى في هذه الآية: هو أنّ الله يُمْسِكُ السَّماواتِ والأرضَ إمساكاً متتابعاً في الوجود وفي مواقعها من الكون، بعمليّاتِ خلْقٍ متتابعة، أو بإمدادٍ بأسباب البقاء، مع كلّ جُزَيْءٍ زَمَنِيّ، لِئَلا تَزُولا، إذْ ترجعُ إلى أصلها الذي هو العدم

الممكن الـوجـود إِذَا تَـرَكَ اللَّهُ إِمْسَـاكهـا. فـأصلهـا العـدم، وهي ممكنـة الـوجـود بالإيجاد، وليست مستحيلة الوجود، وإيجادها، إنّمـا يكون بخلق الله لهـا، وبقاؤهـا إنّما يكون بإمساك الله لها في الوجود، فإذا تـركَ الله إمساكهـا عادت بحسب صفتهـا الأصلية لها إلى العدم، فتزول، أي: فتتحوّل من جانب الوجود إلى جانب العدم.

فَهل نُقَدِّر الكلام على هذا فنقول: لِأَن لا تَزُولاَ. فنقدّر أن المحذوف قبل أن هو لام التعليل ويلزم عن ذلك تقدير حرف نفي بعد (أن)؟

الجـواب: أنّ هذا مُسْتَبْعَـد، وهو ليس من أسـاليب القرآن الّتي خبـرناهـا في المحذوفات فيه.

فَمَا هو التقدير إذن؟

أرى أن المقدَّرُ محذوفٌ قبل (أن) فقط، مثل:

- مَنْـعَ أَنْ تَزُولا.
- حفظاً لَهُما من أن تَزُولا.
- حِمَايَةً لَهُمَا من أَنْ تَزُولاَ.

أو نحو ذلك، ولا أرى التزامَ محذوف معيّن في القرآن، فمن أغراض الحذف في القرآن الإيجاز، ومن أغراضه التعميم، ومن أغـراضه البيـانية تـركُ ذهن المتدبّـر يقدّر ما هو ملائم فكراً، وملائم في المعنى لدلالة النصّ، والله أعلم.

ونـظير هـذا النّص قول الله عـزّ وجـلّ في سـورة (النحـل /١٦ مصحف /٧٠ نزول):

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ . . . ﴿١٥﴾﴾.

ونحوه في سورتي (الأنبياء) و (لقمان)، والتقدير: منـع أن تميد بكم.

* * *

المثال السادس:

في التعليل بأن المصدرية، وما بعدها للإخبار بحدثٍ مضى، ممّا تمّ بقضاء الله وحكمته:

يقول الله عزّ وجل في سورة (الأعراف /٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

في هذا النصّ يخبرنا اللَّهُ عزّ وجلَّ بحادِثَةٍ أَجْرَاهَا مَعَنَا وَنَحْنُ في عالم الذّرّ في ظُهُورِ آبائنا، وبيّنَ اللَّهُ فِيه أَنَّه أخذنَا، وأشْهدَنا على أنفسنا حينئذٍ، ويلزم من ذلك أنّه أعطانا في حينها الإدراكَ الواعي، فقال لنا في هذا الإشهادِ: ألستُ بِرَبِّكُمْ؟.

ولَمَّا كُنَّا حينئذٍ في حالةٍ من حالات الشُّهود غير المصحوب بالأهواء والشهوات، قُلْنَا جَميعاً، مَنْ آمن منّا بعد ذلك ومَنْ كفر: بلى. أي: بلىٰ أنت رَبُّنَا.

ثُمَّ مُسِحَتْ هذه الحادثةُ من ذَاكِرَتنا، وبقيت فطرة النزوع لالتماس معونة الرّبِّ في عُمْقِ ذواتنا، وهذه تظهر عند الأزمات والمآزق، وبقيتْ أدلة وجود الرّب الخالق في عمق عقولنا، نستخرجها بالبحث والمناقشة.

بقي فهم ربط التعليل الوارد في قَوْله تعالى فيه:

﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هـٰذَا غَافِلِينَ...﴾ بما قبله في النصّ.

وبالتأمُّلِ ينكشف لنا أنّه تعليلٌ لإخبار الله لنا بهذه الحادثة. أي: أخبرتكم بهذه الحادثة لئلا تَقُولوا يَوْم القيامة معتذرين: إنَّا كُنَّا عن هذا الأمر الذي جرى لنا في عالم الذّرّ غافلين، ولا يقولون ناسين، لأنّ بقايا هذه الحادثة في الفطرة نزوعاً ودَليلاً يجعل حالهم أقرب إلى الغافل (أي: التارك الساهي) منه إلى الناسي.

ولكن هلْ نقدر المحذوف هكذا: لئلا تقولوا يوم القيامة: إنّا كُنَّا عَنْ هذا غافلين؟ فنقدّر أنّ المحذوف قبل (أن) هو لام التعليل، ويلزم عن ذلك تقدير حرف نفيٍ بعد (أن)؟.

أقول كما قلت في المثال السابق: هذا مُسْتَبْعَدٌ عن أساليب القرآن في الحذف. وأرى أنّ المقدّر محذوفٌ قبل (أن) فقط، مثل:

- مَنْعَ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القيامَةِ: إنّا كنّا عن هذا غافلين.
- قَطْعَ اعتذاركم بأَنْ تقولوا يوم القيامة: ... ونحو ذلك.

ولا أرى تقدير مثل: خشية، أو حذر، أو نحو ذلك لما في هذه الألفاظ من بُعْدٍ عن الأدب مع الله عزّ وجلّ.

* * *

المثال السابع:

في التعليل بأن المصدرية وما بعدها لأمرٍ من تصرُّفات الناس قائم:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف /١٨ مصحف /٦٩ نزول):

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾.

الناس: أي: الكافرون منهم.

سنة الأولين: أي: سنة الله في الأولين الذين كفروا بربّهم، وكذّبوا رُسُلَهُ وطغَوْا وبَغوا وفسقوا وفجروا، من إنزال الهلاك العامّ عليهم بعذاب شديد.

أَوْ يأتِيَهُمْ الْعَذَابُ قُبُلًا: أي: ضروباً، وأنواعاً، متتابعة بعضها بعد بعض، **وقُبُلًا**: جَمْعُ قَبِيل، والقبيل: هو باطن الْفَتْلِ حِينَ تُبْرَمُ طَاقَات الْحَبْلِ، وضِدُّه الدَّبير، وهو ظاهره.

وللتفريق بين الصنفين من العذاب الواردين في الآية أرى أنّ العذاب الذي ذكره الله عزّ وجلّ في هذه الفقرة، هو عذاب يُبْرِمُهُ اللَّهُ عليهم بالتتابع كما يفعل فاتل الحبْل، ويجعله باطناً غير ظاهر، كأنواع المصائب التي تُصِيبُ الشعوب المذنبة من خلال الأمراض والأسقام، والخلافات الداخلية، والصراعات الناشئة عن ضَرْبِ قلوب بعضهم ببعض.

بقي الربط بين قول الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ وبين قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾.

إنّ المعنى لا يستقيم إلاّ بتقدير محذوف قبل (أن). قال المفسرون: إلاّ طَلَبُ أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قُبُلاً، أخذاً من الآيات الّتي جاء فيها طَلَبُهُمْ تحقيق ما أنذروا به من إنزال العذاب بهم، وطلَبُهم هذا هو في الحقيقة أسلوبٌ من أساليب التعبير عن إنكارهم أنّ الرَّسُولَ يملك تحقيق ما أنذرهم به في أن يستجيب اللّه دعاءه، لا أنّهم راغبون حقيقةً في أن يُنْزِل الله بهم العذاب.

لذلك فأرى أنّ مثل هذا التقدير غير ملائم، والأقرب للمعنى الملائم لحالهم أن نقدّر مثل: استبعادُهم ــ أو جحودُهم ــ أو إنكارهم ــ أو تكذيبهم.

فنقول في التقدير:

﴿وما منع الناسَ أن يؤمنوا إِذْ جَاءَهم الهدى ويستغفروا ربهم إلاَّ﴾ استبعادُهم أو جحودُهم وإنكارهم ﴿أنْ تأتيهم سنّةُ الأوّلين﴾ الذين أهلكُوا من كُفَّار الأُمَم السّابقة ﴿أو يأتِيَهُمْ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: بألوان باطنة من التعذيب، مع دوران مسيرة حياتهم.

* * *

المثال الثامن:

في التعليل بأن المصدرية وما بعدها لأمر من تصرّفات الناس قائم:

يقول الله عزّ وجل في سورة (الإسراء /١٧ مصحف /٥٠ نزول):

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾.

أي: وما منع الناس من أهل الكفر عن الإيمان إلاّ توهُّمُهم أنّ الله لا يبعثُ بشراً رسولاً، يبلّغ عنه رسالاته وشرائعه، واستبعادهم لذلك، أو استكبارهُم عن الرسول البشر، أو حَسَدُهُمْ له.

وقد جاء التعبير عن ذلك في مقالتهم المصدّرة بالاستفهام الذي يتضمّن معنى الإنكار والتعجب والاستبعاد: «أبعثَ اللَّهُ بشراً رسولاً؟!».

ففاعل (منع) هو ما دلّ عليه قولهم: «أبعث الله بشراً رسولاً؟!» أي: وما منعهم أن يؤمنوا إلاّ كون الرسول بشراً، وهذا ظاهر، وليس في الآية حذف قبل «أن» إنما فيها مقالة لهم نابَتْ مناب الفاعل، ودلّت عليه.

* * *

المثال التاسع:

في لزوم تقدير المحذوف قبل أن المصدريّة:

يَقُول الله عزّ وجل في سورة (الحديد /٥٧ مصحف /٩٤ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾.

وَمَا لَكُمْ أَنْ لاَ تُنْفِقُوا: أَيْ: وَمَا الباعثُ لَكُمْ أو الْمُحَرِّضُ لَكُم أو الدافع لَكُمْ

على أنْ لا تُنْفِقُوا في سبيل الله، بعد أن آمَنْتُمْ بالله واليوم الآخر، وعلمتم أنّ الله هو الرزاق، وأنّ لله ميراثَ السماوات والأرض.

وبهذا التقدير يتضح لنا المحذوف الملائم لما دلّ عليه النصّ في عمومه.

* * *

المثال العاشر:

في التعليل بأن المصدرية وما بعدها لبيانٍ أبانه الله، وتقدير المحذوف:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد /٥٧ مصحف /٩٤ نزول) أيضاً:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ: أي: نَصِيبَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ. الكِفْلُ في اللّغة: الضِّعْفُ، والنَّصِيبُ، والحظُّ. فالكِفْلَان: هما الضِّعْفَانِ، والنَّصِيبَانِ، والْحَظَّانِ.

روى الطبري بسنده عن قتادة في سبب نزول الآية الأولى من هذا النصّ، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقُوا اللَّهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ...﴾ الآية. حَسَد أَهْل الكتاب المسلمين عليها، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لِئَلَّا يَعْلَم أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ...﴾ الآية.

قال: ذُكر لنا أنّ نبيَّ اللَّهِ ﷺ كان يقول:

«إِنَّمَا مَثَلُنَا وَمَثَلُ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ قَبْلَنَا، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ يَعْمَلُونَ إِلىٰ اللَّيْلِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ، فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ سَئِمُوا عَمَلَهُ وَمَلُّوا، فَحَاسَبَهُمْ فَأَعْطَاهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ ذَلِكَ، ثُمَّ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ إِلَىٰ اللَّيْلِ عَلَىٰ قِيرَاطَيْنِ يَعْمَلُونَ لَهُ بَقِيَّةَ عَمَلِهِ، فَقِيلَ

لَهُ: مَا شَأْنُ هَـؤُلَاءِ أَقَلُّهُمْ عَمَـلاً، وَأَكْثَرُهُمْ أَجْـراً؟ قال: مَـا لِي أُعْـطِي مَنْ شِئْتُ، فَأَرْجُو أَنْ نَكُونَ نَحْنُ أَصْحَابَ الْقِيرَاطَيْنِ».

قول الله عزّ وجل: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَلَّا يَقْـدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أشكل فهمه على المفسـرين لوجـود (لا) بعد (أن) وذكـروا أنّ (لا) هذه صلة لا معنى لهـا، فهي زائدة وأنّ المعنى على الإثبـات لا النفي، والمعنى: ليعلَمَ أهـل الكتاب.

وبـالتدبّـر المتأني ومـلاحظةِ المحـذوف قبل (أنْ) النـاصبة نستـطيـع أن نفهم النصَّ فهماً سليماً دون اعتبار كلمة (لا) زائدة، وهذا يحتاج منّا نظراً بمقتضىٰ أسس الإيجاب والسَّلْب التي تكشفها ضوابط القضايا في علم المنطق.

فـأقول: إنّ أهـل الكتاب يجهلون أنَّهم لا يَقْـدِرون على شيء من فضل الله، جلباً لأنفسهم، أو منعاً عن غيرهم.

ومن مـظاهر جهلهم هـذا اعتقادهم أنَّـه لن يدخـل الجنة، إلّا من كـان هـوداً أو نصـارى، فهم يحتكرون لأنفسهم الجنـة، ويمنعونهـا عن غيرهم، مـع أن ثـواب الآخـرة إنّما هـو فضلٌ من الله عـزّ وجلّ، وهـذا الفضل هـو بيد الله، وهـو يؤتيـه من يشاء، لا يقدر أحدٌ على جلبه لنفسه ومنعه عن غيره.

والتعبير عن الجهل بالشيء يكون بصيغتين:

الأولى: بإثبات جهلهم به.

الثانية: بنفي علمهم به.

واختيـر في هـذا النصّ التعبيـر بنفي علمهم بـأنهم لَا يقـدرون على شيء من فضـل الله، ليكون هـذا التعبير مثـلاً يستشهد بـه لهذا الأسلوب من البيـان الكلامي المعبّـر عن الأفكار في نـوع السلب، إذِ المسيطرُ على أسـاليب كلام النـاس إثبـات المـوجب أو سلبه، أمّـا سلْبُ السّالب فهـو أسلوب منطقيٌّ رِيـاضي، وفي ذكـر هـذا

المثل من طرائق الكلام تحقيق لمضمون قول الله عزّ وجل في سورة (الإسراء /١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)﴾.

فالتعبير الدّال على جهلهم، بصيغة السلب هو:

﴿لا يَعْلَمُ أَهْلُ الكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ الله﴾ أي: جلباً أو منعاً.

ورفع عدم علمهم هذا، أي: سلبُ هذا السَّلْب، يكون بإنزال بيان قرآني فيه إعلام لهم ولغيرهم بأن أحداً لا يقدر على شيء من فضل الله، وبأنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

فالإعلام بهذه الحقيقة قد كان لرفع عدم علم أهل الكتاب بها، بالبيان التعليمي.

بعد هذا يَسْهُل علينا فهم النص دون إشكالات فكرية، إذا قدّرنا المحذوف الملائم قبل حرف (أن) الناصب، وبالتأمل ينكشف لنا أنّ المحذوف الملائم، هو نحو (مَنْعَ ــ أو ــ دفْع ــ أو ــ رفع) فيكون التقدير: لمنع أن لا يعلم أهل الكتاب ألّا يقدرون على شيءٍ من فضل الله. أو لدفع أن لا يعلم أهل الكتاب. أو لرفع أن لا يعلم أهل الكتاب.

وبهذا المنع أو الدفع أو الرفع تنقطع أعذارهم.

* * *

خاتمة:

وجاءت نصوص على وفق أصل الاستعمال، فهي ظاهرة الدلالة لا تحتاج إلى تقدير محذوفات، منها ما يلي:

الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء /١٧ مصحف / ٥٠ نزول):

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

أي: وَما منعنا أن نرسل بالآيات المادّيّة المشابهة لآية ناقَةِ صالح عليه السلام إلّا أنّنا لمّا أجريناها استجابةً لطلب الأقوام لم تُفِد في إقناعهم واستجابتهم لدعوة الرسُل، بل كذّبوا بها، فقضت الحكمة بإهلاكهم.

ولمّا كانت الطبائع البشريّة مُتَشَابهةً، وكانت قلوبُهم متشابهةً، وكانت الحكمة تقتضي في هذه الرسالة الخاتمة إمهال الناس، وبناء إيمانهم على منطق العقل والحجّة، لا على الخوارق المادّيّة التي تغيب عن الحواسّ بانتهاء أزمانها، وتبقى تاريخاً يُحْكَىٰ، كانَ من الحكمة الامتناع عن إجراء الآيات الخوارق المادّيّة لرسول خاتمة الرسالات، استجابة لمطالب المشركين، وكان من الحكمة الاعتماد على القرآن إعجازاً وبياناً وهداية.

والربط بين عبارة التعليل في هذا النّص والمعلَّل واضح ظاهرٌ جَلِيّ، فقد جاء التعليل فاعلاً مباشراً لفعل «منعنا» وهُو المصدر المؤوّل من أَنْ وما بعدها.

أي: ومَا منعنا أنْ نرسل بالآيات المادّية الحسيّة الخارقة للسنن الثابتة، إلّا تكذيبُ الأَوّلين بها بعد إرسالها استجابة لمطالبهم، الذي اقتضى إهلاكهم بعد ذلك إهلاكاً عاماً.

وأَبَانَ الله عزَّ وجل أنَّ من الخير للناس أن لا يستجيب لمطالبهم التي تسبّب إهلاكهم إهلاكاً عامّاً.

ويعلّمُنا الله عزّ وجل بهذا أن نستفيد من التجارب السابقة، في تغيير أساليب تربية الناس، ومعالجتهم الإداريّة والسياسية، وأن نتخلّق بأخلاق الله.

وكذلك علّمنا سبحانه وتعالى بـالنسـخ في الأحكام والآيـات أن نعدّل ونـطوّر تدابيرنا إلى الأكمل والأصلـح والأحسن باستمرار.

فـربُّنا العليم بكـلّ شيء، والخبير بمـا هـو الأحسن والأصلـح ابتـداءً، ينسـخ ويغير، ويُحَسّن، وقال لنا في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

أي: ومـع أنّه على كلّ شيءٍ قَدِيرٌ فهـو بتـدبيـراته يُعَلِّمُنـا كَيْفَ نُدَبِّـر الأمور، وكيف ينبغي أن نُعَـدِّل إلى الأحْسَنِ، أو إلى الممـاثـل إذَا اقتضى الأمـر التعـديـل، لا إلى الأدنىٰ والأَقَلِ قيمة، فالترقيّ في عمليات الخلق والإبداع والتدابير والأحكام سنَّةُ الرّبّ الخـالق القديـر على كلّ شيء، والّـذي إذا أراد شيئاً، إنّمـا يقول لـه كن فيكون، والعليم الحكيم الخبير ابتداءً بكلّ شيءٍ، وبكلّ الاحتمالات، وبكلّ نِسَبِ الكمالات.

* * *

الثاني:

قول الله عزّ وجل بشأن بعض المنافقين في سورة (التـوبة /٩ مصحف /١١٣ نزول):

﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

أي: ومـا أقـام المـانـعَ بينهم وبين أن تُقبـل منهم نفقـاتُهم إلاّ نفـاقهم، فهم منافقون كفروا بالله وبرسوله باطناً، ودلّ على نفاقهم أمران:

الأول: أنّهم لا يأتُون الصلاة إلاّ وهم كسالىٰ، لأنّهم يراؤون الناس، ولا يصلّون إيماناً واحتساباً.

الثاني: أنّهم لا يُنْفقُون أيّة نفقة يدعوهم لها الإسلام إلاّ وهم كارهون، وتدلُّ على كراهيتهم ظواهر واضحاتٌ عند تقديمهم نفقاتهم.

وقيام هذا المانع الذي هم سبب فيه، والذي كان من آثاره أن لَا تُقْبَلَ مِنْهُم نَفَقَاتُهُمْ، هو بمثابة المانع لهم من أن تُقْبَل منهم نفقاتهم، مع أنه في الحقيقة هو مانع لإمام المسلمين من أن يَقْبَل منهم نَفَقاتهم، أو مَانِعٌ للثواب من أن يصل إليهم ولو بذلوا أموالهم، إذْ شرط حصول الأجر صحةُ الإيمان، وإخلاصُ النيّة، والأمران كلاهما منعدمان في المنافقين.

هذا الأسلوب البارع الذي جاء فيه إسنادُ المانع إليهم، مع أنّه مانع لإمام المسلمين من قبول نفقاتهم، قد تنبَّهَ أَبُو الطيّب إلى مثله تَنَبُّهاً ذَكِياً فقال يخاطب سيف الدولة في قصيدة يمدحه فيها ويعاتبه:

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا ... أَنْ لَا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

• • •



القاعدة الثلاثون

«حول استعمال الفعل الماضي فيما لَهَ الكينونَةُ الدائمة وفيما حصل فعلاً، وفيما هو مَقْضِيٌّ مقدّر، فهو متحقّق الوقوع في المستقبل وينتظر الزمن الذي يكون فيه واقعاً منجّزاً، وفيما هو معلومٌ لله وقوعُه في المستقبل ولو لم يكن له إرادة جبريّة في وقوعه، إنما له به علم وتمكين وتسخير»

يلاحظ المتدبّر لكلام الله عزّ وجلّ أنّه يأتي فيه استعمال الفعل الماضي للدلالة على عدّة أمور:

الأمر الأوّل: أنّ المتحدَّثَ عنه لَهُ الكينُونَةُ الدائمةُ مِنَ الأزل إلى الأبد.

ومن أمثلة هذا استعمال فعل «كان» للدلالة على صفة من صفات الله، أو فعلٍ من أفعاله، إيجاباً أو سلباً. كقول الله عزّ وجل:

١ ـ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ سورة (٤).

٢ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ سورة (٤).

٣ ـ ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ سورة (٤).

٤ ـ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ سورة (١٨).

٥ ـ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ سورة (١٩).

٦ ـ ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ سورة (١٨).

الأمر الثاني: أنّ المتحدَّث عنه له الكينونة غير المحصورة بزمن، إيجاباً أو سلباً.

ومن أمثلة هذا التحدُّثُ عن طبائع المكوّنات أو ظواهر سلوكِهَا الإرادي، كقول الله عزّ وجل:

١ ـ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ سورة (١٨).

٢ ـ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ سورة (١٧).

٣ ـ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ سورة (١٧).

٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ سورة (١٧).

٥ ـ ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ سورة (٣٣).

٦ ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ سورة (٥٠).

٧ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ سورة (٦).

الأمر الثالث: أنّ المتحدَّثَ عنه قد حصلَ فيما مضىٰ، سواءٌ أكان مستمرَّ الحصول، أو انقضىٰ فلا وجود له.

وهذا أمر ظاهر لا يحتاج إيرادَ أمثلة.

الأمر الرابع: أنّ المتحدَّث عنْه مَقْضِيٌّ مُقَدَّر، فهو متحقِّقُ الوقوع في المستقبل، وينتظر الزمنَ الذي يكون فيه واقعاً مُنَجّزاً. نظراً إلى أنّ مَا هُوَ مُحقَّقُ الوقوع مستقبلاً بقضاء الله وقدره السابق، هو بحكْم الواقع فعلاً.

ونظيره ما هو معلوم الوقوع في المستقبل ولو لم يكن لله عزّ وجلّ إرادة جبريّة في وقوعه، إنّما له به علم وتمكين و تسخير.

إنّ من يرمي نفسه من شاهقٍ على صخرةٍ لينتحر، إذا رأيناهُ هاوياً في الفضاء، نقولُ عنه بصيغة الفعل الماضي: لقد قتلَ نفسه.

لأنَّنا بحسب قانون الأسباب لا نشُكّ بأنّه سيتحطَّمُ ويكونُ قتيلاً عند وصوله إلىٰ الصخرة التي رمىٰ نفسه عليها.

وإذا سدَّدَ رامٍ مِدْفَعَهُ تَسْدِيداً محكماً، وأطلق قذيفتَهُ ورأَيْنا عَمَلَه المحكمَ، نقول: لقد أصاب الهدف. ولو كانت القذيفة ما زالَتْ في طريقها، لأنّنا نحكي ما جزمنا بأنّه سيقَعُ جزماً حكايةَ ما وقع فعلاً.

وطوَّل أحدُ جُلَساء السلطان لسانه عليه بكلامٍ يستحقُّ عليه القتل، فقال أحد العقلاء في مجلس السلطان: لسانُ هذا الرجل قتله.

وفعلاً غضب السلطان وأمر بقتله.

* * *

الأمثلة

المثال الأول:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب /٣٣ مصحف /٩٠ نزول) في عرض ما أكرم الله به الرسول ﷺ والمؤمنين معه في غزوة الخندق:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى

قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

وَرَدّ الّـذِين كفـروا: هُمُ أحـزاب المشـركين الـذين تجمعـوا وقَـدِمُـوا لقتـال المسلمين في المدينة بقيادة أبـي سفيان.

وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب: هم يهود بني قريظة.

من صَياصِيهِمْ: أي: من حصونهم.

فريقاً تقتلون: هُمُ المقاتلة من الرجال جزاء خيانتهم وغَدْرهم.

وتأسرون فريقاً: هُمُ الصغار والنّساء.

ففي هذا النصّ بيانٌ لقضاءٍ رَبّانيّ نُجّزَ ووقـع فعلاً قبل تنزيل الآيات، وهـو: من أول الآيات حتى غاية: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ﴾.

وفي هـذا النصّ أيضـاً بيـانٌ لقضـاءٍ رَبّـانيّ مُحَقَّقِ الـوقُـوعِ في المستقبـل، ولم يكُن قـد تحقَّق عند نـزول النّصّ، وهو: ﴿وَأَرْضـاً لَمْ تَطَـؤُوهـا﴾ وهـذه الأرضُ الّتي أورثَهـا اللّهُ للمسلمين هي أرضُ الفتوحـات الإسـلاميـة في أرض العـرب وفي غيرها من بلاد الدُّنيا، وقد جاء الواقـع فيما بَعْدُ مبيّنـاً لهذا الخبـر الذي جـاء بصيغة الفعل الماضي، لأنّه مقضيٌّ بالقضاء الربّاني، وهو مُحقَّقُ الوقوع في المستقبل.

وكان هذا البيان إعلامـاً عن بدايـات النصر العـظيم والفتـح المبين للمسلمين بأسلوب كلام مُلْحَقٍ بكلام عن وقائـع تمَّ إنجازها، فلا يتنبَّهُ له إلّا الفطناء.

* * *

المثال الثاني:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل / ١٦ مصحف / ٧٠ نزول):

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾.

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّه: أي: إنَّ مَا استعجلَهُ قـادةُ المشركين في مكـة من الهلاك الـذي أنـذرهم الـرسـول بـه قَـدْ أتىٰ، إذْ صـدر بـه أمْـرُ الله، فهـو آتٍ في طـريقـه إليهم، وسيُصِيبهم في الزمن المقدَّر لنزوله فيهم حتماً، ولمّا كـان وقُوعـه الآتي بقوّةِ الشيء الذي وقـع فعلاً قَال اللَّهُ بشأنه: ﴿أَتَىٰ﴾ فما أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ به فهـو آتٍ لا محالـة، في الوقت المقدّر المقضي بالقضاء الرَّبّاني، لذلك خـاطبهم الله عزّ وجـلّ بقولـه: ﴿فلا تستعجلوه﴾.

إنّ الأمر قد صَدَرَ وتَمَّ بَتُّهُ، فالمأمورُ بِهِ قد أَتَاهم، فهو فيهم، كمتفَجِّرَةٍ موقوتة يَحْمِلُهَـا المحكومُ عليـه بالهـلاك، حتى إذا بلغت الساعةُ «المبرمجةُ» إشارةَ اللَّحـظَةِ المحدّدة تفجَّرتْ عليه فنسفته نسفاً، وجعلته بدداً.

* * *

المثال الثالث:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف /٧ مصحف /٣٩ نزول):

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝٤﴾.

بَأْسُنَا: عقابُنا، وقَتْلُنَا الشديد لهم، وانتقامُنَا في حَرْبِهِم وتعذيبهم.

بَيَاتاً: أي: وهم نائمون ليلاً، قد أوَوْا إلى بيوتهم.

أَوْ هُمْ قَائِلون: أي: أو هم نائمون في وقت القيلولة، جمـع: «قـائِل» بمعنىٰ نائم وقت القيلولة، القائلة في اللّغة: هي نصف النهار، يُقال: قَالَ قَائِلةً، وتَقَيَّلَ: إذا نامَ في منتصف النهار.

ونلاحظ في هذه الآيـة، أنّ اللَّهَ عزّ وجـلّ قال بشـأن هذه القـرىٰ التي أهلَكَها لكفرها وظلمها وعُدْوانها وتكذيبها رُسُلَ رَبّها: أَهْلَكناهَا فجاءهَا بأْسَنا، فرتّبَ مجيء البأسِ على الإهلاك، مـع أنّ وقوعَ الإهلاكِ وتنجيزَه قد كان بالبأس الرّبّاني وعقبه، لا قبله، ولكن لمّا كان الأمر بالإهلاك قضاءً محقَّقَ الوقوع في المستقبل، كان بقـوّةِ

الأمر الذي وقع فعلاً ومضىٰ، فناسَبَ أنْ يُعَبَّرَ عن الإهلاك الذي سيتحقق حتماً بالفعل الماضي الذي يدلُّ على أنَّ الأمرَ قد وقع ومضى.

ودلّ قول الله تعالى: ﴿فجاءها بأسُنا بياتاً أو هم قائلون﴾ أنّ ترتيب مجيء البأس قد كان مُباشرةً عَقِبَ إصدار الأمر بالإهلاك، إذْ نفهم من قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أَمَرْنا بإهْلاَكها، فتبلَّغَ الملائكةُ الموكَّلُون بالتنفيذ، فقاموا بما أُمِرُوا به مُباشرةً دون تأخير.

وهذا يفيد أنّ أوامر الإهلاك الرّبّانيّة للأُمَم تنزل إلى ملائكة التّنفيذ قُبَيْل الوقت الذي أراد الله أن يَتِمّ فيه التنفيذ، لا قبله بوقتٍ طَويل.

* * *

المثال الرابع:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران /٣ مصحف / ٨٩ نزول):

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

في هذه الآية يُخَاطب الله عزّ وجلَّ أُمَّةَ مُحمَّدٍ ﷺ، بقوله لهم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاس﴾ بصيغة الْفِعلِ الماضي، الذي يدلّ على أنّ الأمر قد تحقّق ومضى. مَعَ أنَّ واقع هذه الخيرية إنَّما يتحقّق تباعاً حتَّى يأتيَ أَمْرُ اللَّهِ بإنهاء ظروف الامتحان في هذه الحياة الدنيا. وقد دلّ على ذلك قوله تعالى في الآية:

﴿تَأْمُرُونَ بَالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. أي: تَتجَّدد فيكم دواماً ظاهراتُ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمانِ بالله إيماناً صحيحاً صادقاً.

ولمَّا عَلِمَ الله أنّ هذا أمرٌ سَتُحَقّقه أُمَّةُ مَحمَّدٍ في مستقبل وجود الأمم على الأرض، بإرادات حُرَّةٍ مِنْ طائفةٍ مختارةٍ منهم، وكَانَ عِلْمُ اللَّهِ لاَ يَتخلَّفُ قال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وهذا فيهم على خلاف سائر الأمم، فجاءَ التعبير عمّا علم الله بأنه سيكون حتماً بعبارة الماضي الذي تحقق وقوعه.

وبناءً على هذه الحقيقة المستقبلية التي سبق بها العلم قال الرسول ﷺ فيما ثبت في الصحيح عنه:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وهُمْ ظَاهِرُونَ».

(رواه البخاري ومسلم عن المغيرة.
عن الجامع الصغير، للسيوطي)

وروى مسلم عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَاتَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَىٰ الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيامَة».

قال: «فَيَنْزِلُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ، فيقُولُ أمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ بنا. فيقول: لا، إنَّ بعضكُمْ عَلَىٰ بعضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةَ اللَّهِ هٰذِهِ الأُمَّة».

(عن مشكاة المصابيح برقم ٥٥٠٧)

وروى أبو داود عن عمران بْنِ حُصَينٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ على الحقّ ظَاهِرِينَ على من نَاوَأَهُمْ، حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمْ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ».

(عن مشكاة المصابيح برقم ٣٨١٩)

ودلّ الواقع على المراد من ظهور هذه الطائفة أحد أمرين:

- إمّا الظهور بالغلبة الماديّة.
- وإمّا الظهور بالحجّة، وبأنّ ما يؤمنون به هو الحق، وهذا الثاني مستمرّ، وتظهر آثاره في أشدّ أحوال المسلمين ضعفاً ماديّاً تُجاهَ أعدائهم.

* * *

المثال الخامس:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الفتح /٤٨ مصحف /١١١ نزول):

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)﴾.

ففي هذا النصّ نلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ يتحدّث عن حال المؤمنين عقب صلح الحديبية وهم منصرفون راجعون إلى المدينة بعد أن صدّهم المشركون عن مكة إذ قدموا إليها معتمرين بقيادة الرسول صلوات الله عليه فيقول: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها﴾.

ولم يكن هذا الفتح قد حصل في الواقع، ولم يكونوا قد أخذوا هذه المغانم في الواقع، لكنّها لمّا كانت قضاءً مُبْرَماً في علم الله، وهو أمر سيقع لا محالة، عبّر الله عزّ وجلّ عنه بصيغة الفعل الماضي، للإعلام بأنّ تَحَقُّقَه قد أصبح مقطوعاً به، منجّزاً بأمر الله، إنّما ينتظر تحقُّقُهُ في الواقع الزمن المقدّر لوقوعه فيه.

* * *

المثال السادس:

قال الله عز وجل في سورة (مريم /١٩ مصحف /٤٤ نزول) حكاية لما أنطق الله به سيدنا عيسى عليه السلام وهو في المهد:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾.

ففي هذا النصّ نلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ أنطق عيسى عليه السلام وهو صبيٌّ بقوله عن ربّه: ﴿آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ مع أنّه لم يكُنْ قد أُنزل عليه الإنجيل

يومئذٍ ولم يكن قد أوحي إليه حتى يكون نبيّاً، وأنطقه أيضاً بقوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ والزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حيّاً﴾ مع أنّ هذه الوصيّة لم تكن قد نزلت عليه في تشريع، لكنّ ذلك كلَّهُ قد كان قضاءً مُبْرَماً وأَمراً محقق الوقوع في علم الله، فجاء التعبير عنه بالفعل الماضي، للإعلام بأنَّ وقوعه في المستقبل أمرٌ مقطوع به، فهو منجّز بأمر الله، وينتظر تحُقُّقه في الواقع الزمنَ المقدَّرَ لوقوعه فيه.

• • •



القاعدة الحادية والثلاثون

«حول النظر في توجيه الخطاب الربّاني»

وفيها ثلاث مقولات:

المقولة الأولى:

حول خطاب الناس بصفة عامة، وخطاب الذين آمنوا على وجه الخصوص.

على متدبّر كلام الله أن ينظر في توجيه الخطاب، فإذا كان خطاباً للناس لوحظ فيه معنى يَعُمُّ الناس جميعاً، ولا يخصّ المؤمنين وحدهم. وإذا كان خطاباً للمؤمنين لوحظ فيه معنى يخص المؤمنين وما يكلفّونه من عمل واعتقاد وغير ذلك. وإذا كان خطاباً لأهل الكتاب لوحظ فيه معنى يخصّ أهل الكتاب. وإذا كان خطاباً للرسول لوحظ فيه معنى خاص بالرسول وفي الغالب يشتمل المؤمنين، ما لم يقم الدليل على أنَّه من خصوصيات الرّسول وهكذا.

* * *

الأمـــثـــلـــة

أولاً:

لدى تتبع النصوص القرآنية المصدرة بخطاب الناس: «يا أيها الناس» نلاحظ أنّ مضمون هذه النصوص يشتمل على معنىً يعمّ الناس جميعاً.

(أ) فأول خطاب مكيّ تضمّن نداء الناس جميعاً بـ «يا أيها الناس» هو ما جاء في سورة (الأعراف /٧ مصحف /٣٩ نزول):

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

وظاهر في هذا النصّ أن مضمونه يعمّ الناس جميعاً، لأنّه دعوة إلى الإيمان بالقضية الأولى من قضايا دعوة الرسول محمد ﷺ، وهي الإيمان به رسولاً من عند الله الذي لا إله إلّا هو. وهذه الدعوة تشمل أيضاً من كان على إيمان صحيح قبل بعثته.

* * *

(ب) ثم نادى الله الناس جميعاً في سورة (فاطر /٣٥ مصحف /٤٣ نزول): بنداءات ثلاثة:

النداء الأول: هو قول الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

ومضمون هذا النداء يعمّ الناس جميعاً، فهو تذكير بنعمة الله، وتذكير بأنه هو وحده الخالق الرازق، إذن فلا إله إلّا هو. بعد هذا صحّ التساؤل الذي فيه معنى التلويم ﴿فأنّى تُؤفَكُون﴾ أي فكيف تصرفون عن توحيده؟ وكيف تجعلون معه شركاء؟.

النداء الثاني: هو قول الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾.

ومضمون هذا النداء يعمّ الناس جميعاً أيضاً، ففيه دعوة إلى الإيمان بالجزاء يوم الدين، وتحذير من وساوس الشيطان.

النداء الثالث: هو قول الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

ومضمون هذا النداء أيضاً يعمّ الناس جميعاً، فهو يذكر الناس جميعاً بفقرهم إلى الله وحاجتهم الدائمة إلى فضله في كل أمر من أمورهم، ويبين لهم قدرته القادرة على أن يذهبهم جميعاً ويأتي بخلق جديد.

* * *

(ج) ثم نادى الله الناس جميعاً في سورة (يونس / ١٠ مصحف / ٥١ نزول): بنداءات أربعة:

النداء الأول: هو قول الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

النداء الثاني: هو قول الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

النداء الثالث: هو قول الله تعالى:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

النداء الرابع: هو قول الله تعالى:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

وظاهر أن مضمون هذه النصوص كلها مما يعم الناس جميعاً، ولا يخص فئة منهم.

* * *

(د) ثم نادى الله الناس جميعاً في سورة (لقمان /٣١ مصحف /٥٧ نزول) بنداء واحد هو قول الله عزّ وجل فيها:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾.

ففي هذا النص دعوة الناس إلى اتقاء عذاب الله، وخشية يوم الدين، الذي يجازي فيه الله الناس على أعمالهم، وهذا المضمون من الأمور الكلية العامة التي تعمّ الناس جميعاً.

* * *

(هـ) ثمّ نادى الله الإنسان في سورة (الانفطار /٨٢ مصحف /٨٢ نزول): بنداءٍ واحد، ونداء الإنسان هو نداء للجنس، فيعم الناس جميعاً.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾.

وظاهر أنّ مضمون هذا النصّ يشمل الناس بعمومه، والمقصود به في السياق الذين يكذبون بالدين.

* * *

(و) ثم نادى الله الإنسان في سورة (الانشقاق /٨٤ مصحف /٨٣ نزول) بنداء واحد فقال عزّ وجلّ فيها:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾.

فهذا النص خطاب لجنس الإنسان الشامل لكلّ الناس، فكل إنسان في هذه الحياة كادح، إلّا أنه إمّا أن يكدح في الخير فيكون من أهل اليمين، وإمّا أن يكدح في الشرّ فيكون من أهل الشمال.

* * *

كلّ هذه النداءات التي سبق ذكرها قد كانت في العهد المكي، أمّا في العهد المدني، فقد نادى الله الناس جميعاً بالنداءات التالية:

(ز) ثم نادى الله الناس جميعاً في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول) بنداءين.

النداء الأول: هو قول الله تعالى فيها:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

النداء الثاني: هو قول الله تعالى فيها:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾.

وظاهر أن هـذين النصين يتضمنان بيانات تعم الناس جميعاً، ولا تخصّ المؤمنين.

* * *

(ح) ثم نادى الله الناس جميعاً في سورة (النساء /٤ مصحف /٩٢ نزول): بنداءات أربعة:

النداء الأول: هو قول الله تعالى فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾.

النداء الثاني: هو قول الله تعالى فيها:

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ١٣٣﴾.

النداء الثالث: هو قول الله تعالى فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠﴾.

النداء الرابع: هو قول الله تعالى فيها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾.

وكلّ هذه النصوص تتضمن مضامين تشمل الناس جميعاً.

* * *

(ط) ثم نادى الله الناس جميعاً في سورة (الحج /٢٢ مصحف /١٠٣ نزول): بنداءات أربعة:

النداء الأول: هو قول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾.

النداء الثاني: هو قول الله تعالى فيها:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

النداء الثالث: هو قول الله تعالى فيها:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

النداء الرابع: هو قول الله تعالى فيها:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾.

وظاهر أن مضامين هذه النصوص تشمل الناس جميعاً، فهي تدور حول القضايا الكلية للإيمان.

* * *

(ي) وأخيراً نادى الله الناس جميعاً بنداء واحد في سورة (الحجرات / ٤٩ مصحف / ١٠٦ نزول) وهي سورة نزلت قبل ثماني سور أخيرة نزلت في القرآن الكريم، فهي من أواخر ما نزل منه، وفي هذا النداء يقول الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

وظاهر أنّ مضمون هذا النداء الأخير يشمل الناس جميعاً.

* * *

ثانياً:

ولدى تتبّع النصوص القرآنية المصدّرة بخطاب المؤمنين: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ نلاحظ أنّ مضمون هذه النصوص يشتمل على معان تخصّ الذين آمنوا، وما يُؤمرون به، وما يُنهون عنه، وما يُحذّرون منه، وما يوجّهون له، وما يُوصَوْن به، ونحو ذلك.

ونداءات الله للذين آمنوا كثيرة جدّاً بلغت (٨٩) نداءً، مصدرة بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾. والذي يلفت النظر أنها جميعاً مدنية. أوائلها ما جاء في سورة البقرة باستثناء آية المداينة منها التي نزلت في حجّة الوداع في منى، وهي أيضاً مصدرة بـ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾. وأواخرها ما جاء في سورة التوبة. فآية المداينة آخر ما نزل من نداءات الله للّذين آمنوا على ما يظهر، والله أعلم.

* * *

المقولة الثانية:

الأصل في الخطاب الرّبّاني ولو بَعْدَ نُزول القرآن أنّه فوق الزمن، فهو خارجٌ عن حدوده، وهو قائم بلا تَجَدُّد، والحادثون هم الذين متى وجدوا وصاروا أهلاً للخطاب، وسمعوا القرآن وقرؤوا الآيات التي تخصُّهم علموا أنّهم مخاطبون بها.

فالمخلوقون الزمنيّون متى وُجِدوا في أزمانهم بأحوالٍ يكونون فيها مؤهلين لتلقّي الخطاب الرّبّاني تَعَلّق بهم الخطاب كأنّه منزّل عليهم، منذ صاروا مؤهّلين للخطاب، ويستمرُّ التعلّق ما دامُوا مؤهلين له.

دلّ على هذا خطاب الله بمثل قوله عزّ وجل في سورة (قٓ / ٥٠ مصحف / ٣٤ نزول):

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾.

من الملاحظ أنَّ الخطاب في هـذا النصّ يتعلّق بنظر بَـاحِثينَ عِلْمِيينَ، عرفـوا بـدراساتهم العلميـة كيْف بَنَىٰ الله عزّ وجـلّ السماء، وكيـف أنَّهـا خاليـة من فـروج. وكيْفَ مدّ الأرضَ بما ينبت الزرع من ماء وعناصر التـراب، وكيف بسط فيها سهـولاً وهيَّأ فيها أمـاكن للحرث والـزرع. وكيف جعل فيهـا الجبال رواسيَ مُثَبّتـات لقشرة الأرض، حتّى لا تكـونُ ميّادة رَجْـراجة تتـزلزل وتتـأرجـح تحت من عليهـا، فتتشقق وتحدث فيها دواماً الانهيارات والبركانات وأنواع الخسف والهدم.

وهؤلاء المخاطبون لم يـوجَدوا إلاّ بعـد نزول القـرآن بقرون، مـع أنّ القـرآن تحدّث عنهم بحديث الماضي، فقال: ﴿أفلم ينظروا﴾ أي: فهم إذا وُجدوا ونـظروا هذا النظر المطلوب، تعلّق بهم الخطاب الذي كان مُوَجّهاً لهم قبـل أن يوجـدوا من خارج حدود الزمن، فلمّا وُجدوا تعلّق بهم الخطاب.

إنّ كيفية بناء السماء وتماسُكِ نجومها وكواكبها بالجـاذبيّة، وكيف أنّهـا خاليـة من فروج، أي من تشققات حسيّة أو غير حسيّة، تحدث تخلخلاً في نظامها. وكَيْفَ أنّ الجبال هي بمثابـة الرواسي، لأ نّهـا تمنـع بثقلها وتسنيـدها قشـرة الأرض من أن تكـونَ ميَّادَةً تتشقّق، وتـرتـجّ وتتزلـزل دواماً بمن عليهـا، كقطعـة أرض عائمـة على أمواج بحر، أمور لم تكن معروفة للناس عند نزول القرآن، لا عند جمـاهير النـاس، ولا عند الفلاسفـة وعلماء الـطبيعة، إذ هي معـارف لم يُعْرَفْ بَعْضُهـا إلاّ بعد قـرون عديدة من نزول القرآن.

فدلّ هذا على أنّ مثل هذا الخطاب خارج عن حدود الزمن، حتى إذا وُجِدَ المؤهّلُون له تعلّق بهم الخطاب.

وربما يكون بعض ما اشتمل عليه النصّ لم يُعْرف بعد، حتى عصرنا هذا الذي نعيش نحن فيه، فهو ينتظر العلماء الذين سيأتون ويعرفون المعارف التي اشتمل عليها النصّ، وعندئذٍ يتعلّق بهم الخطاب كأنّه مُنَزّل لَهُمْ.

وقد تنبّه سلمان الفارسي رضي الله عنه إلى هذه الفكرة في بعض الآيات القرآنية، فقال: لم يأت أهل هذه الآية بعد.

وقوله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف /٧ مصحف / ٣٩ نزول):

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

فمع ما في ظاهر هذا النصّ من صلاحيّة لخطاب مشركي مكّة معاصري تنزيل هذه السورة، فالذين ينظرون بإمعانٍ وتَعَمُّقٍ علمي في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، هُمْ العلماء الفلكيُّون، والعلماء الجيولوجيون، وعلماء الأحياء، وهؤلاء لم يكونُوا موجودين عند نزول القرآن، وإنما هم يوجدون تباعاً، منذ عصر النهضة العلميّة التي أخذت تتنامى، بعد ما يزيد على عشرة قرون من نزول القرآن الكريم.

وقوله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء /٢١ مصحف /٧٣ نزول):

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

من الظاهر أنّ أهل معرفة أنّ السماوات والأرض كانتا رتْقاً، ففتقَهُما الله بعد ذلك لم يكونوا موجودين في الناس حين نزول القرآن، وكذلك أهل معرفة أنّ كلّ شيءٍ حيّ مخلوق من الماء، أي: مع التراب، بدليل نصوص أخرى. وأهلُ معرفةِ أن من وظائف الجبال في الأرض أنّها رواسٍ مثبّتَةٌ لِقِشْرَتِها، وأهلُ مَعْرِفَةِ أَنَّ السَّمَاءَ سقف محفوظ. كلٌّ هؤلاء لم يكونوا مُوجودين عند نزول هذا النّصّ القرآني.

فلمَّا وُجِدَ مِنْهم من عَرَف حقائق تتعلّق بما نبَّهتْ عليه آيات هذا النَّصّ، تَنَاوَلَهُمُ الخطابُ الرَّبّانيّ الموجّهُ لهم منْ خارج حدود الزمن من قبل أن يوجدوا في الواقع.

* * *

وبعض ما في القرآن ممّا وجَّه القرآن أنظار الناس إليه، من آيات الله في الكون ما زال من الحقائق الخفيَّة، التي لم يَكْتَشِفْهَا علماء البحث العلمي حتّى أيّامنا هذه، فهي تنتظر من يكتَشِفُها، وحين يكتشفها المكتشفون يكونون هم المؤهلين للخطاب، فيتعلّق بهم كأنّه أُنْزِل من أجلهم يومئذ، ويُلْحَقُ بهم كلُّ من عَلِمَ ما اكتشفوه وأخذه بالتسليم.

وهذا يدلُّ على ما بدأنا به المقولة من أنّ الخطاب الرّبانيّ خارج عن حدود الزمن، فهو قائم بلا تجدّد، والحادثون هم الزمنيون، وهم الذين يَحْدُثُونَ فيجدون القرآن يخاطبهم، فيتناول القرآن كلّ فرد وكلّ جماعَة من المخاطبين، بحسب الأحوال التي يكونون عليها، وتتوجّه لهم من آيات الله في كتابه الآياتُ الملائمات لأحوالهم، فالكافر تُخاطبُه آيات الدعوة إلى الإيمان وعبادة الله، والمنافق تخاطبه آيات التحذير من النفاق، والمؤمن تخاطبه الآيات التي تخصّ المؤمنين بحسب حاله، وهكذا...

* * *

المقولة الثالثة:

١ ـ خطاب الله عزّ وجلّ في القرآن للرسول شامل للمؤمنين، ما لم يكن في النصّ أو في غيره ما يدلُّ دلالةً صريحةً على الخصوصية، كوصال الصيام، وما يتعلّق بشؤون الوحي أو الرسالة، وكالزيادة في تعدّد الزوجات على الأربع.

وكذلك كلُّ تربية موجّهةٍ للرسول هي موجّهةٌ تبعاً لأُمّته، لا سيما الدعاة وقادة الأمّة.

٢ ـ وخطاب المفرد في القرآن هو خطابٌ لكلّ فردٍ يصْلُح للخطاب، وهو أسلوب من أساليب التعميم الذي هو بمثابة النّصّ على العموم وتأكيده، بخلاف ألفاظ العموم فإنّها تحتمل أن يراد بها الخصوص، وحين يراد بها العموم فيُلاحَظُ فيه توجيه الخطاب لكلّ فردٍ مكلّف ضمن خطاب الجماعة.

قال ابن قيّم الجوزية في كتابه «الصواعق المرسلة»[1] تعليقاً على خطاب الله للمفرد في قوله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف /٩٢ نزول):

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾.

«فَخَصَّ بالخطاب تنبيهاً على الأدنَىٰ ولم يخرجْهُ في صورة العموم، لئَلّا يتوهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أنّه عامٌ مخصوص، فكان ذكر الخاصّ أبلغ في العموم وقصده من ذكر العام، فتأمّله فإنّه أسلوب عجيب في القرآن».

قصد ابن قيم الجوزية أنّ الخطاب في الآية للمفرد بكاف الخطاب أسلوبٌ من أساليب التعميم الذي هو بمثابة النصّ على العموم وتأكيده، بخلاف ألفاظ العموم، فإنّه قد يُتوهَّم منها أنّه عموم أريد به الخصوص، ما لم يُضَفْ إليه ما يَدُلُّ على أنه غير مخصوص.

---

(١) انظر الصفحة (٢٧٣) من الصواعق المرسلة.

لكنّه لم يلحظ أنّ الآية جاء فيها قولّ الله لرسوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ فدَلّ هذا على أنّ الخطاب في الآية موجّه للرسول ﷺ، لكنّ صدر الآية وهو ما علّق عليه ابن قيم الجوزية صالح لتعميمه، إذ مضمونه ليس من خصوصيات الرسول، إنّما يأتي التعميم تبعاً وبالقياس على الرسول، وليس من قبيل توجيه الخطاب مباشرة لكل فرد بعينه.

فكلامُ ابن قيم الجوزية صحيح، ولكن في غير هذا المثال الذي علّق عليه.

وممّا يدلُّ على أنّ خطاب الله للرّسول شامل للمؤمنين إلاّ ما دلّ الدليل على أنّه خاصٌّ بالرسول ﷺ ما يلي:

• في المرحلة المكيّة أنزل اللَّهُ عَلَىٰ رسُولِهِ في سورة (الأنْعَام /٦ مصحف /٥٥ نزول) بأُسْلوبِ الخطاب للمفرد:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

فأمر الله بأسلوب الخطاب للمفرد بالإعراض عن الذين يخوضون في آياته كُفْراً بها أو استهزاءً بها، حتّى يخوضوا في حديث غيره.

• وفي المرحلة المدنية جعل بعضُ المنافقين يجالسون الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم، ويسمعون منهم خوضاً في آيات الله، كُفراً أو استهزاءً بها، فَيَسْكُتُون على ذلك، ولا يفارقون مجالسهم، فأنزل الله ما تضمّن وعيدهم بعذاب أليم، وذكّرهم بما كان قد أنزل في العهد المكي، وأنّ عملهم هذا مخالفةٌ صريحة منهم للأمر السابق، وهو آية (الأنعام) مع أنّ هذه الآية التي جاءت بأسلوب الخطاب للمفرد، قد جاءت بعد خطاب صريح بأنّه خطابٌ للرسول، إذ جاء قبلها قَوْله عزّ وجلّ:

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

لكنّ مضمونه يصلح للتعميم فيكون خطاباً لكل المؤمنين.

وفي خطاب الوعيد للمخالفين للأمر من المنافقين أنزل الله عزَّ وجلَّ في العهد المدني قوله في سورة (النساء /٤ مصحف /٩٢ نزول):

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

فالإحالَةُ في هذا النَّصّ على آية (الأنعام) دليلٌ قاطعٌ على أَنَّ خطاب المفرد أو خطاب الرسول فيما ليس من خصوصياته خطاب يعمّ المسلمين جميعاً، ويكون المخاطب به كلُّ من هو في حالةٍ يكون معها أهلاً لتوجيه الخطاب له.

وحين نلاحظ في الخطاب بالنصّ الموجّه للمفرد تناوُلَه لكلّ فردٍ أهلٍ لأنْ يُوجّه ذلِكَ الخطاب له، فإننا نُدْرِكُ أنّه أقوى في الدلالة على معنى الشمول لكلّ المخاطبين.

وهو نظير من يقول لأولاد له في مجلسه وهو يحدثهم ويوصيهم: أنا أعلم أنّكَ يا ولدي تحبّني وتحرص على أن ترضيني، فنفّذ وصيتي لك.

إنّ معظم الخطابات في القرآن التي جاء فيها «قل» تتناول كلّ ذي أهلية لأن يقول ما أمر الله به أن يقوله: فمثل قول الله عز وجل:

﴿قل هو الله أحد﴾ و ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ بربّ الناس﴾ هو خطاب لكلّ مكلّف على انفراده.

ومعظم الخطابات التي فيها مثل قوله تعالى: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ تخاطب بالإفراد كلّ ذي أهلية للخطاب.

وعلى هذا المنوال ينبغي أن نتدبّر خطابات القرآن.

* * *

● ومن الأمثلة التي جاء فيها الخطاب للمفرد في سياق خطاب الله للرسول، والغرض تعميم الخطاب لكل مؤمن، قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة /٩ مصحف /١١٣ نزول) بشأن فريقٍ من المنافقين:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فَلَا تُعْجِبْكَ أيُّها الرّسول ويا أيها المؤمن كائناً من كنتَ أموالُ المنافقين ولا أولادهم، إنّما يُريدُ اللَّهُ ــ إمدادَهُم بها ضمن سننه في امتحان الناس المبيّن في قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عطاء ربِّك﴾ ــ ليتمُّوا مدّة امتحانهم بحرّية دون وسائل إلْجَاءٍ أو إكراه، مع تعذيبهم بها في الحياة الدنيا بألوان من العذاب، منها القلقُ والخوف والكدّ وغيرها، ولتزهق أنفسهم عند آجالهم وهم كافرون، إذا لم يتوبوا بعد إمهالهم طوال مدّة حياتهم.

● ● ●



القاعدة الثانية والثلاثون

حول كلمة «لعل» الواردة في القرآن
في مثل: ﴿لعلّكم تتقون﴾

جاء في القرآن استعمال كلمة «لعلّ» في مثل قول الله عزّ وجلّ: ﴿لعلّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أكثر من مئة مرَّة، مثل: ﴿لعلكم تشكرون﴾ و﴿لعلّكم تتفكّرون﴾ و﴿لعلكم تعقلون﴾ و﴿لعلّهم يتضرّعون﴾ و﴿لعلَّهُمْ يَحْذَرون﴾ و﴿لعلّهم يَتذكَّرون﴾ و﴿لعلَّهم يَهْتَدُون﴾.

قال أهل اللُّغة: كلمةُ «لعلّ» تَدُلُّ على الرجاء، والطّمع، والشَّك.

وقال قُطْرب من اللُّغويين: تأتي كلمة «لعلّ» بمعنى «كي» أي: لأجل كذا.

وقال بعض المفسّرين: هي في القرآن للترجّي، والإطماع، وحينما تكونُ للإطماع فهو إطماعٌ من كريم، وإطماع الكريم يجري مُجْرىٰ وعده، الذي يتحقّق لا محالة، وبهذا قال «سيبويه» من أئمة النحويين.

وذكر ابن هشام في كتابه: «مغني اللّبيب» أنّ «لَعَلَّ» تأتي لعدّة معانٍ:

أحَدُها: التوقُّع، وهو ترجّي المحبوب، والإشفاقُ من المكروه، قال: وتختصُّ بالممكن.

الثاني: التعليل، وذكر أنّ جماعة من النحاة قد أثبتوه، منهم الأخفش، والكسائي.

الثالث: الاستفهام، وذكر أنّ الكوفيين قد أثبتوا هذا المعنى لها.

في ضوء هذه المعاني التي ذكرها اللُّغويّون والنحويّون لكلمة «لَعَلَّ» باستطاعة المتدبّر لكتاب الله أن يرجّح المعنى الأقرب للمراد إنْ شاء الله، من نظائر ﴿لعلَّكم تتَّقون﴾.

والذي ظهر لي بعد التأمُّل أنّ أقرب المعاني وأنْسَبها هو معنى التعليل، فهو معنىً ظاهر لا إشكال فيه، في كلّ النصوص أو معظمها، إذ نقول بمقتضاه: ﴿لعلَّكُمْ تشكرون﴾ أي: لأجل أن تختاروا بإرادتِكُمْ الْحُرَّة طريق الشكر، فتشكروا الله على نعمه. و﴿لعلَّكُمْ تتفكَّرُون﴾ أي: لأجل أن تكونَ الآيات دافعة لكم للتفكّر، فتختاروا بإرادتكم الحرّة طريق التفكّر، فتتفكّروا في آيات الله. وهكذا إلى سائر النصوص.

وأمَّا معنى الترجّي والتوقّع فيمكن قبوله على معنى أنّ فريقاً منهم سيستجيب، فتحقيق بعضهم للمطلوب مرجوٌّ منتظر مترقب، ولو لم يكن أحدٌ منهم سيستجيب فإنّ الله عزّ وجلّ العليم بما سيفعلون وسيختارون لا يتوقع ولا يترجَّى منهم أمراً علم أنّه لا يكون منهم.

أو يكون التَّرجّي نظيرَ توجيه الأمر والنهي وسائر التكليفات لمن علم الله أنّه سيرفُضُها باختياره الحرّ، ويكون توجيه ذلك لإقامة الحجّة عليه، وقطع أعذاره.

وعلى معنى الترجّي والتوقّع نقول في تأويل النصوص مثلاً:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾. (البقرة/٢)

أي: وهم في حالة يرجَىٰ منهم معها ـ بصفة عامّة ـ أن يَتَّقوا عذاب الله، مستخدمين إراداتهم الحرّة لاختيار طريق التقوى بالطاعة، لا طريق الهلكة والعذاب بالمعصية.

٢ ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.
(البقرة/٢)

أي: وأنتم في حالة يُرْجَىٰ منكم معها ـ بصفةٍ عامَّة ـ أن تَنْتَفِعوا بآيات الله، فتعقلوا نُفوسَكُم عن اتّباع الهوى وخطوات الشياطين، مستخدمين إراداتكم الحرَّة فيما فيه نفعكم وخيركم، عاجلاً وآجلاً.

٣ ـ ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾. (النور/٢٤)

أي: وأنتم في حالة يُرجَىٰ منكم معها ـ بصفة عامّة ـ أن تُوَجِّهوا إراداتكم الحرّة لتَفَهُّمِ آيات الله البّينات، فتتذكّروا، وتتعظُوا بما فيها من عظات، وتعملوا بما تضمَّنَتْه من تَعْليماتٍ ونصائح وَوَصايا وتوجيهات.

وهكذا إلى كثير من النصوص المشابهة. وظاهر أنّ معنى التعليل لا يحتاج إلى مثل هذه التخريجات التي تدور على المعاني المناسبة في دهاليز فكريّة.

ويظهر معنى التعليل ويضعُفُ معنى الرجاء جدّاً في مثل قولِ الله عزّ وجل:

١ ـ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. (٢٠٠/ آل عمران/٣)

أي: لتفلحوا، فمن اتّقىٰ الله حقّاً، ومات على ذلك، أفلح حتماً، إذْ هُو وعدٌ من الله، والله لا يخلف الميعاد.

٢ ـ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾. (الحجرات/٤٩)

أي: لتنالوا رحمة الله، فمن اتَّقىٰ الله حقّاً وصدقاً نال من رحمته حتماً، إذْ هو وعدٌ من الله، والله لا يخلف الميعاد.

ولا أرى داعياً في نظائر هٰذين المثالين إلى تأويلها على معنى: طامعين أو راجين أن تُرحَمُوا. والله أعلم.

* * *

إشكال ودفعه :

ويُشكل معنى الترجيّ على بعض المتدبّرين لكلام الله عزّ وجلّ، باعتبار أنّه صادر عن الله العليم الخبير، الذي لا تخفىٰ عليه خافية من عباده، ما كان منهم، وما هو كائن، وما سيكون منهم ولو باختيارهم الحرّ.

ولإيضاح معنى الترجّي والتّوقُّع في مثل: ﴿لعلّكُمْ تتّقُون﴾ و ﴿لعلَّكُمْ تشكُرُون﴾ و ﴿لَعَلَّكُمْ تتذكَّرُونَ﴾ باعتبارها أقوالاً صادرة عن الله العليم الخبير، أقول:

لمّا أراد الله عزّ وجلّ أن يخلُق الإنسان ليضعه موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، منحه الصفات التي يكون بها أهلاً للامتحان والاختبار، ووضع فيه نوازع الطاعة، ونوازغ المعصية.

ومن شأن الإرادة الحرّة أن تختار الطاعة أو المعصية دون إجبار من قُوَّةٍ ضاغطة.

وما دامت إرادات المخلوقين الممتحنين حُرّةً فليس من المفروض أن يكون لها مسير واحدٌ في كلّ الأحوال، ولو كان لها مسير واحدٌ لا تستطيع أن تتعدّاهُ لَمَا كانت إراداتٍ حُرّةٍ، فمن البدهيّ إذَنْ أنْ تتوزّع إراداتُ المخلوقين الأحرار ذات اليمين وذات الشمال.

فتوجيه الأوامر والنواهي والمذكّرات، وإنْزالُ البيانات والتعليمات، والترغيبُ بالثواب والتهديدُ بالعقاب، إنّما تستقيم إذا وُجد رجاءٌ باستجابةِ الممتَحَنِين المكلّفين، ولو من قِبَلِ بَعْضهم.

أمّا لو كان الرجاء منقطعاً نهائيّاً فإنّه لَا داعِي مطلقاً عندئذٍ لتوجيه أيّ شيءٍ من ذلك، وكذلك لو كانت الاستجابة أمراً مقطوعاً بوقوعه، فإنّه لا داعي للامتحان أصلاً، ولا داعي للترغيب ولا للإنذار، وما لا داعي له مطلقاً أشبه بالعبث، والله عزّ وجلّ مُنَزَّهٌ عن العبث.

وإذا تساءل متسائلٌ: أَلا يَعْلَمُ الله سابقاً من يستجيب من عباده له، ويَعلَمُ من لا يستجيبُ منهم لـه؟ وبما أنّـه يعلَمُ كلَّ ذلـك فما معنى التـرقُّب والتَّرجِّي بـالنسبـة إليه؟.

فـالجواب: أنّ الله عـزّ وجلّ قـد وضـع عباده مـوضـع الامتحان، ومكَّنَهُمْ من اختيار ما يريدون من إيمان وكفر وخيرٍ وشرّ، ولم يجعل علمه السّابقَ بما سيختارونه مجبراً لهم، ولا رافعاً لاختيارهم.

وبمقتضىٰ كونهم مُمَكَّنِينَ من اختيار ما يَشَاءون، ومُمَكّنِين من فِعْلِ ما يشاءون من خيرٍ وشرّ، أمَـرَهُمْ، ونهاهُم، وأرسـلَ إليهم رُسُله، وبلّغَهُم شرائعـه، وأقامَ لهم الحجـج والبراهين والأدلّة، ووعظهم ونصحهم ووصّاهـم، وأطْمَعُهم وأنذرهم.

فالتبليغات، ووسائل التربية الرّبّانيّة، والبيانات، وكلّ تصاريف الامتحان، ثمّ الثـواب والعقاب والمحـاسبة، إنّمـا تأتي على أسـاس مجـرى سُنَن الله في عبـاده، وعلى وفق الْمِنَـح التي مَنَحَهُمْ الله إيّاها، وعلى وفق الـظُّروف المحيطة بهم، ضمن مبـدأي العـدل والفضـل، ومن المنـح التي منحهـا الله عبـاده المكلّفين الممتَحَنين إراداتُهُم الحرَّةُ، وتمكينُهم من فعْل ما يَشَاءون من خيرٍ وشرّ.

ولا تـأتي على سوابق العلم الـرّبّـاني بمـا سيختـارون هم بـإراداتهم الحـرّة، وما سيكون منهم باختيارهم الحرّ من أفعال وأقوال ونيّاتٍ واعتقادات، إلى غير ذلـك من تصرُّفات إراديَّة ظاهرة أو باطنة.

فـأصل التسـاؤل غير وارد، لأنّ العلم السـابق كاشفٌ للمستقبـل، غيـر مجبـرٍ للإرادات، ولو كـان كَشْفاً لا يتخلَّفُ، لأنّـه علم ربَّاني لا بُـدَّ أنْ يطابقَ مـا سيكون، ولو بإرادات المخلوقين التي لا مجبر لها، وهذا من خصائص شمول العلم الرّبّاني، فـلا يلزم عنه أنَّـه هو سبحـانه الـذي أراد إيجاد مـا علم أنّه سيـوجد من أفعـال عباده الممتحنين المكلّفين.

إنّ الله العليم الخبير يمتحن ويخاطب ويؤدّب ويُربّي ويُجْري تصاريفه في عباده، وفق السُّنن العامّة التي نظَّم بها كونه، ووفق الْمِنَح والخصائص التي منحها عباده، وخصَّهم بها. وضمن أحكام وسائل التعليم والتربية والتأديب.

وهو عزّ وجلّ يُنَزِّل كلامه مطابقاً لذلك ومناسباً له، ولو كان يَعْلَمُ سابقاً أنّ هذا العبد من عباده سوف لا تجدي معه مثلاً خطّةُ الإمهال، أو أسلوبُ المعالجة الطويلة الأمد، المقرونةِ بالحكمة والحلْم، والقولِ الرفيقِ المهذّب، ونحو ذلك.

فعلى المؤمن أن يفهم أنّ علم الله السّابِقَ بما سيختاره عباده الممتَحَنُون المكلّفون بإراداتهم الحرّة، غَيْرُ مجبرٍ لهم، وغير مُلْغٍ لاختيارهم، إنّما هُو كاشِفٌ فقط لما سيكون عليه حالُهُمْ، وهذا العلم الرّبّاني السابق لا يكفي بمقتضَىٰ قوانين العدل الرَّبّانيّ لترتيب الجزاءِ المادّيّ بالعدل.

بعد هذا البيان يظهر لنا أنّ الأصل فيمن منحهم الله الإرادات الحرَّةَ ليمتحنهم فيما آتاهم، أنْ يُرجَىٰ من بعضهم أن يستجيبوا لله إذا دَعاهم لما يحييهم حياةً سعيدة عاجلة وآجلة.

لذلك تنزل الخطابات، وفيها الإشعار بهذا الرجاء، ولما في عبارة الترجّي من تشجيع على الاستجابة، وتكريم للمخاطبين بأنّهم مرجوٌّ خيرهم وطاعتهم. وقد تحقق المرجوّ في كثيرٍ من المخاطبين، وواقعُ حالِ الناس قد كشف ذلك.

• • •

القاعدة الثالثة والثلاثون

«حول لفظة ﴿بَلَىٰ﴾ في القرآن»

قال علماء العربيّة: إنّ كلمة «بَلَىٰ» حرف إيجاب، ويختصّ بالنفي، ويفيد إبطاله.

فإذا قال قائل لك بعد طلوع الشمس: لم تطلُعِ الشمس، فأجبته فقلت له: بَلَىٰ، كان المعنى: بلى طلعت الشمس.

وإذا سأل سائل: أليس اللَّهُ بكافٍ عَبْدهُ. فقلت له: بَلَىٰ. كان المعنى: بلى اللَّهُ كافٍ عبده.

ومن سبر النصوص القرآنية التي جاءت فيها كلمة: «بَلَىٰ» رأيتُ أنّ العطف قد يأتي بعد «بلى» عليها كأنَّها في قُوَّةِ جُمْلَةٍ مُثْبَتَةٍ مُنْتَزَعَةٍ من الجملة المنفيّة السابقة لها، على اعتبار أنّ كلمة: «بَلَىٰ» قد تضمّنت نفيَ النفي السابق، وإثبات المنفيّ بها.

وقد يأتي الحال بعدها كأن هذه الجملة موجودة، وقد يأتي غير ذلك مَبْنِيّاً على هذه الجملة التي جاءت كلمة «بَلَىٰ» عوضاً عنها، أو دالَّةً عليها.

وأرى أن نعتبر كلمة «بَلَىٰ» عوضاً عن الجملة المثبتة هذه، وبقوة وجودها فعلاً، كما قال النُّحَاةُ في تنوين الْعِوَض الذي هو عوض عن جملةٍ سابقَةٍ له، عندما يُلْحَقُ هذا التنوين بكلمة «إذ» فيكون عوضاً عن جملةٍ بعدها، تُفسّرها جملة سابقة.

مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة /٥٦ مصحف /٤٦ نزول):

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

أي: وأنتم حينَ إذْ بَلَغتِ الرّوح الحلقومَ تنظرون.

أفليست كلمة «بَلَىٰ» جديرة بأن يُقَال بشأنها: إنّها نافية للنفي السابق لها، ومثبتةٌ للجملة التي رفَعَتْ عنها النفي، وعوضٌ عن هذه الجملة، على قياس ما قال النحويون في تنوين العوض، ثُمَّ يأتي الكلام بعدها مَبْنِيّاً على هذه الجملة التي هي عوضٌ عنها؟.

إنّ مفاهيم النصوص والاستعمالات القرآنية تشهد لذلك.

الأمثلة القرآنية:

١ ــ يقول الله عزّ وجل في سورة (القيامة /٧٥ مصحف /٣١ نزول):

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾.

أي: بلى. نجمع عظامَهُ حالة كوننا قادرين لدىٰ جمعها على أن نُسوِّيَ بنانَهُ، كَمَا سوّيناها في الخلق الأوّل، إذْ هذه التسوية أدقُّ ما في خلق العظام، لما فيها من قدرات التحرّك النافعة العجيبة.

* * *

٢ ــ ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر /٣٩ مصحف /٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾.

أي: قَالُوا: بلى. أتَتْنا رُسُلٌ منّا يتلون علينا آيات ربّنا ويُنْذِرُوننا لقاء يومنا هذا، ولكنْ حقّت كَلِمَةُ اللَّهِ بتعذيب الكافرين، فشملتنا لأننا كُنَّا في الحياة الدُّنيا كافِرين.

فجاءت كلمة «بلى» عوضاً عن كلّ الكلام السابق عليها، الذي سُلِّطَ عليه النفي في الاستفهام.

ثم عطف على «بلى» باعتبارها عوضاً عن جملةٍ، جُمْلَةُ: ﴿وَلَكِنْ حقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرين﴾.

* * *

٣ ـ ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف /٤٣ مصحف /٦٣ نزول):

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾.

أي: بلى. نَسْمَعُ سِرَّهم وَنجواهم ورُسُلُنا مع ذلك لديهم يكتُبُونَ مَا يُسِرُّونه وما يتناجَوْنَ به.

فجاءت كلمة «بلى» عوضاً عن جملة: «نسمع سرَّهم ونجواهم» وعطفت عليها جملة: «وَرُسُلُنَا لديهم يكتبون».

* * *

٤ ـ ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل /١٦ مصحف /٧٠ نزول):

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾.

جَهْدَ أيمانهم: أي: أقصىٰ أيمانهم وكلّ ما يجتهدون بالْقَسَم به.

بلى، وعداً عليه حقّاً: أي: بلَىٰ يَبْعَثُ اللَّهُ من يموتُ حالة كون هذا البعث وعداً حقّاً على الله، فهو سبحانه لا يُخلفُ وَعْده.

* * *

٥ ــ ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي... ﴿٢٦٠﴾﴾.

أي: قال: بَلىٰ آمنت. ولكِنْ أَطْلُبُ هـٰذِه المشاهدة ليطمئنَّ قلبي.

فجاءت كلمة «بلىٰ» عوضاً عن جملة «آمنت» وعطفت عليها جملة «وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي» مع تقدير: طلبتُ أن تُرِيني كيف تُحيي الموتى، ليطمئنّ قلبي.

* * *

٦ ــ ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد /٥٧ مصحف /٩٤ نزول):

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾.

أي: قالوا لهم: بَلَىٰ، كُنْتُمْ مَعَنَا، ولكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أنْفُسَكُمْ... إلى آخر ما قالوا لهم.

فجاءت كلمة «بلىٰ» عوضاً عن جملة «كنْتُم معنا» وعطف عليها الكلام حتّى آخر الآية...

• • •

القاعدة الرابعة والثلاثون

«حول عبارة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ ما. . . ؟!﴾ في القرآن»

من الصيـغ القرآنية التي نزلت في العهد المكي، وتكرّرت ثلاث عشـرة مرّة، صيغة ﴿وما أدراكَ ما. . . ؟!﴾ وهي بحسب ترتيب نزولها ما يلي:

١ ــ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾.

(المدثر /٧٤ مصحف /٤ نزول)

٢ ــ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾.

(القدر /٩٧ مصحف /٢٥ نزول)

٣ ــ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾.

(القارعة /١٠١ مصحف /٣٠ نزول)

٤ ــ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

(القارعة /١٠١ مصحف /٣٠ نزول)

٥ ــ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾﴾.

(الهمزة /١٠٤ مصحف /٣٢ نزول)

٦ ــ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾.

(المرسلات /٧٧ مصحف /٣٣ نزول)

٧ ـ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

(البلد / ٩٠ مصحف / ٣٥ نزول)

٨ ـ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾.

(الطّارق / ٨٦ مصحف / ٣٦ نزول)

٩ ـ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾.

(الحاقة / ٦٩ مصحف / ٧٨ نزول)

١٠ ـ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾﴾.

(الانفطار / ٨٢ مصحف / ٨٢ نزول)

١١ ـ ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾.

(الانفطار / ٨٢ مصحف / ٨٢ نزول)

١٢ ـ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٩﴾﴾.

(المطفّفين / ٨٣ مصحف / ٨٦ نزول)

١٣ ـ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾.

(المطفّفين / ٨٣ مصحف / ٨٦ نزول)

قال المفسّرون في شرح هذه الصيغة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ؟!﴾ وكذلك سائر نظيراتها:

وأيُّ شيءٍ أعلمك مَا سَقَرُ؟!. أي: أنت لا تدري عظمتها، وهول أمرها إلّا إذا أعلمناك بذلك.

و «ما» استفهامية، يستفهم بها عن حقيقة الشيء وماهيته، وهو استفهام يراد منه التعجيب من هول «سقر» وعظمتها.

و «مَا سَقَرُ» جملة مؤلفة من مبتدأ هو «ما» وخبر هو «سقر» وهذه الجملة في محلّ نصب معمول لفعل «أدراك» منصوب بنزع الخافض، أي: وما أدراك بهول سقر وعظمتها، أو منصوب على تضمين فعل «أدراكَ» فعل «أعلمك» فتكون الجملة إذن في محل نصب مفعول به ثانٍ، والتقدير: وما أَدْرَاكَ فَأعلمك هولَ «سقر» وعظمتها وشدّة العذاب الذين يكون فيها.

ومثل هذا الاستفهام يتضّمن معنى نفي علم المخاطب بما هو مسؤول عنه، أي: أنت لا تدري مهما انطلقت سابحاً في التصوّر مبلغ هول وعظمة وشدة «سقر» إلّا إذا أعلمناك بذلك، وفي هذا دلالة على أنّها أمرٌ عظيم جدّاً. وعلى هذا المنوال تشرح سائر النصوص.

أقول: ومن تتبُّع هذه الصيغة في الاستعمالات القرآنية، ظهر لي أنها صيغة من صيغ التعجُّب القرآنية المبتكرة، ضمن أصولِ وقواعدِ اللسان العربي.

أي: أعظم بالأمر إعظاماً لا تَصِلُ إليه درايتُكَ مهما فكّرت وسبحت في تصوّراتك، لأنّه لم يمرّ في خبراتك ولا في تصوّراتك شيء يجعلك تقيس هذا الأمر عليه. والخطاب في: ﴿وما أدراكَ﴾ موجَّهٌ بالإفراد لكلّ صالح للخطاب.

• • •



القاعدة الخامسة والثلاثون

«حول تعدية فعل [أراد ـ يريد] في القرآن»

دلّ الاستقراء التامّ على أنّ فعـل «أراد ـ يريـد» قد جـاءت تعديتـه في القرآن على خمسة أحوال:

الحالة الأولى: أن يتعـدّى هذا الفعـل إلى المفعول بـه مباشـرة، ويذكـر في النصّ المفعول به. والغالب أن يأتي المفعول به مصدراً مؤوّلاً، على مثل: ﴿أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ ـ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي ـ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾.

ومِنْ غير الغالب، مثل: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمَاً لِلْعِبَاد ـ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخرة﴾.

الحالة الثانية: أن يكـون مفعول الفعـلِ محذوفـاً لفظاً مقـدّراً ذهناً، دون أن يكون في الكلام ما يُوهم أنّه هو المفعول به، أو القائم مقامه، مثل:

١ ـ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. (٢٥٣/البقرة/٢)

أي: يفعل ما يُريد فِعْلَه.

٢ ـ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾. (٧٩/هود/١١)

أي: وإنَّكَ لتعلَمُ الشيءَ الذي نُريدُه.

الحالة الثالثة: أن يأتي الاستعمال على مثل:

١ ـ ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾. (١١/الرعد/١٣)

٢ ـ ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾. (٢٥/يوسف/١٢)

٣ ـ ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾. (١١/الفتح/٤٨)

٤ ـ ﴿أَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾. (٧٠/الأنبياء٢١)

٥ ـ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾. (١٨٥/البقرة/٢)

فهو فيما يظهر للمتدبّر المتعمّق على تقدير مفعول محذوف هو مصدر مؤول من أن وفعل مضارع، تقديره: وإذا أراد اللَّهُ أن يُنْزلَ بقومٍ سوءاً ـ وما جزاء من أراد أن يُنْزِلَ بأَهْلِكَ سوءاً ـ إنْ أراد أن ينزل بكم ضرّاً أو أراد أن ينزل بكم نفعاً ـ أرادوا أن يُنزِلوا به كيداً ـ يريد أن يُنْزِل بكُمْ اليُسْرَ في أحكام دينه، ولا يريدُ أن ينزل بكم الْعُسر، ويمكن في هذا المثال الأخير أن يكون التقدير: يُريدُ بتكليفكُمْ في هذا الدِّين الخاتم اليسرَ ولا يريد به الْعُسْرَ، أي: ولو شاء لحمَّلَكُمْ فيه إصراً كما حمّل الأمم الذين جاءوا من قبلكم، وعلى هذا التقدير يكون اليسر هو مفعول يريد، وكذلك العسر.

الحالة الرابعة: أن يأتي الاستعمال على مثل:

١ ـ ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ـ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾. (٣٨/الزمر/٣٩)

٢ ـ ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾. (٢٣/ يسٓ /٣٦)

٣ ـ ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾. (١٠٧/يونس/١٠)

فهو فيما يظهر على تقدير مثل: إنْ أرادني اللَّهُ كائناً أو ملتبساً أو مصاباً أو ممسوساً بضُرٍّ، أو أَرَادَني كائناً أو ملتبساً أو مصاباً أو ممسوساً برحمة.

وأرجّح في التقدير ما جاء مستعملاً في آيات أخرى بصريح اللفظ، كالإصابة والمسّ، وهو أولى من تقدير كَوْن عامّ، لأنّه هو المستعمل في القرآن.

الحالة الخامسة: أن يأتي الاستعمال على مثل:

١ ـ ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾. (٢٥/الحج/٢٢)

٢ ـ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾. (٢٦/النساء/٤)

٣ ـ ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾. (٦/المائدة/٥)

٤ ـ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾. (٥٥/التوبة/٩)

٥ ـ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾. (٣٣/الأحزاب/٣٣)

٦ ـ ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾. (٥/القيامة/٧٥)

٧ ـ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾. (٨/الصف/٦١)

ولدَىٰ تتبُّعِ الآيات القرآنية الّتي وَرَدَ فيها هَذَا الاستعمال، ظهر لي أنّ مفعول الفعل فيها محذوف، وأنّ اللاّم الدّاخلة على الفعل الواقع بعد فعل «يريد» هي لام تعليل المراد المحذوف.

ونظراً إلى اختلاف أقوال المفسّرين أو عدم وضوحها في شرح ما جاء من النصوص القرآنية على مثل هذا الاستعمال، فإنّي أقدّمها هنا مقرونة بالبيان الذي يهدي إليه التَّدبُّرُ الاستقرائي إن شاء الله.

وهي فيما يلي:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة / ٧٥ مصحف / ٣٠ نزول):

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

هذا النصّ يبيّن أحد الدوافع لجحود يوم الدين لدى الإنسان الكافر به، ويكشف أنّه يُرِيد مُراداتٍ شتّىٰ من شهوات الحياة الدنيا وأهوائه فيها، ومطالبه الحرام منها، مع ما فيها من ظلم وعدوان، وبغي وطغيان، وهذه الأمور التي يعشقها يصدُّهُ عنها الإيمان بيوم الدين لو آمن به واطمأنّ قلبه إليه.

لكنّ أهواءه وشهواته عارماتٌ قويّات، فهي تُغَشِيّ على بصيرته، وكلّما أدْرَك الحقّ، ولامس من نفسه مواطن الخوف من العقاب على المعاصي، ومواطن الطمع بالثواب على الطاعات، صَرَفَهُ عن تصوُّره، إرضاءً لأهوائه وشهواته الجامحة الجانحة.

وممّا لا ريب فيه نظراً إلى طبائع الناس أنّ اتّباعه لأهوائه وشهواته دون ضابط ولا رادع سينتهي به حتماً إلى الفجور، أي: إلى الانْبعاث في المعاصي وكبائر الإثم والجرائم الشنيعة انبعاثاً فاحشاً منتشراً وقحاً.

إذن: فهو يريد مراداتٍ شَتّىٰ من أهواء نفسه وشهواتها ومطالبها من المحرّمات والكبائر والفواحش لتكون عاقبة اتّباعه لها أن يفجرُ في مستقبل أيّامه في الحياة الدنيا.

لذلك فهو يسأل سؤال الجاحد المنكر ليوم القيامة، إذْ يستبعدُهُ عن تصوُّره فيقول: أَيَّانَ يَوْمُ القيامَة؟ أي: هذا أمر مستبعد لا يكون.

فيكون تقدير الكلام على هذا: بل يُريد الإنسان الكافر بيوم القيامة مراداتٍ شتّىٰ من أهواء نفسه وشهواتها المحرّمات ليفْجُرَ أَمَامه (أي: في مستقبل أيّامه في الحياة الدنيا) لذلك يسأل: أيّان يوم القيامة؟ سؤال إنكارٍ وجحود.

* * *

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب /٣٣ مصحف / ٩٠ نزول):

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

● في هذا النصّ مع سوابقَ له في السورة، يُحّمِلُ الله عزّ وجلّ نساءَ النبيّ مسؤوليّةً مُضَاعفَة مقرونةً بعِقابٍ مضاعفٍ لمنْ تَأْتِي منهنَّ بفاحشةٍ مبيّنة، وبأجرٍ مضاعفٍ لِمَنْ تطيعُ منهنّ اللَّهَ وتعمَلُ صالحاً.

● وكلّفهنَّ في هذه المسؤوليّة المضاعفة: أَنْ لا يَخْضَعْنَ بالقول لدى مخاطبتهنّ الرجال فيطمعَ بهنّ الذي في قلبه مرضُ حبِّ المعصية والفاحشة. وأن يَقْرْنَ في بيوتهن فلا يُخرجْنَ منها إلاّ لضرورة أو حاجة شديدة، وأنْ لا يتبرّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولى. مع إقامتهنَّ الصلاة وإيتائهن الزكاةَ وطَاعَتِهِنَّ اللَّه ورسُولَه التي هي فرض عليهنّ وعلى سائر النساء.

● وأبان الله بعد ذلك الغرض من هذه المسؤولية المضاعفة المقرونةِ بالتكاليف الزائدة فقال عزّ وجل:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: إنَّما يُريدُ اللَّهُ تحميلكُمْ هذه المسؤوليةَ المضاعفة المقرونة بالجزاء المضاعف، والتكاليفِ الزائدة يا أهل بيت النبيّ لِيُذْهِبَ عنكم بالتزامكم العملَ بمقتضىٰ هذه التكاليف الزائدة الرِّجْسَ كُلَّهُ من المعاصي التي قد يجلُبُها الخضوعُ

بـالقول، والخـروجُ من البيوت دون حـاجات شـديدات، والتبـرُّجُ بالـزينـةِ كتبـرُّجِ الجاهليّة الأولى، ولِيُطَهِّرَّكُمْ تطهِيراً زائداً عن تَطْهِيرِ أَهْلِ التقـوىٰ منْ سائـر النّساء، أي: نظراً إِلَىٰ أنَّهُنَّ زوجات الرسول وأهلُ بيته.

وخاطَبَهُنَّ بالميم (عنكم ـ يُـطَهِّرَكُم) الّتي يُخـاطب بها جمـاعة الـرّجال عـادةً تنزيلاً لهنّ منزلتهم، ومراعاةً لحالةِ زيادة مسؤوليتهنّ عن سائر النساء، كما قال لهنّ: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتقَيْتُنَّ﴾.

فمفعـول ﴿يُريـدُ اللَّهُ﴾ في هذا النصّ مَحْـذُوف، دلّ عليه سـوابقُ التكاليف. وقـوله تعـالى: ﴿لِيُذْهِبَ عنكُمْ الـرِّجس. . .﴾ قـد أبـان الحكمـةَ من تـوجيـه هـذه التكاليف الإلزامية الزائدة على ما ألزم به إيجاباً سائر النساء.

ولا يصيبُ التدبُّرَ الأمثـلَ مْنَ يرىٰ أن مفعـول﴿يُرِيـدُ﴾ هو المصدر المؤولُ من ﴿لِيُذْهِبَ﴾.

● وبعـد ذَلِكَ أبـانَ الله لَهُنَّ أنّ بيتَهُنَّ تساعـد على الالتزام بهـذه التكـاليف الزائدة، فبُيُوتُهُنَّ تُذْكَرُ فيها كثيراً آياتُ الله، وأحاديثُ رسُول الله التي هي (الحكمـة) فقال عزّ وجلّ:

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

* * *

النصّ الثالث:

قـول الله عزّ وجـلّ في سورة (النسـاء /٤ مصحف /٩٢ نـزول) بعـد تفصيـل جملة من الأحكـام المتعلقـة بـالـزنـا والـزواج وحقـوق الـزوجـات والمـطلقـات، والمحرّمات من النساء، والمأذون بالزواج منهنّ:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

لقد سبق هذه الآيات آيات فيها تفصيل أحكام تتعلّق بموضوعات مختلفات، وقد اشتملت هذه الأحكام المفصَّلَة على بيانٍ لجملة أَحكام من سُنَن اللَّهِ في هذا الدِّين الْخَاتِم، وهذه الأحكام على أقسام:

● فمنها ما كان من سُنَن الّذين كانوا من قبل أمة محمد ﷺ كتحريم الزنا، وتحريم الأمهات والبنات والأخوات الشقيقات.

● ومنها ما اشتمل على التوبَة عمّا سلف قبل نزول هذه الأحكام، وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾.

فقد عَفَا اللَّهُ عمّا سلَفَ من نِكَاحِهِمْ زَوْجاتِ آبائهم قبل نزول التحريم، توبةً منه عليهم، على معنى التوبة عن الاستمرار، لمن شاء أن يُبْقِي على عصمته من كانت قبل نزول التحريم زوجة أبيه، وذكر التوبة في هذا يشعر بأنّ مفارقَتَهُنَّ خير وأرضى لله عزّ وجل.

● ومنها ما اشتمل على تحريم ما لم يكن محرّماً في سنن الذين كانوا من قبل أمة محمد ﷺ، كالعمة والخالة والأخت لأب، وكالجمع بين الأختين.

● ومنها ما اشتمل على تخفيف في الحكم، وهو الإذن لغير ذي القدرة المالية على نكاح الحرّة، بأنْ ينكح أَمَةً مؤمنة، تكون زوجة له بإذن سيّدها مالِكِ رَقبتها.

وتعقيباً على جملة هذه الأحكام المفصَّلة التي فيها هذه الأقسام، قال الله

عزّ وجلّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ أي: يريد اللَّهُ هذا الذي فصّلَه لَكُمْ سابقاً. وبعد ذلك أبـان حكمته من هذه الأحكام بالتفصيل.

١ ــ فالحكمة العامّةُ من تنزيل هذا النصّ تضمَّنـها: ﴿ليبيّن لكم﴾.

٢ ــ والحكمة من كثير من الأحكام الباقية على ما كانت في الأمم السابقـة، تضمَّنها: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

٣ ــ والحكمـة من إغضاء النـظر عن إبقـاء من شـاء أن يبقي تحت عصمته زوجته التي كانت زوجة أبيه، وقد نكحها قبـل نزول التحـريم، تَضَمَّنَها: ﴿وَيَتُـوبَ عليكم﴾.

٤ ــ والحكمـة من تحـريم العمّـات والخـالات والأخــواتِ من الأب، ومن تحـريم الجمـع بين الأختين، ونحو ذلـك، أن يرجـع الله عليكم بمـا هـو خيـر لكم ولأسـركم ولمجتمعكم فَيُبْعِـدَ عنكم المشكـلات والأضـرار الاجتمــاعيّـة والنفسيـة والجسدية والـوراثية، التي قـد تجلُبُها إبـاحة نكـاحهن، وجعل الله هـذا توبـة، لأنّ التوبة في اللغة الرجـوع، ولأنّ التوبـةَ في الاصطلاح الشـرعي هي من الله الرجـوع إلى العبد بالإقبال والحماية من عاقبة الذنب.

وفي الرجوع من الإباحة إلى التحريم عناية من الله بالأمّة المحمدية، وحمايـةٌ لهم من عواقبها التي قد تجلب الأضرار المختلفة.

وقد دلّ على هذه الحكمة قول الله عزّ وجل: ﴿واللَّهُ يُرِيد أَنْ يَتُـوبَ عَلَيْكُم﴾ ولبيان المراد من هذه التوبة الخاصّة قال الله عزّ وجلّ عقبها: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُـونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ وهم الذين يحكمون بـإباحتهـا من الأمم السابقـة، ويـريدون إبقـاء هذه الإبـاحة اتّبـاعاً للشهـوات، تـاركين مـا هـو الأفضـل والأصلـح للناس، لأفرادهم وأسرهم وذراريهم.

٥ ــ والحكمـة من الإذن لغير ذي القـدرة الماليـة على نكـاح الحـرّة، بـأنْ ينكـح أَمَةً مُـؤْمِنَةً أن الإنسان ضعيف الإرادة أمام الشهوة إلى النساء، فـإذا لم يُـؤْذَنْ

له بالزواج من أمةٍ وهو غير قادر على أن يتزوّج حرّة، فاحتمال سقوطه في فاحشة الزّنا احتمال قويّ، وقد دلّ على هذه الحكمة قول الله عزّ وجلّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾.

فجاء في هذا النصّ التعقيبي بيان حكمة الله من كلّ أصناف الأحكام التي سبقت في السورة، بدءاً من الآية (١٥) منها.

وقد دلّنا هذا التدبّر على أنّ مفعول ﴿يُرِيدُ الله﴾ في الآية (٢٦) محذوف، وهو كما سبق تقديره، والله أعلم.

* * *

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحج /٢٢ مصحف /١٠٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

العاكف فيه: أي: المقيمُ فيه الملازم له.

والبادِ: أي: البادي، والمراد القادم إليه من البادية، وهي الأرض الظاهرة التي لا عمران فيها، وكلّ قادم إليه من خارجه سيمرّ في البادية من حوله، فهو بادٍ.

فالناس المؤمنون بالله ورسوله واليومِ الآخر سواءٌ فيه، المقيمُ منهم في البلد الحرام، والوافد إليه من طرق البادية حوله، سواءٌ أكان من أهل المدن الأخرى، أو من سكان البوادي.

بإلحادٍ: أي: بانحراف وميلٍ عن منهج الحق والعدل والخير وأحكام دين الله للناس.

وقول الله عزّ وجلّ في هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قد حُذِفَ مِنْهُ مَفْعُول ﴿يُرِدْ﴾ ليَعُمَّ كُلَّ مرادٍ مُلْتَبِسٍ أو مقترِنٍ أو مُختلِطٍ

بـإلحادٍ، أي: بـانحراف وميـلٍ عن منهـج دين الله للناس، وهـذا الانحراف ملتبسٌ أو مقترنٌ أو مختلطٌ بظُلْمٍ. نُذِقْهُ مِنْ عذابٍ أليم.

فالله عزّ وجـلّ يتوعّـدُ الذي يـريد في حـرم مكّةَ أيّ مُـرادٍ مصحوبٍ بـانحرافٍ مصحوبٍ بظلمٍ بأنْ يذِيقَهُ من عَذابٍ أليم.

فليحذر الذين يُقِيمُون في البلد الحرام من أَنْ يميلوا عن منهـج الله ظـالمين، فإرادة ذلك كافية لاستحقاق المريد هذا العذاب الأليم.

* * *

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصف /٦١ مصحف /١٠٩ نزول):

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

إنّ مفعول ﴿يُريدُون﴾ في هذا النّصّ محذوف للتعميم، أي: يريد المشركون مراداتٍ مختلفات يُدَبِّرون بها مكايد ووسائل ليقمعوا بها دين الله الذي يجاهد لنشره رسولُ الله والّذين آمنوا معه، فحالهم فيما يريدون كحـالهم وهم يريـدون أن يطفئـوا نور اللّهِ الكوْنيّ بأفواههم.

وقـد دلّنا على هـذا المحـذوف نصٌّ آخـر نـزل بعـده في سـورة (التـوبـة /٩ مصحف /١١٣ نزول) جاءت فيه تعدية فعل ﴿يُريدون﴾ مبـاشرة للمصـدر في ﴿أن يُطْفئوا﴾ ولم يأت فيه ﴿ليطفئوا﴾ فقال الله عزّ وجلّ فيه:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وبتدَبُّر النَّصَّيْنِ معاً، وملاحَظَةِ أنّ ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾ قد نزل قبل ﴿يُرِيدُون أن يُطْفِئُوا﴾ ينكشف لَنا أنّ هؤلاء قد كانوا عند نزول النصّ الأول الذي في سورة (الصف) في مرحلة الإعداد والتهيئة للوسائل والأسباب وتدبير المكايد لقمع دين الله، لا في مرحلة النهوض لمباشرة التنفيذ، لذلك جاء النصّ دالاًّ على أنَّهم يريدون مرادات كثيرات مختلفات ليُحَقِّقوا بها في المستقبل هدفهم، لذلك كان البيان القرآنيّ معقّباً بتعبيرٍ فيه هدوء المستقرّ في موقعه، المشعر بأنّه غير مكترث بما يرسمون ويخططون ويدبّرون، فقال تعالى: ﴿واللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ بصيغة اسم الفاعل التي تدلّ على الحال الدائمة.

لكنَّهُمْ لمَّا أعَدُّوا وَسَائلهم وأَسْبابَهُمْ، ودَبَّروا خططهم ومكايدهم، وانتقلوا إلى مرحلة التنفيذ بحسب تصوّرهم، فالمراد هنا ليس إعداد الوسائل والأسباب، ولكن المراد تحقيق الهدف وهو قمع الدين، وقطع دابر الإسلام والمسلمين، لذلك جاء التعبير في النصّ الذي نزل بعد ذلك في سورة (التوبة): ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾. ومن أجل ذلك كان التعقيب القرآني بعبارة فيها الإشعار بالنهوض وترك حالة الهدوء والبرود، للقيام بإحباط مساعيهم، وإتمام نشر الدين، ونصرة الرسول والذين آمنوا معه، فقال عزّ وجلّ في التعقيب هنا: ﴿وَيَأْبَىٰ اللَّهُ إلاَّ أن يُتِمَّ نُورَهُ ولَوْ كَرِهَ الْكَافِرُون﴾.

فتكامل النصانّ في أداء المعاني المرادة، ودلّ ترتيب النزول على الحركيّة في البيان، المتّسقة مع حركية الواقع، وأرشد كلّ ذَلِكَ إلىٰ أنّ مفعول ﴿يريدون﴾ في (الصّف) محذوف كما ذكرت آنفاً.

* * *

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة / ٥ مصحف / ١١٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ

إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

هذه الآية اشتملت على بيان أحكام الوضوء والغسلِ والتّيمُّم وموجباتها.

١ ــ فالوضوء يتحقّق بغَسْلِ الوجه، وغسلِ اليدين إلى المرفقين، ومسح الرأس، وغسل الرجلين إلى الكعبين.

٢ ــ ورفع الجنابة يكون بالتَّطَهُّر، أي: بالاغتسال الكامل، وبينت السنة ذلك.

٣ ــ والتيمُّمُ عند تعذّر استعمال الماء في مرض أو سفر يكون بقصد الصعيد (وهو وجه الأرض) ومسح الوجه واليدين منه، وجاءت السُّنَّةُ مبيّنةً للكيفيّة.

وتعقيباً على أحكام الطهارة هذه أبان الله عزّ وجلّ أنّه ما يريد إلزام الذين آمنوا بأحكام الطهارة هذه ليجعل عليهم حرَجاً أيّ حرَج. إلاَّ أنّ تطهيرهم الذي تَقْتَضِيه طبيعة حياة الناس على هذه الأرض هو الذي دعا إلى إلزامهم بهذه الطهارات، ولمّا كان الدّين الرّباني للناس هو النعمة العظمىٰ الّتي بعث الله بها رسوله، فإنّ مِنْ إتمام هذه النعمة أن يُبَيّن الله لهم أحكام الطهارة التي تعبَّدَهم بها في هذا الدين، فهي لفائدتهم في الدنيا، ولفائدتهم في الآخرة، كما أنَّ الله عزّ وجل جعل طاعتهم له فيما يُلْزِمُهُم به لمصلحتهم من الشكر له على ما أنعم به عليهم من نعم كثيرة، لا يستطيعون حصرها عدّاً.

فمعمول فعل ﴿وَلَٰكِنْ يُرِيدُ﴾ محذوفٌ دلّ عليه أحكام الطهارة التي جاءت في

السياق قبله، والتقدير: ولكن يُرِيدُ إلْزَامَكُمْ بهذه الأحكام المتعلّقة بالوضوء والْغُسْل والتيمم الذي هو بدل عنهما حالة العذر.

وجاء تعليل هذا الْمُرَاد ببيان الحكمة منه فقال تعالى: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إذا التزمتم فعلاً بتطبيقِ ما ألزمكم بِهِ وكنتم بالتزامه من الشاكرين، وهذا الأمر هو المرتقب منكم نظراً إلى أنكم مؤمنون بالله واليوم الآخر، فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُم تَشْكُرون﴾.

وهكذا وضح لنا أن اعتبار: ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ هو المفعول به لفعلِ ﴿ما يُريد اللَّهُ﴾ بإدخال اللام عليه، وكذلك اعتبار ﴿لِيُطَّهركم﴾ هو المفعول به لفعل ﴿ولكن يُرِيدُ﴾ بإدخال اللام عليه لا يُعْطِي النصّ الدلالة المقصودة منه، كما نفهم من جملة الآية وتسلسُلِها الفكريّ المترابط.

بقي في الآية إشكال خارج عن موضوع البحث في هذه القاعدة، هو ما المراد من حرف العطف (أو) في قوله تعالى فيها: ﴿أَوْجَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمْ النِّسَاء﴾ وكيف يتّسق مع سوابقه؟.

وبالتأمّل والتدبّر المتأني يمكن أن نفهم ما يلي:

الأول: بدأت الآية ببيان واجب الطهارة للصلاة، والأصل في الإنسان أن يكون محدثاً حدثاً أصغر، فعليه أن يتوضأ، ويحتمل أن يكون جنباً، فعليه أنْ يطّهَّر، وجاء بيان ذلك في آية النساء بقوله تعالى: ﴿فاغتسلوا﴾، والبيان التفصيلي جاء بعمل الرسول ﷺ.

الثاني: وبعد ذلك أبانت الآية حكم المعذور في ترك الوضوء أو الغسل، بسبب مرض يمنعه من استعمال الماء، أو بسبب سفر لا يجد فيه الماء للوضوء أو الاغتسال، وأبانت الآية أنّ التيمُّم هو البديل في حالة العذر.

الثالث: ثم قصدت الآية إلى بيان ناقض الوضوء السابق، وهو خروج البول أو الغائط، وجاءت الكناية عنه في الآية بقوله تعالى: ﴿أوجاء أحدٌ منكم من

الغائط﴾ أي: من المكان المنخفض الذي كان يقضي الناس حاجتهم الطبيعية فيه. وإلى بيان مقتضي الجنابة وهو ملامسة النساء. فدعا هذا إلى مقابلة البيان الأوّل ببيانٍ تقسيميّ لما يوجب الحدث الأصغر، والحدث الأكبر، فجاء عطفه بحرف العطف (أو) على معنى إن كنتم غير متطهرين ابتداءً، أو أحدثتم بعد أن كنتم متطهرين.

وضُمَّ الثاني والثالث بعبارة متداخلة للإيجاز، ويمكن تقدير الكلام على الوجه التالي:

يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فتوضؤوا فالأصل قبل التكليف أن تكونوا على غير وضوء. وإن كنتم جنباً فاطَّهَّرُوا إذْ ليس كلّ مسلمٍ يدعي إلى الصلاة ولو لأول مرّة هو جنب، فالمميز لا جنابة له، والذي بلغ بالسّن فقط لا جنابة له. وإنْ كنتم مرضىٰ أو على سفر. فإن كنتم على طهارة سابقة فهي تكفيكم أو أحدثتم حدثاً أصغر فجاء أحد منكم من الغائط أو حدثاً أكبر فلامستُمُ النساء فلم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيّباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه. ما يريد الله هذا التكليف ليجعل عليكم من حرج، ولكن يريده ليطهركم، وليتمّ نعمته عليكم لعلّكم تشكرون.

* * *

النصّ السابع:

قول الله عزّ وجل في سورة (التوبة /٩ مصحف /١١٣ نزول) بشأن بعض المنافقين:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾.

أي: إنَّما يُرِيدُ إمدادَهم بها وإكثارها لهم ليعذبهم بها في الحياة الدنيا، أي:

لتكون أسباب عذابهم وشقائهم في هذه الحياة الدنيا، لا لتكون أسباب سعادتهم ورفاهيتهم، وكم من ذي مالٍ وفير وأولاد كثيرين، هو معذبٌ شقيٌّ بما لديه من ذلك، ويتمنّى لو يصيب من سعادة العيش ما يصيبه فقير عقيم غير معذّب بمالٍ ولا ولد.

فمفعول ﴿إنَّما يُريدُ اللَّهُ﴾ محذوف تقديرُهُ نحو ما ذكرتُ آنفاً. ويظهر أنّ هذا النصّ قد نزل حينما كان الذين عناهم النصّ إبّان التنزيل في حالة يُحْسَدُون عليها، ولم يكن قد ظهر تعذيبهم بأموالهم وأولادهم، لكن لم يمض زمن يسير حتى ذاقوا بوادر عذابهم بها، فأنزل الله عزّ وجلّ في هذه السورة نفسها، بعد بضع وعشرين آية منها بشأنهم قوله:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

فدلّ النصّ هنا على أنّ المراد المباشر في هذه المرحلة هو تعذيبهم بأموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا.

أمّا المراد المباشر في النصّ السابق فهو إمدادهم والتوسعة عليهم، لتكون عاقبة ذلِكَ تعذيبهم، بسبب أنهم كفروا بالله وبرسوله، وتظاهروا بالإسلام نفاقاً.

* * *

وهكذا دلّنا سبْرُ النصوص على استخلاص قاعدة قرآنية، حول استعمالٍ قرآنيٍّ جاء فيه مثل: ﴿يُرِيدُ الله ليبيّن لكم﴾.

والحمد لله على توفيقه.

• • •

القاعدة السادسة والثلاثون

حول تعبيرات :
[من بين يديه ومن خلفه، ونحوهما ــ الأمام ــ الوراء]

أولاً :

ورد في القرآن المجيد استعمال مثل: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خلفِهِ ــ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهم سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً ــ وَمِنَ الْجِنّ مَنْ يَعْمَلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ ــ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ــ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ ــ خَلَتِ النُّذُر مِنْ بين يَدَيْهِ ــ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ــ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهم﴾.

ومن سَبْرِ هذه العبارات القرآنية ونظائرها، ومن تَتَبُّعِ دَلاَلاَتها، ظَهَر لي أنّ ما بَيْنَ يَدَي المتحدَّثِ عنه أو المتحدَّث له، وأنّ ما خلفه، على وجهين:

- إمّا أن يكون زمانياً.
- وإمّا أن يكون مكانياً.

(١) فإذا كان زمانياً: فما بين يدي المخلوق المخاطب بالكلام هو الماضي، لأنّه هو المرئيّ الْمُشَاهد بالنسبة إليه، فهو الذي بين يديه، نظراً إلى أَنَّ مركبة حياته في زمانه تسير به وظهره إلى مقدّمتها، إذ المستقبل غيبٌ بالنسبة إليه، ووجهه وصدره وبصره وكلّ حواسّه متوجهة إلى مؤخرتها، يرى ويدرك ما حصل ووقع ومضى، لا ما سيأتي، فما سيأتي مجهول وغيب.

وعليه: فما خلفه، هو المستقبل بالنسبة إليه.

وبمقتضى هـذا التحليل الكـاشف للحقّ والـواقع نستـطيع أن نفهم كـلّ الاستعمالات التي يكون فيها ما بين يدي المخلوق، وما خلفه أمراً زمانيّاً.

فنفهم مثل قول الله عزّ وجلّ:

١ ـ ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾. (٥٧/الأعراف/٧)

أي: قبل زمان نزول رحمته.

٢ ـ ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾. (٤٦/سبأ/٣٤)

أي: قبل زمان نزول عذاب شديد.

٣ ـ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾. (٤٨/المائدة/٥)

أي: مصدقاً لما نزل قبله من كتب ربّانية.

٤ ـ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾. (٤٢/فصلت/٤١)

أي: لا يأتي هذا القرآن المجيد ما يُبْطِل شيئاً فيه، لا من حقائق سالفة كأمور تاريخيّة تثبتها الحفريات أو الكشوف العلميّة، ولا من حقائق آتية في المستقبل، لأنّه حقٌّ كلُّه لا باطل فيه.

(٢) **وإذا كان مكانيّاً:** فما بين يدي المخلوق المخاطب بالكلام هو ما يقع إلى جهة وجهه وصدره، وما خلفه هو ما يقع إلى جهة ظهره.

ومن التوسُّع في دلالة هذا الاستعمال اعتبار المرئي والمدرك هو من الذي بين يدي المخاطب مكانيّاً، واعتبار غير المرئي أو ما لا يقع في دائرة المتحدّث عنه، من الأشياء التي هي من خلفه، ولو كان غير المرئي هذا من الأشياء التي تقع مكانياً من جهة وجه الرائي وصدره، إذ هو من خلف مرئياته ومدركاته.

وقد تكون المكانية مكانيّة مجازية.

(٣) وما يصلح للمكانيّة والزمانية معاً يحمل عليهما.

* * *

ثانياً:

وورد في القرآن المجيد استعمال لفظ «أَمَام» مرّة واحدة في سورة (القيامة / ٧٥ مصحف / ٣١ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

لِيَفْجُرَ: لينبعث بملء طاقاته وأوقاته في الآثام والجرائم ممّا يشتهي.

أيَّانَ يومُ القيامة: متىٰ يومُ القيامة، على طريقة الاستفهام الإنكاري.

أمَامَهُ: المراد من الأمام في هذه الآية:

(١) إمَّا كلُّ لحظة حاضرة مُعَدَّة لتنقضي من عمره، فيكون المعنى منسجماً مع تعبير ﴿بين يديه﴾ إذْ يَغْدو الفجور ماضياً مشهوداً أمامه، سابقاً له إلى موقف الحساب والجزاء، ويقويّ هذا المعنىٰ استعمال الفعل المضارع الدّالّ على التجدّد المستمرّ.

(٢) وإمَّا المستقبل من عمره، وقد جرى على ظاهر تصوّر النّاس لِلأَمَام، لأنّ الفجور المتحدّث عنه يقع في دائرة الإرادة، والإرادة تتوجّه إلى المستقبل في حدود الرغائب والآمال والأماني لاَ إلى الماضي، فالمستقبل هو الذي يكون أمام الإرادة، بخلاف العلم المكتسب بوسائل المخلوقين فهو محدودٌ في الحاضر والماضي، ولحظة الحاضر تنفصم إلى الماضي بأسرع من الإدراك، فيكون الإدراك إدراكاً لأمر ماضٍ، وعليه فتكون الرؤية العلمية للمخلوقين مشاهدةً من الحاضر إلى الماضي، وأدَقُّ تعبير لها العبارة القرآنية ﴿بين يديه﴾ ونحوها.

* * *

ثالثاً:

وورد في القرآن المجيد استعمال كلمة ﴿وراء﴾ أربعاً وعشرين مرّة.

ومن سبرها تبيّن لي أنها جاءت على وجهين:

- للدلالة على الوراء المكاني، أو ما هو بحكمه تشبيهاً.
- وللدلالة على الوراء الزماني.

(١) **أمّا الوراء المكاني وما هو بحكمه تشبيهاً:** فقد جاءت الاستعمالات القرآنية للدلالة عليه بكلمة الْوَرَاء على وفق ظاهر ما يفهم الناس منه، لأنّه هو المطابق للحقيقة، مثل قول الله عزّ وجلّ:

(أ) ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. (١٠١ / البقرة /٢)

تشبيهاً لترك العمل به بالنبذ وراء الظهر.

(ب) ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

(١٨٧/ آل عمران /٣)

(ج) ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

(٩٤/ الأنعام /٦)

(د) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

(٤/ الحجرات /٤٩)

(هـ) ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾.

(١٤/ الحشر /٥٩)

(و) ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾

(١٣/ الحديد /٥٧).

ومن التوسع في دلالة هذا الاستعمال اعتبار غير المرئي، أو ما لا يقع في دائرة المتحدّث عنه، من الأشياء التي هي من وراء المخاطب، إذْ هي من وراء المتحدّث عنه، أو من وراء مرئّياته ومُدْرَكاته.

وعليه فقد تكون الورائية ورائية مجازيّة قائمة على التشبيه، ومن ذلك قول الله عزّ وجلّ:

١ ـ ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾.

(٧/ المؤمنون /٢٣)

٢ ـ ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾.

(٩١/ البقرة /٢)

٣ ـ ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ﴾

(٢٤/ النساء /٤)

(٢) **وَأمَّا الوراءُ الزّمَانيّ**: فقد جاء في الاستعمالات القرآنيّة مراداً منه المستقبل، لأنّه هو كذلك في الحقيقة بالنسبة إلى المخاطبين، فالمستقبَلُ يقع بالنسبة إلَىٰ عِلْمِ المخلوقين وراءهم لا أمامهم، إذا جاءهم خبرٌ عنه سمعوه، لكنّ واقع حاله محجوبٌ عنهم.

إنّ الماضي هو الذي يمكن أن يكون مشهوداً أمَامهم، كما وضح لنا هذا لدى تحليل صيغة ﴿بَيْنَ يَدَيه﴾ من أنَّ الناس يركبون مركبةَ حياتهم في نهر الزمن وظهورُهم وأدبارهم موجّهة شطر مقدمة قيادتها، وصدورُهم ووجوههم موجَّهةٌ شطر مؤخّرتها، فَالذي يقع أمامهم وبين أيديهم هو الماضي، أمّا المستقبل فهو وراءهم.

وممّا جاء من ذلك قول الله عزّ وجلّ:

(أ) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾.

(٢٧/ الإنسان/ ٧٦)

(ب) ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

(إبراهيم/ ١٤)

(ج) ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

(١٠٠/ المؤمنون/ ٢٣)

(د) ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾.

(٥/ مريم/ ١٩)

(هـ) ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

(٧٩/ الكهف/ ١٨)

ولا أرى تفسير ﴿وراءَهم﴾ في هذه الآية بأنَّ المراد أمامهم، لأنّ الورائية هنا زمانية، والمستقبل في الحقيقة وفي التعبيرات القرآنية هو من خلف المخلوقين ومن وراءهم، لا من أمامهم، وبمقتضاه جرت كلُّ الاستعمالات القرآنية بلا استثناء، ومثل هذا التأويل إخراج للنصّ عن المراد منه.

(٣) ومن الشامل للوراء الزماني والمكاني قول الله عزّ وجل:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

(البروج/ ٨٥)

(٤) وأمّا قول الله عزّ وجل في سورة (فصلت /٤١ مصحف /٦١ نزول):

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

● فيمكن أن نفهم تعبير: ﴿مِنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ في هذا النّص على الظرف المكاني:

أي: جاءتْهُمْ رسُلٌ في مواطنهم ومساكنهم فكانوا بين أيديهم يبلغونهم دين الله. وجاءتهم أنباء رسل آخرين بعثهم الله لأقوام آخرين في أزمانهم، وهؤلاء الرسل الذين هم من خلفهم، يأمرون أقوامهم بمثل ما يأمرهم به رسلُهُم الذين بين أيديهم، فحالهم في مضمون رسالاتهم كحال رسلهم الذين بين أيديهم.

● ويمكن أن نفهم هذا التعبير في هذا النصّ على الظرف الزماني:

أي: جاءتْ آباءَهم وأجدادَهم رسُلٌ، فهم بين أيدي المتحدّث عنهم وبَلَغَهُمْ عن طريق الأخْبَار مضمونُ ما جاء به هؤلاء الرسل، ثم جاءت بعد الرُّسل السابقين رسلٌ آخرون، فكانوا من خلف أجدادهم وآبائهم، ومن خلف الرسل السابقين، فأكّدوا لهم تبليغ رسالة ربّهم.

والتعبير على أيّ فهم جارٍ على وفق الأسلوب القرآني الذي سبرناه في سائر الاستعمالات.

ولا يجد متدبّر الآيات القرآنية التي جاء فيها استعمال: [بين يديه ـ من خلفه ـ وراء ـ ونحوها] أيَّ صعوبة إذا وضع مضمون هذه القاعدة في ملاحظته لدى التدبر.

ولكن عليه مع ذلك أن يستعين بالله ويسأله السَّداد وحُسْنَ الفهم والبصيرة.

● ● ●



القاعدة السابعة والثلاثون

«حول إسناد الفعل أو ما في معناه إلى فاعله، أو من قام به، أو مسبّبه، أو الآمر به والداعي له، أو المتّهِم أو الحاكم أو القاضي به، أو واجده والعاثر عليه والواصل إلى العلم به، أو غير ذلك»

على متدّبر كلام الله عزّ وجلّ أنْ يتفكّر بأناة في إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ما يسنَدُ إليه.

فالإسناد في الاستعمال اللّغويّ الشائع، تكفي لصحته أيّة علاقة فكرية يصحّ معها في موازين العقل إسناد شيء لشيء. والقرائنُ اللّفظيّة أو العقليّة أو الواقعيّة أو دلائل نصوص أخرى، هي التي تكشف هذه العلاقة.

فلا يشترط لصحة الإسناد أن يكون المسند إليه فاعلاً للشيء الذي تضمّنه الفعل أو ما في معناه، أو قائماً به، أي: موصوفاً به.

فتصوُّرُ أنّ أصل الإسناد إنما يكون على معنى أنّ المسند إليه فاعل لمَا تضمَّنه الفعل وما في معناه، أو هو قائم به وصفاً له، يوقع في أغاليط كثيرة لدى تدبّر النصوص.

فمن العلاقات الفكرية التي يصح معها الإسناد العلاقات التاليات:

العلاقات الفكرية التي يصحّ معها الإسناد:

العلاقة الأولى: كونُ المسنَد إليه فاعلاً للحدث الذي تضمّنه الفعل أو ما في معناه، وهذا هو الذي يتبادر إلى الفهم في أكثر جُمَل الإسناد المستعملة، فهو بذلك يطغىٰ على بادىء الفهم، وقد يكون الإسناد على خلاف ذلك، ثم بالتأمل في العلاقة الإسنادية لمضمون الجملة الفكري ينكشف المراد من الإسناد.

وفي حدود هذه العلاقة نقول في استعمالاتنا: «أكلتُ ـ وشربتُ ـ وذهبت ـ واشتريتُ» ونحوها، على معنى أنّني فعلت أحداث الأكل والشرب والذهاب والشّراء.

ومن الإسناد القرآني في حدود هذه العلاقة ما يلي:

١ ـ ما في قول الله عزّ وجلّ في سورة (قٓ / ٥٠ مصحف / ٣٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾.

من لُغُوب: أي: من تَعب.

فالله هو فاعل حدث خلق السماوات والأرض وما بينهما.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

أي: إنّ الّذين أحدثُوا الكفر في أنفسهم بإراداتهم بعد معرفة الحقّ الذي جاء به الرسول ﷺ، وليس كفرهُم من قبيل كفر الجاهل الذي لا يعلم الحقّ، دلّ على هذا قرينة الحكم عليهم بأن وسيلة الإنذار بالعذاب لا تجعلهم يؤمنون، لأنّهم قد كفروا عن إرادة وتصميم، وهم يعلمون أدلة الإيمان بما سبق أن أنزله الله عزّ وجلّ في سور العهد المكيّ، وسَمِعُوا آيات الوعد والوعيد فيها، وتتابعت عليهم

الإنذارات، حتىٰ بلغوا إلى حالة من القسوة والتحجّر لا تؤثر فيها الإنـذارات، فضلاً عن أن تؤثـر فيهـا المبشّـرات، فهم: ﴿سـواءٌ عليهم أأنْـذَرْتَهُمْ أمْ لَمْ تُنْـذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنون﴾.

٣ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (طٰه / ٢٠ مصحف / ٤٥ نزول):

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾.

وَعَصَىٰ: أي: فعل المعصية بـإرادته، إذ خـالَفَ تكليفَ الله له فيمـا نهاه عنـه من أكْلِ الشجرة المعيَّنة بإشـارة «هٰذِه» في: ﴿وَلاَ تَقْـرَبَا هٰـذِهِ الشجرة﴾، والشجـرة المعينة قد تكون صنفاً أو واحدة من الشجر.

* * *

العـلاقة الثـانية: كَـوْنُ الْمُسْنَدِ إليـه قد قـام به الحـدث الذي تضمّنـه الفعـل أو ما في معناه، أو موجودٌ فيه الوصفُ الذي تضمَّنَهُ الفعل أو ما في معناه.

وفي حدود هذه العلاقة نقول في استعمالاتنـا: «نَبَتَ الزَّرْع ــ ونَـزَلَ المطرُ ــ وجَرَىٰ السَّحَابُ ــ وهَاجَ البحرُ ــ وماتَ المريضُ ــ وأوْرَقَ الشَّجَـر ــ وتفتّـحَ الزَّهْـرُ والنَّور ــ وحَسُنَ الوجه ــ وقَسَا الحجَرُ ــ وتَحَجَّرَتِ الأرْضُ، أي: كثرت حجارَتُها ــ أَجْدَبَ القوم، أي: أصابهم الجدبُ ونزل بهم».

إلى غير ذلك من أمثلة كثيرة.

فبعض هـذه الأمثلة هي على معنى أنّ المسنَدَ إليـه قد قـام به الحـدثُ الذي تضمنه الفعل أو مـا في مَعْنَاه، دُون ذكـر فاعله الحقيقي في الجملة، ودون الإشـارة إليه بأيّةِ إشارة.

وبعض هذه الأمثلة هي على معنى أنّ الْمُسْنَدَ إليه قد اتّصفَ بـالوصف الـذي تضمّنه الفعل أو ما في معناه.

ومن الإسناد القرآني في حُدود هذه العلاقة ما يلي:

١ ــ ما في قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

فالّذِين ماتوا وهم كفّار لَيْسُوا همُ الذين أحْدَثُوا الموت في أنْفُسهم، ولكِنَّ الموت قام بهم.

والقاضي بموتهم هو الله عزّ وجلّ، وهو المُميت لهم.

وقابضو أرواحهم ملائكةُ الموت الموكّلة بقبض أرواح الكافرين، وهي النازعات، وتقبض الأرواح في اللّحظة المقرّرة بقضاء الله لموتهم.

٢ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سوره (طه /٢٠ مصحف /٤٥ نزول):

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾.

فَغَوَى: أي: فكانت الغواية وصفاً له بسبب معصيته.

٣ ــ وقول الله عزّ وجل في سورة الفرقان /٢٥ مصحف /٤٢ نزول):

- في وصف جهنم:

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

- وفي وصف الغرفة في الجنة:

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

سَاءَت: أي: إنّ السُّوءَ من أوصاف جهنّم.

حسُنَت: أي: إنّ الْحُسْنَ من أوصاف الغرفة في جنّات النعيم.

* * *

العلاقة الثالثة: كون الْمُسْنَدِ إليه هو المتسبِّب بفعل الحدث، الذي تضمنه الفعل أو ما في معناه.

ومن التسبّب توجيه الأمر بفعله لمن يفعلُه، ونحو ذلك.

وفي حدود هذه العلاقة نقول في استعمالاتنا الدارجة المعتادة: «زَرَعْنَا أرضنا ــ وخِطْنا ثيابنا ــ وعلَّمنَا أبناءنا وبنَاتنا في المدارس» إلى غير ذلك من أمثلة لا تحصر.

وهي على معنى أنَّنا دَفعنا أَرْضَنَا إلى الزُّرَّاع الَّذِين زرعوها، وبذلنا لهم أجورهم، واستأجرنا الخياطين فخاطوا لنا ثيابنا، وسجّلنا أبناءنا وبناتنا في المدارس فتعلموا فيها.

ومن الإسناد القرآني في حدود هذه العلاقة ما يلي:

١ ــ ما في قول الله عزّ وجل خطاباً لبني إسرائيل في امتنانه عليهم، في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

فمن الظاهر أنَّ آل فرعون كانُوا يأمُرون الجنود بأن يَسُومُوا بني إسرائيل سوء العذاب، فالفاعلون المنفّذون لعمليات التعذيب والتذبيح هم الجنود، لا أشخاص آل فرعون بأنفسهم، وقد أُسْنِد الفعل إليهم نظراً إلى أنّهم هُمُ الآمرون به، والمتسببون فيه.

٢ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر /٤٠ مصحف /٦٠ نزول):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾.

إنّ هامان الوزير الأول لفرعون لم يكُنْ بنّاءً حتّىٰ يبني له الصرح بيده وعمله المباشر، لكنّ فرعون أمره بأن يباشر تكليف من يراه من المتعهّدين أو العمال ببناء الصرح المطلوب.

فالإسناد في «ابْنِ لي صرحاً» خطاباً من فرعون لهامان، هو على معنى: اتخذ الأسباب لبناء الصرح المطلوب.

٣ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

فَأَزَلَّهُمَا: أي: تَسَبَّب بوساوسه وتسويلاته في جعلهما يَزِلّانِ وَيَزْلَقَانِ حَتَىٰ سقطَا في وحل المعصية والمخالفة لما نهى الله عنه. يقال: زلّت قدَمُه في الوحل: إذا زلقت فسقط فيه. ويشبهه زلّات العمل وزلّات القول.

ولم يكن الشيطان هو الذي دفع بهما من دون إرادتيهما حتى زَلّا، بل زلّا بإرادَتيهما، وإنّما كان دور الشيطان دور متخذ الأسباب إلى ذلك.

فأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كانَا فيه: أي: فكان الشيطان متخذاً الأسباب لإغرائهما، فعصيانِهما، فإخراجِ الله لهما من الجنة، عقاباً لهما على المعصية.

فالإسناد هنا هو في حدود علاقة كون الْمُسْنَدِ إليه هو المتسبب بفعل الحدث.

* * *

العلاقة الرابعة: كون الْمُسْنَدِ إليه هو الدالّ أو الداعي أو الموجه للقيام بما تضمّنه الفعل أو ما في معناه.

وفي حدود هذه العلاقة نقول في استعمالاتنا الدارجة: «هديتُكَ فلم تهتد ــ

وقَوَّمتُكَ فلم تَسْتَقِمْ ــ وصبّـرتُه فلم يصبِـر، وَهدَّأت رَوْعَـهُ فلَمْ يهدأ ــ وسكَّنتُ ثـورَةَ غضبـه فلم تَسْكُن» وقد نقـول في كـلّ ذلـك: «فـاهتـديت ــ فـاستقمت ــ فصبـرَ ــ فهدأ ــ فسكن». إذا حصلت الاستجابة.

والعلاقة في مثـل هذا الإسنـاد هي على معنى: «دعوتـه ــ دللته ــ وجهتـه ــ نصحته ــ بينت له» ونحو ذلك».

ومن الإسناد القرآني في حدود هذه العلاقة ما يلي:

١ ــ مـا في قـول الله عــزّ وجـلّ في ســورة (الإنســان /٧٦ مصحف /٩٨ نزول):

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

إنّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ: أي: إنَّا بَيَّنَا لَهُ السبيل. ودعَوْناه إلى سلوكه، ورَغّبْناه فيـه، ونصحناهُ بالتزامه.

ودلّنا على أنّ هذا هو المعنىٰ المراد قرينة: ﴿إمَّـا شاكـراً وَإِمَّا كَفُـوراً﴾ فلو أن الهداية إلى السبيل كانت أكثر من حدود هذه المعاني لم يكن في الناس كفور، بـل كانوا جميعاً من الشاكرين.

٢ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعـام /٦ مصحف /٥٥ نزول) خـطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

إنّني هَدَاني رَبِّـي إلى صراط مُسْتَقيم: أي: دعـاني وبَيَّنَ لي ورغّبني ودَلّنِي، وما إلى ذلك من معانٍ، وليس المراد هنا أكثر من هذه الحدود.

٣ ــ ويقول الله عزّ وجلّ بشأن ثمود قوم صالح عليه السلام في سورة (فصّلت /٤١ مصحف /٦١ نزول):

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

فَهدَيناهم: أي فدعوناهم إلى أن يهتدوا، وبيّنا لهم طريق الهداية، ورغّبناهم بسلوكه، وحذّرناهم من مجافاته وسلوك سبل الضلالة، والقرينة هي: ﴿فاستحبُّوا العمىٰ على الْهُدَىٰ﴾.

فالإسناد في هذه النصوص هو في حدود علاقة كون الْمُسْنَدِ إليه داعياً، دالاً، موجهاً، مرغّباً، مبيّناً، محذّراً منذراً.

٤ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحج /٢٢ مصحف /١٠٣ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾.

يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَاب السّعير: أي: يدعوه إلى الضلال، ويزينه له، بالشهوات والأهواء وزخرف من القول، ويستدرجه بالخطوات الترغيبيّة والتزينيّة حتى يكون بسبب كُفْرِه ومعاصيه من أهل عذاب السعير.

٥ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سوره (طه /٢٠ مصحف /٤٥ نزول) في حكاية خطابه لموسى عليه السلام عمّا فعل قومه من بعده إذ جاء إلى ميقات ربّه:

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: دعاهم وزيّنَ لهم عبادة العجل الذهبي، فاسْتَجَابوا له فضلُّوا.

ونظائر هذه كثيرة في القرآن.

* * *

العلاقة الخامسة: كون المسند إليه قد نَسَبَ ما تضمّنَهُ الفعل أو ما في معناه إلى فاعله، أو من قام به.

ويدخل في هذا الاتهام بالباطل، والنسبة بالحق، والدعاوى التي يطلب عليها الدليل، وإذا كان ذلك في مجال الحكم القضائي فهي حكم وقضاء بمشيئة القاضي الحرّة، وحين يكون الحاكم عادلاً فحكمه بالعدل، فإذا كان الحاكم الله فهو حكم بالحق والعدل، ومشيئته في ذلك لا تفارق الحقّ لأنّه عليم بكلّ شيء لا تخفى عليه خافية، ولا تفارق العدل أو الفضل، فالله لا يظلم أحداً مثقال ذرّة.

وفي حدود هذه العلاقة نجد في استعمالات العرب أمثلة كثيرة، منها ما يلي[1]:

- **خطّأته**: إذا نسبته إلى الخطأ، وذكرت أنّه مخطىء.
- **صوّبْتُه**: إذا نسبته إلى الصواب، وذكرت أنّه مصيب.
- **وقالوا**: إذَا أخطَأْتُ فخطّئني، وإذَا أصَبْتُ فَصَوِّبْنِي، وإنْ أسَأْتُ فَسَوِّءْ عليَّ، أي: فقُلْ لي: قد أسأتَ.
- **وَثَّقَهُ**: إذا قَال: إنّه ثقة، أو شهد له بأنه ثقة.
- ظلَّمَهُ: أي: ذكر أنه ظالم، أو حكم عليه بأنه ظالم.
- زنّاهُ: نسبه إلى الزّنى، واتّهمه به، أو حكم عليه به في القضاء.
- **أغفلْتُ الرجل**: إذا نسبته إلى الغفلة، وذكرت أنّه غافل.
- **وأَحْلَمَ الرَّجلُ صاحِبَه**: إذا نسبه إلى الحلم وذكر أنّه حليم.
- **أشَرَّ فلانٌ فلاناً**: أي: نسبه إلى فعل الشرّ، واتّهمه به.

ومن الإسناد القرآنيّ في حدود هذه العلاقة ما يلي:

١ ــ ما في قول الله عزّ وجلّ خطاباً للمؤمنين بشأن المنافقين الذين انخذلوا عن رسول الله وأصحابه في غزوة أحد، في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

---

(١) جمعاً من موادّها في لسان العرب، وغيره من المعاجم.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨)﴾.

أَرْكَسَهُمْ بمَا كَسَبُوا: أي: نَكَّسَهُمْ وأذلّهم بما كسبوا:

أتريدونَ أن تَهْدُوا مَنْ أضَلَّ الله: الخطاب هنا للفريق الذي أخذ يقدّم بعض الأعذار للمنافقين الذين انخذلوا عن الرسول وأصحابه في غزوة أحد، وكان على رأس هؤلاء المنخذلين، والمحرّض لهم على الرجوع إلى المدينة رأس المنافقين عبد الله بن أُبَيّ ابْنُ سلول.

أي: أتريدون بتقديم الأعذار لهم وتحسين الظنّ بهم أن تنسبوهم إلى الهداية، ولا تخرجوهم إلى الضلال، مع أنّ الله قد أضلّهم، أي: أثبت لهم الضلال، ومكنّكُمْ من الحكم عليهم بذلك، استدلالاً بأقوالهم وأعمالهم التي تكشف عن حقيقة كفرهم، وتدمَغهم بالنفاق؟!.

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً: أي: ومن يحكم الله عليه بالضلال حكماً مستنداً إلىٰ علمه وحكمته وعدله، فلن تجد له أيُّها الراغب في تبرئته والحكم له بالهداية سَبيلاً إلى ذلك، فالله عزّ وجل لا معقّب لحكمه.

٢ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم /١٤ مصحف /٧٢ نزول):

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾.

ويُضِلُّ اللَّهُ الظالِمِينَ: أي: يَنْسُبُ إلىٰ الظالِمِينَ وَصْفَ الضلال، بسبب كونهم ظالمين، ويدمَغُهم بالضلال، ويحكُمُ عليهم به، وهذا من عدله سبحانه، المستَنِدِ إلى علمه بظلمهم، وليس المعنى أنّه يجبرهم على الضلال، فقد منحهم إرادات حرّة يختارون بها، طريق الهدى، أو طريق الضلال.

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (محمد /٤٧ مصحف /٩٥ مزول):

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾.

يمكن حمل: **﴿أَضَلَّ أعمالَهُمْ﴾** في هَاتين الآيتين على أحد الاحتمالات التالية:

(أ) **أضل أعمالهم**: أي: حكم على أعمالهم بالضلال، بسبب كفرهم وصدّهم عن سبيل الله. فيكون الإسناد على هذا من حدود هذه العلاقة الخامسة.

(ب) **أضلّ أعمالهم**: أي: أحبط أعمالهم التي دبّروها وقاموا بها من أجل الصدّ عن سبيل الله، وإطفاء نوره، فصارت ضالّة ضائعة، لا تهتدي إلى أهدافهم منها.

وهو كناية عن عدم تأثير أعمالهم في تحقيق غاياتهم من إطفاء نور الله والصدّ عن سبيله.

(ج) **أضلّ أعمالهم**: على معنى أنّ الكفر إرادة داخليّة قائمة على فكرة باطلة، وكلّ فكرة تحتل مركز اعتقاد راسخ، لا بدّ أن يكون لها ظواهر في السلوك ملائمة لها، ضمن قوانين اللَّهِ الثابتة في الوجود.

فالإيمان بالحق له ظواهر في السلوك ضمن القوانين الربانية على نهج الهدى والخير.

والكفر الإراديّ التصميمي له ظواهر في السلوك ضمن القوانين الرّبانية على سبيل الضلال، وهكذا فمن اختار الكفر كانت أعماله بقوانين الله أعمالاً ضالّة. كما نقول: من رمَىٰ نفسه من شاهق على الصخر، حطّمَهُ الله وقتله.

٤ ــ وقول الله عزّ وجل في سورة (النساء / ٤ مصحف /٩٢ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ: أي: ينسبُون إلى أنفسهم الزَّكَاة، أي: الطهارة من الشرك والإثم والعصيان، وهم كافرون فاسقون عصاة.

وقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن اليهود الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه.

بل الله يُزَكّي مَنْ يَشَاء: أي: بل الله يحكم بعلمه بزكاة من يشاء، وينسب إليه الزكاة، أي الطهارة من الكفر والفسوق والعصيان.

والقرينة الدالة على أنّ المعنى المراد هو هذا قوله تعالى في آخر الآية: ﴿ولاَ يُظْلَمُونَ فتيلاً﴾.

ونحن نعلم أن مشيئة الله في أحكامه لا تفارق علمه وحكمته، فهو سبحانه يحكم بعلمه وحكمته وعدله وفضله.

٥ ــ ونظيره قوله تعالى في سورة (النجم /٥٣ مصحف /٢٣ نزول) وهذه الآية منها مدنية:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

فَلَا تَزَكُوا أَنْفُسَكُمْ: أي: فَلا تَدَّعُوا لأنفسكم الزكاة والطهارة من المعاصي، ولا تنسبوا لها ذلك، فأمر الحكم بزكاتكم لله، هو أعلم بمن اتّقى، فهو الذي يُزّكي المتقين حقاً.

ولمّا كان المراد التزكية العملية بالإيمان، والعمل الصالح، وتطهير النفوس

والقلوب، بتنقيتها من الأدران والأرجاس وكلّ ما فيه معصية وإثم لله عزّ وجلّ، قال الله تعالى في سورة (الشمس /٩١ مصحف /٢٦ نزول):

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

قد أفلح من زكّاها:

أي: قد أفلح من طَهَّرَ نفسَه بالإيمان والعمل الصالح، إذْ جاهد بإرادته وعمله حتى اتَّقَىٰ الله حقّاً، فزَكَّاها بذلك. فالتزكية هنا أعمال إرادية تحصُل بها الطهارة المقصودة.

بخلاف التزكية المنهي عنها في آيتي النساء والنجم، فهي فيهما تزكية ادّعائية باللّسان الذي يكذب ليُظْهِر صاحبُه نَفْسَهُ بادّعاءاته الكاذبات أنَّه في واقع حاله زكيٌّ تقيٌّ طاهر.

وقد خاب من دَسَّاها:

أي: وقد خاب يَوْمَ الدين، يَوْمَ الحساب والجزاء، من دَسَّىٰ نَفْسَه وغَمَسَهَا في أوحال ورَجَاساتِ وقذاراتِ الكفرِ والفسوق والعصيان.

٦ ــ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (صٓ /٣٨ مصحف /٣٨ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

أجَعَلَ الآلِهَةَ إلَهاً واحداً: أي: ادّعَىٰ فذكر في أقواله ما يَنْسُبُ لآلِهَتِهِمْ أنّها باطلةٌ لا إلَهِيّة لها، ويَنْسُبُ للّهِ أنّه الإلَهُ الواحد الذي لا شريك له.

* * *

العلاقة السادسة: كون الْمُسْنَدِ إليه قَدْ وَجَدَ ما تضمنّه الفعل أو ما في معناه، وصفاً لِمَنْ قامَ به، أو للشيء الذي قام به.

وفي حدود هذه العلاقة نجدُ في استعمالات العرب أمثلة كثيرة، منها ما يلي[1]:

- **أَغْفَلَهُ**: إذَا وَجَدَهُ غَافِلاً.
- **أَحْلاَهُ**: إِذَا وَجَدهُ حلواً.
- **أَكْذَبَهُ**: إذا وجده كاذباً.
- **أرَاحَ الشيءَ**: إذا وجَدَ ريحَهُ.

ويقولون: أَحْيَيْنَا الأَرض: أي: وجَدْناها حيَّةً غضَّةَ النبات.

وروي أنّ عمرو بن معد يكرب الزبيدي قال لبني سليم:
(قاتلْناكم فَمَا أَجْبنَّاكُمْ، وَسَأَلْنَاكُمْ فَمَا أَبْخَلْنَاكُمْ، وهَجَوْنَاكم فَمَا أَفْحَمْنَاكُمْ).

أي: ما وجدناكم جبناء، ولا بخلاء، ولاَ مُفْحَمِين.

ومن الإسناد القرآني في حدود هذه العلاقة ما يلي:

١ ــ ما في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف /١٨ مصحف /٦٩ نزول) خطاباً لرسوله محمَّد ﷺ، ثم لكل داعٍ إلى الله من بعده، وهذه الآية مدنية:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عن ذكرنا: أَيْ: وجَدْنَا قلبَهُ غافلاً عن ذكرنا، وهذا المعنى مستعمل لهذا الفعل عند العرب.

ويمكن أن يكون المعنى: جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا ضمن القانون العام الذي ينطبق على كلّ من اتَّبعَ هَوَاه وكان أمره فرطاً، أي: متفلتاً على غير هدى،

---

(١) جمعاً من موادّها في لسان العرب، وغيره من المعاجم.

فكانت لحظاته وطاقاته مبدّدة ذاهبةً سرفاً وتضييعاً، وطبعيّ أن يكون حال من كان هذا شأنه بمقتضى القانون العامّ غافلاً عن ذكر الله غفلة تامّة، نظراً إلى استئثار الأهواء والشهوات بكل مشاعره وأفكاره.

٢ ــ وما في قول الله عزّ وجل في سورة (يوسف /١٢ مصحف /٥٣ نزول) حكاية لمقالة إخوة يوسف عليه السلام لأبيهم يعقوب عليه السلام:

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾.

أي: ما لَكَ لاَ تَرَانَا وَلاَ تجِدُنَا أُمَنَاءَ عَلَىٰ يوسُفَ، وَإِنَّا لَهُ لناصحون؟!.

٣ ــ وما في قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً: أي: فإنْ وَجَدَ بعضكُمْ بعضاً أميناً، أو رآه أو اعتقده أميناً، أو علِمَهُ بالخبرة أميناً، أو ظنّهُ أميناً، فدايَنَهُ بناء على ذلك.

* * *

العلاقة السابعة: كون المسند إليه راغباً فيما تضمّنه الفعْل أو ما في معناه.

وفي حدود هذه العلاقة نجد في استعمالات الناس، مثل قولهم: هل تأكل؟. هل تشتري؟. هل تتزوّج؟. هل تعمل معنا؟.

أي: هل أنت راغب في أن تأكل، أو تشرب أو تتزوّج أو تعمل معنا؟.

ولهذا نظائر كثيرة في الاستعمالات العربيّة، وفي استعمالات الناس.

ومنه في الاستعمالات القرآنية ما في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات /٣٧ مصحف /٥٦ نزول) في وصف حوار يكون بين أهل الجنة:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

قال: هَلْ أنتم مُطَّلِعُون: أي: هل أنتم راغبون في أن تَطَّلعوا معي على هذا القرين الذي كان يقولُ لي في الدنيا على سبيل السخرية والاستخفاف بإيماني بالبعث والحساب والجزاء، أإنَّكَ لَمِنَ المصدّقين؟ أإذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أإنّا لمدينون؟.

فاطّلَع بوسيلة جعلها الله لأهل الجنة يستطيعون بها رؤية أصحاب النار المعذّبين فيها، ويستطيعون بها مخاطبتهم ومحادثتهم ومشاهدتهم، كأنهم في مجلس واحد. فرأى قرينه في سواء الجحيم، أي: في وسط الجحيم، فقال له: تالله إنْ كدت لتُردين، أي: لتهلكني بوساوسك.

ففي قوله: «مطّلعون» إسناد لما هو بمعنى الفعل على معنى الرغبة في مضمونه.

* * *

خاتمة:

١ ــ نظراً إلى اختلاف علاقات الإسناد فقد يأتي الإسناد مثبتاً باعتبار علاقة منها، ومنفيّاً باعتبار علاقة أخرى، كما سبق في مثالَيْ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هو أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ و ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾.

● فالنهي عن التزكية على اعتبار ادّعاء الزكاة ــ أي: الطهارة من الآثام ــ بالأقوال.

● والحث على التزكية على اعتبار التوجيه للقيام بالأعمال الإرادية التي نَحْصُل بها الزكاة في الواقع والحقيقة.

ومن هذا ما جاء في قول الله عزّ وجل خطاباً لرسوله في سُورَة (الأنفال /٨ مصحف /٨٨ نزول) بشأن ما فعل في غزوة بدر إذْ أخذ حَفْنَةً من حَصْباءِ الأرض، ورماها في وجه المشركين، وقال: «شاهتِ الوجوه» فأصابتهم بخلق الله وتقديره، وإيصاله إياها إلى وجوههم:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

أي: ومَا رميتَ رَمياً مُوصِلاً للهدف إذْ أصابَ القومَ حين رميتَ كفَّ الحصباء بفعلك للحدث الظاهر.

ولكنَّ الله هو الذي رمَىٰ من وراء ظاهر الحدث، فَبِفِعْله عزّ وجلّ أصابت الحصباء القومَ.

فالنفي والإثبات لم يتواردا على علاقة إسنادية واحدة، بل على علاقتين مختلفتين كما وضح لنا.

٢ ــ يقع كثيرٌ من مفسّري النصوص القرآنيّة والحديثيّة، بأغاليط فاحشة، ناشئة عن عدة أمور:

(أ) عدم ملاحظة هذه العلاقات الإسنادية المختلفة.

(ب) وعدم تدبّر النصوص استهداء بقرائنها السابقة لها واللاحقة.

(ج) وعدم جمع مفاهيم النصوص القرآنية المتواردة حول موضوع واحد من مختلف السُّور.

ومن هذه الأغاليط ما وقع به الجبريّون لدى تفسير النصوص القرآنية

والحديثيّة المتعلقة بموضوع القضاء والقدر، تصوُّراً منهم أنّ إسناد الفعل أو ما في معناه إلى المسند إليه لا يُفْهم منه إلاّ معنى القيام مباشرةً بالفعل.

فإذا كان المسند إليه في الجملة اسماً من أسماء الله عزّ وجلّ لم يفهموا من الإسناد إلاَّ أنّ الله عزّ وجل هو الخالق المجبر لما دلّ عليه الفعل أو ما في معناه، فسقطوا في المفاهيم الجبريّة المفسدة لمعنى القضاء والقدر الذي دلّت عليه النصوص، ودلّ عليه منطق العقل الصحيح.

• • •

القاعدة الثامنة والثلاثون

«حول ما يُسمَّىٰ بالاستثناء المنقطـع»

يقسّم النُّحَاةُ الاستثناء إلىٰ استثناء متصل واستثنـاء منقطـع، ويكـون المستثنىٰ محكوماً عليه بنقيض حكم المستثنى منه.

ويُعرّفون الاستثناء المتصّل: بأنّه ما كان المستثنى فيه بعضاً من المستثنىٰ منه، مثل: «نبت ما زرعنا من الشجر إلاّ شجـرة اللّوز ــ لم ينبت ما زرعنـا من الشجر إلاّ شجرة اللَّوز».

وقد يحذف المستثنى منه فيكون عامّاً، ويُسَمُّونه استثنـاءً مفرَّغـاً، أي: مفرّغـاً من المستثنى منه للمستثنىٰ، مثل: ما جاء إلا زيد.

ويُعَرِّفون الاستثناء المنقطـع: بأنه ما كان المستثنىٰ فيه ليس من نوع المستثنىٰ منه، مثل: «نفر قطيـع الظباء إلاّ جمل أبـي حارثة ــ لم ينفر قطيـع الظبـاء إلاّ جمل أبـي حارثة».

* * *

ولكن علينـا أن نتفكّر ونتسـاءل: هل يستثني ذو فكـر حصيف مستثنىٰ من غير نوع المستثنىٰ منه، دون غرضٍ بياني يُقْصَدُ عند البلغاء؟

إنّ مثل هذا الاستثناء دون غرض بياني يُقْصد لدى البلغاء لغـو وعبث، وتعبير في غير مجرى كلام العقلاء، ومثله لا يَصْدُر عن فصحاء البيان، وأساطين البلاغة، فضلاً عن أن يصْدُر عن العليم الحكيم العزيز، فيكون جزءاً من كلامه.

وحين يـورد البليـغ تعبيراً من هـذا القبيل فـلا بدّ أن يكـون له من تعبيـره هذا غرض بلاغيٌّ يُريد أن يدُلّ عليه بهذا الأسلوب.

فإذا قَال رجُلٌ حصيفٌ: جاءَ بنـو فلان إلاّ نـاقَتَيْنِ وفرسـاً وثلاثـة خراف، فـإنّه يُشعر بهذا الاستثنـاء الذي جـاء بعده مستثنىٰ ظـاهره الانقـطاع عما قبله، أنّـه يريـد بتعبيـره: «جاء بنـو فـلان» أنّهم جـاءوا وأحضـروا معهم كـلّ أنعـامهم ودوّابهم، إلاّ ما استثناه.

وهذا في مضمونـه هو من قسم الاستثنـاء المتصل، إلاّ أنّ لفظ المستثنىٰ منـه لا يعمّ بوضعه اللّغـويّ المستثنىٰ، لكن أريد عن طـريق التعميم المجازي مـا يشمل القــوم وكـل مــا يُلْحق بهم من أنعـامهم ودوابّهم فضــلاً عن صغــارهم ونســائهم وعجزتهم.

وربّمـا يقصد هجّـاء ذمّ قومٍ بـالبـلادة، فيقـول: جـاء بنـو فـلان إلاّ حمـاراً، وهو يقصد جاء بنو فلان الذين يُشْبِهون في بلادتهم الحمير، هم ودوابُّهم إلاّ حماراً. ولا يخفى أن استثناءه هذا الذي ضمّنه استعارةً أشارَ إليها إشارةً خفيّـة، هو من قبيـل الاستثناء المتصل القائم على تعميم المستثنىٰ منه تعميماً مجازيّاً.

فقد فعل ما صورته استثناء منقطـع لغرض بلاغي، وحقيقته استثناء متصل.

* * *

فعلىٰ متدبّر كلام الله عزّ وجلّ أن يتفكّرَ بأناةٍ تفكُّـر عميقاً في كـلّ نصٍّ قرآنيّ يشتمـل على استثنـاء يتـراءَىٰ لـه من ظـاهـره أنّ المستَثنىٰ فيـه منقـطـع عمّــا قبـل الاستثناء.

فإذا أطال تفكّره، وتعمّق، وكانَ من أهل التدبّر والاستنباط فـلا بدّ أن ينكشف له بالتحليل، أمرٌ تختلف معه نظرته إلى النصّ، ويختلف معه تـدبُّره لـه. وعليه في تفكّره أن يقفز إلى مـا وراء السِّيَاجِ السّـاذَجِ المسمَّىٰ بالاستثنـاء المنقطـع، فـذريعة هذا الاستثناء لا تُقْبَلُ عند المتدبّرين العقلاء.

وهو بين أمرين :

● إمّا أن يظهر له أنّ أداة الاستثناء هي أداة استدراك، مثل كلمة «لَكِنْ» وأنّ الغرض الإضراب الانتقالي، لإثبات قضيّةٍ جديدة صلتها بما قَبْلَها صلة المغايرة في الحكم فقط، والحركة الإعرابية ضبط لفظيٌّ لمثل هذا الاستدراك الوارد بلفظ «إلّا» سواء نصبنا على لغة الحجازيين، أو رفعنا على لغة بني تميم.

وإمَّا أن يكتشف أنّ الاستثناء بهذه الصورة يتضمَّن غرضاً بلاغيّاً مقصوداً، لأداء فكرة مُرادة، وهو في مضمونه الفكري من قسم الاستثناء المتصل.

* * *

الأمـــثـــلـــة

المثال الأول:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (طه / ٢٠ مصحف / ٤٥ نزول):

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾.

التذكرة لمن يخشى في هذا النصّ ليست من نوع «لتشقَىٰ» الذي نفى النصّ أن يكون مراداً من إنزال القرآن على الرسول ﷺ، وذلك ليبيّن الله لرسوله أنّه ليس مسؤولاً عن تحويل الكافرين إلى الإيمان، حتى يُشْقِي نفسه ألماً وحزناً، إذا لم يستجيبوا لدعوته.

لكنّ وظيفته أن يُذَكّر بالقرآن من يخشىٰ عِقَاب الله وعَذَابه، وأمّا الذين لا يخشون ذلك فهم الذين يتحمّلون مسؤولية أنفسهم، وهم الذين يُلاقون عقابَ الله وعذابه، وما على الرسول إلّا البلاغ المبين.

وأمام متدبّر هذا النصّ طريقتان:

● فإمّا أن يفهم أنّ لفظ «إلّا» للاستدراك مثل لفظ «لكن» أي: لكن أنزلناه لتبلّغه تذكرةً لمن يخشى.

● وإمّا أن يعتبر ﴿إلّا تذكرةً لِمَن يَخْشَىٰ﴾ استثناء من جملة محذوفة تفسرها الجملة السابقة المذكورة، وهو من قبيل الاستثناء المفرغ.

والتقدير: ما أنزلنا عليكَ القرآن لتشقىٰ، ما أنزلناهُ إلّا تذكرة لمن يخشىٰ.

وهذا من قبيل الإيجاز بالحذف الذي يوجد في المذكور قبله ما يَدُلّ عليه.

* * *

المثال الثاني:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد /٥٧ مصحف /٩٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾.

وَجَعَلْنَا في قُلُوبِ الّذِينَ اتّبَعُوهُ رَأفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً: الجعلُ هنا هو جعل قدري خاضع لسنن الله العامة التي تكون ثمرة أسباب، ولو كانتْ من اختيارات ذوي الإرادات الحرّة، فمن آمن بالله صادقاً وآمن بعيسىٰ عليه السلام واتّبَعَهُ بصدقٍ وإخلاص، في أيام امتداد رسالته، جعل الله في قلبه رأفةً ورحْمَةً ورهبانيةً «أي: رغبةً في الزهد وترك متاع الحياة الدنيا ولذّاتها» اقتداءً بما كان عليه عيسى عليه السلام في حياته، ومن مظاهر هذه الرَّهبانيّة الاعتزالُ في الصوامع بعيداً عن الناس والاختلاط بهم، والالتزام بترك الزواج، وهذه بِدَعٌ عمليّة ابتدعوها تنفيساً عن رغبتهم في الزهد والتقشف، مَا كَتَبَهَا اللَّهُ عليهم في منهاج عباداتهم، المبيَّنة على لسان عيسى عليه السلام.

وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ الله فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا:

إذا عرفْنَا أنَّ هـٰذِهِ الرَّهْبَانِيَّةَ في تَطبيقاتِها العمليّة من مبتدعَاتِ النّصارىٰ الـذين اتّبَعُوا عيسى عليه السلام ما كَتَبَهَا اللَّهُ عليهم في منهاج عباداتهم، فَمَا مَوْقع الاستثناء الوارد في قول الله بعد ذلك: ﴿إلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ الله﴾؟.

بالتدبر يظهر لنا أنّ المعنى: **ما كتبناها عليهم في منهاج عباداتهم وطاعاتهم لربّهم**، لكن فرضُوها على أنفسهم بنذر أو نحوه، وألزموا أنفسهم بها ابتغاء رِضوان الله عزّ وجلَّ، ضمن أحكام النذور والالتزامات التي يلتزمها الأفراد بنحو الأيمان، فَمَا رَعَوْها حقّ رعايتها.

وعَلىٰ هذا فمن الواضح أن يكون لِفظ «إلّا» أداة استدارك، ويكون التقدير: لكن فرضوها على أنفسهم ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حقّ رِعايتها. وحُذِفَ من اللفظ جملة «فرضوها على أنفسهم» للإيجاز؛ ودلّ على المحذوف أمران:

١ ــ إبقاء لفظ «ابتغاءَ رِضوانِ الله» وهو من متعلقات الجملة المحذوفة.

٢ ــ جملة «ما كتبناها عليهم» أي: ما فرضناها عليهم، فهي بمفهومها تدلّ على أنّهم فرضوها على أنفسهم، أو ألزموا أنفسهم بها، أو التَزموا بها، أو نحو ذلك.

* * *

المثال الثالث:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء / ٤ مصحف / ٩٢ نزول) بشأن ادّعاء قتل عيسىٰ وصلْبه اعتماداً على الظّنّ من قِبل الّذين ادّعَوْا ذلك:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾.

أي: ليس لديهم دليلٌ علىٰ ما ادّعوا بالنسبة إلى قتل عيسى عليه السلام

وصلبه، إلاّ اتباعَ الظن الذي لا يرقى إلى مستوى العلم، حتى يُعْذَروا به. فاتّباع الظّن ليس استثناء من جملة: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾.

فكيف نفهم هذا الاستثناء؟.

لنا في ذلك وجهان:

الأوّل: أنّ نقول: إنّ «إلاّ» أداة استدراك، بمعنى لكن، والتقدير: لكن قالوا مقالتهم فيه حالة كونها اتباعَ الظّنّ، أي: الظّنِّ الضعيف الذي لا يصحّ الاعتماد عليه.

وقد حُذِفَ بَعْضُ ما بعد «إلاّ» استغناءً بما يدل عليه، وهو تابع من توابعه، ألا وهو «اتِّبَاعَ الظَّنّ» والمحذوف يفسره أيضاً قول الله عزّ وجلّ في سوابق النص: ﴿وَقَوْلِهِمْ: إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابنَ مَرْيمَ رَسُولَ اللَّه﴾ وهي مَقَالةٌ قالَها مدبرو المؤامرة من اليهود، ثمّ صَارَ اليهود يفتخرون بها.

الثاني: أنّ نقول: إنّ «إلاّ» أداة استثناء من جملة محذوفة، تفسّرها الجملة المذكورة قبله، والتقدير:

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ مَا لَهُمْ دليلٌ ﴿إلاّ اتباعَ الظَّنِّ﴾.

وقد يكون إيثار هذا الوجه هو الأرجح، لأنّه أقرب إلى التعبير القرآنيّ الوارد في قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم /٥٣ مصحف /٢٣ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

أي: ما يَتَّبِعُون دليلاً إلاّ الظَّنَّ الضعيف، وهذا الظَّنُّ لا يُغْنِي من الحقّ شيئاً.

* * *

المثال الرابع:

يقولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الدّخان / ٤٤ مصحف / ٦٤ نزول) في وصف المتقين في الجنَّة:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: لا يَذُوقونَ في الجنَّةِ الْمَوْت، لِأَنَّها دَارُ بقاء دائمٍ وخْلُودٍ.

فما موقع: ﴿إلَّا الْمَوْتَةَ الأُولى﴾ وهي حادثةٌ لم تكنْ في الجنّة، وإنما كانت في الدنيا؟.

إنّه استثناء ليس من جملة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الموتَ﴾حتماً.

وبالتأمُّل يظهر للمتدبّر أنّه استثناء من جملة محذوفة، نفسّرها الجملة السابقة للاستثناء، والتقدير:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿الْمَوْتَ﴾ لَا يَذُوقُونَ ﴿إلَّا الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ﴾.

والغرض من هذه الجملة التي جاء فيها الاستثناء هو الإعلام بحقيقة، وهي أَنَّ ذَوَاقَ الْمَوْتِ لَا يَكُونُ لَهُمْ إلاَّ مَرَّةً واحدةً عند الْمَوْتَةِ الأُولى.

وقبل هذا النصّ نزل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصّافات / ٣٧ مصحف / ٥٦ نزول) حكاية لمقالة بعض أهل جنّات النعيم لبعض:

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

فتضمَّنَتْ مَقَالَتُهُم مَا نزل في سورة (الدخان) بعد ذلك.

لَكِنَّ الاستثناء في هذا النصّ الذي في سورة (الصّافات) قد جاء على بابه، لأنّه لم يُذْكَرْ في جملة: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بميّتِينَ﴾ تَقْيِيدُ هذا بالجنّة. فدلّنا على أنّ

المراد من الاستثناء الوارد في سورة (الدخان) هو الذي قدّرناه آنفاً، فتطابق النصّان في الدلالة.

ولا يتعارض ما جاء في هٰذين النصّين من أنّهم لا يذوقون إلّا الموتة الأولى، وهي التي حصلت بعد ظروف الحياة الدنيا التي كان فيها الامتحان، مع ما جاء في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) حكاية لمقالة الكافرين، وهم يعذّبون في النار:

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ﴾.

فالمرادُ من أحد الموتَيْنِ هُنا هو ما كان قبل الحياة الدنيا، إذْ كانت أرواحهم منفصلةً عن الأجساد التي استحل فيها ومعنى الموت هو هذا الانفصال بين الأرواح والأجساد مع وجود الأرواح ووجود مادة الأجساد، لكنَّهم لم يكونوا قد ذاقوا هذا الموت، والموت الذي ذاقو طعمه هو الموت الذي كان بعد الحياة الدنيا، وبعد تعلّق الأرواح والنفوس بالأجساد، والنفوس هي التي تذوق الموت بدليل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

ودلّنا على أنّ المعنى المراد هو هذا قول الله عزّ وجل في سورة (البقرة /٢ مصحف /٨٧ نزول):

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

* * *

المثال الخامس:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (يس /٣٦ مصحف /٤١ نزول):

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ: أي: من مثل الفلك المشحون ما يركبونه، وفي هذا إنباء عمّا قضى الله وقدر من أمرِ إلهام الإنسان اختراع المركبات البريّة، والجويّة، والمشتركة، وهي مخترعاتٌ تَحَقَّق وجودها، بعد نزول هذا النصّ القرآني بقرون، فهو من الإعجاز القرآني، المتضمّن أنباءً مغيّبة ستحدث في المستقبل، جاء التعبير عنها بصفة الفعل الماضي للدلالة على تحققِ الوقوع.

وإنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخ لهم: أي: وإن نشأ نُغْرِقْهُمْ وهُمْ راكبون في الْفُلْكِ، لأنّهم يركبونها ويجتازون عليها المسافات، بما جعل الله في كونه من قوانين يستخدمونها بقضاء الله وقدره، وهو سبحانه إنْ شاء سَلَبَ القوانين خواصّها، فأغرقهم، أو أرسل عليهم أسباباً مغرقة، فأغرقهم. فيصرخون مستغيثين، فلا يجدون صريخاً يُغيثُهُمْ.

وَلاَهُمْ يُنْقَذُونَ: أي: وإذا انْكفؤوا فسقطوا في البحر، لا يَجدون من يُنقِذُهم، ولا ما يُنْقِذُهم، إنْ شاءَ اللَّهُ أن يُغْرِقهم.

إلاّ رحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَىٰ حين:

يمكن أنْ نفهم أداة «إلاّ» في هذا النصّ بوجهين:

الأوّل: أن تكون أداة استدراك بمعنى «لكن» والتقدير: لكن لا نغرقهم، وإذا تعرّضوا لمخاوف أو مخاطر هيأنا لهم صريخاً يُغيثُهم أو منقذاً يُنْقِذُهُمْ رحمةً منّا بهم، ومتاعاً يتمتَّعُونه في الحياة الدنيا إلى حين، أي: لاستكمال ظروف امتحانهم.

الثاني: أن تكون أداة استثناء، والمستثنىٰ منه ينبغي أن ينتزع من جملة أمور جاءت في النصّ قبل أداة الاستثناء، استهداءً بها، واستهداءً بالواقع، لأنّ الواقع قد يكون على وجوه:

١ ــ أن يقضي الله لهم بأن يركبوا الفلك، أو ما كان مثله من مراكب، ويحققوا كلّ أغراضهم، وهم سالمون من البداية حتى النهاية، فلا يتعرّضون لأيّة مخاوف، رحمة منه بهم، ومتاعاً إلى حين.

٢ ـ أن يقضي الله لهم بأن يركبوا ويتعرّضوا وهم في طريقهم لمخاوف، ثم يبعث لهم ما يغيثهم، ويدفع عنهم أسبابها، رحمة منه بهم، ومتاعاً إلى حين.

٣ ـ أن يقضي الله لهم بوقوع حدث ما، من شأنه أن يكون قاتلاً، ثمّ يبعث لهم ما ينقذهم من الموت وهم على عتبته، رحمةً منه بهم ومتاعاً إلى حين.

والجامع لكل ذلك أن تقدّر نحو: ما نتركهم سالمين دواماً، أو نغيثهم عند المخاوف، أو نُنْقِذُهم من الحدث القاتل، إلاّ رحمةً مِنّا وَمَتَاعاً إلى حين.

والغرض أن يستكملوا ظروف امتحانهم في الحياة الدنيا.

* * *

المثال السادس:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء /٤ مصحف /٩٢ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

يرى المفسرون أنّ الاستثناء في هذه الآية هو من قبيل الاستثناء المنقطع، أي: لكن أن تكون تجارة عن تراض منكم فلكم فيها متسع عن أكل أموالكم بينكم بالأسباب الباطلة المحرّمة.

ويمكن أن نعتبره من الاستثناء المتصل، إذا لاحظنا أنّ التجارات قد تحصل بها أرباح وفوائد ماليّة، دون أن يبذل مستفيدها أيّ جَهْدٍ أو مهارة، مقابل ما استفاد، فهي بهذا المعنىٰ أخذ مال بغير عوض، أي: بغير حقّ، لكن الضرورة الاجتماعية تدعو إلى الترخيص في هذا لتعذُّر ضبطه، ولا بدَّ من تبادل السلع والأموال بين الناس، فرَخَّصَ الله عزّ وجلّ في ذلك بشرط حصول التراضي الكامل، وهو التراضي الذي لا يقوم على الغشّ أو المخادعة، أو استغلال غفلات الناس وجهالاتهم، لذلك جاء في بيانات السُّنَّة منع البيع الذي يكون فيه غرر، أو جهالة، و تحريم

النجش، وأن يبيع حاضر لباد، ونحو ذلك مما يكون فيه أكل لأموال الناس بالباطل عن طريق التجارة، ولا يكون فيه التراضي الحقيقي، وإنما يقوم على طرق احتيالية تُسْتَغَلُّ فيها الغفلات والجهالات، وضرورات الناس.

لذلك لمّا فهم الصحابة من عموم النهي عن أكل أموال الناس بالباطل، المنع من أن يأكل بعضهم عند بعض الطعام، لأنّهم لا يدفعون مقابله عوضاً ما، قالوا: إنّ الله قد نهانا أنْ نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل أموالنا، فلا يحلّ لأحدٍ منّا أن يأكُلَ عند أحدٍ فكيف للناس؟.

فأنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (النور /٢٤ مصحف /١٠٢ نزول):

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

* * *

المثال السابع:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء /١٧ مصحف /٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ... ﴿٣٣﴾﴾.

يرى بعض المفسّرين أنّ الاستثناء في هذه الآية هو من قبيل الاستثناء المنقطع، وأنّ «إلّا» فيه بمعنى «لكن» الاستدراكية.

بيد أنّ الآية ليس فيها ما يدعو إلى اعتبار الاستثناء فيها منقطعاً، لأنّ الاستثناء فيها يمكن اعتباره استثناء من جملة محذوفة، تُفَسِّرها الجملة السابقة، والتقدير:

ولا تقتلوا النفس التي حرَّمَ اللَّهُ قتلها، لا تقتلوا النفس إلا بالْحَقِّ الذي أذن الله بقتلها فيه، كالقصاص.

ويمكن اعتباره استثناء من مفعول «حرَّمَ» المحذوف، أي: ولاَ تقتلُوا النفس التي حرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا إلاّ بالحقّ.

فالاستثناء على هذا تابع لجملة «حرَّم» لا تابع لجملة «ولا تقتلوا» المرتبطة بها قيودها، حتى يحصل الإشكال.

• • •

القاعدة التاسعة والثلاثون

«حول لفظة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في القرآن»

يمرُّ المفسّرون على لفظة [كذلِكَ] في كثير من الآيات القرآنية دون أن يُولـوها ما تستحقّه من تدبّر وتفكّر في دلالتها التي قد تكون عميقة أحيانـاً، ويكون مـدلولهـا بعيـداً، لَا يُدْرَكُ إلاّ بفهم متعمقٍ وواسـعٍ للنُّصـوصِ التي تتعلّق بمـوضـوع الآيـة، أو بما يتّصل به، ممّا هو موزّع في القرآن المجيد.

فعلى متدبّر كلام الله أن يُولي هذه اللفظة عناية فائقة بأناةٍ وطول تفكر، ونـظر في الآيـات المتعلّقة بمـوضوع الآيـة أو المتعلّقة بمـوضوع أعمّ تفـرّع عنه مـوضـوع الآية.

لفظـة [كذلك] من الناحية اللّغوية واضـح، فالكاف الأولى أداة تشبيه، و «ذَا» اسم إشارة، واللاّم تضاف حينما يكون المشار إليه بعيداً، والكاف الأخيرة لخـطاب المفرد.

لكنْ: مـا هـو المشـار إليـه في الآيـة التي وردت لفـظة [كـذلـك] فيهـا؟. وما هو المشبَّه؟. وما هو المشبَّهُ به؟. ومَا هُوَ الْغَرَضُ مِن التشبيه؟.

هذا هو الذي ينبغي للمتدبّر أن يبحث فيه بأناة.

* * *

الأمـــثـــلـــة

المثال الأول:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات /٧٧ مصحف /٣٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

دلّ هـذا النّصّ على أنّ من جزاء المتقين، وهم الـذين استوْفـوْا شروط مـرتبة التقـوىٰ، بفعل الـواجبات وتـرك المحرّمـات، أن يكـونـوا داخـل الجنّـة في ظـلال ٍ وعيـون، وفواكـه كثيرة ممّـا يشتهون، وأن يقـال لهم: كلوا واشربـوا هنيئاً بمـا كنتم تعملون.

ويـرد هنا سؤال: هـل الأبرار والمحسنـون ينفردون بـأنواع خـاصـة رفيعـة من الجزاء، ولا يكون لهم جزاء مُمَاثل لجزاء المتقين، كالوارد في هذا النصّ؟

ويـأتي الجواب القـرآني: ﴿إِنَّا كَـذٰلِـكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إنّـا كـذلـك الجـزاء الذي نجـزيه المتقين الـذين هم من أهل مـرتبة التقـوىٰ، نجزي المحسنين الذين هم من أهل مرتبة الإحسان العليا، بـاعتبار أن المحسنين هم متقـون وزيادة، فـالمؤمن لا يرقى إلى مـرتبة الإحســان حتى يستكمل كـلّ واجبات مـرتبـة التقـوىٰ، وفضائلَ مرتبة البرّ، ويتحلى مـع ذلك بفضائل مرتبة الإحسان، فالمحسنون لهم كلُّ جزاءات المتقين، وكلّ جزاءات الأبرار، مـع ما يُفَضِّلُهُم الله به من جزاءات خاصّـة بهم، وهي من جزاءات مرتبة الإحسان.

ونفهم لـزومـاً أنّ هـذا الجزاء الـذي ينالـه المحسنون، بـوصف كونهم متقين وزيادة، كما يناله المتقون دون أن تكون لهم فضائل ترفعهم عن مرتبة التقوى، يناله أيضاً الأبرار، وذلك لأنّ الأبرار هم متقون مستكملون لواجبات مرتبة التقوى وزيادة من فضائل مرتبة البرّ.

وما كان لنا أن نفهم هذه المفاهيم لولا النظرة الشاملة للنصوص التي جاء فيها وصف المتقين وجزائهم، ووصف الأبرار وجزائهم، ووصف المحسنين وجزائهم.

* * *

المثال الثاني:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام /٦ مصحف /٥٥ نزول):

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

فأبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ أنّه آتىٰ إبراهيم عليه السلام الحجّة، ورفع درجاته، وأنّه هَدىٰ إسحاقَ ويعقوب وأنه هدى نوحاً من قبل، وأنّه هدى من ذُرِّيةِ إبراهيمَ داودَ وسليمانَ وأيُّوبَ ويُوسُف وموسَىٰ وهارون، وأنّ هذه الهداية الممتازة كانت بسبب كونهم محسنين، وأخيراً أبان سبحانه أنّه ما منحه لهم قد جرى ضمن سنته الثابتة، الّتِي يُجْرِيها لكل المحسنين، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي المحسنين﴾.

ولا بدَّ أَنْ يكونَ ما منحهم أمراً غير الاصطفاء بالنُّبُوَّة والرسالة، لأنَّ الاصطفاء بالنبوّة والرسالة ليس سنة يجزي الله بها كلَّ المحسنين.

* * *

المثال الثالث:

يقول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل /١٦ مصحف /٧٠ نزول):

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

جاء في القرآن أحد عشر نصّاً فيها ذكر جنّات عَدْنٍ، وجاء فيها بيان أنّها يوم الدين دار المؤمنين ودار المتقين.

ولمّا كان المحسنون متّقين وزيادة، بسبب ما كسبوا من أعمال صالحات وقُرُبَات زائدات على ما فرض الله، كانُوا مستحقين بوصف كونهم متقين لجنّات عدن، وإذْ جاء في وصف نعيمهم في هذا النصّ من سورة (النحل) أنّ لهم فيها ما يشاءون، كان من الممكن أنْ يَظُنَّ المتدبّر أنّ هذا العطاء التابع لمشيئتهم في جنّات عدنٍ خاصٌّ بهم بوصف كونهم محسنين، لا بوصف كونهم من عموم المتقين، فدفعاً لهذا الظّنّ غير المطابق للحقيقة، قال الله عزّ وجلّ في آخر النصّ: ﴿كذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ المتَّقِينَ﴾ أي: كما يجزي اللَّهُ المحسنين في جنّاتِ عدنٍ بأنّ لهم فيها ما يشاءون يجزي المتقين أيضاً، فليس هذا الجزاء من خصوصيات مرتبة الإحسان.

وإذا كان هذا للمتقين فهو للأبرار أيضاً، لأنّهم متقون مع زيادة توسُّع في الخيرات، وإن لم يبلغوا بها مرتبة المحسنين.

* * *

المثال الرابع:

لدينا نصان: أحدهما في سورة (الشعراء) والآخر في سورة (الدّخان) وهما يَحْكِيَانِ قصةَ فرْعون وقومه، مع رسول الله موسى عليه السلام وبني إسرائيل، وفي نصّ (الشعراء): ﴿كذلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إسْرَائيل﴾ وفي نصّ (الدخان): ﴿كذلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِين﴾.

فكيف نفهم المراد من لفظ [كذلِكَ] في النصّين؟.

علينا أن ننظُرَ إلى السوابق واللواحق أوَّلاً فيهما، ثم علينا أن نستقرىء التاريخ الثابت، عسَىٰ أن يفتح الله علينا فنفهم المراد بتوفيقه وعونه.

١ ــ يقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء /٢٦ مصحف /٤٧ نزول):

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

ويتابع النصّ قصةَ لحاق فرعون وقومه لبني إسرائيل بقيادة موسى وهارون، حتى نجاة موسىٰ ومن معه أجمعين، وإغراقِ الآخرين.

٢ ــ ويقول الله عزّ وجل في سورة (الدخان /٤٤ مصحف /٦٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

هـذه قصة قوم جاءت الإشارة إليها في النصين باسم الإشارة «ذلِكَ» وسُبِق اسم الإشارة بأداة التشبيه، فالمعنى: مِثْلُ هذه القصة.

إنه خبر بلا مبتدأ، فأينَ مبتدؤه؟ أو معمول بدون عامله، فأين عامله؟.

بحثت في التاريخ وفي بيانات القرآن فلم أجد أنّ بني إسرائيل ورثوا ما تركه فرعون وملؤه من كنوز وجنّات وعيون وزروع ومقامٍ كريم، بعد أن جاوزوا البحر ودخلوا سيناء، بل دعاهم موسىٰ عليه السلام إلى قتال الوثنيين في الأرض

المقدّسة، فجبنوا عن ذلك، وقالوا له، كما جاء في سورة (المائدة /٥ مصحف /١١٢ نزول):

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَـٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

فَقَضىٰ الله عليهم أن يَتهيوا في الأرض، ولم يرجعوا إلى مصر ليرثوا ما ترك فرعون وآل فرعون وملؤه.

عُدْتُ فَأمعنتُ النظر في لفظة [كَذَٰلِكَ] في النصين: الذي في (الشعراء)، والذي في (الدخان) فظهر لي أنّ القرآن المجيد يشير بلفظة [كذلك] في سورة (الشعراء) إلى واقعة مشابهة لما حصل لفرعون وآله وملئِه وجنوده، وفي هذه الواقعة المشابهة أخرج الله الطغاة الجبارة من جَنَّاتٍ وعيون وكنوز ومقام كريم، وأورثها بني إسرائيل، ويظهر أنّها الواقعة التي كانت بقيادة طالوت الذي بعثه الله ملكاً عليهم، بعد موسى عليه السلام، إذ طلب بنو إسرائيل من نبيهم يومئذٍ أن يبعث لهم ملكاً حتى يقاتلوا بقيادته في سبيل الله، وهي الواقعة التي جاء بيانها في سورة (البقرة) أول سورة نزلت في العهد المدني، في الآيات [من الآية ٢٤٦ إلى غاية الآية ٢٥١].

وبناءً على هذا نستطيع أن نفهم ما جاء في سورة (الشعراء) على الوجه التالي:

كذلك الذي حصل لفرعون وآله وملئه وجنده من إخراجٍ لهم من جنّات وعيون وكنوز ومقامٍ كريم، حصل لجبّارين آخرين كافرين، وأورث الله مَا تركوا بني إسرائيل، فدلّ بهذا على أنّ المقصود بهم جالوت وقومه، ودخولُ بني إسرائيل الأرضَ المقدّسة، واستيلاؤهم على ممتلكات المغلوبين المخرَجين.

أمّا ما جاء في سورة (الدخان) فهو يشير إلى واقعة تاريخية أخرى، أهلك الله بها الجبابرة الكفرة الفاسقين المفسدين في الأرض، والفرق بينها وَبين واقعة طالوت وجالوت، في أمرين:

الأول: أنّ واقعة طالوت وجالوت، قد حصل فيها استدراج وإخراج إلى مهالكهم، كما حصلَ لفرعون وجنوده، لذلك جاء التعبير في (الشعراء): ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾.

أمّا الواقعة الأخرى التي أشارت إليها سورة (الدخان) فلم يأت فيها التعبير بالإخراج، إذ رُبَّما كان فيها إهلاك لهم وهم في أرضهم، لذلك جاء التعبير فيها: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

الثاني: أنّ نصّ (الشعراء) جاء فيه بيانٌ عن كُنُوزِ فرعون وآله وملئه، ولم يأت فيه بيان عن النعمة التي كانوا فيها فاكهين، ولا عن الزروع الكثيرة الواسعة.

وهذا يدلّ على أنّ جالوت وجنوده الذين أُشير إليهم بلفظ [كذلك] في (الشعراء) قد كانوا أهل كنوز، لكنهم كانُوا أهل بأس وخشونةٍ في العيش، وإيثار للتدريبات على العنف والقوة، ولم يكونوا من أهل الترف والرفاهية، ولا من أهل الزروع الكثيرة الواسعة.

أمّا نصّ (الدخان) فلم يأت فيه بيان عن كنوز فرعون وآله وملئه، لكن جاء فيه بيان عن الزروع الكثيرة الواسعة، وبيان عن النعمة التي كانوا فيها فاكهين.

وهذا يدلُّ على أنّ المشار إليهم بلفظ [كذلك] في سورة (الدُّخان) لم يكونوا أهل

كنوز لكنهم كانوا أهل زروع واسعة كثيرة، وكانوا مترفين، وكانـوا في نعمة هم فيهـا فاكهون.

وهذه الأوصاف تنطبق على قوم عاد، لأنهم كانوا أهل ترف، وقد أهلكهم الله بالريـح الصرصر العاتية، فأصبحوا لا تُرىٰ إلاّ مساكنهم، وورث ما تركـوا من جنّاتٍ وعيون وزُروع ومقامٍ كريم قوم آخرون، من القبائل العربية.

وبنـاءً على هذا نستـطيـع أن نفهم ما جـاء في سورة (الـدخـان) على الـوجـه التالي:

كذلك الذي حصل لفـرعون وآلـه وملئه، من إهـلاك لهم، وتركهم لكثيـر من جنّاتٍ وعيونٍ وزُرُوعٍ ومقامٍ كريم ونَعْمَةٍ كانُـوا فيها فـاكهين، حصل لـطغاة آخـرين فـاسقين مفسدين في الأرض، أي: وكـان ذلك ضمن سنـة الله الثابتـة، وأورث الله ما تركوا قوماً آخرين.

* * *

وفيما يلي سبر ما جاء من لفظة [كذلك] في سورة (البقرة٢):

المثال الخامس:

يقول الله عزّ وجـلّ في سورة (البقـرة /٢ مصحف /٨٧ نزول) في قصـة قتيل بني إسرائيل وأمرهم بذبـح البقرة ليبيّن الله لهم القاتل:

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: اضربوا القتيـل ببعض البقرة يحيـا ويخبركم عن قـاتله ﴿كَذَلِـكَ يُحْيِـي اللَّهُ الْمَـوْتَىٰ﴾ أي: مثل ذلـك الإحياء لقتيـل بني إسرائيـل يحيـي اللَّهُ المـوتَىٰ يـومَ البعث.

* * *

المثال السادس :

ويقول الله عزّ وجل في سورة (البقرة ٢) أيضاً :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ .

أي : كحال أهل الكتاب الذين لديهم علم مما أنزل الله ، قال الكفرة الآخرون الذين لا يعلمون من الكتب الرّبّانية شيئاً ، ومنهم مشركو العرب عند بعثة الرسول ﷺ مثل قول أهل الكتاب .

فكلّ فريق من ملل الكفر والخروج عن تعاليم الله يرى أنّ غيره ليس على شيء ، وأنّ الحقّ والصواب هو مذهبُه .

* * *

المثال السابع :

ويقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢) أيضاً :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

أي : قال مشركو العرب عند بعثة الرسول محمد ﷺ : لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . [كذلك] أي : كقول هؤلاء قال الذين من قبلهم . وهذا يعمُّ أهل الكتاب وغيرهم .

والسبب في صدور هذه المقالات المتشابهة ، أنّ قلوبهم متشابهة ، فالظواهر المتشابهة كثيراً ما تكون آثار بواطن متشابهة .

* * *

المثال الثامن :

ويقول الله عزّ وجل فيها أيضاً :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ . . . ﴿١٤٣﴾ ﴾ .

أي : وكـذلك التمييـز بالقبلة عن اليهـود والنصارى، ميَّـزْنَاكُمْ فجعلْنَـاكم أُمَّـةَ وَسطاً [أي : عدولاً] تبلّغون دين الله ، لتكونـوا شهداء على النـاس، ويكون الـرسول عليكم شهيداً .

* * *

المثال التاسـع :

ويقول الله عزّ وجل فيها أيضاً :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ .

أي : كذلك الشأن الذي يَرَوْنَ فيه اتّبَاعَهُم لأئمتهم وقادتهم في الكفر حسراتٍ عليهم ، يُرِيهُمُ اللَّهُ أعمالَهم كلَّها حسرات عليهم، إذْ كفروا بالله ، فأضاعوا في الدنيا أعمارهم وطاقاتهم، فيما جلب لهم عذاباً خالداً، فهم يتحسَّـرون على ما أضـاعوا، ويتمنَّـوْن العودة إلى الحيـاة الدُّنيـا، لِيَسْتأْنِفُـوا رحلة الابتلاء، ويصلحـوا أعمـالهم، فلا يستجاب لهم .

* * *

المثال العاشر :

ويقول الله عزّ وجل فيها أيضاً في آخر آيات الصيام :

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ .

أي: كذلك البيان التفصيلي لأحكامٍ تتعلّقُ بالصيام، يبيّن الله سائر آياته للناس المتعلّقة بسائر الأحكام، ممّا سيأتي تفصيله فيما سينزل من قرآن، لعلّهم يتقون.

وكانت آيات الصيام من أوائل آيات الأحكام التكليفيّة التفصيلية التي نزلت في أوائل العهد المدني.

* * *

المثال الحادي عشر:

ويقول الله عزّ وجل فيها أيضاً:

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾.

أي: كذلك الجزاء الذي أمرتم به في هذا النصّ من مقاتلة هؤلاء الَّذِينَ قاتلوكم وأخرَجوكم من دياركم يكون جزاء الكافرين الذين يعملون مثل أعمالهم.

فأعطى النصّ الحكم الخاصّ بكفّار مكّة، ثمَّ عمَّمه على سائر الكافرين، إذا فعلوا مثل أفعالهم، فكان له بذلك التعميم صفة الحكم العام، بعد أن كان مُوَجّهاً بصورةِ حكمٍ خاصّ.

* * *

المثال الثاني عشر:

ويقول الله عز وجلّ فيها أيضاً:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ﴾.

أي: كذلك البيان الرفيع الذي بيّنّاه لسؤالكم عن الخمر والميسر وكشفنا لكم فيه أَنّ فيهما إثماً كبيراً وَمنافع يسيرةً للنّاس، وأَنَّ إثمهما أكبر من نفعهما.

وكذلِكَ البيان الذي بيّنّاه جواباً لسؤالكم عمّاذا تنفقون.

يبيّن الله لكم الآيات، أي: العلامات التي تستدلّون منها على أحكام الحظر، فحين يكون إثم الشيء أكبر من نفعه فإنّ عليكم أن تمتنعوا عنه، فالمطلوب منكم أن تتفكّرُوا، وتزنوا الأشياء بميزان المنفعة والمضرّة، فتناوُل ما فيه مضرة، أو عمل ما فيه مضرة، هو في حكم الشرع «إثم».

ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿لعلكم تتفكّرُون﴾ وَجاء بعده ﴿في الدنيا والآخرة﴾ بياناً لمجال التفكّر، وهي مصالح الدنيا ومطالب الآخرة، أي ما يحقق السعادة، ويرضي الله عزّ وجلّ.

وكان ظاهر المقابلة يقتضي أن يقال: فيهما ضرر كبير ومنافع للناس وضررهما أكبر من نفعهما.

ولكنّ المراد إعلامنا بأنّ ما فيه ضرر يكون في استعماله أو القيام به إثم، واختصاراً في التعبير وضع الإثم مكان لفظ الضرر، لما بينهما من المساواة في الماصدق، فكل ما فيه ضرر فيه إثم، ولأنّ الضرر علة في الحكم على الشيء شرعاً بالإثم، وهذا من روائع الإيجاز القرآني، بالاكتفاء بذكر اللازم عن ذكر الملزوم.

أمّا المنافع التي تقتضي الإباحة، فهي ضئيلة لا تقوىٰ على معادلة الضرر الذي يلزم عنه في حكم الشرع الإثم.

وأمّا السؤال عمّاذا ينفقون؟ وجوابه: الْعَفْوَ. أي: ما تيسَّر، وسَهُل عليكم دفعه، أو ما زاد عن الحاجة، وهو جواب يستدعي التفكّر، فالمؤمن العاقل الحريص على درجة الكمال يرى العفو ما زاد عن الحاجة، أمّا الحريص على أداء الواجب فقط، فيرى العفو ما تيسّر له وسهل عليه بذله، فيترخّص، والذي يكون بينهما يرى العفو هو ما تطيق نفسه بذله.

وقد أعطى هذا النصّ منهجاً للمتفكّرين في أحكام ما يستجدّ من أمور، قياساً على ما تقرّر في جواب السؤالين الواردين فيه، بعد التفكّر والبحث.

* * *

المثال الثالث عشر:

ويقول الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

أي: كذلك البيان الذي بيّنه الله لكم في هذا النصّ يُبَيِّنُ لكم سائِر الأحكام لتعقلوها، أي: لتُمَسِّكُوا بها، وتعقدوها فيكم كما يُعْقَدُ العقال، فتَحفظُوها وتَعْملُوا بها.

* * *

المثال الرابع عشر:

ويقول الله عزّ وجلّ فيها أيضاً بعد الحث على الإنفاق في سبيل الله في عدّة آيات، مع بيان ما يجب على المنفق، وآداب الإنفاق، ومحبطات أجره:

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

أي: كذلك البيان التفصيلي الوارد في الآيات، يبيّن الله لكم سائر الآيات، أي: علامات أسس الأحكام الدينيّة، لتقيسوا عليها قياساً مستنداً إلى التفكر، والتفكر هو إعمال الفكر بتكرار ورويّة وتعمّق، لاستنباط أحكام المستجدات، وما لا تجدون له نصّاً صريحاً.

انتهى ما في سورة (البقرة) من لفظة [كذلك].

• • •



القاعدة الأربعون

«حول القراءات العشر»[1]

(١)

مقدمة حول القراءات

ثبت لدى العلماء الحفاظ المتقنين لتلقّي القرآن المجيد بالأسانيد المتصلة، تواتر كلّ كلمة وكلّ حرف وكلّ سورة بترتيب آياتها، مع ضبط النطق لمخارج الحروف وصفاتها وأدائها، وكلّ ما عُرف عند العلماء القرّاء المقرئين بالقراءات العشر، كلّ ذلك قطعيّ الثبوت متواتر.

والقراءات العشر روايات من الأداء لنطق الحروف والكلمات القرآنية، والوجوه المنزلة عليها، ورواياتٌ لما نُزِّل من القرآن على أكثر من وجه يدلُّ دلالة مقصودة في التنزيل على أكثر من معنى، أو يحقق أكثر من غرضٍ بياني يتصل بإعجاز القرآن ذي الوجوه المختلفة، استغناءً بذلك التغيير الجزئي عن إنزال آيات كاملات لبيان المعنى الذي يضيفه التغيير الجزئي في النصّ الواحد، أو لتحقيق الغرض البيانيّ الذي يتصل بإعجاز القرآن المجيد.

وهذه القراءات العشر متواترات كما أثبت ذلك كثير من المحقّقين المختصّين

---

(١) عرضت هذه القاعدة على الأستاذ الدكتور «عبد الفتاح إسماعيل شلبي» المشتغل بعلم القراءات، والمهتم بنشر كتب التراث من كتب الأئمة المقرئين، وقد أفدت من ملاحظاته القيمة جزاه الله خيراً.

بهذا العلم، وكثير من علماء الفقه وأصوله، وقد صرّح الإمام ابن السبكي بتواترها جميعاً في كتابه «منع الموانع» وقال: إنّ القول بعدم تواترها في غاية السقوط.

ويرى فريق أنّ القراءات السبعة متواترات، أما ما انفرد به الثلاثة (يعقوب، وأبو جعفر، وخلف) رواة القراءات الثلاث فوق السبع، فصحيح تجوز قراءة القرآن به، وما وراء ذلك شاذٌّ لا يُقرأ به القرآن.

وقد أُخذت هذه القراءات العشر بالتلَقيّ مع الإسناد عن أئمة عشرة أعلام حفّاظ متقنين مجوّدين، شهد لهم بإمامتهم سائر القرّاء الكثيرون الذين لا يُحْصَوْن، وأقرّوا قراءاتهم التي كانوا يُلَقِّنُونها لمن يتلقّاها عنهم، فهي متواترة عنهم وعن غيرهم، إلى رسول الله ﷺ، وقد برزت أسماؤهم من بين سائر القراء في أمصارهم بعصورهم، ودُوِّنَتْ بعد ذلك قراءاتهم، وشهد لهم أعلام القرّاء بعدهم بكمال الضبط والحفظ وإتقان الأداء والدّقة المتناهية في ضبط كل كبير وصغير، من آية، أو كلمة، أو حرف، أو نطق، أو مدّ، أو إمالة، أو لهجة، أو فاصلة، أو وقف، أو وصل، أو سكت خفيف أو متوسط أو أكثر من ذلك، حتى ضمّ الشفتين من غير صوت، وكذلك الغنة والإخفاء، والنسبة الزمنية لكلّ واحد من ذلك، ونسبته من الشدّة والضعف والترقيق والتفخيم، والطول والقصر، وغير ذلك ممّا يستهين به الرواة للنصوص الأخرى، مهما كانت في نظر الناس ذات قيمة.

فدلّت هذه العناية البالغة الشديدة في ضبط تلقي روايات القرآن المجيد التي تناولت كلّ ذلك على أنّ مضمونه من الكلمات الحاملات للمعاني المراد بيانها للناس، قد حفظها الله عزّ وجلّ بقرّاء كتابه على تعاقب الأجيال والعصور، وتلقّيهم له متعلّمين عن معلّمين ثقات مع الحفظ التامّ، والضبط التامّ بالرسم الذي رسم به منذ عصر التنزيل، فليس في القرآن المجيد حرف زائد، ولا حرف ناقص عما أنزل الله عزّ وجلّ على رسوله، ولا يتمّ إيمان المسلم المؤمن إلّا باعتقاد ذلك.

وقد حقق الله بذلك وعده الذي قطعه على نفسه في آية من القرآن نفسه،

إذ قال تعالى في سورة (الحجر /١٥ مصحف /٥٤ نـزول) وهي من أواسط التنزيـل المكي:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾.

وكـان بروز أسمـاء هؤلاء الأئمة العشـرة في أمصـارهم مـا بين القـرنين الأول والثاني الهجريين.

واختير من الرواة عنهم لدى تدوين قراءاتهم راويان لكلّ واحد منهم، فبـرزت أسماؤهم من بين سائر الرواة، وهؤلاء الـرواة عنهم هم من الأعلام المقـرئين ما بين القرنين الثاني والثالث الهجريَّيْن، كما هو مبين في مقولة التعريف بهم الملحقة بهذه القاعدة.

وقَصَـدَ هؤلاء الأئمةَ والـرّواةَ لقراءاتهم الـداني والقـاصي لتلقّي ضبطِ القـرآن المجيد عنهم، لإمامتهم وفضلهم، في هذا العلم الرّباني العظيم، المتصـل بكتاب الله المنزّل للناس أجمعين، والقائم على ضبط سُـوَرِه وآياته وكلماته وحروفه ونـطق كل ذلك على وفق مـا أُنزل على رسـول الله ﷺ، وتلقاه عنـه أصحابـه سماعـاً منه، وتعلُّماً، وربّما أقرّ بعضهم على النطق به وفق لهجات أدائهم للكلام المنزل، وَطِبْقَ ما أنزل من ذلك عليه، وتمت كتابة القرآن كلّه بإمـلائه صلوات الله عليـه على كُتَّابٍ متقنين من أصحابه، عرفوا بِكُتَّاب الوحي.

وقد ثبت في الصحيـح واشتهر أنّ القـرآن قد أنـزل على سبعة أحـرف، أي: أنزل الإذنُ بتلاوة القرآن المنزل من عند الله على سبعة وجوه من لهجات العرب في أداء نطقهم للكلمات، وكان الرسول ﷺ هو الذي يأذن بنطق اللهجة أو يُلقّنها للقرآن المنزّل.

أمّـا اللّهجـة الأمّ فهي لهجـة قـريش، إذْ أُنـزل مـع بـدايـة التنـزيـل بلسـانهم ولهجتهم، على الرسول الذي هو منهم، ولسانُه من لسانهم.

وفيما يلي طائفة من الأحاديث المبينة لهذه الحقيقة:

١ ـ روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عبّاس أنّه قال: قال رسولُ الله ﷺ.

«أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَىٰ حُرُوفٍ فَرَاجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُني حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ سَبْعَةِ أحرف».

زاد مسلم: قال ابن شهاب: (بلغني أَنَّ تِلْكَ السَّبْعَةَ في الأمر الذي يكونُ واحداً، لا يختلف في حَلالٍ وَلَا حَرَام).

٢ ـ وروى البخاري ومسلم أيضاً (واللفظ للبخاري) أنّ عمر بن الخطاب قال: سمعتُ هشامَ بنَ حكيمٍ يَقْرأُ سورةَ «الفرقان» في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعتُ لقراءته، فإذا هُو يَقْرَؤُها على حروف كثيرة، لم يُقرِئْنِيها رسول الله ﷺ، فكدتُ أساورهُ[1] في الصلاة، فانتظرتُه حتى سلّم، ثمَّ لَبَّبْتُه بردائه أو بردائي فقلتُ:

من أقرأَكَ هذه السورة؟.

قال: أقرأنيها رسولُ الله ﷺ.

قلت له: كذَبتَ، فوالله إنّ رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورةَ التي سمعتك تقرؤها. فانطلقتُ أقودُه إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسولَ الله إنّي سمعتُ هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروفٍ لم تُقْرِئْنِيها، وأنتَ أقرأتني سورة «الفرقان».

فقال رسول الله ﷺ: «أَرْسِلْهُ يا عمر: اقْرأْ يَا هشام».

فقرأ هذه القراءة التي سمعتُهُ يَقرَؤها.

قال رسول الله ﷺ: «هكذا أُنْزِلَتْ».

ثمّ قال رسول الله ﷺ: «إنَّ هٰذا القرآن أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَاقْرَأوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ».

---

(١) أساوره: أي: أثب إليه مغاضباً مصارعاً مقاتلاً.

٣ ـ وروى مسلم عن أبيّ بن كعب، قال: كنتُ في المسجد، فدخَلَ رجلٌ يُصليّ، فقرأ قراءَةً أَنْكَرْتُها عليه، ثمّ دخلَ آخرُ، فقرأ قراءةً سوى قراءةِ صاحبه، فلمّا قضينَا الصلاةَ دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ؛ فقُلْتُ: إنّ هذا قرأ قراءةً أنكرتُها عليه، ودخَلَ آخرُ فقرأ سوى قراءةِ صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ، فقرآ، فحسَّنَ النبيُّ ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي مِنَ التكذيب ولا إذْ كنْتُ في الجاهلية.

فلمّا رأى رسولُ الله ﷺ ما قد غَشِيَنِي، ضَرَبَ في صَدْرِي، فَفِضْتُ عرقاً، وكأنّما أنْظُرُ إلى اللَّهِ عزّ وجلّ فرقاً، فقال لي:

«يَا أُبَيُّ، أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنِ اقْرَأِ الْقُرْآنَ عَلَىٰ حَرْفٍ، فَرَدَدْت إِلَيْهِ: أَنْ هَوِّنْ عَلَىٰ أُمَّتِي. فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ: اقْرَأْهُ عَلَىٰ حَرْفَيْنِ. فرددْتُ إِلَيْهِ: أَنْ هَوِّنْ عَلَىٰ أُمَّتِي. فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ: اقْرَأْهُ على سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، وَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتَهَا مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا. فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي. وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ، حتَّىٰ إِبْرَاهِيمُ ﷺ».

لقد كان الخاطر الذي تعرّض له «أُبيُّ بْنُ كعب» رضي الله عنه من نوع الشبهات التي قد تحدث في النفس قبل معرفة الحقيقة، فلما علم من الرسول ﷺ أنّ القرآن قد أنزل من عند الله على سبعة أحرف زالت الشبهة عن نفسه، ووضح الحقّ له.

ويمكن أن تكون الشبهة كما يلي: كيف يكون هذا الكلام المنزّل من عند الله عرضةً لأن يقرأَهُ النّاسُ على وجوه مختلفة؟ ظنّاً منه أنهم يقرؤونه عليها من عند أنفسهم، دون تلَقٍّ من الرَّسُولِ، أو عرضٍ عليه وإقرار منه لِلَهْجَةِ الأداء التي يؤدّونها. فلمّا علم أنّ الأمر غير متروك لهم زالت عنه الشبهة، وأخذ يتعلّم الوجوه، ويُعلِّمُها.

٤ ـ وروى مسلم أيضاً عن أُبَـيّ بنْ كعب، أنّ النبـي ﷺ كان عِنْـدَ أَضَاةِ[١] بني غِفَار قال:

«فَـأَتَاهُ جِبْـرِيلُ عليـه السلام فقـال: إنَّ اللَّهَ يأمُـرُكَ أَنْ تَقْرَأ أُمَّتُـكَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ حَرْفٍ».

فقال: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ».

ثُمَّ أتاه الثانيةَ فَقَال: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ حَرْفَيْن».

فقال: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِك».

ثُمّ جاءه الثالثة فقال: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَحْرُفٍ».

فقال: أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أَمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ».

ثمّ جـاءه الرابعـة فقال: «إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُـرُكَ أَنْ تَقْـرَأَ أُمَّتُـكَ الْقُـرْآنَ عَلَىٰ سَبْعَـةِ أَحْرُفٍ، فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَؤُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا».

٥ ـ وروى التـرمـذي عن أبـي بن كعب أيضـاً قـال: لَقِيَ رســولُ اللَّهَ ﷺ جبريلَ عِنْدَ أَحْجَارِ الْمَرْوَة. قـال: فقال رسول الله ﷺ لجبريل:

«إِنِيّ بُعِثْتُ إِلَىٰ أُمَّةٍ أُمِّيينَ، فِيهِمُ الشَّيْـخُ الْفَانِي، وَالْعَجُوزُ الكَبِيرَةُ، والغلام».

قال: «فَمُرْهُمْ فَلْيَقْرَءُوا الْقُرْآنَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرَف».

قال الترمذي: حسن صحيـح.

وفي لفظ: «فَمَنْ قَرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهَا فَهُوَ كَما قَرَأ».

وفي لفظ حـذيفـة: «فقلتُ: يـا جبـريـلُ، إنّي أُرْسِلْتُ إِلَىٰ أُمَّـةٍ أُمِّيَّـةٍ، فِيهِمُ الرَّجُلُ، والمرأَةُ، والْجَارِيَةُ، وَالشَّيْـخُ الْفَانِي الّذِي لَمْ يَقْرَأْ كِتَاباً قطّ، قَالَ: إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفِ».

---

(١) أضاة بني غفار: مستنقـع ماءٍ بموضـع في المدينة المنورة ينسب إلى بني غفار لأنهم نزلوا عنده.

٦ ــ وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص، عن عمرو، أنّ رجُلًا قرأ آيةً من القرآن، فقال له عَمْرو، إنّما هي كذا وكذا، فذكر ذلك للنبيّ ﷺ، فقال:

«إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَأَيَّ ذَلِكَ قَرَأْتُمْ أَصَبْتُمْ، فَلَا تُمَارُوا».

فلا تُمارُوا: أي: فلا تجادلوا، ولا تشكّوا في الحروف التي أُنزل القرآنُ عليها.

٧ ــ وروى الحاكم وابن حبّان عن ابن مسعود، قال: (أقرأني رسولُ الله ﷺ سورةً من آل حَم، فَرُحْتُ إلى المسجد، فقلْتُ لرجل: اقْرَأْها. فإذا هو يَقْرَؤها حُروفاً ما أقرؤها. فقال: أقرَأنيها رسولُ اللَّهِ ﷺ.

فانْطَلَقْنَا إلى رسول الله ﷺ، فأخبرناهُ، فَتَغَيَّرَ وجْهُهُ، وقال: «إِنَّما أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ الاخْتِلَافُ».

ثُمَّ أسرَّ إِلَىٰ عَلِيٍّ شيئاً. فقال عليٌّ: إنَّ رسول الله ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ كُلُّ رجُلٍ مِنْكُمْ كَمَا عُلِّمَ.

قال: فانْطَلَقْنَا وَكُلُّ رَجُلٍ يَقْرَأُ حُرُوفاً لا يَقْرَؤها صاحبه).

فدلّ هذا الحديث على أنّ الحروف المختلفة التي كان الصحابةُ يقرؤونها قد كانُوا يُعلَّمُونَها تعليماً من الرسول ﷺ.

٨ ــ وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود أنّه سمع رجلًا يقرأ آية سَمِعَ النبيّ ﷺ يقرأ خلافها.

قال: فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فانْطَلَقْتُ به إلى النبي ﷺ فقال: «كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ، فَاقْرَأ».

قال شعبة أحد رواة هذا الحديث: (أكبر علمي أن النبيّ ﷺ قال: «فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَأُهْلِكُوا»).

٩ ــ وروى الطبراني عن زيد بن أرقم، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أقرأني ابن مسعودٍ سورةً أَقْرَأنيها زيد بن ثابت وأَقْرَأَنيها أُبَيّ بْنُ كَعْبٍ فَاخْتَلَفَتْ قِرَاءَتُهُمْ، فَبِقِرَاءَةِ أَيِّهِمْ آخُذُ؟

فسكَتَ رسولُ الله ﷺ وعليٌّ إلى جنبه، فقال عليٌّ: «لِيَقْرَأْ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ كَمَا عُلِّمَ، فَإِنَّهُ حَسَنٌ جَمِيلٌ».

١٠ ــ وروى الحافظ أبو يعلىٰ في مسنده الكبير أنّ عثمان رضي الله عنه قال يوماً وهو على المنبر:

(أُذَكِّرُ اللَّهَ رَجُلاً سَمِعَ النبيّ ﷺ قال:

«إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ كُلُّها شَافٍ كافٍ» لَمَا قامَ.

فقاموا حتّىٰ لم يُحْصَوْا، فَشَهِدُوا أنّ رسول الله ﷺ قال:

«أُنْزِل الْقُرْآنُ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ كُلُّهَا شَافٍ كافٍ».

فقال عثمان: وأَنَا أَشْهَدُ مَعَهُمْ).

فمن جملة هذه الأحاديث نستطيع استخلاص ما يلي:

أوّلاً: أنّ القرآن قد أُنْزل قطعاً على سبعة أحرف، وحرف الشيء في اللّغة طرفه، والقراءات التسهيلية التي اشتملت عليها القراءات العشر المتواترات هي من هذه الأحرف حتماً، فلا حاجة إلى طرح الاحتمالات المختلفة القائمة على مجرّد التحليل الذهني لتفسير المراد من كلمة الأحرف في الأحاديث.

ثانياً: أنّ من هذه الأحرف ما كان الغرض منه التيسير على ناطقي العربية إبّان التنزيل بلهجاتٍ مختلفات، وعدم تكليفهم أن ينطقوها في القرآن بلهجة قريش.

وأنّ هذه الوجوه من الأداء ينبغي أن لا تؤثّر في اختلاف المعنى المقصود في أصل التنزيل.

ثالثاً: أنّ ما كان من هذه الأحرف المختلفة مؤثراً في الدّلالة على وجوه مختلفة من المعاني أو وجوه بيانية إعجازية مختلفة فهو من القرآن المقصود تنزيلُه ابتداءً قبل أن يسأل الرسول ﷺ ربَّه التيسير على أمته الأميّة، وهو جميعه موجود قطعاً في مجموع القراءات العشر المتواترة، لأنّها هي المحفوظة بالتواتر، وبها تحقَّقَ وعد الله عزّ وجل بحفظ كتابه.

رابعاً: أنّ المراد من السبعة الأحرف جملةُ وجوه لفظيّة مختلفة أُنْزِلَ عليها مجموع القرآن، أي: لو صُنِّفت هذه الوجوه المختلفة في كلّيات عامّة، ووضعت في جداول، لم تخرُج هذه الجداول التصنيفيّة عن سبعة.

وليست كلّ كلمة أو كلّ آية فيها كلُّ هذه الوجوه، أو كلّ هذه الحروف، فقد يكون الكثير من القرآن ليس فيه إلاّ حرف واحد، لعدم الحاجة النطقية، أو الفكرية، أو البيانية الإعجازية، لأكثر منه. وقد يكون في الكلمة حرفان، أي: وجهان، أو ثلاثة، وربّما أكثر، لكن هذه الحروف تدخل لدى التصنيف في أحد هذه الجداول للحروف السبعة.

قال ابن حجر في فتح الباري، لدى شرح المعنى من إنزال القرآن على سبعة أحرف[1].

«أي: على سبعة أوجه، يجوز أن يُقرأ بكل وجه منها، وليس المراد أنّ كلّ كلمة ولا جملة منه تقرأ على سبعة أوجه، بل المراد أن غاية ما انتهىٰ إليه عدد القراءات في الكلمة الواحدة إلى سبعة...».

---

(1) انظر «فتح الباري» لابن حجر، الجزء التاسع (من ص ٢٣ إلى ٣٨).

قال: «وقيل: ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد، بل المراد التسهيل والتيسير».

ثم عرض آراء العلماء الكثيرة في تفسير المراد من الأحرف السبعة، وهي جميعها ترجع إلى محض الرأي الذي لا تؤيّده حجّة، وما قرّره في أوّل كلامه هو الذي يطمئن إليه الفكر والقلب.

أقول: أمّا الاهتداء إلى تعيين هذه الكليّات السبع فيتطلّب سبراً شاملاً وفتحاً ربّانياً، وقد تساعد الوسائل المستحدثة على ذلك، أو ما سيُبْتكرُ مِنْ وسائل في المستقبل، وبيان الرسول ﷺ في ذلك حقّ، سواء عرفنا هذه الجداول أو لم نعرفها.

خامساً: أنّ القراءات العشر المتواترة روايات لوجوه اشتملت على القرآن المنزّل للذكر حتماً، وأنّ القراءة الواحدة منها لا تعني أنها حرف أو على حرف واحدٍ من الحروف السبعة، فقد تجمع الرواية الواحدة لقارىء من القرّاء العشرة أكثر من حرف في جملة الآيات والكلمات والسّور وحروف الهجاء القرآنية، فأيّ قراءة منها لا تمثل فقط حرفاً واحداً من الحروف السبعة، إذْ قد يتداخل الحرف الواحد منها في عدد من القراءات دون تمييز، وقد تجتمع عدّة حروف منها في قراءة واحدة.

وبناء عليه فليس واحدٌ من هذه الحروف السبعة مختصّاً برواية واحدة من روايات القراءات العشر، وليست قراءة من القراءات العشر مختصة بحرف واحد من الحروف السبعة.

وتتوهَّمُ العامّة وصغار طلاب العلم أنّ كلّ قراءة من القراءات السبع التي دُوّنت[1]، ونظمها الإمام الشاطبي في منظومته «حرز الأماني» المشهورة بالشاطبية نسبة إليه، تمثل حرفاً من الحروف السبعة التي جاء ذكرها في الأحاديث النبوية، وقد حصل الوهم بسبب الاقتصار على سبعة قُرّاء، وقراءاتهم السبعة قبل إضافة

---

(١) في كتاب التيسير للداني.

الثلاث الأخريات إليها، فاختلطت في أذهان العامة القراءات السبع وهي روايات لوجوه هي في جملتها من ضمن الحروف السبعة، بالحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها.

سادساً: ما في القراءات العشر المتواترات من وجه الأداء اللّفظيّ الذي لا يختلف به معنى، ولا تختلف به صورة بيانية بلاغية ذاتُ مضمونٍ متصل بعنصر من عناصر إعجاز القرآن هو فيما ظهر لي من الحروف التي أنزلت للتهوين والتسهيل على ألسنة جملة من قبائل العرب، مراعاةً للهجاتهم، التي يصعب عليهم تطويعُهَا للسانِ قريشٍ ولهجتهم، وتيسيراً عليهم.

وقد تتضمّن هذه وجوهاً إعرابيّةً وغير ذلك ممّا فيه معنى توحيدِ قبائل العرب في لسان واحد يمثّل لغاتهم، ولو في أمثلة قليلة.

أمّا ما يتضمَّنُ منها معنى مقصوداً أو بياناً مقصوداً متّصلاً بعنصر من عناصر إعجاز القرآن فهو من القرآن الأمّ المنزّل للذكر، والذي تكفّل الله بحفظه، وهو لا يدخل أساساً في غرض التهوين والتسهيل على ألسنة قبائل العرب، وليس من المعقول أن يكون للتهوين والتسهيل وهو ذو غرض فكري أو بياني مقصود ابتداءً.

فاقتضى هذا الأمر دراسة تعتمد على السبر للقراءات العشر، فيما يعرف عند القرّاء بعبارة «الفرش» أي: ما ليس من القراءات هو من قبيل اللّهجات والأداء في نطق الكلام واختلاف اللغة مع اتحاد المعنى، أما ما كان من قبيل اللهجات والأداء في نطق الكلام كالإدغام والإمالة والمدود والتقليل والتسهيل والنقل والإبدال ونحو ذلك، وما كان من قبيل اختلاف لغات قبائل العرب مع اتحاد المعنى، فليس لموضوع هذا الكتاب غرض فيه، لأنّه لا يؤثر على التدبّر بشيء، ولا علاقة لموضوع هذا الكتاب بتخريج القراءات ولا بتوجيهها. وإنما الهدف التمهيد للقاعدة التي تلفت نظر المتدبّر إلى قضيّة البحث عن الغرض الفكري أو البياني أو غير ذلك من اختلاف القراءات.

وقد وضعت في ملحق هذه القاعدة نموذجاً للفرش في القرآن، وهو جدول الفرش الموجود في سورتي «البقرة» و «آل عمران». وأشير إلى أنّ من الفرش ما هو من قبيل اختلاف لغات قبائل العرب مع اتحاد المعنى، مع إيراد نموذج يسير ممّا هو من قبيل الأداء في النطق الذي نلاحظ فيه غرض التيسير على ألسنة طائفة من قبائل العرب في لهجات ألسنتهم، من «الفاتحة» وأوائل سورة «البقرة» وبعض ما هو مُنْبَثٌ في الفرشيات.

فمما هو من قبيل الأداء للتيسير على الناطق العربي إبّان تنزيل القرآن ما يلي:

١ ــ نطق لفظ «الصراط» بالصّاد وبالسين.

٢ ــ ضمُّ ميم الجمع مع وصلها بواو في اللّفظ حالة وصل الكلمة بما بعدها، مثل: ﴿عَلَيْهِمُو وَلَا الضَّالين﴾ ــ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمُو يُنْفِقُونَ﴾.

٣ ــ ضمُّ هاء الضمير في نحو ﴿عَليهُمْ ــ إِلَيْهُمْ ــ لَدَيْهُمْ﴾.

٤ ــ إبدال همزة مثل: ﴿يؤمنون﴾ واواً مدّيَّةً ساكنة ﴿يُومِنُونَ﴾.

٥ ــ تفخيم كلّ لام مفتوحة إذا وقعت بعد «صاد أو طاء أو ظاء» مثل: ﴿الصَّلَاة ــ الطَّلَاق ــ وَظِلَالُهُمْ﴾.

حذف الهمزة المتحرّكة الواقعة بعد ساكن صحيح، ونقل حركتها إلى ما قبلها، مثل: [بالآخرة] تلفظ [بِلَاخِرَة].

٧ ــ الوقوف بهاء السكت على مثل: [فَسَوَّاهُنَّ] إذ تُنْطَقُ [فَسَوَّاهُنَّهْ].

٨ ــ ترقيق الراء في نحو [الْخَاسِرُون].

٩ ــ إسكان هاء الضمير في نحو [وَهْوَ] و [لَهْوَ] و [فَهْوَ].

١٠ ــ إثبات ياء المتكلم أو حذفها، مثل: [فاتَّقُونِ] و[فاتَّقوني]. ومثل: [فَارْهَبُون] و[فَارْهَبُوني]، وإسكانها أو فتحها، مثل [فَاذكُرُونِي] و[فَاذْكُرُونِيَ] ومثل: [مِني] و[مِنِّيَ].

١١ ــ حذف الهمزة في نحو [والصَّابئين] إذْ تنطق [وَالصَّابين].

١٢ ــ نُطق لفظ [النبيّين] بوجهين: [النَّبِيّنَ] و[النَّبِيئِينَ].

١٣ ــ نطق لفظ [القدس] بضمّ الدال وإسكانها.

١٤ ــ جمع لفظ «أَسِير» على [أُسَارَىٰ] و[أَسْرَىٰ].

١٥ ــ نطق اسم «جبريل» بوجوه: [جِبْرِيل] و[جَبْرِيل] و[جَبْرَئِل] و[جَبْرَئِيل].

١٦ ــ نطق لفظ «ميكائيل» بوجوه: [مِيكَال] و[مِيكَائِل] و[مِيكَائِيل].

١٧ ــ نطق لفظ «رؤوف» بوجهين: [رَؤُوف] بواو بعد الهمزة و[رَؤُف] بغير واو، فهما وجهان متكافئان.

١٨ ــ نطق لفظ [خُطُوات] بضم الطاء وإسكانها.

١٩ ــ نطق لفظ [الميتة] بتشديد الياء وإسكانها.

٢٠ ــ نطق لفظ [السَّلم] بفتح السين وكسرها.

٢١ ــ نطق لفظ [البُيُوت] بضم الباء وكسرها [البِيُوت].

٢٢ ــ نطق لفظ [عسيتم] بكسر السين ومدّ الياء، وفتح السين وإسكان الياء.

٢٣ ــ إثبات ألف [أنَا] وحذفها [أَنَ] في النطق فقط، أمّا في الخط فتثبت دائماً، ونحو ذلك.

* * *

(٢)
القــاعــدة

على متـدبّر كتـاب الله أن يبحث عن المعاني وعن الصـور البيانيـة الموصـولة بإعجاز القرآن، التي تدلّ عليها وجوه القراءات المختلفة التي لا يظهر فيهـا بوضـوح أنّ الغرض من الاختلاف فيها مجرّد التهوين والتسهيل على ألسنة الناطقين العـرب، إبّان تنزيل القرآن، مراعاةً للهجاتهم المختلفة وقواعد ألسنتهم.

وعليه أن يعتمد في بحثه الجزئيّ لكلّ نصٍ على التدبّر المتأنيّ العميق، وفي بحثـه الكليّ التصنيفي على السّبر الشـامل، وأن لا يقتصـر على التقـاط أمثلة يعثـر عليها من هنا وهناك دون سَبْرٍ شاملٍ واستقراءٍ تام، فهذا الأمر قـد أصبـح بحمد الله ممكناً لمن يُريد أن يبذل جهداً وصبراً.

وقد سبرت القراءات المتواترة الواردة في سورة (البقرة) فظهر لي أنّ اختـلاف القراءات فيها ذاتَ المعاني أو الصور البيانية المختلفة تتضَمَّنُ الأغراض التالية:

الغرض الأول: التكامل الفكري، فمن اختـلاف القراءات في النصّ الـواحد مـا الغرض منـه تأديـة كلّ قـراءة لمعنى لا تؤديهِ القـراءة الأخرى، فتقـوم القـراءتـان أو الأكثـر مقـام تعـدّد الآيـات، وتؤديّ القـراءات المختلفـات تكـامـلاً في المعـاني المقصودة جميعاً.

الغرض الثاني: التكامل في الأداء البياني، كأن يُرَاعىٰ في النصّ توجيهـه مرّة بأسلوب الحديث عن الغائب، مثل: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِـلٍ عمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وتـوجيهُهُ مـرّة

أخرى بأسلوب الخطاب الْوِجَاهِيّ المباشر، مثل: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا كثير في القراءات.

وكأن يراعى في النصّ توجيهه بالبناء للمعلوم مرّةً، مثل: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكم﴾ وتَوْجِيهُه مرَّةً أُخْرَىٰ بالبناء لما لم يُذْكَرْ فاعله، مثل: ﴿يُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكم﴾ و﴿تُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾.

الغرض الثالث: التنويع في الأداء الفنّيّ الجمالي، مع ما قد يتضمّنُه من دلالات فكرية وبيانيّة.

مثل: جعل فعل الشرط بصيغة الفعل الماضي في قراءة، وجعله بصيغة الفعل المضارع في قراءة أخرى، نحو: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خيراً﴾ و﴿وَمَنْ يَطَّوَّعْ خَيْراً﴾.

ففي كلٍّ من القراءتين صيغة جماليّة قصَدَ التنزيل التنبيه عليها، واستخدامها باعتبارها عنصراً من عناصر الإعجاز الفنّي.

الغرض الرابع: إثباتُ وُجوهٍ عربيّةٍ متكافئة، فيما قَسَّمَهُ علماء العربية حين أرادوا ضبط هذه اللّغة بعد اختلاط الشعوب، إلى علوم اللغة، والنحو، والتصريف، والبلاغة (المعاني ــ والبيان ــ والبديع).

وجاء في التنزيل إثبات هذه الوجوه أمثلةً يُقاسُ عليها، وشاهداً دائماً على أنها من الوجوه الجائزة في العربية، وأنّه يحسُنُ استمرار استعمالها في وجوه الكلام العربي، مع ما تتضمّنه من تحقيق الأغراض الثلاثة الأُوَل.

- مثل الاختلاف اللّغوي في [خُطُوات] بضمّ الطاء، و[خُطْوات] بإسكان الطاء. وجمع لفظ «أسير» على [أَسْرىٰ] و[أُسَارىٰ].

- ومثل الوجوه النحوية في: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ برفع نون «فيكونُ». و[كُنْ فَيَكُونَ﴾ بنصب نون «فيكون». وفي: [فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ ولاَ جِدَالَ فِي الحجّ﴾

بفتح أواخر الكلمات الثلاث و [فَلاَ رَفَثُ وَلاَ فُسُوقُ وَلاَ جِدَالٌ فِي الحجّ﴾ بالضمّ مع التنوين للكلمات الثلاث و ﴿فَلاَ رَفَثٌ وَلاَ فُسُوقٌ وَلاَ جِدَالَ في الحجّ﴾ بالضمّ مع التنوين لبعضها، وبالفتح لبعضها.

● ومثل الاختلاف في التصريف في نحو: [وَعَدْنَا] و [وَاعَدْنا]. ونحو: [دَفْعُ] و [دِفَاعُ] ونحو: [يَطْهُرْنَ] و [يَطَّهَّرْنَ].

● ومثل الاختلاف في الوجوه البلاغية، كالوصْل والفصل، بذكر حرف العطف في قراءة، وحذفه في أخرىٰ نحو: ﴿وَقَالُوا: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾ بذكر حرف العطف قبل [قالوا] في قراءة، و ﴿قالُوا: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سبحانه﴾ في قراءة أخرى بحذف حرف العطف قبل [قالوا].

● ومثل استعمال اللَّفْظِ مفرداً في قراءة، وجمعاً في قراءة أخرى، نحو: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ في قراءة، و ﴿وأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ﴾ في قراءة أُخْرَىٰ.

وقد تتداخل الأغراض الأربعة أو بعضها في نصٍّ واحد، فيكون اختلاف القراءات فيه للتكامل الفكري، وللتكامل في الأداء البياني، وللتنويع في الأداء الفنّيّ الجمالي، ولإثبات وجوه عربية متكافئة.

وهذه الأغراض الأربعة يمكن اعتبارها إحدى وجوه الإعجاز في القرآن المجيد.

وفيما يلي دراسة تحليليّة للقراءات التي تشتمل على غرض أو أكثر من هذه الأغراض في سورة (البقرة).

* * *

(٣)

دراسة تحليلية للقراءات التي ليست لمجرّد التيسير على الناطق العربـي الموجودة في سورة البقرة

١ ــ قال الله عزّ وجلّ في وصف المنافقين:

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾.

في قراءة جمهور القرّاء.

﴿وَمَا يُخَادِعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

في قراءة نافـع وابن كثير وأبـي عمرو.

في هاتين القراءتين تكامل في الأداء البياني، وذلك لأنّ المنافقين يبذلـون كلّ ما يستطيعون لإخفاء هوّيتهم الحقيقية بأسلوبـي الخدع والمخادعة المبالـغ فيها.

لكنّ الله عـزّ وجـلّ كـاشف المنـافقين، وكـاشف كـلّ وسـائلهم في الخـدع والمخادعة، ومعلم رسوله بما يفعلون، فهم إذن هم المخدوعون.

إنهم في الحالة العادية التي لا يبالغون فيها بالمخـادعة، بـل يكتفون بـالخدع العادي، لا يخدعون إلاّ أنفسهم، فجاءت قراءة ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ﴾.

وهم حينمـا يبالغـون بالمخـادعة، لا يخـادعـون إلاَّ أنفسهم، فجـاءت قـراءة ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ﴾ الدالة بالصيغة على المبالغـة، لأنّ صيغة المشـاركة إذا لم يكن الواقـع يقتضي المشاركة، فهي للمبالغة.

ولم يأت في الفعل الأول من الآية قراءتان، بل اقتصر البيان على قراءة واحدة، هي ﴿يخادعون اللَّهَ والذين آمنوا﴾ اكتفاءً بما جاء في الفعل الثاني، فدلّ ذلك على أنهم [يَخْدَعُون] و[يخادعون] وأنهم حين يخدعون فإنهم لا يخدعون إلاّ أنفسهم. وأنهم حين يخادِعُونَ فإنَّهم لاَ يُخَادِعُون إلاَّ أنفسهم.

فتحقق بذلك التكامل البياني مع الإيجاز، والاكتفاء بنصّ واحد عن نصّين.

* * *

٢ ــ وقال الله عزّ وجلّ في وصف المنافقين أيضاً:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾.

قرأ الكوفيون (عاصم وحمزة والكسائي وخَلَف): [يَكْذِبُونَ] بفتح الياء وسكون الكاف وتخفيف الذال.

وقرأ باقي القرّاء: [يُكَذِّبُونَ] بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال.

في هاتين القراءتين تكامل فكري، وذلك لأنّ المنافقين يَكْذِبون بادّعائهم الإسلام ظاهراً، وهم كافرون في باطنهم، يُكَذِّبُونَ بالحقّ الذي أنزل من عند الله، ويُكذّبون الرّسول في رسالته.

لذلك فهم يعذّبون يوم الدين بعذاب أليم بسبب أنّهم يَكْذِبُون، وبسبب أنَّهُم يُكَذِّبُون. فجاءت القراءتان دالّتين على الفكرتين، وتحقق بذلك التكامل الفكري، مع الإيجاز، والاكتفاء بنصٍّ واحدٍ عن نصَّيْن.

* * *

٣ ــ وقال الله عزّ وجلّ خطاباً للكافرين فيها:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

● قرأ جمهور القرّاء [تُرْجَعُونَ] بالبناء لمَا لم يُذْكر فاعله.

● وقرأ «يعقوب» البصري [تَرْجِعونَ] بالبناء للمعلوم.

وفي هاتين القراءتين تكامل بياني، فَهُمْ بأمر الله التكويني يُرْجَعُونَ إليه ليُحَاسبهم ويجازيَهم في الحياة الأخرى، وهم لا يملكون إلاّ أن يُطَاوِعُوا أمر الله التكويني فَيَرْجِعُونَ إليه سبحانه، ويَلْقَوْنَ عنده حسابهم وجزاءهم.

فتكاملت القراءتان في الأداء البياني، مع أنّ كلاّ منهما تستلزم ما دلت عليه الأخرى لزوماً فكريّاً.

ونظائر هاتين القراءتين كثيرة في القرآن المجيد.

* * *

٤ ــ وقال الله عزّ وجل في سياق ذكر قصة آدم في سورة (البقرة) أيضاً:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

● قرأ جمهور القرّاء برفع «آدَمُ» ونصب «كَلِمَاتٍ».

● وقرأ ابن كثير «المكيّ» بنصب «آدمَ» ورفع «كلماتٌ».

وفي هاتين القراءتين تكامل بياني، وذلك لأنّ التّلقّي استقبال، وهو يكون من جهتين، وكلّ من «آدم» و«الكلمات» مستَقْبِل «اسم فاعل» ومُسْتَقْبَل «اسم مفعول» إذ الكلمات التي أُنزِلَتْ عليه قد استقبلها واستقبلته، أي: صار بينهما تقابل، فجاءت القراءتان دالّتين على هٰذين المعنيين الْمُتَلازمين غالباً، ولكنّ إرادة التنصيص عليهما، مع تكريم آدم عليه السلام بأنّ كلمات الله تتلقّاه، قد جعل من الحكمة في البيان إنزال القراءتين، فتكاملتا في الأداء البياني، مع ما في القراءة الثانية من إضافة فكريّة.

* * *

٥ ــ وقال الله عزّ وجل أيضاً فيها:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

● قرأ جمهور القرّاء [فَلاَ خَوْفٌ] بالرفع والتنوين.

● وقرأ يعقوب [فَلاَ خَوْفَ] بفتح الفاء دون تنوين، فلفظ «خوفَ» مبنيّ على الفتح في محل نصب على أنه اسم «لا» إذ هي تعمل عمل «إنّ» وقد تكرّرت «لا» فجازت فيها الوجوه الخمسة المعروفة عند النحاة.

وفي هاتين القراءتين إثبات وجهين نحويين متكافئين، مع ما في قراءة الفتح من التنصيص على نفي كلّ أفراد الجنس، وهو غرض بيانيٌّ يقصد.

ونظير ما جاء في هذه القراءة ما جاء من قراءات في قول الله عزّ وجل فيها أيضاً:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ... ﴿١٩٧﴾﴾.

فقد جاء في هذه الآية ثلاث قراءات:

● قرأ بفتح الثاء والقاف واللاّم أكثر القراء.

● وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب برفع الثاء والقاف مع التنوين، وبفتح اللاّم.

● وقرأ أبو جعفر برفع الثاء والقاف واللام مع التنوين فيها.

وهي جميعاً وجوه نحوية جائزة.

* * *

٦ ـ وقال الله عزّ وجل فيها:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾.

● قرأ جمهور القرّاء بحذف ياء المتكلم في [فَارْهَبُونِ] وفي [فَاتَّقُونِ].

● وقرأ يعقوب بإثبات ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً فيهما [فَارْهَبُونِي] و[فَاتَّقُونِي].

وفي هاتين القراءتين إثبات وجهين لغويين متكافئين، لكن حذفها أكثر إيجازاً في اللفظ، أمّا إثباتها في قراءة يعقوب فدليل على المحذوف في قراءة سائر القرّاء، والإثبات هو الأصل.

* * *

٧ ـ وقال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة) أيضاً خطاباً لبني إسرائيل:

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

● قرأ ابن كثير «المكي» وأبو عمرو ويعقوب «البصريّان»: [وَلاَ تُقْبَلُ] بالتاء، على التّأنيث.

● وقرأ باقي القرّاء [وَلاَ يُقْبَلُ] بالياء على التذكير.

وهما وجهان عربيان متكافئان، لأنّ نائب الفاعل لهذا الفعل وهو [شفاعة] مجازيُّ التأنيث، والفعل معه يذكّر ويؤنث لغة، ويُحَسّن التذكير وجود الفاصل بين الفعل وبينه.

* * *

٨ ــ وقال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لبني إسرائيل أيضاً:

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾.

- قرأ أبو جعفر، وأبو عمرو، ويعقوب «وَعَدْنَا» بصيغة «فَعَلْنَا».
- وقرأ باقي القرّاء «واعدنا» بصيغة المشاركة «فاعلنا».

ونظيره قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف ٧):

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً. . . ﴿١٤٢﴾﴾.

ففيه القراءتان المذكورتان في آية البقرة.

وكذلك في الآية (٨٠) من سورة (طه ٢٠): [وَوَاعَدْناكُمْ] و[وَعَدْنَاكُمْ] خطاباً لبني إسرائيل.

ففي هاتين القراءتين في النصوص الثلاثة تكامل بيانيٌّ وفكري، وذلك لأنّ الله عزّ وجلّ وعَدَ مُوسىٰ أوّلاً أن يناجيه بجانب الطور، وتمّ التواعد على اللّقاء في الزمان والمكان المحدّدَين، ونقل موسى هذا الوعد والتواعد إلى قومه، فأبلغهم ما جرى، واختار موسى عليه السلام صفوة قومه لحضور الميقات فوجدهم سبعين رجلًا، وهم في الحقيقة قومه المؤمنون الصادقون، أما سائر قومه فأعداد لا وزن لهم استطاع أن يعبث بعقولهم ونفوسهم السامري فعبدوا العجل، فكان الوعد، والتواعد، مع موسَىٰ ومع قومه، فجاءت النصوص الثلاثة مُبَيِّنَةً للوعد والتواعد مع موسى ومع قومه.

* * *

٩ ــ وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً يقصّ علينا قصة بني إسرائيل:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

● قرأ نافع وأبو جعفر: ﴿يُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بالياء والبناء لما لم يُذْكر فاعله، و[خطاياكم] نائب فاعل.

● وقرأ ابن عامر «الشامي»: ﴿تُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بالتاء الفوقية وبالبناء لما لم يذكر فاعله. و[خطاياكم] نائب فاعل.

● وقرأ باقي القرّاء ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بنون المتكلّم وبالبناء لما ذُكر فاعله، والفاعل ضمير مستتر وجوباً.

ففي [يُغْفَرْ] و [تُغْفَرْ] وجهان عربيان متكافئان، لأنّ [خطاياكم] مجازيُّ التأنيث.

وفي البناء لما لم يُذْكَرْ فاعله، ولما ذُكر فاعله تكامل بياني، وصيغة المبني لما لم يذكر فاعله معلوم فيها أنّ الغافر هو الله بدليل النصوص القرآنية الكثيرة، وجاءت القراءة الثانية مصرّحة بفاعل المغفرة، وهو المتكلم مُنْزِلُ القرآن تبارَكَ وتعالى.

* * *

١٠ ـ وقال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لبني إسرائيل:

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

● قرأ ابن كثير «المكي»: [يَعْمَلُونَ] بياء الغيبة.

● وقرأ باقي القرّاء: [تَعْمَلُونَ] بتاء الخطاب.

ونظير هذه الآية القراءتان في الآية (١٤٤) والآية (١٤٩) من سورة (البقرة) مع اختلاف القرّاء.

ونظائر هاتين القراتين كثيرة في القرآن المجيد.

وفي الخطاب والغيبة تكامل فكريٌّ وبياني:

● أمّا التكامل الفكري: فهو قصدُ شمول النصّ المخاطبين به، وغيرهم من كل خلق الله.

● وأمّا التكامل البياني: ففي تاء الخطاب يخاطب الله عزّ وجل من يستمع إليه من المقصودين به، وفي ياء الغيبة يتحدّث الله عزّ وجل عن البعيدين عن استماع آيات الله فكريّاًونفسيّاً،من المقصودين به.

* * *

١١ ـ وقال الله عزّ وجل بشأن أهل الكتاب من اليهود:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

● قرأ جمهور القرّاء: [أَمَانِيَّ] بِتَشْدِيدِ الياء المفتوحة.

● وقرأ أبو جعفر: [أَمَانِيَ] بياء مفتوحة غير مشدّدة.

وهما وجهان لغويّان نزل القرآن بهما تدويناً لهما.

* * *

١٢ ـ وقال الله عزّ وجل فيها أيضاً:

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

● قَرَأَ جمهور القرّاء: [خَطِيئَتُهُ] على الإفراد.

● وقرأ المدنيّان «نافع وأبو جعفر»: [خَطِيئَاتُهُ].

وفي هاتين القراءتين تكامل فكري أو بياني، إذْ نستطيع أن نفهم من قراءة الإفراد: [خَطِيئَتُهُ] أن من الخطايا ما يحيط الإنسان إحاطة لا تترك له منفذاً للنجاة، ولو كانت خطيئةً واحدة كالكفر، وأن نفهم من قراءة الجمع [خَطِيئَاتُهُ] أنّ من الخطايا ما لا يحيط بالإنسان إحاطة تامّة لا تترك له منفذاً للنجاة إلّا إذا اجتمعت. وهذا من التكامل الفكري.

أو أنّ [خَطيئتُهُ] من إضافة المفرد المعرفة فيعمّ كلّ خطيئاته، فهي تُساوي في البيان [خَطِيئَاتُهُ] وهذا من التكامل البياني.

* * *

١٣ ــ وقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

- قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: [لَا يَعْبُدُونَ] بياء الغيبة.
- وقرأ باقي القرّاء: [لَا تَعْبُدُونَ] بتاء الخطاب.
- وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب [حَسَناً] بفتح الحاء والسين.
- وقرأ باقي القرّاء: [حُسْناً] بضمّ الحاء وإسكان السين.

فالقراءتان: [لا تَعْبُدونَ] و [لَا يَعْبُدون] فيهما تكامل بياني، فقراءة تاء الخطاب تتضمّن حكاية ما قاله الله لبني إسرائيل. وقراءة ياء الغيبة تتضمّن بيان مضمون ما قاله الله لبني إسرائيل، وكلٌّ منهما تدلّ على ما دلّت عليه الأخرى لزوماً.

والقراءتان: [حُسْناً] و [حَسَناً] فيهما تكامل فكري أو بياني.

فَالْحُسْن: بضم الحاء وإسكان السين مصدر «حَسُنَ» ويمكن أنْ نفهم منها ما يلي: وقولُوا للناس: أَحْسِنُوا حُسْناً، فتكون «حُسْناً» مفعولاً مطلقاً لفعلٍ محذوف، وهي بهذا تدلّ على وظيفة الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف.

والْحَسَنُ: صفة مشبهة، على معنى: وقولوا للنّاس قولاً حسناً، أي: إذا خاطبتموهم ودعوتموهم، فلتكُنْ دَعْوَتُكُمْ لهم بالقولِ الْحَسَنِ الجميل المؤثّر في نفوسهم وقلوبهم.

وبهذا تؤدّي القراءتان تكاملاً فكرِيّاً، وهو الأرجح فيما أرى.

ويمكن أن تكون [حُسْناً] بضم الحاء وإسكان السين من الوصف بالمصدر للمبالغة، فتكونُ دالّةً علىٰ العناية الشديدة بالتلطف في مخاطبة الناس بالقول الحسن، فهي على هذا مثل قراءة [حَسَناً] مع إضافة معنى المبالغة، فتكون القراءتان من التكامل البياني.

* * *

١٤ ــ وقال اللّٰهُ عزّ وجلّ فيها خطاباً لبني إسرائيل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ... ﴿٨٥﴾﴾.

● قَرَأَ الكوفيون «عاصم وحمزة والكسائي وخلف»: [تَظَاهَرُونَ عليهم].

● وقرأ باقي القرّاء: [تَظَّاهَرُونَ عَلَيْهِمْ] بتشديد الظّاء.

* وقرأ حمزة: [أَسْرَىٰ].

* وقرأ باقي القراء: [أُسَارَىٰ].

● وقرأ نافع وأبو جعفر وعاصم ويعقوب [تُفَادُوهُمْ].

● وقرأ باقي القرّاء: [تَفْدُوهُمْ].

١ ــ ففي قراءتي: [تَظَاهَرُونَ] و[تَظَّاهَرُونَ] تكامُلٌ بياني، إذْ «تَظَّاهَرُونَ» بالظاء المشدّدة الناتج عن إثبات التاء المحذوفة تخفيفاً في «تَظَاهَرُون» بالظاء المخفَّفة يشعر بأنّ اليهود كانوا يبالغون أحياناً بهذا التظاهر، الذي جاء التعبير عنه

بالفعل المشدّد الظاء، وكانوا في أحيانٍ أخرى لا يبالغون بهذا التظاهر الذي جاء التعبير عنه بالفعل المخفّف الظّاء، الناتج عن حذف التاء من «تتظاهرون»، فأدت القراءتان تكاملاً بيانيّاً.

٢ ـ وفي قراءتي «أسرى» و«أُسارى» إثبات وجهين لجمع أسير متكافئين.

٣ ـ وفي قراءتي «تُفَادُوهم» و«تَفْدُوهُمْ» تكامل فكري فيما أرى، وبيانه فيما يلي:

● فمرَّة يأتي إليهم أولياء الأسرى فيعرضون عليهم افتداء أسراهم، فيأخذون الفدية ويطلقون سراح أسراهم، وجاء التعبير عن هذه الصورة بقراءة «تفدوهم» بصيغة الفعل التي ليس فيها معنى المشاركة في المفاوضة على الافتداء.

● ومرّة يعملون هم على المفاوضات مع أولياء الأسرى، ليتفقوا معهم على افتداء أسراهم عندهم، مع أنّ الأسرى هم منهم «من اليهود أنفسهم» فجاءت قراءة «تُفَادُوهُمْ» تعبيراً عن هذه الصورة، وقد دلت على ذلك صيغة الفعل الدالة على المشاركة، والله أعلم.

* * *

١٥ ـ وقال الله عزّ وجلّ فيها بشأن اليهود أيضاً:

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

● قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: [أَنْ يُنْزِلَ] من «أَنْزَلَ».

● وقرأ باقي القرّاء: [أَنْ يُنَزِّلَ] من «نَزَّلَ» المضعّف.

ففي هاتين القراءتين استعمالٌ لوجهين عربيَّيْنِ متكافئين.

وإذا قُلْنا: إنَّ «نَزَّل» يفيد التدرج، وإنّ «أَنْزَل» يفيد حدوث الإنزال دون إشارة إلى التنـزيل على مـراحل، فـإنّا نقـول: إنَّ اليهود يحسـدون على أصل اختيـار الله لمحمد بن عبد الله رسـولاً لينزّل عليـه القرآن بـالتدرج، ويحسـدونه أيضـاً على كلّ إنزال يُنْزِله عليه في كلّ مرّة، ويحسدونه أيضاً لو أنزل عليه القرآن كلّه جملةً واحدة.

إلاَّ أنني لم أجد ما يدلّ على هذا التفريق في القرآن.

* * *

١٦ ــ وقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا . . . ﴿١٠٢﴾﴾.

● قرأ ابن عامـر وحمزة والكسائي وخلف: ﴿وَلَكِنِ الشَّيَاطِينُ كفـروا﴾ بكسر نون «لكن» مخففة.

● وقرأ باقي القرّاء: ﴿وَلَكِنَّ الشياطينَ كفروا﴾ بفتـح نون «لكِنَّ» مشدّدة.

وفي هـاتين القراءتين تنـويـع بياني ضمن وجـوه لغويـة جـائـزة، وهـو يتصـل بالجمال الفنيّ الأدبـي.

* * *

١٧ ــ وقال الله عزّ وجل فيها:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

● قرأ جمهور القرّاء: [مَا نَنْسَخْ] من نَسَـخَ يَنْسَـخُ.

● وقرأ ابن عامر «الشامي»: [مَا نُنْسِـخْ] مِنْ أَنْسَـخَ يُنْسِـخُ.

* وقرأ جمهور القرّاء: [أَوْ نُنْسِهَا].

* وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: [أَوْ نَنْسَأْها].

ففي قراءتي: [مَا نَنْسَخْ] و[مَا نُنْسِخْ] تكامل فكري، فقراءة: [مَا نَنْسَخْ مِنْ آية] تدلّ على معنى: ما نُزِلْ نَحْنُ حُكْمَ آيةٍ نأتِ بخير منها أو مثلها. وقراءة: [مَا نُنْسِخْ مِنْ آيةٍ] تَدُلّ على معنى: مَا نَأْمُرْ نحنُ الوحيَ أو الرسُولَ بنسخ آيةٍ نَأْتِ بخيرٍ منها أو مثلها. فقراءة الجمهور دلّت على فعل الله في النسخ، وقراءة ابن عامر دَلّت على أمر الله بالنسخ. وهما تدُلّان بالقياس وباللزوم العقلي على أنّ كلّ شيءٍ يتعلّق بالقرآن إثباتاً أو نسخاً أو تنزيلاً أو تأخيراً أو إجمالاً أو تفصيلاً فهو بفعل الله أو بأمره كقضيَّة النسخ.

وفي قراءتي: [أَوْ نُنْسِهَا] و[أَوْ نَنْسَأْها] تكاملٌ فكريٌّ أيضاً، فقراءة [أَوْ نُنْسِهَا] تدلُّ على معنى: أو نجعل الرَّسُولَ والمبلِّغِينَ للآية من الناس يَنْسَوْنها، نأت بخير منها أو مثلها. وقراءة: [أَوْ نَنْسَأْها] تدلُّ على معنى: أو نُؤَخِّرْ تَنْزِيلَها نَأْتِ بخيرٍ منها أو مِثْلها للزمن الذي يكونُ قبل الوقت الذي قَضَت الحكمة بتأخيرها إليه.

ونلاحظ أنّ قراءة [نُنْسِهَا] قد دلّت على ما يفعله الله عزّ وجل من إحداث نسيان آية شاء لرسوله أن ينساها لحكمةٍ يعلمها سبحانه، كما قال في سورة (الأعلى ٨٧):

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾.

ونلاحظ أنّ قراءة [نَنْسَأْها] قد دلّت على أنّ للّه حكمة في تأخير تنزيل بعض آياته المتضمنة لبياناته وأحكامه وتعليماته وشرائعه، وأنّ كلّ عمل مقصود له، بما فيه التأخير والتنزيل، وأنه لا شيء عند الله بغير قصد حكيم.

* * *

١٨ ــ وقال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝١١٦﴾.

● قرأ جمهور القرّاء: [وَقَالُوا] بإثبات حرف العطف قبل [قالوا].

● وقرأ ابن عامر «الشامي» بحذف حرف العطف.

وفي القراءتين استخدام أسلوبين من أساليب الأداء الفنيّ في التعبير، وهو من التنويع في الأداء الجمالي الفنيّ، إذ الجملة مع ما قبلها يحسُن فيها الوصل ويَحْسُنُ فيها الفصل، فجاءت القراءتان تَعَلِّمَانِنَا الأسلوبين، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الروم ٣٠):

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ... ﴿٥٨﴾﴾.

وكما قال في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ... ﴿٨٩﴾﴾.

* * *

١٩ ــ وقال الله عزّ وجل فيها:

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

● قرأ برفع [فَيَكُونُ] جمهور القرّاء.

● وقرأ ابن عامر بنصبها [فَيَكُونَ].

رأى فريقٌ أنّ الذي تقضي به القواعد النحوية هي قراءة الرفع، وجملة [فيكونُ] مستأنفة على تقدير مبتدأ محذوف، أي: فهو يكون، بعد أمر التكوين [كُنْ]. والمعنى عليه أن المقضيّ يكون وجودهُ مرتّباً عقب أمر التكوين. أو فعلُ [يكونُ] معطوف على فعل [يقولُ]، والمعنى عليه أنّ المقضيّ يكونُ وجوده عَقِب تحقيق ما دلّ عَليه فعل [يقول]. وهو نظير قولك: إذا أردتُ أن آكل فإنّما أقول: بسم الله الرحمن الرحيم فآكل. وقولك إذا دعوت الناس إلى وليمة فإني أقدّمُ لهم الطّعامَ فيأكُلُون، أي: يأكلون عقب تقديمي الطعام، واعتراض ابن عطيّة على هذا الوجه الإعرابي مردود.

أقول: وأمّا قراءة ابن عامر بنصب [فَيَكُونَ] فهي جاريةٌ على اعتبار الفاء سببيّة، كما ذكر المحققون من النحويين، وفعل [يكونَ] منصوب بأن مضمرة بعدها، وشروط النصب بأن بعد هذه الفاء في الآية متحققة، أي: يقول سبحانه وتعالى: ﴿كُنْ﴾ فيتسبَّبُ أَمْرُ التكوين، بالكوينونة الفعلية.

وردَّ بعض المتقدّمين[1] لهذا الوجه الإعرابي بأنّ شروط النصب بفاء السببية غير متحققة في هذه القراءة قائم على تصوُّرٍ غير سليم في فهم الآية.

أمّا قولهم: إنّ لفظ [كُنْ] وإنْ كان بصيغة الأمر فمعناه الخبر، فهو قولٌ لم يُلْحظْ فيه أنَّ الآية تحكي صورة العمليّة التي تحدث، والتي فيها أمْرُ التكوين المراد منه حكاية الإنشاء الأمريّ التكويني، ولم يخرج فعل [كُنْ] إلى المعنى الخبري، كما تصوّروا.

وأمّا قولهم: إنّ من شرط النّصْب بفاء السببيّة في جواب الأمر أَنْ ينعقد منهما شرط وجزاء، وهنا لا يصحّ ذلك، إذْ يصير التقدير: إنْ تَكُنْ تكُنْ، فيتّحِدُ فعلا الشرط والجزاء معنى وفاعلاً، فهو قولٌ غاب فيه عن قائله أنّ أمر التكوين بلفظ [كُنْ] قولٌ، وأنّ حدَث الكينونة الذي دلّ عليه فعل [فَيَكُونَ] هو وجود الأمرِ المقضيّ به في الواقع، فمن أين جاءهم تصوُّرُ اتّحادِ فِعْلَي الشرط والجزاء معنىً وفاعلاً؟!.

فالقراءتان وجهان من الوجوه الجائزة في قواعد العربية، فجاءت بهما قراءتان، تنويعاً في الأداء الفنيّ الجمالي، وتتضمّنان مع ذلك دلالتين فكريَّتين، فالنّصبُ يدلُّ على أنّ تكوُّنَ الأمر المقضيّ إنّما يتمُّ بسبب توجيه أمر التكوين، لا بمجرّد إرادته أو بتِّهِ قضاءً، والرفعُ يَدُلُّ على أنّ تكوُّنَ الشيء يأتي مطاوعاً لأمر التكوين، دون معاندة ولا توقف، أي: يقول له: «كُنْ» فهو يطاوع «فيكون» فتحقّق بالقراءتين تكاملٌ فكري أيضاً.

* * *

---

(١) انظر «الدرّ المصون» لابن السمين عند تخريجه لهذه الآية.

٢٠ ـ وقال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

● قرأ جمهور القرّاء: [وَلَا تُسْأَلُ] على الخبر، وأنّ «لا» نافية، والفعل مبنيٌّ لما لم يذكَرْ فاعلُه.

● وقرأ نافع ويعقوب بفتح التاء وجزم اللاَّم: [وَلَا تَسْأَلْ] على أن «لا» للنهي، والفعل مبنيّ للمعلوم، وهو مجزوم بلا الناهية.

وفي القراءتين تكاملٌ فكري:

١ ـ فقراءة جمهور القرّاء تبيّن للرسول ﷺ أنّه غير مسؤولٍ عند الله عن كفر الكافرين الذين سيكونون يوم الدين من أصحاب الجحيم، بعد أنْ بلّغهم رسالة ربّه، وأدّى الأمانة، ونصح الأمّة، أي: بل هم المسؤولون عن عدم الاستجابة لدعوة الرسول.

٢ ـ وقراءة نافع ويعقوب تتضمّن نهي الرسول ﷺ عن أن يسأل عن أصحاب الجحيم أيَّ سؤال يتعلّق بنجاتهم أو تخفيف العذاب عنهم، أو عن أيّةِ وسيلةٍ إلزامية تجعلهم يهتدون ويستجيبون للحقّ، فالله لم يشأ إكراه الناس على الإيمان والطاعة، وإنما جعلهم أحراراً ليُؤْمنوا ويطيعوا اختياراً لا إجباراً.

فأدّت القراءتان تكاملاً فكريّاً، مع الإيجاز، والاستغناء بآية واحدةً عن آيتين.

* * *

٢١ ـ وقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

● قرأ جمهور القرّاء: [وَاتَّخِذُوا] بصيغة الأمر «بكسر الخاء».

● وقرأ نافع وابن عامر بصيغة الخبر بفتح الخاء: [واتَّخَذُوا].

وفي هاتين القراءتين تكامل فكري:

١ ــ فقراءة الجمهور الواردة بصيغة الأمر، ترغّب أو تأذن بأن يتخذ المسلمون من مقام إبراهيم عليه السلام الذي كان يقوم فيه إلى جانب الكعبة مصلًّى.

٢ ــ وقراءة نافع وابن عامر الخبرية تتضمّن الإخبار عمّا كان من شأن قسم من الناس السابقين لأتباع محمّد ﷺ من أهل الملل الأخرى، الذين كانوا قد اتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى، وقد أقرَّ اللَّهُ عزّ وجلّ هذا العمل وأذن به.

فتكاملت القراءتان في تأدية المعَنْيين المراد بيانهما.

* * *

٢٢ ــ وقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٢٦﴾.

● قرأ جمهور القرّاء: [فَأُمَتِّعُهُ] بصِيغة الفعل المضعف من «مَتَّع».

● وقرأ ابن عامر بإسكان الميم وكسر التاء دون تشديد من فعل «أَمْتَع».

وفي القراءتين تنويع في الأداء البيانيّ الفنّيّ.

ونظيره في السورة قراءتا ﴿وَوَصَّىٰ﴾ و ﴿وَأَوْصَىٰ﴾ الآية (١٣٢)، وقراءتا ﴿مُوَصٍّ﴾ و ﴿مُوصٍ﴾ الآية (١٨٢).

فهي قراءات من التنويع البيانيّ الفنيّ.

* * *

٢٣ ــ وقال الله عزّ وجلّ فيها في سياق الحديث عن بني إسرائيل:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

● قرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وخلف ورويس: [أَمْ تَقُولُونَ] بتاء الخطاب.

● وقرأ باقي القرّاء: [أَمْ يَقُولُونَ] بياء الغيبة.

وفي هاتين القراءتين تكامل في الأداء البياني، فإحداهما تخاطبهم، والأخرى تتحدّث عنهم بالغيبة خطاباً للمؤمنين.

* * *

٢٤ ــ وقال الله عزّ وجلّ فيها في سياق بيان قبلة المسلمين في الصلاة وتحويلها إلى الكعبة المشرفة، وذكر تمسُّك كلّ فريق من أهل الكتاب الأوّلِ بقبلته:

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

● قرأ جمهور القرّاء: [مُوَلِّيهَا] بضمّ الميم وفتح الواو وكسر اللّام مشدّدة وبَعْدَها ياءٌ مَدّيّة.

● وقرأ ابن عامر «الشامي»: [هو مَوْلَاهَا] بفتح الميم وسكون الواو ولام مفتوحة فألف مدّية.

وفي القراءتين تكامل فكري:

١ ــ فقراءة الجمهور [هُو مُوَلِّيهَا] أي: لكلّ وِجْهَةٌ هو مُوَجِّهٌ وَجْهَهُ إليها في عبادته، وملتزم بها، تمسُّكاً بأحكام دينه الذي تعصّب له، ولم يتركْه للدّين الخاتم الذي جاء به خاتم رسُل الله محمد ﷺ، رغم كلّ البراهين التي جاءهم بها.

٢ ـ وقراءة ابن عامر [هُو مَوْلَاها] أي: هو تابعها وهو ناصرها، وهو متولي أمرها وقائم به، فمن معاني المولَىٰ التابع والنصير، وكلُّ مَنْ وليَ أمراً وقامَ به فهو مولاه.

أي: فكل ملتزِم دينٍ يوجّه وجهه شطر قبلة دينه، ويتولّى أمر العناية بقبلة دينه، ويقوم بشؤونها ويدافع عنها وينصرها.

فتكاملت القراءتان في أداء المعاني مع الإيجاز والاستغناء عن تكرير الآية بترديد لفظ فيها بوجهين من القراءة.

* * *

٢٥ ـ وقال الله عزّ وجل فيها:

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾.

- قَرَأَ أَكْثَرُ الْقُرَّاء: [وَمَنْ تَطَوَّعَ] بصيغة الفعل الماضي.
- وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب [وَمَنْ يَطَّوَّعْ] بصيغة الفعل المضارع.

وفي القراءتين تنويع في الأداء الفنيّ وتكامل في الأداء البياني في التعبير، لما في كل من التعبيرين من لمحات جمالية في الصيغة اللّفظيّة، مع دلالة صيغة الفعل الماضي على ما وقع وتمَّ من تطوُّع، ودلالة صيغة الفعل المضارع على ما سيقع ويحصل مستقبلاً من تطوّع.

ونظير هذا النصّ ما في الآية (١٨٤) من سورة البقرة أيضاً.

* * *

٢٦ ـ وَقَال الله عزّ وجل فيها:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى

ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

- قرأ أكثر القراء: [الرِّيَاحِ] بصيغة الجمع.
- وقرأ حمزة والكسائي وخَلَف: [الرِّيحِ] بصيغة الإفراد.

وفي القراءتين تكامل فكري، بيانُه:

١ ـ أنّ الله قد يرسل أنواعاً من الرياح فيصرّفها بحكمته فجاءت قراءة الجمع دالّة عليها.

٢ ـ وأنّه عزّ وجلّ قد يرسل ريحاً واحدة فيصرّفها بحكمته أيضاً، فجاءت قراءة الإفراد دالّةً عليها.

فتكاملت القراءتان في أداء الفكرتين المختلفتين.

* * *

٢٧ ـ وقال الله عزّ وجلّ في سورة البقرة أيضاً:

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

- قرأ أكثر القرّاء: [وَلَوْ يرىٰ] بياء الغيبة.
- وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب بتاء الخطاب: [وَلَوْ تَرىٰ].

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني، مع التنويع الفنيّ في التعبير. فإحداهما تتحدّث عن الظالمين، وأنهم لَوْ يَرَوْنَ أنّ القوة لله جميعاً، والأخرى تخاطبُ أيّ مخاطب من غير الظالمين.

وكلا الفريقين مطالبٌ بأن يعلم أنّ القوة لله جميعاً وأن الله شديد العقاب.

● وقرأ جمهور القرّاء: [إِذْ يَرَوْنَ] بالبناء للمعلوم.

● وقرأ ابن عامر: [إِذْ يُرَوْن] بالبناء لما لم يذكر فاعله.

وفي هاتين القراءتين تنويع في الأداء الفنيّ الجمالي، وتكامل في الأداء البياني، وقد سبق شرح نظيره.

● وقرأ جمهور القرّاء: ﴿أَنَّ القوةَ للَّهِ جميعاً وَأَنَّ اللَّهَ شدِيدُ العقاب﴾ بفتح همزة أنَّ في الموضعين، على أنها واقعة مع ما بعدها موقع المعمول لما سبق.

● وقرأ أبو جعفر ويعقوب بكسر همزة إنَّ في الموضعين، على أنّ الكلام استئنافيٌّ غير معمول لما سبق.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني.

* * *

٢٨ ـ وقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ . . . ﴿١٧٧﴾﴾.

● قرأ حفص وحمزة: [لَيْسَ الْبِرَّ] بنصب لفظ [البرَّ].

● وقرأ باقي القرّاء برفعه.

وقد أثبتت القراءتان وجهين نحويين متكافئين يُؤدّيان تكاملاً بيانيّاً.

إذْ يصلح [البرّ] أن يكون اسم ليس، و[أَنْ تُولّوا. . .] في موضع الخبر، ويَصلُح العكس.

والتكامل البياني يأتي من ملاحظة حال المقصودين بالخطاب، فمنهم من يناسبهم اعتبار البرّ هو المسند إليه والتولّي هو المسند، ومنهم من يناسبهم العكس، فجاءت القراءتان لمراعاة حالي الفريقين.

● وقرأ جمهور القرّاء: [وَلَكِنَّ الْبِرَّ] بتشديد نون «لكنّ» ونصب [البرّ].

● وقرأ نافع وابن عامر: [وَلكِنِ البرُّ] بكسر نون «لكن» ورفع [البرُّ].

وفي هاتين القراءتين إثبات لوجهين عربيين متكافئين.

* * *

٢٩ ــ وقال الله عزّ وجل فيها في سياق الحديث عن صيام رمضان:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ . . . ﴿١٨٤﴾﴾.

● قرأ أكثر القرّاء: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ برفع [فديةٌ] مع التنوين ورفع [طعامُ] وإضافته إلى [مِسْكِينٍ] بالإفراد.

● وقرأ هشام: ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ كأكثر القراء إلّا أنّ قراءته بالجمع للفظ [مَسَاكِين].

● وقرأ نافع وابن ذكوان وأبو جعفر: [فِدْيَةُ طَعَامِ مَسَاكِينَ] برفع [فديةُ] دون تنوين، وبكسر [طعامِ] على الإضافة، وبالجمع للفظ [مَسَاكين].

وهذه القراءات تمثّل وجوهاً من الأداء النحوي جائزة.

وفي قراءتي [مسكين] و[مساكين] تكامل فكري، إذ تدلّان معاً على جواز تأدية الفدية لمسكين واحد، أو عدد من المساكين، وهي من المسائل الاجتهادية.

* * *

٣٠ ــ وقال الله عزّ وجل فيها في سياق الحث على قتال المشركين الذين يقاتلون المؤمنين:

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾.

● هذه قراءة أكثر القراء، بصيغة فعل المشاركة في الأفعال الثلاثة الأول.

● وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى

يَقْتُلُوكم فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُم فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينِ﴾ بصيغة: «فَعَلَ» في الأفعال الثلاثة الأول.

وفي هاتين القراءتين تكامل فكري:

١ ـ فالقراءة الأولى أبانت موضوع المقاتلة، أي: المشاركة في التقاتل، فإن قاتلنا الكافرون عند المسجد الحرام قاتلناهم ولو أدّت المقاتلة الدفاعية إلى القتل.

٢ ـ والقراءة الثانية أبانت موضوع القتل، فإن قَتَلَ المشركون بعض المؤمنين عند المسجد الحرام قتلنا الْقَاتِلَ فيه بأيّة وسيلة، ولو دون وسيلة المقاتلة في حرب.

* * *

٣١ ـ وقال الله عزّ وجل فيها:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

- قرأ جمهور القراء برفع [الملائكة] عطفاً على لفظ الجلالة.
- وقرأ أبو جعفر بكسر لفظ [الملائكةِ] عطفاً على الغمام.

وأرى في القراءتين تكاملاً فكرياً.

- أما [تُرْجَعُ] و[تَرْجِعُ] فقد سبق شرح نظيرهما.

* * *

٣٢ ـ وقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ . . . ﴿٢١٣﴾﴾.

● قرأ جمهور القرّاء: [لِيَحْكُمَ] بالبناء للمعلوم وفاعله ضمير مستتر يعود على الكتاب.

● وقرأ أبو جعفر: [لِيُحْكَمَ] بالبناء لما لم يذكر فاعله، أي: ليحكُم الحاكمون بما فيه.

وفي هاتين القراءتين تكامل بياني، وكلٌّ منهما تدلُّ لزوماً على ما تدلُّ عليه الأخرى.

* * *

٣٣ ـ وقال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً للمؤمنين:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

● قرأ جمهور القراء: [حَتَّىٰ يَقُولَ] بنصب [يَقُولَ].

● وقرأ نافع: [حَتَّىٰ يَقُولُ] بالرفع.

وفي هاتين القراءتين إثبات لوجهين عربيينِ متكافئين، وفيهما شكلان من الأداء البياني، دالّان على صورتين:

فقراءة الجمهور تدلُّ على أنّ المسّ بالبأساء والضرّاء وحدوث الزلزال أمور قد تستمرّ إلى أن يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟ وهذه صورة قد تقتضيها حكمة الابتلاء.

وقراءة نافع تدلّ على مجرّد اتصال القول بالزلزال، وأن الزلزال سبب له، وهذه صورة أخرى لا يكون صدور القول فيها غاية اقتضتها حكمة الابتلاء، وإنما يكون استمرار المسّ بالبأساء والضرّاء وحدوث الزلزال لحكمة أو حِكَمٍ أخرى،

كإمهال الكافرين وإقامة الحجّة البالغة عليهم، فلزم من ذلك حدوث المصائب للمسلمين، واستمرارها، حتى يقولُ الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟.

* * *

٣٤ ـ وقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾.

- قرأ جمهور القرّاء: [فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ] بالباء الموحدة التحتية لـ [كبير].
- وقرأ حمزة والكسائي: [فيهما إِثْمٌ كَثِيرٌ] بالثاء المثلثة لـ [كثير].

وفي هاتين القراءتين تكامل فكري، فإثم الخمر والميسر أخذاً من القراءتين كبيرٌ وكثيرٌ.

* وقرأ جمهور القرّاء: [قُلِ: الْعَفْوَ] بنصب [العفوَ].
* وقرأ البصري «أبو عمرو»: [قُلِ: الْعَفْوُ] برفع [العفوُ].

وفي هاتين القراءتين إثبات لوجهين إعرابيين متكافئين، وفيهما مع ذلك تنويع في الأداء الفني الجمالي:

فقراءة النصب على تقدير أن العفو مفعول به لفعل محذوف، يفسره الفعل الوارد في السؤال:

أي: يقولون: ماذا ينفقون؟ والجواب: أنفقوا العفو، (أي: ما عفا وفضل عن الحاجة).

وقراءة نافع على تقدير مبتدأ محذوف، وعلى اعتبار «ذا» في «ماذا» اسم موصول.

أي: يسألونك: ما الذي ينفقونه؟ والجواب: المطلوب إنفاقُهُ العفوُ.

* * *

٣٥ ــ وقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾.

- قرأ أكثر القراء: [حَتَّى يَطْهُرْنَ] بإسكان الطاء وضمّ الهاء من «طَهَرَ».
- وقرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف بفتح الطاء مشدّدة وفتح الهاء مشدّدة، [حَتَّى يَطَّهَّرْنَ] من «تَطَهَّرَ يَتَطَهَّرُ وَيَطَّهَّرُ بإدغام التاء بالطاء».

وفي هاتين القراءتين تكامل فكريٌّ في بيان الحكم:

١ ــ فقراءة أكثر القرّاء دلّت على وجوب اعتزالِهِنَّ حتى يَطْهُرْنَ من دم الحيض، فلا يبقىٰ له أثر يخرج.

٢ ــ والقراءة الثانية دلّت على وجوب اعتزالِهِنّ، ولو انقطع دم الحيضِ عنهن، حتى يَتَطَهَّرْنَ، أي: حتَّىٰ يَغْتَسِلْنَ مِنْ جنابة الحيض الاغتسالَ الشرعي الذي بيّنه الرسول ﷺ.

* * *

٣٦ ــ وقال الله عزّ وجلّ فيها خطاباً للمؤمنين:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى

بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

- قرأ أكثر القرّاء [تَمَسُّوهُنَّ] في الموضِعَيْن.
- وقرأ حمزة والكسائي وخَلَف: [تُمَاسُّوهُنَّ] الدالّ على المشاركة.

وفي هاتين القراءتين تكامل فكري في بيان الحكم:

١ ـ فالقراءة الأولى [تَمَسُّوهُنَّ] تدلُّ على المعاشرة من طرف الرجل فقط دون أن تكون الزوجة قداستمتعت بشيء من زوجها في هذه المعاشرة.

٢ ـ والقراءة الثانية [تُماسُّوهُنَّ] تدلُّ على اشتراك الطرفين في الاستمتاع بالمعاشرة.

أي: متى حصل الاستمتاع من الطرفين ببعضهما، أو من الرجل فقط ثم حصل الطلاق فقد وجب لهن كامل المهر.

* * *

٣٧ ـ وقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾.

- قرأ أكثَرُ القرّاء: [وَلَوْلَا دَفْعُ] بفتح الدال ففاء ساكنة [دَفْعُ].
- وقرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب [وَلَوْلَا دِفَاعُ] بكسر الدال ففاء مفتوحة فألف بعدها.

وفي القراءتين تكامل فكري:

١ ـ فقراءة [دَفْعُ] تدلُّ على سنة الله الثابتة في الاجتماع البشري، القائمة على دفعه الكافرين من الناس بعضهم ببعض عن المؤمنين إذا كانوا هم

المستضعفين، ودفعه الكافرين من الناس عن الضعفاء من الناس بسلطان المؤمنين إذا كان لهم سلطان مرهبٌ في الأرض.

٢ ــ وقراءة [دِفاعُ] تدلُّ على تدخُّلِ العناية الرّبّانية بنصرة زائدة على مجرى السنّة الثابتة المعتادة، لِردِّ قُوَىٰ طغاةٍ جبارين عن المستضعفين بقوىٰ أخرى مضادَّةٍ لَهَا مِنَ الناس إذْ ينصرها عليها بوسائل غيرْ عاديّة، ولو كانت هذه القوى المضادّة لها بقيادة كفرة فجرة.

* * *

٣٨ ــ وقال الله عزّ وجلّ فيها في قصة العُزَير إذ أماته الله مائة عام ثم بعثه حين مرّ على قريةٍ مات أهلها فقال: أنَّى يُحْيِـي هذه اللَّهُ بعد مَوْتِها:

﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا . . . ﴿٢٥٩﴾﴾.

● قرأ ابن عامر والكوفيون «عاصم وحمزة والكسائي وخَلَف»: [نُنْشِزُها] بالزاي، من «أَنْشَزَ الشيء إذا رفعه إلى نَشَزِه، أي: إلى مكانه المرتفع».

● وقرأ باقي القرّاء: [نُنْشِرُها] بالراء، من فِعل «أَنْشَرَ» أي: مدّ، أو أحيا.

وفي القراءتين تكامل فكري:

١ ــ فقراءة [نُنْشِزُها] بالزاي تدلُّ على معنى تركيب العظام ورفعها ووضعها في مواضعها.

٢ ــ وقراءة [نُنْشِرُها] بالراء تدلُّ على معنى نشرها من نوياتها وتكبيرها وتنميتها حتى تعود إلى ما كانت عليه قبل البلىٰ والتفتت.

فتكاملت القراءتان في أداء المعنى المراد بيانه مع الإيجاز.

● ● ●

ملحق

القاعدة الأربعين

حــول

١ ــ القرّاء العشرة والرّواة الذين رَوَوْا قراءاتهم

٢ ــ نماذج من القــراءات العشرفي سورتي البقــرة وآل عمران ومعظمها من الفرش



الأئمةُ القرّاء العشرة
أصحاب الروايات القرآنية المتواترة، والرواةُ عنهم

١ ـ الإمام الحافظ القارىء «نافـع» المدني:

● هــو أبـو رُوَيم نــافـع بن عبــد الــرحمن بن أبـي نعيم اللّيْثي، أصله من أصفهان، وكان إمام دار الهجرة في العلم بـالقرآن وتـلاوته وتجـويده وضبـطه وتَلَقّيهِ عن شيوخه، وتَلْقينه للحفّاظ الذين يأخذون عنه.

● توفي بالمدينة سنة «١٦٩» هجرية «تسـع وستين ومائة للهجرة».

وقد نقل رواياته القرآنية إمامان راويان هما: «قالون» و «ورش».

(أ) أمّا «قالون»:

● فهـو عِيسَى بن مِينَا المـدني، معلّم العـربيـة، وكنيتـه «أبـو مـوسىٰ» ولفظ «قـالون» لقب لـه، روي أن نافعـاً شيخه لقبـه به، لجـودة قـراءتـه، إذ كلمـة «قالون» بلسان الروم معناها «جيد».

● ولد سنة «١٢٠» هجرية وتوفي بالمدينة سنة «٢٢٠» هجرية.

(ب) وأمّا «ورش»:

● فهو عثمان بن سعيـد المصري، وكنيتـه: «أبو سعيـد» ولفظ «ورش» لقب له، قيل: قد لقب به لشدّة بياضه.

● توفّي بمصر سنة «١٩٧» هجرية.

* * *

٢ ـ الإمام الحافظ القارىء «ابن كثير» المكّي:

● هو عبد الله بن كثيـر، إمام أهـل مكة في العلم بـالقرآن وتـلاوته وتجـويده وضبطه، وتَلَقّيه وتلقينه، وهو من التابعين.

● ولد بمكة سنة «٤٥» للهجرة، وتوفّي بها سنة «١٢٠» للهجرة.

وقد نقل رواياته القرآنية إماماه راويان هما: «البـزّي» و«قُنْبل»، رويـا القراءة عن ابن كثير بإسناد.

(أ) أمّا «البزّي»:

● فهـو أحمد بن محمـد بن عبد الله بن أبـي بـزّة، المؤذّن المكي، وكنيتـه: «أبو الحسن».

● ولد سنة «١٧٠» للهجرة، وتوفّي بمكة سنة «٢٥٠» للهجرة.

(ب) وأمّا «قُنْبُل»:

● فهــو محمـد بن عبـد الـرحمن بن محمــد بن خـالــد بن سعيـد المكي المخزومي، وكنيته «أبـو عمرو» ولفظ «قنبـل» لقبٌ له. قـالوا: وهـو من أهل بيت يعرفون في مكة بالقنابلة.

● توفّي بمكة سنة «٢٩١» هجرية.

* * *

٣ ـ الإمامُ الحافظ القارىء «أبو عمرو» البصري:

● هو زيان بن العـلاء بن عمّار بن العـريان المـازني التميمي البصري. ولـد بمكة سنة «٦٨» وقيل: سنة «٦٥» للهجرة.

● وقيل: اسمه «يحيـىٰ».

● وقيل: اسمه كنيته «أبو عمرو».

● توفّي بالكوفة سنة «١٥٤» هجرية.

وقد نقل رواياته القرآنية إمـامان راويـان، هما: «الـدوري» و«السوسي» رويـا القراءة عن أبـي محمد يحيـى بن المبارك العدوي المعروف باليزيدي عنه.

(أ) **أمّا «الدوري»:**

● فهو أبو عمرو حفص بن عُمر بن عبد العزيز الدوري النحـوي. منسوب إلى «الدور» وهو اسم موضـع ببغداد.

● توفّي سنة «٢٤٦» هجرية.

(ب) **وأمّا «السُّوسِي»:**

● فهـو أبـو شعيب، صـالـح بن زيـاد بن عبـد الله السـوسي. تـوفي سنـة «٢٦١» هجرية.

* * *

٤ ـ الإمام الحافظ القارىء «ابن عامر» الشامي:

● هو عبد الله بن عامر الشامي اليحصبي، قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك، وكنيته «أبو عمران». وهو من التابعين.

● قال ابن عامـر: ولدت سنـة ثمان من الهجـرة ةبضيعة يقـال لها: رحـاب، وقبض رسول الله ﷺ ولي سنتان.

● توفي بدمشق سنة «١١٨» هجرية.

وقد نقل رواياته القـرآنية إمـامان راويـان، هما: «هشـام» و«ابن ذكوان» رويـا القراءة عن ابن عامر بإسناد.

(أ) **أمّا «هشام»:**

● فهو هشام بن عمّار بن نصير، القاضي الدمشقي، وكنيته: «أبو الوليد».

● توفي بدمشق سنة «٢٤٥» هجرية.

(ب) **وأمّا «ابن ذكوان»:**

● فهو عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الدمشقي، وكنيته: «أبو عمرو».

● ولد سنة «١٧٣» هجرية، وتوفي بدمشق سنة «٢٤٢» هجرية.

* * *

٥ ـ الإمام الحافظ القارىء «عاصم» الكوفي:

● هو عاصم بن أبي النجود الأسدي، ويقال له: ابن بهدلة، وكنيته: «أبو بكر» وهو من التابعين.

● كان شيخ الإقراء، ومن أحسن الناس صوتاً بالقرآن.

● توفي بالكوفة سنة «١٢٧» هجرية.

وقد نقل رواياته القرآنية إمامان راويان هما: «شعبة» و «حفص».

(أ) **أمّا «شعبة»:**

● فهو أبو بكر شعبة بن عياش بن سالم الكوفي.

● توفي بالكوفة سنة «١٩٣» هجرية.

(أ) **وأمّا «حفص»:**

● فهو حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز الكوفي، وكنيته: «أبو عمرو».

● كان ثقة. قال ابن معين: هو أقرأ من أبي بكر «أي من شعبة».

● توفي سنة «١٨٠» هجرية.

٦ ـ الإمام الحافظ القارىء «حمزة» الكوفي:

● هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيّات الفرضي التيمي، وكنيته: «أبو عمارة».

● ولد سنة ثمانين للهجرة. وكان تاجراً عابداً ورعاً.

● توفي في خلافة أبي جعفر المنصور سنة «١٥٦» هجرية.

وقد نقل رواياته القرآنية إمامان راويان هما: «خلف» و«خلّاد» رويا القراءة عن أبي عيسى سليم بن عيسىٰ الحنفي الكوفي عن حمزة.

(أ) **أمّا «خلف»**:

● فهو خلف بن هشام البزّار، وكنيته: «أبو محمد».

● توفي ببغداد سنة «٢٢٩» هجرية.

(ب) **وأمّا «خلّاد»**:

● فهو خلّاد بن خالد، ويقال: ابن خُليد الصيرفي، الكوفي، وكنيته: «أبو عيسى».

● توفي بالكوفة سنة «٢٢٠» هجرية.

* * *

٧ ـ الإمام الحافظ القارىء «الكسائي» الكوفي:

● هو علي بن حمزة النحوي، وكنيته: «أبو الحسن».

● وقيل له «الكسائي» من أجل أنه أحرم في كساء[١].

● انتهت إليه رئاسة الإقراء في الكوفة بعد «حمزة».

● توفي بقرية من قُرى الرّي، يقال لها «رنبويه» حين توجّه إلى خراسان مع الرشيد سنة «١٨٩» هجرية.

وقد نقل رواياته القرآنية إمامان راويان هما: «أبو الحارث» و«حفص الدوري».

(أ) **أمّا «أبو الحارث»**:

● فهو الليث بن خالد البغدادي.

● توفي سنة «٢٤٠» هجرية.

---

(١) قال أهل اللغة: الكساء نوع من الثياب معروف.

(ب) وأمّا «حفص الدوري»:

● فهـو أبـو عمـرو حفص بن عُمـر بن عبد العـزيز الـدوري النحوي، الـذي هو أحد راويـي «أبـي عمرو» البصري، وقد سبق ذكره.

* * *

٨ ـ الإمام الحافظ القارىء «أبو جعفر» المدني:

● هو يزيد بن القعقاع المخزومي، المدني.

● توفي بالمدينة سنة «١٢٨» هجرية.

وقد نقل رواياته القرآنية إماماًن راويان هما: «ابن وردان» و «ابن جماز».

(أ) أمّا «ابن وردان»:

● فهو أبو الحارث عيسى بن وردان، المدني.

● توفّي بالمدينة سنة «١٦٠» هجرية.

(ب) وأمّا «ابن جمّاز»:

● فهو أبو الربيـع سليمان بن مسلم بن جماز، المدني.

● توفّي بالمدينة بُعَيْد سنة «١٧٠» هجرية.

* * *

٩ ـ الإمام الحافظ القارىء «يعقوب» البصري:

● هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي.

● توفي بالبصرة سنة «٢٥٠» للهجرة.

وقد نقل رواياته القرآنية إمامان راويان هما: «رويس» و «رَوْح».

(أ) أمّا «رُويْس»:

● فهو أبو عبد الله محمد بن المتوكّل اللؤلؤي، البصري.

● ولفظ «رُويس» لقبٌ له.

● توفي بالبصرة سنة «٢٣٨» هجرية.

(ب) **وأمّا «رَوْح»:**

● فهو أبو الحسن روح بن عبد المؤمن البصري النحوي.

● توفّي سنة «٢٣٤» أو «٢٣٥» للهجرة.

* * *

١٠ ـ الإمام الحافظ القارىء «خلف» البزّار البغدادي:

● هو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البزّار البغدادي.

● ولد سنة «١٥٠» هجرية.

● وحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين.

● وتوفّي ببغداد سنة «٢٢٩» هجرية.

وقد نقل رواياته القرآنية إمامان راويان، هما: «إسحاق» و«إدريس».

(أ) **أمّا «إسحاق»:**

● فهو أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن عثمان الورّاق المروزي ثم البغدادي.

● توفي سنة «٢٨٦» هجرية.

(ب) **وأمّا «إدْريس»:**

● فهو أبو الحسن إدريس بن عبد الكريم البغدادي الحدّاد.

● توفي يوم الأضحى سنة «٢٩٢» هجرية.

* * *

جدول عام
لأسماء القراء العشرة والرّواة لقراءاتهم

القارئ	الراويان
١ ــ «نافـع» المدني ← راوياه	ورش . قالون .
٢ ــ «ابن كثير» المكي ← راوياه	البزي . قنبل .
٣ ــ «أبو عمرو» البصري ← راوياه	الدوري . السوسي .
٤ ــ «ابن عامر» الشامي ← راوياه	هشام . ابن ذكوان .
٥ ــ «عاصم» الكوفي ← راوياه	شعبة . حفص .
٦ ــ «حمزة» الكوفي ← راوياه	خلف . خلّاد .
٧ ــ «الكسائي» الكوفي ← راوياه	أبو الحارث . حفص الدوري .
٨ ــ «أبو جعفر» المدني ← راوياه	ابن وردان . ابن جمّاز .
٩ ــ «يعقوب» البصري ← راوياه	رويس . روح .
١٠ ــ «خلف» البغدادي ← راوياه	إسحاق . إدريس .

ويختصر بعض علماء القراءات، فيطلقون المصطلحات التالية:

١ ـ [المدنيان]: أي: نافع وأبو جعفر.

٢ ـ [البصريان]: أي: أبو عمرو ويعقوب.

٣ ـ [الأخوان]: أي: حمزة والكسائي.

٤ ـ [الكوفيون]: أي: عاصم وحمزة والكسائي وخلف.

٥ ـ [الأصحاب]: أي: حمزة والكسائي وخلف.

٦ ـ [البصري]: أي: أبو عمرو.

٧ ـ [المكيّ]: أي: ابن كثير.

٨ ـ [الشامي]: أي: ابن عامر.

جدول حول القراءات العشر
(في الفرشيات وشيء يسير من غيرها)

أخذتها من كتاب «البدور الزاهرة»، للمقرىء الشيخ «عبد الفتاح القاضي». وكتاب «المهذب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر»، تأليف «د. محمد سالم محيسن»

السورة	رقم الآية	القراءات
		﴿سورة الفاتحة﴾
الفاتحة	٦ـ٧	● ﴿آهدنا الصراط . . . صراط الذين﴾: لجمهور القرّاء بالصاد الخالصة. ● ﴿آهدنا السِّرَاط . . . سراط الذين﴾: لقنبل ورويس حيث وقعا. ● وقرأ خلف عن حمزة بالصّاد مشمّة صوت الزاي حيث وقعا كذلك. ● وقرأ خلّاد مثل خلف في (آهدنا السّراط المستقيم) في هذه السورة.
	٧	﴿عَلَيْهِمْ غَيْرِ. . . عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّين﴾: لجمهور القرَّاء. ● وقرأ ابن كثير وأبو جعفر وقالون بخلف عنه بضم ميم الجمع حالة الوصل مع وصلها بواو لفظاً. وهذا مذهبهم في كلِّ ميم جمع بشرط أن يكون الحرف الذي بعدها متحركاً. وإذا وقع بعدها همزة قطع نحو ﴿عَلَيْكُمْ أنفسكم﴾ كانت عند هؤلاء من باب المدّ المنفصل، وكذلك لورش في هذه الحالة. ● وقرأ حمزةُ ويعقوب بضمّ الهاء وصلاً ووقفاً. والباقون بكسرها.

السورة	رقم الآية	القراءات
		﴿سورة البقرة﴾
البقرة	٣	﴿يُؤْمِنُون﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ ورش، والسّوسي، وأبوجعفر، بإبدال همزه واواً ساكنة وصلاً ووقفاً. وكذا كلّ همزة ساكنة وقعت فاءً للكلمة فإنّ ورشاً يبدلها حرف مدّ من جنس حركة ما قبلها، ما عدا كلمات مخصوصة في القرآن. وأمّا السوسي فإنّه يبدل كل همزة ساكنة سواءٌ أكانت فاء الكلمة أم عينها أم لامها، ما عدا كلمات معيّنة خرجت عن قاعدته. ومثل السوسي أبو جعفر باستثناء كلمتين عنده، هما «أَنْبِئْهُمْ» في البقرة و (ننبئْهُمْ) في القمر. ● وقرأ حمزة ﴿يُومِنونَ﴾ بالإبدال عند الوقف فقط. وكذا يُبْدِلُ كُلَّ همزٍ ساكِنٍ عِنْدَ الوقف.
البقرة	٣	﴿الصَّلاة﴾. ● وقرأ ورش بتفخيم اللاّم. وكذلك قرأ بتفخيم كلّ لام مفتوحة، سواءٌ أكانت مخفّفة أم مشدّدة، متوسطة أو متطرفة، إذا وقعت بعد (صاد، أو طاء، أو ظاء) وسواء أكانت هذه الحروف ساكنة أو مفتوحة.
البقرة	٣	﴿ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: بإسكان ميم (هُمْ) وصلاً ووقفاً لجمهور القراء. ● وقرأ ابن كثير وأبو جعفر وقالون بخلاف عنه بصلة ميم (هُمُو) وصلاً فقط.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	٤	﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ : ● وقرأ ورش بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، وحذف الهمزة. وكذلك يقرأ في كلّ همزة متحرّكة وقعت بعد ساكن صحيح كهَذا الساكن.
البقرة	٦	﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كالتي في الآية رقم (٣).
البقرة	٨	﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ : بتحقيق الهمز لجمهور القرّاء. ● وقرأ ورش والسوسي وأبو جعفر بإبدال همزه وصلاً ووقفاً. ● وقرأ حمزة بإبدال همزة وقفاً فقط.
البقرة	٩	﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ : لجمهور القرّاء. ● وقرأ ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ﴾ نافع وابن كثير وأبو عمرو.
البقرة	١٠	﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ : لجمهور القرّاء. ● وقرأ ورش بنقل حركة الهمزة إلى ما قبلها وحذف الهمزة.
البقرة	١٠	﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ : الكوفيون فقط (عاصم وحمزة والكسائي وخلف). ● ﴿بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ﴾ : باقي القرّاء.
البقرة	٢٧	﴿الْخَاسِرُونَ﴾ رقق راءه ورش فقط.
البقرة	٢٨	﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ : جمهور القرّاء بالبناء للمفعول. ● وقرأ يعقوب فقط ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ بالبناء للفاعل.
البقرة	٢٩	﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ : لجمهور القرّاء. ● ووقف يعقوب فقط عليه بهاء السكت.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	٢٩	﴿وَهُوَ﴾: بضمّ الهاء لجمهور القرّاء. ● وقرأ قالون وأبو جعفر والبصري وعلي «الكسائي» بإسكان الهاء. ● ووقف يعقوب عليه بهاء السكت.
البقرة	٣٧	﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ ابن كثير فقط ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهُ كَلِمَاتٌ﴾.
البقرة	٣٨	﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بضم (خوف) وتنوينه لجمهور القرّاء. ● وقرأ يعقوب فقط ﴿فَلَا خَوْفَ﴾ بفتح الفاء.
البقرة	٤٠	﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ بحذف ياء المتكلم لجمهور القراء. ● وقرأ يعقوب فقط ﴿فَارْهَبُونِي﴾ بإثبات الياء وصلاً ووقفاً.
البقرة	٤١	﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ بحذف ياء المتكلّم لجمهور القرّاء. ● وقرأ يعقوب فقط ﴿فاتَّقُوني﴾ بإثبات الياء وصلاً ووقفاً.
البقرة	٤٨	﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ بالياء التحتية (يُقْبَل) لجمهور القرّاء. ● وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب [ولا تُقْبَلُ] بالتاء الفوقية.
البقرة	٥١	﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾: بإثبات ألف بعد واو: ﴿واعدنا﴾ لجمهور القرّاء. ● وقرأ أبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب ﴿وَعَدْنَا﴾ بحذف الألف.
البقرة	٥٨	﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾: بالنون في ﴿نغفر﴾ لجمهور القراء. ● وقرأ نافع وأبو جعفر ﴿يُغْفَرْ لَكُمْ﴾ بياءٍ مضمومة وفتح الفاء. ● وقرأ ابن عامر ﴿تُغْفَرْ لَكُمْ﴾ بتاء فوقية مضمومة وفتح الفاء.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	٦١	﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّين﴾ بالياء: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ نافع فقط ﴿النبيئين﴾ بالهمز.
البقرة	٦٢	﴿والصّابئين﴾ بالهمز: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ نافع وأبو جعفر ﴿والصّابين﴾ بحذف الهمزة.
		● ولحمزة في الوقف وجهان: الأول كنافع، والثاني التسهيل بين بين.
البقرة	٦٧	● ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾: لحفص بضم الزاي وبالواو بدلاً من الهمز.
		● وقرأ خلف ﴿هُزْءاً﴾ بإسكان الزاي وبالهمز وصلاً ووقفاً.
		● وقرأ حمزة ﴿هُزْءاً﴾ بإسكان الزاي وبالهمز وصلاً فقط. وله في الوقف وجهان: الأوّل: ﴿هُزاً﴾. والثاني: ﴿هُزْواً﴾.
		● وقرأ الباقون ﴿هُزُءاً﴾ بضم الزاي مع الهمز وصلاً ووقفاً.
البقرة	٧٤	﴿وَما اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: لجمهور القرّاء بتاء الخطاب.
		● وقرأ ابن كثير: «عَمَّا يَعْمَلُون﴾ بياء الغيبة.
البقرة	٧٨	﴿لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾: بتشديد ياء (أمانيّ) لجمهور القرّاء.
		● وقرأ أبو جعفر فقط ﴿أَمَانِيَ﴾ بفتح الياء دون تشديد.
البقرة	٨١	﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ بالإفراد: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ المدنيان: نافع وأبو جعفر: ﴿خَطِيئَاتُهُ﴾ بالجمع.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	٨٣	﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ بتاء الخطاب: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ ابن كثير والأخوان: حمزة والكسائي ﴿لَا يَعْبُدُونَ﴾ بياء الغيبة.
البقرة	٨٣	﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾: لجمهور القرّاء بضم الحاء وإسكان السين.
		● وقرأ يعقوب والأصحاب: حمزة والكسائي وخلف: ﴿حَسَناً﴾ بفتح الحاء والسين.
البقرة	٨٥	﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ﴾ بتخفيف الظّاء: للكوفيين: عاصم وحمزة والكسائي وخلف.
		● وقرأ باقي القرّاء: ﴿تظّاهَرُونَ عَلَيْهِمْ﴾ بتشديد الظّاء.
البقرة	٨٥	﴿أُسَارَىٰ﴾ بضم الهمزة وفتح السين وألف بعدها: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ حمزة ﴿أَسْرَىٰ﴾.
البقرة	٨٥	﴿تُفَادُوهم﴾ بضم التاء وفتح الفاء وألف بعدها: المدنيان وعلي وعاصم ويعقوب.
		● وقرأ باقي القرّاء ﴿تَفْدُوهُمْ﴾ بفتح التاء وسكون الفاء وحذف الألف.
البقرة	٨٥	﴿وَما اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ نافع وابن كثير وشعبة ويعقوب وخلف العاشر ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بياء الغيب.
البقرة	٨٧	﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بضم الدال: لجمهور القرّاء.
		●وقرأ ابن كثير بسكون الدال.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	٩٠	﴿أَنْ يُنَزِّلَ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي: لجمهور القراء.
		● وقرأ ابن كثير ونافع وجعفر بإسكان النون وتخفيف الزاي ﴿أَنْ يُنْزِلَ﴾.
البقرة	٩١	﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾: لجمهور القرّاء، بالياء في ﴿أنبياء﴾.
		● وقرأ نافع ﴿أَنْبِئَاءَ﴾ بالهمزة قبل الألف.
البقرة	٩٦	﴿واللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بياء الغيب لجمهور القرّاء.
		● وقرأ يعقوب: ﴿بما تَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب.
البقرة	٩٧	﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ﴾: المدنيان والبصريّان والشامي وحفص.
		● وقرأ المكيّ: ابن كثير ﴿لِجَبْرِيلَ﴾ بفتح الجيم.
		● وقرأ شعبة: ﴿لِجَبْرَئِلَ﴾ بفتح الجيم والرّاء وبعدها همزة مكسورة.
		● وقرأ الأصحاب: حمزة والكسائي وخلف: ﴿لِجَبْرَئِيلَ﴾ بزيادة ياء بعد الهمزة كما في قراءة شعبة.
البقرة	٩٨	﴿ومِيكَالَ﴾: حفص وأبو عمرو ويعقوب.
		● وقرأ نافع وأبو جعفر ﴿ومِيكَائِلَ﴾.
		● وقرأ باقي القراء: ﴿وَمِيكائِيلَ﴾.
البقرة	١٠٢	﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ بتشديد نون ﴿لكنَّ﴾ ونصب ﴿الشياطين﴾ لجمهور القرّاء.
		● وقرأ ابن عامر والأصحاب (حمْزة والكسائي وخلف): ﴿وَلَكِنِ الشَّياطِينُ﴾ بكسر نون ﴿لكنِ﴾ ورفع ﴿الشياطينُ﴾.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	١٠٦	﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ ابن عامر: ﴿مَا نُنْسِخْ﴾ بضم النون الأولى وكسر السين.
البقرة	١٠٦	﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ المكي (ابن كثير) والبصري (يعقوب): ﴿نَنْسَأْهَا﴾ بفتح النون الأولى والسين، وبهمزة ساكنة بين السين والهاء.
البقرة	١١١	﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ بضمّ الياء مشدّدة مع ضم الهاء: لجمهور القرّاء. ● وقرأ أبو جعفر ﴿أمانِيهمْ﴾ بتخفيف الياء ساكنة وكسر الهاء.
البقرة	١١٢	﴿ولا خوفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بضم الفاء منونة في ﴿خوفٌ﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ يعقوب: ﴿ولا خَوْفَ﴾ بفتح الفاء دون تنوين.
البقرة	١١٦	﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ الشامي (ابن عامر): ﴿قَالُوا﴾ بحذف حرف العطف.
البقرة	١١٧	﴿فَإِنّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ بضمّ نون ﴿يكونُ﴾: لجمهور القراء. ● وقرأ الشامي (ابن عامر): ﴿فَيَكُونَ﴾ بفتح النون.
البقرة	١١٩	﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ بالمبني للمجهول في ﴿تُسْأَلُ﴾: لجمهور القرّاء. فلا نافية. ● وقرأ نافع ويعقوب: ﴿وَلَا تَسْأَلْ﴾ بلا الناهية وفتح التاء وجزم اللاّم.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	١٢٤	﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ لجمهور القراء. ووجه لذكوان. ● وقرأ هشام ﴿إِبْراهَامَ﴾ وكذلك جميع ما في سورة البقرة له. وهو الوجه الآخر لذكوان.
البقرة	١٢٤	﴿عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ بإسكان ياء ﴿عهدي﴾ وحذفها لالتقاءالساكنين: لحفص وحمزة. ● وقرأ باقي القرّاء: ﴿عَهْدِيَ﴾ بفتح الياء.
البقرة	١٢٥	﴿واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ﴾ بصيغة الأمر: لجمهور القرّاء. ● وقرأ نافع والشامي ﴿واتَّخَذُوا﴾ بفتح الخاءعلى الخبر.
البقرة	١٢٥	﴿بَيْتِيَ﴾ بفتح ياء المتكلم: نافع وأبو جعفر وهشام وحفص. ● وقرأ باقي القراء بإسكان الياء.
البقرة	١٢٦	﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾ بفتح الميم وتشديد التاء: لجمهور القرّاء. ● وقرأ الشامي (ابن عامر): ﴿فَأُمْتِعُهُ﴾ بإسكان الميم وتخفيف التاء مكسورة.
البقرة	١٢٨	﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ بكسر الرّاء: لجمهور القرّاء. ● وقرأ المكي (ابن كثير) والسوسي ويعقوب ﴿وَأَرْنا﴾ بإسكان الراء. ● وقرأ الدوري عن أبي عمْرو بإخفاء كسرة الراء.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	١٣٢	﴿وَوَصَّىٰ بها﴾: لجمهور القرّاء، على وزن (فَعَّلَ). ● وقرأ المدنيان (نافع وأبو جعفر) والشامي (ابن عامر): ﴿وَأَوْصَىٰ﴾ على وزن (أَفْعَل).
البقرة	١٤٠	﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بتاء الخطاب: حفص وابن عامر والأخوان (حمزة والكسائي): ، وخلف ورويس. ● وقرأ باقي القرّاء ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بياء الغيب.
البقرة	١٤٣	﴿لَرَؤُوفٌ﴾ بواو بعد الهمزة المضمومة: لجمهور القرّاء. ● وقرأ البصريان (أبو عمرو ويعقوب): ﴿لَرَءُفٌ﴾ بحذف الواو بعد الهمزة.
البقرة	١٤٤	﴿عَمَّا يَعْمَلُون﴾ بياء الغيب: لجمهور القرّاء. ● وقرأ ابن عامر (الشامي) والأخوان (حمزة والكسائي) وأبو جعفر وروح ﴿تَعْمَلُون﴾ بتاء الخطاب.
البقرة	١٤٨	﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها﴾ بتشديد لام ﴿مُوَلِّيها﴾ مكسورةً وبعدها ياء ساكنة: لجمهور القرّاء. ● وقرأ ابن عامر ﴿هُوَ مَوْلَاهَا﴾ بفتح الميم وسكون الواو وفتح اللام وألف بعدها.
البقرة	١٤٩	﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب في ﴿تعملون﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ أبو عَمْرو ﴿يَعْمَلُون﴾ بياء الغيب.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	١٥٢	﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بإسْكانِ يَاء المتكلّم: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ المكي (ابن كثير): ﴿فَاذْكُرُونِيَ﴾ بفتح الياء.
البقرة	١٥٢	﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ بحذف يَاء المتكلّم: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ يعقوب ﴿وَلَا تَكْفُرُونِي﴾ بإثبات ياء المتكلّم.
البقرة	١٥٨	﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيراً﴾ بالتاء الفوقية وتخفيف الطاء وفتح العين: لجمهورالقراء.
		● وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب: ﴿وَمَنْ يَطَّوَّعْ﴾ بالياء التحتية وتشديد الطاء، وجزم العين.
البقرة	١٦٤	﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ على الجمع: لجمهور القراء.
		● وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ على الإفراد.
	١٦٥	﴿ولو يرى﴾ بياء الغيب: لجمهور القراء.
		● وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ بتاء الخطاب.
البقرة	١٦٥	﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ بفتح ياء ﴿يَرَوْنَ﴾: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ الشامي (ابن عامر): ﴿إِذْ يُرَوْنَ﴾ بضمّ الياء.
البقرة	١٦٥	﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ بفتح همزة (أَنَّ) في الجملتين: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ أبو جعفر ويعقوب بكسر هذه الهمزة في الموضعين.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	١٦٨	﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ﴾ بإسكان الطاء: نافع والبزي وأبو عمرو وشعبة وحمزة وخلف العاشر. ● وقرأ باقي القرّاء: ﴿خُطُوَات﴾ بضمّ الطاء.
البقرة	١٧٣	﴿إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ بإسكان الياء التحتية من ﴿الميتة﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ أبو جعفر: ﴿الْمَيِّتَةَ﴾ بتشديد الياء التحتية.
البقرة	١٧٧	﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ برفع ﴿البرّ﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ حفص وحمزة ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ بالنصب.
البقرة	١٧٧	﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ بفتح النون مشدّدة ونصب (البرّ): لجمهور القرّاء. ● وقرأ نافع والشامي: ﴿وَلَكِنِ الْبِرُّ﴾ بكسر النون ورفع (البرّ).
البقرة	١٧٧	﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ بياء مشدّدة: لجمهور القرّاء. ● وقرأ نافع ﴿والنَّبِيئِينَ﴾ بالهمز بين الياءَيْنِ.
البقرة	١٨٢	﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ﴾ بإسكان واو (مُوصٍ) وضمّ الميم وتخفيف الصاد: لجمهور القرّاء. ● وقرأ شعبة والأصحاب ويعقوب (مُوَصٍّ) بفتح الواو وتشديد الصّاد.
البقرة	١٨٤	﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: لجمهور القراء، على البدل والإفراد. ● وقرأ نافع وابن ذكوان: ﴿فِدْيَةُ طَعَامِ مَسَاكِينَ﴾ على الإضافة والجمع. ● وقرأ هشام: ﴿فِدْيَةٌ طعامُ مساكين﴾ على البدل والجمع.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	١٨٤	﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ : لجمهور القرّاء. ● وقرأ الأصحاب (حمزة والكسائي وخلف) : ﴿فَمَنْ يَطَّوَّعْ﴾ بالياء والطاء المشددة وجزم العين.
البقرة	١٨٥	﴿الْيُسْرَ﴾ و ﴿الْعُسْرَ﴾ بإسكان السين فيهما : لجمهور القراء. ● وقرأ أبو جعفر بضم السين فيهما.
البقرة	١٨٦	﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ بحذف الياء من ﴿الدَّاعِ﴾ ومن ﴿دَعَانِ﴾ : لجمهور القرّاء. ● وقرأ ورش وأبو عمرو وأبو جعفر ورواية عن قالون : ﴿الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي﴾ بإثبات الياء فيهما في الوصل فقط. ● وقرأ يعقوب بإثبات الياء فيهما وصلاً ووقفاً.
البقرة	١٨٦	﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ بإسكان ياء المتكلم : لجمهور القرّاء. وقَرَأ ورشَ ﴿بِيَ﴾ بفتح الياء في الوصل فقط.
البقرة	١٨٩	﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ﴾ بضم الْبَاء : لورش وأبي عمرو ويعقوب وأبي جعفر وحفص. وقرأ باقي القرّاء : ﴿الْبِيُوتَ﴾ بكسر الباء.
البقرة	١٩١	﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكم فَاقْتُلُوهم﴾ : لجمهور القراء بصيغة فعل المشاركة في الثلاثة الأولى (فَاعَلَ يُفَاعل). ● وقرأ حمزة والكسائي وخلف : ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْتُلُوكم فيه فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهم﴾.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	١٩٧	﴿فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾ برفع الثاء والقاف مع التنوين: لابن كثير وأبي عمرو ويعقوب. ● وقرأ باقي القرّاء: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ بفتح الثاء والقاف واللام من غير تنوين.
البقرة	١٩٧	﴿واتَّقُونِ﴾ بحذف ياء المتكلّم: لجمهور القرّاء. ● وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر ﴿واتَّقُوني﴾ بإثبات الياء وصلاً فقط. ● وقرأ يعقوب بإثبات ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.
البقرة	٢٠٨	﴿ادْخلوا في السِّلْم كَافَّةً﴾ بكسر السين: لجمهور القرّاء. ● وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير والكسائي ﴿في السَّلْمِ﴾ بفتح السين.
البقرة	٢٠٨	﴿خُطْوَاتِ﴾ بإسكانِ الطاء: نافع والبزّي وأبو عمرو وشعبة وحمزة وخلف العاشر. ● وقرأ باقي القرّاء: ﴿خُطُوات﴾ بضمّ الطاء.
البقرة	٢١٠	﴿والْمَلَائِكَةُ﴾ بالرفع: لجمهور القرّاء. ● وقرأ أبو جعفر: ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ بالجرّ.
البقرة	٢١٠	﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ بضم التاء وفتح الجيم: نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وعاصم. ● وقرأ الباقون ﴿تَرْجِعُ﴾ بفتح التاء وكسر الجيم، بالبناء للمعلوم.

تابـع جدول حول القراءات العشر (في الفرشيات)

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	٢١٣	﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ بالبناء للمعلوم: لجمهـور القرّاء. ● وقـرأ أبـو جعفـر ﴿لِيُحْكَمَ﴾ بضمّ الياء وفتح الكـاف بـالبنـاء للمجهول.
البقرة	٢١٤	﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ﴾ بنصب ﴿يَقُولَ﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ نافـع ﴿يَقُولُ﴾ بالرفـع.
البقرة	٢١٩	﴿قُـلْ: فِيهِمَـا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بـالبـاء التحتيـة المـوحـدة في ﴿كَبِيـرٌ﴾: لجمهور القراء. ● وقرأ الأخوان (حمزة والكسائي) بالثاء المثلثة ﴿كَثِيرٌ﴾.
البقرة	٢١٩	﴿وَيَسْـأَلُونَـكَ مَـاذَا يُنْفِقُـونَ؟ قُـلِ الْعَفْـوَ﴾ بنصب ﴿الْعَفْـوَ﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ أبو عمرو برفـع ﴿الْعَفْوُ﴾.
البقرة	٢٢٢	﴿وَلَا تَقْـرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَـطْهُرْنَ﴾ بسكـون الطاء وضمّ الهـاء مخفّفَـةً في ﴿يَطْهُرْنَ﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ الأخوان (حمـزة والكسائي) وشعبـة عن عاصم وخلف، بفتـح الطاء والهاء مـع التشديد فيهما ﴿يَطَّهَّرْنَ﴾.
البقرة	٢٢٩	﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ بفتـح ياء ﴿يَخَافَا﴾: لجمهور القرّاء. ● وقـرأ حمزة وأبـو جعفر ويعقـوب بضمهـا: ﴿يُخَـافـا﴾ على المبني للمجهول.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	٢٣٣	﴿لَا تُضَارُّ﴾ برفع الراء مشدّدة: ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. ● وقرأ أبو جعفر بسكون الرّاء مخفّفةً ﴿لَا تُضَارْ﴾. ● وقرأ باقي القرّاء بفتح الرّاء مشدَّدة ﴿لا تُضَارَّ﴾. وهو عند الجميع مدٌّ لازم لالتقاء الساكنين.
البقرة	٢٣٣	﴿مَاءَاتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بمدّ الهمزة في ﴿ءَاتَيْتُمْ﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ ابن كثير بقصر الهمزة ﴿أَتَيْتُمْ﴾.
البقرة	٢٣٦	﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾: بفتح التاء من غير ألف ولا مدّ: لجمهور القرّاء. ● وقرأ الأخوان (حمزة والكسائي) وخَلف بضم التاء وإثبات ألف بعد الميم فيمدّ لذلك مدّاً طويلاً ﴿تُمَاسُّوهُنَّ﴾. ● ووقف عليها يعقوب بهاء السكت ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّهْ﴾.
البقرة	٢٣٦	﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ بفتح دال ﴿قَدَرُهُ﴾ فيهما: حفص عن عاصم، وابن ذكوان عن ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، وأبو جعفر. ● وقرأ باقي القرّاء بإسْكان الدال فيهما ﴿قَدْرُه﴾.
البقرة	٢٣٧	﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: القراءات فيها كالتي في الآية السابقة (٢٣٦).
البقرة	٢٤٠	﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾: ● قرأ برفع ﴿وَصِيَّةٌ﴾: المدنيان (نافع وأبو جعفر) والمكي (ابن كثير) وشعبة والكسائي ويعقوب، وخلف في اختياره. ● وقرأ باقي القرّاء بنصب التاء ﴿وَصِيَّةً﴾.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	٢٤٥	﴿قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ﴾ بألف بعد الضاد وتخفيف العين ونصْب الفاء: عاصم.
		● وقرأ كذلك ولكن برفع الفاء ﴿فَيُضَاعِفُهُ﴾: نافع وأبو عمر وحمزة والكسائي وخلف.
		● وقرأ ﴿فَيُضَعِّفُهُ﴾ بحذف الألف وتشديد العين ورفع الفاء: ابن كثير، وأبو جعفر.
		● وقرأ كذلك ولكن بنصب الفاء ﴿فَيُضَعِّفَهُ﴾: الشامي (ابن عامر) ويعقوب.
البقرة	٢٤٥	﴿يَبْسُطُ﴾ بالسين: قنبل عن ابن كثير، وأبو عمرو، وهشام عن ابن عامر الشامي، وحفص عن عاصم، ورويس عن يعقوب، وخلف عن حمزة، وخلف أيضاً في اختياره.
		● وقرأ ﴿يَبْصُطُ﴾ بالصاد: نافع، والبزّي عن ابن كثير، وشعبة عن عاصم، والكسائي، وأبو جعفر، وروح عن يعقوب.
		● وقرأ بالصاد والسين: ابن ذكوان عن ابن عامر، وخلّاد عن حمزة.
البقرة	٢٤٥	﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بضمّ التاء وفتح الجيم: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم ﴿تَرْجِعُونَ﴾.
البقرة	٢٤٦	﴿هل عَسَيْتُمْ﴾ بفتح السين: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ نافع بكسر السين ﴿عَسِيتُمْ﴾.
البقرة	٢٤٩	﴿فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا﴾ بإسكان ياء المتكلم وصلاً: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ بفتحها ﴿مِنِّيَ﴾: المدنيان (نافع وأبو جعفر) وأبو عمرو.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	٢٤٩	﴿إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غَرْفَةً﴾ بفتح غين ﴿غَرْفَةً﴾: نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. ● وقرأ باقي القرّاء بضم الغين ﴿غُرْفَةً﴾.
البقرة	٢٥١	﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ بفتح دال ﴿دَفْعُ﴾ وإسكان الفاء من غير ألف بين الدال والفاء: لجمهور القراء. ● وقرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب ﴿دِفَاعُ﴾ بكسر الدال وفتح الفاء وألف بعدها.
البقرة	٢٥٣	﴿الْقُدُسِ﴾ بضمّ الدال: لجمهور القرّاء. ● وقرأ ابن كثير ﴿الْقُدْسِ﴾ بإسْكانِ الدال.
البقرة	٢٥٤	﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ برفع ﴿بَيْعٌ﴾ و ﴿خُلَّةٌ﴾ و ﴿شَفَاعَةٌ﴾ مع التنوين: لجمهور القرّاء. ● وقرأ بفتحها من غير تنوين: ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب.
البقرة	٢٥٨	﴿إِبْرَاهِيم﴾ في الثلاثة للجمهور. ● وقرأ ﴿إِبْرَاهَام﴾: هشام، ورواية عن ابن ذكوان.
البقرة	٢٥٨	﴿رَبِّيَ الَّذِي﴾ بفتح ياء المتكلم وصلاً وإسكانها وقفاً: لجمهور القرّاء. ● وقرأ حمزة بإسكانها مطلقاً.
البقرة	٢٥٨	﴿أَنَا أُحْيِي﴾ بحذف ألف ﴿أنا﴾ وصلاً وإثباتها وقفاً: لجمهورالقرّاء. ● وقرأ نافع وأبو جعفر بإثبات الألف في الحالين.

تابع جدول حول القراءات العشر (في الفرشيات)

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	٢٥٩	﴿نُنْشِزُهَا﴾ بالزاي: لابن عامر، والكوفيين (عاصم وحمزة والكسائي وخلف).
		● وقرأ باقي القرّاء بالرّاء ﴿نُنْشِرُها﴾.
البقرة	٢٦٠	﴿رَبِّ أَرِني﴾ بكسر راء ﴿أَرِني﴾: لجمهور القراء.
		● وقرأ ابن كثير، والسوسي عن أبي عمرو، ويعقوب، بإسكان الراء ﴿أَرْني﴾.
		● وقرأ الدوري عن أبي عمرو باختلاس كسرة الراء.
البقرة	٢٦٠	﴿فَصُرْهُنَّ﴾ بضم الصاد: لجمهور القرّاء، فالراء عليه مفخمة.
		● وقرأ حمزة وخلف وأبو جعفر ورويس بكسر الصاد ﴿فَصِرْهُنَّ﴾ فالراء عليه مرققة.
البقرة	٢٦٠	﴿جُزْءاً﴾ بإسكان الزاي وبالهمز منوناً: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ شعبة بضم الزاي ﴿جُزُءاً﴾.
		● وقرأ أبو جعفر بحذف الهمز وتشديد الزاي ﴿جُزًّا﴾.
		● ولحمزة في الوقف نقل حركة الهمزة إلى الزاي مع حذف الهمزة وإبدال التنوين ألفاً ﴿جُزاً﴾.
البقرة	٢٦١	﴿واللَّهُ يُضَاعِفُ﴾ بفتح الضاد وألف بعدها: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: ﴿يُضَعِّفُ﴾ بحذف الألف وتشديد العين.
البقرة	٢٦٢	﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بضم الفاء مع التنوين: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ يعقوب بفتح الفاء دون تنوين ﴿وَلَا خَوْفَ﴾.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	٢٦٤	﴿رِئَاءَ النَّاس﴾ بالهمز: لجمهور القراء. ● وقـرأ أبو جعفـر ﴿رِيَاءَ﴾ بـإبدال الهمـزة الأولى ياءً خـالصـة وصـلاً ووقفـاً. وكذلـك حمزة عنـد الوقف فقط، ولـه في الهمزة الثـانية مـع هشام الإبدال مـع الأوجه الثلاثة.
البقرة	٢٦٥	﴿مَرْضَاتِ﴾: وقف الكسائي عليها بالهاء، ووقف باقي القراء بالتاء.
البقرة	٢٦٥	﴿بِرَبْوَة﴾ بفتـح الراء: لابن عامر وعاصم. وقرأ باقي القرّاء بضمّ الراء: ﴿برُبْوَة﴾.
البقرة	٢٦٥	﴿أُكُلَها﴾ بضمّ الكاف: لجمهورالقُرّاء. ● وقرأ نافـع وابن كثير وأبو عمرو بإسكان الكاف ﴿أُكْلَهَا﴾.
البقرة	٢٦٩	﴿وَمَنْ يُـؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ بفتـح تاء ﴿يُـؤْتَ﴾: لجمهور القراء. ● وقرأ يعقوب بكسرها ﴿يُـؤْتِ﴾ وإذا وقف أثبت الياء ﴿يُؤْتي﴾.
البقرة	٢٧١	﴿فَنِعِمَّا هِي﴾ بكسر النون والعين: ورش وابن كثير وحفص ويعقوب. ● وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف بفتح النون وكسر العين ﴿فَنَعِمَّا﴾. ● وقرأ أبو جعفر بكسر النون وإسكان العين ﴿فَنِعْمَا﴾. ● وروي عن قـالـون والبصـري وشعبـة وجهـان: الأول كسـر النــون واختـلاس كسـرة العين. الثـاني كسـر النـون وإسكـان العين كقــراءة أبـي جعفر.
البقرة	٢٧١	﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ﴾ بالياء ورفـع ﴿ويُكَفِّرُ﴾: ابن عامر وحفص. ● وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وشعبة بالنون والرفـع ﴿وَنُكَفِّرُ﴾. ● وقرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بالنون والجزم ﴿وَنُكَفِّرْ﴾.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	٢٧٣	﴿يَحْسَبُهُمْ﴾ بفتح السين: ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر.
		● وقرأ باقي القراء بكسر السين ﴿يَحْسِبُهُمْ﴾.
البقرة	٢٧٤	﴿وَلَا خَوفٌ﴾ بضم الفاء مع التنوين: لجمهور القراء.
البقرة	٢٧٧	● وقرأ يعقوب بفتح الفاء دون تنوين ﴿وَلَا خوفَ﴾.
البقرة	٢٧٩	﴿فَأْذَنُوا﴾ بإسكان الهمزة وفتح الذّال: لجمهور القرّاء. ● وقرأ شعبة وحمزة بفتح الهمزة وألف بعدها وكسر الذال ﴿فَـآذِنُوا﴾. ● وأبدل ورش والسوسي وأبو جعفر وصلاً ووقفاً. ولحمزة فيها وقفاً التحقيق والتسهيل.
البقرة	٢٨٠	﴿ذو عُسْرَةٍ﴾ بإسكان السين: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ أبو جعفر بضمّ السين: ﴿عُسُرَةٍ﴾.
البقرة	٢٨٠	﴿مَيْسَرَةٍ﴾ بفتح السين: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ نافع بضمّ السين: ﴿مَيْسُرَةٍ﴾.
البقرة	٢٨٠	﴿وَأَنْ تَصَدَّقَوا﴾ بتخفيف الصاد: عاصم فقط.
		● وقرأ باقي القرّاء بتشديد الصاد: ﴿تَصَّدَّقُوا﴾.
البقرة	٢٨١	﴿واتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ﴾ بضم تاء ﴿تُرْجَعُون﴾ وفتح الجيم: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالبناء للفاعل: ﴿تَرْجِعُونَ﴾.
البقرة	٢٨٢	﴿أَنْ تَضِلَّ﴾ بفتح همزة ﴿أَنْ﴾: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ حمزة [إِنْ تَضِلَّ] بكسر الهمزة.

السورة	رقم الآية	القراءات
البقرة	٢٨٢	﴿فَتُذَكِّرَ﴾ بتشديد الكاف ونصب الراء: لجمهور القراء.
		● وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بإسكان الذال وتخفيف الكاف ونصب الراء: ﴿فَتُذْكِرَ﴾. من أذكر يُذْكر.
		● وقرأ حمزة كالجمهور مع رفع الراء ﴿فَتُذَكِّرُ﴾.
البقرة	٢٨٢	﴿إلّاَ أَنْ تكونَ تِجَارَةً﴾ بنصب ﴿تجارةً﴾: لعاصم فقط.
		● وقرأ باقي القراء: ﴿تِجَارَةٌ﴾ بالرفع.
البقرة	٢٨٢	﴿وَلاَ يُضَارَّ﴾ بتشديد الراء مع الفتح: لجمهور القراء.
		● وقرأ أبو جعفر بتخفيف الراء وإسكانها: ﴿وَلا يُضَارْ﴾.
البقرة	٢٨٣	﴿فَرِهَانٌ﴾ بكسر الراء وهاء مفتوحة بعدها ألف: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم الراء والهاء من غير ألف ﴿فَرُهُنٌ﴾.
البقرة	٢٨٤	﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ برفع راء ﴿فيغْفِرُ﴾ وباء ﴿ويُعَذِّبُ﴾: ابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب.
		● وقرأ باقي القرّاء بِجَزْمهما ﴿فَيَغْفِرْ﴾ ـ ﴿ويُعَذِّبْ﴾.
البقرة	٢٨٥	﴿وَكُتُبِهِ﴾ بالجمع: لجمهور القراء.
		● وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالإفراد ﴿وَكِتَابِهِ﴾.
البقرة	٢٨٥	﴿لاَ نُفَرِّقُ﴾ بالنون: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ يعقوب بالياء ﴿لاَ يُفَرِّقُ﴾.

انتهت سورة البقرة

السورة	رقم الآية	القراءات
		﴿سورة آل عمران﴾
آل عمران	١٢	﴿سَتُغْلَبُونَ وتُحْشَرُونَ﴾ لجمهور القراء بتاء الخطاب فيهما.
		● وقرأ حمزة والكسائي وخلف بياء الغيبة فيهما ﴿سَيُغْلَبُونَ ويُحْشَرونَ﴾.
آل عمران	١٣	﴿يَرَوْنَهُمْ﴾ بياء الغيبة: لجمهور القراء.
		● وقرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب ﴿تَرَوْنهم﴾ بتاءالخطاب.
آل عمران	١٣	﴿مِثْلَيْهِمْ﴾ بكسر هاء الضمير مطلقاً: لجمهور القراء.
		● وقرأ يعقوب بضم هاءالضمير ﴿مِثْلَيْهُمْ﴾ وصلاً ووقفاً.
آل عمران	١٥	﴿وَرِضْوَانٌ﴾ بكسر الراء: لجمهور القرّاء.
		● وقرأ شعبة عن عاصم بضم الراء ﴿وَرُضْوانٌ﴾.
آل عمران	١٩	﴿إِنَّ الدّينَ﴾ بكسر همزة (إنَّ): لجمهور القراء.
		● وقرأ الكسائي بفتح الهمزة ﴿أَنَّ الدِّينَ﴾.
آل عمران	٢٠	﴿وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ بفتح ياءالمتكلّم: نافع وأبو جعفر وابن عامر وحفص.
		● وقرأ باقي القرّاء بإسكان الياء.
آل عمران	٢٠	﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ بكسر نون ﴿اتَّبَعَنِ﴾ دون ياء بعدها: لأكثر القراء.
		● وقرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو بإثبات الياء وصلاً فقط ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي وقُلْ﴾ وبحذفها وقفاً.
		● وقرأ يعقوب بإثبات الياء وصلاً ووقفاً.

السورة	رقم الآية	القراءات
آل عمران	٢١	﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ من الناس﴾: ● قرأ ﴿يَقْتُلُونَ﴾ من قَتَلَ: جمهور القراء. ● وقرأ ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ مِنْ قَاتَلَ حمزة فقط.
آل عمران	٢٣	﴿لِيَحْكُمَ﴾ بالبناء للفاعل: جمهورُ القراء. ● وقرأ أبو جعفر ﴿لِيُحْكَمَ﴾ بالبناء للمفعول.
آل عمران	٢٧	﴿يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ بتشديد ياء المِيّت مكسورة فيهما: لأكثر القراء. ● وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم بإسكان الياء فيهما: ﴿الْمَيْت﴾.
آل عمران	٢٨	﴿أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾: ● ﴿تُقَاةً﴾ بضم التاء وفتح القاف وألف بعدها: لجمهور القراء. ● وقرأ يعقوب بفتح التاء وكسر القاف وتشديد الياء مفتوحة دون ألف بعدها: ﴿تَقِيَّةً﴾ على وزن «مَطِيَّة».
آل عمران	٣٠	﴿رَؤُفٌ﴾ بحذف الواو بعد الهمزة: أبو عمرو ويعقوب وشعبة عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف. ● وقرأ باقي القراء بإثبات الواو بعد الهمزة: ﴿رَؤُوفٌ﴾.
آل عمران	٣٥	﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيَ إِنَّكَ﴾ بفتح ياء المتكلم: نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. ● وقرأ باقي القراء بإسكانها، فيصير المدّ عندهم مدّاً منفصلاً.

السورة	رقم الآية	القراءات
آل عمران	٣٦	﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ بفتح عين ﴿وَضَعَتْ﴾ وإسكان التاء بعدها: لجمهور القرّاء. ● وقرأ ابن عامر وشعبة عن عاصم ويعقوب بإسكان العين وضم التاء بعدها: ﴿وَضَعْتُ﴾.
آل عمران	٣٦	﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا﴾ بإسكان ياء المتكلم: لجمهور القراء. ● وقرأ نافع وأبو جعفر بفتح الياء: ﴿وَإِنِّيَ أُعِيذُها﴾.
آل عمران	٣٧	﴿وَكَفَّلَهَا﴾ بتَشديد الفاء: عاصم وحمزة والكسائي وخلف. ● وقرأ باقي القرّاء بتخفيف الفاء: ﴿وَكَفَلَهَا﴾.
آل عمران	٣٧	﴿زَكَرِيًّا﴾ بالقصر من غير همز: حفص وحمزة والكسائي وخلف. ● وقرأ حمزة بالمدّ مع الهمز المنصوب ﴿زَكَرِيَّاءَ﴾. ● وقرأ باقي القراء بالمدّ مع الهمز المرفوع ﴿زَكَرِيَّاءُ﴾ هذا حكم كلّ من ﴿وكفلها﴾ و﴿زكريا﴾ إذا انفردتا أما إذا اجتمعتا: ﴿وَكفّلها زكريا﴾ فكما يلي: ● نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبوعمرو ويعقوب وابن عامر فبتخفيف الفاء، وبالمدّ مع الهمز ورفعه. ● وشعبة بتشديد الفاء وبالمدّ مع الهمز ونصبه. ● وحفص وحمزة والكسائي وخلف بتشديد الفاء مع القصر دون همز.
آل عمران	٣٩	﴿فَنَادَتْهُ﴾ بتاء ساكنة بعد الدال: لجمهور القراء. ● وقرأ حمزة والكسائي وخلف بألف ساكنة بعد الدال بدل التاء ﴿فناداه﴾.

السورة	رقم الآية	القراءات
آل عمران	٣٩	﴿يُبَشِّرُكَ﴾ بضمّ الياء وفتح الباء وكسر الشين مُشَدَّدَة: لجمهور القراء. ● وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وإسكان الباء وضمّ الشين مخفّفة: ﴿يَبْشُرُكَ﴾.
آل عمران	٤١	﴿اجْعَلْ لِيَ﴾ بفتح ياء المتكلم: نافع وأبو جعفر وأبو عمرو. ● وقرأ باقي القراء بإسكانها ﴿اجْعَلْ لِي﴾.
آل عمران	٤٥	﴿يُبَشِّرُكِ﴾ ﴿يَبْشُرُكِ﴾ كما في الآية (٣٩).
آل عمران	٤٧	﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ بضم نون ﴿فيكونُ﴾: لجمهور القراء. ● وقرأ الشامي (ابن عامر) بفتحها: ﴿فَيَكُونَ﴾.
آل عمران	٤٨	﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ بالياء في ﴿ويُعَلِّمُهُ﴾: نافع وعاصم وأبو جعفر ويعقوب. ● وقرأ باقي القرّاء بالنون ﴿وَنُعَلِّمُهُ﴾.
آل عمران	٤٩	﴿أَنِّي أَخْلُقُ﴾ بفتح همزة ﴿أَنِّي﴾: لجمهور القراء. ● وقرأ نافع وأبو جعفر بكسرها ﴿إِنِّي﴾. ● وفتح ياء المتكلم نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وابن كثير. ● وأسكن ياء المتكلم فيها باقي القراء.
آل عمران	٤٩	﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ أبو جعفر ﴿كَهَيْئَةِ الطَّائِرِ﴾ بألف بعد الطاء وهمزة مكسورة بعدها.

تابـع جدول حول القراءات العشر (في الفرشياتا)

السورة	رقم الآية	القراءات
آل عمران	٤٩	﴿فَيَكُونُ طَيْراً﴾ : لأكثر القراء. ● وقرأ نافـع وأبو جعفر ويعقوب : ﴿فَيَكُونُ طائراً﴾ .
آل عمران	٤٩	﴿فِي بُيُـوتِكُمْ﴾ بضم البـاء : ورش وأبـو عمـرو ويعقـوب وحفص وأبو جعفر. ● وقرأ باقي القراء بكسر الباء [فِي بِيُوتِكُمْ﴾ .
آل عمران	٥٠	﴿وَأَطِيعُونِ﴾ بحذف ياء المتكلم : لجمهورالقراء. ● وقرأ يعقوب بإثبات الياء وصلاً ووقفاً : ﴿وَأَطِيعُونِي﴾ .
آل عمران	٥٢	﴿مَنْ أَنْصَارِي﴾ بإسكان ياء المتكلم : لجمهور القراء. ● وقرأنـافـع وأبو جعفر بفتـح الياء ﴿مَنْ أَنْصَارِيَ﴾ .
آل عمران	٥٥	﴿ورَافِعُـكَ إِلَيَّ﴾ ـ ﴿ثُمَّ إِلَيَّ﴾ : وقف يعقـوب على اليـاء بهـاء السكت. ● ووقف باقي القرّاء على الياء المشدّدة فيهما.
آل عمران	٥٧	﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بالياء التحتيّة : حفص عن عاصم، ورويس عن يعقوب. ● وقرأ باقي القراء بالنون : ﴿فَنُوفِّيهِمْ﴾ . ● وضمّ يعقوب الهاء.
آل عمران	٦١	﴿لَعْنَتَ﴾ : وقف ابن كثير وأبـو عمـرو ويعقـوب والكسـائي بـالهـاء ﴿لَعْنَهْ﴾ . ● ووقف باقي القراء بالتاء ﴿لَعْنَتْ﴾ وهي لغة طيّـىء.
آل عمران	٦٢	﴿لَهُوَ﴾ بضم الهاء لأكثر القراء. ● وأسكن الهاء : قالون عن نافـع وأبو جعفر وأبو عمرو والكسائي. ● ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

السورة	رقم الآية	القراءات
آل عمران	٧٣	﴿أَنْ يُـؤْتَىٰ أَحَـدٌ مِثْلَمَا أُوتِيتُمْ﴾ بهمـزة واحـدة في [أن] على الخبـر: لجمهور القرّاء. ● وقرأ ابن كثير بزيادة همزة استفهام قبـل ﴿أن﴾ فتكون ﴿أَأَنْ﴾ مـع تسهيـل همـزة ﴿أن﴾ من غيـر إدخـال على مـذهبـه في الهمـزتين من كلمة.
آل عمران	٧٧	﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيهِمْ﴾ بكسر الهاء: لجمهور القراء. ● وقرأ حمزة ويعقوب بضمّ الهاء ﴿إِلَيْهُمْ﴾.
آل عمران	٧٧	﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ بكسر الهاء: لجمهور القراء. ● وقـرأ يـعـقـوب بـضـمّ الـهـاء ﴿وَلَا يُزَكِّيهُمْ﴾.
آل عمران	٧٨	﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ بفتـح السين: ابن عامر وحمزة وأبو جعفر. ● وقرأ باقي القرّاء بكسر السين: ﴿لِتَحْسِبُوهُ﴾.
آل عمران	٧٩	﴿تُعَلِّمُـونَ﴾ بضمّ التـاءوفتـح العين وكسـر الـلام مشـدّدة: ابن عـامـر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف. ● وقرأ باقي القـراء بفتـح التاء وإسكـان العين وفتـح اللام مخفّفـةً: ﴿تَعْلَمُونَ﴾.
آل عمران	٨٠	﴿وَلَا يَأْمُـرَكُمْ﴾ بفتـح الـراء : ابن عـامـر وعـاصم وحمـزة وخلف ويعقوب. ● وقـرأ نـافـع وأبـو جعفـر وابن كثيـر والكسـائي بـضـمّ الـراء ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾. ● وقرأ أبو عمـرو بخلف عن الدوري بـإسكان الـرّاء ﴿وَلَا يَأْمُـرْكُمْ﴾ والوجه الثاني للدوري عن أبـي عمرو اختلاس ضمة الراء.

السورة	رقم الآية	القراءات
آل عمران	٨٠	﴿أَيَأْمُرُكُمْ﴾ برفع الراء: لجمهور القرّاء. ● وقرأ أبو عمرو البصري بإسكان الرّاء ﴿أَيَأْمُرْكُمْ﴾ وروىٰ عنه الدوري أيضاً اختلاس ضمّة الرّاء.
آل عمران	٨١	﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾ بفتح لام ﴿لَمَا﴾: لجمهور القراء. ● وقرأ حمزة بكسر لام (لِمَا﴾.
ال عمران	٨١	﴿آتَيْتُكُمْ﴾ بتاءِ المفرد: لجمهور القراء. ● وقرأ نافع وأبو جعفر ﴿آتيناكُمْ﴾ بالنون بدل التاء وألف بعدها على التعظيم.
آل عمران	٨٣	﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ بياء الغيبة في ﴿يَبْغُون﴾: حفص وأبو عمرو ويعقوب. ● وقرأ باقي القراء بتاءالخطاب ﴿تَبْغُونَ﴾.
آل عمران	٨٣	﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ بياء الغيبة مضمومة مع فتح الجيم: حفص. ● وقرأ يعقوب بياء الغيبة مفتوحة مع كسر الجيم ﴿يَرْجِعُونَ﴾. ● وقرأ باقي القرّاء بتاءالخطاب مضمومة مع فتح الجيم ﴿تُرْجَعُونَ﴾.
آل عمران	٩١	﴿مِلْءُ الْأَرْضِ﴾ بإسكان لام ﴿مِلْء﴾ وهمزة مضمومة بعدها: لجمهور القرّاء. ● وقرأ ابن وردان عن أبي جعفر بنقل حركة الهمزة إلى اللّام، مع حذف الهمزة، فيصير النطق بلام مضمومة ﴿مِلُ﴾.
آل عمران	٩٣	﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ بفتح نون ﴿تُنَزَّلَ﴾ وتشديد الزاي، لأكثر القراء.

السورة	رقم الآية	القراءات
		● وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بإسكان النون وتخفيف الزاي: ﴿تُنْزَلَ﴾.
آل عمران	٩٧	﴿حِجُّ الْبَيْتِ﴾ بكسر حاء ﴿حِجُّ﴾: حفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف وأبو جعفر. ● وقرأ باقي القرّاء بفتح الحاء ﴿حَجُّ﴾.
آل عمران	١٠٩	﴿وإلى اللَّهِ تَرْجِعُ الأمور﴾ بفتح تاء ﴿تَرْجِعُ﴾ وكسر الجيم: ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف. ● وقرأ باقي القرّاء بضمّ التاء وفتح الجيم ﴿تُرْجَعُ﴾.
آل عمران	١١٢	﴿الْأَنْبِيَاءَ﴾: لجمهور القرّاء. ● وقرأ نافع بهمزة بدل الياء ﴿الْأَنْبِئَاءَ﴾.
آل عمران	١١٤	﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ بياء الغيبة في الفعلين: حفص وحمزة والكسائي وخلف. ● وقرأ باقي القراء بتاء الخطاب في الفعلين ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوهُ﴾.
آل عمران	١٢٠	﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بضمّ الضاد ورفع الراء مشدّدة: لجمهور القراء. ● وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر الضاد وجزم الرّاء: ﴿لا يَضِرْكُمْ﴾.
آل عمران	١٢٤	﴿مُنْزِلِينَ﴾ بإسكان النون وتخفيف الزاي المكسورة: لجمهور القراء. ● وقرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد الزاي ﴿مُنَزِّلِينَ﴾.
آل عمران	١٢٥	﴿إِنْ تَصْبِرُوا﴾ رقق ورش فقط الراء.

السورة	رقم الآية	القراءات
آل عمران	١٢٥	﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بكسر الواو المشدّدة: ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وعاصم. ● وقرأ باقي القرّاء بفتح الواوالمشدّدة ﴿مُسَوَّمِينَ﴾.
آل عمران	١٣٠	﴿أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً﴾ لأكثر القرّاء. ● وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ﴿أَضْعَافاً مُضَعَّفَة﴾ بحذف الألف وتشديد العين.
آل عمران	١٣٣	﴿وَسَارِعُوا﴾ بإثبات واو العطف: لجمهور القرّاء. ● وقرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بغير واو العطف ﴿سَارِعُوا﴾.
آل عمران	١٤٠	﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ بفتح قاف ﴿قَرْح﴾ فيهما: أكْثَرُ الْقُرَّاء. ● وقرأ شعبة عن عاصم، وحمزة والكسائي وخلف بضمّ القاف فيهما ﴿قُرْحٌ﴾.
آل عمران	١٤٥	﴿مُؤَجَّلاً﴾ بإثبات الهمزة: لجمهور القراء. ● وقرأ ورش وأبو جعفر بإبدال الهمزة واواً خالصة في الوصل والوقف ﴿مُوَجَّلاً﴾. وكذلك حمزة عند الوقف فقط.
آل عمران	١٤٦	﴿وَكَأَيِّنْ﴾ بهمزة مفتوحة وبعدها ياء مكسورة مشدّدة: لجمهور القراء. ● وقرأ ابن كثير وأبو جعفر بألف ممدودة بعد الكاف وبعدها همزة مكسورة ﴿وَكَائِنْ﴾ وحينئذٍ يكون المدّ من قبيل المتصل.
آل عمران	١٤٦	﴿نَبِيّ﴾ بياء مشدّدة: لجمهور القراء. ● وقرأ نافع بالهمز (نَبِيء﴾.

السورة	رقم الآية	القراءات
آل عمران	١٤٦	﴿قَاتَلَ﴾ على وزن فَاعَل: لأكثر القراء. ● وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بضم القاف وحذف الألف وكسر التاء ﴿قُتِلَ﴾.
آل عمران	١٥١	﴿الرُّعْبَ﴾ بإسكان العين: لأكثر القراء. ● وقرأ ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بضمّ العين ﴿الرُّعُبَ﴾.
آل عمران	١٥١	﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي: لجمهور القراء. ● وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بإسكان النون وتخفيف الزاي ﴿يُنْزِلْ﴾.
آل عمران	١٥٤	﴿يَغْشَىٰ﴾ بالياء التحتية: لأكثر القراء. ● وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالتاء الفوقية ﴿تَغْشَىٰ﴾.
آل عمران	١٥٤	﴿قُلْ: إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ بنصب ﴿كُلَّهُ﴾: لجمهورالقراء. ● وقرأ أبو عمرو ويعقوب برفع ﴿كُلُّه﴾. فخبر (إِنَّ) جملة (كلُّهُ لِلّه).
آل عمران	١٥٦	﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بتاء الخطاب: لأكثر القراء. ● وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بياء الغيبة ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.
آل عمران	١٥٧	﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ بضمّ الميم الأولى: لأكثر القراء. ● وقرأ نافع وحمزة والكسائي وخلف بكسر الميم ﴿أَوْ مِتُّمْ﴾.
آل عمران	١٥٧	﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ بياء الغيبة: لحفص عن عاصم. ● وقرأ باقي القراء بتاء الخطاب ﴿خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ﴾.

السورة	رقم الآية	القراءات
آل عمران	١٦٠	﴿يَنْصُرُكم﴾ بضمّ الراء: لجمهور القرّاء. ● وقرأ أبو عمرو (البصري) بإسكان الراء ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ وللدوريّ عنه وجه آخر وهو اختلاس ضمّ الراء.
آل عمران	١٦١	﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ بفتح الياءوضمّ الغين في ﴿يَغُلَّ﴾: ابن كثير وأبو عمرو وعاصم. ● وقرأ باقي القرّاء: ﴿أَنْ يُغَلَّ﴾ بضم الياء وفتح الغين.
آل عمران	١٦٢	﴿رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بكسر الراء: لجمهورالقرّاء. ● وقرأ شعبة عن عاصم بضم الراء ﴿رُضْوانَ اللَّهِ﴾.
آل عمران	١٦٤	﴿إِذْ بَعَثَ فيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ويُزَكِّيهِمْ﴾ بكسر هاء ﴿فيهِم ــ و ــ عليهِم ــ و ــ يُزَكِّيهِمْ﴾: لجمهور القراء. ● وقرأ يعقوب بضم الهاء في الثلاثة. ● وقرأ حمزة بضم الهاء في ﴿عَلَيْهُمْ﴾ فقط وكالجمهور في الباقي.
آل عمران	١٦٨	﴿مَا قُتِلُوا﴾ بتخفيف التاء: لجمهور القراء ﴿لَوْ أَطَاعُونا ما قُتِلُوا﴾. ● وقرأ هشام عن ابن عامر (الشامي) بتشديد التاء: ﴿مَا قُتِّلُوا﴾.
آل عمران	١٦٩	﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ بتاء الخطاب: لجمهور القراء. ● ولهشام عن ابن عامر (الشامي) وجه آخر وهو بياء الغيبة ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾. ● وبفتح السين ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ أو ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ حسب روايةالقارىء: عاصم وابن عامر (الشامي) وحمزة وأبو جعفر. ● وبكسر السين ﴿تَحْسِبَنَّ﴾: لباقي القراء.

السورة	رقم الآية	القراءات
آل عمران	١٦٩	﴿الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ بتخفيف التاء: لجمهور القرّاء. ● وقرأ ابن عامر بتشديد التاء ﴿الَّذِينَ قُتِّلُوا في سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
آل عمران	١٧١	﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ بفتح همزة ﴿أَنَّ﴾: لجمهورالقراء. ● وقرأ الكسائي بكسر الهمزة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾.
آل عمران	١٧٢	﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ﴾ بفتح قاف ﴿القَرْح﴾: لأكثر القراء. ● وقرأ شعبة عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف بضم القاف ﴿الْقُرْحُ﴾.
آل عمران	١٧٤	﴿رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بكسر الراء: لجمهور القراء. ● وقرأ شعبة عن عاصم بضمّ الراء ﴿رُضْوَانَ اللَّهِ﴾.
آل عمران	١٧٥	﴿وَخَافُونِ﴾ بحذف ياء المتكلّم: لجمهورالقراء. ● وأثبت الياء وصلاً فقط: أبو عمرو وأبو جعفر ﴿وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ﴾. ● وأثبت الياء في الحالين وصلاً ووقفاً يعقوب: ﴿وَخَافُونِي﴾.
آل عمران	١٧٦	﴿وَلَا يَحْزُنْكَ﴾ بفتح الياء وضم الزاي: لجمهور القراء. ● وقرأ نافع المدني بضم الياء وكسر الزاي: ﴿وَلَا يُحْزِنْكَ﴾ من أَحْزَنَ.
آل عمران	١٧٨	﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بياء الغيبة: لجمهور القراء. ● وقرأ حمزة فقط بتاء الخطاب ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾. ● وبفتح السين: قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر. ● وقرأ بكسر السين: باقي القراء ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ﴾.

السورة	رقم الآية	القراءات
آل عمران	١٧٩	﴿حَتَّى يَمِيزَ﴾ بفتح الياء فكسر الميم فياء ساكنة: لأكثر القراء. ● وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضمّ الياء ففتح الميم فياء مكسورة مشدّدة ﴿يُمَيِّزَ﴾.
آل عمران	١٨٠	﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الذين يَبْخَلُونَ﴾: ﴿يحسبنّ﴾ كالتي في الآية (١٧٨).
آل عمران	١٨٠	﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بتاءالخطاب: لأكثر القراء. ● وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بياء الغيبة: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.
آل عمران	١٨١	﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ونَقُولُ﴾ بنون مفتوحة وتاء مضمومة في ﴿سَنَكْتُبُ﴾ وفتح لام ﴿وَقَتْلَهُمْ﴾ ونون مفتوحة في ﴿وَنَقُولُ﴾: لجمهور القراء. ● وقرأ حمزة بصيغةالمبني للمفعول وبالياء بدل النون ﴿سَيُكْتَبُ﴾ وبرفع لام ﴿وَقَتْلُهُمْ﴾ وبياء الغيبة في ﴿وَيَقُولُ﴾ فتكون: ﴿سَيُكْتَبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقُولُ﴾.
آل عمران	١٨٤	● ﴿وَالزُّبُرِ والْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: لجمهور القراء. ● وقرأ هشام عن ابن عامر (الشامي): بزيادة الباء الجارة قبل (الزبر) وقبل (الكتاب): ﴿وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمنير﴾. ● وقرأ ابن ذكوان عن ابن عامر بزيادة الباء قبل (الزبر) فقط: ﴿وَبِالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.
آل عمران	١٨٧	﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ بتاء الخطاب في الفعلين: لأكثر القراء. ● وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة عن عاصم بياءالغيبة في الفعلين: ﴿لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمونَهُ﴾.

السورة	رقم الآية	القراءات
آل عمران	١٨٨	﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ﴾ ـ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ بتاء الخطاب مع فتح السين والباء في الفعلين: عاصم وحمزة. ● وقرأ الكسائي ويعقوب وخلف بتاء الخطاب مع كسر السين وفتح الباء في الفعلين: ﴿لَا تَحْسِبَنَّ﴾ ـ (فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ﴾. ● وقرأ ابن عامر (الشامي) وأبو جعفر بياء الغيبة في الفعل الأول، وتاء الخطاب في الفعل الثاني، مع فتح السين والباء فيهما: ﴿لَا يَحْسَبَنَّ﴾ ـ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾. ● وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة في الفعلين، مع كسر السين فيهما، ومع فتح الباء في الأول وضمّها في الثاني: ﴿لَا يَحْسِبَنَّ﴾ ـ ﴿فَلَا يَحْسِبُنَّهُمْ﴾. ● وقرأ نافع بياء الغيبة في الفعل الأول، وتاء الخطاب في الفعل الثاني، مع كسر السين وفتح الباء فيهما: ﴿لَا يَحْسِبَنَّ﴾ ـ ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّهُمْ﴾.
آل عمران	١٩٥	﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾: لأكثر القراء. ● وقرأ ابن كثير وابن عامر بتشديد تاء الفعل الثاني: ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِّلُوا﴾. ● وقرأ حمزة والكسائي وخلف بتقديم الفعل المبني للمفعول وتاء مخفّفة على الفعل المبني للفاعل: ﴿وَقُتِّلُوا وَقَاتَلُوا﴾.
آل عمران	١٩٦	﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ بتشديد نون التوكيد: لجمهور القراء. ● وقرأ رويس عن يعقوب بتخفيف النون ساكنة ﴿لَا يَغُرَّنْكَ﴾.

تابع جدول حول القراءات العشر (في الفرشيات)

السورة	رقم الآية	القراءات
آل عمران	١٩٨	﴿لَكِنِ الَّذِينَ﴾ بتسكين نون ﴿لكنْ﴾ مع تحريكها وصلاً بالكسر تخلّصاً من التقاء الساكنين: لجمهور القراء. ● وقرأ أبو جعفر (المدني) بتشديد النون مفتوحةً ﴿لَكِنَّ﴾.

انتهت سورة آل عمران

● ● ●

خاتمة الطبعة الأولى

أخي القارىء كتبت هذه القواعد بعد أن كنت دوّنتها ملاحظات خلال ممارستي الطويلة لتدبّر كتاب الله، ومطالعة كتب التفسير، وقراءة مفاهيم كثير من متدبّري هذا الكتاب العظيم المجيد الذي لا تفنى أعاجيبه، ولا يَخْلَقُ على كثرة الردّ.

فأرجو أن أكون قد وفّقت فيها إلى قواعد تهدي المتدبرين، وأن تكون هذه القواعد فاتحةلبناء «علم التدبّر» على ما يرضي الله تعالى، عسى أن تكون وسيلة تسديد وهداية، للباحثين الحريصين على فهم كتاب الله، وما تضمنه من علم جليل وهداية عظيمة.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل والحمد لله ربّ العالمين. وكان الفراغ منه في غرة شهر رمضان المبارك لعام ١٣٩٩ من هجرة مبلّغ الكتاب المجيد عن ربه، سيدنا ومولانامحمد بن عبد الله ﷺ.

مكة المكرمة في : ٢ رمضان ١٣٩٩ هجرية
و ٢٦ تموز ١٩٧٩ ميلادية

عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني

خاتمة الطبعة الثانية

بعد نحو ثمانية أعوام من إنجاز هذا الكتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزّ وجلّ» الذي ظهرت نواته في طبعتها الأولى بفضل الله ومنّه في (١٧٤) صفحة من القطع الصغير الذي يوضع كدفتر في الجيب، قضىٰ الله لي بإتمام فضله فألهمني أن أرتّب وأصنّف ما كنت قد جمعته خلال هذه المدّة من إضافات في القواعد والأمثلة، وأن أتوجّه لاستخراجات أُخْرَيَات فيهما، مستعيناً بالله عزّ وجلّ، وبصدق التوكّل عليه، واللُّجوء إليه بالدعاء، وأن أستأنف العمل في تصنيفه وترتيبه، فغمرني الله سبحانه بعطائه وفضله، فأتممت كتابة هذا السفر مساء يوم السبت الحادي والعشرين من شهر ربيع الثاني لسنة ١٤٠٨ هجرية، الموافق للثاني عشر من شهر كانون الأول لسنة ١٩٨٧ ميلادية.

فالحمد لله رب العالمين على ما أعطى ووفق وأفاض، وأسأله عزّ وجلّ أن يَمُنَّ عليّ بأن يجعلني من الشاكرين المحسنين، وأدعو بدعوة رسول الله سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحَاً تَرْضَاهُ وأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

مكة المكرمة في: ٢١/٤/١٤٠٨ هجرية
١٢/١٢/١٩٨٧ ميلادية

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الفهــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

(٩)

(١٤)

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
المثال السادس: في حذف جمل كثيرة: ﴿فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذّبوا بآياتنا فدمّرناهم تدميراً﴾	٢٦٢
المثال السابع: في حذف ما يقتضيه التناظر والتوازن والتكامل: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء...﴾	٢٦٣
المثال الثامن: في حذف ما يقتضيه التقابل والتناظر واللزوم: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم...﴾	٢٦٤
المثال التاسع: في حذف ما يقتضيه السياق وأدلّة أخرى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونّكم الله بشيء من الصيد...﴾	٢٦٦
المثال العاشر: في حذف ما يقتضيه بعض النص من دلالة: ﴿قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة...﴾	٢٦٦
المثال الحادي عشر: في حذف ما يقتضيه بعض النص من دلالة أيضاً: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾	٢٦٧
المثال الثاني عشر: في حذف ما يقتضيه التقابل والتناظر ﴿أمَّن هو قانت آناء اللّيل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة...﴾	٢٦٧
المثال الثالث عشر: في حذف ما يقتضيه التقابل والتناظر واللّزوم: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا: فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة...﴾	٢٦٩
المثال الرابع عشر: في حذفٍ تقتضيه الروابط العقلية واللزومات ودلالات نصوص أخرى واقتضاءات النصّ: ﴿كان الناس أمّة واحدةً فبعث الله...﴾	٢٧٠
المثال الخامس عشر: في حذف ما تقتضيه دلالات مذكورات في النصّ على محذوفات فيه: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا... (١٩٠) إلى (١٩٤)﴾ البقرة	٢٧٣
المثال السادس عشر: في محذوفات يدل عليها وتقتضيها مذكورات في النص: ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله... (٥٣)﴾ الأعراف	٢٧٥

الموضوع	الصفحة
المثال السابع عشر: في حذف ما تقتضيه أيضاً دلالات مذكورات في النصّ على محذوفات فيه: ﴿قل: من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق... (٣٢)﴾ الأعراف	٢٧٦
المثال الثامن عشر: في حذف ما تقتضيه أيضاً دلالات مذكورات في النصّ على محذوفات فيه: ﴿يقول الإنسان يومئذٍ: أين المفرّ؟ (١٠) كلاّ لا وزر (١١)... (١٢)﴾ القيامة	٢٧٦
المثال التاسع عشر: في الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر: ﴿ويقول الذين آمنوا: لولا نزّلت سورة... (٢٠)... (٢١)﴾ محمد	٢٧٧
المثال العشرون: في الحذف الذي يقتضيه النصّ ويدلُّ عليه بعض ما جاء فيه: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات، لا نكلف نفساً إلا وُسعها ـ أولئك أصحاب الجنة... (٤٢)﴾ الأعراف	٢٧٧
المثال الحادي والعشرون: في الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر، والحذف من الأواخر لدلالة الأوائل: ﴿يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم... (٢٧)﴾ الأعراف	٢٧٨
المثال الثاني والعشرون: في الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر: ﴿إذ قال الحواريون: يا عيسى ابن مريم... (١١٢)... (١١٣)... (١١٤)﴾ المائدة	٢٧٨
المثال الثالث والعشرون: في حذف ما يقتضيه التقابل والتكامل والتناظر بين الأوائل والأواخر، وما يفهمه الذهن من الفعل المتعدّي الذي لم يُذْكر معموله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم... (١٠)﴾ محمد	٢٨٠
المثال الرابع والعشرون: في المحذوفات التي تدلّ عليها أوائل النصّ وأواخره، ويدلّ عليها التقابل والتناظر والتكامل: ﴿أفمن كان على بينة من ربّه كمن زيّن له سوء عمله... (١٤)... (١٥)﴾ محمد	٢٨١

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
العلاقة الثانية: كون المسند إليه قد قام به الحدث الذي تضمّنه الفعل أو ما في معناه	٦٦٧
العلاقة الثالثة: كون المسند إليه هو المتسبّب بفعل الحدث الذي تضمّنه الفعل أو ما في معناه	٦٦٩
العلاقةالرابعة: كون المسنَد إليه هو الدّال أو الداعي أو الموجّه للقيام بما تضمّنه الفعل أو ما في معناه	٦٧٠
العلاقة الخامسة: كون المسند إليه قد نسب ما تضمّنه الفعل أو ما في معناه إلى فاعله أو من قام مقامه	٦٧٣
العلاقةالسادسة: كون المسند إليه قد وجد ما تضمنه الفعل أو ما في معناه وصفاً لمن قام، أو للشيء الذي قام به	٦٧٧
العلاقة السابعة: كون المسند إليه راغباً فيما تضمّنه الفعل أو ما في معناه	٦٧٩
خاتمة:	٦٨٠
١ ــ نظراً إلى اختلاف علاقات الإسناد فقد يأتي الإسناد مثبتاً باعتبار علاقة منها، ومنفيّاً باعتبار علاقة أُخرى	٦٨٠
٢ ــ يقع كثير من مفسّري النصوص القرآنية والحديثية بأغاليط فاحشة، ناشئة عن عدّة أمور	٦٨١
(٣٨)	
القاعدة الثامنة والثلاثون: «حول ما يُسمَّىٰ بالاستثناء المنقطع»	٦٨٣
المثال الأول: من سورة (طه): ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (٢) إلّا تذكرة لمن يخشىٰ (٣)﴾	٦٨٥
المثال الثاني: من سورة (الحديد): ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلّا ابتغاء رضوان الله... (٢٧)﴾	٦٨٦

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *